

محمد المخزنجي

جنوبًا وشرقًا

رحلات ورؤى

جنوباً و شرقاً

الطبعـة الأولى ٢٠١١

رقم الإيداع ٢٣٨١٢/ ٢٠١٠
ISBN 978-977-09-2948-9

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر القاهرة مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ ,٢٠٢, +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

محمد المخزنجي

جنوباً و شرقاً

رحلات ورؤي

دار الشروق

إهداء

إلى من دفعوا عني الضريبة القاسية على تمتعي بهذه الرحلات والوصول إلى هذه الرؤى، هؤلاء الذين تحمَّلوا غيابي عنهم بينما كنت أسافر وأرتحل تاركا إياهم يفتقدونني وهم في غربة؛ زوجتي الكريمة أحلام الفيصل التي تحمَّلت وحدها مسئولية الولدين الصغيرين آنذاك؛ الولدَيْن اللذَين صارا الآن شابين يستطيعان قراءة هذا الكتاب واستشفاف رؤاه؛ بسام وعلي.

المحتويات

تقديم

«الطريق يصنعه المشي» ، قول مأثور عميق المغزى، أكتشف الآن أنه بالِغ الوضوح والبساطة إذا ما تم الكشف عن بلاغته بممارسة فعلية، وهو ما حدث لي في علاقتي بالسفر والترحال، الذي أظن أنه كان غواية مبكرة جدا بدأت مع الطفل الذي كُنته في مدينة المنصورة؛ مدينة نشأتي ومدينة قلبي، فقد كنت المحرِّض لأولاد حتتنا الفقيرة على الخروج في رحلة أسبوعية كل يوم جمعة، نستكشف فيها أطراف المدينة التي كانت بعيدة على أقدامنا الصغيرة، وكان خيالي يُزين لأتراب الحي هذا الخروج، في سمت رحلات بزاد من الطعام والماء قليل، وعصي لزوم الدفاع عن أنفسنا ضد مفاجآت الأطراف التي تستكشفها رحلاتُنا، ثم كبرت الغواية مع تمردات المراهقة، بل شيء من بداياتها، فبدأتُ أخرج من المدينة إلى قرى المحافظة على ظهر قطار «الدلتا» الصغير بصحبة عدد قليل من أصحاب الطفولة، ثم جاءت الخطوة الأوسع، بالسفر فوق أسطح القطارات الكبيرة وفي كل الاتجاهات التي تشق هذه القطارات طريقها إليها، لماذا أسطح القطارات؟ ليس بسبب الفقر حقيقة، فقد كان والدي صاحبَ ورشة كبيرة وكريما معي بما يفوق كرم الأثرياء مع أولادهم، لكنه كان غليان التمرد في عروق هذا العمر المشتعل، وكانت زاوية الرؤية للعالم من مكان مرتفع ومنساب الحركة ومفتوح كسطح القطار بالغة الجاذبية والفرادة، تجربة غريبة وثرية الإيحاءات وفاتنة المخاطرة، خاصة وقد كانت أسطح القطارات أرحب وأنظف وأقل زحاما مما هي عليه الآن، ثم جاءت سنوات الكمون عندما صرت طبيبا ومُلزَما بالصورة النمطية للأطباء المُهندَمين المهذبين الذين لا يمتطون أسطح القطارات، وقد قلّص هذا الكمون من غواية الرحلة

عندي لسنوات، لأن الرحلة على ما يبدو لي الآن لم تكن سياحة، بل مغامرة وحياة، لكن فترات كمون الرحّالة لم تطُلْ كثيرا، فقد لاحت لي فرصة نادرة لمغادرة نشوة أسطح القطارات إلى طيران الطائرات وإبحار السفن...

كنت في الثلاثين عندما جاءتني منحة لدراسة الاختصاص الطبي في الاتحاد السوفيتي السابق، لكن طاقتي الجسدية والنفسية كانت لا تزال مفعمة بروح الولد الذي كُنته في المنصورة، ولم أفوت فرصة للسفر في أرجاء هذا البلد الذي كان هائلا في ترامیه، من شرق أوربا إلى غرب المحيط الهادي، ومن بحر البلطيق شمالا إلى البحر الأسود في الجنوب، لكن أجواء المجتمع المحكوم بمركزية ثقيلة وطابع بوليسي لم تُتح لي متعة المغامرة برحابة، فلم ترسب في ذاكرتي غير رحلات مبتسرة إلى بطرس برج وآلما آتا وأوديسا ودوشانبيه، لكن المغامرة الأكثر رحابة كانت هناك في محيط القرى والبلدات الأوكرانية التي تتمركز كييف في قلبها. وكانت هناك موسكو بالطبع. موسكو المدينة والأطراف. ولم تكن هذه كلها إلا خلفية في لوحة الرحلة في هذه المرحلة، لأن التكوين الأساسي في مشهدها كان على ظهر باخرة ركاب بيضاء اسمها «باشكيري».

دارت بي «باشكيري» البيضاء على امتداد شهر كامل في كل أو معظم موانئ البحر المتوسط، وبمائة دولار فقط لطلاب الدراسات العليا، هكذا كانت الدنيا في الاتحاد السوفيتي الذي اختفى واختفت أريحياته، فهذه السفينة كانت بمثابة فندق عائم، نأكل عليه ثلاث وجبات جيدة بما فيها مقبلات الكافيار بالزبدة، ونهبط كلما رست «باشكيري» على رصيف ميناء من موانئ المتوسط، بحيرة الحضارات العريقة الكُبرى، نقضي يوما أو يومين في كل مدينة ميناء، دون انقطاع عن حليب ومهاد سفينتنا الأم، وندور: فارنا، وبيريه، وإسطنبول، ونابولي، وملقا، ومارسيليا، وطنجة، والجزائر، وتونس، والإسكندرية، ولارناكا، واللاذقية، ثم العودة. ولم ترسخ في ذاكرتي من كل هذه الموانئ غير ملقا الإسبانية، وطنجة المغربية، والجزائر، واللاذقية، وأكثر من الجميع كانت إسطنبول. وهنا عرفت مكمن غوايتي، ومناط عشقي في هذا العالم، وهو ما أسفر عن نفسه بتهور عندما التحقت بأسرة تحرير مجلة العربي، وأثمر التحاقي هذه الرحلات التي يضمها هذا الكتاب.

كانت فاكهة «الشغل» في مجلة العربي الكويتية التي بدأتُ العمل معها في القاهرة قبل أن أنتقل إليها في الكويت، هي هذه الرحلات، أو الاستطلاعات، التي يتوالى عليها المحررون الأساسيون بالمجلة، وكانت الرحلة الأولى استثنائية تماما ومغامرة بكل المقاييس، وأراني مدينا بمفاجأتها لمدير تحرير العربي آنذاك، أنور الياسين،فبرغم أننا كنا نتعارك دائما عراكا وقف كثيرا على حواف الاشتباك، إلا أنني مكثت أحب هذا الإنسان بكل أطياف شخصيته الديناميكية العجيبة، وطيبته التي تحتاج لبعض الغوص تحت السطح لإدراكها، ويبدو أنه بهذه الديناميكية المشاكسة أراد أن يضعني في امتحان صعب، فاختار لي جنوب إفريقيا لتكون استطلاعي الأول، حيث لم يكن هناك صحفي عربي سبق له زيارتها، فقد كانت لا تزال تحت حكم الفصل العنصري، وإبان فترة المفاوضات بين مانديلا المُفرَج عنه حديثا وآخر الحكام البيض «ديكليرك»، وكان عصيا تصور الحصول على تأشيرة دخول صحفي لهذا البلد في ذلك الوقت، لكنني أذكر لأنور الياسين أيضا الوجه الآخر لمشاكساته، فقد بذل جهدا صادقا وموفقا لأحصل على تأشيرة دخولي جنوب إفريقيا من سفارتها في لندن، وكانت تلك هي البداية في الولع بالجنوب، ثم الشرق...

لقد قدَّمَتْ لي مشاكسة أنور الياسين، دون أن يدري أو يدري، مفتاح عالم اندفعتُ إليه عاشقا راغبا بكل جوارحي، وبقدر ليس يسيرا من حب المغامرة، بل المخاطرة، وبينما كان زملائي يتزاحمون على استطلاعات أوروبا، كنت أنا أختار إفريقيا وآسيا، حتى عندما تطلَّب العمل ضرورة أن أمُرَّ على أوربا، كنت أختار جنوبها وشرقها، باختصار صار الجنوب والشرق هو مدار ولعي وانتشائي في الاكتشاف والمتعة العقلية والروحية والجمالية والإنسانية جميعها، ومن الأمانة والوفاء أن أذكر أنني مدين في انطلاقي باتجاه هذه العوالم للكويت التي كانت تعاملني في هذه الاستطلاعات معاملة مواطنيها، ماديا، ودعما دبلوماسيا كان ضروريا في كثير من الأحيان، كما أنني أذكر لرئيسَي التحرير اللذين عملت معهما، الدكتور محمد الرميحي، والدكتور سليمان العسكري، أنهما كانا ديموقراطيَّيْن معي تماما: فقد تركاني أختار بنفسي معظم ـ إن لم يكن كل ـ هذه الرحلات، ربما أيضا مع ديموقراطيتهما أنهما أدركا جِدّيتي في هذه الاختيارات التي كان كثير منها خطِرا ومجهول الملامح، كما أنهما كمسئولَيْن عن عمل

إعلامي كانا يُقدِّران أن في هذا الشطط فائدة للمطبوعة التي يرأسان تحريرها، وقد تحقق ذلك أكثر من مرة في أكثر من سبق صحفي جنيته وجنته العربي بالطبع، في استطلاع جنوب إفريقيا تحت نظام الفصل العنصري، ثم ناميبيا التي سبقنا بها مطبوعة عالمية كالنيوز ويك، وكان السبق الصحفي على مستوى العالم العربي مشهودا، فاستطلاعات بلدان ما يسمى بالهند الصينية، لاوس وكمبوديا وميانمار وفيتنام، كما استطلاعات إفريقيا الجنوبية؛ جنوب إفريقيا وناميبيا وزيمبابوي، والبوسنة التي كان وقف إطلاق النار بادئا فيها بالكاد، وألبانيا التي كانت علامة استفهام وبقعة غامضة في منطقة البلقان، كل هذه تحقق بها للمجلة، ولي بالطبع، سبق صحفي متكرر ومشهود. أما الجزء الخاص جدا بي ككاتب للرحلة، فكان طبيعة الطريق الذي صنعته وكشفت عنه كل تلك الخطوات التي خطوتها باختيار وإصرار، والنزوع العقلي والنفسي والروحي والجمالي، القوية كلها، في عشق الجنوب والشرق...

ولمعرفة مدى قوة هذا النزوع، فإنني أوجه لنفسي سؤالا علنيا بسيطا كاشفا: «لو أُتيحت لك الفرصة من جديد للترحال، فأي البلاد ستختار لزيارتها؟ وأيّ من بين هذه البلاد تود لو تعيش فيها إن قُدِّر لك أن تختار العيش خارج مصر؟».

وإجابتي من داخلي، من العمق العاطفي والجمالي والفكري في ذاتي، هي: أختار البلدان التي زرتها في إفريقيا وآسيا وجنوب وشرق أوربا، وأختار لو أزور أمريكا الجنوبية التي لم يكن لي حظ زيارتها، باختصار لا أختار أمريكا ولا الغرب كله، بل أختار الجنوب والشرق، وأهيم عشقا ببلدات صغيرة في الجنوب والشرق أحب لو أعيش فيها لو قُدِّر لي أن أختار إضافة للمنصورة المصرية وحمص السورية: سواكابوند بناميبيا، ومراكش بالمغرب، وسيم ريب بكامبوديا، وأورجوب بتركيا، وجايبور في الهند، ولوانج برابانج في لاوس، وفوينتسا بالبوسنة،... وهكذا.

هكذا، لأنني بصراحة أرانا مُتخمين بالغرب، وهذا الغرب الذي زرت كثيرا من مدنه، جميلة نعم، متمدينة نعم، متقدمة نعم، لكنني لم أشعر في أفضلها بالنسبة لي، كباريس وميونيخ، وكييف، وفيينا، إلا بالاغتراب، بشعور أصم وبارد يكاد يكون حاجزا بيني وبين ناس هذه المدن الغربية، شيء أشبه بالحاجز الزجاجي الذي يحسه طبيب نفسي

بينه وبين مرضى الفصام، لا أعني طبعا أن هذا الغرب ساحة للفصام والفصاميين، لكن أقصد هذه الطبيعة غير الدافئة تجاهنا ومعنا، وهي الشيء النقيض لطبيعة الناس في الجنوب والشرق اللذَيْن عشقت ترحالي في أرجائهما. ثم إن لديَّ مراراتي الخاصة تجاه الغرب الذي لم يغادر الفترة الاستعمارية إلا إلى فترة استعمار جديد، نوع من الأنانية والاستعلاء اللذَيْن لا أستطيع إبعادهما عن خاطري وأنا أهيم ببساطة، ورقة حال، ومروحة ألوان الجنوب والشرق الطبيعية الخلابة. ثم إن لي رأيا ظل موضع خلاف مع بعض أصدقائي من المثقفين، هو أنني لا أرى كل مدنية حضارة، فالحضارة هي سمت إنساني حي، يتعلق بروح البشر واختياراتهم المتآخية مع جماعاتهم ومع بيئاتهم، والمسالَمة مع الآخرين، وعدم تمييز الذات، والنفور من استغلال الغير أو استعمار بلاد الناس، هذه كلها سمات للحضارة كما أحسبها، وهي ما أراه غائبا عن حقيقة مدن الغرب فائقة التمدين، وما يشابهها خارج الغرب.. وإن كان ينحو منحاها، فتل أبيب مثلا مدينة بالتأكيد متمدينة، وربما فائقة التمدين، لكنها مدينة أبعد ما تكون عن الحضارة في أبعادها الإنسانية، بل هي وما يُدبَّر فيها مدينة معادية للإنسانية، ومتناقضة مع أهم ما في روح التحضر. وعلى شاكلتها كل المدن والعواصم التي تغض الطرف عن إجرامها اللاحضاري، ناهيك عن أن تدعمه.

وما دام ذلك كذلك، فإنني أحب أن أقول كلمتين في سر من أسرار ولعي أو عشقي للجنوب والشرق، وانحيازي لهما، فثمة فلسفة روحية، رؤية خلابة ورحيمة في ناس وبلدان ناس الجنوب والشرق، وقد فتحتُ عيون بصيرتي بقدر المتاح والمستطاع لالتقاط هذه الرؤى، وتأمُّلها في مرآة روحي، فكانت رؤى معكوسة لعلها أهم ما يميز هذه الاستطلاعات من وجهة النظر التقنية في نصوص الرحلة أو كتابة الرحلة، لهذا كانت رحلات ورؤى، آمل أن تكون ممتعة ونافعة لمن يتواصل معها.

محمد المخزنجي

القاهرة ـ نوفمبر ٢٠١٠

ناميبيا

جوهرة إفريقيا المنسية

خلجان شفافة لجحافل من طيور الفيلامينجو، وبرارٍ لأسراب الغزلان الطليقة، صحارى تنبثق منها واحات النخيل الاستوائي، وغابات تربتها حمراء تلامس السحب، مدن تحتفظ بعمارة القرن التاسع عشر الأوربية، وأرصفة تعج بمنحوتات العاج والأبانوس الإفريقي، حكومة سوداء بها وزراء بيض، ونموذج ديمقراطي يحترم التنوع، تراث غائر من القهر العنصري، ونزوع طيب لتجاوز الماضي نحو حاضر لا يعرف التفرقة، جامعة وليدة تتحدث بلغة العصر، وطلاب لم ينسوا جذورهم الإفريقية. هذه بعض من وجوه ناميبيا التي تشبه جوهرة يأتلق فيها مائة سطح وسطح، لكنها جوهرة منسية لقارة منسية، نسيناها نحن الذين تعودنا أن تكون مواسم هجرتنا نحو الشمال ومهاوي أفئدتنا نحو الشمال، بينما الجنوب الودود يزخر بألف بهجة وبهجة للبصر وللبصائر، وألف ألف نداء دافئ خجول. وكان لا بد من تلبية النداء، برغم خفوت الصوت وحياء المنادي.

الخطوة الأولى في رحلتنا الطويلة إلى ناميبيا، عبر ثلاث قارات، اختارها لنا الكمبيوتر! فخط الطيران المتاح في طريق الذهاب إلى وايند هوك ـ العاصمة الناميبية ـ كان يمر بفرانكفورت، وكانت مصادفة تردنا من الحاضر إلى الماضي، ومن الماضي القريب إلى الماضي البعيد، فناميبيا الهاجعة بين الرمل والمحيط كانت مستعمرة ألمانية. وبينما كانت طائرتنا تحلق فوق الأرض الألمانية استغرقني السؤال: ما الذي دفع بهؤلاء الألمان للذهاب إلى هناك، في أقصى جنوب الصحراء الإفريقية، ليلتهموا شريحة من الأرض تضرب أقدامها مياه المحيط الأطلنطي، وتسفع ذراها رياح الأوقيانوس، ويحيا على أعشابها ـ بعد مواسم المطر ـ الإنسان والحيوان والطير؟ ما الذي كان ينقصهم وقد كانت الأرض الألمانية ـ كما تبين لنا من نافذة الطائرة ـ باذخة الثراء، خضراء خضرة كثيفة، ولا تنقطع

عن الظهور في كنف خضرتها بحيرات بلا حصر وأنهر لا تكف عن الامتداد؟ إنه النهم الأوربي وروح المغامرة اللذان وضعا العالم بين ثنائية الاكتشاف والقسوة، ولم تفلت ناميبيا من هذه الثنائية رغم أنها ظلت ردحا من الزمان بعيدة عن شراهة أوربا الاستعمارية. كان شاطئها قاحلا فلم يُثر حمية التنافس الكولونيالي الأوربي الذي اشتعل في القرن الخامس عشر ـ قرن الكشوفات الجغرافية والمذابح ـ حتى عندما وطأت هذه الأرض أقدام البحارة البرتغاليين في ذلك القرن، لم يمكثوا فيها، بل أقاموا بعضا من صخور شاطئها كعلامات إرشادية لسفنهم الباحثة عن طريق إلى الهند عبر المحيط، ومضوا. من بعدهم لم يأت إلا صيادو الحيتان الأمريكيون ـ في القرن ١٨ ـ لكنهم لم يمكثوا أيضًا، استراحوا ومضوا. أما الألمان، فقد جاءوا في القرن التاسع عشر ليبقوا.

قطعة من كعكة العالم

كان قدر الألمان في ذلك الوقت لا يعطيهم إلا تلك القطعة المتروكة من كعكة العالم التي كانت تقتسمها أوربا الاستعمارية. مد الألمان سيطرتهم على هذه الأرض باستثناء خليج «والفز» الذي اتخذت منه بريطانيا ميناء يخدم مستعمرتها في «الكاب» (رأس الرجاء)، وظل ذلك الميناء تحت النفوذ البريطاني ثم آل إلى جنوب إفريقيا العنصرية حتى اللحظة التي واتانا فيها الحظ، وكنا حضورا في حفل عودة هذا الميناء إلى السيطرة الناميبية أثناء استطلاعنا. لقد بدأ هذا التزاحم الكولونيالي على هذه الأرض في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحتى عام ١٩٠٤ ظل أهل البلاد من القبائل الإفريقية مستمسكين بالصبر وبالسلام للحفاظ على استقلالهم، لكن الكولونياليين البيض لم يكونوا يقنعون إلا باستعباد السود أو إبادتهم. وبدأ التمرد الإفريقي فافتتح الأوربيون حمام الدم على هذه الأرض، لقد أبادت الكولونيالية الألمانية ٦٠٪ من سكان هذه البلاد الأفارقة في جولة تطهير عرقي واحدة قبل أن يأفل نجمها في الحرب العالمية الأولى. أنانيون هؤلاء الأوربيون ومحيرون أيضا، فبقدر قسوتهم يبدعون مدنا جبارة الرهافة والرفاهية، كانت هذه المفارقة هي الهاجس ونحن ننتظر في فرانكفورت طائرة الخطوط الجوية الناميبية لتقلنا إلى وايندهوك. كل هذا الحاضر كان يردنا إلى ماض بعيد شرس وملون كنا في الطريق لمعاينة آثاره على أرض بعيدة في قارة أخرى. أعترف

أنني كنت معبأً بالنفور من الجنس الأبيض وأنانيته التاريخية طوال الساعات الست التي قضيناها في فرانكفورت، لكن عندما ضمتنا قاعة الترانزيت تأهبا لركوب الطائرة الناميبية بدأت رؤيتي للرجل الأبيض تتبدل قليلا، فقد كان معظم ركاب الطائرة من الناميبيين البيض، أبناء وأحفاد الكولونياليين القدامى، كانوا شيئا مختلفا عن أقاربهم الذين نزلوا في ضيافتهم في فرانكفورت، كانوا ريفيين أكثر وأقل صرامة ويتحدثون بأصوات مرتفعة مرحة مع أبناء وطنهم السود، كانوا ناميبيين لفحتهم شمس إفريقيا بدفئها حتى لم تعد تعرف هل هم أفارقة بوجوه بيضاء أم أوربيون بأرواح إفريقية!

وركبنا الطائرة الناميبية التي فاجأتنا بنظافتها وكفاءتها إلى وايندهوك، في رحلة طيران استغرقت الليل كله، حتى أننا لم نر النهار إلا على الأرض الناميبية.

الأرض واسعة وأطماع البعض أوسع

«الإحساس بالحرية» ذلك هو ما يمنحه الانطباع الأول الذي يتكون مع أول خطوة على أرض هذه البلاد، سواء في مطارها الصغير الجميل فائق النظافة، أو على الطريق من المطار إلى قلب العاصمة، ولقد كان هذا الإحساس الذي قرأت عنه مثار نقاش في الطائرة مع أحد أفراد بعثة إذاعة وتليفزيون كولونيا الذاهبة لتسجيل لقاء مع الرئيس الناميبي «سام نوجوما»، أخبرني هذا الألماني الذي زار ناميبيا من قبل بهذا الإحساس الذي عاينه بنفسه مع كل زيارة لهذه الأرض، وأضاف: «إنه إحساس حقيقي وليس متخيلا»، ورحنا نبحث في سماء الليل ـ الذي لم يغمض لنا فيه جفن ـ عن سر هذا الإحساس؟ لعله انفساح الأفق الرحيب أمام البصر، أو ترامي صفحة السماء النقية، أو صمت الرمال وسكون الجبال المتعاقبة، نعم، إنه إحساس مختلف عما نحس به في مدن الزحام والضوضاء والعجلة، «الإحساس بالحرية» إحساس غريب يتناقض مع الفعل التاريخي الذي اقترفه الأوربيون على هذه الأرض والذي كان كعادتهم مدا لبساط حريتهم واختزالا لحرية الآخرين برغم أن هذا لم يكن مبررا أبدا، فالأرض ظلت واسعة وظل عدد السكان قليلًا، البيض والسود معا، فعدد سكان هذه الأرض الآن(*) يقدر بمليون ونصف مليون نسمة، بينما مساحتها

(*) عام ١٩٩٣.

تساوي ضعف مساحة ألمانيا. لكنها أنانية الأوربي الكولونيالي الذي كان يمارس أنانيته وضغائنه حتى على أرض الآخرين، فبعد أن ورثت بريطانيا ناميبيا عن ألمانيا المهزومة في الحرب الأولى، اقتطعت من قلب ساحلها ميناء يخدم مستعمرتها في رأس الرجاء، فيما أوكلت عصبة الأمم أمر هذا البلد لحكومة البيض في جنوب إفريقيا، ومن عصبة الأمم إلى الأمم المتحدة ـ بعد الحرب العالمية (الأوربية) الثانية ـ تجدد توكيل جنوب إفريقيا للسيطرة على ناميبيا، وراح النظام العنصري يمارس شروره في هذه الأرض، فقد قسمها إلى ٦٠٠٠ مزرعة ليمتلكها المستوطنون البيض وحدهم، أما السود فقد تحولوا إلى عمال أجراء تُحظر حركتهم عبر المدن إلا بتصريح عمل وجواز مرور! بينما النساء والأطفال والعجائز محرم عليهم مغادرة المعازل المخصصة للسود، وظل هذا الإهدار الفادح لحرية سكان البلاد الأصليين حتى بعد أن رفعت الأمم المتحدة يد جنوب إفريقيا عن ناميبيا بقرار الجمعية العامة سنة ١٩٦٦. وكان طبيعيا أن تولد حركة مقاومة إفريقية جمعتها منظمة «سوابو» (اختصار لكلمات: منظمة شعب جنوب غرب إفريقيا)، وكانت هذه الحركة تبحث عن الحرية للسكان السود والبيض على السواء، فقد كان البيض منهوبين أيضا من قبل نظام جنوب إفريقيا العنصري والشركات عابرة القارات التي تسيطر على تجارة الثروات المعدنية الباذخة لهذا البلد؛ الماس واليورانيوم والنحاس، إضافة للثروة السمكية والمراعي والحياة البرية. أكثر من ذلك كانت جنوب إفريقيا تستخدم ناميبيا كقاعدة انطلاق لشن حرب ليس للناميبيين فيها عير أو نفير، فقد كانت وحدات الجيش الجنوب إفريقية تجتاح هذه الأرض لمقاتلة القوات الكوبية في أنجولا التي تحررت بعد إعتاقها من النير البرتغالي عام ١٩٧٥، وكان ثمن هذه الحرب مدفوعا من جيوب الناميبيين ـ سودا وبيضا ـ على السواء، ويقدر بنحو ٤٨٠ مليون راند سنويا «١٦٠ مليون دولار تقريبا».

لهذه الأسباب كلها كانت حرب العصابات التي يشنها مقاتلو حركة «سوابو» ضد الاحتلال الجنوب إفريقي مؤثرة وتحظى بتأييد الناميبيين، وكان طبيعيا في لحظة من لحظات الهدنة بين قطبي النظام العالمي السابق ـ الاتحاد السوفييتي وأمريكا ـ أن تُعقد صفقة كانت ناميبيا هي الرابحة فيها، فقد عقدت بمباركة القطبين مباحثات ضمت كوبا وأنجولا وجنوب إفريقيا، تقرر على أثرها سحب قوات جنوب إفريقيا من ناميبيا وسحب

قوات كوبا من أنجولا. وفي نوفمبر ١٩٨٩ جرت انتخابات لحكم وطني في البلاد فازت فيها حركة «سوابو»، وبعد اتفاق بين جميع الأحزاب الناميبية وُضِع دستور جديد لنظام ديمقراطي متعدد الأجناس و«الألوان» في فبراير ١٩٩٠، ودشن الاستقلال الناميبي بانتخاب زعيم حركة سوابو الأسود «سام نوجوما» (ينطقونها نيوما) رئيسا لجمهورية ناميبيا في مارس ١٩٩٠، ورغم الصفة الإيديولوجية السابقة للرئيس نوجوما إلا أنه ينهج اليوم نهجا عمليا، فيقيم علاقات ودية مع كل جيرانه بمن فيهم أعداء الأمس، وروح التسامح هذه ليست فقط نوعا من الفطنة السياسية، إنها طبيعة الناس الذين تتسم ملامحهم برقة تشبه رقة الإريتريين والإثيوبيين ورهافة أعوادهم، ولقد شملتنا هذه الطيبة الصافية ابتداء من ابتسامة ضابط الجوازات المتمهل الودود، حتى عمال المطار ومندوب رئيس الجامعة الذي كان في انتظارنا مع الدكتور محمد الطوخي أستاذ الاقتصاد العربي في جامعة ناميبيا. كانا متطوعين باستقبالنا ولم يكونا مكلفين.

وكان كل شيء هادئا وصافيا في الطريق إلى وايندهوك التي تبعد عن المطار ثلاثين كيلومترا يمضيها الطريق صاعدا بين ضفتي رمال معشبة، وجبال تتوالى، وسكينة شاملة توحي لنا بسلام هائل يمتد من الآفاق الرحيبة حتى صدورنا التي ملأناها بهواء الصبح الإفريقي الشفيف.

قلب صغير في مهب الريح

دخلنا «وايندهوك» فتولانا العجب، وتبادلنا النظرات ـ زميلي المصور حسين لاري وأنا ـ وفهم سر نظراتنا الدكتور محمد الطوخي فابتسم مومئًا، نعم إنها مفاجأة، بل أكثر من المفاجأة، فالمدينة فائقة النظافة والدقة والتنسيق. تبدو قطعة من أوربا، بل أجمل، لأنها أوربا القرن التاسع عشر مُضافا إليها لمسات القرن العشرين مع روح مشرق يتجلى في بهجة الألوان ورقتها التي هي، لا بد، لمسة إفريقية مهذبة. وكانت نسائم أول الربيع «في نهاية أغسطس» تلفنا بانتعاش فتستدعي التساؤل: وأين الرياح؟ فالكلمة «وايندهوك» تعني ـ بالألمانية ـ ركن الرياح، أو: في مهب الريح. المدينة الفاتنة ترتفع ١٦٥٠ مترا فوق سطح البحر، تحيطها سلاسل جبال أواس وايروس، عمرها

منذ احتلها الألمان يقل عن مائة عام. وتزخر بملامح ثلاث ثقافات أوربية هي الألمانية بتأثير بناتها الكولونياليين، والهولندية بتأثير «الأفريكانيين» القادمين من جنوب إفريقيا، والإنجليز الوافدين من مستعمرة الكاب «رأس الرجاء»، وإضافة لتلك الثقافات الأوربية يوجد خليط ثقافات القبائل الإفريقية من الأوامبو «ساكني الشمال» والدمارا والناما والبوشمان والهيريرو «الذين تتميز نساؤهم بالطول الفارع والأجسام الوارفة والملابس الفيكتورية زاعقة الألوان». كل هذه الثقافات تنعكس في لغات مختلفة تسمع رنينها جميعا في شوارع قلب مدينة ويندهوك، وهو قلب صغير يكاد يتكون من شارع واحد هو شارع «الاستقلال» وتفرعاته، لكنه قلب رائع الجمال يجعلك تحس وكأنك تتحرك داخل حكاية خرافية ملونة. ورغم تنوع العمائر العصرية في هذا القلب إلا أن الطراز الغالب هو طراز العمارة الألمانية الكولونيالية. عمارة القرن التاسع عشر ذات الأبراج والباحات المليئة بالزهور والنوافذ المسدلة عليها ستائر الدانتيلا.

مدينة فاتنة تزخر واجهات محالها بمعروضات الماس الذي تنتج ناميبيا أفضل أنواعه «جم»، والمصنوعات الجلدية من فراء عجول البحر «الفقمة» وجلود النعام، إضافة لمنحوتات العاج وخشب الأبنوس الإفريقي. قلب صغير جميل هو قلب مدينة ويندهوك، لكنه لا يخلو من بعض الأسى، فهناك الأطفال السود الناحلون الذين يمدون إليك أياديهم بالسؤال، أو يتسولون بطريقة مبتكرة، فيقدمون لك كشفا به أسماء المتبرعين وجنسياتهم والمبالغ التي تبرعوا بها ويكون عليك أن تستجيب لإلحاحهم: «تبرع لمدرستنا بخمسة راندات أيها السيد»، ولقد كنت أتبرع، لا غفلة عن زيف الحيلة، ولكن إعجابا برقتها!!

إنها مفارقات القلب الصغير الفاتن لمدينة ويندهوك ـ ركن الرياح ـ التي اجتاحتها جماليات القرن التاسع عشر الأوربية وخلفت فيها أيضا آثار أنانية الأوربيين. ولقد كان علينا أن نغادرها في اليوم التالي لطواف واسع في جزء كبير من هذا البلد الرحيب. كان أمامنا طريقان إلى الساحل، إما طريق كوماس المرصوف جيدا والذي يشق طريقه بسهولة في السهل عبر أطراف صحراء كالهاري، أو طريق كوماس هوكلاند الدائري الممهد ـ ليس إلا ـ والذي لا يكف عن الانحدار بين سلاسل جبال لا تكف عن

التعاقب، ولقد أوصانا به ـ بعد أن تحدثنا عن الأدب والفن كثيرا ـ الدكتور بيتر كاتشا فيفي رئيس جامعة ناميبيا الذي تكرم بزيارتنا في الفندق فجعلنا نحس بلمسة راقية من روح التواضع الناميبي.

بيض وسود على الطريق

كان الطريق ممهدا وليس مسفلا، فكان الحصى يتطاير وينقر هيكل سيارتنا محكم الإغلاق بلا انقطاع، والغبار الأحمر يتصاعد من حولنا عند الوهاد، لكنه ينقشع مع صعودنا من جديد. فجأة لمحنا عبر الطريق المحمر ظلالا سوداء صغيرة تعبر من ضفة العشب إلى ضفة العشب، إنها قافلة من القردة عندما اقتربت السيارة منها أسرعت بالفرار، كانت تولي الأدبار وهي تتلفت وكأنها من بشرٍ أصابهم الذعر، ثم اختفت بين الشجيرات والعشب.

على هذا الطريق الوعر تجاوزنا عربة خشبية يجرها حصان مغبر ومهر إلى جواره، وعلى ظهر العربة كانت أم سوداء شابة وطفلاها يلوحان لنا بمرح. في هذا الوادي الجهم يعيشون، يجدون قوتهم القليل ولا تغيب عنهم روح الرضا وبهجة المودة، البؤس ليس بؤس العيش؛ إنه بؤس النفوس أولا وقبل كل شيء، وإفريقيا تراث هائل من وهج الشمس ودفء الروح، ولم يكن هذا التراث من الدفء وقفا على السود أبناء تلك الأرض وحدهم، بل امتد مُزيحا برودة الشمال التي أتى بها البيض الذين ابتدأوا بالمجيء غزاة ومغامرين ومستكشفين، فعلى جانبي هذه الطريق الوعرة نفسها كانت تقابلنا بين الحين والحين وعلى فترات متباعدة بساتين خضراء كثيفة الخضرة في عمق الوديان الرملية، وقررنا أن ندخل إلى إحداها رغم أننا عرفنا من سائقنا «بن» أنها مزرعة لأحد المستوطنين البيض.

دخلنا عبر الممر الترابي الممهد بين حائطي أشجار السرو فتكشَّف لنا البيت الأبيض الجميل ذو الطابق الواحد وعمارة القرن التاسع عشر الأوربية، حمام السباحة في ظل الأشجار، والحيطان مثقلة بالنباتات والزهور. رأينا مجموعة من العمال السود يلوذون بظل الفناء الخلفي. ومن باب جانبي تقدم منا صاحب الدار، رجل أبيض ضخم ذو

وجه محمر وعيون تختلط فيها الزرقة بالخضرة، خليط من عيون الهولنديين والألمان، «تحياتنا» بادرته، فأجابني: «مرحبا.. من أين أنتم»؟ حدثته عن مهمتنا وتساؤلاتنا فرحب بنا ودعانا للدخول إلى الدار لأخذ قسط من الراحة وتجرع شراب بارد يروي ظمأنا، ثم إن سيارتنا كانت في حاجة إلى مزيد من الوقود لمواصله الرحلة إلى الساحل، وتطوع كريما بأن يمدنا بهذا المزيد، وفي داخل البيت وجدنا القرن العشرين يعود إلى بداياته الأولى بإضافات من نهايته أيضا. أخبرني الرجل أنه ناميبي من أصول ألمانية، وأنه ورث هذه المزرعة عن أبيه، وهم في هذا المكان يعيشون في وطنهم الذي لا يعرفون وطنا غيره، يحصلون على الماء من بئر ينزحها محرك يعمل بطاقة طاحونة هوائية، ويحصلون على الكهرباء من مولد يعمل بالبنزين، يرعون الأغنام والأبقار بعد مواسم المطر وشبوب العشب، وفي مواسم الجفاف يعيشون مما اختزنوه ويفتحون دارهم كاستراحة للمسافرين. وقد رأينا في داخل الدار سبع غرف نضيدة نظيفة مجهزة لإقامة العابرين، وصالة للشاي والطعام وغرفة استقبال يبيعون فيها مصنوعات يدوية إفريقية ولوحات وقطعا فنية إفريقانية «نسبة إلى المستوطنين البيض في إفريقيا». وفي نهاية زيارتنا قدم لنا صاحب الدار وزوجته دفترا كبيرا لنوقع فيه. كتبنا في الخانات المخصصة أسماءنا وأسماء بلادنا وتوقيعاتنا واكتشفنا أننا العرب الوحيدون الذين مروا بالمكان بعد مئات العابرين الذين جاءوا من أوربا وأمريكا واليابان منذ عشرات السنين حتى يومنا، يلتمسون الهدوء ـ وقد كان سابغا ـ في دفء الشمس وفي البراح وفي بكارة الوديان الناميبية. وودعنا مضيفينا الناميبيين الأبيضين اللذين لم تلوِّح بشرتيهما شمس إفريقيا، وإن كانت قد ملأتهما بالمودة والدفء الريفي، وواصلنا رحلتنا على الطريق الموغل في الوعورة.

كان الطريق بين الجبال الحمراء والبنية يتلوى وينذر بالخطر، فأدنى خطأ يعني السقوط من حالق حيث تتحطم سيارتنا وننسحق داخلها دون مغيث قريب في هذا التيه الجبلي الذي يوحي بفترات ما قبل التاريخ، فترات طفولة الأرض وخوائها الموحش.

الطريق يتلوى بين الجبال وكلما ظننا أننا سنخرج من منحنى لندخل سهلا نجد أننا ندخل في منحنى جديد وتحدق بنا جبال أخرى، حتى أطبق يأس صامت على

أرواحنا وكأننا سنقضي في هذا المكان دون أن نخرج منه أبدا. لكننا بعد ثلاث ساعات قاسية وجدنا أنفسنا في السهل الفسيح حيث مراعي العشب التي تماس الأفق وتحدها على جانبي الطريق أسيجة الأسلاك الشائكة يلوح خلفها نعام شارد أو بضعة أبقار أو قطيع أغنام، وكنا كل بضعة كيلومترات نقابل على جانب الطريق مدخلا ولافتة تحمل اسما أوربيا. لمن هذه المراعي الفسيحة؟ إنها للبيض، ولماذا لم يمتلك أبناء الأرض السود شيئا منها؟ نسأل سائقنا «بن»، فيجيب: «لم يكن مسموحا للرجل الأسود بامتلاك مزرعة، لم يكن مسموحا». يجيب بن في تحسر رقيق يشي بالأسى لكنه لا ينبئ أبدا عن أية ذرة من الحقد، روح غريبة سنلمحها كثيرا فيما بعد كخصيصة من خصائص الناميبيين الذين لم يستطع النظام العنصري أن يشوه نفوسهم، رغم اكتوائهم بالكثير والمرير من نيران القسوة. ويلوح البحر قريبا ونلمح صواري وفنارات قديمة ولافتة على الطريق ضخمة يزحف عليها الصدأ لكننا نقرأ فيها: «والفزباي» «مرحبا بكم في جنوب إفريقيا». ولولا أننا تسلحنا بقدر من المعرفة لظننا أننا ضللنا الطريق، لا، إننا لم نضل الطريق، بل ندخل في بقعة من أضاليل التاريخ الكولونيالي العجيبة.

ميناء يعود إلى أرضه!

لعله لم يحدث في جغرافية الدنيا وتاريخها أن كانت هناك دولة يخضع ميناؤها الرئيسي لنفوذ دولة أخرى، ولا بد لأبناء البلد من الحصول على جواز سفر وتصريح حتى يمروا بميناء بلدهم أو يدخلوه!

كان ذلك وضع ميناء «والفزباي» الناميبي الذي يقع في صدر ناميبيا المفتوح على مياه الأطلنطي لكنه يعتبر جزءا من جنوب إفريقيا ويخضع لنفوذها، وقد تصادف أننا وصلنا إلى والفزباي في يوم فاصل من تاريخها، ففي هذا اليوم (٢٨ أغسطس ١٩٩٣) كانت جنوب إفريقيا ترفع يدها عن الميناء ليعود إلى وطنه، ويصير تحت السيادة الناميبية.

مررنا بالجزء الأوربي من المدينة ونحن نبحث عن مكان الاجتماع الذي يحضره وزير الخارجية مع سفراء من معظم دول العالم، ولم يدلنا أحد. في ضاحية البيض

كانت البيوت الجميلة ذات الحدائق الفاتنة تخلب ألبابنا، والطرقات حريرية ونظيفة. ثم دخلنا في مناطق السود القاحلة ذات البيوت البسيطة، والشوارع التي يكثر فيها الناس، وعند الاستاد الصغير لمحنا الزحام والأعلام وكانت أصوات مكبرات الصوت تعلو كلما اقتربنا، ترجلنا ـ زميلي المصور وأنا ـ ومضينا وسط بحر من المواطنين السود يتدفق باتجاه الملعب الذي يقام فيه الاحتفال، حاولوا منعنا عند البوابة حيث كانت تجرى عملية تفتيش محمومة وبدائية، وما أن عرفوا أننا صحافيون عرب حتى تركونا نمر بترحاب ومودة، وكان الملعب مليئا بالبشر في المدرجات، وفي جانب الملعب أقيمت منصة يجلس عليها الضيوف ويقف في صدرها الخطباء، صدحت موسيقى وغنى أطفال بيض وسود تحت المنصة. وبدأت الكلمات وكان الهتاف يدوي «ناميبيا واحدة، دستور واحد» مما يعني وحدة كل الناميبيين سودا وبيضا، لكن الملاحظ أن البيض كانوا غائبين عن الاجتماع وكانت الهتافات المدوية والأيادي التي ترفع قبضاتها المضمومة في الهواء، جميعا سوداء! فما زال البيض ـ أو أغلبهم ـ يتمترسون وراء عهد مضى، ويتشبثون بامتيازات عنصرية ولى زمانها، ومع ذلك كانت الحكومة السوداء تمد حبال الصبر إلى غايتها، فالهدف أن تظل «ناميبيا واحدة»، كان الهتاف يتكرر بين فقرات الخطب الحماسية احتفالا بعودة الميناء إلى أهله، وعَبْر غمرة الحماس الناميبي اجتزنا بحر البشر في منطقة الاستاد وعدنا إلى سيارتنا و«بن» الذي مكث ينتظرنا في الخارج، واتجهنا لنبيت في سواكابوند ونمضي فيها يومين. كنا على موعد مع الأطلنطي، ومدينة بديعة تتكسر عند أقدامها أمواج المحيط وعلى شواطئها يقيم مليونا طائر من الطيور البحرية.

مفرق رأس الفقمة

في صباح مدينة سواكابوند الرائق جاءت إلينا المرأة الدليل، سيدة عجوز من البيض وبصحبتها حفيدتها؛ فقد كان اليوم يوم أحد، والمدارس في عطلة، وواضح أن الطفلة تعلقت بجدتها الشغوف بها، ولكم ملأت أرواحنا صحبة هذه الصغيرة بالمسرة؛ فقد كانت عذبة وأليفة. ومضينا في الطريق إلى محمية الطيور البحرية على الساحل، والمرشدة العجوز تقود السيارة على مهل فوق جسور من الأرض الرملية بين الماء

والماء، إنها حقول الملح والطريق إليها يسمى طريق الملح، ونتوقف أمام بوابة خشبية تظهر وراءها ساحة يرتفع فيها تلان من الملح الأبيض الناصع، ونقرأ «شركة الملح المحدودة ـ يحظر الدخول إلا بتصريح خاص» ونزلت مونيكا الصغيرة لتفتح البوابة بالمفتاح الذي ناولتها إياه جدتها، إن الصغيرة تعرف المكان ولا بد أنها جاءت إليه مرات عديدة من قبل.

ندخل فتعود مونيكا الصغيرة وتغلق البوابة وراءنا وترجع إلى السيارة لننطلق على الشريط الساحلي بين خلجان للمياه وجسور بين هذه الخلجان، يستوعب اتساعها بالكاد مرور سيارتنا المبطئة غاية الإبطاء، فالجسور مغطاة بالطيور، نوارس وبط بري وقواديس داكنة، أما طيور البشروس «الفلامينجو» فقد كانت تقف على أقدامها الطويلة الرشيقة وسط مياه الخلجان الضحلة صانعة صفوفا مترامية الامتداد من هذه الطيور البيضاء التي تنعكس صورها على صفحة الماء بينما هي منتظمة في اتجاه واحد ميممة شطر جهة وغاية واحدة. وأسأل المرشدة عما إذا كانت هذه الطيور مقيمة أم مهاجرة عابرة، فتخبرني أن هذه الطيور مقيمة وآبدة وأن عددها في المنطقة يقدر بنحو مليوني طائر بحري. ولما أردنا أن نلتقط صورا للطيور أثناء تحليقها، أخبرتنا العجوز بالحيلة التي ينبغي علينا أن نتبعها وكانت مونيكا الصغيرة معنا. ترجلنا ورحنا نمشي محاذرين ببطء، وكان مفترضا أنه عندما نقترب من صف طيور الفلامينجو أن نصفق دفعة واحدة فيفزع السرب وينطلق طائرا، لكن الطيور خذلتنا فقد رحنا نصفق ونصفق، بل نتصايح، والعجوز تضرب زامور السيارة دون جدوى وتقول: «لقد صارت الطيور ذكية» فأقول لها: «ولعل الإنسان هو الذي صار أقل ذكاء» فتضحك، لكن طيور الفلامينجو في نهاية المطاف لم تحرمنا رؤية بهائها عند التحليق، فقد تسنى لنا أن نشاهدها وهي تنطلق محلقة ثلاث مرات فيما بعد، وهي إذ ترفرف تبين في أجنحتها صفوف الريش الأحمر المتوهج والأسود العميق، وعندما تطير نرى في الهواء أعلاما ثلاثية الألوان: أبيض وأحمر وأسود، تنطلق خفاقة مرفرفة وتنعكس صورتها الملونة على صفحة الماء.

راحت سيارتنا تمضي على مهل فوق الجسور الفاصلة بين حقول الملح والخلجان

الضحلة، ثم بدا أنه لا بد من نزول أحدنا لهش الطيور حتى تُفسح طريقا للسيارة، فقد كانت الجسور مغطاة بل مثقلة بالطيور، جحافل من الطيور، ونزلنا ثلاثتنا ـ مونيكا الصغيرة وأنا وزميلي حسين لاري ـ وكنا بالكاد نشق ركام الطيور ونبعدها حتى تمر سيارتنا لنعود من حيث أتينا. وفي طريق عودتنا توقفت المرشدة أمام عنابر ذات أسوار من الأسلاك وأسقف جمالونية من القصدير، وهبطت مونيكا ودخلت إلى أحد هذه العنابر وعادت ترينا شيئا بين يديها الصغيرتين، إنه المحار يربونه في مزارع سمكية لتقديم أطباقه في مطاعم المأكولات البحرية الكثيرة المنتشرة على ساحل الأطلنطي.

اجتزنا «طريق الملح» وأوغلنا في الشريط الساحلي المسمى «شاطئ الهياكل»، ربما لأن كثيرا من هياكل السفن القديمة كانت ترميها أمواج المحيط الأطلنطي لتنغرز في رمال الشاطئ، ولقد رأينا بضعة منها على مسافات متباعدة، وبعد ٢٥ كيلومترا وصلنا إلى محمية «مفرق رأس الفقمة»، ولم يكن هذا مفترق طريق لتلك الحيوانات البحرية وحدها بل كان مفترق طريق تاريخي في عمر هذه البلاد، فعند هذه البقعة من الساحل نزل البحار البرتغالي «ديوجو كاو» فكان أول أوربي تطأ قدماه الجزء الجنوبي من القارة الإفريقية، ومازالت أقدام أوربية كثيرة تخوض في هذه البقعة التي تحتشد على صخور شاطئها آلاف من حيوانات الفقمة التي رأيناها بالآلاف، تربض على الصخور مستندة على أقدامها الزعانف بينما رءوسها الصغيرة التي تشبه رءوس الجراء مرفوعة، دائمة الحركة، وعيونها السود المدوّرة تبدو محدقة في السحب وإن كانت منتبهة لتسلل أقدام مريبة.. أقدام صيادين تخوض مصوبة بنادقها كاتمة الصوت، المحشوة برصاصات خاصة جدا صغيرة وغير مدببة إلى رءوس هذه الحيوانات البحرية، والهدف هو قتل هذه الحيوانات دون تشويه جلودها التي ستتحول إلى معروضات ثمينة في أفخر محال الأزياء الأوربية، ومنطقة التصويب تكون عادة بقرب أذن هذا الحيوان الجميل البائس الذي يصدر صوتا كبكاء الأطفال. ويقدر المسموح بصيده في كل موسم بنحو ٤٨ ألف عجل بحري من ٧٠٠ ألف تفد إلى هذه البقعة من الشاطئ الناميبي لتتم فطام صغارها، ثم يبدأ موسم التزاوج الذي فتحت طقوسه بابا من أبواب جهنم على أجساد هذه الحيوانات المسكينة، فالذكر من هذه الحيوانات يتزوج حفنة من الإناث يسهر عليهن في موسم التزاوج دون كلل لمدة شهر يواصل فيه الليل بالنهار وبعد أن

يتم مهمته يدخل في سبات عميق وطويل يمتد حتى الموسم التالي، وقد تكونت من هذه الظاهرة أسطورة عن الفحولة ـ ولعلها حقيقية ـ روجها التجار الأوربيون لتسويق أجزاء من أجساد هذه الحيوانات لزبائن جدد ـ غير أوربيين على الأرجح ـ فصارت رءوس هذه الحيوانات التي لا تدري من أمرها شيئا مطلوبة لفرائها الثمين، ولأعضائها التي يقال إنها تباع للطالبين بأسعار فلكية. وسواء كان الهدف هو الفراء أو الأعضاء فإن ذلك الصيد الفادح الذي يسمى موسم حصاد عجول البحر، كان مثار نقاش مع أحد مسئولي المنطقة وقد تابعته فيما بعد عند لقائي بوزير شئون البيئة «أولنجا بن أولنجا»، لقد قال الوزير شيئا يطابق تقريبا ما قاله المسئول في المفرق: «الآلاف من هذه الحيوانات تموت من الجوع فهل نتركها تموت وتفسد أم نصيدها ونستفيد منها، ثم إن الصيد تضبطه معدلات محددة للحفاظ على النوع، وعندما تكون المشكلة هل تطعم الناس أم تطعم الحيوان ماذا يكون الاختيار؟» كان هذا هو السؤال. ورغم أنني أجبت مداعبا: كليهما، إلا أن السؤال ظل محيرا، ورغم الحجة والحجة المضادة فقد تركنا «مفرق رأس الفقمة» ومضينا على «شاطئ الهياكل» عائدين، بينما كانت أصوات الفقمات لا تزال تتجاوب أصداؤها في داخلنا، تشبه بكاء الأطفال.

للحرية رائحة.. حلوة

غادرنا «سواكابوند» التي تشبه مدينة ملونة في حكاية خرافية في الصباح الباكر، ودعنا المدينة الساحلية الصغيرة الجميلة ونحن نملأ صدورنا بنسيم المحيط الأطلنطي الذي لا يشبهه نسيم آخر في قدرته على إنعاش النفس وإيقاظ البدن، ومضينا على الطريق المرصوف إلى واحة «ووتر برج» التي قدرنا أننا سنبلغها عند الظهيرة، وعلى الطريق الطويل كان المدى يتفتح آفاقا رائعة، سماوات تهجع تحتها ظلال الجبال البعيدة، وعلى جانبي الطريق كانت الأرض التي يبس فيها العشب تسيجها أسلاك شائكة تقسمها إلى قِطع وحيازات، وتكتنفها بوابات تحدد أسماء مالكيها بلوحات صغيرة مكتوبة بحروف لاتينية ولغة إفريقانية، إنها بصمة النظام العنصري في جنوب إفريقيا على هذه الأرض التي تقاسمها البِيض وحدهم، ورغم أن المزارع قاحلة إلا أن الأسلاك ما زالت قائمة واللافتات لم تنزل عن البوابات، نوع من وضع اليد «لعل وعسى»!

عبرنا خلال مدينة «أوتاجارنجو» والتي تعني «المكان اللطيف» أو «المكان الذي ترعى فيه الأغنام السمينة» وكانت مدينة تكرر سمات المدن التي ابتناها البيض عبر الوديان، البيوت الجميلة والحدائق المزهرة والشجر الكثيف في الشوارع، لكننا لاحظنا كثرة من السود في جنبات هذه المدينة.

خرجنا من «المكان اللطيف» إلى البراري، وقبل أن نصل إلى «ووتر برج» رأينا الجبل الضخم يلوح من مبعدة خمسين كيلومترا كمائدة كامل استواء سطحها، شبح بنفسجي مضبب لمائدة كنا نتوق إلى وليمتها التي تنتظرنا أو ننتظرها، غنية بالحياة البرية والأحياء الطليقة، حيوانات وطيور وزواحف وعدتنا بها الكتب والنشرات، وكلما اقتربنا كانت قمة ووتر برج تتضح أكثر فتبدو مهيبة بألوان تضاريسها البنية والحمراء وتناثر البقع الخضراء فيها، ثم الغابة التي يبين شجرها عند القمة التي تحوم حولها الطيور وتتعلق تحتها السحب، منظر فريد يرد الإنسان إلى الإحساس بأنه جزء صغير سابح في دنيا الله الساحرة والزاخرة. هذا السلام الذي تتسع له آفاق الطبيعة البكر يبتعث نقيضا مريرا صنعته يد البشر فوق هذا الجبل الغابة، فقد كانت تعيش هناك قبيلة «الهيريرو» ثم جاء الألمان بحديدهم ونارهم فسحقوا البشر النحاف العراة إلا مما يستر العورة، لكن حمدا لله أن الغزاة لم يحتملوا العيش في الغابة ولم تحتمل الغابة عيشهم فيها، فنزلوا بحديدهم ونارهم ليقيموا معسكرهم على منحدرات جبلها وخارج مراح الطير والحيوان والعشب.

لقد ركبنا عربة مكشوفة تتسع لاثني عشر راكبا وتسير بسرعة ٢٠ كيلومترا يُحظَر تجاوزها، صعدنا مدارج الجبل حتى صرنا على قمته المستوية، ومكثنا نطوف عبر دروبها الممهدة الحمراء نهارا كاملا، وإنها لتجربة للبصر وللبصيرة لن تتسع للإحاطة بها أبدا هذه السطور الموجزة فهي تجربة باتساع الروح، فأن تمضي في دروب حياة لا أبكر ولا أصفى، شيء يردك إلى إشراق الكون كله، لقد أدهشتنا طلاقة حياة الغزلان والحُمُر الوحشية والقردة والزراف والنعام والبقر الوحشي (إذ لم تكن هناك وحوش كالنمور والأسود في ووتر برج) ورأينا تناغم الغابة كلي الاتساق، فلقد لاحظت أن الأشجار في الغابة تشيخ وتموت وتتحلل مفسحة أماكن خالية لأشجار جديدة، نوع

من الرضا الغريب، إذ إن الأشجار لا تُقتلعُ، كما لاحظت أن الحيوانات نظيفة وفتية وللغابة رائحة حلوة هي خليط من روائح العشب والحليب الطازج والتراب والمطر، شيء مختلف تماما عن رائحة حدائق الحيوان وغبرة جلود الحيوانات الحبيسة فيها والتي لا تفلت من السوء حتى في حدائق حيوان أوربية رأيتها، كأن للحرية عطرا حلوا وحيا، وكأن فيها أيضا نظافة.

ولقد تأكدت من تلك الملاحظة في غابة أخرى هي غابة إيتوشا التي تبعد ٤٠٠ كيلومتر عن ووتر برج، وتضم إضافة إلى ما رأيته، الحيوانات المفترسة كالأسود والنمور مع الأفيال ووحيد القرن، الحيوانات أيضا نظيفة والغابة حلوة الرائحة، وفي إيتوشا لم يكن مسموحا لنا ركوب سيارة مكشوفة نظرا لوجود الحيوانات المفترسة، فكنا نجول فيها سجناء وراء زجاج «التيوتا» الرانج روفر، وإنه لإحساس غريب أن يجد الإنسان نفسه محبوسا بينما الحيوانات طليقة!! لقد كنا نعثر على الحيوانات عند عيون الماء وراقبناها من كوخ مخصص لذلك قرب إحدى البحيرات، عبرنا إلى داخل الكوخ من دهليز حوائطه من الجذوع المدورة المتلاصقة المدهونة بالقار وسقفه شبكة معدنية حتى لا تتسلل إليه الحيوانات المفترسة والأفاعي، وفي القاعة المشيدة من الخشب المطلي بالقار أيضا «حتى تقاوم المطر وتكون مظلمة فلا تكشف عن القابعين داخلها» جلسنا وراء شقوق رفيعة نتابع في صمت قدوم الحيوانات للشرب من مياه البركة، وكانت طقوسا مدهشة، فالأفيال تنفخ في الماء «تروقه» قبل أن تأخذ جرعات بخرطومها، تسكبها في أفواهها بتمهل، والشرب لديها حفل كامل ترعاه الفيلة القائدة الأم التي يُحيِّيها قبل الشرب كل فرد في القطيع. والأسود عندما تأتي للشرب تفسح لها الغزلان الطريق لكنها لا تفر، إذ إن للافتراس وقتا ونُذُرًا، وللحياة العادية وقت ونذر، ويبدو أن الغدر شيمة بشرية محضة!

الغابة، أو المحمية الطبيعية، عالم من المحسوسات والمعاني، بقدر ما تردُّ الإنسان إلى بكارة الحياة يمكن أن تردَّه إلى اكتشاف ذاته في منظومة الحياة والكون، ولكم أحببنا البقاء أطول لكن الوقت كان يطاردنا، فملأنا صدورنا من أنفاس الغابة بعد ثلاثة أيام من التجوال بين جوانحها وثلاث ليال في أكواخها المثيرة، ثم انطلقنا مع الشروق والشفق الأرجواني في رحلة العودة الطويلة ـ سبع ساعات ـ إلى وايند هوك.

جامعة تطل على كل الجهات

مرة أخرى كنا في العاصمة وكانت الحرارة قد ارتفعت قليلا لتصبح ٢٥ درجة مئوية في النهار، فالموسم هو الربيع الذي يتقدم باتجاه الصيف. عكس مناخاتنا نحن في بلدان شمال خط الاستواء، فذروة صيف ناميبيا ـ الواقعة جنوب خط الاستواء ـ في ديسمبر، وذروة شتائها البارد في يوليو. في دفء هذا الربيع مضينا إلى الجامعة بدعوة من رئيسها الدكتور بيتر كاتشا فيفي، وكنا نصعد من قلب وايند هوك الصغير الجميل إلى ذروة من ذرا العاصمة، كانت الجامعة في مرتفع يطل على وايندهوك من كل الجهات، فمن جهة ترى قلبها الملون، ومن جهة أخرى ترى الضواحي التي تمتد حتى سفوح الجبال البعيدة. كانت الجامعة تطل على كل الجهات بالمعنى الحرفي وبالمغزى أيضا، فقد كانت خلاصة الرؤية ومحور النقاشات هي استراتيجية الجامعة الوليدة التي بدأت أول أعوامها الدراسية في مارس ١٩٩٣، ماذا ستفعل هذه الجامعة في موقع بين الأورَبة والأفْرَقة؟ بين جذور القبائل الإفريقية والمدن الأنجلوساكسونية؟ بين اللون واللون، والجنس والجنس؟ وكانت المؤشرات تتجه الاتجاه نفسه الذي يتخذه النظام الديمقراطي الحاكم الآن في ناميبيا، أي: مقرطة الجامعة في تكوينها وطرق التدريس وسير الأبحاث، واحترام التنوع في مجتمع متعدد الأجناس والألوان واللغات.

ولقد كانت جولتنا في الجامعة والتي استمرت يوما كاملا فرصة لعقد ندوتين أدارتهما «العربي» ونأمل أن تنشرا في وقت لاحق، أولاهما في كلية العلوم مع عميد كلية العلوم الدكتور تيد هانيمان والدكتور دتيلوف فون، وثانيتهما في كلية التربية مع الدكاترة ماكاندا ويري وبوتالا وبانكي زيمبا، إضافة للقاءات المطولة مع نائب رئيس الجامعة الدكتور دافيز ورئيس الأبحاث الدكتور «إفريقا» ورئيس الجامعة الدكتور كاتشا فيفي بالطبع، وبإيجاز فإن حصاد الحوار كان يتلخص في أن الجامعة تعي خطورة «الصدمة الثقافية» بين الأصيل والمعاصر، وتُعمِّق الحس الديمقراطي في الدرس والبحث، ويتجه مسارها نحو نشر التعليم أولا داخل البنية الديمقراطية الجديدة في البلاد والتي صارت تعطي الحقوق نفسها لجميع المواطنين سودا وبيضـ

وملونين، إضافة لتكوين كوادر المتخصصين المتدربين جيدا والبحث فيما يعمل على التنمية الاجتماعية والاقتصادية داخل البلاد. وعندما وجهت سؤالا عن دور الجامعة في مواجهة القرارات السياسية واحتمالات الفساد الحكومي الذي لوحظ في كثير من بلدان إفريقيا في أعقاب تحررها، كانت الردود مطمئنة؛ فالانتلجنسيا «المثقفون» تلعب دورا متقدما داخل النظام الجديد؛ فالدكتور سام نوجوما رئيس الجمهورية هو الرئيس الأعلى للجامعة، وعلاقة الجامعة بأهل الحكم وثيقة، ثم إن الديمقراطية تفسح قناة للمعارضة في الإذاعة والتليفزيون والجرائد مفتوحة لشتى الآراء، وليست تلك صورة للذات قدمت لنا، فالواقع يؤكد ذلك كما تابعنا في قاعات الدرس ورأينا خارج الجامعة، وفي الصحافة والتليفزيون، ولقد كان الرئيس الناميبي ثاني رئيس من العالم الثالث يقابله الرئيس الأمريكي كليتنون تقديرا للنهج الديمقراطي الحقيقي الذي تتبعه ناميبيا، وكان هذا النهج في الجامعة أيضا حيث رأيناه في «سيمنار» بأحد المعامل بكلية العلوم وفي محاضرتين بكلية الفنون وكلية الاقتصاد والعلوم الاجتماعية، حيث الأساتذة بيض وسود وملونون، والطلاب أيضا تتعدد ألوانهم وأصولهم العرقية، أما اللغة فهي الإنجليزية التي اختيرت لغة رسمية للبلاد، والجامعة حاليا في مبنى مؤقت صغير وجميل كما كل الأبنية الناميبية. لكن ثمة مجمعا معماريا أوسع يُعد لتنتقل إليه الجامعة التي تتطلع إلى تعاون فعال مع الجامعات العربية ومع هيئات البحث والإنماء في الوطن العربي.

كانت الجامعة ونحن نغادرها تطل على المدينة البديعة الملونة كما دأبها، وكانت العيون الشابة للطلاب في الأروقة تلتمع بألق الشباب الحلو رغم تباين ألوان بشراتهم. وكانوا معا، ونأمل أن يكبروا معا ويظلوا معا في بلد إفريقي يوشك أن يضرب مثالا للعالم في ضرورة التعايش الذي يحلم به البشر، بعد أن أرهقته تناحرات الأعراق والألوان والأوهام القديمة.

حديث عربي في وداع ناميبيا

أوشكت جولتنا في ناميبيا على الانتهاء، ولم يكن معقولا ونحن في عاصمتها ألا

نلتمس بعضا من الحق العربي الذي عايش التجربة الناميبية عن قرب فذهبنا إلى عميد السلك الدبلوماسي العربي هناك، السفير حسين الصدر، الذي لم نتمكن من الاتصال به منذ البداية لوجوده خارج العاصمة، ولقد كان لقاء رائقا مع نفس صافية وعقل لامع وعارف بظواهر وبواطن الأمور في هذا الجزء من العالم، حكى لنا عميد السفراء العرب ـ الذين يوجد منهم أربعة في العاصمة الناميبية ـ عن قدرة هؤلاء الأفارقة على الوفاء، وحكى عن استقبال رئيس الجمهورية للوفد الكويتي أثناء المحنة، وكيف أعلنت ناميبيا عن وقوفها مع الكويت ضد الغزو، ردا للجميل، فقد كانت الكويت تدعم حركة سوابو في فترة الكفاح التي كانت مصر من أهم داعميها في العالم. وأشار السفير الصدر إلى ضرورة توثيق العلاقات العربية مع هذه الدولة الوليدة، ليس بمنطق المساعدة فهذا المنطق صار باليا ومستهلكا، ولكن بمنطق المشروعات المشتركة التي تعود بالفائدة على كل الأطراف، مع الجامعة الوليدة، وفي مجالات خصبة كالثروة السمكية والرعي والسياحة، وأومأ إلى أن هناك بوادر في هذا الاتجاه بين الكويت وناميبيا كما في مشروع الميناء ومصنع الألومنيوم والمناطق الحرة.

وفي معرض رده عن سؤال لنا حول المستقبل واحتمالات الاستقرار في ناميبيا، أكد السفير الصدر أن ناميبيا الآن وغدا هي من أكثر الدول استقرارا لأنها قامت على أساس ديمقراطي، وتنتهج سياسة معتدلة، وتصر على مبدأ التصالح الوطني، ونظامها مقبول من كل الأطراف.

تشعب حديثنا العربي في رحاب ناميبيا، وعندما سألني عميد السلك الدبلوماسي العربي عن موعد مغادرتنا، قلت: بعد غد، ونبهني زميلي أن موعدنا هو الغد، فأدركت أن النفس تصبو إلى البقاء أكثر، وأنها تكتنز هذه الرغبة في عمق ثناياها.. فيما تحت الشعور. وهكذا بدأ افتقادنا لهذا البلد الجميل الطيب قبل أن نرحل عنه.

جنوب إفريقيا

ماذا يدور في رأس العواصف؟

وقفنا عند قمة رأس الرجاء الصالح فاجتاحتنا رعدة. كان المحيط الأطلنطي. عن يميننا والمحيط الهندي عن شمالنا، ومن تمازج زرقة المحيطين الممتدة حتى الأفق تلوح أطياف خمسة قرون مضت منذ دار البرتغالي «بارتليميو دياز» دورته ـ الصدفة ـ عام ١٤٤٨ حول المكان. أرعبه عويل الريح فأسمى المكان «رأس العواصف». لكن مليكه الحالم بالوصول إلى الهند عبر المحيط وقطع طريق التوابل والبهار على التجار المسلمين أدرك خطورة الكشف فأعاد تسمية المكان تيمنا «رأس الرجاء الصالح». ومع فاسكو ديجاما ـ البرتغالي أيضا ـ وطأت أوربا أرض إفريقيا عند أقصى جنوبها فتحولت الأرض البكر للرعاة البدائيين إلى مأزق مستمر. منذ القرن الخامس عشر حتى يومنا ورأس الرجاء لا يمتلك قوة الإقناع بأنه صالح للجميع. مازال رأس العواصف؛ وإن لاحت محاولة أخيرة لإصلاحه(*)، وعلى مشارف هذه المحاولة وقفنا، فماذا يدور هناك؟

طبق أوربي بتوابل آسيوية ولحم إفريقي، سجلت انطباعي الأول ونحن نعبر باب الفندق في أول جولة استطلاعية بشوارع جوهانسبرج، المدينة التي شيدها الذهب وارتبطت نشأتها باكتشافه عام ١٨٨٦. بدت لنا لأول وهلة كمدينة متناقضات، فهي أكبر مدن جنوب إفريقيا، يسكنها قرابة المليونين، ومع ذلك ليست العاصمة رغم تعدد عواصم هذا البلد، فالعاصمة الإدارية «بريتوريا»، والعاصمة التشريعية «كيب تاون»، والعاصمة القانونية «بلويمفوتين».

(*) جرى الاستطلاع في ديسمبر ١٩٩٢؛ أثناء المفاوضات بين حزب مانديلا وحكومة ديكليرك آخر حاكم أبيض لهذه البلاد.

كنا مستكشفين أبرياء عندما أخذنا نبتعد عن المركز البراق حيث فنادق «الكارلتون» و«صن» وبسرعة أخذ شيء ما يتبدل في طبيعة الشوارع دون أن ندركه بوضوح. كانت الشوارع تتحول إلى شوارع أكثر سوادا مع كل خطوة حتى لم نعد نرى شخصا أبيض واحدا رغم أن المدينة لم تزل أوربية كما عند مركزها. لم يكن على الأرصفة غير بائعي الفواكه والخردوات السود. وعند أحد المحال قرأت لافتة «صيدلية الزولو»، وبعد نظرة إلى الواجهة وإطلالة على جوف المحل قررنا الدخول. فقد كانت الصيدلية ملمحا آخر للتناقض في هذه المدينة، فإضافة إلى الأعشاب الهندية كانت هناك مراهم دهن التمساح ونسائر لحم الخرتيت المجففة وتلك الدروع المميزة لقبائل الزولو التي يصنعونها من قطعة جلد حيوان تأخذ شكلا بيضاويا يخترمه صفان من الفتحات وينفذ في أركانها رمحان متقاطعان. دروع بأحجام مختلفة تبدأ من مساحة كف طفل وتكبر حتى تصير بمساحة صدر رجل. وعرفنا أنها لا تصد سهاما ولا حرابا، بل تحول دون هجمات الأرواح الشريرة!

وبينما كان الحديث يمضي بنا ونحن نطوف مع البائع الهندي بأركان هذه الصيدلية العجيبة، إذ بالبائع ينتفض بهلع وتعاطف، هتف قائلا: «ينبغي أن تنصرفوا الآن وبأقصى سرعة قبل الغروب فأنتم في منطقة بشعة».

قلت له: لكنك هنا رغم بشاعتها، ومحلك مفتوح. ولم يجب إذ رفع قميصه لنجد مسدسا ضخما يلتصق ببطنه مغمودا بين جلده والحزام.

وأسرعنا نهرول في شوارع جوهانسبرج باتجاه المركز بينما زميلي المصور يقبض على آلة التصوير بكلتا يديه ويضمها إلى صدره وأنا أتبعه قابضا على السلاح الوحيد الذي أمتلكه: قلم مفتوح، في جيبي، للدفاع عن النفس!.

الجميع في حالة تأهب

كاد اليأس يطبق على أعناقنا في ذلك اليوم الأول من أيام استطلاعنا، فالسود العاطلون عن العمل بين ستة ملايين عاطل في هذا البلد الباذخ الثراء كانوا عند كل منعطف وعلى كل رصيف، والبوليس كان شحيحا إلى درجة الندرة التي قيل لنا فيما بعد إنها متعمدة لأسباب سياسية. وعندما فكرنا في الاستعانة بمسلمي المدينة كدنا نتعرض للضرب بسبب آلة التصوير في أحد مساجد المسلمين الهنود، رغم أننا أدينا معهم صلاة الجمعة.

الكل في حالة تأهب وريبة، أما الحكومة في بريتوريا فأكدت على ما سمعناه عن غرور هيئاتها البيضاء.

اتصلت بالسيدة «ساجي فوري» المستشارة بوزارة الخارجية وقد كانت على علم مسبق - عبر رسائلنا إلى مكتب لندن - بمهمتنا الاستطلاعية، ولم نلمح في صوتها الرقيق العذب إلا نصلا مرهفا كحد الموسى يقطع: «أهلا بكم لكننا لن نقدم لكم أي معاونة».

وقررنا أن نحمل مهمتنا على كاهلنا منفردين، وكان ذلك يعني أن نؤجل مواضع الخطر حتى نتأهل لها بقدر كاف من المعرفة والتدبير.

بتنا على رعب في جوهانسبرج، فهل نصبح على خير في كيب تاون؟

في البدء كانت «الكاب»

من الجو وقبل أن نهبط في مطار «مالان» بمدينة «الكاب» كانت الطائرة تدور دورة واسعة فتميل بجناحها القريب من مقاعدنا، وعبر نافذة الطائرة بدت لنا هذه الناحية من المدينة التي تطل على المحيط الهندي، رأينا ذيل إفريقيا الأخضر يوغل في زرقة المحيط، سلسلة من الجبال تشرئب بذراها الشهيرة وتنتثر عند سفوحها أبنية المدينة كحقول بألوان الكريم والقرميد والخضرة، لمحنا قمة «رأس الأسد» التي تشبه رأس أبي الهول، وقمة «جبل المائدة» التي لا استواء لقمة مثلها، وقمة «العلامة» التي كان يسترشد بها البحارة القدامى وهم في عرض المحيط، أما نقطة الكاب ورأس الرجاء فقد كانتا بعيدتين من هذه الناحية، تبدوان مثل طيف دخاني بعيد يطفو فوق زرقة المحيط ويلامس سماء الصيف الرائقة، فقد كان الوقت بين الربيع والصيف رغم أننا في ديسمبر، فالكاب تقع في نصف الكرة الجنوبي، ومن ثم فإن لها فصولا عكسية، ذروة صيفها في يناير وأبرد شهورها في يوليو. وفي إذاعة الطائرة قبيل الهبوط وبينما أحزمة المقاعد مشدودة بدأت أول الالتباسات تلقى على مسامعنا كحقائق مسلم بها. راح صوت المضيفة المذيعة يعلمنا بأننا صرنا في رحاب مدينة الكاب، مدينة الرأس «كابستاد» بالإفريكانية و«كيب تاون» بالإنجليزية، وهي العاصمة التشريعية للبلاد، بها البرلمان، وبالبرلمان بيت للرئيس يقيم به ستة شهور في السنة، بينما الشهور الستة

الأخرى يقضيها في بريتوريا العاصمة الإدارية. وكيب تاون هي المدينة الأم لجنوب إفريقيا، إحدى أقدم المدن في العالم الجديد، حيث أسميت شبه جزيرتها برأس الرجاء الصالح منذ أكثر من خمسمائة سنة، أي قبل اكتشاف أمريكا، فقد اكتشف خليج المائدة الذي تطل عليه في عام ١٥٠٣، وأنشئت المدينة حول هذا الخليج عام ١٦٥٢، فهي أقدم من نيويورك بسنة واحدة، وأقدم من سيدني بمائة وثلاثين عاما، و..»

«آه يا إلهي»

تنهد جاري فطغى صوت تنهده على صوت المذيعة المضيفة وقد كان رجلا أسود ممن عاشوا في المنافي سنوات ولم يعد إلا أخيرا بعد إعلان حكومة الرئيس «ديكليرك» عن إلغاء قوانين «الأبارتايد» أو التفرقة العنصرية منذ سنة ونصف.

كان جاري أستاذا لعلم الاجتماع في إحدى الجامعات البريطانية، والتقطت في صوت تنهده نبرة احتجاج على ما كانت تقوله المذيعة، فسألته: ـ هل سمعنا أخطاء كثيرة؟ قال: بل خطأ واحدا كبيرا، فهؤلاء (وكان يقصد البيض بالطبع وربما يشير إلى الأوربيين بشكل عام) يعتقدون أن الله لم يخلق العالم الجديد إلا يوم اكتشافهم له.

حفل أوربي بطبول إفريقية

في الطريق من المطار إلى قلب مدينة الكاب لن يمكنك التفكير في أبعد مما تراه عيناك، السحب البيضاء التي تغيب فيها قمم الجبال الشهيرة، الهواء الشفاف، خضرة التلال، التاريخ الكامن في الصخور. وعلى طول الجهة الشرقية من جبل المائدة ستجد صرح روديس بأسود الإمبراطورية البريطانية الآفلة وهي تنظر نحو الشمال راسمة بعيونها البرونزية العمياء طريق «القاهرة ـ الكاب» الذي كان يحلم به البريطانيون كطريق يربط بين أطراف الإمبراطورية البريطانية الإفريقية. سترى حديقة الشاي بين جذوع الأشجار، وبناية «جروت كوتستانتينا» ذات الواجهة البيضاء الناصعة والمدخل المزخرف والعلية التي يمتد خلفها السقف الجمالوني كذكرى من بواكير الاستيطان الهولندي. سترى أبسطة هائلة من زهور البروتيا الأسطورية تملأ السهول بألوانها المائة وأشكالها المئات. وسترى إلى جوار كل تلك الرومانسية حوض ستيروك لإصلاح وبناء

السفن وهو أعظم حوض من هذا النوع جنوب خط الاستواء. أما في الجهة الغربية فلن يسمح لك بالاقتراب من الميناء البحري العسكري حيث تربض قطع أحد الأساطيل الكبرى ولعلها الأكبر في إفريقيا كجزء من جيش لا يدخله إلا البيض وليس الجيش وحده ـ بالمناسبة ـ هو المقتصر على البيض فالقضاء أيضا مقتصر عليهم.

في ضاحية «مالاي» أو «بوكاب» ستصل إلى سمعك كلمات من القرآن وتقرأ عبارات مالاوية بحروف عربية. فهنا يعيش جل مسلمي الكاب في بيوت بنيت على منحدر يفضي إلى مركز المدينة. بيوت منمنمة وشوارع ملتفة ومساجد دقيقة خفيضة المنائر وكأن منائرها خليط من المآذن والقباب.

إن دورة واحدة في «كيب تاون» كفيلة بأن تقنعك بالسحر الجميل و«بالكوزمو بوليتانية» التي لا تخبئ نفسها.

مدينة ساحرة. أردنا أن نستريح قليلا من فرط سحرها فقادنا مرشدنا الفرنسي الأصل فيليب إلى شاطئ يسمى «جبهة الماء». وهو شاطئ على ساحل المحيط الهندي تقوم بعض مقاهيه على أساسات عائمة. وفي السوق الأوربية الباذخة المبنية من عوارض بيضاء وسقف زجاجي كان محل جديد يعلن عن افتتاحه. وكان الافتتاح تعبيرا عن هذا الخليط الثقافي. فالمحل الأوربي (أو الأبيض) افتتح أبوابه بحفل أحيته فرقة رقص وغناء سوداء. وفي لحظة تفجرت السوق الأوربية الأنيقة بإيقاعات الطبول الإفريقية وصدح «إكسيلفون» غاب البامبو وطقطقات الحروف في أغاني «الاكسهوسا» الجميلة.. واشتعل رقص صبايا إفريقيا عاريات الصدور اللائي يمتلئن بدفء شموس البراري ولدونة مخلوقات الغابات البكر.

فرح أوربي بإيقاعات إفريقية وجمهور متعدد الألوان. من أين أتى هذا الخليط البشري؟

لم يكن الرأس الجميل خاليا

انطلقنا في الصباح الباكر على الطريق الساحلي الغربي ما بين مياه الأطلنطي وأقدام جبال «كيب تاون». وبعد ثمانين كيلو مترا دخلنا في الطريق الذي يشق شبه جزيرة الكاب.

وطأت أقدامنا قمة رأس الرجاء الصالح.. محيطان لا نهائيا الزرقة على الجانبين، وثبج أبيض فوار، وزبد يغسل صخور التاريخ، وفنار يمتد ضوؤه في البعيد، ورؤية تنجلي حتى مائتي كيلو متر في عرض البحر، وطيور غريبة تحلق فوق المياه السحيقة، ودلافين تقفز لامعة وتختفي. كل ذلك كان موجودا، لكن الوجود الأكثر حياة كان للغائب الحاضر بقوة.. تاريخ هذا المكان.

كانت الكاب خضراء رائعة منذ القدم مما حدا بالسير «فرانسيس دريك» الذي دار حولها مبكرا أن يقول: «إنها أجمل رأس في محيط الكرة الأرضية». فهل يعقل أن ذلك الرأس الجميل كان مهجورا من البشر قبل مجيء الأوربيين؟.

تقول «مونيكا ويلسون» عالمة التاريخ المتخصصة في تاريخ جنوب إفريقيا: «لقد كانت قطعان الماشية ورعاتها من «الكهوى كهوى» أو «الهوتنتوت» موجودين قبل مجيء الأوربيين إلى الكاب. والصور البديعة للماشية والرعاة المرسومة على جدران الكهوف الساحلية تشهد بذلك».

ويقول «سنجر واينر» عالم الأنثروبولوجي: «إن دراسات فصائل الدم قادتنا إلى نتيجة مفادها أن الهوتنتوت أساسا وقطعا هم زنوج إفريقيون مروا بتاريخ طويل من التمايز العرقي في جنوب إفريقيا منذ أربعة آلاف عام على الأقل».

إذن كان الأفارقة هناك قبل مجيء الأوربيين بثلاثة آلاف وخمسمائة سنة على الأقل. فلم تكن الأرض بغير ناس ولا كان الناس بغير أرض كما يزعم الكولنياليون دائما ليلفقوا تبريرا لاستعمارهم الاستيطاني لأرض البشر، وليختلقوا سببا للمن بأنهم أنشأوا حضارة العالم (الجديد) من العدم.

أحضرهم الإسقربوط وآزرهم الجدري

عندما تضعضعت قوة البرتغال وطفت هولندا على السطح، وجدت الشركة الهولندية لشرق الهند والتي تأسست عام ١٦٠٢ للتجارة مع الشرق أنها في حاجة إلى إنشاء محطة تموين بحرية في الكاب لزراعة الخضر للتغلب على مرض الإسقربوط الذي

كان يصيب البحارة من جراء السفر الطويل عبر المحيط وعدم الاغتذاء بشيء طازج من الفاكهة والخضرة.

من مرضى الإسقربوط والمزارعين الهولنديين تكونت أول موجة من موجات الاستيطان الأوربي في الكاب، ولأن أوربا جاءت بخيرها وبشرها. فإنها لم تحرم مواطنيها «البوير» (ومعناها «المزارعون الهولنديون») من بعض الشر. فبدأت الشركة الهولندية تضيق على «البوير» حتى تشتري مزروعاتهم بسعر أرخص. بل عمدت الشركة إلى استيراد العبيد من «غرب إفريقيا» ومن مسلمي «الملايو» الخاضعة لهولندا ليعملوا في الزراعة ولتحتكر الشركة ناتج عملهم. هكذا ولد الرق على هذه الأرض. ولأنه لم يبدأ عنيفا فقد اختلط العبيد بالسكان الأصليين من «الكهوى كهوى» وبالبحارة البيض. ومن هذا الخليط تكون شعب الكاب الملون. أما «البوير» الذين كانوا غلاة في نفورهم من ضغوط الشركة الهولندية للهند الشرقية وكانوا متعصبين يتأففون من الاختلاط بالعبيد و«الهوتنتوت» فقد قرروا النزوح مبتعدين عن الكاب، متوغلين في البراري، وهجروا الزراعة إلى الرعي وباتوا في عزلة عن أوربا حتى تحورت لغتهم الهولندية وباتت أبسط وأفقر لتصير نواة اللغة «الأفريكانية».

لقد بدأ البوير نزوحهم نحو منطقة براري «الكاروو». وهي منطقة صعبة طبعتهم بطابع الشدة والبأس. ولأنهم صاروا رعاة فقد اصطدموا بالرعاة من الهوتنتوت. وليس بالبنادق والخيول وحدها كتب لهم النصر. فقد كان معهم مرض الجدري الذي لا حصانة «للهوتنتوت» ضده. فحصدهم حصدا ليتسيد البوير وحدهم براري «الكاروو».

ضريح عند قمة العالم

كنا ندور حول جبل المائدة ساعين إلى قمته التي ترتفع ألفا وثمانية وستين مترًا فوق سطح البحر. ومع كل دورة نصعد درجة فتهبط المدينة ويبتعد البحر. نوغل في عالم كالحلم، مروج وغابات صنوبر وفراشات. وعندما بدا السحاب يقابلنا على الطريق أوقفنا السيارة وترجلنا مكملين الطريق مشيا إلى القمة القريبة.

واصلنا الصعود مخترقين السحب العابرة على الطريق بصدورنا ورءوسنا. كان

ذلك حلما حقيقيا تجاوزناه حتى صرنا فوق السحاب ماشين على الأقدام. كنا على قمة جبل المائدة.. غابة وديعة لا وحشية فيها ولا ضوضاء. وفي ظلال شجرة وارفة لفت نظرنا بناء صغير أبيض ناصع البياض.

كان الهدوء يلد نغمات من صفاء خالص.. شقشقة عصفور. رفة جناح. رفيف فراشة. هسهسة أوراق شجر تلاعبها النسائم.. ثم.. سمعنا أصواتا صغيرة تقرأ قرآنا.

هنا؟!

نعم هنا.. في تلك البقعة التي تسمى «قمة العالم». في هذا المكان كان الضريح أبيض، بياضا لا أنصع منه، يقوم وسط مرج من الزهور وترمي عليه الأغصان ظلالها. وكانت في الساحة الصغيرة أمام الضريح سيارة انزلق سائقها ناعسا وقد ركن رأسه على ذراعه المتكئة على نافذة السيارة، لكن ما أن خطونا في اتجاه الضريح حتى استيقظ مناديا إيانا ومشيرا بعدم الدخول.

«هيه.. أنتم.. الدخول ممنوع.. هناك نساء». أومأنا للرجل مبينين له أننا لن ندخل ودرنا حول الضريح من الخارج نتأمله متأثرين بهذا الاختيار الصافي لقمة السكينة موقعا لرقدة هذا المسلم.

ومن تجاذب الحديث مع الرجل الذي كان ينتظر امرأته وأطفاله عرفنا أن المكان يعتبر مزارا للتبرك به ومدرسة صغيرة لتحفيظ القرآن. وعرفنا أن عشرات الأضرحة المماثلة تتناثر فوق قمم جبال الكاب. أقامها مسلمو المدينة فوق قبور الرعيل الأول من المسلمين الماليزيين الذين جلبهم الهولنديون قسرا في بداية القرن ١٧ ليعملوا في مزرعة الشركة الهولندية كعبيد أو كسجناء منفيين. لقد وصف الدستور العنصري القديم الإسلام «كعقيدة منحرفة يجرم الداعي إليها». ويكاد الإسلام أن يكون مقتصرا على الآسيويين سواء من جيء بهم من شبه القارة الهندية على يد الإنجليز لزراعة القصب في «دربان» عام ١٨٢٠ أو من جاء بهم الهولنديون من ماليزيا لزراعة الخضراوات في الكاب في القرن ١٧ . ويختلف المسلمون في دربان عنهم في الكاب. إذ يبدو الأخيرون أقل توترا نتيجة لمناخ التسامح النسبي في الكاب، وأفقر لأن الفصل العنصري يقسم

الناس إلى مراتب تبدأ بالبيض، ثم الهنود، ثم الملونين «ومنهم الماليزيون»، وأخيرا السود. ثمة تقديرات تشير إلى أن عدد المسلمين في جنوب إفريقيا ٨٠٠،٠٠٠ وإن كان مرافقنا قد أشار إلى رقم مليون ونصف كتعداد حقيقي للمسلمين في هذا البلد.

وعندما تحدثت مع مجموعة من المسلمين في الصحن الصغير لجامع «الأزهر» في كيب تاون، أحسست بحذرهم من الخوض في مسائل السياسة، وعرفت أن ما يهم كثيرا من المسلمين الآن هو مشروع ميثاق ديني يسمى «المشاركة الدينية» يوفر للمسلمين ولغير المسلمين حرية التدين واحترام دور العبادة.

وعما يتمناه مسلمو جنوب إفريقيا من العالم العربي فهو الإحساس بهم والتواصل معهم، روحيا، فهم في غنى عن المساعدات المادية، وعبر كثيرون عن تمنيهم أن ينشأ خط طيران مباشر ييسر على الحجاج مشاق الرحلة المقدسة التي ترهق كبار السن خاصة لكن هذه الأمنية يعارضها مسلمون آخرون ذوو رؤية سياسية مفادها أن هذا الخط المباشر يعني خرقا لمقاطعة النظام العنصري الذي لم يكمل بعد شروط تخليه الحقيقي عن العنصرية. وجدل المقاطعة هذا ليس منطقة خلافية بين المسلمين وحدهم. فبين الملونين والسود يدور جدل مماثل بين فريقين. فريق يرى ضرورة رفع المقاطعة لأنها تزيد الأزمة الاقتصادية في البلاد وتزيد عدد المتعطلين عن العمل وهذه البطالة تضر غير البيض أولا وأخيرا. وفريق يرى أن تستمر المقاطعة للتضييق على النظام حتى يتخلى حقيقة عن آخر ملامحه العنصرية. أما الأزمة الاقتصادية والبطالة فهي لن تقتل الملونين والسود لأن هؤلاء يعيشون في مجتمعات ذات روابط دينية أو قبلية تحول دون ضياع الأفراد على عكس ما يمكن أن يحدث في مجتمع البيض الأوربي المفكك أسريا.

طيران في اتجاه التاريخ

تركنا مدينة الكاب متجهين نحو الشمال الشرقي قاصدين العاصمة «الإدارية» «بريتوريا».

وفي أعلى مكان يطل على المدينة البديعة وسط منطقة تسمى «وينن» ومعناها

باللغة الأفريكانية «البكاء»، ويقوم نصب تذكاري ضخم يسمى «نُصب النازحين». وعلى امتداد جدران النصب الداخلية تحكي اللوحات المحفورة في الجرانيت قصة «النزوح العظيم» وهي ملحمة هذه البلاد الممهورة بالدم.. لكنه دم جميع الألوان لا دم البيض «البوير» وحدهم.

نمر على الجدران الهائلة في صمت.. فيحكي لنا الجرانيت: هرب الهولنديون «البوير» من طغيان الشركة الهولندية في الكاب تركوا الزراعة وعملوا بالرعي في براري الكاب فاصطدموا بالهوتنتوت من قبائل السكان الأصليين وقهروهم لكن رعاة آخرين كانوا في البراري العالية. اسمهم «الاكسهوسا» أي قبيلة ذوي الملاحف الحمراء (وينحدر من سلالتهم نيلسون مانديلا). كانوا رعاة وأقوياء ومنظمين فهادنهم «فان بلتنبرج» «حاكم البوير» ورسم معهم حدودا للرعي. لكن الماشية من الجانبين كانت تتوق إلى العشب ولا تعرف الحدود. وأشعلت الماشية أول نار كبيرة بين البيض والسود عام ١٧٧٨. وتوالت النيران.. أعلنت جماعات «البوير» قيام جمهورياتها الصغيرة عام ١٧٩٥، وهي جمهوريات جابهت في أول الأمر سكان البلاد الأصليين ولم تجد ما يصلب عودها في هذه المجابهة غير روح العداوة. وفي القرن التاسع عشر دخل الإنجليز الذين كانوا قد احتلوا مقاطعة الكاب في سبتمبر ١٧٩٥ على خط العداء مع «البوير». ولعبت بريطانيا الاستعمارية آنذاك ألعابها السياسية الشهيرة: فرق تسد، والانتصار المبالغ فيه لأحد الأطراف حتى تؤجج النار بين الجميع. أعلنت إنجلترا اللغة الإنجليزية كلغة رسمية واستقدمت المزيد من الناطقين بها ليستقروا في منطقة الحدود المضطربة. واتسعت نيران القتال بين السود والبوير في حروب كان البوير يسمونها حروب الكفار لاعتقادهم بوثنية السود. وكان السود يسمونها حروب الأرواح الشريرة القادمة من البحر.

كانت حروبا دامية، ولم يجد البوير أمامهم غير مواصلة النزوح شمالا سأما من الإنجليز ومكائدهم. وانخرط البوير فيما أسمي «بالنزوح الكبير» مخترقين نهر أورانج ومجتازين جبال دراكسنبرج. كانت هجرة كبيرة ومريرة. ومن جديد راح البوير يصطدمون بأهل البلاد من السود في مسيرة نزوحهم المتكرر. ومن قصص

النزوح الدامية المريرة قصة ملك الزولو مع البوير. عندما ذهبوا لمفاوضته تاركين أطفالهم ونساءهم في معسكر قريب. لكن ملك الزولو أرسل عشرة آلاف من أتباعه ذبحوا كل من كانوا في المعسكر حتى الرضع وفي مكان هذه المذبحة التي أسميت «وِنُن» أو البكاء أقيم نصب النازحين، الذي كنا نتابع التاريخ عبر لوحاته الجدارية المحفورة في الجرانيت.

استدعى الدم مزيدا من الدم. وفي ١٦ ديسمبر ١٨٣٨ قام قائد البوير «برتيوريوس» (الذي سميت بريتوريا باسمه) بإدارة معركة مع ملك الزولو انهزم فيها الزولو وبلغ عدد القتلى منهم في يوم واحد ثلاثة آلاف إنسان. وصار تاريخ هذه المذبحة عيدا وطنيا للبوير.

فتحت هذه المعركة قلب جنوب إفريقيا النازف للبوير. لكن بريطانيا كانت هناك وراحت تضم إلى سلطانها الأرض التي يشغلها البوير قطعة وراء قطعة حتى طال سلطانهم ما وراء نهر فال أو الترانسفال؛ فثار الأفريكان «البوير»، وأوقعوا بالبريطانيين هزيمة نكراء في ماجوبا عام ١٨٨٠.

وكانت تلك أول شرارة لإشعال النار بين «البوير» و«البريتون» «البريطانيين». وأجج من اشتعال النار اكتشاف الذهب قرب جوهانسبرج عام ١٨٨٦ وقد كانت كما هي اليوم عاصمة للترانسفال تابعة للأفريكان.

أطلت القسوة برأسها من جديد على أرض جنوب إفريقيا في حرب «البوير» التي انتهت بانتصار الإنجليز والتوحيد القسري لمقاطعات «الكاب» و«الناتال» و«الترانسفال» و«الأورانج».

ما لم يقله الحجر

كانت آخر الصور في صرح «النازحين» تحكي عن ميلاد اتحاد جنوب إفريقيا بمقاطعاته الأربع. لكن هذا الاتحاد كان جسدا أفريكانيا بثياب بريطانية. وسرعان ما تمرد الجسد على تلك الثياب. وراحت القومية الأفريكانية تعبر عن نفسها. فولد

الحزب الوطني ـ وهو الحزب الحاكم حتى الآن ـ مناوئا لبريطانيا إلا أنها اضطرت للاعتراف به عام ١٩٢٦، وكان يقوم على سياسة التفرقة العنصرية «الأبارتيد» بفصل البيض عن السود والأجناس الأخرى. واستعباد السود في المناجم مقابل عُشْر مرتب البيض. وحرمان غير البيض من حق الانتخاب، والزيجات المختلطة. وتقييد حرية الحركة لغير البيض إلا بإذن مرور. وفي عام ١٩٥٢ قام المؤتمر الوطني الأفريقي بحركة عصيان تحولت إلى صدامات دامية.

ومضى النظام العنصري يعمق سياسة «الأبارتيد» بإنشاء معازل للسود تحت ستار مستوطنات مستقلة. وفرضت اللغة الأفريكانية على السود. وتزايدت أعمال العنف فأعلنت الطوارئ عام ١٩٨٥. مما جعل دولا غربية كثيرة تتخذ قرارات بالمقاطعة الاقتصادية لجنوب إفريقيا منها الولايات المتحدة والمجموعة الأوربية. من جانب آخر تزايدت المقاومة المسلحة للمؤتمر الوطني الإفريقي الذي كان قائده مانديلا في السجن. وفي دائرة العزلة والعنف بدأت أصوات عاقلة، أو مناورة، تطالب بتخفيف «الأبارتيد». وكان الرئيس «بوتا» أول من طالب بذلك فرفع مطلب الإصلاح السياسي في جنوب إفريقيا والانفتاح على المجموعات السكانية غير البيضاء على الرغم من مقاومة أجنحة اليمين المتعصب بين البيض. ونتيجة لمرض «بوتا» تنازل عن السلطة ليخلفه الرئيس الحالي «ديكليرك» الذي فاز حزبه ـ الوطني ـ بأغلبية مطلقة في سبتمبر ١٩٨٩، ليعمق سياسة سلفه ويفرج عن نيلسون مانديلا ويطلق حرية العمل السياسي ويعلن في مارس ١٩٩٢: «لقد طوينا صفحة الأبارتيد».

فهل طويت حقا هذه الصفحة؟.

النمر في قفص المأزق

من بريتوريا عدنا بالطريق البري إلى جوهانسبرج التي تقع على مسافة ٦٠ كيلومترا.

وفي ليالي فنادق جوهانسبرج العامرة المغلقة (إذ إن الشوارع المفتوحة للسود الضائعين تكون خطرا داهما في مثل هذا الوقت)..

في هذه الليالي التي تتصدر موائدها شرائح من لحم النعام المشوي وأطباق الاستاكوزا الحمراء. يموج السهر بألوان ولغات وملامح شتى. مستثمرون أجانب من كل أرجاء الدنيا. وقليل من العرب معظمهم لبنانيون مقيمون في دول إفريقية مجاورة؛ وصحفيون وكتاب مختلفو اللغات؛ وعسكريون أفارقة جاءوا للتدريب أو للتعاقد على شراء أسلحة؛ وسياح من كل صوب وحدب. في هذا الليل المغلق والذي يبدأ مبكرا (بعد السادسة) ثمة ضرورة للتقارب دفعا للسأم. ومن وسائل دفع السأم أن تطرح ما تشتهي من أسئلة جادة، فيدور البحث عن إجابات لها بجدية أيضا وإن بدون توتر. وكان السؤال الكبير: «هل جنوب إفريقيا في مأزق؟. وبطرح آخر تكتنفه الدهشة: هل هذا البلد الذي يقف على رأس طريق البترول الرئيسي إلى الغرب (رغم وجود قناة السويس التي لا تستوعب كثيرا من ناقلات النفط العملاقة). هذا البلد الذي يجني من تجارة السلاح السرية ـ مع كل الأطراف ـ الكثير. والذي يمتلك ٤٠٪ من ناتج الصناعة الإفريقية كلها، و٢٥٪ من الناتج الإجمالي للقارة، و٦٤٪ من كل الكهرباء، و٥٤٪ من إنتاج المعادن، و٤٠٪ من إنتاج الذُّرة (في غير سنوات الجفاف النسبي)، و٦٦٪ من إنتاج الصلب، وبه تدور عجلات ٦٤٪ من سيارات إفريقيا، وتستخدم ٣٦٪ من تليفوناتها. هذا كله منسوب إلى القارة التي لا تأخذ منها جنوب إفريقيا غير ٥٪ من عدد السكان وهي إضافة إلى ذلك صاحبة الاحتياطي الأكبر من الذهب والبلاتينيوم والكروم والمنجنيز والفاناديون إضافة للكثير من الماس والفحم واليورانيوم والاسبستوس. فناتج الذهب وحده يبلغ ٦٠٠ طن سنويا أي ما يوازي نصف إنتاج العالم الغربي، وهي المنتج الأول للماس من نوع «جم» ومجموعة معادن البلاتينيوم. واحتياطي المنجنيز المهم في صناعة الصلب يصل إلى ٨٠٪ من الاحتياطي العالمي ورغم أن النادر الوحيد هو النفط إلا أن توليد الطاقة والوقود الصناعي من الفحم الموجود بوفرة يغطي ٧٥٪ من احتياجات الطاقة. ناهيك عن الصناعة النووية المتقدمة دون إعلان. إضافة إلى تقدم صناعات الإلكترونيات والسيارات والمواد الكيميائية والأدوية والملابس.

هذا البلد الذي يصدر ـ إضافة إلى كل ما سبق ـ ٦٠٪ من منتجاته الغذائية ويعتبر من بين ستة بلاد مصدرة للغذاء في العالم.

هل هذا البلد في مأزق؟ تشير محاولات الإجابة إلى أن الأمر في جنوب إفريقيا يأتي من الماضي ويصب في الحاضر متجها نحو المستقبل؛ فمن الماضي مازال شبح الصراع الإثني (العرقي) يحيا في شكل تربص في حالة هدنة ليس إلا. وفي الحاضر صار تراكم الثروة في جانب واحد على هذا النحو يهدد بكفها عن الدوران ناهيك عن إمكان تفجر قنبلة الأغلبية السوداء الفقيرة والتي يمكن أن تطيح بكل شيء أو على الأقل تستهلك الكثير من الثروة المتراكمة عبر الاضطرابات الدموية التي ستطال البيض مهما استهلك السود أنفسهم في الصراع الأسود / الأسود الذي نراه الآن بين أنصار بوتاليزي زعيم الزولو وأنصار مانديلا من المؤتمر الإفريقي.

أما العنصر الخارجي فقد أصبح ضاغطا عبر المقاطعة فهذا النمر الإفريقي ـ الذي لا يقل عن أي من نمور شرق آسيا ـ في حاجة إلى ساحة لركضه الاقتصادي. في حاجة إلى سوق عالمية عموما وسوق إفريقية متعطشة على حدوده. بل إن هناك من يعتقد بأن المقاطعة في حد ذاتها هي وسيلة لحبس هذا النمر في قفصه حتى لا يهدد النفوذ الغربي في السوق الإفريقية، فالمسألة ليست لأجل عيون السود المضطهدين في أرضهم ولا لخاطر أنهار دمائهم التي تراق منذ قرن من الزمان. إنها صراعات الشمال مع الشمال وإن كانت على أرض الجنوب.

ومع ذلك تتردد من كل الأطراف كلمة سحرية واحدة هي «الديمقراطية» في جنوب إفريقيا يقول بها الشمال: أوربا وأمريكا ـ ويقول بها الجنوب ـ في إفريقيا وآسيا. ولقد سمعتها في تلك الليلة عبر برنامج تليفزيوني سريع الإيقاع اسمه «الصدى» يذيع بالإنجليزية ضمن أربع قنوات إحداها بالأفريكانية واثنتان بالبانتو (لغة السود). من الثلاثي الجنوب إفريقي الأهم: الرئيس ديكليرك. وزعيم المؤتمر الإفريقي مانديلا، وزعيم الزولو «بوتاليزي».

قنبلة سويتو الموقوتة

راح «أوبا» السائق الدليل ينطلق بنا في الطريق السريع إلى سويتو. وسويتو هي اختصار لتعبير مدينة الجنوب الغربي. وهي تأخذ موقعها منسوبا إلى جوهانسبرج.

قال لنا أوبا النحيف الأسود وهو يقود بسرعة ومهارة ملتفتا إلينا حين يتكلم: «عندما يكون هناك أربعة ملايين إنسان أسود يعيشون في مساحة مائة كيلو متر مربع فتوقعوا أن تروا الجميل والقبيح. الجيد والسيئ».

وفي واقع الأمر لم نستطع أن نرى غير الألم، بعد تذكارات أبسطة الزهور في كيب تاون وأفراح أعياد جبهة الماء على شواطئها وناطحات السحاب الزجاجية البراقة وسط جوهانسبرج وشوارع الجاكارندا البنفسجية في بريتوريا.

كانت سويتو لطمة مفاجئة بعد طيران ناعم على طرق سريعة وجسور تأخذ مكانها بين تلال خضراء تتناثر فيها ڤيلّات البيض الناصعة المسقوفة بالقرميد والمحاطة بخضرة الحدائق.

وحتى نهبط إلى قلب سويتو صعدنا جسرا للمشاة. جسر آلام وظلال بشرية متهافتة. كان رجل عجوز يدفع بعربة يد محملة برقع كرتون يتوقف ليسد بالكرتون الفجوات بين قضبان حديد سور الكوبري. لقد كان يبني بيتا، فهذا الجزء من رصيف الكوبري هو مأواه. أما «أنجلينا» التي تبيع نوعا من الحلوى الرخيصة فهي تحتل زاوية عند رافد الكوبري. هنا محل رزقها البائس ومسكنها الذي ظللته بالخرق والكرتون. لقد فقدت زوجها وأبناءها في إحدى مذابح سويتو وتقول: لقد رأيت الكثيرين يموتون أيضا على هذا الجسر. الموت حتف الأنف. والموت بلا سبب كما يبدو للعابر العجول. لكن لحظة تأمل واحدة تكفي لإدراك الوجود القوي لكل حراس الموت: الفقر. البطالة. التخلف. وعندما يكون كل هؤلاء موجودين في بقعة من بلد متقدم وغني مثل جنوب إفريقيا فإن المتهم الأول يكون نظام التفرقة العنصرية.

لاحظنا أن أكثر من نصف البيوت ـ الأكواخ ـ ليس بها دورات مياه، لكن أوبا لفت نظرنا إلى مفارقة مدهشة هي أن كل البيوت ـ الأكواخ ـ بها تليفونات، فالتليفون مهم للاطمئنان على الأهل: من مات، ومن لم يمت بعد.

شيء ما، لعله الجميل الوحيد الذي لاح لنا عبر جولة البؤس تلك، فقد كانت أرواح الناس مرحة، بل طروبًا، وراقصة أحيانا.

ومكثنا نصعد في سويتو حتى ارتقينا تلة مرتفعة حيث أشار الدليل إلى بيت نيلسون مانديلا الجديد. كان البيت المحاط بسور عال من الجرانيت الوردي والطوبي مهجورًا فلم يكن هناك مانديلا إضافة إلى أن ويني التي صارت مطلقته ذهبت لتقيم عند أهلها. أسطورة حب انتهت نهاية مكررة لزيجات وقصص حب مناضلين وزوجاتهم. ويبدو أن الواحد منهم بعد خروجه من سجن طويل ـ مثل سجن مانديلا الذي استمر سبعة وعشرين عاما ـ يرى الحلم الذي لازمه طوال فتر سجنه وقد تعرى عري الحقيقة وافتقد سحر الحلم. ويولد السأم ؛ فالشقاق ؛ فالطلاق.

عندما كنا نودع سويتو مررنا بنزل جماعي لسكنى الفئات الأكثر فقرا فيها. كان شيئا أشبه بحظيرة للبشر، انطبعت صورتها المريرة على خلفية لم تبرح البال بتأثر. الأطفال. أطفال السود خفاف الظل. أطفال في أكواخ الصفيح. وفي الحارات الترابية. أطفال عند كل زاوية ووراء كل حجر. تلك إذن هي القنبلة السكانية الموقوتة التي قرأت عنها وتقول إن نصف عدد السكان السود في عمر الطفولة. وإن أوائل القرن القادم ستشهد تفجر هذه القنبلة إذ يتوقع أن تصير النسبة ١ : ١٠، فمقابل كل أبيض واحد سيكون هناك عشرة من السود.

ويالها من دانات بشرية.. في هيئة أطفال!

عبور بوابة إلكترونية لملامسة ذراع مانديلا

عثرت عبر المتابعة اللاهثة لما يدور في جنوب إفريقيا اليوم على اسم «محمد فالي» وعرفت أن هذا الشاب الوسيم المسلم هو ساعد مانديلا الأيمن في المفاوضات مع حكومة دكليرك، فهو كبير مفاوضي المؤتمر الوطني الإفريقي. وبعد محاولات تشبه حل لغز بوليسي استطعت محادثة محمد فالي تليفونيا وأخذت موعدا معه عصر يوم حار في صيف ديسمبر الوهاج، في مقر حزب المؤتمر الوطني الإفريقي. في رقم ٥١ شارع بلين بقلب جوهانسبرج.

عبرنا بوابة إلكترونية أكدت أننا لا نحمل أسلحة وأعطتنا أرقاما على كروت ممغنطة وضعناها على صدورنا وصعدنا إلى مكتب المفاوض الأول.

كنت ساعيا إلى اللقاء وفي رأسي تتلاطم أمواج لرؤى وهواجس تنبع من كل أنحاء هذه البلاد وقت زيارتنا، فعلى مبعدة عشرات قليلة من الكيلو مترات وقعت مذبحة راح فيها عشرات الضحايا من أنصار المؤتمر الوطني الإفريقي ـ حزب مانديلا ـ على يد مؤيدي حركة انكاثا من الزولو الذين يتزعمهم بوتاليزي. وفي الوقت نفسه كان المتعصبون البوير من الحزب شبه النازي يهددون بإيقاظ مناخ الإرهاب على يد أعضاء حزبهم العشرة آلاف إن سمحت خطوات ديكليرك بمجيء حكومة سوداء إلى السلطة. أي كان السود ضد السود والبيض ضد البيض، إضافة للشك التاريخي للسود في نوايا البيض، فثمة من يرى بين السود أن إعلانات ديكليرك الديمقراطية مجرد مناورة لكسر طوق المقاطعة الدولية حتى يخرج الاقتصاد من أزمته التي اشتدت بعد انخفاض أسعار الذهب العالمية وانكماش الاستثمارات من الداخل والخارج بسبب الاضطرابات، وبعد مرور عامين من الجفاف أدى لأن تستورد جنوب إفريقيا الحبوب (الذرة تحديدا) لأول مرة في تاريخها. وثمة من كان يؤكد أن ديكليرك صادق في نواياه الديمقراطية لإنجاز حكومة ممثلة لجميع الأجناس من السكان لأنه ابن الجيل الجديد من البوير الذين تعلموا جيدا وتشبعوا بروح ديمقراطي عبر الثقافة ولبعدهم عن سنوات الحروب من أجل البقاء.

حكى لي محمد فالي عن المفاوضات التي بدأت منذ عام ١٩٩٠ حتى ١٩٩١ مركزة على الإفراج عن المسجونين السياسيين، وانتقال المفاوضة في ديسمبر ١٩٩١ إلى موضوع دستور للمستقبل ناقشه ١٩ حزبا وليس المؤتمر الإفريقي وحده. ثم بدأ وضع تصور لجنوب إفريقيا جديدة وديمقراطية. وهو ما يرمز له بحروف تضمها كلمة «كوديسا». وفي ٢٦ سبتمبر ٩٢ عقد لقاء دكليرك ومانديلا الذي قدم مذكرة تفاهم تطالب بمنع حمل الأسلحة الخطرة وأن تعمل قوى الأمن على منع العنف وأن يفرج عن كل المعتقلين السياسيين حتى ١٥ نوفمبر ليعود المؤتمر الوطني إلى المفاوضات في ١٥ ديسمبر. وعن العنف قال فالي إنه من صنع النظام العنصري، فالجيش يدرب أفرادا يقودون عمليات العنف من حركة انكاثا. وما الصراع الذي يبدو أنه صراع بين السود والسود إلا من تدبير قوى الأمن الحكومية التي تقف خلف الستار ولا تمنع العنف. أما العنف في الشوارع فهو ظاهرة إجرامية وليست سياسية والبوليس يدعمها

بإضعاف العملية السياسية وبالتواطؤ مع المجرمين فصار الناس يخافون المجرمين والبوليس على السواء. أمام ذلك كله فإن الحل الديمقراطي هو الحل الوحيد لأنه سيمنع استغلال السلطة من قبل الجميع ويحترم حقوق كل فرد وكل فئة سياسيا وثقافيا ودينيا، فحكومة وحدة وطنية تضم كل الأحزاب ستعطي للناس شعورا بالثقة ليس فقط في حكومة مركزية قوية وإنما في حكومات محلية قوية أيضا حيث تكون البلاد مقسمة إلى عشر مناطق ومن ثم تكون كل المجموعات الإثنية (العرقية) ممثلة في العملية الديمقراطية، فبدون ديمقراطية لن يكون هناك نمو اقتصادي في جنوب إفريقيا لأن المستثمرين سيهربون من بلد مستقبله السياسي غامض.

هل تصدق حقا أن البيض يمكن أن يتخلوا عن السلطة للأغلبية؟ وثمة حديث عن أن هذا سيكون انتحارا سياسيا لهم؟

سألت محمد فالي فعاد يؤكد أن الديمقراطية هي الحل الوحيد للخروج بجنوب إفريقيا من أزمتها.. وثمة بوادر توحي بأن انفراجا سياسيا يتقدم على الطريق، فقد تم الإعلان عن لقاء قمة بين مانديلا وبوتاليزي (والأخير ليس كما توحي به صورة زعيم تقليدي للزولو فهو عصري للغاية وحاصل على درجة الدكتوراه ويضع في عروة بذلته الإفرنجية الأنيقة وردة يانعة ويتحدث عن كونفدراليات تعبر عن الاستقلال الذاتي لكل فئة وتتعاون في إطار مركزي). إضافة لذلك اقترح الرئيس ديكليرك جدولا زمنيا مدته ١٦ شهرا لإجراء أول انتخابات برلمانية يشارك فيها السود ثم تشكيل حكومة مؤقتة متعددة الأجناس في مارس ١٩٩٤. والخلاف البادي بين كل الأطراف حاليا هو خلاف على الوقت.

فهل هذا ممكن؟

لم يجب محمد فالي بلا أو نعم، لكنه كرر أن الديمقراطية هي الحل الوحيد.

وبينما كنت أعبر البوابة الإلكترونية خارجا إلى شوارع جوهانسبرج المتوترة تذكرت رأيا متشائما يقول إن مانديلا لن يحصل على الأغلبية فتعداد السكان الإجمالي يتراوح بين ٣٧ إلى أربعين مليونا به ٥،٥ مليون أبيض والملونون ٣،٥ مليون لن يعطوا لمانديلا

وكذلك المليون آسيوي وهندي، وإذا أضفنا لهؤلاء ٩ ملايين. من الزولو التابعين لانكاثا متهمة بالتبعية لسلطة البيض. وإذا قدر أن الملايين العشرة من ساكني المستوطنات لن يعطوا جميعا لمانديلا. فماذا يتبقى له من السود الذين يكشف التركيب العمري بينهم أن ٥٠ ٪ منهم يقل عن ١٨ عاما. أي دون سن الانتخاب.

فهل هي لعبة بيضاء جهنمية؟

أخيرا.. السير على حافة الذهب

على مبعدة خمسة عشر كيلومترا من قلب جوهانسبرج تقع مدينة «حافة الذهب» التي يصفونها بأنها تحتفظ بالماضي من أجل الحاضر.

ولقد كان انطباعنا عندما عبرنا بوابتها أننا نعود إلى القرن التاسع عشر، إلى زمن اكتشاف الذهب في هذه البقعة التي شيدها خروج المعدن الأصفر من مكامنه فأحدث النقلة الكبرى في تاريخ الصراع والاقتصاد على هذه الأرض.

كانت في زيارة المدينة رحلة مدرسية لتلاميذ صغار وتلميذات من حي الهنود، وفي قاعة صب الذهب التي تشبه مسرحا أضاء وهج الذهب المنصهر مشهدا يدعو إلى التأمل.

كانت بوتقة الذهب المصهور تأتي عبر باب ينفتح بتوقيت معين محمولة على عربة صغيرة يدفعها عامل أسود في ملابس زرقاء بينما يشرف على عملية الصب رجل أوربي ضخم يرتدي ملابس الكولونياليين.

ولأن المقاعد كانت مشغولة كلها بالسياح فقد أقعدوا تلاميذ المدرسة الصغار على الأرض حول مسرح صب الذهب، وعندما رفع العامل الأسود بوتقة الذهب المتوقدة وراح يصب الوهج المتألق في قالب السبائك لمعت عيون الصغار السود وتصاعدت صيحات إنشادهم: «هووه.. ذهب». «هووه.. ذهب»، كأنهم يهتفون إنه الذهب حقا. الذهب الذي أظهر بريقه مدى نحافتهم ومدى تبقع بشراتهم بعلائم سوء التغذية ومدى رقة حال ملابسهم المدرسية المصنوعة من التيل المنقوش بمربعات بيضاء وزرقاء متداخلة تشبه مرايل الخدم في بيوت المستعمرين.

نعم.. إنه الذهب عند حافة الذهب. الذهب الذي تستخرج منه جنوب إفريقيا أكثر من خمسمائة طن سنويا ويمثل إنتاجها نصف إنتاج العالم الغربي كله ويقدر ما دخل خزائنها منه بأكثر من أربعمائة ألف طن، نصف مليار طن من الذهب!!.

نعم.. إنه الذهب، الذي كشف بريقه المتوهج بؤسا مقيما في أرض الذهب. وهو الذهب الذي يبدو أن لا خلاص هناك ـ من إرث الدم وتوابعه ـ إلا يوم يضيء بريقه وجوها نضرة لكل أطفال هذه الأرض، بيضا.. وسودا.. وملونين.

المغرب

عناق البر والبحر

من إطلالة مسجد الحسن الثاني على المحيط الأطلسي في الدار البيضاء، إلى منارة «مالاباطا» المشرفة على البحر المتوسط في طنجة. مضينا على ساحل عربي تتناغم فيه الألوان والأصوات والروائح. بهجة حقيقية للحواس. وموضع للتوازن العربي المدهش بين الصحراء والبحر. إنه النموذج المغربي العذب، وهو اكتشاف عربي مهم نكاد نحن ـ عرب المشرق ـ لا نعرف عنة شيئا. بينما هناك كثيرون من كبار مبدعي الغرب جعلهم اكتشاف المغرب يعيدون اكتشاف أنفسهم.

«الوطن العربي لا يعرف ذاته. وفي أحوال كثيرة لا نعرف أنفسنا إلا عن طريق الآخر. وفي رأيي أن أكبر حاجز بين العرب هو خيال بعضهم عن بعض. نحن جميعا ضحايا المتخيل العربي عن ذواتنا. وكلما التقينا لا بد من أن نبدأ من الصفر».

ارتفع صوت «محمد بنيس» الشاعر والناقد المغربي المعروف عندما بلغ هذا الموضع من حديثنا. ومحمد بنيس نموذج يشبه المغرب نفسه كما رأيته إذ يعرف كيف يصطدم وهو يبتسم، وكيف يطرح الفكرة النقيض دون أن يقطع حبل المودة. وبحيويته الدافقة كف برهة عن الكلام بينما راح يعبث في لحيته الخفيفة كأنه يواصل الحديث في داخله. وامتدت البرهة إلى دقائق من الصمت أفسحت لنا فضاء نرتشف فيه شاي النعناع المغربي الشهير، ونتأمل براعة الزخارف التي تصنعها فسيفساء «الزليج» على جدران القاعة من حولنا، وعلى الأعمدة، وحتى حنية السقف المشغول كله بزخارف الجص المنحوت الملون. وكانت هناك نغمات من الغناء الأندلسي تتماوج خافتة في البعيد. بينما شارع «الجيش الملكي» يمتد تحت أبصارنا.. شريطا محفوفا بالأشجار ومطروسا بالسيارات،

تترامى على جانبيه عمائر الدار البيضاء الحديثة التي لم تطمس عتمة الغروب نصوع بياضها. أمّا ثبج الموج في البحر القريب، فلم يكن إلا بعضا من عرامة المحيط الأطلسي.

وفي فضاء رشفات الشاي المغربي المنعنع، بل المثقل بالسكر والنعناع، رفّت في خاطري انطباعة: ليست يسيرة أبدًا وقفة هذا البلد العربي على شاطئ المحيط الهائل والعارم.. الأطلسي الزاخر بالظلمات وبوارق النور الخاطف والأسرار. المغرب العذب ليس سهلا، هو الذي وجد تخومه في سلسلة جبال أطلس الخضراء الوعرة من ناحية، وساحلي المتوسط والمحيط من الناحية الأخرى. أبدا ليست الوقفة سهلة. فللجغرافيا ثمنها ومعانيها ومراميها أيضا.

عبرت الانطباعة رأسي العامر بدفء الشاي والنعناع، فأكبرت في محمد بنيس رفضه للكلام العام عن «المغرب»: «لا أومن أن شاعرا يمكن أن يتكلم في كل شيء.. الخطاب العام خلق لنا مآزق في الثقافة العربية». وأكبرت فيه الحس بالمسئولية الثقافية والمعرفية عندما أحال مشروعي في التقصّي إلى أسماء مغربية يثق في أصالة معينها المعرفي من جوانب بعينها. ولأن الوقت كان أضيق من إفساح المواعيد للتلاقي، اضطررت إلى أن أقنع من لوامع الأسماء الثقافية المغربية ببعض من كتابات عبدالله العروي عن تاريخ المغرب ومن محمد عابد الجابري عن الخصوصية المغربية. وأظن أن هذا مما أضاء لي رؤية ما لم أكن أراه قبل أن تلامس قدماي أرض الدار البيضاء. ثم كانت العين ترى والأذن تسمع، وجاء الحصاد انقلابا كاملا لمشروع استطلاعي الذي سافرت به إلى المغرب.. فقد (هندست) له مسبقا فكرة عنوانها: «المغرب.. صراع البر والبحر» مفترضا خلالها أن البحر أمواج وافدة، غازية، وناحرة، ومقتلعة. بينما اليابسة أصيلة، مقيمة، ومقاومة. وإنني الآن بعد تلك الرحلة على الساحل المغربي لأشعر بفجاجة الفكرة المسبقة وفرط هندستها. لهذا أهدمها وأتحول إلى وجهة أخرى، أتلمس هذا النسيج المغربي الرهيف، المركب، الذي وإن كانت أدارت أنواله مواجهات بين البر والبحر والبر والبر. إلا أن نسقه الفريد، في رأيي، مدين بصحته وفرادته لطابع مغربي أصيل أحال الصراع إلى عناق وهو ما تبدى لي عبر تلك الرحلة على الساحل المغربي.

لهذا.. يتوجب أن أعود إلى البداية.

كان ظلاما بينما طائرتنا تعبر حدود الصحراء متجهة عبر خاصرة المغرب إلى عاصمته التجارية «الدار البيضاء». وفي الظلمة لم يكن ممكنا أن أرى الرمل المغربي تحتنا، لكنني هجست بوجوده. ولأننا كنا نطير فقد تذكرت طيارا أوربيا شهيرا جعلته المغرب، والدار البيضاء خصوصا، يكتشف فراديس روحه، فيغدو علما من أعلام الروح الإنساني. إنه الكاتب «أنطوان سانت أكسوبري» الذي كانت دنيا الأدب العالمي في توقيت رحلتنا تحتفل بالذكرى الخمسين لاختفائه الغامض، بينما تحل في ذات الوقت تقريبا الذكرى الخامسة والسبعون لرحلة طيرانه الأولى في ١٣ يوليو ١٩١٩ من تولوز في الدار البيضاء. إلى المغرب التي استخرجت من الطيار كاتبا إنسانيا بسيطا وعميقا، فقد جعلته على حد تعبيره يستعيد سحر أحلام طفولته الباكرة ويعيها في نور جديد، نور طبع حياته فيما بعد بخليط من الإنسانية والتواضع والشجاعة. لقد سبقه في ذلك مبدعون غربيون كثيرون، مشاهير أيضا.. الكاتب بيير لوتي والفنان ديلاكروا، ولحقه آخرون. كان من بينهم أندريه موروا الذي قال عن المغرب: «إنها القديم والجديد، المحافظة والمغامرة، الشاعرية والعملية. وهي باختصار: إنجاز فني».

فنانون وكتاب عالميون اكتشفوا أنفسهم من جديد في المغرب، وستذكرنا بهم كل خطوة نخطوها في رحلتنا هذه. لكن أنطوان سانت اكسوبري يظل لصيقا بالدار البيضاء التي دخلنا مجالها الجوي قرب الفجر. فقد كان صاحب رواية «الأمير الصغير» الفاتنة البسيطة العميقة..كان طيارا مسئولا عن البريد بين تولوز الفرنسية والدار البيضاء وداكار. كانت فترة وقوع المغرب في قبضة الاستعمار الإسباني، وكان أكسوبري يحمل معه شأن طياري ذلك الزمان قفصا به بعض من الحمام الزاجل يطلقه مع رسائله لينقل معلومات طيرانه إلى المطارات التي كانت بها «بيوت للحمام» تستقبل تلك الإشارات المرفرفة، قبل أن تتطور تقنيات «اللاسلكي». ولقد أطلقت المغرب حمائم روح أكسوبري الذي كان نموذجا مختلفا من الأوربيين الذين انخرط في مقاومتهم المغاربة ولم يكونوا يستثنون منهم أحدا، إلا هذا الفرنسي القائل: «أفضل ما يقرب بين البشر والبشر هو العلاقات الإنسانية القائمة على التكافؤ»، وكان تطبيقه لهذه المقولة

يثمر عند أطراف للدار البيضاء علاقة فريدة مع زعيم قبائل «المربوط» المغربية. كان الزعيم يعلم أكسوبري اللغة العربية ويشرح له تقاليد القبائل. وكان أكسوبري يتحدث بسعادة عن لقاءاته مع هذا الشيخ المغربي في ظل الخيمة ومع رشفات الشاي بالنعناع. ويرى في صحة علاقاته الإنسانية نوعا من المسئولية وهو الذي طالما ردّد: «أن تكون رجلا، أو إنسانا، يعني أن تكون مسئولا». ولقد كسرت قلبه روح اللا مسئولية الأوربية التي أشعلت نيران الحرب العالمية الثانية، فقال قبل اختفائه: «إنني لشد حزين وآسف لجيلنا الذي فقد إنسانيته» ثم ركب طائرته في الحادي والثلاثين من يوليو عام ١٩٤٤ كواحد من المنخرطين في المقاومة ضد الفاشيست وكانت طلعته باتجاه جرينوبل، لكنه لم يصل إليها أبدا، واختفى.

ظل أكسوبري يحلق في خاطري حتى حطت الطائرة على مدرج مطار محمد الخامس في الدار البيضاء. فقد كنت مشغولا بهذه العلاقة بين الشرق والغرب التي يجسد سؤالها المغرب. وكانت هناك دعوة للاحتفال بذكرى الكاتب الإنساني تقيمها جمعية «الشرق والغرب» التي نشأت بمبادرة من «ياسمينا الفيلالي» لتعني بالحوار الإبداعي بين العالمين اللذين تفصل بينهما مياه المتوسط ويكون الفاصل بينهما أضيق ما يكون عند الساحل المغربي المواجه لأوربا.

من الجو إلى الأرض انتقلنا، فكأنني أنتقل بسؤالي إلى الواقع المغربي. وبينما تلقانا بترحاب جميل السيد مصطفى دنيني مسئول الصحف بأكبر مؤسسة توزيع مغربية تسمى اختصارا «سوشبيرس» ومضى بنا على الطريق المشجر الطويل من الوادي إلى الساحل، تعرفت أول وجه مغربي. رجل دقيق يقظ ومنفتح بأريحية على ثقافتين يجيد لغتيهما العربية والفرنسية وأخبرني أن معرفة لغة ثانية أمر شائع بين أبناء جيله. وأحسست بالتوازن في هذا النموذج المغربي مزدوج اللغة. وراح إحساسي يتنامى عبر الانطباعات الأولى عما أراه حولي بينما كنا نوغل في شوارع الدار البيضاء العصرية الناصعة، التي يعود كثير من أبنيتها بطرازه إلى أبنية الثلاثينيات الفرنسية. وفي بشائر الصباح الباكر كان لي أن ألمح بداية ما سوف يلفت انتباهي بشدة فيما بعد، وهو الإحساس بالتصالح بين الناس وبيئتهم، بين الزمن المغربي الكائن والأزمنة التي كانت.

فماذا عن تمحيص ذلك؟

الدار البيضاء قد تبدو نقطة ليست دالة بوضوح على النموذج المغربي. لكن هذا للوهلة الأولى. إنها مدينة كبيرة وغضة في أن تنامت مائة مرة أكثر من حجمها الذي بدأت به عام ١٩٠٠، وتكاثر سكانها من عشرين ألفا إلى أكثر من ثلاثة ملايين. توحي للوهلة الأولى بنمط حاضرة عصرية من حواضر البحر المتوسط. مدينة «بيزنس» بطرق واسعة وأبراج سكنية وفنادق فاخرة وأحياء شعبية عند الأطراف. لكن لا.. فقليل من الإيغال في قلب الدار البيضاء هذه، سواء باتجاه المحيط أو العكس، يكشف عن بعض من خصوصية ألوان المغرب وعطورها ورفيف الروح فيها. ولعل مسجد الحسن الثاني الكبير، الأعجوبة الإسلامية العصرية المطلة على مياه الأطلسي.. لعله يكون بداية لمشهد مغربي ذي خصوصية وفرادة. وأرى أنه أبعد من زمن افتتاحه بكثير. صحيح أنه افتتح في أغسطس ١٩٩٣ بعد ست سنوات من التشييد، استهلكت ٥٠ مليون ساعة عمل، وجهود ٢٥٠٠٠ فنان (ولا أقول عامل)، لكن هذا «القلب الرمزي» كما وصفه أحد الكتاب الغربيين فأحسن الوصف يكتنز في رحابه وبين حناياه لمحات معتقة من روح المغرب الفنان المؤمن، والمنفتح. كما أن الصروح العملاقة البديعة من هذا النوع هي حالة من تجلي اللحظة التاريخية حتى لو كان مولد فكرتها في عقل ملك. ولعلي أبرهن على ذلك بما شاهدته في كثير من البيوت والمحال والحوانيت من احتفاء فخور بامتلاك إيصال للتبرع مشاركة في بناء هذا المسجد الشامخ. فالإيصال رأيته كثيرا داخل إطار معلق على الحائط بشكل يوحي بالزهو والتشريف. إنه قلب رمزي حقا. ومن ينظر مثلما فعلت من مكان مرتفع في نهاية الدار البيضاء فسوف يرى كيف أن هذا الصرح ـ منفردا ـ قد طبع المدينة كلها بطابعه. وقد بدا لي المشهد الرحيب وكأن الدار البيضاء وهي بيضاء حقا سفينة عريضة تشق زرقة المحيط الأطلسي اللا متناهية الأفق بمقدمها الرصين المطمئن الذي تشكله بناية مسجد الحسن الثاني الشهباء المتميزة، المكللة بالقرميد الأخضر، فيما المئذنة الشاهقة الموشاة بفيروزية الزخارف تعلو في السماء فكأنها صارٍ من صواري الروح المسلم ينشر شراعا شفيفا يمتلئ بهواء المحيط العفي الذي لا يبين، لتثبت السفينة في مرساها المغربي وتتكسر عند أقدامها أمواج المحيط إن عنفت أو

طغت. فكأن هذا الصرح رمز لمسعى التوازن المغربي على مستوى الشكل ينم عن حرص على هذا المسعى في الجوهر.

مسجد الحسن الثاني في الدار البيضاء، إذن، ليس بعمر افتتاحه أو بدء تشييده، أو حتى بزوغ فكرته، بل هو أقدم من ذلك كما أرى، كما استنتجت من تأملي المبهور لعمارة المسجد وزخارفه ونقوشه. فالأطنان الخمسة والستون ألفا من الرخام، والأعمدة الألفان والخمسمائة، وقاعة الصلاة التي تسع عشرين ألف مصل إضافة إلى ثمانين ألفا في الباحة. والمئذنة مربعة المقطع التي ترتفع مائتي متر، والأبنية الملحقة بالمسجد لتشكل مجمعا ثقافيا إسلاميا متكاملا.. كل هذا ينبض بفن الروح المغربي المتصالح مع ذاته والمسبوك من عناصر تصاهرت معا برغم كونها من مصادر شتى..زخارف «الزليج» أو فسيفساء الخزف الملون على الأعمدة والجدران وأضلاع المئذنة وهامتها. والحفر على خشب الأرز الذي يجلد صحن المسجد. وأعمال الجص المنقوش الملون في الحنايا والأفاريز. كل هذا الفن ليس ابن ثماني سنوات أو عشر أو عشرين. وليس وقفا على مسجد الدار البيضاء الكبير هذا. إنه تراث فني يستمد جذوره من عبق أول مسجد في عمر الإسلام بالمدينة المنورة منذ ألف وثلاثمائة واثنتين وسبعين سنة مضت. ويبلور حصاده من إسهامات السنين والأمصار، من الكوفة والأندلس حتى فاس ومكناس ومراكش. ليستقر كنزا فنيا لدى الصانع المغربي ورمزا تنداح ظلاله أبعد من الرامز ذاته. ففسيفساء الزليج المغربي بوحداتِها المتكررة بنمنمة وإتقان وبهاء تجذب الرائي لتنتزعه من عالم الواقع المحسوس إلى عالم الروح اللا متناهي. فالتكرار البديع يبدو وكأنه لا ينتهي ومن ثم يكف البصر عن التركيز فتتحرر البصيرة.

هذا الصرح المنطوي على ذلك الإرث الفني المغربي الإسلامي هو نفسه نموذج على الروح المغربي المنفتح على ما ينفع، دون ذلك التشنج المعهود لدى الباحثين بالعنف عن هوية؛ فالمسجد يمر تحته نفق طويل حديث حتى يستمر في السريان طريق «سيدي محمد بن عبدالله» وثمة (جراج) متعدد الطوابق تحت أرض الساحة، أما صحن المسجد فإنه ينفتح بتجهيزات إلكترونية متطورة فيما لا يتجاوز ثلاث دقائق عندما يكون الجو صحوا، وينغلق في الدقائق الثلاث ذاتها إن أنذرت بالمطر.

هذا عن المسجد، أما عن الناس، فقد شكل المسجد لهم متنفسا روحيا رحيبا وساحة طيبة لتنسم هواء المحيط في ساعات العصر والغروب العذبة، حيث يقتعدون الأسوار الخفيضة لباحته المطلة على الماء من كل ناحية.. تستجم أجسادهم في طراوة النسائم وترف الأرواح في حضرة هذا النقاء الباذخ.

لقد جلسنا مع الناس نستروح نسائم المحيط، ونستجلي آفاق الشاطئ المغربي، وأشار مرافقنا «بانوس عبدالكبير» إلى بروز صغير من الأرض داخل المياه باتجاه الجنوب وهو يقول: «مربوط سيدي عبدالرحمن». وكانت إشارات عبدالكبير المغربي الكريم والمرح تتحول فورا إلى حركة يحملنا عبرها لنرى مغزى الإشارة. وعلى امتداد (الكورنيش) ذي الشواطئ الفسيحة ومطاعم المأكولات البحرية الطازجة توقف بنا «بانوس عبدالكبير» على الشاطئ حيث يمتد لسان رفيع من الرمال والصخور إلى جزيرة صغيرة تعلو مدارجها بيوت صغيرة بيضاء. وكان هناك بعض من أبناء البلد يتجهون أو يعودون من الجزيرة. ولما رآني عبدالكبير لا أفهم كلمة «مربوط» ترجمها في «مقام» فثمة ضريح لأحد الأولياء في الجزيرة يذهب إليه الناس لقراءة الفاتحة استجلابا للبركة وأملا في أن يزيل الله كروبهم.

قلت لنفسي وأنا أطوف بناظري حول المكان.. عمائر المدينة، والشاطئ، والمقام القريب، والمسجد الشاهق في المدى: «كل شيء هنا». وأضيف الآن في لحظة الكتابة: «كل شيء هنا..وكل الأشياء في تصالح».

ويتنامى إحساسي بحالة التصالح هذه إذ نكمل جولتنا بالدار البيضاء، فمن أقصى غرب الشاطئ نمر بفندق «أنفا» فنتذكر أن الفينيقيين كانوا يقيمون لهم ميناء في هذا المكان، وفي هذا المكان تم لقاء روزفلت وتشرشل عام ١٩٤٣ فاتخذوا قرار غزو سيشل وقرار الإنزال البري ضد هتلر عام ١٩٤٤.

نمر قرب الميناء بالمدينة القديمة التي تتهيأ للتبدل حتى يمر الطريق الكبير الجديد إلى مسجد الحسن الثاني، فنتذكر أن البرتغاليين أقاموا في هذا المكان لأول مرة منذ خمسة قرون، وكعادتهم التي جعلت البعض يسميهم «براغيث البحر» لم يمكثوا في المكان، لكنهم عادوا إليه بعد قرن وأسموه «كازابلانكا» أي «البيت الأبيض» أو الدار

البيضاء، وكان مقامهم ينهض على مرتفع يشرف على خليج صغير دمره زلزال لشبونه عام ١٧٥٥. ثم عاد بعد ذلك التجار المغاربة وعمروا المكان وأسمو المدينة (وينطقها المغاربة لمدينة).. المكان مزدحم ويعج بسكانه البسطاء، وإذ نخرج منه نمر بمركز كبير للتسوق يسمى «مركز ٢٠٠٠» فكأن خمسة قرون كاملة قد ذابت في (المدينة) وتماهت في زمن واحد هو الزمن المغربي.

الزمن المغربي.. أراه بعدا يختلط فيه الزمان بالمكان، وأراه يتجلى أكثر ما يتجلى في الدار البيضاء بمنطقة «الحبوس». وهي نموذج مصغر لمدينة مراكشية شكلا وموضوعا. وقد بدأ تبلورها في الثلاثينيات كمقام لأبناء البلد في زمن عزت فيه البيوت وقت الهيمنة الاستعمارية الفرنسية. الآن تبدو الحبوس قطعة فنية معتقة من ذلك الزمن الحي والحيوي. حوانيت بائعي، الجلايات»، والطرابيش، والزرابي المغربية على أنواعها، والخشبيات، والنحاسيات، والزيتون الذي يستقل بسوق خاص تحتشد فيه عشرات الأنواع التي يصعب على غير المغربي المخضرم أن يميز بينها.

الحبوس.. حبور الحديقة المورقة وسط الميدان الصغير الجميل، والأبنية الخفيضة المتكاتفة في تلاحم، والأزقة، والحمامات، وأبواب المدينة، وبناية المحكمة الشرعية بسقوفها القرميدية وأبراجها العديدة ثم امتداد الدروب حتى جادة النخيل الباسق وبوابة القصر الملكي.

وفي الحبوس نادتني المكتبات والكتب. وتشهد العناوين والصفحات بخصوصية الاجتهاد المغربي وانفتاح ذهنية هذا الاجتهاد. القديم يجاور الجديد، والمحافظة تفتح على حرية حية. واللحظة تفتح من مشارب شتى بلا افتعال ولا وجل، لهذا أظن أن الخطاب المغربي في حقل الثقافة العربية يلعب اليوم دورا قائدا في مجالات تسود فيها مفرداته، كالنقد الأدبي الحديث، واللسانيات، ونظرية المعرفة، وعلم الاجتماع السياسي، والمثاقفة. والأسماء عديدة ولامعة يصل مدى بريقها إلى المشرق بجدارة.. العروي، أركون، الجابري، براده، بنيس، إضافة إلى أسماء لا نعرفها وما أقسى ألا نعرفها.

الكتب صورة من صور الحياة في زمن نشرها وانتشارها.. وأرفقها شهادة على حالة التصالح المغربي مع الذات، فتلمس الهوية في هذا البلد المواجه للبحر والمحيط،

المطل من أقرب نافذة أو شرفة على الآخر قضية حقيقية. لكن السوية المغربية تسعى إليها بلا تشنج ولا عنف، برغم أن العنف المتشنج على تخومها يذبح البنات ويمثل بالجثث. لهذا يطرح النموذج المغربي بهدوئه أسئلة حرجة ومحرجة على التطرف الذي يعربد هنا وهناك في وطننا العربي خارج الحدود المغربية. ففي المغرب فقراء، وتباين اجتماعي، ومواجهة جغرافية سياسية للآخر، وإرث تاريخي غير مبرأ من عسف الآخر بل مواجهة يومية مع الآخر، فلماذا لم أحس بوجود التطرف في المغرب؟ كما لم أحس بالتفريط. بل أحسست بالتوازن والتسامح. لماذا؟

ويجيئني مقترح للإجابة على لسان محمد عابد الجابري إذ يقول: «إنه المشروع الثقافي المغربي الذي تم التبشير به منذ أواخر الثلاثينيات، المشروع الداعي إلى تأصيل الحداثة وتحديث الأصالة، والذي بقي إلى اليوم مطمح الأجيال الجديدة». بلغة أخرى.. إنه الاطمئنان إلى صحة تعايش الثقافات. وبلغة الجغرافيا المغربية..إنه حوار البر والبحر...وسيرورته السوية إلى العناق.

فهل نستمر في لمح هذا العناق، بينما تتواصل رحلتنا على الساحل؟

بستان في قلعة البحر

أردنا أن ننتقل إلى الرباط، فقالوا لنا: «خذوا عويطه.. إنه الأسرع»! وعويطه الذي قصدوه ليس هو بطل العَدْو المغربي العالمي الشهير «سعيد عويطه»، بل هو قطار سريع يربط بين الدار البيضاء والرباط. وقد أطلق عليه المغاربة هذا الاسم مرحا ودلالة. «فالمغاربة انبساطيون وإن من دون صخب. وأظن أن هذا الانبساط الإنساني نقيض الانطواء هو شرط من شروط التوازن والتصالح الذي لمحته وألمحت إليه. لم نأخذ عويطه، إذ أصررت على أن أظل بجوار الماء، على شريط الساحل. ومرة أخرى هبت لمعونتنا الدار الشريفية لتوزيع الكتب والصحف «سوشيبرس» إذ منحتنا مودّة أحد أبنائها بانوس عبدالكبير الذي خف إلينا بسيارته وخبرته لينقلنا على الطريق الساحلي السريع إلى العاصمة «الرباط». وفي الطريق جعنا، فانعطف بنا «بانوس» إلى واحدة من الاستراحات الشعبية على الطريق. وهي مطاعم تعرض في واجهتها قطع اللحم

الطازج ويختار الزبون ما يريد ومن اختياره يصنعون له «الكباب» الذي كان طيبا جدا ربما لطزاجة اللحم، وربما لأن هذا اللحم نتاج المراعي الطبيعية التي رأيناها فيما بعد تنتشر بين تلال ووديان الأطلس عندما ذهبنا إلى «الريف».

كان الجفاف الذي يضرب الأرض المغربية منذ سنوات باديا في المساحات الخصبة العطشى التي لم تنزرع، لكن حزام التخضير حول الرباط كان مستمرا برغم الجفاف. ومن أحد الأبواب الأثرية الضخمة بمدينة الرباط دخلنا. وعلى الفور انفسحت أمامنا الشوارع النظيفة الواسعة بأشجارها الوارفة والنخيل الباسق الذي يعطي تنسيقه في الشوارع انطباعا لا ينسى. ومن الشوارع الحديثة انتقلنا إلى المدينة القديمة التي يفضي إليها شارع الحسن الثاني. ومررنا بسور الأندلس فالسوق المغطى ثم «السويقة» أو السوق العتيق الذي يمنح الرائي مذاقا مغربيا خاصا حيث مئات المتاجر التي تصل حتى «سوق السباط» وصلنا إلى «زنقة القناصلة» وصعدنا إلى «قصبة الوداية» المطلة على المحيط الأطلسي...

طالت جولتنا في قصبة الوداية، ووددت لو تطول لحد الإقامة، فثمة شيء جميل وأليف في هذه الأحياء الشعبية العالية المطلة على الماء المحاطة بأسوار المدن القديمة. الطابع نفسه في كل «قصبة» صعدنا إليها من الدار البيضاء وحتى طنجة. شبكة الدروب الدقيقة الملتفة والمتواصلة بين البيوت البيض البسيطة النظيفة، والورد والنباتات التي تتبدى مشرقة ورهيفة على خلفية البياض الناصع.

«القصبة» المسورة تبدو اختزالا جماليا لعناصر مغربية شتى، محصلة سلمية لعراك طويل بين البر والبحر. ولقد وقفنا هناك فوق «برج القراصنة» لنرى أمواج المحيط تتكسر على الصخور عند أقدام الحي الذي تحرسه الأسوار العتيقة. وكانت المدينة الشقيقة للرباط «سلا» تلوح شفيفة البياض على الضفة الأخرى من مصب نهر أبي رقراق الذائب في اتساع المحيط. وقبل أن نغادر مررنا بمصنع «الزرابي الرباطية» البهيجة حيث تتناغم الألوان الحمراء والزرقاء وفي زركشة تتوسطها دائما نجمة ويسورها محراب دائري. وعرجنا على أقدم مساجد الرباط والراجع تاريخه إلى عام ١١٥٠ ميلادية. ولم نغادر القصبة إلا بعد أن طفنا بمتحف الفنون المغربية وفتنتنا حديقته الداخلية

المنسقة على الطراز الأندلسي. وانتهينا إلى مقهى ظليل يطل على مصب النهر في مياه المحيط.. وكان الشاي بالنعناع وداعا عطرا لقصبة الأودية. لقد صعدنا بعد ذلك إلى مرتفع صومعة حسان وضريح الملك محمد الخامس، ومن إيحاءات التاريخ القديم الذي تلقي بظلاله المئذنة الهائلة المكسورة والأعمدة الواقفة في الفضاء المشمس. ومن جلال السكون في الضريح المزين بلمحات كل الفنون المغربية رحت أطل على الرباط من هذه الذروة.. على يساري الرباط تمتد حتى القلعة المطلة على المحيط.. وعلى اليمين سلا يوشي بياض مبانيها خيط السور العتيق.. وبين سلا والرباط يمضي في الأسفل نهر أبي رقراق متجها إلى المحيط حيث تتكاثر على شاطئه زوارق صيادي الأسماك ويقف على البر الراغبون في شراء الأسماك الطازجة...

البراح الشفيف المضيء، والنسمة العذبة، وجلسة هادئة في ظل صومعة (مئذنة) حسان، وإطلالة شاملة على المدينة جعلت أمواج التاريخ تتدافع في الخاطر...

هنا كان يقف البحارة الفينيقيون والقرطاجيون ومن بعدهم الرومان الذين أسسوا مدينة «شالة» حاملة ذلك الاسم الذي كان يتسمى به النهر. وكانت «شالة» أهم موانئ «موريطانيا الطنجية» التي احتلها الرومان واندثرت بانهيار الإمبراطورية الرومانية. وفي القرن العاشر للميلاد أسست قبيلة بربرية من المسلمين هي قبيلة «زناته» مدينة «سلا» على الضفة اليمنى من النهر بينما شيدت على الجانب الأيسر حصنا دفاعيا ضد هجمات ما يأتي من البحر وأسموا الحصن «رباطا». وأعطى الحصن للمدينة اسمه. وفي عهد الموحدين قرر القائد الكبير عبدالمؤمن تحويل هذا الموقع إلى مركز محصن تنطلق منه الحملات العسكرية إلى بلاد الأندلس فصار «رباط الفتح». وفي نهاية القرن الثاني عشر أصبحت تتكون شيئا فشيئا مدينة داخل سورين طويلين وكان السلطان يعقوب المنصور يحلم بأن يجعل من رباط الفتح عاصمة كبرى. ويحكى أن منارة حسان تلك التي شاهدنا بقاياها أمام ساحة ضريح محمد الخامس كانت تشكل مئذنة أحد أكبر مساجد العالم الإسلامي آنذاك. ولما استولى المرينيون على الرباط عام ١٢٥٣ م أصبحت مجرد مدينة صغيرة مقارنة مع مدينة حكمهم فاس، ولم تدب الحياة في الرباط من جديد إلا بعد توافد المهاجرين العرب عليها آتين من بلاد الأندلس.

وحوالي عام ١٦١٠ ميلادية بدأت تصل تباعا إلى مدينة الموحدين الأفواج الأولى من المسلمين النازحين من بلاد الأندلس لإسبانيا واستقرت في ما كانوا يطلقون عليه سلا الجديدة (وهي المدينة القديمة في الرباط حاليا) قبالة سلا القديمة على الضفة اليمنى لنهر أبي رقراق. وبمرور السنين توافد عليها بعض القراصنة الأوربيين من جنسيات شتى وصاروا يعرفون بقراصنة سلا الذين راحوا يهاجمون قوافل الملاحة القادمة من وإلى أوربا. وظلت الرباط وتوأمتها سلا تعيشان حالة من عدم الاستقرار إلى أن ظهر ملوك الدولة العلوية فاستولى «مولاي رشيد» سنة ١٦٦٦ على حصن أبي رقراق وبعده استطاع «مولاي إسماعيل» إخضاع المدينتين لحكمه.

وفي القرن التاسع عشر أصبحت الرباط مركزا كبيرا إلى أن تحولت رسميا إلى عاصمة إدارية للمغرب عام ١٩١٢

رحت أتأمل سلا والرباط من قمة صومعة حسان وأستعيد ملامح قنطرة مولاي حسن الواصلة بينهما وصور الأزقة العتيقة والحوانيت وما تعج به من أثواب مطرزة وخزف ملون وخشب منقوش وأثاث من القصب. أستعيد مروري عبر الأبواب العتيقة وأدور في أزقة القصبة النظيفة المرحبة بالنور. وأستعيد وجوه الناس الطيبين. وأتعجب أن تكون هذه الحالة من الدعة الجمالية والسلام هي محصلة صراع طويل بين البر والبحر، أخذا وردا، حتى انتهى الصراع إلى عناق وادع. فلا بد أنها روح الأرض وجوهر الناس. فماذا يقول الشمال؟

بياض ناصع وزرقة عميقة

٢٢٢ كيلو مترا شمال الرباط، وأربعون كيلو مترا قبل طنجة تسطع الشمس ويهفهف نسيم المحيط. هنا أصيلة. ونستريح ونهدهد التعب وجوع الطريق بوجبة طازجة من سمك الأطلسي في مطعم للمأكولات البحرية يطل على الماء..ثمة أغانٍ إسبانية. وضيوف من جنسيات شتى. وعمال المطعم المغاربة حسنو الضيافة ونشطون. وأبدأ في الانفتاح على نغمة جديدة..بل نغمة مغربية عميقة تطفو كلما اتجهنا شمالا فالإحساس بالآخر لا يزج به في إطار التربص. بل ثمة رغبة في الاقتراب الإنساني مادام خيرا هذا

الاقتراب. وإذ أتجاذب مع جاري المغربي أطراف هذا الهاجس يرد بالمثال العملي: «اسمع..هذا الرجل العجوز هناك وهذان ابنته وحفيده..إنه إسباني..كان يمتلك هذا المطعم وهو لا يعيش هنا الآن..لقد ترك المطعم لعماله المغاربة وهو يأتي ليستعيد أطيب ذكرياته ويقيم أياما ويذهب..ليس كل الغربيين أشرارا».

ولقد جعلني المذاق الرائع للسمك المغربي المعد بطريقة إسبانية أوافق تماما على مقولة الرجل: ليس كل الغربيين أشرارا! ونهضنا لنصعد إلى المدينة القديمة.وهي كشأن القصبات جميعا..مدينة داخل أسوار حصن عالية عتيقة. وأمام باب القصبة الهائل الذي كان يغلق قديما في المساء ليرد كيد المغيرين ليلا من البحر، أقرأ شعرا محفورا على قائم من الرخام في حديقة أمام الباب الكبير وهي تسمى باسم الشاعرة «شكايا أوتامسي» صاحبة الأبيات: «لا / لن تعرفوا شيئا عن ذاكرتي/ ولا عن حيواتي الكامنة / تعالوا هذا المساء/ رأسي مطيب/ عرقي من الصمغ العاطر/ تعالوا هذا المساء/ أشعلوا المصابيح/ فروحي متأهبة تماما».

«زيليس» القديمة يؤكد المؤرخون أن تاريخها يمتد بعمق ثلاثة آلاف وستمائة سنة من الإطلال على المحيط وقد تعاقب على احتلالها كل الآتين على الموج: الفينيقيون، والقرطاجيون، والبيزنطيون، والرومان، والبرتغال، والإسبان. وبعد دخول الإسلام إليها أسميت أصيلة وأعيد بناؤها عام ٨٤٤ م.

هناءة الجلوس في المقاهي المفتوحة على الأرصفة حول القلعة، وعذوبة سير الهوينى في أزقتها بالغة النظافة داخل السور. البيوت البيضاء، ولمسات الألوان على الحيطان وبهجة الشبابيك، وامرأة ترتقي سلما مزدوجا لتجدد طلاء نافذة بأزرق كزرقة الموج، وأولاد يرددون جذلين بلغات شتى «مرحبا. مرحبا». وبالعذوبة الساحة الصغيرة بين البيوت البيضاء المنمنمة، «ساحة برج القمرة» قصر الثقافة الذي كان مقر إقامة الباشا الريسولي. نمضي كأننا نصعد. ونصعد حتى نبلغ لسانا ممتدا فوق الماء عند قمة أصيلة فينجلي بهاء المشهد الناصع للبيوت المتلاحمة داخل السور الشاهق العتيق. وإذ أطل إلى الأفق ثم أسفل يجيء المحيط وتتكسر أمواجه عند أقدام القلعة. وعلى الشاطئ الصخري يلعب الأولاد الكرة بينما التمت مجموعة منهم فوق صخرة

ضخمة وسط الماء للصيد. وهنا وهناك بعيدا عن الماء تترامى التلال الخضراء في لوحة عناق البر والبحر.

إنه بر المغرب، وهو بحر المحيط.

وفي قمة النشوة الرائقة أملأ رئتي من أنقى هواء على وجه الأرض. هواء المحيط الذي تعلوه شمس عذبة. وأحس بتصالح روحي مع روحي. فهل هذا هو الجذر البيئي، للتصالح الذي أعني وألمح؟

عند مفرق البحرين

«كيقولو طنجة اللي ما شافاتي كتبكي عليه، واللي شافا كيبكي عليها» هل هذا صحيح؟

سألت الروائي الكبير محمد شكري فضحك ضحكة خفيفة، بينما قهقه الحاج حمدي غراس ابن طنجة الذي أكرمنا بصحبته الطيبة. ولا بد أن ضحك الحاج حمدي كان راجعا إلى نطقي «الطنجاوي» المهشم، بينما هو طنجاوي أصيل وتلك لهجته التي لم يغيرها أبدا طوال اصطحابه لنا بطول طنجة وعرضها، بل وعمقها حتى جبال الريف.

الجملة حرفية من رواية «الشطار» لمحمد شكري الذي أخبرني أن الاسم الأصلي للرواية هو «زمن الأخطاء». فقلت إنه أفضل. فهز كتفه مومئا إلى رغبة الناشر المشرقي.

الجملة تعني: «يقولون إن من لم ير طنجة تبكي عليه، ومن رآها يبكي عليها». رددها أحد أبطال رواية شكري. كسؤال موجه إلى بطل الرواية الذي هو صورة شكري الروائية المسكون بحب طنجة والذي ما فتئ يفكر في (ليل طنجة المغري إلى حد الموت وصيدها البحري: «رأس المنار»، «مالاباطا»، «مغارة هرقل»، «سيدي قنقوس»، «المريسة» و«الرمل»).

كنا جالسين في شرفة بمقهى «الجنينة» الصغير البديع النظيف بشارع ماركو بولو، وأشار محمد شكري إلى الشاطئ والبحر أمامنا..خليج محوط بالتلال الخضر التي تهجع على مدارجها البيوت البيضاء ذات السقوف من القرميد الأحمر: «إننا الآن نطل على مكان يسمى مالاباطا أو المنار. واحد من أجمل الشواطئ المغربية».

طنجة.. هي مدينة ساحرة، السحر الذي أغوى يوليسيس، والسحر لا يمكن تفسيره فإذا فسرناه لم يعد سحرا. هذه المدينة إما أن تقبلك أو ترفضك، مدينة لا ترحم. لا بد أن تعرف كيف تعيش فيها. أناس جاءوا ليكتبوا وعادوا. أناس جاءوا ليرسموا وعادوا. لو لم أعش في طنجة لما كتبت بالطريقة التي كتبت بها. تعدد الأشخاص وتعدد جنسياتهم. هذه مدينة تصب فيها معظم التيارات بصفتها جسرا. بالإضافة لكونها ميناء وهي مدينة أسطورية. المغاربة الطنجاويون يقولون إن فلك نوح رست على هضبة الشرف فأرسل الطائر وجاء بالتراب في أقدامه مما يعني ظهور البر وانحسار الطوفان أي بلوغ النجاة فقالوا: «طين جا»، ومنها: طنجة!».

نعم، طنجة مدينة أسطورية، بقدرتها على الإيحاء بالخيال الذي يحلق عاليا بارتفاع أسطورة. وكاتب طنجة هو الآخر أسطورة. فالصحافة الأدبية عرفتنا به كما لو كان قفزة مستحيلة من الأمية إلى الإبداع. محمد شكري ليس أسطورة من هذا النوع. إنه كطنجة أسطورة صنعت نفسها بمقومات نادرة كامنة في تكوينها، فمحمد شكري كان لا يكتب حتى سن متأخرة نعم، لكنه ما إن عرف كيف ترسم الكلمات حتى انطلق في بناء معمار كاتب عربي مهم، بل إنه أحد الكتاب العرب القلائل القادرين على المحاورة العميقة مع الإبداع الغربي. فهو قارئ ممتاز للثقافة الغربية، الإبداعية منها خاصة، ويأخذها من مصادرها فهو يجيد الإسبانية والفرنسية ويعرف الإنجليزية أيضا. متعدد اللغات كطابع طنجة المعتق. ثم إن الغرب أتاه إلى حيث هو فعايش هذا الغرب على أرضه أي طنجة بندية إنسانية. لهذا يتحدث محمد شكري عن المثاقفة لا بمنطق صراع الثقافات بل بمنطق لقاء الثقافات. فيقول لي بينما كنا نتناول غداءنا في أحد مطاعم طنجة الصغيرة الأنيقة وتحتنا مدارج التلال والبيوت وزرقة البحر: «هناك من الغربيين من أتى مغتصبا وهناك من أتى من أجل المصاهرة والعيش. وحتى من يأتي مغتصبا فهو يترك أثره. لكنه يترك من السيئ أكثر من الجيد. ولو أن الزمن أعطي للاختيار لأخذت الجانب الإيجابي دون السلبي».

مواجهة الثقافات لدى كاتب طنجة مشروع للعناق أكثر منها مشروع للصدام. وهذا منطق طبيعي في مدينة تقف عند مفترق الطرق، فهي أقرب بوابات إفريقيا إلى أوربا، وهي

زاوية الإطلال على لقاء البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي. وهي نموذج لحوار البر والبحر. وهو حوار لم يكن دائما هادئا، بل كثيرا ما كان داميا، وقليلا ما كان عادلا. لكنها لطبيعة قوية فيها، استطاعت طنجة أن تذيب في نسيجها كل من هبط على برها وإلا لفظته.

ما يبقى من المدن بعد الطواف بها إلا انطباع يلصق بالذاكرة، حفنة من الصور تقل أو تكثر، وطنجة تركت في روحي شريطا من الصور الفاتنة أسترجعها كحلم لعلي أعود للتوقف أمامها بالتأمل: أتذكر تلك التلال الخضراء المكسوة بغابات الصنوبر ونحن نصعد إلى منار رأس سبارطل أقصى نقاط الشمال الغربي للقارة الإفريقية. أتذكر الجبل بصخوره البنية الحمراء التي تنبثق من جنباتها الخضرة. أتذكر «الشرْف» المطل على الخليج. وقوس البيوت على التلال يحدق بدائرة الماء.

أتذكر شارع إسبانيا بنخيله الباسق وزحام الفتيان والصبايا المتنزهين في نسائم الغروب. أتذكر المقاهي الأليفة الجميلة. السوق الهابطة تحت شرفة المدافع المطلة على الماء. أتذكر الهبوط والصعود والالتفاف في الدروب النحيلة بين بيوت حي القصبة. أتذكر بوابة البحر الهائلة القديمة، والرحبة المطلة على الميناء. أتذكر عبارتين بيضاوين في زرقة المياه واحدة عائدة بالمغاربة من أوربا القريبة وأخرى ذاهبة إليها. أتذكر بهجة الإطلال على تلال مالاباطا وبيوتها البيضاء الرانية إلى الماء. أتذكر الطريق المظلل الطويل إلى منار مالاباطا. أتذكر مقهى الحافة المغمورة مدارجه بالنباتات والزهور وهو يطل من بين الغصون المغربية على أوربا التي تلوح طيفا على مد البصر. أتذكر رشفات الشاي بالنعناع والنسائم الطرية والإحساس بألق الحياة وتشابكها...ثم أتذكر الريف الخضراء جباله برغم الجفاف الطويل، والسهل الذي تنساب فيه أنهار لا أعرف لماذا تركت لدي انطباعا بأن مياهها الهادئة فيروزية اللون. أتذكر البيوت في حضن الجبال الخضر. وأتذكر السوق بفلاحيها ذوي الجلابيب الصوف وأغطية الرءوس من ذات النسيج. قبعات القش واسعة الحواف المحلاة بكريات الصوف الملون للنساء. أتذكر أكوام التوابل صارخة الألوان. والمطاعم المفتوحة تقدم السردين المشوي واللحم المشوي والنعناع. أتذكر طريق الرجوع من ريف طنجة إلى قلبها. وأتذكر تلك المغارة المطلة على البحر بنافذة ترسم وجه رجل يصرخ...

طنجة مدينة بديعة الطبيعة والروح.

«طنجة البيضاء» كانت تسمى هكذا يوم كانت مدينة دولية، بل أكثر مدن العالم دولية. نجمة كثير من الأفلام، ونداهة كثير من النجوم، كانوا يأتون للزيارة فيمكثون. لقد زال عنها طابع المدينة الدولية الواقعة تحت نفوذ الأعلام الغربية العديدة لكن قدرتها على الإغواء لم تزل. إنها تجتذب البشر من كل بقاع الدنيا وتجتذب المغاربة من أعماق الشاطئ والصحراء وذرا الأطلس.

طنجة حمامة بيضاء حطت على كتف إفريقيا بتوازن مرهف. منذ فجر وجودها في القرن الرابع قبل الميلاد وهي تشاهد المتصارعين من أجل الفوز بالنفوذ عليها: القرطاجيون، الرومان، الفينيقيون، العرب، البرتغاليون، الإنجليز. لكنها ظلت تمتلك نفوذها الخاص على كل من أتوا إليها.

لا مدينة شرقية مثلها أحبها الغربيون. كتاب وشعراء وفنانون أتوا إليها فأغواهم سحرها وأقاموا بها زمنا أو حتى النهاية.. ديلاكروا، ماتيس، فإن دونجين، تينسي ويليامز، جان جينيه، جوزيف كاسل، بول بولز، ترومان كابوت.

أسماء بلا حصر...وأحلم بالانضمام إلى مريدي المدينة.

لقد تتبعت درجها وعبرت قوس «باب الراحة» لأنعم بالمشهد الساحر العريض من فوق المدينة وخليج طنجة. أصغيت لرفيف الأصوات الصاعدة من الميناء وحي القصبة وهبطت أسعى في مدارجها المفعمة بالنسيم والخضرة. «السوق الكبير» المتوج بالمئذنة بديعة الألوان المرسومة بزخارف الفسيفساء التي تعتلي مسجد «سيدي بوعبيد» الراجع إلى أوائل القرن. وفي ساحة السوق ينتشر الفلاحون الآتون من الريف. حيث تلف النساء فوق الملابس (فوطة) تقليدية مخططة بالأحمر والأبيض ويرتدين قبعات من القش عريضة الحواف مزينة «بالبوم بوم» كرات الصوف الملونة. تلال النعناع الأخضر والجبن في علب الخوص وعشرات الألوان من فاكهة المغرب الطازجة. وباقة الروائح المدهشة حيث تميز رائحة الليمون والبرتقال والقرفة والشواء والخشب العاطر. نصغي إلى جلجلة أجراس النحاس للسقائين في كيانهم المترف بالألوان المزركشة، ونرهف الأسماع للأغاني.

أمضي جنوبا إلى مدخل المدينة القديمة، وعلى مبعدة خطوات من السوق الكبيرة..ها هي ذي السوق الصغيرة. الميدان الصغير البديع المحاط بالفنادق والمطاعم والمقاهي. نقطة جذب كثير من فناني وكتاب أوربا الذين جذبتهم غواية طنجة. وفي فندق الكونتنتال أدور مسحورا في البهو المترف السقف بزخارف الجص الملون ولوحات فسيفساء الزليج على الحيطان والقرميد الأخضر تعتمر به السقوف.

أمضي وأمضي، كل دروب طنجة تقود إلى البحر وكل طرقاتها تأتي من البحر.

وعبر البحر المتوسط يلوح جبل طارق من ربوة منار مالاباطا على مبعدة عشرة كيلومترات شرقا. وعلى مبعدة اثني عشر كيلو مترا إلى الغرب يلتقي المتوسط بالمحيط عند رأس سبارطل. وتلتقي الصخور بالأساطير على مقربة من رأس سبارطل في مغارة هرقل. الكهف العميق الذي ننفذ إلى داخله في عتمة ما تلبث حتى تنجلي عن فتحة النور. نافذة تحت الجبل تطل على مياه الأطلسي وترسم وجه رجل صارخ. وفي السقف نرى دوائر غائرة في قبة الحجر. إنها الرحى التي قدت من بدن الكهف لتعد طحين الناس. فالأسطورة القديمة تختلط بخبز البشر في هذه البقعة. والأسطورة تقول إن المكان كان ممتدا يصل إفريقيا بأوربا ويفصل بحر الروم (البحر المتوسط) عن بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ولما كان لأطلس ابن نبتون (إله البحر) ثلاث بنات يعشن في بستان يطرح تفاحا ذهبيا ويحرسهن وحش. قاتله هرقل (ابن جوبيتر) وهزمه، لكن هرقل في غضبة من غضبات الصراع ضرب الجبل فانشق لتختلط مياه المتوسط الزرقاء بمياه الأطلسي الخضراء وتنفصل أوربا عن إفريقيا، ثم يزوج هرقل ابنه سوفاكيس لإحدى بنات نبتون ليثمر زواجهما بنتا جميلة أسموها طانجيس، ومنها كانت طنجة..

طنجة المقدودة من الأساطير ومواجهات الشرق والغرب يجيء ليلها فلا تنام.ولا ننام ليلة رحيلنا عنها والصحو في طنجة يغري بالتنقل بين جنباتها. وحيثما كنا كان البحر يعانق اليابسة كجزء من العناق المغربي الكبير بين البر والبحر. فلا نقول وداعا

يا عذوبة المغرب.بل..إلى لقاء.

زيمبابوي
حيث لا يغيب قوس قزح

هل أدلكم على رعد يقصف دون بروق، ومطر يتجه من الأرض إلى السماء، وأقواس قزح تلمسها اليد ولا تغيب؟.. إنها شلالات فيكتوريا، أعجوبة نهر الزامبيزي الفاتنة.

«من أين أتيت بشلالات فيكتوريا هذه؟» سألتني موظفة شركة الطيران، مبتسمة، عندما ذهبت لأحجز للرحلة، فلم أقل لها إنني أتيت بها من قلب عشقي لإفريقيا الجنوبية، وولهي بعالمها الساحر جنوب الصحراء، وحلمي الذي لا ينقطع بالتحليق في سمائها الأكثر زرقة من كل سماوات الدنيا، والترحال على أرضها التي أقسم أن لها رائحة عطرة، حتى في مراتع الكواسر وسط الأدغال، لكنني أقول لكم ذلك الآن، مادمت بصدد اصطحابكم في هذه الرحلة الاستثنائية، فهي رحلة في الزمان وفي المكان.. عمقها مائة وخمسون مليون سنة، برغم أن بؤرتها لا تشغل أكثر من كيلو مترين اثنين، وبالتحديد ١٧٠٠ متر، تشكل أعرض ستارة مائية في العالم وهي ستارة تدور عليها ومن حولها مشاهد من فتنة الطبيعة البكر، فيؤمها زوار من أربعة أرجاء الدنيا، لكن يبدو أن «العربي» هي أول مطبوعة غريبة تزور المكان.

عشاء عجيب في هراري

كادت دورة الألعاب الإفريقية التي استضافتها زيمبابوي أن تطيح برحلتنا، فكل الطرق إلى عاصمتها هراري كانت مكتظة بالمسافرين، وكل الطائرات كاملة العدد، وكل الفنادق مشغولة. لهذا عندما حطت بنا الطائرة على مدرج مطار العاصمة الزيمبابوية

الصغير، تنفسنا الصعداء، وتذكرنا بامتنان كل من ساعدونا من شركتي الطيران الكويتية والمصرية. ثم بعد الصعداء تنفسنا بارتياح، إذ وجدنا في انتظارنا ـ برغم اختلاف موعد الطائرة ـ الدبلوماسي الشاب «سعد العصفور» من سفارة الكويت في زيمبابوي، ولقد أولتنا هذه السفارة وعلى رأسها السفيرة المرموقة فائقة النشاط والحضور «نبيلة المُلّا» كثيرا من الاهتمام، قبل أن تبدأ الرحلة وحتى نهايتها، مما يسر من أمورنا كثيرا برغم أننا سافرنا في اللحظة الحرجة.

هراري العاصمة والتي تعني في لغة قبائل «الشونا» الزيمبابوية: المدينة التي لا تنام، بدت لنا نائمة وقت وصولنا إليها، قبل العاشرة مساء! لكن عصرية هذه المدينة، ونظافتها الفائقة، لم تغب عن عيوننا تحت ضوء مصابيح الشوارع الأنيقة. ثم إن عشاء ساهرا من مشويات ذيل التمساح ولحم النعام وحمار الوحش والخرتيت والغزال، كان بداية ساطعة تماما للتيقن من سهر المدينة «التي لا تنام» وهو سهر أليف وإن وشته إيقاعات الطبول الإفريقية الحارة والصلابة المنسابة لمعروضات المنحوتات الحجرية في أبهاء المكان، وهي ـ أي تلك المنحوتات الحجرية ـ سيحدث أن نجدها في كل مكان في زيمبابوي المشتق اسمها ـ بالمناسبة ـ من تعبير في لغة «الشونا» أيضا، يعني: «بيت الحجر الكبير». والحجر في زيمبابوي هو كتابها الذي تكتنز صفحاته تاريخها الطويل، والذي يجعل منها لدى البعض «أوفير» أرض الذهب المذكورة في التوراة، والمكان الذي تختبئ فيه «كنوز الملك سليمان» ثم إن الحجر هو الدفتر الذي تخط عليه زيمبابوي دلائل روحها الفنانة بالفطرة، التي تحيل كل أنواع الصخور والحجارة إلى تماثيل متقنة تلقاك في كل مكان، وبأزهد أسعار فنية في العالم، ومن بشر بسطاء وعاديين تماما حتى أنني أكاد أجزم أن الإنسان هناك كلما شعر بالفراغ أو السأم يلتقط أقرب قطعة حجر إلى جواره، ويحيلها إلى تمثال بديع، ثم يخرج ليعرضه للبيع على الطريق المار بقريته.. أو في وسط المدينة.

لقد دخلنا المطعم الذي يقع وسط «جاليري» لأعمال النحت، لتناول عشاء بعد السفر الطويل ومحطات الانتظار الأطول، وجيء لنا بقائمة الطعام التي لم أر مثلها في أي مكان من العالم فهي مجلدة بجلد طبيعي مازال به وبر الظباء، وبدلا من كلمة

«أطباق اليوم» قرأت «صيد اليوم»، وفهمت أن المطعم يقدم أطباقا من لحوم الطرائد التي تم صيدها من البراري المحيطة بالعاصمة في اليوم نفسه، ولم أحرم نفسي من التجربة، بل أظن أنه ليس من حقي أن أحرم نفسي من التجربة ما دمت سأنقلها للناس، ومهما كانت صعوبتها، وهي لم تكن صعبة على أية حال. طلبنا طبقا (شاملا) به عينات مصفوفة من «صيد اليوم»، شرط أن تكون مشوية جيدا، وليس بها لحم خنزير، لا بري ولا غير بري إضافة إلى (السلاطات) والخبز. وبعد أن أكلت عينات من كل أنواع (الاستيك) المشوي طلبت من أحد الطهاة بالمطعم أن يخبرني بنوع كل عينة مما جربت وإليكم النتيجة: لحم ذيل التمساح أبيض يشبه لحم السمك العجوز وبوسطه غضروف صلب لا بد من فصله وإلا تحطمت أسنانك. أما لحم الحمار الوحشي فهو متماسك ومدمجة أليافه الناعمة كلحم الحصان الذي تذوقته من قبل في كازاخستان. ولحم الغزال هش ويظل وردي القلب برغم الإمعان في شيِّه. ولحم الخرتيت أليافه حزم ظاهرة ومضفورة بقوة. أما لحم النعام ـ الذي راق لي كثيرا ـ فهو كالنيفة المأخوذة من لحم الماعز. وباستثناء لحم ذيل التمساح، الذي لم أستسغه، فقد كانت بقية اللحوم المشوية لا تكاد تفترق عن أي لحم مشوي نأكله. ولقد جعلتني هذه التجربة أتعاطف بشكل زائد مع نظرة عيون الحمر الوحشية التي راقبتها في أدغال زيمبابوي فيما بعد، إذ بدت لي بعد الإمعان بديعة، سوداء ضاربة إلى الخضرة وكأنها زمرد داكن وسط تناوبات الأقواس البيضاء والسوداء أو البنية الملونة بها جلود الحمر الوحشية التي باتت هاجسي في البراري المحيطة بالعاصمة أو في محمية شلالات فيكتوريا التي ذهبنا إليها بعد ذلك.

بيت الحجر الكبير

في الطائرة من هراري إلى شلالات فيكتوريا، تذكرت أن كثيرين يخطئون في التمييز بين بحيرة فيكتوريا وشلالات فيكتوريا.

فبحيرة فيكتوريا التي تعتبر المنبع الأول للنيل الأبيض الذي يخرج من شاطئها الشمالي باسم نيل فيكتوريا، تقع في إفريقيا الوسطى تحف بها أوغندا وكينيا وتنجانيقا

وتعتبر ثاني أكبر بحيرات العالم العذبة بعد بحيرة «سوبيريور» الأمريكية. وهي ـ بحيرة فيكتوريا ـ واحدة من بحيرات الهضبة الاستوائية الثلاث التي تصنع النيل الأبيض أي بحيرات ألبرت وإدوارد وفيكتوريا.

أما شلالات فيكتوريا التي كانت طائرتنا تتجه إليها فهي في منطقة نهر الزامبيزي العليا على حدود زيمبابوي (وكانت تسمى روديسيا الجنوبية) وزامبيا (التي كانت تسمى روديسيا الشمالية) نسبة إلى سيسيل جوان رودس أبي الإمبراطورية البريطانية في إفريقيا الذي بني هذه الإمبراطورية على بحيرات من الدم ومات في الثانية والأربعين في كيب تاون والذي بدأ من شركة جنوب إفريقيا البريطانية، ومن جنوب إفريقيا قفز على أرض مملكة التيديبليين التي كانت مملكة متطورة تحت حكم الملك لوبنجولا. وبمائتين من رجال البوليس في شركة جنوب إفريقيا البريطانية و ٥٠٠ من المرتزقة وبالعربات والبنادق سحقوا أرض ماتابي وماشونا ورفعوا عليها العلم البريطاني في ١٣ سبتمبر ١٨٩٠.

وكانت مكافأة الغزاة: لكل فرد عدة هكتارات من الأرض وخمسة عشر تصريحا لإنشاء مناجم. وسرعان ما أتى البيض، ولأن المزارع كان لا بد لها من عمال فقد بدأ نظام العمل بالسخرة وتحول أبناء قبائل التيديبل والشونا إلى عمال مزارع ومناجم وبدأت معارك التحرير التي افتتحت حمامات الدم منذ عام ١٨٩٦. بعد تكوين مجلس من البيض أعلنت روديسيا الجنوبية عام ١٨٩٩، لتكون تحت قيادة الشركة البريطانية لجنوب إفريقيا وظلت الأقلية تسيطر على الأغلبية حتى استنكرها العالم كله لكن البيض أمعنوا في التحدي وأعلن الحاكم الأبيض إيان سميث عام ١٩٦٥ استقلال روديسيا الجنوبية عن جنوب إفريقيا ففاض حمام الدم أكثر وأغزر. ولقد تبلور كفاح أرض قبائل التيديبل والشونا (التي أسماها المستعمرون روديسيا) عندما أعلن عن تكوين جبهة وطنية بين قائدي الجناحين الأكبر من المعارضة السوداء روبيرت موجابي وجوشوانكوما. وقد أدى الصراع بين الأقلية البيضاء الحاكمة والأغلبية السوداء المحكومة إلى معارك دامية ذهب ضحية إحداها (وهي المسماة حرب التحرير الثانية) أكثر من ٢٧ ألف ضحية من الجانبين ولعل هذا مما دفع إلى توقيع اتفاق لوقف إطلاق النار في ٢١ ديسمبر ١٩٧٧ بين قائدي الجبهة الوطنية السوداء والحكومة البريطانية في لانكستر هاوس بالمملكة المتحدة

واتفق على مسودة دستور جديد لا عنصري ومتعدد الأحزاب، وإجراء انتخابات عامة في غضون ستة أشهر وتكوين برلمان من ١٠٠ عضو بينهم ٢٠ يمثلون الأقلية البيضاء. وفي أول انتخابات حرة في فبراير ١٩٨٠ فازت الأغلبية السوداء وأصبح موجابي أول رئيس وزراء أسود لزيمبابوي. وفي هبة منتصف الليل في ١٨ أبريل ١٩٨٠، وبعد قرن تقريبا من وصول سيسيل رودوس إلى جنوب إفريقيا، وبعد ٨٣ عاما من احتلال أرض التيديبل والشونا وتسميتها روديسيا بمرسوم ملكي بريطاني، أزيلت من شوارع العاصمة هراري التي كان البيض يسمونها «ساليزبورى» تماثيل سيسيل رودوس وعاد اسم زيمبابوي الذي يعني «البيت الحجري الكبير» ورفرف علم جديد دافئ الألوان حيث الأخضر لون الأرض، والأصفر إشارة إلى ذهبها المكنون، والأحمر لون الدم الذي سال على أرضها في سبيل الحرية، والأسود لون أغلبية أبناء الأرض، وفي المثلث الأعلى ثمة طائر يمثل انطلاق زيمبابوي وخلفه نجمة في الأفق تشير إلى طموحها.

مكثنا ساعة ونصف ساعة نطير في سماء زيمبابوي من هراري إلى مدينة شلالات فيكتوريا، وكانت الأرض تلوح تحتنا بنية دافئة «موشاة» بالخضرة وتسفر عن عطشها الذي امتد بطول سنوات الجفاف التي ما زالت تضرب زيمبابوي وبلدان جنوب الصحراء، وتصنع أزمة مياه نجد ملامحها في المنشورات المبثوتة في كل مكان تفتح فيه صنبورا أو دُشا تسألك أن تترفق بالماء ولا تسرف فيه، لقد جعلت أزمة المياه هذه نصف سكان زيمبابوي (أي حوالي خمسة ملايين إنسان) لا يستطيعون مواصلة العيش إلا بالإعانات. وبينما كانت الطائرة تخفض من ارتفاعها قبل الوصول بكيلومترات عديدة أمكننا رؤية سهول السافانا وبعض قطعان الأفيال والجاموس البري. لمحة من ثروة هذا البلد، فإضافة إلى قصب السكر والتبغ والفواكه والشاي والقهوة والزهور وثروة المناجم التي تنتج الذهب والفضة والبلاتنيوم والماس والنحاس والحديد والرصاص، والفحم الذي يعتبر المصدر الأول للطاقة فإن زيمبابوي معتدلة المناخ تعتبر كنزا للحياة البرية التي تشكل ١٣٪ من مجمل مساحة زيمبابوي أي قرابة ٥٠,٠٠٠ كيلو متر مربع هي محميات طبيعية ترتع فيها الأفيال، والجاموس البري، والغزلان، والأسود، والفهود، وفي بحيراتها وأنهارها يوجد ٤٠,٠٠٠ من التماسيح التي تشكل كتلتها أكبر عدد من هذا النوع على سطح الأرض.

لقد كان طاقم المضيفات في الطائرة مختلطا، من السود الذين لا تلمح في قسماتهم الزنوجة بل رقة ملامح تشير إلى جذور السكان المنحدرين من هجرات «البانتو» المنتشرين في هذه المنطقة شأنهم في ناميبيا وجنوب إفريقيا وبوتسوانا. وكانت هناك مضيفتان شقراوتان. عندما كانت إحداهما تقدم لنا شراب الأناناس سألتها مشاغبا: «من أي بلدان أوربا أنت» فردت بإنكار وحيرة: «لست أوربية. أنا إفريقية من هنا من زيمبابوي». وقد قرأت في وجهها الأبيض ملامح مأساة أتمنى أن أكتب عنها يوما: مأساة الأبناء الذين يحملون أوزار الآباء. هؤلاء الأفارقة البيض الذين ينتمون بلون بشرتهم إلى أوربا وبجذور مولدهم ونشأتهم وحياتهم كلها إلى إفريقيا وبرغم أن عددهم كان في زيمبابوي يقارب ٣٤٪ من مجمل عدد السكان إلا أنه بعد حكم الأغلبية السوداء، وخوفا من الثأر القديم، وربما رفضا لانتقاص الهيمنة المطلقة هاجر كثيرون، وبقي قليلون لكنهم مازالوا فاعلين في حياة هذا البلد.

«شلالات فيكتوريا»، قرأت اللافتة على بناية المطار الصغير الأبيض وسط البراري وكانت هناك غزلان تطل علينا من بين أشجار السنط الخفيضة ويمنعها من الاقتراب سياج الأسلاك الفاصل بين الغابة والمطار. وما أغرب أن يُلصق بهذه الأرض اسم ملكة الإنجليز فيكتوريا التي بلغت إنجلترا في عهدها أوج توسعها الاستعماري. وفي عهدها حدثت حرب الأفيون عام ١٨٤٠، وحرب القرم، وخلع عليها رئيس الوزراء البريطاني الداهية دزرائيلي لقب إمبراطورة الهند التي كانت جوهرة التاج البريطاني.. الاستعماري طبعا. غرور إنجليزي غريب جعل هؤلاء القادمين من بحر الشمال يطبعون أسماءهم على بلاد الله وخلق الله في الجنوب. وأستطيع أن أعدد الكثير من المعالم التي استولى عليها اسم فيكتوريا، فغير البحر والنهر والشلالات هناك جزيرة فيكتوريا في المحيط القطبي الشمالي، وولاية فيكتوريا في أستراليا، ومدينة فيكتوريا في عاصمة إحدى ولايات المكسيك. ومنطقة فيكتوريا بالقارة القطبية الجنوبية. ومدينة أخرى اسمها فيكتوريا في الكاميرون. وأماكن أخرى بلا حصر دُمغت باسم فيكتوريا. وفيكتوريا كانت ملكة، برغم ولعها بالتدخل في شئون الحكم، إلا أنها كانت امرأة عندما توفي زوجها وابن خالها الذي أحبته «الأمير ألبرت» اعتزلت الحياة السياسية والاجتماعية ثلاث سنوات. فما ذنب بلاد الناس بحمل أعباء اسمها وهي امرأة ككل النساء؟! وما

ذنبي حتى ترتب الأقدار لي لقاء معها باهظ الثمن؟! ففي وقت زيارتنا الحرج لزيمبابوي لم يكن ممكنا إتمام المهمة إلا بالاندفاع والمغامرة وبعض التضحية!، فبرغم أن حجز الطائرات إلى شلالات فيكتوريا كان كامل العدد! إلا أننا ذهبنا إلى المطار، وسافرنا على المقاعد الاحتياطية. وبرغم أن الفنادق هناك لم تعطنا إلا وعدا شاحبا باحتمال وجود مكان في فندق «ماكاسا» إلا أننا ذهبنا إلى الفندق دون أن نتأكد من وجود مكان به. وهناك «رمينا جثثنا» على إدارة الفندق، وتصايحنا وادعينا أنهم وعدونا بإيجاد مكان، ولما لم يجد المساكين بدا للتخلص من تصايحنا وتعطيلنا «لكاونتر» الفندق كله، إلا بمسح كل فنادق البلدة حتى عثروا لنا على مكان استثنائي، وأين؟ في «فندق شلالات فيكتوريا» العريق ذاته. وبرغم أننا اكتشفنا أن تكاليف الإقامة في هذا الفندق تعد ضربة مطرقة قاسية على الرأس، إلا أن المكان منحنا كثيرا من العزاء إذ كان مسكونا بحكايات عمرها يقارب قرنا من الزمان، وكانت حجرتنا تواجه جناح ملكة بريطانيا ذاتها، وبناتها أيضا، ومكتشف شلالات فيكتوريا الشهير ليفنجستون. ثم إننا كنا على مبعدة خطوات من الغابة ومن هدفنا الكبير: الشلالات.

لقد أعطوني الغرفة رقم ٨٠، وأمامها مباشرة كان باب الجناح المكتوب على يافطته الذهبية بحروف سوداء غائرة: ليفنجستون.. وكان فرحي للوهلة الأولى مبعثه أن أكون بقرب هذا الطبيب الراهب المستكشف الذي نقل إلى العالم خبر الشلالات التي كان هو أول إنسان أبيض يراها عام ١٨٥٥ ومات بلسعة بعوضها، أي أن أكون على مقربة من جسم الدراما التاريخية الكامن في قلب الجغرافيا لكنني فوجئت بأن هذا الجناح الحامل لاسم ليفنجستون هو جناح الأسرة المالكة البريطانية وهكذا كنت أقرب ما يكون من أنفاس سكان هذا الجناح: الملك جورج الخامس، والملكة إليزابيث الأم، وإليزابيث الابنة، والأميرة مارجريت، وأخيرا الأميرة آن، فهم جميعا تمددوا على فراش لا يبعد إلا خمس خطوات من الفراش الذي تمددت عليه منفجرا في الضحك من شدة البلوى، فالأجر الخيالي للفندق حرمني من شراء قطعة فنية رائعة نحتها فنان تلقائي من أبناء البلد من خشب يسمى الأبنوس الحديدي، لأنه له لون الحديد الصدئ وصلابته أيضا، وكانت تمثل قطيعا من الجاموس البري المفزوع أمام هجوم فهدين يفترسان جاموسة شاردة تقاوم. صورة ناطقة بكل حرارة الحياة التي رأيت شراستها رأي العين

وأمام تدهور الميزانية لم أقدر إلا على شراء جاموسة صغيرة كانت مع البائع الفنان وهكذا كنت مع جاموستي المسكينة على مبعدة خطوات من مخدع الأسرة المالكة البريطانية. لقد ضحكت مع زميلي المصور طالب الحسيني لهذه المفارقة حتى سالت الدموع من عيني، فنهضت أغسل وجهي لنذهب، وفي الحمام أصابني الرعب فقد كانت مقابض الصنابير وفوهاتها مطلية بالذهب الخالص لهذا خرجت من الحمام لا أنطق، وسعيت إلى الشلالات عبر الغابة دون أن أنبس بحرف وكان ذلك حسنا فقد أنقذنا الصمت من موت محتمل.

فخامة فندق شلالات فيكتوريا الذي رحنا نشق أبهاءه متجهين إلى حديقته الخلفية ضاعفت من صمتنا. فالفندق الذي بدأت إنشاءه شركة قطارات جنوب إفريقيا البريطانية عام ١٩٠٤ مع بدء وصول السكك الحديدية إلى المكان، كجزء من مشروع استعماري إمبراطوري عجيب كان يطمح إلى ربط القاهرة برأس الرجاء الصالح عبر خط سكك حديدية يسمى: «كايرو ـ كاب» ويخترق مستعمرات الإمبراطورية البريطانية في إفريقيا من أقصى جنوبها حتى أقصى شمالها، هذا الفندق الذي جرى تحديثه وإن ظل يحمل طابع العمارة الفيكتورية (نسبة إلى الملكة فيكتوريا ذاتها) كان مثقلا بالفخامة الاستعمارية برغم أنه من طابقين لا ثالث لهما، ممرات بلون العاج مفروشة بالجوخ الأخضر ومضاءة بثريات الكريستال ومطاعم باتساع الساحات وأبهة القصور الملكية أحدها بلون القطيفة القرمزية وآخر بلون الساتان البنفسجي. وتراس يهبط بدرج عرضه مائتا متر ليفضي إلى حدائق مرسومة رسما وحمامات فيروزية المياه وملاعب للجولف باذخة. قطعة حية من الزمن (الفيكتوري) رحنا نشق طريقنا عبرها، محاذرين أن نصدر صوتا، فلم يكن يصدر عن العاملين السود والبيض فيه أي صوت وهم يتحركون بسرعة داخل أزيائهم الفيكتورية. وعندما بلغنا «التراس» الخلفي لم أتمالك نفسي، فصحت: «الجسر»، لكنني ابتلعت أصداء صيحتي وإن مكثت أتصايح في داخلي: إننا على مشهد من التاريخ.

فالجسر الذي رأيته على مرمى البصر هو الجسر ذاته الذي طالعت صوره وقرأت حكاياته قبل أن نطير إلى زيمبابوي ومعنى وجوده القريب يشير إلى قرب الشلالات والجروف السحيقة التي تسقط فيها وتمضي عبرها مياه نهر الزامبيزى العظيم. لقد

راقبت ظلال مقاعد الطاولات في الشرفة وأعمدة الفوانيس وجذوع الشجر، وقدرت من معرفة الوقت وامتداد الظلال مواضع الاتجاهات الأربعة وبعد أن بللت إصبعي السبابة بريقي ورفعته عاليا حددت من مكان ابتراد الأصبع اتجاه هبوب النسيم. وتحددت الخريطة في رأسي تماما كما قرأت عنها من قبل: فأمامنا مباشرة تخفي أشجار الغابة الجروف الثلاثة السحيقة المتواصلة في خط زجزاجي على امتداد الجرف الأول حيث يلوح الجسر المعلق وتكون هناك «نقطة الغليان» و«النقطة الخطرة» ونقطة «حافة السكون» الكائنة على الضفة الأخرى على حدود البلد المواجه زامبيا. أما بداية الشلالات والتي تسمى الشلال الوحشي فإنها تقتضي منا الاتجاه يسارا وعبور الغابة ثم اجتياز شريط القطار والدخول من البداية الكبيرة لمنطقة الشلالات وبعد مسيرة عشر دقائق نرى «الدخان الراعد»!

«توكلنا على الله» قلتها منتعشا وأنا أشير لطالب حتى يحمل حقيبة الكاميرات ونبدأ سعينا المثير، وتذكرت ونحن نهبط درج «التراس» أن أحد التقاليد الكولونيالية المعتوهة في فندقنا «الفيكتوري» كانت لا تسمح بحضور حفلات الكوكتيل مساء يوم السبت، في الساعة السابعة والنصف تماما، إلا في ملابس كاملة وبرباط عنق أسود! ولأن كثيرا من زوار الفندق الراغبين في رؤية الشلالات كانوا من كبار السن وغلاة الاستعماريين البيض فإنهم كانوا ينتقلون إلى الشلالات في عربات «ريكشو» يجرها السود. وفي عام ١٩٢٠م أنشئ خط «ترولِّلي» ينقل رواد الفندق إلى الشلالات ذاهبا في المكان المنحدر بقوة الجاذبية الأرضية وعائدا بالحبال التي يجذب أطرافها عمال من السود. ثم انقرض هذا «الترولِّلي» وسحبت عرباته بعد حادث سقوط عام ١٩٥٧ وإن بقت منها واحدة موضوعة على سبيل الأثر في أحد أفنية الفندق.

غادرنا نطاق الفندق عبر بوابة في سياج سلكي مرتفع تفصل بين الفندق والغابة، ونبهنا الحارس الأسود الرقيق أن نعود قبل الساعة السادسة، وهذا هو الموعد الصارم لإغلاق البوابة، لأن حاسة الافتراس تشتعل لدى الحيوانات مع حلول الظلام «معنى ذلك أن الحيوانات على اختلافها موجودة دون حواجز حيث يمضي طريقنا؟ سألت الحارس، فأجابني ببساطة: «نعم.. فيل.. غزال.. زرافة.. قردة.. أسد.. فهد. لكنها

لا تأبه بمن لا يستفزها»، وبرغم أن الخوف أمسكني إلا أنني واصلت المسير موصيا طالب أن يمتنع عن التصوير حتى نصل إلى المنطقة المكشوفة قرب شريط القطار.

مضينا على الدرب الموغل بين أشجار الغابة، ولأن الوقت كان قبيل أول الربيع فإن اللون الأخضر كان قليلا، وكان هذا يناسب خوفنا إذ بدا المدى أكثر انكشافا. وكلما أوغلنا كنا نجد على الطريق جزءا من جذع شجرة جرى تجويفه وقد كتبت عليه كلمة «بريد»، فالمكان «محمية طبيعية» ممنوع فيها أي نشاط غير فطري، أي لا مواقد غاز ولا عربات من أي نوع ولا حتى دراجات وبالطبع لا يسمح بقطف زهرة برية أو كسر غصن أو إمساك طائر؛ ناهيك عن لمس الحيوان أو تقديم أي طعام له، العطف المزيف قد يكون بابا للدم لا سبيل إلى إغلاقه إلا بالنار. وساعي البريد يأتي مترجلا عبر الغابة لينقل خطابات مرتاديها. ولعل هذه الفطرية السائدة هي التي أنشأت حالة الهدنة بين الحيوان والإنسان العابر في هذه الغابة. ولقد مررنا في طريقنا بين قبيلة من عشرات قردة البابون اللاهية، وحفت بنا الغزلان، وأطلت علينا من عليائها رءوس الزرافات التي تلتهم أوراق الذؤابات الخضراء العالية. ومن بعيد رأينا جسما لفيل يتهادى بين الجذوع. أما الحيوانات المفترسة فلم تصادفنا لكننا رأيناها من خلف سياج الفندق في الليل، ذئاب وقطط برية وفهود. كانت الأصوات التي نسمعها في الغابة حتى بعد عبور شريط القطار واجتياز بوابة الشلالات ثم المسير مجددا بين الأشجار، لا تزيد على هسيس الشجر وحفيف الأوراق إذ يلعب فيها الهواء، وصدح كروانات وطيور مديدة الصوت. ثم بدأنا نسمع هديرا خفيفا راح يعلو بشدة كلما تقدمنا، وفجأة صار الهدير رعدا متواصلا، أشبه ما يكون بصوت طاحونة هائلة، أضخم طاحونة يمكن سماع صوتها على الأرض، ومع انكشاف الصوت رأينا سحبا من دخان أبيض ترتفع في عنان السماء. لكن ذلك لم يكن دخانا فلقد راح يتساقط علينا رذاذ ناعم يصيبنا بالبلل. وانكشفت الأشجار عن رحبة ينهض وسطها تمثال ليفنجستون محاطا بالأشجار والنباتات. كان الرجل الكولونيالي الثياب ذو الشارب الكثيف والمعتمر بقبعة قماشية مسدلة القفا من قبعات هواة الصيد يمضي بخطى صغيرة متساندا على عكازه، وكان صدأ البرونز يغطيه.. لقد كان يواجه اكتشاف عمره، واكتشاف عيوننا التي انبهرت عندما اتجهت حيث يمم الرجل وجهه..

تسمى نقطة مشاهدة بداية الشلالات عند تمثال ليفنجستون بنقطة المشاهدة رقم١، وإذ نخطو باتجاه الدخان الراعد، يغمرنا رذاذ ناعم ببلل من الماء، ونفتح عيوننا عند الحافة على الأعماق السحيقة التي يتصاعد منها الدخان، الذي ليس بدخان، فنكون مطلين على مائة وخمسين مليون سنة، تكشف عن وجهها على عمق أكثر من مائة متر صخور البازلت السوداء التي تهوي عليها شلالات المياه فتتحطم رذاذا يتصاعد كأعمدة الدخان، ثم تذروه الريح فيتكاثف ويتساقط مطرا ناعما يصنع ظاهرة نادرة تتمثل في غابة مطيرة تحيط بفوهة الشلالات الممتدة بطول يقارب كيلو مترين، فكأنها منطقة استوائية مطيرة برغم بعدها الشاسع عن خط الاستواء وعن مناطق الغابات المطيرة.

وإذ نتحرك يسارا وإلى الأمام ندور حول هذا الجزء الأول من الشلالات ويسمى «الشلال الوحشي» فنرى جزءا متسعا من نهر الزامبيزي يغمر الأرض ثم تجد المياه لها مهبطا عند حافة خفيضة عن مستوى الحافة العام، فتندفع وتهدر كأن بحر الماء ينضغط ويندفع في حزمة عرضها أمتار قلائل. ويا له من هدير. ونجد درجا يهبط حتى قاع الشلال، درجا منحوتا من صخور المكان، ولا يسمح بهبوطه لمن يعانون الدوار. وبرغم أنني لم أعان الدوار أبدا، إلا أنني ما كدت أقطع منتصف المسافة إلى القاع، أي أقل من ٥٠ مترا، حتى أحسست في ـ دوامة الهدير الراعد وفي مواجهة مهوى مياه الشلال والصعود المتواصل لدخان الرذاذ، بتأثير منوم وهي ظاهرة قرأت عنها، فالشلالات لها قدرة منومة لمن يمعن التحديق فيها، فعاودت الصعود.

إن حافة الشلال الوحشي هي الأكثر انخفاضا بين الشلالات الخمسة المكونة لشلالات فيكتوريا والتي تلتحم معا في موسم فيضان نهر الزامبيزي. ونقطة الشلال الوحشي هذه هي نقطة ضعف في تركيبها الصخري ومن ثم فإن النهر يحفر لنفسه مجرى خلالها هو مجرى الشلال الذي ترتفع إلى يساره جزيرة تسمى جزيرة الشلال يعقبها الشلال الرئيسي وهو أكثر انفساحا حتى تبرز أشجار جزيرة ليفنجستون التي تتبدى طيفا وراء دخان الرذاذ. وعندما أنظر من النقطة المواجهة للشلال الرئيسي نحو قاع الجرف لا أراه لفرط عمقه. فالمياه لكثرتها في هذه النقطة تسقط مشكلة قوة نحر أشد، فتأكل القاع الذي يبتعد ويبتعد. نتحرك بموازاة حافة الشلالات المسيجة

بسور خفيض من البوص والأسلاك وجذوع الشجر، ودائما تطالعنا فوهة الشلالات يتصاعد منها دخان الرذاذ حتى نصل إلى نقطة مشاهدة تسمى بـ «النقطة الخطرة» في أقصى جنوب الفوهة (إلى اليمين) ومن هذه النقطة نطالع الشلال الثالث ـ بعد جزيرة ليفنجستون ويسمى «شلال حدوة الحصان».. وفي المساحة الموازية لحافة هذه النقطة تبلغ «الغابة المطيرة» أوج كثافتها وتجلياتها النباتية والحيوانية. فالأغصان الخضراء خضرة يانعة تتشابك معا حاجبة ضوء الشمس مما يجعل المماشي المبلولة ظليلة دائما. وثمة أشجار لا توجد خارج نطاق هذه المنطقة، مثل أشجار الأكاسيا المعرشة، والنخيل الطافي الجذع والتوت البري، والتين المضفور الذي يشكل علاقة تكافل غريبة، فبذوره التي تنبت بين ثنايا أفرع الأشجار الأخرى تمد جذورها نحو الأرض لتعاود الصعود ملتفة على جذع وأفرع الشجرة الأصلية، وثمار هذه الشجرة ـ التين المضفور ـ تنبت مباشرة على الأرض دون أوراق. أما الأزهار فغريبة الأشكال والألوان منها «ليلك الدم» قاني الحمرة. والطيور عجيبة الأشكال والألوان. ولقد رأيت منها ذلك الطائر المضحك المسمى «أبو جرس قارع الطبل» وله قلنسوة برتقالية عجيبة فوق منقاره الكبير. وعصفور الجنة صائد الذباب! بقبعته العجيبة وذيله الملون الذي تمتد منه ريشتان بالغتا الطول. هذا إضافة إلى البلابل التي كنت أسمع شدوها دون أن أراها بين تشابك الأغصان في «الغابة الاستوائية».

أما الحيوانات فقد لمحت منها في الغابة المطيرة، ظبي الماء بسنامه المشعر وقرونه اللولبية الصاعدة، كما رأيت من بعيد بضع غزالات حذرة أما الذي لفت نظري بكثرة فهي حيوانات النمس البنية المخططة التي كانت منتشرة في مجموعات فوق فروع شجرة أكاسيا. بقي أن هناك بصمات أقدام على طين المماشي في الغابة المطيرة تدل على أصحابها دون أن يتمكن المرء من رؤيتها. فقد صادفت من هذه البصمات أشكالا مختلفة رسمتها وطابقتها بمثيلتها في أحد كتب الصيد. وكانت إحداها تشبه فصي الكازو، وهي لحافر ظبي الماء، وأخرى كنصف دائرة تبرز منها أربعة أصابع مدورة متباعدة ككف طفل رضيع سمين وهي لفرس النهر، وثالثة كطبعة أقدام القط وهي للنمس المخطط، أما أثر قردة البابون فأصابعها الخمسة واضحة، وطبعات أقدام الفيل مدورة وغائرة تظهر فيها التحززات وكأنها بصمة. ولكن البصمة التي جعلتني أشهق

فاتحا عيني على اتساعهما فهي تلك البصمة التي تتكون من وسادة على هيئة سحابة مثلثة وتتوزع حول رأسها الأصابع الأربعة دون أثر للمخالب، وهي بصمة أقدام فهد...!

الشيء المذهل الذي كنت أبحث عنه في شلالات فيكتوريا دون أن أصدق وجوده هو قوس قزح الذي لا يغيب، بل أقواس قزح، وتبعا لنصائح خبراء الشلالات عند المدخل فقد تعمدت أن أذهب مرات في أوقات مختلفة وأطل على الشلالات من نقاط رؤية مختلفة. فمن النقطة المواجهة لشلالات قوس قزح، وفي الثامنة صباحا رأيت قوسي قزح متوازيين أحدهما داخل فوهة الجرف والآخر يصعد من قاع الجرف ويرتمي على أغصان شجر الحافة ولقد لامست ألوانه بيدي. كما أمكنني رؤية قوس قزح كبير في الساعة الحادية عشرة من نقطة «حافة السكين» من حدود زامبيا وكان يصعد عاليا فوق الجرف عند نقطة «شلالات يد الكرسي» وظلت أقواس قزح التي رأيتها في متناول اليد مشهدًا لم أنسه حتى نهاية الرحلة وبعد تمامها، وطالما تألقت في الذاكرة الألوان.

جبروت الماء..

أعترف أنني ارتكبت مخالفة بيئية لو كان حراس الشلالات ضبطوني أثناءها لقادوني إلى قسم شرطة المدينة وأجبروني على دفع الغرامة، ففوهة الجرف الذي تسقط فيه الشلالات من ضفة المشاهدة محاطة بسياج خفيض إلى الداخل من الحافة، وفي الأماكن التي يتباعد فيها الشجر يدور هذا السياج موفرا شرفات للإطلال منها على ستارة الماء ودخان الرذاذ وأقواس قزح لكنني في إحدى نقاط المشاهدة على حافة الغابة المطيرة وقد صرت مبتلا حتى عظامي مما يتساقط من مطر ناعم على الأغصان المتشابكة، رأيت قوس قزح ساحرا إلى حد يفوق كل المرات التي رأيته فيها يأتي من عمق الدخان الأبيض ويصعد رفيقا ليستريح بنهاية تقوسه على الضفة. وقد كانت الضفة ساحة من صخور ضخمة مدورة مبتلة تلمع. وجذبني قوس قزح كأنه مارس عليَّ نوعا من السحر، فقفزت السياج برغم أن ذلك ممنوع، واحترم منعه عقليا وعاطفيا اتقاء لدهس نباتات أو حشرات أو حيوانات هي بمقاييس خصوصية المكان نادرة. ثم إن الاطلال من فوق هذه الصخور الزلقة مخاطرة أودت بحياة

كثيرين قبل أن يوضع السياج وتشدد قوانين الإطلال من هذا المكان الذي يسمونه رسميا: النقطة الخطرة.

صخور ما قبل التاريخ

قفزت السياج بكل حذر وسرت محاذرا دهس أي نبتة أو حشرة تحت قدمي، وعلى الحافة وقفت على إحدى الصخور المدورة، لقد ذكرتني هذه الصخور بوصف لجابريل جارسيا ماركيز في رواية «مائة عام من العزلة» إذ يصف قاع نهر تجري فيه مياه شفافة على صخور مدورة كبيرة من صخور ما قبل التاريخ فهذه الصخور المدورة المبتلة التي لا ينقطع ابتلالها بفعل مطر الرذاذ الهامي عليها، هي من صخور ما قبل التاريخ فهي من البازلت المنتمي إلى أعمق الأعماق المنصهرة لكوكبنا. هي ابنة الحمم التي قذفها نشاط بركاني سحيق وهي رذاذ قديم من قذائف الحمم. موقف رهيب استشعرته وأنا أقف على (زلطة) عمرها ملايين السنين وهي مدورة وبحجم وشكل طبق كبير طائر. ولما كنت أهفو إلى الإطلال على قوس قزح القادم من عمق يعادل طول برج مكون من ٣٥ طابقا، ولأن طاحونة الشلالات كان يتداوم هديرها المنوم، ولما كنت مبتلا أصلا، فإنني رقدت زاحفا على الصخور حتى يمكنني الإطلال على جذر قوس قزح السحيق، عند القاع الهادر الفوار وهو يصعد من قاع دخان الرذاذ الأبيض. وشردت مسحورا بالمنظر ومغمورا بدفء مطر الرذاذ الذي كان ينداح (كدوش) ناعم مستمر، ومرت في جوار رأسي منزلقة واحدة من «كابوريا» المياه العذبة أزحتها برفق وحذر، وواصلت شرودي في التاريخ، وما قبل التاريخ..

منذ مائة وأربعين سنة، وعندما رأى الرحالة الطبيب الراهب الكولنيالي ليفنجستون شلالات فيكتوريا عام ١٨٥٥، وهو الذي أسماها كذلك هدية منه لملكة الإنجليز إياها برغم أن اسمها الأصلي بلغة أهل البلاد هو «موساي ـ أوا ـ تونيا» ومعناها «الدخان الذي يلد الرعد» كتب مفسرا الظاهرة: «لقد تكونت شلالات فيكتوريا عندما حدث صدع أرضي قطع ممر النهر وكشف عن الباطن الصلب الأسود المكون من الصخور البازلتية».

لكن الصخور المدورة التي كنت نائما على إحداها سخرت، مثلما سخرت تقارير

العلماء الجيولوجية، من تفسير ليفنجستون. فلو أن شرخا أو صدعا حدث وقطع مسار النهر لتهوي مياهه من حافة الصدع مكونة ظاهرة الشلالات، فما الذي قذف بهذه الصخور الخرافية من جوف الأرض وهي لا بد أن تكون قد انقذفت منصهرة؟ أي نقطة هائلة سائلة طارت في الهواء وهوت على سطح الأرض فانبسطت وبردت لتكون (زلطة) خرافية على هذا النحو.

لقد أخطأ ليفنجستون عدة مرات، عندما خلط الطب بالتبشير الذي أرى أنه لم ينجح في إفريقيا (بدليل أن كل واحد من أبناء البلد له اسمان اسم رسمي «مسيحي» في الأوراق والأضابير الميتة واسم آخر إفريقي ينادونه به في البيت وفي القبيلة، اسم البنوة والأبوة، والصراحة والحب) وأخطأ عندما سمى الشلالات باسم غير اسمها الأصلي الدال عليها بجمال ودقة، وأخطأ عندما زعم أنه اكتشفها، فهي مكتشفة قبله من أبناء البلاد الأفارقة، ومكتشفة ربما من قبل أوربيين آخرين سبقوه؟ مثل سيلفا يورتو، ولازلوباجيار وجيمس شايمان، وأخطأ عندما استهان ببعوض البلاد فلسعه لسعة مالاريا قاتلة، وأخطأ عندما مات في إنجلترا وأوصى بانتزاع قلبه ودفنه إلى جوار الشلالات ظنا منه أنه يختلط بأديم الأرض التي يظن أنه (اكتشفها)؛ فالأرجح أن ضبعا أو عقابا من آكلي البقايا قد كشف عن هذا القلب الممزق ومزقه مزيدا بأنيابه أو منقاره.

وأمام رجل كثير الأخطاء إلى هذا الحد، فإنني نهضت من مرقدي البازلتي المدور وودعت (دوش) الرذاذ الدافئ، ولجأت في مكتبة القسم السياحي بالمدينة إلى رجال يتكلمون بأدلة علمية، ويفسرون بالجيولوجيا والأركيولوجيا ظاهرة شلالات الدخان الراعد «موساي ـ أوا ـ تونيا»..

يهبط نهر الزامبيزي من مرتفعات «كالين» بشمال زامبيا ويستمد مددا آخر من الكونغو، ثم يتجه إلى الجنوب الغربي عبر أنجولا ويلتف عائدا من جديد إلى زامبيا حيث يتدفق جنوبا وينتشر في مستنقعات كابريفي ممتزجة مياهه بمياه نهر شربي ومن ثم يأخذ اتجاها شرقيا مكونا تلك الحدود الفاصلة بين زامبيا وزيمبابوي ومتجليا في ظاهرة الشلالات حيث يهبط ليواصل جريانه وفورانه في قيعان ثلاثة جروف سحيقة، على شكل زجزاج، ويخرج منها ليعبر موزمبيق بالغا مصبه في المحيط الهندي. هذه

الرحلة طولها ٢٧٠٠ كيلو متر وتجعل من الزامبيزي رابع أطول أنهار إفريقيا. لكنه يتميز «بشخصية» عنيدة، لأنه كثيرا ما يواجه بعوائق من الصخور الصلبة في طريقه ومع ذلك يجد طريقة ما يواصل بها شق مجراه وإكمال رحلته إلى المحيط الساخن.. المحيط الهندي. وفي منطقة الشلالات تتجلى بوضوح هذه الشخصية العنيدة لهذا النهر.

وتكشف الدراسات الجيولوجية عن أن تكوين قاع النهر أعلى الشلالات يختلف تماما عن تكوين المجرى أسفل الشلالات، وهو ما يمكن ملاحظته بالعين المجردة إذ تسود الأرض السبخة فوق الشلال بينما تسود الصخور البازلتية السوداء تحت الشلال وعلى جوانبه. ولتفسير هذا التباين الجيولوجي فإن العلماء عادوا ١٥٠ مليون سنة إلى الوراء في عمق التاريخ الجيولوجي، عندما كانت الديناصورات هي حيوانات غابة ذلك الزمان الغابر، في هذه الفترة التي يسميها الجيولوجيون الزمن الجوراسي، كانت الأرض تفور بالنشاطات البركانية في منطقة الجنوب الإفريقي وكانت تلفظ من باطنها المنصهر حمما من (اللافا)، تتساقط على سطح الأرض وتكسوه بطبقات فوق طبقات أخذت تبرد وتجمد مكونة طبقة صخرية شديدة الصلابة هي «البازلت»، ومع برود البازلت وتصلبه كان ينكمش فتظهر تشققات هائلة في هذه الطبقة الصخرية التي وصل عمقها في بعض المواضع إلى ٣٠٠ متر ومنها جوانب الجرف المكون لشلالات فيكتوريا، ويرجح أنه بعد ذلك تساقطت أمطار غزيرة كونت بحيرة فوق المنطقة وامتلأت التشققات برواسب الطين والكلس من بقايا الكائنات ذات الصدفات التي تحللت ثم جاء زمن للجفاف فكان التصحر وكشطت الريح ما ترسب على سطح الأرض وإن بقي ما في الشقوق من طين وكلس. ومع إعادة توزيع مناطق المطر وتكوين الأنهار ولد الزامبيزي العنيد وشق طريقه باحثا عن مصب وفي اندفاعه كان «ينحر» أو ينحت المادة الهشة في مجراه أي تلك التي كانت في الشقوق ومع استمرار النحر كانت الشقوق تتعمق حتى لم يعد هناك غير البازلت الصلب وراحت مياه النهر تهوي من حافة الشق الكبير مكونة الشلالات التي تصنع ستارة مائية اتساعها ١٧٠٠ متر وتهوي ١٠٨ أمتار في أعمق مواضع الجرف، وعلى صخور البازلت الصلبة تتكسر وتتناثر رذاذا يتصاعد كأنه أعمدة من الدخان الأبيض، وحتى ارتفاع ١٥٠٠ قدم فوق سطح الجرف عند الفيضان.

في آخر أيام شلالات فيكتوريا تذكرت: عندما كنت طفلا في المنصورة الحبيبة البعيدة، كان بيتنا على حافة المدينة تظاهره الحقول، وكنت أنتظر المطر، لا من أجل المطر، ولكن ليظهر بعد توقفه ذلك الساحر الملون العظيم الجميل العجيب: قوس قزح. يولد في الفضاء الرائق من الأفق إلى الأفق وتتضاءل تحته بيوت المدينة البعيدة المغسولة. وعندما كبرت ودرسنا المنشور الزجاجي وتحليل الضوء في ألوان الطيف السبعة كرهت تلك المعرفة التي حاولت انتزاع طابع السحر عن تعلقي المحلق بقوس قزح. لهذا ظللت أتناساها. ولن أتحدث عنها في تفسيري لأقواس قزح شلالات فيكتوريا. نعم أقواس وليست قوسا واحدا. فأي بهجة وأي حظ سعيد ذلك الذي يمنح طفلا كان يحلم بقوس قزح واحد عشرات وعشرات من أقواس قزح ساحرة، ودفعة واحدة، وفي غضون خمس عشرة دقيقة. أي كنز هذا؟! لقد كان ذلك عبر نافذة الطائرة الهليوكبتر التي حلقت بنا من مقلع طائرات، «سافاري لودج»، في رحلة طولها خمس عشرة دقيقة فوق الشلالات، وبخمسين دولارا للفرد. لكن شمطاء أمريكية مبهرجة أحبطت تدبيري في الفوز بالمقعد المجاور لقائد الطائرة حيث أفضل مساحة من الرؤية الشاملة عبر زجاج قمرة القيادة الوسيع. فعندما حجزنا مقعدين ضمن المقاعد السبعة للطائرة الصغيرة حرصت على ذكر أننا صحفيان. وعندما راح الميكروباص «الشاتل» التابع لشركة الطيران السياحية يجمع الركاب السبعة من فنادق مختلفة عبر المدينة وتلالها، صعدت الشمطاء الأمريكية التي ترتدي قبعة مكسيكية ووشاحا إفريقيا وفستانا إسبانيا وقد لطخت وجهها بالمساحيق والألوان الفاقعة وقلت لطالب الحسيني مومئا إلى المرأة: «إنها مجنونة ومعقدة ولن تحبنا أو نحبها لهذا لن نكلمها ابدأ حتى لو سقطت بنا الطائرة وكان معها «البراشوت» الوحيد لإنقاذنا» كنت أمزح، لكن يبدو أن هناك «في كل مزحة حقيقة ما» كما يقول المثل الروسي. فالمرأة بدأت توشوش سائق الميكروباص وفي مقلع الهليوكبتر اختفت بضع دقائق. وبرغم أنني هيأت نفسي لأكون في المقدمة بحكم أسبقية الحجز وللضرورات الوظيفية، إلا أنني فوجئت عند تجمعنا تحت عاصفة مروحة الطائرة المهيأة للإقلاع بقائد الطائرة ينادي على المرأة ويمنحها المقعد المجاور له، فثرت، وزعقت، وحاولت منع تلك «المحسوبية» العنصرية لكن

دون جدوى، إذ عرض علي مسئولو الشركة أن أؤجل دوري للرحلة التالية وأكون في المقدمة. لكنني قنعت بالمكان في جوار نافذة مفتوحة ونافذة أخرى لطالب حتى يخرج منها كاميراته، وبرغم أن الرؤية كانت كافية إلا أن الغيظ لم يفارقني فمكثت أضرب ظهر مقعدي في ظهر مقعد الأمريكية المعكوس لأنفس عن غيظي وأنغص عليها، ثم نسيتهما تماما إذ استلب لبي سحر أقواس قزح.. قوس، اثنان، ثلاثة، عشرة، مائه.. أقواس قزح بلا حصر كانت تتوالد في الجرف الذي تهوي في عمقه شلالات المياه وتتصاعد أعمدة من دخان الرذاذ تصل إلينا فنمسحها بللا من فوق وجوهنا ونحن في الطائرة. فأعمدة «الدخان» الرذاذي الخمسة كانت تصل في ارتفاعها حتى مسافة ألف وخمسمائة قدم فوق الحافة. وبرغم أن الطيار لم يكف عن «محسوبيته» إذ كان يدور بحيث يكون نصيبنا من الرؤية أقل من مجاورينا البيض، وجارته بالطبع، إلا أن مساحة الرؤية كانت رحبة وغنية وفاتنة بلا حدود. وكان المشهد من الجو شاملا وفاتنا، وسخيا بأقواس قزح! بوضوح تبدّى نهر الزامبيزي وهو يأتي من منابعه ويمضي عريضا على الحدود بين زامبيا وزيمبابوي، ثم ينبسط باتساع بحيرة تتخللها جزر تحمل أسماء بريطانية: الأميرة ماري، والأمير كريستيان، والأميرة فيكتوريا، ثم إن البحيرة تهوي بكل مياهها من فوق حافة جرف الشلالات الطويل العميق، وتتصاعد أعمدة الدخان الأبيض المائية.. و... يمر الطيار بالشلالات من بدايتها إلى نهايتها طائفا فوقها، فإذا بقوس قزح واضح بهيج يتعلق داخل الجرف، وكلما تقدمت الطائرة يلد القوس قوسًا آخر فأقواسا.. أقواس قزح تتوالد بلا حصر، حتى نجتاز حدود الشلالات، ونمر فوق الجروف الأربعة العميقة المتواصلة التي تجري فيها فوارة مياه الزامبيزي ذاهبة إلى مستقرها الأخير.. المحيط الهندي. ثم يعاود الطيار طوافه مرة أخرى فنمر على ارتفاع خفيض فوق الجسر المعلق منذ تسعين سنة فوق الجرف الفاصل بين بلدين، ليوصل البلدين. وكان بُناته الإنجليز يحلمون بأن يوصل مستعمراتهم في إفريقيا عبر طريق القاهرة ـ الكاب. وبينما كانت الطائرة تدور دورتها الأخيرة طافت فوق براري شلالات فيكتوريا فرأينا قطيعا من الجاموس البري، كسيل أسود يندفع عبر العشب باتجاه الماء. وكانت الزرافات، والأفيال، والحمر الوحشية تبين منمنمة، في رحاب البراري.

كنز من أقواس قزح أهدته لي شلالات موساي ـ أوا ـ تونيا، ولم تشأ إلا أن ترصع

هذا الكنز بدرّة نادرة. قوس قزح في الليل! نعم في الليل. فمع وقت زيارتنا تصادف أن هناك يومين لا يتكرران إلا كل عام كامل في مواصفات جوية معينة، عند اكتمال البدر، ذهبت مع جمع من السياح القادمين من كل أنحاء الدنيا الشمالية، وجُسنا خلال الغابة المحيطة بالشلالات، يملؤنا الهدير ويغرقنا مطر الرذاذ والخوف من الحيوانات المختبئة في الظلمة. كنا محاطين بحراس الغابة من أبناء زيمبابوي السود الطيبين المسلحين بالكشافات والبنادق والكلمات المطمئنة. وعند نقطة الإطلال الأولى على حافة الشلال الوحشي مكثنا ننتظر بزوغ القمر.

جمرة، جمرة حمراء قرمزية صعدت من وراء حافة الشلال المظلمة؟ برغم أعمدة الضباب البيضاء، الصاعدة في قلب السواد. ولم نصدق أبدا أنه القمر، لكنه كان القمر، تحول من جمرة إلى نصف دائرة ذهبية، وارتفع فكان بدرا من فضة صافية تضيء. وفي ضوء القمر صعد من قلب الجرف العميق للشلالات الهادرة قوس قزح.. قوس قزح دقيق، مدمج الألوان كأنه من ذهب وفضة، ارتكز بطرفيه على ضفتي الجرف ثم راح يواصل الصعود والاتساع في سماء إفريقيا الطيبة، فلم أتمالك نفسي عن شدة الافتتان.. هتفت: الله. الله. الله.

جنوب إفريقيا

أعجوبة بريتوريا الزرقاء

على مقربة دقائق من بريتوريا ـ العاصمة السياسية لجنوب إفريقيا ـ ثمة منطقة تدعى الأرض الزرقاء، نسبة إلى لون ترابها الضارب إلى الزرقة، والذي يكتنز في أعماقه أغزر مناجم الماس في جنوب إفريقيا. توجهت إلى هناك، وغُصت بعمق ٧٠٠ متر تحت هذه الأرض، و١٧٠٠ مليون عام في الزمان، أتأمل أعجوبة ميلاد أنقى وأصلب مادة عرفها البشر، لعل التأمل يهبنا بعضًا من التواضع، في زمن يوشك خلاله الاستكبار البشري أن يدمّر شروط الحياة على كوكب الأرض.

فجأة أصبح أمر الماس يهمّني، برغم أنني لم أطمح أبدًا إلى امتلاك أو إهداء عيّنة منه ولو صغيرة بحجم رأس دبوس.

كان ذلك في صباح ربيعي ببهو فندق صن بجوهانسبرج، والربيع هناك يحل في وقت الخريف لدينا، لأن الفصول جنوب خط الاستواء تتزامن مع الفصول النقيضة لها في شماله.

شدّني بريق ملوّن ينبعث من واجهة عرض صغيرة في ركن من أركان البهو. كان المعرض الغائر في عمق الجدار الخرساني مزوّدًا بواجهة من الزجاج المصفّح، ومحروسًا بجهاز أمان إلكتروني حديث جدًا، ومكلّف جدا، فالمعرض الذي لا تتجاوز مساحته جُوف حقيبة يد صغيرة، كان يضم كنزًا قيمته نحو مليوني دولار. ففيه تعرض على بطانة مخملية بلون قرمزي، بضع ماسات ثمينة، متوسطة الحجم، لكنها تتفجّر من داخلها ببوارق عجيبة تحمل أبهى ألوان الطيف. إنه تكسّر الضوء المنعكس على بلورات أصفى مادة في العالم، وأصلبها أيضًا.

وأصابني سحر الماس!

طلبت من المرشدة التي تعاملت معها في رحلتي الجنوب إفريقية أن أزور ورشة لصقل الماس، وضحكت بغمز وهي تقول: (لكن اليوم سبت). ولما أدركت أني لم أفهم معنى إجابتها، صارحتني هامسة أن أعمال الماس يسيطر عليها اليهود، وهم لا يعملون في يوم السبت، ومن ثم لا تعمل محلات الماس ولا ورش صقله في هذا اليوم.

لكنني كنت مشدودًا إلى سحر الماس شدًّا لا يحتمل التأجيل إلى الغد.

وأسعفتني (أوليمبيا) البارعة إذ أدركت تأجّج فضولي، عاجلتني بفكرة أن أسافر فورًا إلى بريتوريا التي تبعد نحو ساعة ونصف بالسيارة، ومنها وعلى مقربة دقائق يمكنني أن أكون في عمق (الأرض الزرقاء)، في رحاب أغزر مناجم الماس بجنوب إفريقيا، مكان اسمه (بريمير)، ومن اسمه ألمح معنى الريادة، لكنها ليست ريادة التشغيل، بل ريادة التكوين كما عرفت فيما بعد، فأنبوب مادة الكيمبرليت التي يوجد فيها الماس عمره ١٧٠٠ مليون سنة، أي أسبق من انفصال القارات، وأسبق من تكوّن مادة سائر مناجم الماس المعتادة والتي يرجع تاريخ تكوينها إلى ٦٠ مليون عام، فقط!

بوابات الرهبة

كانت الثامنة صباحًا عندما انطلقت من جوهانسبرج، وفي العاشرة إلا عشر دقائق كنت في بريمير مارًّا بأطراف بريتوريا. وطوال الوقت لم تنقطع عن إبهاج البصر أشجار (الجاكارندا) المتوهّجة بأزهار بنفسجية هفهافة، فكأن الدنيا مرشوقة بمظلاتها البهيجة، بريتوريا كانت بنفسجية الآفاق كلها، أما بريمير فكانت أقل بنفسجية وأكثر زرقة، زرقة تراب الكيمبرليت الذي أخرجوه من جوف الأرض وكوّموه في تلة عملاقة كانت تطل من وراء سور مكهرب عال.

انضممت إلى سرب الزوّار الذين جاءوا من أربعة أطراف الدنيا، وانخرطت في إطاعة الأوامر المشددة من المشرفين على المكان، والذين كان معظمهم مسلحًا، ارتديت خوذة رأس من خوذات المناجم، وكتبت تعهّدًا بقبول الانضمام إلى الجولة

متحمّلًا ـ على مسئوليتي ـ كل الأخطار المحتملة والتي يذكرها التعهد بوضوح: الانهيارات الأرضية، الاختناق في العمق، إصابات التفجير، والتعرض للأشعة. وبالطبع أوضح التعهد وجوب الالتزام بإجراءات السلامة، والأمن، وعدم إخراج أي شيء من وراء الأسوار، حتى التراب، فهو ليس أي تراب، ذلك الرمادي المزرق.

كانت الكومة الهائلة بارتفاع بناية من عشرة طوابق على الأقل، تطل بهامتها من وراء السور المكهرب العالي الذي اصطففنا لنعبر إحدى بواباته المؤمّنة بسلسلة من الإجراءات التقنية المعقدة. وفي هذا الاصطفاف الطويل، بطيء الحركة، رحت أقرأ شيئًا من كتاب حملته معي، عن ذلك التراب الأزرق المطل علينا، وكان عمره طويلًا... طويلًا جدًا.

منذ ٦٠ مليون سنة ـ على الأقل ـ كانت اليابسة تشكل قارة واحدة متصلة اسمها أرض (جوندوان)، ولأن دوام الحال من المحال، والأشياء تتجه ـ كما البشر ـ إلى مصير التفرّق، فإن القارة الواحدة الكبيرة بدأت تنقسم وتتباعد أقسامها لتشكّل القارات التي نعرفها اليوم. وإذا كان انفصال البشر ـ عادة ـ تسبقه عواصف بشرية، فما بالنا بانفصال القارات؟! شيء بالتأكيد رهيب، سلسلة من التفجرات البركانية رجّت الأرض وهي تقذف بجحيم من الحمم المتوهجة الكثيفة. ولأن الهياج لا يدوم أبدًا، خمدت ثورة البراكين، وفي (أنابيب) جوفها وحول فوهاتها راحت مادة الحمم تبرد وتيبس لتصير هذه المادة الرمادية الزرقاء المسمّاة (كيمبرليت)، وداخل هذه المادة كانت تتناثر أعجوبة الماس!

لقد بدأ تكوّن الماس ـ في صوره الأولية ـ بباطن الأرض قبل تكوّن الكيمبرليت بمئات الملايين من السنين، فمنذ ما يقارب ثلاثة بلايين عام، وعلى أعماق مئات الأميال في جوف الأرض الكثيف والملتهب، تعرّضت ذرات الكربون النقي ـ تحت تأثير الضغط والحرارة الهائلين ـ للانعصار والانصهار معا، وعندما ثارت البراكين ـ سواء عند تشقق الأرض لتكوين القارات منذ ٦٠ مليون سنة أو قبل ذلك كما في حالة بريمير العائدة إلى ١٧٠٠ سنة ـ انقذفت الصهارة الجوفية حاملة معها تكوينات ذرات الكربون المعصورة والمصهورة معًا، ومع تعرّض الصهارة لدرجة الحرارة المنخفضة

بعيدًا عن جوف الأرض، أخذت في البرود والتيبس مكوّنة الكيمبرليت، وداخله كانت تكوينات الكربون المعصور والمصهور المتناثرة تبرد أيضًا فتعيد تشكيل نفسها، وتتكون منها بلورات رباعية السطوح، ومن هذه البلورات يتكون الماس. وما أعجب ذلك! فجرافيت أقلام الرصاص يتكون من الكربون النقيّ نفسه الذي تكوّن منه الماس، لكن شتّان بين صناعة وصناعة! والمدهش أن الكيمبرليت الذي يحمل داخله الماس المتكوّن من الكربون لا يوجد به أي كربون!

ثم جاءت عصور البلل.

كانت الأرض ـ في هذه الأنحاء ـ غابة من البراكين التي تنتصب مخاريطها الزرقاء على السطح وتحتها تغوص أنابيب عملاقة من المادة الزرقاء ذاتها، الكيمبرليت، وهبّت على الأرض أزمنة من الرياح والأمطار الطوفانية، أطاحت بمخاريط البراكين الزرقاء ودفعت بترابها وحجارتها مع السيول الوحشية في مجاري الأنهار الأولى نحو البحر، وبقيت جذور تلك البراكين على شكل أنابيب عملاقة من مادة الكيمبرليت تغوص رأسيًا مئات الأمتار في باطن الأرض ويشي بوجودها لون التراب في الأرض الزرقاء.

ووجدتني واقفًا في طابور يتحرك ببطء على هذه الأرض!

أتجه مع الآخرين نحو بوابات الرهبة الإلكترونية، بوابة تلي بوابة، وما إن يعبر الإنسان إحداها حتى ينغلق أوتوماتيكيًا وراءه جدار من الفولاذ. عددت جدارًا، اثنين، ثلاثة، ثم وجدتني مع سرب الزوار فجأة في دنيا واسعة، واد مترامي الأطراف تعجبنا كيف أحاطوه كاملًا بتلك الأسوار الإلكترونية العالية.

ورحنا نتلفت...

من السطح إلى الأعماق

في البعد كانت هناك حفرة قطرها عدة كيلومترات، وعمقها أكثر من مائة متر، ورغم أن هناك شجيرات وأعشابًا كانت تغطي جوانبها، وبحيرة مياه في قاعها، فإنهم كانوا يدعونها (ميتة). وهي متخلفة من (أنبوب) منجم استُخرجت تربته وحجارته الزرقاء

حتى آخر ذرة، وحتى ظهرت أعماق الأرض وفاضت مياهها الجوفية، ثم هُجر المنجم بعد إعلان موته، أي بعد خلوّه من أصغر احتمال للعثور على أصغر ماسة.

سرنا في ظلال أبراج وجسور فولاذية تحمل أنابيب معدنية ضخمة تنتهي فوهة إحداها فوق كومة هائلة من تراب الكيمبرليت، واضح أن هذه هي النهاية، أي تكويم التراب بعد سحقه وفحصه، (فمن أين يأتي؟) ـ سألت، فأجابني الدليل قائلًا: «ستعرف كل شيء»، وقادنا إلى بداية الإيغال المثير في عمق الأرض الزرقاء، إلى باطن المنجم، في مصعد هبط بنا طوابق عدة، قال الدليل لنا إننا سنعود إليها فيما بعد، وعندما توقف المصعد أمرنا بالخروج... وأيّ خروج؟

خطوة خطوة، ببطء، وحذر، وباستثارة رحنا ندلف واحدًا واحدًا، فوهة معتمة، دعامات تسند الجدران في بعض المواضع، وأطواق فولاذية تحزم السقف لتأمينه، ومن بعضها تتدلى مصابيح الإنارة، وعلى الأرض قضيبان تتحرك عليهما العربات الصغيرة لنقل فتات وتراب حجارة الكيمبرليت. ونتقدم خطوات لا يُسمح لنا بعدها بالتقدم، فالعتمة تزداد إذ تنقطع عن المكان المصابيح المعلقة في أحزمة السقف، فبعد ذلك لا أحزمة ولا دعامات، فقط فجوة فاغرة مهلهلة الجدران وعلى أرضها تتراكم الحجارة الرمادية الزرقاء، ولا إضاءة إلا تلك التي ترسلها المصابيح المثبّتة في خوذات عمال المناجم، وهم ـ بالطبع ـ معنيون بتوجيهها نحو مواضع عملهم. إنهم يحفرون نفقًا يمدون فيه فتيل التفجير... تفجير؟! سمعت الكلمة فارتعشت عظامي، كما لابد أنها ارتعشت عظام كل أفراد سربنا، لكن ما أغرب الإنسان، يرتعب، ويرتعش، ويظل متشبثًا بما هو فيه فضولًا ونشوة... إنها نشوة الرعب التي سأكتب عنها يومًا، بشكل علمي نفسي، ربما!

ولم يترك لنا الدليل فرصة استكمال نشوة الرعب حتى الذروة، إذ بتر نشوتنا بأمر قاطع، أن نتراجع إلى الخلف بسرعة، وبنظام، وحذر، فهناك إشارة احتمال للخطر. وأمام هاجس الموت لا تمكث أي نشوة، حتى نشوة الرعب.. لهذا لم يكن انسحاب سربنا منظّمًا ولا حذرًا، وإن تم بسرعة... بسرعة شديدة تشبه الفرار حتى أن بعض كبار السن خاصة تعثّروا وهم يفرّون، وأتذكر امرأة أوربية عجوزا لعلها كانت في الثمانين،

تعثّرتُ فيها إذ تعثّرتْ أمامي، ولما كنت أنهض وأنهضها، رفعت وجهها العجوز نحوي في ضراعة كأنها توشك على البكاء هاتفة «لا أريد أن أموت». وتدافعنا داخل المصعد الذي أسرع يصعد بنا، واستقر في بهو واسع به بعض المكاتب، لكنه كان تحت الأرض أيضًا، ولم يقبل معظمنا بأقل من الصعود إلى ظهر الأرض رغم طمأنة الدليل لنا.

الأشجار الحارسة

ردّة الفعل بعد تلك اللحظات كانت مدهشة، إذ تعالت أصواتنا والضحكات وراح كل منا يتقرب إلى الآخر بمودّة وكأننا نعرف بعضنا بعضًا من قديم، رغم أننا قبل دقائق كنا متنائين، معزولين ـ كل في كبسولة ذاته، بل ويُضمر بعضنا للبعض نفورًا يكاد يصل إلى درجة العداء، خاصة أننا كنا من جنسيات مختلفة: أوربيين، ويابانيين، وملوّنين، وأسود واحد من أهل البلاد. وبعد أن هدأ صخب الضحك والثرثرة بأصوات مرتفعة انتبهنا إلى استمرار وجود عمال المنجم في الداخل تحت، تحت الأرض القلقة التي لفت أنظارنا أن فوقها شجرتين من أشجار الكافور الوارفة، وكان يومئ إليهما الدليل، فيممت شطرهما كل وجوهنا، وساد الصمت، بل أشار إلينا الدليل آمرًا بالإصغاء، وإرهاف السمع.

لم نسمع شيئًا، وكان ذلك بشارة خير راح يشرح أسرارها الدليل وهو يقودنا مرة ثانية إلى الأعماق الرمادية الزرقاء، وإن أكّد لنا أننا سنبقى في الطوابق الآمنة من المنجم (بل الآمنة تمامًا) ـ على هذا أصررنا، وعدنا إلى طابق المكاتب ليشرح لنا الدليل مراحل رحلة الأعماق التالية، لكنه استهل بالحديث عن الشجرتين اللتين رأيناهما على سطح المنجم.

الشجرتان من نوع الكافور (ايوكاليبتوس)، لكن هذا النوع من الأشجار صار يسمى في جنوب إفريقيا (شجرة المناجم)، وغلاة الوطنيين من أبناء البلد الأصليين يلعنون هذه الشجرة (الأنانية) التي تميت كل ما حولها من نباتات والتي جلبها البيض معهم ليزرعوها خاصة على ظهر المناجم، وتحديدًا على سطح (الأنابيب) المطمورة بالكيمبرليت، فالأرض الزرقاء التي تملأ هذه (الأنابيب) هشّة، وأشجار الكافور ذات جذور تنتشر في شبكة واسعة فتؤمّن تماسكًا للتربة المكوّنة لظهر المنجم، كما أنها

تعمل كشبكة إنذار مبكّر تنبئ عن أي انهيار وشيك! إذ نظرًا لتغلغل جذورها، فإن بدء الانهيار يشكّل خلخلة للأرض من حول الجذور تجعل هذه الجذور تتململ فتصدر عنها أصوات مثل (تزييق) أو طقطقة الخشب، ويكون هذا الصوت جرس إنذار ينطلق فيجعل كل العاملين تحت الأرض الزرقاء يطلقون أرجلهم للريح البعيدة، ويسعون للنجاة بعيدًا عن أنفاق المنجم. لا يخرجون بالضرورة إلى سطح الأرض، لكن يبتعدون بالضرورة عن جوف الأرض المتشكل من الكيمبرليت المنذر بالانهيار.

لم يكن حديث الأشجار الحارسة كافيًا لتهدئة خواطرنا، ويبدو أن الدليل المجرِّب لكل أنواع البشر الذين جاءوا من قبل أراد أن يبعث الأمان أكثر وأعمق في نفوس المرتعدين من سربنا، فحدثنا عن تقنية حفر مناجم الماس ليؤكد لنا أن مرحلة تعرّضنا لخطر الانهيار قد انتهت بمغادرة نفق الحفر والتفجير، وأن كل الأماكن التي سنعبرها تحت الأرض الزرقاء، من الآن فصاعدًا، هي أماكن آمنة لأنها بعيدة عن أنبوب الكيمبرليت، السمة العامة في حفر مناجم التنقيب عن الماس هي أن هناك دائمًا حفرتين إحداهما داخل مخروط أو شق الأرض الذي به مادة الكيمبرليت، والأخرى توازيها وتستخدم لنقل المادة والعمال والأدوات، وبها بعض مراحل ومحطات تخليص الماس من الأحجار والتربة الزرقاء. وبالطبع، فإن الحفرتين الرئيسيتين تتواصلان بأنفاق أفقية للنقل، لكن المهم هو أننا كنا في إحدى غرف الحفرة الموازية لحفرة الكيمبرليت، أي في جسم الأرض العادية ـ وهي حمراء في كثير من بقاع جنوب إفريقيا ومنها البقعة التي كانت حفرتنا فيها وبعمق أكثر من ستمائة متر

٣ أجزاء من المليون

أسماء تقنيات حفر مناجم الماس مختلفة، فمنها ما يسمى تقنية الغرف، وتقنية الكهف، وتقنية الطاولة المفتوحة. ولأن منجم بريمير ـ حيث كنا ـ ينتهج تقنية الغرف، فهي أولى بالتوقف. يتم الحفر ـ بموازاة مخروط الكيمبرليت ـ تمامًا كما لو في حفر أساس البنايات، وبعد عمق معين تصير هذه غرفة ويُمدّ منها نفق أفقي للحفر ـ رأسيًا ـ في الكيمبرليت، وبعد أن ينفد الحجر الأزرق في هذا المستوى، يتم النزول إلى مستوى أعمق بحفر غرفة جديدة تحت الغرفة الأولى. وهكذا غرفة تحت غرفة حتى

أعماق سحيقة، فالماس لأنه عالي الكثافة لا يوجد إلا في العمق بهذه المناجم. أما في أحواض الأنهار وعلى ضفافها وعلى ساحل البحر أو تحت مياه الساحل، فالماس يوجد على السطح لأنه يكون مما حملته سيول الأزمنة المطيرة وهي تجرف الأرض الزرقاء في رحلات تكوين الأنهار الأولى.

لا تكاد تختلف طرق الحفر المختلفة في مناجم الماس، اللهم إلا فيما يخص آلية الحصول على المادة (الخام) أو الكيمبرليت.

فهناك آلية تلجأ للتفجير، وهناك آلية تسمى الحفر المغلق، وتعتمد على غرس (شوكة) من عدة (أصابع) خرسانية أفقيًا في طبقة الكيمبرليت، يتم سحبها وتغرس أخرى في مسافة تحتها، وما إن تسحب أصابع هذه الأخيرة حتى يتفسّخ الجزء (السائب) بين (المغرسين) وينهار بفعل الجاذبية وتنقل حجارته وأتربته بعد ذلك كما في المستخرج بالتفجير. والمعتاد أن يتم النقل في دفعات كل منها يزن ٣،٥ طن على عربة (ترولي) كهربية إلى رافعة كهربية تنطلق كلما جمّعت عشرة أطنان، وتوصلها إلى محطة الطحن حيث تجرى أولى عمليات (تخليص) الماس من أحضان وأحجار الأرض الزرقاء.

كان الدليل مستمرًا في (شروحاته) وهو يقودنا تحت الأرض، بين طوابق بناية غائرة حتى عمق أكثر من ٧٠٠ متر، وعندما وصلنا إلى قاعة هائلة باتساع (عنبر) إحدى الورش في المصانع العصرية، كانت هناك موتورات تهدر، وعنفات تدور، وأبراج ذات درج عال تحت السقف الأعلى. لكن كل شيء كان مغطى ونظيفًا ولامع الطلاء بألوان زرقاء وصفراء قوية توحي بحداثة التجهيزات. هذه محطة (الطحن)، وهنا تطحن حجارة الكيمبرليت مرتين ولا يسمح بمرور أي جزء يزيد على ٣٢ مليمترًا، وهذه المحطة تعالج سنويًا خمسة ملايين طن من الكيمبرليت بأمل الحصول ـ في المراحل اللاحقة ـ ومن كل مليون جزء من التراب والحصى الأزرق على ثلاثة أجزاء من الماس.

بلا نار يضيء

توقف المرشد أمام آلة بارتفاع طابقين تحت سقف أحد العنابر التحت أرضية وقال: إن هذه هي (الغسالة)! غسالة من نوع خاص تغسل وتفصل الثقيل والخفيف أثناء

عملها، ويكون الماس في الجانب الثقيل بالطبع. ولا تتوقف عملية الفصل عند هذه المرحلة، بل تستمر عبر معالجة المادة الثقيلة في جهاز طرد مركزي ضخم هو الآخر، يدور بسرعة عالية جدًا فتظل المادة الخفيفة في الوسط بينما تندفع المادة الأثقل إلى الأجناب، وإلى أسفل حيث يتم جمعها في غرفة تحت جهاز الطرد المركزي نفسه. ويكون في المادة المجموعة خليط من الأحجار الكريمة (الماس) والأحجار شبه الكريمة وغير الكريمة أيضًا وإن كانت ثقيلة الوزن وعالية الكثافة.

ثم رأينا أولى عمليات (التمييز) بين الماس وأشباهه رأي العين. فالخليط راح ينزلق أمامنا على سير عريض مزوّد بمادة لاصقة خاصة لا تلتقط غير حبيبات الماس وهذه تكشطها شفرات يتم صهرها لتخليص أي ذرات من الماس تكون عالقة بها.

أما أكثر عمليات (التمييز) إدهاشًا فقد رأيناها عبر نافذة جهاز آخر يقوم على نظرية وآلية اكتُشفت وطُبّقت في الاتحاد السوفييتي السابق، فالماس عندما يتعرض لأشعة إكس يومض بضوء مصابيح الفلورسنت. وبأدوات تصوير كهربائية تُرصد الحبيبات الوامضة ويوجه نحوها تيار هواء ساخن، قوي ودقيق، يدفعها نحو صندوق للتجميع لا يدخل فيه إلا الماس!

وعندما لا يبقى غير الماس، وإن يكن في هذه المرحلة مغبرًا ومعتمًا بما يلتصق به ويغطيه، فإنه يعالج بالأحماض لإزالة الشوائب عنه، ثم يجرى تصنيفه وتثمينه ـ مبدئيًا ـ قبل الصقل، وهذا يتم خارج أرض المنجم بعد أن يُنقل الماس تحت حراسة مسلحة مشددة. ولم يكن مسموحًا لنا بمتابعة هذه العملية إذ قادنا المرشد للخروج إلى سطح الأرض، لنرى ثانية الجسور والأبراج التي تحمل (عادم) الكيمبرليت في الكومة الهائلة من التراب الرمادي الأزرق، وفي مكان على حافة منجم ميّت كانت هناك مائدة مرتفعة وُضعت عليها بضعة أحجار من الكيمبرليت الخام دعانا المرشد للإمساك بها وتقليبها أمام أبصارنا في ضوء الشمس. كانت بوارق وشرارات دقيقة، دقيقة جدًا، تنطلق ملوّنة من قلب الحجر المعتم، إنها ذرات الماس. ولابد أن بعضنا فكّر في الحصول على شيء منها تحت أظفاره، لكنهم ـ أصحاب المنجم ـ كانوا يقرأون خواطر هذه النفوس الأمّارة بالسوء، وكانوا يعدون للأمر عدته عند بوابة الخروج.

خطونا بشعور من يمشي على أطراف الأصابع ونحن نغادر أرض المنجم، فالتراب تحت أقدامنا به شيء من الماس، والتراب على الزوايا وفي الأركان من حولنا به الاحتمال نفسه، بل إن (العادم) المكوّم في جبل يرتفع على مر السنين يعاد فحصه مع ابتكار أجهزة جديدة أكثر تطوّرًا، ويعثر بالفعل على كميات كبيرة من الماس.

قبل أن نعبر حاجز الخروج الأول قاموا (بتنفيضنا) جيدًا بمراوح رقيقة دقيقة، ثم مررونا على أجهزة أشعة خاصة، منها جهاز حديث أنيق نبسط عليه أكفّنا فيكتشف أصغر ماسة يمكن أن تكون مختبئة أو مخبّأة تحت الأظفار.

وبعد إعلان براءتنا إلكترونيا، رحنا نعبر بوابات الخروج الإلكترونية، إلى أرض الله الواسعة غير الزرقاء.

الصناعي، والطبيعي

بدأ الحديث عن الماس الصناعي يتردد في أثناء الحرب العالمية الثانية، عندما برزت ضرورة استخدامه في الصناعات العسكرية المتطوّرة بديلًا عن الماس الطبيعي باهظ التكلفة، وفي عام ١٩٥٥ أعلنت شركة جنرال إلكتريك الأمريكية إنتاجها الماس الصناعي، لكن الحكومة الأمريكية حظرت خروج أي معلومات تقنية عنه إلى الخارج. قبل ذلك كانت مجموعة (دي بير) تخشى من منافسة الماس الصناعي للطبيعي الذي تتاجر فيه، لكن بعد الإعلان الأمريكي سارعت (دي بير) وحفزت معاملها في جنوب إفريقيا لإنتاج الماس الصناعي بطريقتها، وهو ما تم إنجازه خلال ثلاث سنوات.

تتطلب العملية استخدام خليط من الجرافيت ومعدن النيكل أو الحديد، وتعريضهما لضغط كبير (٦٠ كيلو بار) وحرارة مرتفعة (١٥٠٠ درجة مئوية) في فرن كهربائي، فينصهران ويتحول بعض الجرافيت إلى الكاربيد الذي يغير تركيبه الجزيئي متحوّلًا إلى بلورات الماس الصناعي.

هذه العملية بدأت مكلفة في الإنتاج التجاري، والماسات الناتجة عنها ظلت ضئيلة

الحجم ورديئة النوعية، ومن ثم كانت عاجزة عن منافسة الماس الطبيعي خاصة في مجال الاستثمار كمجوهرات، أما على مستوى الاستخدام الصناعي، فكانت ولاتزال مقبولة، مما ساعد على ازدياد منتجي الماس الصناعي الآن.

يستخدم الماس الصناعي في شفرات المثاقب والمخارط الكهربائية لتشغيل الصلب المقسى، وفي سكاكين قطع الزجاج، وألواح صنفرة المعادن شديدة الصلابة، وبعض الأدوات الإلكترونية

لكن الماس المستخدم في الأغراض الصناعية ليس كله صناعيًا، فمنه الماس الطبيعي أيضًا، لأن معظم ما يستخرج من المناجم ليس ثمينًا، إما لصغر حجمه أو سوء الشكل أو اللون وإما لعدم ملاءمته للصقل، ومن ثم يستخدم في الأغراض الصناعية والتقنية تبعًا لدرجاته، فالدرجة الأدنى تستخدم في المثاقب والمناشير والمخارط بما يشابه الماس الصناعي، أما الدرجة الأعلى فتستخدم في الأدوات الإلكترونية الدقيقة كأشباه موصلات وموصلات فائقة تستطيع اكتشاف فروق حرارية لا تتجاوز جزءًا من المائة من الدرجة الواحدة.

عتمات قلب الماس

ليس الألق المتطاير بأصفى ألوان قوس قزح هو البعد الوحيد الذي ينمّ عنه قلب الماس الصافي، فثمة عتمات من القهر والموت والدم تختبئ كثيرًا وراء هذا الألق.

سيسل جون رودس، الفتى الضائع معتل الصحة ابن القس البروتستانتي البريطاني المتواضع، وصل إلى إقليم الناتال في جنوب إفريقيا عام ١٨٧٠ وكان في السابعة عشرة من عمره، لعب لعبة الماس وهي في بدايتها، مستخدمًا بالطبع كل أدوات المستعمرين البيض من مكر وخداع وقسوة مع أبناء البلاد الأصليين السود، وتحول في سنوات إلى قطب من أقطاب مجموعة (دي بير) المتحكمة في إنتاج وتجارة الماس بالعالم ـ حتى الآن ـ ومات وهو يمتلك دولتين من دول إفريقيا الجنوبية حكمهما بالنار والحديد، في

أبشع صور العنصرية التي عرفها التاريخ، ونسبهما إلى اسم عائلته: روديسيا الشمالية وروديسيا الجنوبية! ولعل هذا يفسر رد الفعل المبالغ فيه أحيانًا ضد البيض في إحدى هاتين الدولتين ـ زيمبابوي الآن.

أما اليهودي الإنجليزي ضئيل الحجم والقيمة، بارني إزاك (إسحاق) والذي فضل أن يُدعى بارني بارناتو ـ لأسباب في بطن الأفعى ـ فقد وصل إلى جنوب إفريقيا أيضًا وحمّى الماس في بدايتها، وسرعان ما تحوّل هو أيضًا، وبالأدوات ذاتها بالتأكيد، من جرسون تافه في إحدى خمارات أفقر أحياء لندن والتي تدعى (كوكني) إلى مالك مناجم وبلدات وبشر، وشريك لسيسل رودس، ولاعب مركزي في إمبراطورية احتكار الماس العالمية (دي بير) التي تعطّل ورشاتها ومتاجرها ومعاملها في يوم السبت ـ حتى يومنا هذا!

إن الانتقال من الفقر إلى الثراء شيء مقبول في عالم البشر، عندما يكون ذلك عبر وسائل شريفة، أما عندما يكون الثمن مدفوعًا من لحم ودم المقهورين كما حدث في بلدان الجنوب الإفريقي كلها، من أجل السيطرة على الماس وغيره من ثروات تلك الأرض، فهو أمر يقتضي ـ على الأقل ـ اعتذار الغرب، ومعه كثرة من أباطرة المال اليهود، للأفارقة ومن تعذّب مثلهم، فليست (الهولوكوست) وحدها هي ما ينبغي الاعتذار عنه، ناهيك عن التعويض.

عندئذ ربما يصير قلب الماس بريئًا من العتمة.

السنغال (غوري)

صخرة الأنين... الملونة!

بين ألوانها الدافئة توقف الرئيس الأمريكي بيل كلينتون متأثرا، واعتذر. ومثله فعل بابا الفاتيكان، توقف، واعتذر. وبينما كنا نطوف بألوانها، سمعنا أنينا موجعا بعمق القرون، فتوقفنا، نقلب البصر حيارى في أفق الأطلسي، والنفس تهتف: (يا الله.. ما أهون الاعتذار).

اسمحوا لي، أن انقسم أمامكم إلى اثنين، فقد خضت هذه الرحلة وجدانيا كشخصين، حتى أغوص ـ ولو قليلا ـ في أعماقها المنسية، والموجعة. الشخص الأول هو ما أنا عليه، باسمي المعتاد، كمستطلع. والشخص الثاني هو زنجي أسود، أسميته ـ بعد تحريف قليل لاسمي ـ (مامادو)، لعله يعزز تقمصي لكيان إفريقي أسود ـ وهو لون جميل كجمال الليل ـ يجيء من مبعدة ثلاثة قرون ليصحبني في هذا الاستطلاع بحكايته، رحلة تستدعي رحلة أخرى، زمن يغور في زمن ناء، حاضر يفتح على ماض، وماض أظن أنه يفتح على بعض ألغاز أيامنا، ومستقبلنا أيضا. وأعدكم بشيء واحد، هو أن أتحرى الدقة، فلا أسمح لحكاية (مامادو) إلا بالنهل من وقائع تاريخية موثقة، أستدعيها بشكل يوشك أن يكون حرفيا لعلّي أُسمعكم هذا الأنين. وأكسر لذلك القاعدة، فأحدد أهم مصادري لحكاية (مامادو) في المتن، لا الهوامش.. إنها (موسوعة تاريخ إفريقيا السوداء) لجوزيف ـ كي ـ زيربو ـ ترجمة يوسف شلب الشام، و(العبودية)) لموريس لانجليه ـ ترجمة إلياس مرقص، و(غوري) لجان كلود بلاشار بالإنجليزية.

ولنبدأ الرحلة، ولتتأهب الحكاية للطفو... في الثامنة من صباح داكار لطيف الحرارة، والرطب قليلا، انطلقنا على متن عبارة قديمة صوب الجزيرة التي تلوح كطيف رمادي

بين أمواج المحيط غير بعيد. كان في صحبتنا ـ تطوعا ـ اثنان من السنغاليين الشباب الذين يجيدون العربية، إضافة للفرنسية بالطبع!. سليم نيانغ الذي أهدته لنا السفارة الكويتية في داكار، فكان مرافق رحلة ممتازا، أما الثاني فهو الصحفي تيجان كوتا الأقرب إلى عملاق في جلباب سنغالى (جرامبوبو) لامع الزرقة، فضفاض وبجيوب كبيرة لا أول لها ولا آخر. قال كوتا بنبرته المرتفعة دائما: (غوري تبعد ثلاثة كيلو مترات عن الشاطئ). وفي صياغة أخرى قال سليم بنبرته الهادئة: (أقل من ميلين). لكن الدقائق التي استطالت بين أمواج المحيط، أبدت لنا المسافة أبعد من ميلين، وأكثر من ثلاثة كيلو مترات. فبعد اثنتي عشرة دقيقة دارت العبارة حول طوف يحدد نصف المسافة، ويحدد أيضا موقع سفينة غارقة، ويؤرخ لآخر طلقات المدافع الكولونيالية في المكان، وقد كانت تصفية حساب بين فرقاء فرنسيين! المفارقة ليست في السفينة الغارقة، بل في هؤلاء الذين لم يكتفوا بوضع أياديهم الثقيلة على أرض الغير في قارات بعيدة، بل أمعنوا في تصفيات الحسابات (البيضاء / البيضاء) فيما بينهم على أرض الآخرين. غوري كانت نموذجا صارخا لهذه الفجاجة الغربية. ففي حمى البحث (عن مسيحيين جُدد وعن توابل) كما قال فاسكو دى جاما، وبدعم مراكب (الكارافيل) الشراعية القوية التي تتماسك في أعالي البحار، واستخدام الدفة المفصلية، وتبنِّي الأسلحة النارية والبارود والبوصلة ـ والأخيران لم يكونا من منجزات أوربا ـ اندفعت عشرات المراكب البرتغالية بمباركة هنرى الملاح ـ الابن غير الشرعي لملك البرتغال ـ لتدور حول ساحل إفريقيا الغربي من أجل العثور على (طريق البهارات المقدس) سعيا وراء قناعة هذا الأمير بخطة (قطع طريق التجارة على المسلمين مع الهند وأخذهم من الخلف بالتعاون بين القوات المسيحية وقوات الأسقف (جان) ـ أي نجاشى الحبشة!. عام ١٤٤٤ وصل المستكشف البرتغالي (دينيس دياز) إلى غوري التي كان اسمها (بير). ويقطنها بضع أسر من صيادي الأسماك الذين يجمعون مياه الأمطار في حفر تحت حواف الأسقف المائلة لأكواخهم المتواضعة. ويحكى أنهم تحولوا إلى الاسلام منذ القرن الحادي عشر، أسماها البرتغاليون (جزيرة النخيل) (مما يقطع بأنها لم تكن قاحلة كما يزعم الغربيون ليمرروا أنهم أول من عمرها بالنباتات)، وظل البرتغاليون يحتلون الجزيرة حتى عام ١٥٨٧. بعد ذلك وفي حمى الرحلات الاستكشافية، تعرف الأوربيون على

ميزات غوري كقلعة طبيعية ومرفأ ترسو داخل قوسه الهادئ مراكبهم. ويبدأ مسلسل آلام غوري التي صارت الجائزة التي يحصل عليها الفائز بين المتصارعين القادمين من بعيد. وظلت آلية الصراع تتكرر على امتداد قرنين من الزمان: إلقاء مراسي السفن الحربية خارج الميناء، ثم إطلاق المدافع على الجزيرة لتحطيم تحصينات وبيوت من يحتلها، ومن ثم غزوها وبناء بيوت وتحصينات للمحتل الجديد، حتى تجيء مراكب أخرى لتكرر الرسو، والقصف، والاحتلال. على هذا النحو تنقلت غوري بين أيادى البرتغاليين، والهولنديين، والإنجليز، والفرنسيين. وكان اسمها يتغير، أطلق عليها الهولنديون (غويدي ريدي) أو (الطريق الطيب) والتي يزعم أنها حرفت إلى غوري ـ اسمها الحالي، وإن كان السنغاليون يؤكدون أن (غوري) تعني العتق في لغة قبائل الولوف السنغالية. استقر اسم (غوري) دون استقرار لمستعمر بها. فبعد البرتغاليين والهولنديين جاء الإنجليز والفرنسيون. وفي القرن ١٨ وحده خضعت الجزيرة لسلطة الإنجليز أربع مرات، وللفرنسيين خمسًا، إذ كان هذا القرن عهد غوري (الذهبي)، وهو ذهب مر، كان حصاد تجارة قذرة، تحول فيها الكائن البشري إلى (الإنسان الماشية) على حد تعبير موريس لانجليه في كتابة (العبودية).

مامادو يستبق الرسو

أنا مامادو.. كيف صرت عبدا؟ ماشية بشرية تباع وتشترى؟ إنه أمر يدعو لمرارة مضاعفة. لقد تم اصطيادي بالطريقة ذاتها التي كانوا يصطادون بها حيوانات الغابة الإفريقية حية. فخ مموه وسط أحراش كزمانس المثقلة بالخضرة. بئر عميقة كانت مغطاة بالأغصان وورق الشجر وقعت فيها مع اثنين من أبناء قبيلتي. وسرعان ما رأينا عند فوهة البئر وجوها بيضاء محمرة وأخرى سوداء. هؤلاء هم الأوربيون البيض الذين كنا نسمع عنهم الحكايات العجيبة والمرعبة أيضا. أما السود فهم جواسيسهم وتابعوهم الذين خانوا أبناء جلدتهم مقابل أثمان بخسة: بضعة قضبان من الحديد، حفنة زجاج وخرز ملون يصنعون منها أحزمة يلفونها حول بطونهم ويتباهون بها، أسمال وثياب عتيقة بعضها مما استخدم على المسرح من زي الجنود أو الدرك، والأهم هو الكحول الذي كانوا يسمونه (ماء الحياة). ماء الحياة هذا كان طريقة أخرى لاصطياد

العبيد لتمويل تلك التجارة الملعونة. فما من زنجي رأوه يتسكع بين البحر ومراكزهم التجارية على ساحل السنغال، وغرب إفريقيا عموما، إلا دعوه لتذوق (ماء الحياة) هذا، ومجانا. وما إن يغب عن وعيه حتى يقيدوه بالسلاسل ويصبح عبدا للبيع أو المبادلة أو الشحن في مراكب تجارة العبيد وإذا أفاق وتمرد كانت البنادق تسكته إلى الأبد وتلجم إخوته المشتركين معه في سلسلة واحدة تربط ما بين الأطواق التي تحيط أعناقهم. حتى (ماء الحياة) هذا والذي تدفق كأمواج على سواحل إفريقيا مع ازدهار تجارة العبيد كان مغشوشا. وكما قرأت في وصايا تاجر عبيد هولندي ـ فيما بعد ـ ينقل خبرته إلى بني جلدته البيض في تلك التجارة: (من الأفضل أن يمزج الكحول بصابون إسباني، لكي يكون له رغوة، فهي برهان لا يرقى إليه الشك عند الزنوج على جودته). بالفخاخ، والكمائن، والبنادق، والخيانات، وقضبان الحديد، والمصنوعات الزجاجية، والمناديل الحمراء، والثياب القديمة، والخمر المغشوشة بالماء والصابون، كنا نقع في أسر تجار العبيد الأوربيين، ليتم شحننا إلى الشاطئ الآخر من الأطلسي. وقبل أن يتم وصولنا إلى مرافيء التجار قبل ترحيلنا كان يجرى تصنيفنا، فهناك: (عبيد كايور، وهم عبيد حرب يديرون أعمال التمرد. والبامبارا، وهم بلهاء لطفاء وأقوياء الأجسام. والوويداه، وهم مزارعون صالحون ولكنهم يميلون إلى الانتحار. والكنغوليون، وهم مرحون وعمال جيدون).

جرى تصنيفي مع (البامبارا)، وتم فرزي كقطعة هندية إذ كنت شابا قويا في الثامنة عشرة عندما أُسرت. والقطع الهندية في لغة تجارة العبيد كانت: (سود تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والثانية والعشرين دون أي تشويه جسدى بأصابعهم الكاملة وأسنانهم ودون غشاوة في العينين ويتمتعون بصحة جيدة).

في مركز تجميع قرب مرفأ المراكب الذاهبة إلى جزيرة غوري تمت مبادلتي وانتقلت من شحنة عبيد إلى شحنة أخرى. خرج عنقي من طوق بسلسلة طويلة تجر قطيعا من البشر إلى طوق آخر بسلسلة طويلة أخرى وفقا لقانون التبادل في تجارة العبيد: فثلاثة أولاد بين الثامنة والخامسة عشرة من العمر كانوا يساوون (قطعتين هنديتين). وولدان بين الثالثة والسابعة يساويان قطعة واحدة. وأم وولدها يساويان قطعة، وهكذا..

صرت (قطعة هندية) في الطريق إلى غوري وسط شحنة مماثلة مغلولة الأعناق. وكنا من الشحنات عالية الثمن التي تساوى الكثير من وحدات الحساب في تجارة العبيد، وهي الأونصة والعلبة والقضيب وهذه تسعر بالغوريات (عملة جزيرة غوري آنذاك) ودقيق أو صفائح الذهب ـ ليتحاشى التجار غش السبائك المنتشر في ذلك الوقت.

تم حشري مع إخوتي في السلسلة الثقيلة الطويلة مع آخرين في أحد (البراكونات) القريبة من المرفأ. مخزن عفن من جذوع الأشجار والصفيح. حار كجهنم ورطب كفوهة قدر يغلي وخانق برائحة العرق والدم وفضلات المكبلين. وهناك رأيت الحادثة التي ذكرها (برونودي بوميغور) في كتابة (وصف العبودية) عن فصل الأمهات عن أطفالهن. برونو هذا الأوربي الذي يبدو طيبا والذي امتد عمله عشرين عاما لحساب شركة الهند على الساحل الإفريقي أتى إلى التاجر الذي يملك شحنتنا وشحنات أخرى تم إطلاقها في الساحة بين البراكونات في الصباح. عرض التاجر عليه عددا منا وكانت هناك امرأة يتراوح عمرها بين العشرين والرابعة والعشرين حزينة جدا وغارقة في بحر من الألم. كان ثدياها متدليين قليلا وممتلئين وقال برونو في تأثر: (أظن أنها فقدت طفلها). فقال التاجر: (لم يكن لها طفل أبدا). ولم تتكلم المرأة خوفا من الموت الذي هددونا به إن سببنا إزعاجا للتاجر. لكن روى برونو: ضغط ثديها العاري بلمسة فسال الحليب وسالت دموعها غزيرة. تأكد أن لها رضيعا انتزعوه منها. ألح برونو على التاجر فقاطعه الأخير بإجابة فظة: (إن ذلك على أي حال لن يمنع بيعها لأن ولدها سيكون عند المساء طعاما للذئاب). عرض (برونو) على التاجر سعرا أعلى للمرأة إذا كان طفلها معها وعلى الفور أمر التاجر بإحضار الرضيع. وما إن احتضنته أمه حتى ركعت عند قدمي (برونو) وهي تعبر له عن عرفانها بالجميل بأن تأخذ التراب وتهيله على جبهتها متمتمة بالشكر.

ألوان حارة وألم حارق

لامست العبارة مرسى غوري بنعومة، فقائدها ـ لا بد ـ يحفظ ملامح الطريق الذي تقطعه العبارة من السادسة صباحا حتى منتصف الليل في أكثر من سبع رحلات يوميا من داكار إلى غوري، ومثلها رجوعا من غوري إلى داكار.

أحسسنا بهواء المحيط يهدأ داخل الخليج الصغير للمرفأ، وكانت الوداعة ودفء الألوان هما أول ما لفت نظرنا في الجانب الغربي من الجزيرة المتطاولة قبالة المرسى. زوارق صغيرة تعوم بركاب قليلين أو تتأرجح ناعسة خالية قرب الشاطئ الرملي. أطفال جميلون يلعبون على الرمل كنقاط ملونة في خلاء مريح شاسع. ولوحة بديعة الألوان ممتدة بين زرقة البحر التي تغدو فيروزية حول صخور البازلت السوداء المبلولة التي تكوِّن قاعدة الجزيرة الصخرية، وبين زرقة السماء الإفريقية التي تبدو قريبة وصافية وتوحي بيسر ملامسة سحبها البيضاء الخفيفة الخفيضة. غوري مع أول إطلالة تفعم العين والروح بدفء ألوانها. نظيفة ومتناغمة وتخبئ مرارات القرون. القلعة الوردية المدورة عند أقصى الطرف الجنوبي والتي صارت سجنا على زمن الفرنسيين وانتهت إلى أن تكون (المتحف التاريخي للسنغال). و(قصر الحكومة) الأبيض السكري المسقوف بالقرميد وسط الخضرة وأشجار الباوباب، وهو بالرغم من ضخامة اسمه فإنه ليس أكثر من نزل للمدرسين والرسامين الذين يعشقون الإبداع في الجزيرة، والوافدين من موظفي الحكومة، والسياح الذين يختارون المبيت في واحد من أهدأ أماكن العالم، حيث لا سيارات، ولا دراجات نارية، ولا حتى هوائية.

نلتفت يسارا فتقع العين على (بيت التجار) القديم الذي بُني في القرن الماضي وتتناغم في طلاء وحداته الألوان: الأبيض، والأحمر الطوبي، والنوافذ الخضراء الفستقية، وقد تحولت طوابقه الأرضية إلى مقاه ومقاصف نظيفة ومحال لبيع المشغولات اليدوية ولوحات الفنانين التلقائيين الكثر في الجزيرة.

نتقدم على الممشى المتجه إلى الساحة الرملية الفسيحة، فيطالعنا في الأمام ذلك المبنى الأحمر حمرة عميقة دافئة، وهو بيت (شيفاليه) الحاكم الفرنسي الذي تحول إلى فندق. بينما يطل من ورائه بيت (السودان) بلونه الأحمر الصدئ بين أبنية أخرى بيضاء محاطة بالخضرة. ويذكرنا هذا بتسمية (السودان الغربي) التي كانت تطلق على السنغال.

نمشي مندفعين بحركة الفوج الذي لفظته العبارة، ونعرف أننا في الطريق لزيارة أشهر رموز العبودية في العالم والمسمى (دار العبيد). ولقد اكتشفت وأنا أحضِّر للرحلة أن

كلمة (عبد) في اللغات الأوربية معظمها مشتق من كلمة (سلاف) التي تشير إلى سلاف أو صقالبة أوربا الشرقية والبلقان الذين كان الأوربيون الغربيون يتخذون منهم عبيدا، فتجارة العبيد ليست امتدادا لممارسة إفريقية كما يدعي الذين يتهربون من الاعتراف بالذنب، بل هي امتداد ـ في جانبها الأكثر معاصرة ـ لممارسة أوربية حين كانت أوربا في أوج غرورها الاستعماري.

كان سليم قد رتب لنا لقاءات مع محافظ الجزيرة، ومع أمين متحف بيت العبيد. لكننا في زحام المندفعين في دروب الجزيرة النحيلة، نسينا أن نبحث عن (جوزيف ندياى). ودخلنا بيت العبيد دون أن نستأذنه، وظهر الرجل في صدر الدار التي تزاحمنا في باحتها. كان عجوزا في نحو الثمانين، لكنه يقظ وفائق الحيوية، وذو إحساس عال بالكرامة. قرَّعنا باستنكار لأنه كان في انتظارنا، وحذر سليمان حيدر من التصوير قبل أن يأذن لنا. ولما أبدينا اعتذارنا بصدق يتناسب مع عمر الرجل ونبل مهمته، تحول إلى الود البالغ الجميل والذي اختصنا به دون بقية الزوار، الغربيين ـ ومعظمهم من الفرنسيين ـ الذين لم يكف عن إدانة أسلافهم بشدة تصل إلى حد القسوة. فكرت للوهلة الأولى أنه يحتمي وراء درع شيخوخته، لكننى الآن أدرك أن رجلا سنغاليا أسود، قضى عشرات السنين من عمره باحثا في تاريخ تجارة العبيد الأفارقة، وحارسا على أقسى رموزها، ومسئولا عن تعريف العالم بجرائمها،هو رجل يصعب عليه الصفح، حتى عن أحفاد الجناة الأصليين، لأنه منقوع حتى أعماق عظامه في بحيرة من الأنين الكاوى والحارق لبنى أمه وأبيه.

دار العبيد ذات الطلاء الأحمر التي احتشدنا في باحتها وعلى قوسي الدرج الصاعدين إلى طابقها الثاني كانت أبرز النماذج الباقية من دور، أو مخازن، العبيد في الجزيرة والتي كثرت وازدهرت مع ازدهار تجارة العبيد عبر الأطلسي. ومن المدهش أن هذه الدور كانت تسيطر عليها نساء يؤرخ بهن عهد (السيجناريات) أو (السنيورات) في حياة غوري وهن نساء ذوات دماء مختلطة إفريقية / أوربية، تمتعن بحماية أزواجهن أو عشاقهن الإنجليز أو الفرنسيين ليسيطرن على دور أو بيوت العبيد، ويجنين الكثير من تلك التجارة المظلمة، وينلن حظوة ومكانة على

الجزيرة التي كانت تموج آنذاك بأكثر مما تحتمل من المغامرين الأوربيين، والبحارة، والأسرى من العبيد.

دور العبيد، أو بيوت (السنيورات) لا يزال بعضها باقيا حتى الآن.. وفيها بيت (كاتي لوتي) الذي صار الآن مستوصف الجزيرة والذي بُني بين عامي ١٧٦٧ و١٧٦٨. وبيت فيكتوريا البيس الذي بني بين عامي ١٧٧٦ و١٧٧٨ وهو الآن متحف غرب إفريقيا الفرنسي (I.F.A.N.). أما بيت (آني بيبن) فهو الأبرز، والأكبر، فقد كانت (سنيورة) الحاكم الفرنسي (شيفاليه دو بافالو) وكانت تتحرك على الجزيرة وسط موكب من الزنجيات الإماء اللائي تخصصت مجموعة منهن في حمل حواف قبعتها المثقلة بالجواهر!

دار العبيد التي وقفنا فيها نصغي لصوت يوسف ندياي لم تكن بعيدة عن ظلال بيوت (السنيورات) فقد أقامها عام ١٧٨٠ شقيق آني بيبن. وهي مثال صارخ لاستباحة البيض للبشر الأفارقة. فقد خُصص الطابق الأول المظلم والمعتم كحظائر للعبيد، بينما الطابق الثاني، النظيف والمضيء، لإقامة ومفاوضات التجار البيض.

طفنا بالزنزانات السفلية أو الحظائر مع شروح يوسف ندياى: (إلى اليسار غرفة تخزين الرجال، مساحتها لا تزيد عن سبعة أمتار مربعة ويحشر فيها من ١٥ ـ ٢٠ عبدا، ينامون مقرفصين على الأرض دون أن تنزع السلاسل عن أعناقهم، يتناولون وجبة واحدة بائسة في اليوم، ولم تكن هناك رعاية صحية أو اهتمام بالنظافة، ولم تكن أعناقهم وحدها هي المربوطة بالسلاسل، كانت هناك أيضا كرات حديدية زنة كل منها ١٠ كيلو جرامات تربط في الأرجل ويجرجرها العبد أينما تحرك، ولا تزال بعض هذه الكرات هنا كما في متحف بوردو ويعود تاريخها إلى القرن ١٨).

أرانا يوسف ندياي كرات الأرجل وقطعا من أطواق وسلاسل الأعناق. وعرض علينا رسوما تبين أحد أشكال العقاب التي كان ينالها كل من يتمرد من العبيد، يشك في صنارة وحشية عملاقة تخترق جلده ولحمه عند الكليتين ويعلق عاليا حتى الموت. وبينما كان السنغالي العجوز يعلي صور عذاب أسلافه على أيدي البيض، ارتفع صوته بالفرنسية مقرعا أسلاف الجناة: (تملأون الدنيا صياحا عما حدث من جرائم التعذيب

في معسكرات النازي، لكنكم تسكتون عن أبشع الجرائم التي أحدثتها تجارة العبيد في إفريقيا على مدى ثلاثة قرون. وتزعمون أنكم تحترمون حقوق الإنسان. لعل الإنسان لديكم هو الأوربي الأبيض فقط. لقد جاء البابا هنا عام ١٩٩٢ وطلب المغفرة من الأفارقة لأن الجماعات التبشيرية كانت تدعم تجارة الرقيق. على أوربا كلها أن تطلب المغفرة وتقدم الاعتذار).

مع أصداء صوت حارس بيت العبيد العجوز العميق الرنان مضينا نفتش عن بعض آثار الجريمة في غرف أو زنزانات الطابق السفلي. ثمة غرفة للنساء لا تزيد على مساحة زنزانة كانت تحشر فيها ٥٠ امرأة مع أطفالهن. وغرفة للبغاء كان أبناء السفاح من نتاجها، خاصة من الدم المشترك الأبيض/ الزنجي، يرسلون إلى سان لويس ويخرجون من العبودية. أيضا من يعتنقون المسيحية كانوا يعتقون. غرف قميئة تلامس سقوفها السوداء الرءوس بعد أن نحنيها. وثمة غرفة/ زنزانة خصصت لعلف العبيد الذين يقل وزن الواحد منهم عن ٦٠ كيلو جراما حتى يصلوا إلى الوزن المطلوب. وثمة ميزان قبان كان في الغرفة المجاورة للمدخل.

درنا في (بيت العبيد) حتى امتلأنا بالمرارة، وكان هناك ممر ضيق مظلم يفضى إلى ضوء قريب، إنه (باب النهاية) الذي كان يعبره العبيد ليخرجوا إلى الشاطئ الصخري حيث تكون السفن في انتظارهم لعبور الأطلسي ووداع أرض آبائهم وأجدادهم إلى الأبد. عبرنا الممر المعتم، وخرجنا من باب النهاية إلى شاطئ الصخور السوداء التي تبلها بلا انقطاع أمواج المحيط، وغصنا عبر صوت البحر في ذكريات عذاب الذين رحلوا عن إفريقيا مكرهين.

مامادوا يؤكد: دينغيلا.. دينغيلا

كدسونا بعد يومين في بطون مراكب حديدية نقلتنا من الشاطئ إلى جزيرة غوري القريبة. كانت غوري معسكرا لتجميع العبيد قبل شحنهم إلى الشواطيء الأمريكية. يحبسوننا في قباء مظلمة في بيوت العبيد ليلا وفي النهار يطلقوننا مغلولي الأعناق مكبلي الأرجل لنعمل في تكسير صخور البازلت للحصول على أحجار البناء وطحن

المحار للحصول على الكلس الذي يبنون به بيوت الجزيرة ويرصفون طرقاتها. كنا نعمل في شقاء بالغ مستخدمين دانات المدافع الحديدية القديمة الثقيلة عوضا عن المطارق والأزاميل وكان ذلك يحطم عظام أيدينا ويكسر أرواحنا. لم نكن نأكل إلا القليل ونُكدس في الليل في جحور ضيقة دون فك أغلالنا. في هذه الجزيرة السجن اتفق عدة مئات منا نحن الذين صرنا عبيدا على التمرد. لكن طفلا في الثانية عشرة وشى بالمتمردين الذين كان ينام بينهم مصفد اليدين يفترش الأرض العارية. وعندما عدنا من عملنا الشاق قرب الغروب أحاطت بنا بنادق البيض. وشكلوا محكمة عجيبة أدانت ثلاثة من قادة التمرد الذين كانوا في الأصل رؤساء قبائل من ساحل إفريقيا الغربي. لم ينكر هؤلاء الزعماء العظام التهمة بل أضافوا أنهم كانوا ينوون انتزاع حياة كل البيض الموجودين في الجزيرة جراء ما ارتكبوه في حق السود. وعندما سمع بقية العبيد المصفدين هذا الجواب البطولي صاحوا في صوت واحد (دينغيلا، دينغيلا): هذا صحيح! هذا صحيح! وكان قرار المحكمة الملفقة هو أن يقدم قادة التمرد للموت في النهار التالي أمام كل الأسرى السود وبقية سكان الجزيرة. وفي الغد كان هناك مدفعان محشوان بحشوتهما الحربية وعلى مرأى من مئات العيون المذهولة والمذعورة جرى نسف القادة الثلاثة ثم جمعت أشلاؤهم ورميت على مسافة خمس عشرة خطوة من مكان نسفهم وسط حلقة الزنوج الذين اضطربوا بين سلاسلهم وهم في ذعر شديد.

عدنا إلى شقاء العبيد في غوري في الصباح التالي للمجزرة. وكانت مراكب الشحن في انتظار نقلنا. جرى فحص أجسادنا فحصا دقيقا لم يوفر عضوا من أعضائنا دون كشف وكأننا بهائم لا نحس ولا نخجل. ثم دُمغ اللائقون للبيع بأختام الحديد المحمي الذي يحمل شعارات التجار المالكين. كانت الصرخات تتصاعد مذبوحة ومكتومة بينما الجلد المحترق يدخن تحت وهج الأختام على الصدور والمؤخرات والأثداء والأذرع. حاملا حتى الموت علامات لا تزول إلا في قبور الشتات الأسود البعيد في القارة الأمريكية وراء أمواج وعواصف بحر الظلمات.

خرجنا من (أبواب النهاية) في بيوت العبيد بغوري. وهي الأبواب التي تفضي من ظهر البيوت إلى البحر حيث تكون السفن راسية في الانتظار.

كان صدر المحيط شاسعا والصخور التي نمشي عليها سوداء قاسية يبلها الموج. امتلأت نفوسنا بالحسرة ونحن ندرك أنها الخطوات الأخيرة على أرضنا. ثم تلقفتنا أفواه السفن وبطونها المعتمة وجرى فصل جديد بين العبيد وذويهم. فثمة زوجات وأقارب لم يتم بيعهم بقوا في غوري. وثمة مبادلات بين التجار فصلت الابن عن أبيه والأخ عن أخيه والبنت عن أمها. كل في سفينة ولكل سفينة وجهة مختلفة مما يعني أنه وداع إلى الأبد. فالابن على السفينة المتجهة إلى أمريكا الشمالية بينما الأب على سفينة تقصد البرازيل. تلقفت صخور البازلت مطر الدموع من العيون وبددت رياح الأطلسي شهقات ونهنهات البكاء.

ثم كتمت بطون السفن وهي تقلع نحو المجهول كل شيء. ثمة من كانوا من العبيد يقتنصون لحظات انشغال التجار والبحارة ويرمون بأنفسهم في الماء ليغرقوا أو لتلتهمهم أسماك القرش سريعا بدلا من مكابدة شقاء الأرواح الطويل المنتظر. وثمة من كانوا يخنقون أنفسهم بأياديهم أو بالسلاسل المربوطين فيها.

في السفينة حلقوا شعورنا وتركونا عراة إلا من ساتر قماش صغير لعورات النساء. وكنا ننام جسدا لجسد وقد ثنينا أرجلنا ليسعنا القاع الضيق القاسي. كنا نسبح حقا في حمأة من الدم والقيء والعرق والبول والفضلات. ولم يكن أي من البيض يستطيع أن يمكث في هذا الجو أكثر من دقائق قليلة حتى ترهقه الحرارة وتخنقه نتانة الهواء ويكاد يغمى عليه فيفر بأنفاسه إلى ظهر السفينة لينجو من المرض أو الموت.

امتدت رحلتنا في المحيط الأطلسي أكثر من شهرين ومات بيننا كثيرون كانت أجسادهم تُجر إلى حواف السفينة وترمى بين الأمواج. ولما تزايد عدد الوفيات بدرجة كبيرة قرروا إخراجنا يوميا إلى ظهر السفينة لتهويتنا تباعا ولفترات قصيرة. مجموعة وراء مجموعة ممن تربطهم من أعناقهم سلسلة واحدة. بل إنهم عند اقترابنا من الشاطئ الأمريكي أخذوا ينظمون لنا حفلات رقص حتى تنتعش أجسادنا ويسهل بيعنا. رقص في السلاسل وتحت لسع السياط. وكان هناك من يثور فور أن يصل إلى السطح فيعدم بطلقات البارود فورا أو يلقى حيا إلى اليم. وثمة من كانوا يُضرَبون بالسياط حتى تسيل دماؤهم على مشهد من الجميع. وفي مرة موجعة جرؤ زنجي

غاضب على ضرب مساعد تاجر أبيض على وجهه بطرف السلسلة التي يرسف فيها فشقُّوا مؤخرة الزنجي بسكاكين المطبخ بعد أن أحكموا قيوده ووضعوا في الجرح خليطا من الفلفل الحار والخل والبارود جعل المسكين يصرخ حتى تفر الدم من عينيه ومات في اليوم التالي. ولقد أنذرونا بأن هذا ليس الحد الأقصى لمصير من يتمرد من العبيد في السفينة. وحكوا لنا واقعة سمعنا عنها ونحن في غوري عن عبد تمرد على سفينة متجهة إلى أمريكا فكان مصيره أن تم تقطيع جسده إلى قطع صغيرة وقُدم لبقية العبيد من زملائه ليأكلوه تحت التهديد. ومع ذلك كان هناك كثيرون يتمردون ليحصلوا على حكم الإعدام الذي يتقبلونه وعلى وجوههم فرح شديد. ولم يكونوا يتأخرون عن الموت إلا لكي يضموا إلى صدورهم أقاربهم وهم ينظرون إلى جلادهم باحتقار ويرفضون أن يضع يده عليهم ثم يرمون بأنفسهم إلى موج المحيط الذي يجدون في أعماقه دواء سريعا لآلامهم.

ما إن ظهرت طيور النورس في الأفق وتبعت الدلافين السفينة حتى تأكد أن الشاطئ يقترب. عندئذ أخذوا يرمون في البحر كل المرضى الذين يُخشى ألا يجدوا من يشتريهم وأن تُدفع عليهم رسوم الدخول إلى أمريكا. وكان أكثر هؤلاء الذين يرمون للغرق من الأطفال الذين هم أقل تحملا لمشاق السفر الطويل. في الوقت ذاته كان يجرى علف العبيد بمزيد من الطعام ومعالجتهم بعقاقير تبديهم في أتم عافية.

وفي أمريكا راحت تتكرر نفس المشاهد التي جرت عند مغادرة إفريقيا: فحص الأسنان والجهاز التناسلي والأيدي والأرجل. بل كانت هناك فحوص جديدة غريبة. فهناك الفحص بالعض لقياس مقاومة العبد. وتذوق جلده للتأكد من أن نضارة بشرته ليست ناجمة عن تزيين خارجي.

وعندما يتم شراء العبد من سيد أبيض.. كوبي أو برازيلي أو أمريكي شمالي فإن فصلا جديدا من رحلة شتاته الأسود وشقائه تبدأ. أنا نفسي اشتراني سيد كوبي في بادئ الأمر. ثم باعني في اليوم الثاني لسيد أمريكي شمالي (فالقانون) كان يسمح بذلك علي اعتبار العبد ملكا متحركا مثله مثل الماشية!

بعد أن غادرنا (دار العبيد) بعدة أمتار توقفنا أمام بيت (السنيورة) (فيكتوريا البيس) الذي بنته على شكل سفينة، وكان كسائر بيوت السنيورات بيتا لتخزين العبيد، لكنه تحول بعد إلغاء تجارة العبيد إلى متحف غرب إفريقيا الفرنسي (I.F.A.N)، وكأنه ـ بوعي أو من دون وعي ـ يرد المسائل إلى جذورها العارية!

كان ثمة مفارق عديدة عند القيدوم المدبب لهذا البيت السفينة، وحرنا في اختيار المسار بين دروب هذه الجزيرة الصغيرة، والمتوهة مع ذلك. عندئذ تقدم الشاب النحيل ذو الجرامبوبو الأصفر الفاقع واللامع، والذي يطلق شعره في ضفائر دقيقة منتشرة حول رأسه كأشواك ثمرة التين. اسمه (شيخ فال)، وهو ينتمي إلى شباب (الراستا) التي تشكل حركة عجيبة من فلسفة صعاليك الفنانين وأشباه الفنانين والمثقفين مع مسحة تصوف، وتراتبية تحفظ المقامات!

قال الشيخ فال إنه من ابناء الجزيرة ويحفظ تاريخها ودروبها ويود أن يكون دليلنا فيها. قلت له إننا بالفعل في صحبة دليلين. قال: (لا مانع أن يكونوا ثلاثة.. فالإنسان يتعلم حتى من ابنه الصغير) وصرنا خمسة تحت قيادة شيخ فال العجيب، المترنح واليقظ في آن، والذي يحفظ معالم وتاريخ الجزيرة بالفعل. أخبرنا أن أقصى عرض للجزيرة هو ٣٠٠ متر وأقصى طول لها هو ٩٠٠ متر وبها ١٢٠٠ نسمة، ٨٠٠ منهم مسلمون، ٤٠٠ مسيحيون، ويعيشون جميعا في سلام. والجزيرة لا تعرف السيارات ولا الدراجات ولا الموتى، فمن يموت من سكانها يشيَّع في زورق ويدفن في داكار.

مررنا بمسكن أول حاكم فرنسي للجزيرة، وقد تحولت باحته الواسعة إلى قاعة أفراح ومناسبات، وكانت هناك شجرة (تلنجلور) عرشت وركبت فوق الجدران وتخللتها بأفرعها العجيبة، وعلق الشيخ فال: (لا نعرف هل الشجرة هي التي تمسك البناء، أم أن البناء هو الذي يمسك الشجرة)، ففتحت عيني جيدا على الشيخ فال، وأرهفت سمعي لتمتماته. وقد حكى ما قرأت عنه من أن الإنجليز احتلوا غوري بعد مؤتمر فرساي، لكن فرنسا التي كانت تحتل دولة جامبيا قايضت إنجلترا وأعطتها جامبيا مقابل الحصول على غوري!

صعدنا في طريق تصطف بامتداد أحد جوانبه أشجار الباوباب العجيبة بجذوعها البرميلية وأفرعها قليلة الأوراق، وكان الفنانون التلقائيون من سكان الجزيرة يقيمون معارضهم في ظلال هذه الأشجار. لوحات ذات تيمات زنجية متكررة وألوان صاخبة. ووصلنا إلى القمة، على سطح القلعة التي بنيت عام ١٨٥٦ حيث تنتشر في محيطها عدة مدافع يفشي سرها شيخ فال: (المدفع قطره ٢٤٠ ملم، وطوله ١٦ مترا، ويزن ١٦٠٠ طن من الحديد المصنوع في مصهر أنجوليم في فرنسا، لم يستخدم إلا مرة واحدة في الحرب العالمية الثانية، استخدمه فيشي في صراعه مع ديجول. إذ كان فيشي هو المسيطر على الجزيرة، ورأى سفينة إنجليزية اسمها تاكوما تقترب من ساحل داكار وظن أن بها ديجول فضربها وأغرقها في ٢٣/ ٩/ ١٩٤٠، لهذا فالسفن والعبارات المتجهة إلى غوري أو المنطلقة منها تدور حول علامة طافية في منتصف الطريق.

تذكرت هذا الدوران الذي قامت به العبارة ونحن في طريق القدوم، وتعجبت مجددا من صفاقة الغرب في استعمال أرض الآخرين حتى لتصفية الحسابات البيضاء/ البيضاء. لقد كانت غوري في فترة من فترات الهيمنة الفرنسية عاصمة لغرب إفريقيا كله. وثمة بناء يسمى معهد (وليم بونتي) كان مكرسا لاقامة ودراسة وتخريج (كوادر) إفريقيا ومنهم رئيس ساحل العاج الأسبق ورئيس مالي الأسبق، فكل شيء مخطط على الأجندة الغربية، ابتداء من تجارة العبيد، حتى تخريج الكوادر، والاعتذار العاطفي، دون تعويض، إن لزم الأمر! ففي الوقت الذي ابتزت فيه إسرائيل، ولاتزال، أوربا والغرب عموما، وحصلت على كل شيء من الأباتشي الأمريكية حتى القنبلة النووية الفرنسية، تعويضا عما اقترفه النازي من جرائم مشكوك في صحتها ودقتها، تجاه اليهود، وتعويضا عن شتاتهم الذي صنعوه بأنفسهم، فإن أكبر وأفظع شتات وعذاب في التاريخ الإنساني وهو الشتات الأسود الذي أخرج ما يقدره الباحثون بستين مليون إفريقي، مات معظمهم في الطريق، هذا الجرم المشهود الذي صنعته تجارة العبيد بأياد أوربية، عبر الأطلسي، ومن أجل ازدهار مزارع السكر والقطن في أمريكا، لا ينال أكثر من اعتذار خافت.

يشير شيخ فال إلى صرح أبيض ناصع على شكل شراع مقلوب ومثقب بدوائر منتظمة، عند ركن فسيح من مرتفع القلعة، وتطوح كلماته الريح الصافية والقوية: (نصب غوري التذكاري الذي دعا إلى انشائه الرئيس كلينتون، لقد جاء هنا عام ١٩٩٨ وقدم

اعتذارا للأفارقة في أمريكا، وأقيم النصب في ٣١ ديسمبر ١٩٩٩، وهو يمثل باخرة مقلوبة كناية عن نهاية العبودية).

وهل انتهت العبودية؟

سؤال كان الذي أطلقه داخلي هو مامادو، أطلقه وهو يتهيأ للرحيل عني والمغادرة، بينما هممت بمغادرة غوري، وكانت هارمونية ألوانها في الوداع كما عند الحضور، وقد أضيفت إليها ألوان أخرى هذه المرة، اللون الأصفر الفاقع لجلباب الجرامبوبو حول عود شيخ فال الأسود النحيل، ولون آخر داكن يتكون من: حمرة الدم، وسواد شظايا البازلت الذي يقطعه العبيد بدانات المدافع، وبُنِّية صدأ القيود حول الأعناق وفي الأقدام.. وعتمة بطون بيوت العبيد وأجواف السفن التي تعبر بحر الظلمات، وسواد قلوب المجرمين الذين لم يكفوا عن تجارة العبيد حتى الآن، وإن بأشكال أخرى، حداثية، وما بعد حداثية، جوهرها استباحة الآخر باعتباره أدنى، وبهدف إعطائه أقل القليل، مقابل اعتصاره للحصول على الكثير. فهل انتهت العبودية؟!.

الهند

سحر المثلث الذهبي.. وتناقضاته!

إنها الهند. وطن طاغور، وغاندي، وتاج محل، وحدائق المغول، وأكواخ الفقراء ومعبدالشمس، وقصر الرياح، وشجر التين البنغالي، والأفيال الصاعدة إلى القلعة القرمزية، والأبقار الهاجمة في الشوارع، والقردة المطلة من الشبابيك، والطواويس السارحة في الحدائق، وقصائد العشق المغناة قعودا، وحلاوة وجوه فقيرات راجستان، ولهيب أطباق التندوري، ونظام الاتصالات الفضائية المتفوق، والطاقة الآتية من المحطات الكهرونوية، والعربات التي تجرها الجمال والثيران، ومخازن الكتب العالمية زهيدة الأسعار، ومُرقِّصي الأفاعي والنسانيس والدببة. إنها الهند التي قطعنا على أرضها ألف كيلو متر بين ثلاث نقاط ترسم ما يسمونه بالمثلث الذهبي. وهو ذهب من تنوع الألوان، والأنغام، والروائح، وأصداء التاريخ.. وأصوات العصر...

صُدمت، إذ هبطت طائرتنا في مطار أنديرا غاندي الدولي بأطراف العاصمة الهندية قبيل الفجر، فلم أر في الأضواء الشحيحة على أول الطريق الخارج من المطار غير ظلال مديدة، تعبرها كأشباح متهالكة سيارات فيات عتيقة الطراز، وعربات «أوثوركشا» مصنوعة من قضبات «أسكوتر» بنيت عليها كبائن تسع بالكاد شخصين أو ثلاثة. ولم يلفت نظري من مهرجان الألوان المأمول غير بائعي قلائد الياسمين الهندي البرتقالي عند كل مفرق. ثم راح الفجر يرسل خيوط ضوئه الأولى، فيذيب إحباطي الأول الوهمي. بل يغرقني على التوّ في طوفان من الصور، حتى أنني قررت أن أرى وأرى، وأنحي جانبا ذلك العمل الصحفي الممل، الذي يسمونه «المقابلات الرسمية»، فلا وقت للمقابلات. إنها عشرة أيام ضنينة، وأشواق الرؤية لا تحتمل الانتظار، والهند ـ كما وصفتها أنديرا غاندي في كتابها البديع الضخم (سرمدية الهند): «كلما رأيتها تتسع»..

قلب دلهي

في أول الصباح، الباكر، ألقينا بحقائبنا في الفندق، وانطلقنا على التوّ إلى ميدان «كُنوط»، وهو مركز حيوي للعاصمة الهندية. دائرة هائلة تحيطها أبنيه خفيضة بيضاء على الطراز الفيكتوري تذكِّر بزمن الاحتلال البريطاني، طوابقها الأولى محال تجارية، وطوابقها الثانية ـ التي لا ثالث لها ـ مطاعم وفنادق ومكاتب أطباء ومحامين ورجال أعمال. أما وسط الدائرة فحديقة شاسعة زاهرة وظليلة تخبئ تحتها سوقا كبيرة تتوالى حوانيتها في متاهة دائرية هائلة تبيع كل شيء.. ملابس. مصنوعات يدوية، من الخشب، والجلد والنحاس، والعاج. مصنوعات مقلدة، وأخرى حقيقية من الذهب الهندي الشهير والأحجار الكريمة التي يحسن الهنود صقلها.

كان الوقت مبكرا، تبعا لتقاليد الميدان، فالمحال لا تفتح أبوابها إلا بعد العاشرة، وهو أمر غريب في بلد حار، خاصة أنهم يغلقون أبوابهم عند الغداء، وينهون أعمالهم في السابعة مساءً! ولقد أتاح لي ذلك فرصة لتجوّل مبكر حول القلب التجاري للمدينة، فأكتشف عالم الحياة الهندية في الحدائق، فثمة بشر يقيمون في هذه الحدائق ـ إقامة كاملة ـ تبدأ من توسد العشب عند النوم. وتصل إلى حد الاستحمام، بالسراويل، وغسل الملابس عند مجمع صنابير الحديقة التي رأيتهم حولها وكأنهم يقصدون حماما عموميا، ويتخذون من أغصان الأشجار (مناشر) لتجفيف ثيابهم القليلة تحت الشمس. ثم، هناك المقاهي في ظل الأشجار وعلى الأرصفة، مقاعدهم العشب، ومناضدهم (أفاريز) المماشي. ولا يخلو الأمر من تحويل ركن من أركان الحديقة إلى ملعب كريكيت يتبارى فيه صبية حفاة بمضارب من ألواح خشب الصناديق ودروع من الخرق حول قصبات سيقانهم.

بدأت الأكشاك الصغيرة في الميدان تفتح أبوابها أولا، ومن أحد هذه الأكشاك أجريت اتصالا دوليا، بيسر شديد ومبلغ متواضع، وبجهاز متقدم يستخدم تقنية الأقمار الصناعية التي تصنعها وتطلقها الهند، والجهاز يوضح كل شيء على شاشة رقمية مضيئة.. الرقم المطلوب، والثواني التي تمر أولا بأول، والسعر تبعا لذلك، ثم يطبع النتيجة النهائية فور انتهاء المكالمة. لقد ذكرني ذلك بأن الهند ـ بلد العجائب

والمتناقضات ـ هي إحدى الدول العشر الأكثر تقدما علميا على مستوى العالم. وهي مكتفية غذائيا، بل توشك على تصدير القمح أيضا. ولها حلول مبتكرة، فسيارات الفيات قديمة الطراز المنتشرة في طرقاتها هي صناعة هندية مائة بالمائة، لأنهم اشتروا مصنعا كاملا لهذا الطراز أراد منتجوه الإيطاليون أن يتخلصوا منه فأخذه الهنود بسعر زهيد وعملوا على ترميمه وتطويره، وما دام يكفيهم فلا يهم الشكل. شيء مشابه يفعلونه بالأسكوتر (الفسبا) ـ التي تعتبر الهند أكبر منتج لها في العالم ـ فهم يبنون عليها كابينة تسع شخصين إضافة إلى السائق وتنطلق بثلاث عجلات في أسراب هائلة صفراء وسوداء في شوارع الهند. حتى الدراجات أحالوها إلى عربات مكشوفة ترى فيها سيدات أنيقات ورجالا محترمين يجلسون بوقار بينما هذه (السايكل ريكشا) المنطلقة بقوة أقدام فتى نحيف يعمل بهمة على (البدال).. توصلهم إلى أهدأ فهم.

اكتمل نشاط الميدان، وكأنه يستيقظ دفعة واحدة عندما تفتح المحال أبوابها، وخلف الواجهات كانت واضحة آثار الانفتاح الهندي، من إنتاج مشترك لأحدث ما تعرضه لندن وباريس ونيويورك وروما. ملابس وأحذية ونظارات وغير ذلك من صرعات «الموضة»، إلى جانب السواري الهندية وجلابيب البنجاب. أما الذي جذبني واستغرقني طويلا فهي المكتبات، ويسمونها «مخازن الكتب».

وهي حقا فراديس للكتب كما تقول الدعاية الهندية، حتى أنني رأيت كثيرا من السياح الغربيين يقتعدون الأرض وسط أكوام الكتب لينتقوا منها، بأرخص الأسعار، كتبا عالمية باللغة الإنجليزية مطبوعة في الهند ومنها سلسلة «بنجوين» الشهيرة، إضافة إلى الكتب الهندية الخالصة، باللغة الإنجليزية. فرصة حقيقية لاقتناء مكتبة عالمية بأرخص الأسعار. لم أفوتها، وإن انتزعت نفسي منها انتزاعا لأخوض في عالم الرؤية.. في عاصمة الهند، ثم، ومع السائق والدليل الهندي الرقيق «بيرام» في جولة استطالت ألف كيلو متر توصل بين مدن ثلاث، عبر ولايات ثلاث، هي: دلهي، وأوتار براديش، وراجستان.

دلهي القديمة، أو دلهي المسوَّرة، تمتد غربي القلعة الحمراء. والطريق إليها وعبرها يخترق عالما من زحام البشر والألوان والروائح والأصوات. نغرق في زحام سوق الحوانيت «شاندني شواك» الذي قيل إنه كان أثرى شوارع العالم في فترة من الفترات، وصمم عريضا ليتسع لموكب الإمبراطور «شاه چاهان» إذ يخترق المدينة. الآن صار سوق الحوانيت لجة من الزحام والضجيج الهندي تتوزع حوله مجموعة من المساجد الصغيرة والمعابد الهندوسية وتصطخب في قلبه حركة الناس والتجارة. هنا أفضل العطور الهندية الطبيعية الثقيلة والتوابل التي تكتشف لها طعما آخر في الهند، طعم الطازجة. زيوت الياسمين والنرجس والورد واللوتس والهال الأخضر والفلفل والكاري والشطة. روائح.. روائح.. روائح. وألوان.. ألوان.. ألوان. وتنفض بالكاد مجموعة من الصبية يتعلقون بك سائلينك شيئا بالإنجليزية: «أو مستر. فيفتي روبي. فيفتي روبي»، لا يسألونك أقل من خمسين روبيه، حوالي دولار ونصف، وهم يشيرون إلى أفواههم كناية عن لزوم الطعام. ما إن تزيح واحدهم حتى يعود للتعلق بك آخر. أجسامهم نحيفة وخفيفة ولون عيونهم مثير للدهشة. بني طحيني فاتح.. عيون واسعة وذكية وجميلة، وبرغم النحول وبقع سوء التغذية والحفاء إلا أنني لم أحس بفقرهم وفقر ذويهم. هم أنفسهم لا يحسون بالفقر. وأفكر في أن الإنسان لا يكون فقيرا أبدا إلا إذا كسره الإحساس بذلك.. لا ليسوا فقراء. إنه نمط من أنماط الحياة وسط الزحام. ففي وقت لاحق كنا نمر عبر الطريق المؤدي إلى أكبر مساجد آسيا وأكثرها بؤسا «المسجد الجامع»، وعلى جانبي القناة التي جفت مياهها وفي حوضها المغبر كانت أكداس البشر المهلهلين تنداح وتتحرك، بائعو عاديات وخرق قديمة وأنتيكات مكسرة وأطعمة رصيف حريفة وبذورات من الحمص والحلبة المنبتة وحب العزيز. ومتسولون مبتورو الأعضاء وماعز تسرح على هواها. ومجموعة تتحلق في وجوم حول مكبر صوت صغير يتعلق بعريشة مقهى متواضع. يسمعون حديثا دينيا ضاجا له نبرة ومذاق أحاديث «الشيخ كشك» وإن باللغة الهندية. وتحت مظلة مهلهلة على الرصيف تمدد رجل نحيف شبه عار يقرأ رواية لنيبول باستغراق شديد واسترخاء. كان منظره طريفا؛ وراح سليمان حيدر يصوره. وعندما انتبه إلينا نهض بجدية صائحا بالإنجليزية: «أوكي أوكي.. مائة روبية للصورة

الواحدة» وابتعدنا مقهقهين فما كان منه إلا أن أشاح عنا بازدراء لحظي وعاد إلى القراءة والاسترخاء في رحاب مملكته الترابية التي لا تمتد أكثر من نصف متر من الظل فوق رأسه، على الرصيف. لا ضغينة ولا انكسار. إنه نمط حياة وسط طوفان البشر. وهو ما تجسده صورة «الفقير الهندي» التي رأيتها مرارا على امتداد رحلتنا.. لا كآبة برغم أن الجلد على العظام، وكل ما في هؤلاء الناس خفيف، حتى أحسب أنه يمكن طيُّ الواحد منهم طيًّا وحمله تحت الإبط. حتى جلستهم المقعية في انتظار المواصلات على الطرق وتحت الأشجار تنبئ عن هذه الخفة المرهفة، فلا لحم ولا شحم، حتى ما يسترهم، مجرد خرقة.. لكنها ملونة! خفة وقناعة أحسب أنهما وراء تلك المأثرة الهندية التي جعلت هذا البلد الكبير المزدحم مكتفيا غذائيا، بل يصدر القمح. فليس السبب الوحيد في ظني هو تلك الثورة الخضراء التي فجرتها الهند في الستينيات واعتمدت على استنباط سلالات غزيرة العطاء وطرق زراعة جديدة مجزية، بل أظن أن هذا الاكتفاء راجع في جانب منه إلى قناعة الملايين من هؤلاء الهنود الخفاف. فماذا يأكل الواحد منهم؟ لا بد أن أقل القليل يكفيه!

وهذا الاكتفاء أظنه سيستمر في الهند إن لم تقع أو توقَع في مصيدة الاحتراب الداخلي، حتى عندما يصل تعدادها إلى مليار وثلاثمائة مليون نسمة عام ٢٠٥٠، كما تقول التوقعات، حيث ستبدأ رحلة تفوقها في التعداد على الصين الشعبية التي تتبع برامج صارمة لتحديد النسل لا يخضع لمثلها الهنود وإن كانت تجري عمليات تعقيم بعض الرجال بجراحة المناظير، وتنشط ـ دعائيا ـ برامج تنظيم الأسرة.. الانفجار السكاني قادم لا محالة في الهند، لكن الهند لن تجوع، كما أرى، وبالاستناد على ما لاحظته من خفة سوادها الأعظم، وانفساح حقول وآفاق اختفت منها الزحمة تماما.. وبمجرد العبور من دلهي، إلى نيودلهي ثم الريف بعد ذلك.

كل ديانات العالم

ما أبعد العمق اللوني للقلعة الحمراء المكسوة بالحجر الرملي الأحمر التي بناها شاه جاهان ـ منشئ تاج محل ـ إمبراطور القوة المغولية والعشق والجنون وحب الجمال.

عبرنا تحت قوس بدايتها الشامخة ومضينا في النفق الهائل المضيء، بين محال الحرير والنحاس والجلد وسائر مصنوعات الهند اليدوية البديعة. وكنا نتدافع بالمناكب وسط زحام السياح والزوار والمتسولين، ثم توقفنا لحظة لنصور رجلا من السيخ وابنيه اللذين حسبتهما «صبايا» لفرط حسن ملامحهما وربطة الرأس التي تشبه «تربيعة» البنات اللاتي يلففن شعورهن بها. لقد كانا صبيين بديا بلف شعرهما الذي لن يقصاه شأن أبيهما الذي يلف شعره كلما طال في ثنايا العمامة، اتساقا مع اتباع نظام الإبرار (الخلسا) الذي يعتبر الصورة الحقة للإيمان عند السيخ حيث تمتزج الواجبات الدينية والاجتماعية بالسياسة أيضا في نظام واحد هو نظام الخلسا الذي يلزم أتباعه بخمسة أشياء تبدأ بحرف الكاف وهي: كيش (عدم قص الشعر)، وكانجا (مشط تصفيف الشعر)، وكيربان (خنجر أو مدية)، وكارا (سوار من الصلب)، وكاخ (وهو سروال قصير لا يتجاوز الركبة). هذا إضافة إلى تحريم تدخين الغليون. وبالطبع فإن هذه مجرد مظاهر؛ أما جوهر هذه العقيدة فهو ما بشر به المعلم ناناك الذي ولد عام ١٤٦٩ وفي عام ١٥٠٠ تبنى حياة الزهاد والمتجولين وأنشأ منظومة من التعاليم تمزج بين الفشنافية (أي عبادة المحبة)، وتنبذ عبادة الأصنام، وتبجل من قدر العبادة الباطنية، فهي متأثرة إلى حد ما بسمات التصوف الإسلامي. وبالمناسبة فإن المسلمين الذين يبلغ تعدادهم حوالي ٧٥ مليونا في الهند، لا تعود جذورهم الأخصب إلى المغول بل إلى تأثير الزهاد المتصوفين الذين وصلوا إلى الهند قبل أن يفتحها المغول.

تعاليم عقيدة السيخ تقول بوحدانية الله، الأزلي، الذي لا يوصف، الحاضر في كل مكان. وهي (نظام رؤية لطريق الخلاص،، ينبغي أن يقوم به -إلى جوار البصر الخارجي - البصر الداخلي، أي التأمل الباطني. وهدف الخلاص هو الفكاك من عبودية العالم ومن التعلق بالقيم الدنيوية؛ فهذا التعلق يقود الإنسان إلى الوقوع في عذاب الموت بعد الموت، أي دورة التناسخ، بدلا من الفرح الأزلي بالرؤية السعيدة. وبرغم وجود المعابد السيخية المسماة «جوردوارا» التي يلتقي فيها أعضاء أسرة السيخ مع إخوتهم الأكبر، أي الأبرار (الخلسا)، لقراءة نصوص من كتبهم المقدسة بعد النهوض من النوم والاغتسال مباشرة إلا أن نظام العبادة يحرر السيخ كثيرا عندما يقول إن المعبدالحقيقي يكون في القلب البشري.

وبرغم التباين بين السيخ والمسلمين والهندوس، وبرغم وجود نقاط للتشابه، إلا أن المُراجع للعقائد في الهند على اختلافها قد يلمح سمتا هنديا لا شك فيه، حيث الباطنية والتأمل لمسات مشتركة تلحق بدرجة أو بأخرى بهذه العقيدة أو تلك.

على أية حال، وبرغم الاتفاق والاختلاف، فإن من رأيتهم في دروب القلعة الحمراء كانوا هنودا: مسلمين وهندوسا وسيخا ضمهم رحاب تلك القلعة التي بناها شاه چاهان بين عامي ١٦٣٩ ـ ١٦٤٨ لتكون حصنا لحكمه في دلهي. لكن الحصن لم يحم ساكنيه إلى الأبد إذ سقط المغول وجاء الإنجليز ثم مضوا عندما وقف أول رئيس وزراء هندي وهو الباندبت جواهر لال نهرو ليعلن استقلال الهند في منتصف أغسطس ١٩٤٧ ويرفع فوق القلعة الحمراء علم الهند ذا الألوان الثلاثة الأخضر والأبيض والبرتقالي الذي يتوسط بياضه رسم للنول الشهير الذي كان يغزل به غاندي خيوط ثيابه. ومن شرفة القلعة الحمراء العالية أطللت على دلهي المترامية، وكان أوضح الصروح التي يمكن لمحها من فوق أسوار القلعة هو «مسجد جاصي» أي مسجد الجمعة. وهو مأثرة معمارية أخرى لشاه چاهان، وإن عبثت بها يد الزمن، والإهمال المتعمد، أو غير المتعمد.. لا أدري.

الآن يبدو المسجد رثا برغم ضخامته التي لا يضارعها شيء من مساجد آسيا كلها. فالطريق إليه كأنها طريق الآلام حيث أكداس البشر المهلهلين وتجارة الأرصفة البائسة والقذارة التي لا حد لها. لم أخش من الطاعون ـ الذي أخذت دواء وقائيا ضده قبل وأثناء السفر ـ إلا في هذا المكان الشامخ والمهمل. بات مرتعا لذوي العاهات والمجاذيب والكلاب الضالة والماعز والأوربيين «الهيبز»، الذين يمكن للواحد منهم صعود المئذنة بعد دفع روبيات زهيدة. وإن بقي من تقاليد المكان أن المرأة لا يُسمح لها بصعود المئذنة إلا مع زوج أو محرم!... وبرغم تشوقي للصعود والإطلال على دلهي من قمة مئذنة المسجد الجامع إلا أنني وسليمان حيدر ـ وقد بذلنا جهدا للتنفس وتغطية أنوفنا مع ذلك ـ قرَّرنا الفرار فور الانتهاء السريع من الإطلالة.

هذه الصورة من الرثاثة الفاشية ليست طابعا يسم كل الصروح الإسلامية وآثار المغول التي رأيناها في الهند، ففي دلهي أيضا قيض لنا أن نشاهد مقبرة الإمبراطور

المغولي «هومايون» ومجمع منارة الكتب «كوتوب مينار»، وكلاهما ـ برغم آثار الزمن ـ مازال ساحة من النظافة والرحابة والزهور والخضرة والشموخ، وهي سمات تتصف بها إنجازات المغول المعمارية الذين يتألق في آثارهم ولع مشبوب بحب البساتين وقنوات المياه، فكأنهم كانوا يتخيلون المكان في البداية بستانا ثم ينثرون في أرجاء البستان أبنيتهم، حتى المقابر، وهي ليست مقابر بالمعنى المقبض للكلمة، بل هي نوع من الترحيب بقضاء الله في مخلوقاته، حيث الموت سكينة ممتدة وعظام تستريح على حنو الثرى وأرواح يطيب لها أن تطوف في رحاب الظل والخضرة ورقرقة الماء. فمقبرة الإمبراطور المغولي «هومايون» أشبه بمدينة للسكينة، مزهرة..فبعد مدخل شامخ، يمر بنفق تحت قوس طابية منيف، يمتد الطريق الطويل على جانبي قناة (جف الآن ماؤها) ومن يمين ومن يسار تمتد البساتين. وأصعد الدرج إلى مقبرة الإمبراطور.. أضرحة في الساحة لبعض من موتى الحاشية الإمبراطورية، أما الإمبراطور وخاصته فقبورهم تحت قبة هائلة يقول لي حارسها الهندي المسلم «سيد»: «إنها قبة مزدوجة تردد الصدى مرتين»، ويصيح ليؤكد لي ذلك: «الله» فيرد الصدى ـ حقا ـ مرتين: «الل اااه. الل اااه.». وأشعر بالرهبة، والرغبة في البكاء،! إذ يجاوبني الصدى بعد أن صحت باسم الجلالة، مرتين: الل اااه. الل اااه. النظافة ذاتها والزهور والخضرة رأيتهما في مجمع «كتوب مينار» ذي المئذنة الغريبة الساحرة والمائلة برغم طولها البالغ ٨٠ مترا ويرجع تاريخ بنائها إلى عام ١١٩٣ ـ كما قال لي أحد الأدلة الهنود ويدعى «مولات» ـ تأريخا لانتصار المسلمين ودخولهم دلهي، وقد أمالها زلزال في عام ١٨٠٣ فظلت مائلة يدوخ ميلها وروعة زخارفها التي يصنعها تناسق الطابوق من ينظر اليها.

وفي ساحة قريبة من المئذنة المائلة شاهدت جمعا يعتلي منصة ينتصب في وسطها عمود فولاذي يحاول أفراد من الجمع أن يحيطه كل منهم بذراعيه من خلاف حتى تلامس أطراف أصابع يديه بعضها بعد أن يلصق ظهره بالعمود. يتمنى ما يتمنى وإن نجح في جعل أصابعه تتلامس فهذه بشارة تؤكد أن أمانيه ستتحقق. البشر لا يكفون عن الحلم حتى وعيونهم مفتوحة وعلى مرأى من الناس خاصة عند وجود أدنى تبرير لوجود الأسطورة.

ولهذا العمود أسطورة. فبرغم عمره الذي ترجعه أقوال إلى ألف عام بل حتى ألفي عام، فإنه لم يصدأ، ولم يجد العلماء تفسيرا لسر نجاة حديد هذا العمود من الصدأ. لكن البشر وجدوا في مقاومته الغامضة هذه تكأة للحلم في وضح النهار. ولم أبخل على نفسي بإحاطة العمود بذراعي من خلاف والحلم مثلهم، وإن لم تبرحني الآلام لمدة يومين إذ بذلت مجهودا كبيرًا سريعا وممزقا للعضلات حتى تتلامس أنامل يدي معا.. لعل وعسى. ولعل وعسى.. رددتها في داخلي مرة أخرى، في مكان آخر، وتحت قبة هائلة من المرمر تمثل جوف زهرة لوتس في معبد بهاي. مكان شديد النظافة والأناقة وجمال التنسيق وسط أحد أحياء دلهي الفقيرة حيث الأكواخ من الخرق والصفيح والدروب الترابية والبشر النحاف والأبقار والماعز المختلطين في الدروب البائسة. فجأة تعبر المدخل فيتراءى عالم استثنائي من النظافة والزهور والخضرة وقنوات المياه الفيروزية الشفافة، وقطارات من البشر في ممرين بين الزهور والماء. قطار ذاهب وآخر عائد. والهدف هناك.. زهرة لوتس هائلة، بيضاء بياضا نقيا يتألق تحت شمس الهند الساطعة يستقبلك على مداخلها العديدة فتيات وفتيان غربيون وشرقيون ويتحدثون بلغات عديدة، ويدعونك للدخول لتدعو الله تبعا لدينك ومعتقدك، في صمت ـ إنه «مشرق الأذكار البهائي». وإنها لنقطة حرجة سأتوقف عندها كمستطلع، فالديانات في الهند معادلة صعبه، شديدة الصعوبة، حيث كل ديانات الأرض موجودة في الهند. وإذا كان أبو الريحان البيروني، ابن القرن الخامس الهجري، قد سافر إلى الهند وقضى فيها أربعين عاما درس خلالها لغتها السنسكريتية القديمة حتى أتقنها ليطلع على تراث الهند الديني ويكتب كتابه المشهود «تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة أو مرذولة». فإنني بالأيام العشرة التي قضيتها في الهند والشهور الثلاثة التي أنفقتها في قراءة عن الديانات في الهند قبل السفر وحتى الآن، أكذب إن زعمت أنني بصدد «تحقيق ما للهند من مقولة». كل ما أستطيعه هو أن أسجل رؤية وأن أدلي بانطباع.

في كل الشوارع التي مررنا بها كانت هناك معابد هندوسية ترى الشموع تحترق فيها دون توقف والزهور تغمر جنباتها وينعطف إليها الناس العائدون من أعمالهم ليقدموا نذورهم من زهور أو حبوب فيما يسمونه «بوجا». وطوال رحلتنا لم تنقطع عن

الظهور أمام أعيننا تلك المعابد، في القرى، وعلى الطرق، وبأشكال وأحجام مختلفة. مما يقطع بأن التدين عنصر غالب وسائد في الحياة الهندية. فعلى جدران المحال وفي داخل التاكسي والأوتوركشا وعلى اللوريات صور دينية لشيفا ولرمز الشمس الدوارة الذي يعتبر أقدم الرموز الدينية (ومنه أخذ النازيون رمزهم وإن عكسوا اتجاه الشعاع ضد حركة عقارب الساعة) ويخبرني مرافقنا بيرام أن بكل منزل نموذجا مصغرا لمعبد تؤدَّى الطقوس أمامه كما أن الميسوريين يخصصون غرفة مستقلة للعبادة في بيوتهم. أما الرزنامات فهي تعج بالتذكير بالأعياد الدينية. فالهندوس الذين يشكلون ٨٣٪ من سكان الهند إنما يسبحون في نهر الحياة بروح التدين تلك. ولقد رأيت في إحدى المكتبات رجلا يفتش في ركن الديانات الهندية القديمة اسمه «تريفور» أخبرني خلال حديثنا القصير أن «التدين» «عمل يومي» لا ينقطع أبدا. فالهندوسية نظام اجتماعي وديني، ولا جانب يطغي على الأخر. وهي إطار للتعامل مع الطبيعة ـ بكل مكوناتها ـ وما وراء الطبيعة بكل ما فيها من مجهول وغامض. وكما شبهها أحد الدارسين، فهي إسفنجة تمتص كل شيء وتستوعبه من معتقدات روحية وخرافية. والعبادة مروحة ألوانها بلا عدد ـ فيها الشمس والسماء والنباتات والجبال والأنهار والأفاعي والشجر وكل قوى الطبيعة الخلاقة على اعتبار أنها جميعا تجليات لما هو أبعد وأخفى. والتلخيص الشديد ـ الذي آمل ألا يكون مسفا ـ للهندوسية يكمن في المفهومين الدينيين الأزليين: العمل والجزاء، ولكن بمنطق آخر حيث يتجلى ذلك في الحياة الدنيوية وما بعدها وهذه تلخصها عقيدة «الكارما» القائلة بأن المرء يجني نتيجة أعماله في الدنيا كما في الحياة المقبلة بعد حياته ـ والإشارة هنا إلى عقيدة «السمسارا» القائلة بأن النفس تموت وتولد متجسدة في كائن حي جديد وعلى قدر حسن العمل أو سوئه يكون شكل التجسد، أما من أحسن عملا، بشكل لا شائبة فيه فهو ينعتق من عناء تكرار الميلاد والموت ليلحق «بالموتى الأبرار» في «قبة السماء». وهذه هي درجة «النرفانا». هذا هو الثالوث المشترك بين معظم فرق الهندوسية بل في ديانات هندية أخرى كالجينية والبوذية. أما طرق الخلاص فترسمها خطوط عديدة لعل أوضحها هو القول بالزهد، والتأمل (كالتأمل في اليوجا)، كما أن هناك فرقا تؤكد دور القرابين والحج والتعبد. وهناك من يبسط طريق الخلاص إلى حد بعيد فهي في محبة الله «بختي» كما في أناشيد قديسي

«مارثا». وهي في قيام الإنسان بواجبه كما في تعاليم «الجيتا». وهي في الامتناع عن الأذى «أهمسا» كما عند غاندي.

ولقد كانت المنصة التي أُحرق عليها جثمان غاندي عند نهر يامونا هي آخر ما رأيناه في دلهي، وقد كُتب عليها آخر كلمة تلفظ بها وهي «آي رام» أي «يا الله».

أجرا.. تاج محل

غادرنا العاصمة الهندية فكأننا نغادر عالما لندخل آخر في مروحة ألوان شبه القارة الهندية المدهشة، فعلى امتداد أكثر من مائتي كيلو متر هي المسافة بين دلهي وأجرا إضافة لنحو ٥٠ كيلو مترا من التفرعات التي غصنا فيها أو توقفنا عندها، لم نر إلا آفاقا واسعة من الحقول، وقرى صغيرة، وعبر الطريق كانت تقابلنا كل حين عربة جرار تحمل عمالا زراعيين من النساء في صندوقها، وهو منظر مدهش بألوان ملابسهن الصاخبة حمراء وخضراء وصفراء فاقعة وفاتنة كلها برغم بؤس الحال، وسيارات مبنية على جسم دراجات نارية أو فسبات سكوتر تحمل جمعا متضاغطا من البشر، وكثيرا ما كان يقطع علينا الطريق عابر سبيل يعرض علينا برنامجا من رقصة كوبرا يحملها في سلة معه إضافة إلى المزمار الهندي، أو نسناس يطيع الأوامر، أو دب منزوع الأسنان ينتصب ويرقص قهرا على ضربات الدف؛ كل شيء قابل للرقص تحت إمرة فقراء الهند. تتوالى على امتداد الطريق إلى أجرا قرى متواضعة تهجع تحت ظلال الأشجار وعلى حواف الترع، تماما كأنها قرى من ريف مصر ببيوتها المتواضعة وأقراص الوقود اليابسة المأخوذة من الروث بعد تجفيفه، ومقاهي الريف الفقيرة التي تبدو أحيانا بلا مقاعد فترى زبائنها يحتسون الشاي في ظل سقيفة من القش وقد جلسوا احتباء تساعدهم أجسامهم الرقيقة التي يسهل طيها ويسهل استقرارها عند الطي!

قبل أن ندخل أجرا بعشرة كيلو مترات توقفنا في مدينة صغيرة، أو قرية كبيرة تدعى «سيكاندرا»، واتجهنا نحو مقبرة الإمبراطور «أكبر العظيم»، وبرغم التقاليد الإسلامية في عمارة المقبرة التي ترقد في بذخ معماري وسط البساتين ذات الطراز المغولي، فإن الملامح الهندوسية للحياة اليومية كانت تمضي في طريقها بهدوء.. أبقار متهادية في

الشوارع ومعابد هندوسية صغيرة هنا وهناك وبائعو عقود الياسمين الهندي لقاصدي الزيارة قرب المعابد. ورأيت بعض الخنازير القليلة تجري في أحد الشوارع فسألت «بيرام »عمن يقتنيها أو يأكلها، فأخبرني أنهم الطبقات الدنيا من الهندوس، وهم يعملون أيضا بأحط المهن، ويُطلق عليهم «المُحرَّم لمسهم».

دخلنا الصرح الذي يضم مقبرة أكبر.. بوابة هائلة وساحة تخترقها قنوات الماء ثم بناء شامخ يشبه المسجد وإن بأبراج وزخارف هندية، تؤدي إليه بوابة باذخة أخرى ثم منصة وتحت القبة الكبرى المزدوجة أيضا يتوضع «قبر أكبر».. ويشير لي حارس الأثر أن أنظر، وأنظر.. شيء مدهش، فخط النظر من نافذة المقبرة يمتد فيعبر كل المداخل من وسطها.. هندسة عجيبة وضعت كل المداخل على خط واحد وعلى امتداد عدة كيلو مترات بين ضفتين من البساتين. شجن مؤلم لو تصورنا أن الروح تهفو إلى الدنيا فتراها منافذ للضوء تضيق وتضيق حتى تغدو نقطة ضنينة في عتمة البعيد. ولا يبقى للروح غير الطواف فوق سكينة وبهاء البستان. لم أقرأ ذلك في أي من الكتب عن الهند.. لكن هذا ما أحسست به. فالموت سؤال له طعم خاص جدا جدا، أوقفني طويلا وأنا داخل مقابر المغول، وسيوقفني أطول وأكثر بين يدي الزوجين الأسطوريين النائمين متجاورين في صمت أبدي تحت قبة المرمر.. في تاج محل.

تاج محل.. يا الله...

هتفت: «يا الله» وأنا أقف ـ بعد أن عبرت البهو وانعطفت إلى المدخل ـ في مواجهة تاج محل... إنه شيء آخر، مختلف تماما عن كل الصور التي رأيتها، برغم جودة معظمها الفائقة. أنه إحدى عجائب الدنيا السبع بحق، والأعجوبة فيه لا تكمن في دقة معماره وكمال تناسب أجزائه والصفاء المطلق لبياضه المقدود من المرمر الخالص. لا، الأعجوبة في الإحساس به عند مشاهدته، فقد أحسست حياله وكأنني في حلم، وكان لدي هاجس خافق بأن هذا المبنى البديع الضخم خفيف ومسحور إلى درجة أنه يوشك على الارتفاع والطيران والاختفاء في صفاء زرقة السماء أو التلاشي في بياض السحب. إنه إحساس عجيب، لهذا لا أستغرب ما قاله الكاتب «إدوار لير» عندما رأى

تاج محل لأول مرة، لقد تولته الرهبة والانبهار حتى أنه قال: «من الآن فصاعدا يجب أن يقسم سكان الأرض إلى فئتين، أولئك الذين شاهدوا تاج محل، وأولئك الذين لم يشاهدوه». وإنني لأؤيد قوله.

تاج محل تحفة، وقصة، وموقف فلسفي وجدت نفسي أتساءل خلاله: ترى ما هو الامتحان الأعمق للحب، أن تصطفي من تحب ليكون إلى جوارك في صخب الحياة أم في سكينة الموت؟ لقد طرحت على نفسي السؤال وأنا أطوف مع الطائفين بقبري الزوجين الأسطوريين شاه چاهان وممتاز محل (وقبراهما الحقيقيان يقعان في قبو أسفل قبرين للتمويه تحت قبة تاج محل، وهذه الحيلة رأيتها تتكرر مرارا في مقابر المغول، وهو خوف الأباطرة من تقلب الأيام واحتمال أن يقوم ناقم بنبش مقابرهم، فالنقمة كالنعمة قرائن لا يكاد يفلت منها إمبراطور أو حاكم مطلق) وتاج محل، ذلك الحلم المتلألئ في رداء من المرمر، نفسه.. لا يخلو من تكرار (تراجيديا) الحكم المطلق، تراجيديا دوران الزمان والقصاص الدنيوي العجيب الذي يؤكد أن هناك عدالة في الدنيا كما في الآخرة؟ وإن تأخرت أو غامت. فشاه چاهان الإمبراطور المغولي الخامس بين أباطرة حكام الهند المغول هام حبا بممتاز محل الجميلة وقتل زوجها لتئول إليه. تمنعت في البداية، ثم قبلت وبادلته الحب وصارت الأثيرة لديه طوال زواجهما الذي استمر ١٩ عاما أنجبت منه أربعة عشر ابنا عاش منهم سبعة، وماتت في ولادتها الرابعة عشرة، وحزن عليها شاه چاهان حزنا عميقا. وتخليدا لذكراها وحبه العظيم لها أمر بتشييد هذا القصر الضريح الذي أنجزه عشرون ألف عامل من أبرع الحرفيين في كل الدنيا وعلى مدى أحد عشر عاما وسط حدائق غناء وعلى ضفة نهر «يامونا» وكأنه لؤلؤة أسطورية وسط الزبرجد وعلى حافة الماء. وعلى امتداد البصر من تاج محل ينتصب «حصن أكبر» الذي بناه «أكبر العظيم» ليعزز قوة أجرا. ومن أجمل ما يضمه هذا الحصن برج مثمن الأضلاع يطل من بعيد على تاج محل مباشرة ويسمى «برج سليمان» وفي هذا البرج أكمل القدر دورته إذ استولى ابن شاه جيهان على الحكم وقاده الجشع الإمبراطوري إلى حبس والده في هذا البرج ليقضي فيه أيام عجزه الأخيرة ووحشته التي لم يكن يسري عنه فيها إلا مرآة وضعت أمامه لتعكس صورة تاج محل أمامه، فيرى المكان الذي ترقد فيه زوجته الحبيبة قبل أن يلحق بها. تراجيديا من جنون العشق والحكم. ومأثرة معمارية مضيت

حافيا في رحابها، يدغدغ قدمي العاريتين ابتراد أرض الرخام في تاج محل، وتتلمس أصابعي حريرية المرمر في الجدران المطعمة بالعقيق تحت قبة الضريح الملحمي.

لقد باد حكم المغول في الهند، ولم تبق غير السيرة والأثر، لكن المدهش أن سلسال الحرفيين المسلمين المتخصصين في تطعيم الرخام بالأحجار الملونة الكريمة وشبه الكريمة لم ينقطع أبدا منذ أتوا إلى أجرا لتشييد تاج محل، فمازال أحفادهم يحفظون سر الصنعة البديعة ويرصعون صفحات المرمر بزهور خرافية الجمال في ورش تطعيم الرخام التي زرناها ولم نمكث بين روائعها على هوانا كما تمنينا، إذ باغتتنا هيلاري كلينتون وابنتها اللتان جاءتا لزيارة المكان فأبعدتنا عنه مع غيرنا قوات الأمن.

النساء يوقعن بالدببة!

خرجنا من أجرا في الصباح الباكر باتجاه جايبور فكنا نودع ولاية هندية لندخل أخرى، نترك «أوتار براديش» لنوغل في «راجستان».. راجستان الملونة، الغنية بالألوان برغم امتدادها على حافة صحراء «شار» التي لم أر أثرا لها، لم أر إلا ألوان الحياة البسيطة البهية، وكان الطريق إلى عاصمتها «جايبور» مليئا أيضا بالألوان... إنها «راجستان» التي لم تنكسر أبدا لغاز، حتى المغول، وإن كان الإمبراطور أكبر قد غزاها بالمحبة صهرا، عندما تزوج من إحدى بنات حكامها، إنها سَمية أبطالها «الراجبوت» المقاتلين الذين لم يخشوا أحدا وردوا كل الطامعين عن أرضهم. ويبدو أن الحرية تمنح الأرض ـ حتى الأرض ـ والناس جمالا، فبرغم ما يقال عن أن راجستان هي أكثر ولايات الهند فقرا، فإنني لم أر الفقر الذي يعني لديَّ ضآلة الأرواح وانطماس الوجوه والضوضاء والقذارة. لا شيء من ذلك في راجستان، برغم أن نحافة الأعواد أكثر، ورقة الحال أشد. وعلى طول الطريق الممتد من أجرا إلى جايبور والذي يبلغ أكثر من مائتين وخمسين كيلو مترا، غير التفريعات التي انعطفنا عندها، ذبت وجدا فيما رأيت، حتى أن روحي الآن، وأنا أكتب، تهفو إلى دروب راجستان من جديد...

الكافور الوارف والتين البنغالي السابغ وما لا أعرف من شجر الهند ظَلَّ يُظلُّ الطريق.. وفي بقع الظل والآفاق المشمسة رأيت أحلى وأرق بشر وقع عليهم بصري..

الفلاحات الهنديات اللائي يحملن الجرار وهن يدارين وجوههن خجلا منا بأطراف (شيلانهن) الملونة (برغم أن بطونهن عارية كما هو شأن الساري الهندي).. ورعاة القطعان البيضاء من الأغنام بملابسهم البيضاء الخفيفة وعصي الرعي الطويلة والعمائم على رءوسهم تشتعل ببهجة الألوان المشتقة كلها من نارية الأحمر وزهو الأصفر وائتلاق الأخضر. حتى العاملات البائسات في الحقول، كانت وجوههن الحنطية تقطر حلاوة وهن يركضن في ثيابهن الملونة لتحيتنا على الطريق. أما الطيور فقد لفتت نظري بينها كثرة من عصافير كبيرة مشقوقة ذيولها الطويلة وكانت خضراء يضيء لونها بألق مفسفر وهي تنتقل كأنها تنداح بين هامات الشجر. رأيت الأطفال يتعلمون في مدارس مفتوحة تحت ظل الأشجار الكبيرة. ورأيت موكبا رقيقا من البشر أظنه لأفراد قرية كاملة نساء ورجالا وأطفالا كانوا عائدين من المعبدفي صف طويل يمضي في حبور بينما علامة البركة الحمراء مطبوعة على جباههم وأطواق الياسمين البرتقالي تطوق أعناقهم. أعواد نحيلة جدا وأقدام أكثرها حافية لكنهم كانوا يمضون في حبور. وعند إحدى القرى توقفنا مع توقف حركة السير إذ إن أهل القرية أخذوا على عاتقهم إقامة عائق يقلل من إسراع السيارات على حافة قريتهم حتى ينجوا الأطفال من مصير الدهس. الزمن مستريح شأن تلك الوجوه في قرى راجستان. وبرغم التعطل إلا أنني لم أضجر من البقاء طويلا داخل السيارة أو الالتزام بالحركة المحدودة فيما حولها. فقد كانت القرية تفيض بوجوهها علينا. الأطفال البديعون الذين كانت بينهم صبايا في سن التاسعة والعاشرة، تلتصق بجوانب أنوفهن علامة الزواج من «الترتر» الفضي البراق. إذ إن زواج الأطفال ـ وهو زواج ديني ـ مازال ساريا في الهند برغم تحجيمه بالقانون المدني. ففي ولاية أوتار براديش التي غادرناها للتو عرفنا أن هناك حالات زواج للأطفال ما زالت تقام بكثرة في زحام هذه الولاية كثيفة السكان وثمة زيجات تمت لأطفال عمر الذكر منهم عشر سنوات والبنت سبع سنوات لكنهما بعد العرس يبقى كل منهما في بيت والديه حتى يبلغا أشدهما هذا «الأشُد» يتعين غالبا باخضرار شارب الولد! ومن الطريف أن العريس يتلقى مهرا من والد العروس، والمهر على قدر الممهور، تبعا للمهنة والتعليم والعائلة.

وبرغم القوانين فإن تقاليد الزواج قوية، ومازال هناك إصرار على إتباع نظام

الطبقات الاجتماعية المغلق في الهندوسية القديمة حتى في إعلانات الزواج التي قرأت كثيرا منها في طبعات الأحد من جرائد «تايمز» الهندية و«هندوستان تايمز» فهي تقول: مطلوب: عروس شأنها كذا وكذا.. براهمية. فالتقاليد ما زالت قوية في الهند، وذات منشأ ديني، حيث لم نر خلال جولتنا فتى وفتاة متشابكي الأيدي في مشية حب، كما أنه يَندُر وجود جوارب نايلون والساري سابغ وسروال الشالوار كاماز الذي ترتديه نساء الشمال سابغ أيضا. ولا فرق بين غني وفقير من حيث مراعاة التقاليد ـ في الحياة العامة ـ باستثناء مثقفي الصالونات وبشر قناة التليفزيون إنجليزية النطق، طبعًا! وعلى سبيل المثال فإن هناك حكاية شهيرة عن زواج الأطفال تحكى في الهند عن وزير المناجم السابق بولاية راجستان الذي زوج ابنته ـ في عمر ١٣ سنة وعندما اتهم بأنه أحد الحكام الذين يستغلون مناصبهم لكسر القانون قال إنه «يطيع القانون الأقوى». والزواج في النظام الهندي الديني والاجتماعي، ذو شأن جوهري وفاصل، فالرجل الأعزب طريد الطبقات، والمرأة لا ترسيم دينيا لها إلا بعد الزواج. هذا ومن الطريف أن الزواج لا يتم إلا بعد أن يقرأ العراف طالع العروسين ويقر بمناسبة نجم كل منهما لنجم الآخر. لهذا تنتشر في الجرائد الإعلانات عن هؤلاء المنجمين!.

مضينا على الطريق إلى عاصمة راجستان «جايبور». وتناولنا تحت مظلة في الهواء الطلق ـ عند الضحى الجميل المنير ـ أحلى إفطار على النمط الهندي: أطباق صغيرة بها مانجو بالتوابل والشطة، وبطاطس بالصلصلة والكاري والبهار، وفطيرة «شاباتي» رقيقة حارة. باختصار: إفطار يشعل فيك النار الحامية، لكنه لا يتركك مشتعلا إذ إن هناك طبقا مليئا باللبن الخاثر البارد تطفىء به لظى فمك وإن ظل داخلك يتوهج، لعلك تظل مستيقظا لبهجة الأرض ودفء الناس. ويالبهجة الأرض، ودفء الناس، وطرافتهم أيضا.. فعلى الطريق كانت العربات التي تجرها الجمال تتهادى. وكان النساك المتجولون «الصادو»، يخبون في تؤدة بمآزرهم الملونه كما عماماتهم التي تتدلى منها خصلات شعورهم الطويلة، يطوفون على أقدامهم بطلاب «المعرفة» وينثرون المواعظ مزدردين لقيمات هنا ومرتشفين جرعات ماء هناك.

لم يخرج عن هذا السياق في راجستان غير ملمحين غريبين مررنا بهما على الطريق: قرية كاملة لبنات الهوى تفتح كامل أبوابها ونوافذها لنداء العابرين ـ من الهنود فقط ـ وترى طرائف الصور للمتجملات تحت الشجر والفتنة الملونة الفقيرة.. على قدر حال الراغبين!

القرية الغريبة الأخرى، قرية مرقصي الدببة في منخفض شاسع تحوطه الأشجار تحت مستوى الطريق، فسحاتها المشجرة ومنظر الدب المربوط في شجرة أمام البيت المتواضع من الطين أو الكوخ يتكرر. وقد أخبرنا أحدهم بكيفية اصطياد الدببة من الشمال الهندي عند تخوم الهملايا. فالصيادون يرسلون امرأة شابة في الغابة، ولأن الدب مجنون بالنساء فإنه يتبع المرأة مطأطئا فاقدا كل إرادته، ناسيا شراسته وأنيابه ومخالبه.. وعقله. عندئذ يقع في الفخ الذي تقوده إليه امرأة! فتش عن المرأة، حتى في مأساة الدببة! وهي مأساة تدعو إلى التأمل، فالدب الذي يوقع به هواه في الفخ، يُكبَّل، وتقتلع أسنانه كلها، وتُنزع مخالبه، وعندئذ تُفك قيوده، فلا يملك إلا الطاعة.. يرقص ببؤس وانكسار خوفا من عصا الراعي، وحرصا على الطعام الذي يلقمه إياه إذ يغدو عاجزا حتى عن جلب طعامه بنفسه!

مكثت أتقرى أصداء حكاية الدببة، حتى بعد أن غادرنا قريتها بعشرات الأميال، بينما راجستان الملونة لا تكف عن إبهار عيوننا بألوانها. ثم بدأت الأرض تغير تضاريسها، فاختفى انبساط السهل، ولاحت الجبال، وكنا على مشارف جايبور.

المدينة الزهرية

إنها مدينة التناقضات والتناسقات الجميلة «جايبور»، ومعناها أرض الملوك. وما زالت تحمل ذلك الطابع الباذخ تاريخيا وعصريا برغم ازدحامها وتنوع سكانها ونشاطها الحرفي والتجاري العارم. فما أن اقتربنا منها حتى ظهرت آثار التاريخ على سلاسل الجبال المحيطة بها. ذلك هو حصن «جيفار» المنتصب فوق المرتفعات الصخرية. يؤرخ لشدة بأس محاربي جايبور التي لم تخضع لقاهر وإن انثنت بالمحبة فأعطت إحدى بنات ملوكها من سلالة «كتشواها آمر» الهندوسية للإمبراطور المغولي

العظيم «أكبر». وما أن توغل في قلب المدينة حتى تعرف سر وصف جايبور بالمدينة الزهرية، فالقطاع القديم المسور من المدينة مشيد كله من حجارة لها لون زهري وفي ظلال عمارة «هوا محل» (أو قصر النسيم)، المنمنمة الدافئة الحمرة وعلى امتداد القلب العتيق الزهري كله، تموج الحياة بشكل لا يصدق كأن دولابا هائلًا يدور ويدير دواليبَ تابعة في صخب شامل وبلا اضطراب، عربات تجرها الجمال وعربات تحركها (موتوسيكلات) و(فسبات) سكوتر، ودراجات، وشاحنات، وأبقار تجتر على مهل عند المفارق، لا تزعج أحدًا ولا يزعجها أحد. وقردة نسانيس تتمشى في ظلال قصر النسيم أو تطل بطمأنينة من نوافذ الأبنية المجاورة. القرد ـ النسناس ـ مقدس، ويخبرني بيرام أنه إذا دهست سيارة نسناسا يسرع الناس إلى تغطيته بالزهور حتى يُنقل في ركب مهيب إلى المعبدفهو «هانومان» الروح الحارس مساعد «راما» العلوي!

تجولنا في جايبور المدهشة، وتصاعدت دهشتنا في ورش طباعة الحرير وصقل الأحجار الكريمة ونسج السجاد المأخوذة خيوطه من شعر ذقن الحملان الرضيعة لهذا يفوق سعره سعر سجاد الحرير. شربنا حليب «اللاسي» المسكر البارد في أكواب فخارية، وكسرنا الأكواب كما يفعلون فور الانتهاء منها. أما ذروة تحليقنا فكانت على ظهور الفيلة...

امتطينا ظهر فيل موسد بكنبة خفيضة مثبتة بالأحزمة الملتفة حول بطن الفيل المدثر بالشراشف المنقوشة والملون وجهه برسوم الزهور، وصعدنا في موكب الأفيال نحو عاصمة القلاع والحصون في «آمر» التي تبعد ١١ كيلو مترا عند طرف جايبور الشمالي الشرقي. إنها ذورة تشهد بامتزاج كبرياء سلالة «كتشواها» الهندية بالرقة الماثلة في أحد جوانب الشخصية المغولية. إنها مدينة من الحصون والقصور المتداخلة، وكانت تجربة الصعود إليها على ظهر فيل تجربة فريدة. فلهذا الحيوان المتمهل الضخم اختضاض مرهق وفخم، يعتصر الجسد بين رواح ومجيء ويملأ النفس بتسامٍ يذكِّر بأن الفيل كان المركبة الملكية الهندية المفضلة في العصور الوسطى.

دخلنا عبر بوابة الأسد «سينغ بول» فترامى تحت أبصارنا مجمع الملاعب والتلال والقصور والبحيرة التي تترقرق في السفح محيطة بهذه الذروة. إن هذه القلعة سكنها

آخر مهراجات جايبور، ومع ذلك تشهد بالتراضي السمح مع المغول، هذا التراضي الذي تظهره فنون الهندسة المغولية الشهيرة. الأعمدة المزدوجة والصالات الشبكية والبوابات المزخرفة.

لقد تركت نفسي في معية مجموعة من السياح اليابانيين داخل متاهات عاصمة القلاع حتى لا أفقد طريقي، فثمة حكايات عن زوار أوغلوا فرادى بلا أدلة فاختفوا إلى الأبد في «آمر». وهي متاهة حقيقية، ضمن قاعاتها واحدة تسمى قاعة المرايا.. آلاف من قطع المرايا تخفيها الظلمة، وما أن أشعل الدليل شمعة حتى كادت القاعة أن تتحول إلى سماء مضيئة بالنجوم فشهق اليابانيون ـ رجالا ونساء ـ معا: «هي ي ي ي»، لم أصرخ شاهقا من الدهشة، لأن ذهول التعجب كان يلجمني، لا من قاعة المرايا وحدها، بل من آلاف مرايا ما شاهدته في المثلث الذهبي كله.. ما زالت، وستظل تتردد في داخلي مضمخة بالدهشة.. كل الدهشة

تركيا

لوحة البحار الأربعة

من السهول التي تموج بسنابل القمح، إلى قمم الجبال المغطاة بالثلوج، من ضوضاء مرسى العبارات في اسطنبول، إلى سكينة الناي في موسيقى الدراويش المولوية، من شوارع تضيء زينتها تأهبا بالاحتفال برأس السنة، إلى طوابير أصحاب الرجاء عند ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري، من أبنية الوزارات في قمة أنقرة الحديثة، إلى أزقة حي القلعة القديم الحميم. رحلة رأينا فيها الكثير، ولم نر الأكثر، فتركيا بلد القارتين، والأمبراطوريات الثلاث، والحضارات الغائصة في ثنايا كل شبر من أرضها، هي لوحة تؤطرها بحار أربعة، وتكونها وحدات متجاورة من فسيفساء الزمان والمكان، وهنا بعضٌ من اللّحظ المستطاع لبعضٍ من وحدات هذه اللوحة..

«هل بدأ استطلاعنا ونحن بعد في الجو؟. نعم، فمن نافذة الطائرة وعندما دخلنا المجال الجوي التركي، رأينا سلسلة جبال «آرارات» من ارتفاع ثلاثين ألف قدم، ولم تكن هناك تحتنا غير سحابات شفيفة شاردة، مما أتاح لنا أن نمتلئ بكامل المنظر المفعم بالجلال والرهبة، أبصرنا الأخاديد التي صنعتها تدفقات «اللافا» الملتهبة في القرون السحيقة قبل أن تخمد البراكين، ولمحنا الفوالق التي شقتها تململات الأرض قبل أن تهدأ.

أحسسنا برهبة الإنسان أمام جبروت الطبيعة، وبالجلال لمنظر الجبال التي تتعرق بالثلوج، ثم إن العقل الباطن ـ لا بد ـ كان يحمل في أغواره رهبة وجلال قصة الطوفان، وسفينة نوح التي يقال إنها رست في اليوم السابع عشر من الشهر السابع بعد مائة وخمسين يوما من فزع الماء فوق واحدة من قمم آرارات، وما زال بعض المأخوذين

بالمقولة يحاولون الصعود بحثا عن هذه القمة المجهولة، لعلهم يعودون بقطعة من خشب السفينة الضائعة، التي انتشلت الحياة على أرضنا من موت داهم.. إلى ميلاد جديد.

عبرنا جبال «آرارات»، وجاءت جبال أخرى، وسهول، وحقول، وقرى، ثم دخلنا في نطاق مدينة اسطنبول، وكنا نستطيع بنظرة أن نطل على قارتين في آن واحد.

كنا فوق الجزء الآسيوي الذي ذكرني بجزيرة الأميرات التي لا تعرف وسيلة للمواصلات غير الخيول، وبينما مقدمة الطائرة متوجهة غربا صوب الجزء الجنوبي من القسم الأوربي لاسطنبول، كان يمكننا الإطلال على مضيق البوسفور عند الجناح الأيمن، وبحر مرمرة تحتنا وإلى اليسار. ووجدنا أنفسنا بعد اجتياز حدود الماء نهبط باتجاه المطار كأننا نهبط في جزيرة، الأرض البنية والخضرة الداكنة والبيوت المسقوفة بالقرميد الأحمر علامة اسطنبول المميزة.

لم نستغرق وقتا طويلا في استيفاء إجراءات الدخول، إذ إن مطار اسطنبول يكتفي فيه ضابط الجوازات بالاطلاع على جواز السفر، ونقل بياناته إلى الكمبيوتر ثم تسليمه للراكب وإعطائه خاتم الدخول دون ملء أوراق أو مزيد من الأسئلة، وهذا طبيعي في دولة تعتبر السياحة موردا مهما وسمة من سمات نشاطها التجاري والثقافي.

ضاحكنا ضابط الجوازات مرددا عدة عبارات بالعربية: «يا مرحبا.. أهلين.. أهلين».. وأشار لنا بالعبور فوجدنا من ينتظرنا حاملا لوحة باسمينا، زميلي المصور وأنا، كان ذلك هو علي حيدر الذي أرسلته وزارة السياحة لمرافقتنا في رحاب اسطنبول وبورصة، وكان معه السائق الطيب سليم.

وبعد الخروج من دائرة المطار انطلقنا على حافة بحر مرمرة، نسيم العصر الرطيب الرائق، وأسواق السمك الفضي الطازج المزينة طاولاته بخضرة الريحان والنعناع، والسفن المتجهة عبر البحر إلى المضيق، ثم لفتت أنظارنا بقايا من أسوار المدينة القديمة تنتصب على الرصيف الداخلي للكورنيش.

كان الجزء الذي رأيناه من السور سميكا وعتيقا، هدّه القدم وضربته الشروخ التي

نبتت من ظلمتها جنبات العشب وبعض الأشجار، والسور في واقع الأمر يتضمن عدة أسوار وأبراج متداخلة، وخارج كل هذه الأبراج والأسوار كان هناك أخدود يُملأ بالماء عرضه ١٨ مترا وعمقه ٧ أمتار..

ولماذا كان ذلك كله؟ جغرافية المدينة وتاريخها يخبرانا بسر حاجتها إلى ذلك التحصين القديم، فقد كانت ـ ولا تزال ـ بوابة الغرب إلى الشرق كما أنها منفذ الشرق إلى الغرب، لهذا كانت عاصمة لثلاث إمبراطوريات كبرى: الرومانية، والبيزنطية، والعثمانية. واتخذت خلال ذلك ثلاثة أسماء أولها البيزنطية، وثانيها كونستانتينبول ثم اسطنبول، ولقرابة ألف عام ظلت هي المدينة الأهم في العالم الغربي وفي الشرق الأدنى، ولم تتحول عنها قوتها السياسية متجهة إلى أنقرة إلا عام ١٩٢٦ بعد إعلان أتاتورك قيام الجمهورية التركية، وإن ظلت المحرك الأكبر ـ من بين كل المدن التركية ـ للنشاط التجاري إن استيرادا أو تصديرا.

غادرنا سور الأزمنة الغابرة، فكانت الأزمنة التالية تلاحقنا ونحن ندور حول قصر توب كابي متجهين إلى سراي بورنو عند مدخل «القرن الذهبي» الذي يأتي كممر مائي ممتد من مدخل مضيق البوسفور، شاقا الجزء الأوربي إلى قسمين جنوبي تقع فيه معظم عمارة التاريخ العثماني وأسواقه العريقة، ويسمى اسطنبول القديمة، وشمالي يمتد بامتداد البوسفور ويطل على مياهه وتحتشد فيه أبنية اسطنبول وأحياؤها الأكثر عصرية.

مررنا بميناء البواخر الداخلية، فهالنا الزحام الذي تنقله، وعرفنا من مرافقنا علي حيدر أن المدينة يتضاعف عدد سكانها كل خمسة عشر عاما منذ بدء النزوح المكثف من الريف في الخمسينيات، ومن المتوقع أن يصل تعدادها عام ٢٠٠٠ إلى أكثر من ١٠ ملايين نسمة.

لمحنا مسجد أمين أونو وأسراب الحمام التي تحوم حوله وتحط على أفاريزه وقبابه وأعتابه. وانعطفنا داخلين في جسر «جالاتا» ومن وراء الجسر أوغلنا صاعدين وملتفين حتى وقفنا أمام بناء راسخ لونه فيروزي ونوافذه بيضاء وتلوح من هيئته سمة القدم، وقرأنا على اللافتة: ١٨٩٢ ـ«PERA PALACE».

كان اقتراحا ذا مغزى، ولفتة ثقافية من وزارة السياحة التركية التي اختارت لنا هذا المكان لنقيم فيه ليلتين، فقد كنا نقيم داخل قطعة من التاريخ التركي ـ بل العالمي ـ الحديث، الذي تلعب فيه اسطنبول دور المركز الذي دارت حوله تحركات وتطلعات وآمال ومخاوف، ولم يكف أبدا عن النبض كمعبر كبير بين الشرق والغرب، وكانت قائمة الأسماء التي استقبلها الفندق ـ كما قرأناها على أبواب الغرف والأجنحة التي أقاموا فيها ـ تقول الكثير: كمال أتاتورك، رضا بهلوي، فاليري جيسكار ديستان، الخديو عباس، ماتا هاري، سارة برنارد، جريتا جاربو، زازا جابور، أجاثا كريستي، جوزيف بروز تيتو، خوليو اجليسياس، ثيودراكيس.. وكثيرون.. ملوك ورؤساء وفنانون وجواسيس وكتّاب. وانضممنا إلى هذا الحشد المتنافر، وكانت غرفتي تجاور غرفة «زازا جابور» من ناحية وأجاثا كريستي من ناحية أخرى بينما جوزيف بروز تيتو أمامي..

في «بيرا بالاس» كان كل شيء قديما قدم قرن من الزمان: البلور والأفاريز النحاسية والمرمر والأبسطة الحمراء والمصعد الذي ننادي عليه بجرس نحاسي يجلجل، فيصعد أو يهبط بنا بهدوء راسخ بينما جوانبه من البلور والنحاس المشغول تكشف عن حركة هذا الصرح القديم الذي ما زال يضج بالحياة خاصة في الليل.

وحتى يجن الليل في قلب بيرا، اغتسلنا وغيرنا ملابسنا وآثرنا أن نمضي في جولة حول الفندق، واكتشفنا أننا على مبعدة خطوات من شارع «الاستقلال» وميدان «التقسيم» (وينطقان بالعربية).

هنا، بدا لنا وكأننا في شارع من شوارع أوربا التجارية العريقة، محال الملابس والمكتبات والترام القديم الأحمر والزينات المضيئة تهيؤا للاحتفال بعيد رأس السنة الميلادية، و«استاندات» آلاف بطاقات المعايدة ودمية بابا نويل وراء زجاج الواجهات، ثم المنظر الذي لفت نظري بشدة: بائعو أوراق اليانصيب الذين يرتدون زيا أبيض وقبعات بيضاء منتفخة ويعرضون أوراقهم على عجلة دوارة تدور دورات الحظ وتتوقف عند يد من يشتري ويحدوه الأمل، ويبدو أن الأمل كان كبيرا حتى أنه كان يغرق كل أرصفة اسطنبول ببائعي «اللوترية» وعجلاتهم الدوارة بالورق، والوعد: جائزة قيمتها ٤٠ مليار ليرة تركية أي ما يعادل ثمن ٢٠٠ سيارة شاهين

صناعة تركية، أو ٤٠ شقة في قلب اسطنبول، كما أخبرنا بائع «اللوترية» السمين ذو الشوارب «نديم أوغلو».

المليار رقم يبدو خارقا، أما المليون فهو متاح للكثيرين في تركيا، ولقد صرت مليونيرا هناك، فبأقل من مائة دولار حصلت على مليونِ ليرة تركية، وصرت من أصحاب الملايين في لحظة، لكنها ملايين سريعة التبخر رغم رخص الطعام والشراب والملبس ـ النسبي ـ في تركيا.

وعدنا من جولتنا للقاء أطياف الماضي، ونجوم الحاضر، في ليل اسطنبول، بين جنبات قصر بييرا..

أوربا في ليل بييرا

كان هناك عرض عصري وتجمُّع لنماذج من الأرستقراطية التركية، فساتين السهرة الأوربية والردنجوهات والبيونات، والتورتة التي ترتفع عشرة أقدام على عربة يدفعها خمسة جرسونات، وعزف على البيانو وكئوس تتقارع، ولولا إننا طلبنا على العشاء طعاما تركيا لحسبت أنني في قاعة احتفالات لندنية أو باريسية.

ومن هذا الجو الأوربي صعدنا إلى غرفنا، وكان طبيعيا أن يكون التليفزيون هو سمير ما قبل النوم، خمسة عشر قناة يقدمها التليفزيون التركي، أربع منها حكومية والباقيات خاصة، ويؤكد التليفزيون على صورة تركيا الأوربية. لولا ذلك الغناء التركي الشرقي الجميل واللغة التركية الغنية بالأصوات العميقة لبدا أن هذا تليفزيون أوربي، وكقنوات الليل الأوربية كانت هناك قناة اسمها «Show» تبدأ عملها بعد منتصف الليل، وخلال ساعتين أو ثلاث تكون قد بثت الصواعق والغرائب.

كان ذلك بعضا من وجه الليل، لكن كان للنهار وجوهٌ أخرى.

بصمات الروح على الجسد

«إنني معني بالتقابل، ولا أريد أن أقول المتناقضات».. قلت هذا لمرافقنا ونحن نعيّن جولة النهار، فاخترت من بين المتاح «مسجد أبي أيوب» إذ أحسست بأنني ربما

أجد هناك صورة أخرى، وقد كانت هناك صورة أخرى بالفعل.. لقد لفت نظري وأنا أعد للرحلة بالقراءة قبل السفر أن طقوس ختان الأطفال الذكور في تركيا تشغل حيزا لافتا منذ أيام العثمانيين وحتى أيامنا، ففي قصر «توب كابي» توجد قاعة مستقلة مكسوة بالسيراميك المزخرف تسمى «قاعة الختان» وأمامها نافورة يُلقى في مياهها بالنقود لتحل البركة على المختن، وفي رحاب جامع أبي أيوب قرأت أن طقوسا أخرى لا تزال تُمارس، ولقد أثار الأمر اهتمامي فآثرت أن أرى ذلك رأي العين.

الرحلة من قصر «بييرا» إلى ضاحية أيوب تقع كلها على أرض أوربية، على حافة الغرب، لكن ما أن يممنا شطر جسر «جالاتا» باتجاه الجنوب حتى كان الشرق أمامنا. صورة «بانورامية» لا أغنى منها ولا أقوى.. مآذن وقباب عشرات المساجد تربض عالية جلية فوق ذرا هذا الجزء من اسطنبول التي تتكون من سبعة تلال، مساجد وقباب أمين أونو والسليمانية ورستم باشا والسلطان أحمد وآيا صوفيا ومحمد الفاتح وعشرات المساجد الأخرى.. ولقد تعلمت أن أميز في اسطنبول بين نوعين من المساجد: أولهما المساجد السلطانية التي يعتبر كل منها مجمعا دينيا ودنيويا في رحاب الإسلام، فثمة فناء خارجي تحيط به مبان عمومية تضم مدرسة للقرآن، ومستشفى، ومكتبة، ومطبخا عموميا، وحماما تركيا، ثم سورا وفناء داخليا أو باحة داخلية مكشوفة تتوسطها نافورة وتحيط بها ردهات مسقوفة تظللها القباب، ومن ثم البناء الأساسي للمسجد حيث صحن المصلين والمحراب والمنبر إضافة إلى مكان خاص للسلطان على يسار المنبر والمحراب. أما الفناء الخلفي فكان مكانا لمقابر العائلة السلطانية، هذا هو نموذج المسجد السلطاني الذي ترتفع منه عدة مآذن ويستخدم كمكان للاحتفالات الرسمية والدينية والاجتماعية أيضا، غير النوع الثاني من المساجد المسماة في اسطنبول بالمساجد العادية، وهي أصغر حجما وتقتصر على مكان للصلاة وليس لها عادة غير مئذنة واحدة.

ولعل من أبرز المساجد السلطانية التي زرناها فيما بعد ويليق أن نتذكرها في سياق حديثنا جامع السلطان أحمد الذي يقع في شرق «الميدان» مواجها صرح «آيا صوفيا» وله نفس التكوين الشائع للمساجد السلطانية التركية، لكن يميزه ـ إضافة لزخارفه من

السيراميك والخشب المنقوش والعاج والنحاس والقبة العظيمة ـ وجود ست مآذن، وهو المسجد الوحيد الذي له ست مآذن في اسطنبول، ولذلك قصة طريفة: فقبل أن يتجه السلطان أحمد الثاني على رأس رحلة الحج إلى مكة، أمر المعماري الشهير «سنان» أن يبني «مآذن ذهبية» للمسجد، ومن وجهة النظر الاقتصادية رأى سنان أن ذلك مستحيل، وخرج من هذا المأزق اعتمادا على التشابه القوي بين كلمتي «ذهب»، و«ستة» في اللغة التركية إذ إنهما «آلتين» و«آلتي»، وبنى ست مآذن حتى يكون قد نفذ أمر السلطان وخرج ـ في الوقت نفسه ـ من منطقة الاستحالة في بناء «مآذن ذهبية».

ولعله يكون مناسبا أيضا أن نتحدث في هذا السياق عن عبقري العمارة الإسلامية «سنان» «Sinan» الذي عاش في الفترة من ١٤٩٠ ـ ١٥٨٨، ويعتبر مضارعا لمايكل أنجلو في المكانة، وقد تدرج من موقع مهندس في الحرس السلطاني ليتبوأ موقع «المعماري الأول للإمبراطورية العثمانية» في عهد السلطان سليمان الأول بينما كان عمره ٤٩ عاما في سنة ١٥٣٩ في ذروة ازدهار الإمبراطورية العثمانية، وهو «عاشق المساجد» وأول من أدخل القبة في عمارتها، وقد خلّف ٣٢٠ صرحا معماريا تعتبر من آيات فن العمارة الإسلامي على مر العصور، من بينها ٨٠ مسجدا سلطانيا، و٥٠ مسجدا عاديا، ومدارس، ومستشفيات، وقصور، وجسور، وحمامات، وخزانات مياه، وأسبلة.

بنى كل ذلك ومات عن ثمانية وتسعين عاما ليدفن في قبر بسيط ضمن قبور الفناء الخلفي للمسجد الأزرق الذي شيده. لكن رغم ضخامة كل مساجد اسطنبول السلطانية فإن مسجدا واحدا يعلوها جميعا من حيث المكانة الدينية لدى الناس، ذلك هو «مسجد أيوب» أو «مسجد السلطان أيوب» الذي يأتي في المكانة الدينية لدى أهل اسطنبول في المرتبة الثالثة بعد مساجد مكة والمدينة والمسجد الأقصى. ففي هذا المسجد توجد رفات الصحابي الجليل «أبو أيوب الأنصاري» وهو أبو أيوب الأنصاري «خالد بن زيد» الصحابي الخزرجي، من أهل المدينة، وقد نزل الرسول صلى الله عليه وسلم في بيته يوم الهجرة، وتوفي بحصار القسطنطينية «اسطنبول» عام ٥٢٥ ـ ٦٧٢ م.. وقد عثر على قبر أبو أيوب الأنصاري بعد موته بثمانية قرون عندما استولى محمد الفاتح على المدينة وبنى المسجد كهدية لروح الراقد الطاهر، ولقد تم تجديد المسجد تماما عام

١٨٠٠ وكانت ساحته موقعا لأداء القسم العثماني لكل سلطان يتولى الحكم كمعادل لمراسيم تولي العرش لدى ملوك وأباطرة وقياصرة أوربا.

أخذنا نصعد حتى انجلى صعودنا عن بقعة الزحام كأنها الوجه الآخر لاسطنبول، ولعله الوجه الحقيقي، الزحام والحوانيت التي تبيع الملابس والبخور والعطور والمسابح، والباعة الجائلون الذين تحمل صفوف عرباتهم عطور الزهور الطبيعية والمسابح والمصاحف وكتب الحديث والتفسير. غوطة على القمة ترقد بين أشجارها مقابر المسلمين ويتوسط ساحتها الصغيرة المسجد ذو القبة الكبيرة، والمئذنتان السامقتان في دقة ورقة، والباحة السماوية المحاطة بالبواكي المظللة بالقباب الصغيرة والفناء الخارجي المبلط بالمرمر وأسراب الحمام وأرتال المتشفعين والآتين للصلاة، مشهد يذكر الرائي بساحة الحسين في القاهرة، وإن بنسيم اسطنبول ومدارج أشجارها الكثيفة، النسوة في ملابس داكنة سابغة وقد غطين رءوسهن، ومن ساحة المرمر التي تتوسطها نافورة صافية كان الطابور الطويل يمتد لدخول ضريح أبي أيوب الأنصاري لقراءة الفاتحة وملامسة شباك الرجاء الذي يسيج قبر الصحابي الجليل.

أين الغرب من هذه الصورة؟ سألت نفسي بعلامة استفهام تتضمن الإجابة بالنفي، وسيحدث أن أكرر ذات السؤال بعلامة الاستفهام نفسها وأنا في بهو آيا صوفيا، أتأمل المسلمين البسطاء وقد جاءوا يدخلون إبهامهم في ثقب بأحد أعمدة البهو ويتمنون على الله ما يتمنون ثم يحاولون إدارة أكفهم دورة كاملة بينما إبهامهم ماكث في الثقب، معتقدين أن من ينجح في إتمام الدورة يحقق الله رجاءه، والأسطورة تقول إن «محمد الفاتح» عندما أوغل في اسطنبول ودخل آيا صوفيا التي كانت مركز الحياة الروحية للإمبراطورية البيزنطية، أمسك بهذا العمود فغاص إبهامه في الحجر لأنه حمل ثقل كل هذا البناء الضخم في قبضته ليحوّل اتجاهه بحيث يتجه محوره نحو الكعبة.

أي ملمح غربي في ذلك؟ سألت نفسي، وتجلت الإجابة مرة أخرى في رحاب مسجد السلطان أيوب إذ رأيت موكب الختان، نعم أحب أن أسميه موكب الختان، فالصبي الصغير المقبل على الختان جيء به في حلة بيضاء متوشحا بوشاح من الساتان الأحمر المطرز ومعتمرا بتاج من نفس القماش واللون والتطريز، وما أن يصير الصبي

وذووه ـ الأب والأم والأهل والجيران ـ في ساحة المرمر ويتكون الموكب، يضعون الصغير أمامهم ويتبعونه وهو يتقدمهم لدخول ضريح الصحابي الجليل، لقراءة الفاتحة وطلب البركة والسلامة والنجاة، وأن يرعى الله مسيرته في المستقبل.

لقد رأيت في ذلك مظاهرة روحية وإن كان داعيها هو جرح الجسد، وهيهات أن ينسى الصغير وأن ينسى أهله ذلك الموكب الذي سيثبت في أعماقه مع جرح الختان، وبعد البرء منه، صورة لن تنمحي ـ في ظني ـ مهما انغمس هذا الصغير ـ كلما كبر ـ في طوفان الحياة الأوربية التي تقف اسطنبول على تخومها، أو في داخل هذه التخوم، بصمة للروح على ذلك الجسد، الذي وإن كان صغيرا بعد فقد تمت له التزكية بأن يقود المسيرة ويضمن استمرارها، باتجاه الروح، والروح مسلمة.

هذا ما أحسست به بجلاء وعمق، وأنا في هذه البقعة من أركان اسطنبول المتراصة، فالإسلام روح، وهي روح يرى الممعن بصماتها رغم كل شيء، على كل شيء.. العمارة، والملامح، والطعام، والحزن، والفرح.. ومسيرة الحياة منذ الميلاد وحتى الموت.

وقفلنا عائدين إلى زحام اسطنبول العادي وضوضائها العادية، لكن سليم سائقنا سمح المحيا، كان قد ادخر إحدى مفاجآته، فقد دس في مسجل السيارة شريطا، وأعلى الصوت، فحضرت عطور الدراويش وانسابت أبيات مولانا جلال الدين الرومي، وصدحت موسيقى المولوية.

وكان سليم مواظبا على جلب المسرة إلى نفوسنا بالغناء التركي الشجي الذي كان يدخره لنا في مسجلة السيارة، فعرفنا إبراهيم تالاساس وأجيدا وآيسا «عائشة»، وها هي موسيقى الدراويش ينداح فيها صوت الكمان ويغرد القانون ويتصاعد صوت الناي إلى الأعالي فتغتسل الروح بالشجا ونحن في طريق الرجوع.

قارب بين قارتين

عندما تركب باخرة تبحر بك من بحر مرمرة متجهة إلى البحر الأسود عبر مضيق

البوسفور فإنك تحس بثقل التاريخ وهول الجغرافيا، وتحس أكثر بجلال الطبيعية وجمال الكون في إحدى أبهى بقاعه..

مضيق البوسفور، يسمونه أحيانا مضيق اسطنبول، وكلمة بوسفور تعني مخاض البقرة، ومرجع ذلك أسطورة تقول إن أيو كانت معشوقة زيوس، وكانت هيرا زوجته غيورا، فخاف على أيو من بطشها فحولها إلى بقرة، لكن هيرا عرفت ذلك فأرسلت لها نحلة أفزعتها حتى انحشرت في هذا المضيق. يمتد المضيق بطول ٣٢ كيلومترا ويتراوح عرضه بين ٥٠٠ متر في أضيق نقاطه وثلاثة كيلومترات في نقاط أخرى.

صعدت إلى الباخرة وسط حشود البشر في المرسى البحري المواجه لمسجد «أمين أونو» والمجاور لجسر «جالاتا» وهذه البواخر تشبه في حركتها الوافرة أوتوبيسات النقل العام، تزدحم شرفاتها بالراكبين ويزدحم سطحها بالواقفين وراء سياجه، إذ إن المقاعد على السطح قليلة، ولقد فضلت هذه الرحلة بين الناس العاديين على رحلة أخرى للسياح تقوم من مرسى قريب لقصر «توب كابي». وكانت تتوقف كثيرا عند الضفاف..

انطلقت الباخرة كعمارة هائلة بيضاء تنساب على الماء رغم صوتها الأجش وصوت صافرتها الجهير، وعملت بنصيحة أهل الخبرة في التركيز على المنظر من منطقة الذيل، عند خط الأفق، حتى لا تضيع الصورة الشاملة في زحام التفاصيل الصغيرة..

ابتعدنا عن الرصيف المزدحم ببائعي السمك الخارج توا من الماء، وزوارق السمك المقلي التي تتأرجح قرب الشاطئ، ويتناول الآكلون «صندويتشاتهم» الساخنة من بين فتحات السياج. واتسع المشهد على جانبي ممر القرن الذهبي بين الجزأين الأوربيين من اسطنبول، تلال البيوت القديمة والمآذن والقباب العتيقة في ناحية، مدارج البيوت الأكثر حداثة ذات السقوف المغطاة بالقرميد في الناحية الأخرى، ثم انعطفنا يسارا في اتجاه مدخل المضيق ولاح قصر «دولما باهشا» كعقد من اللآلئ، ينعكس ألقها على صفحة الماء وتموجاته، القصر الذي تمتد واجهته بطول ٦٠٠ متر من المرمر الأبيض والمعمار المزخرف بطراز الروكوكو، ولقد بناه السلطان عبدالمجيد عام ١٨٣٤ ليعيش فيه بعدما أحس بالاكتئاب من وطأة العيش بين جنبات قصر «توب كابي» العتيق، وهفت نفسه إلى التغيير، ولعله كان محقا في التخفف من ثقل توب كابي واللجوء إلى إشراق

«دولما بهجة» ولقد حذا حذوه سلاطين العثمانيين التالون له، إذ كانوا يجيئون إلى القصر المضيء تاركين «توب كابي» معلقا هناك في الأعالي مثقلا بالتاريخ والظلال.

مررنا بـ «دولما بهجة» فدخلت الباخرة إلى مرسى «بيشتكتاش»، خلف المرسى كان قصر الواجهة البحرية «سيرجان سراي» الذي تم تجديده ليكون أحد أفخم فنادق اسطنبول. نجتازه، فينخطف البصر بهول تقنية البناء المعاصرة المعلقة في جسر البوسفور الذي يبدو كقوس خرافي يطير مفتوحا فوق الماء، رابطا بين الضفة الآسيوية عن يميننا والضفة الأوربية عن يسارنا.

لقد تم بناء الجسر عام ١٩٧٣ ويعتبر ثالث أكبر جسر معلق في العالم.

نعبر تحت الجسر فيستديم ظله وقتا ونؤخذ بارتفاعه وامتداده، وما أن تنجاب دهشة الجسر المعلق حتى نرى الشاليهات الحمراء البديعة على حافة الماء عند الجانب الآسيوي، دقائق وتظهر قلعتان متقابلتان على ضفتي البوسفور هما قلعتا «روميلي» و«أنادولو»، في هذه النقطة يبلغ البوسفور أضيق نقاطه إذ لا يزيد عرضه عن ٥٠٠ متر، عند هذه النقطة اختار ملك الفرس «داريوس» أن يبني جسرا من القوارب «لينقل عليه جنوده خلال معاركه مع البيزنطيين.

بعد أن يمتلئ البصر ببهجة الضفاف المكللة بخضرة الغابات تنعطف الباخرة إلى مرسى «كامليكا» بعد جسر البوسفور الثاني المسمى جسر محمد الفاتح وهو أحدث وأصغر من الأول وتم افتتاحه عام ١٩٨٧، وهناك ترى بائعي الزبادي الشهير «زبادي كامليكا» الذي لا ألذ منه ولا أحلى عندما يؤكل مع ملعقة من السكر. ثم تواصل الباخرة سيرها.

نرى في الجانب الأوربي ڤيلّات حي «طرابيا» البديعة البيضاء ذات السقوف الحمراء من القرميد والتي توشك أن تحجبها خضرة الأشجار الكثيفة، ثم تمضي السفينة إلى مرساها قبل الأخير عند «ساريير» وهي قرية صيادين جذابة بيوتها متطاولة من الخشب أو الحجر لكنها ملونة بألوان مختلفة.

هبطنا من الباخرة عند نهاية الخط في الجانب الآسيوي عند «أناضولو كافاجي»

لتناول وجبة من الأسماك الشهية في أحد المطاعم البحرية المنتشرة هناك، ثم أطللنا، على المشهد الواسع من قلعة جينويس على «صخرة الصراع» التي تمثل مدخل البحر الأسود والتي أبحر عبرها جايسون وأرجوناتوس، في الأسطورة الإغريقية، للبحث عن الفروة الذهبية.. ثم قفلنا عائدين بالباخرة إلى ساريير حيث كانت تنتظرنا دعوة للعودة بالسيارة من هناك للإطلال على أحياء ضفة البوسفور الأوربية. وكانت أوربية حقا، ببيوتها الحديثة، ومحالها، وإيقاعها، وكثرة الغرباء فيها، ولقد لمحنا إعلانا بالعربية يقول: «هنا شقة مفروشة للإيجار».. فكان الإعلان مفاجأة ابتسمنا لها ومضينا نأوب، ونجهز للخطوة التالية.

بورصة.. الحرير والثلج

جئنا من قارة إلى قارة عبر الجو، وها نحن نمضي من قارة إلى قارة على الأرض، من اسطنبول إلى بورصة، دخلنا جسر البوسفور المعلق فوق الماء فصارت أوربا وراءنا وآسيا أمامنا، البيوت البيضاء الغارقة وسط خضرة البساتين، والمسقوفة بحمرة القرميد هي هي على الضفتين، لكن الجانب الآسيوي تبدو بيوته متعددة الطوابق، عمائر لاستيعاب الكثافة السكانية الأكبر في قلب تركيا الآسيوي، وبدا أن هناك شيئا ما أكثر ألفة رغم رقة الحال النسبية لهذا الجانب الآسيوي، فعبر كتلة البيوت في القرى لمحنا بيوتا توحي بأن أصحابها يشيدونها (طوبة على طوبة) فهي لا تعرف بذخ الاكتمال، ثم راحت الأرض تعلو وتهبط ونحن نصعد بين التلال الخضر والجبال الهادئة حتى وصلنا إلى مرفأ العبارات، فدخلنا بسيارتنا إلى إحدى العبارات التي لا تنقطع عن عبور بحر مرمرة إلى «يالاوا». كانت متعة احتساء كوب من الشاي التركي مع بعض حبات من البندق على ظهر العبارة المغمور بنسيم البحر متعة طازجة، بينما البصر يرتحل بعيدا الي ذرا الجبال الخضر الغارقة في الضباب، ومن «يالاوا» أخذنا في الصعود نحو بورصة، جبال خضراء تهجع في أحضانها قرى صغيرة، بضعة بيوت وساحة ومسجد، والمئذنة ملمح لا يغيب عن العين حيثما كانت هذه القرى، تذكرني بمآذن البوسنة، فهي اسطوانية كاملة الاستدارة ومدببة بدقة عند طرفها كأنها قلم مبري برهافة، يكتب على صفحة السماء: مسلمون، نحن مسلمون، فهل يضير ذلك الآخرين؟!.. وأشعر

بأننا في حاجة إلى فهم تركيا المسلمة بشكل أعمق، فلو لم تكن تركيا قوية ربما قصفت مدافع التعصب الآخر سموق هذه المآذن.

تتفتح ساحات الجمال أمام أعيننا، وتفر ونحن نسرع نحو بورصة، عيون الماء المتفجرة من صخور الجبال على جانبي الطريق، والجبال الخضر المتعاقبة يتغير لونها كلما ابتعدت حتى تبدو سحابا بنفسجيا عند خط الأفق، وفي أركان الطريق يعرض بائعو العسل البري والفواكه والكستناء بضاعتهم، والقرويات الجميلات يهربن في خفر أمام عدسة الكاميرا. وندخل بورصة في رائعة النهار.

بورصة، المأخوذة عن اسم الملك «بروسياس» أحد ملوك «بيوثينيا» التي كان المكان رحابها منذ اثنين وعشرين قرنا، بورصة أول عاصمة للخلافة العثمانية «١٣٢٦» وأول مدينة سُكَّت فيها نقود العثمانيين، ما زالت زاهرة تتفجر جنباتها بالمياه الحارة فتضرب شهرة حماماتها المعدنية الآفاق، ويعتدل نسيمها فلا يستنشق المرء أصفى منه ولا أرق، وتمر وجوه حسانها كالأطياف والأقمار فتكتمل دائرة الحسن مع الإطلال من ذراها الخضراء على سكينة خليج كيركابي الذي يرفده في حضنها بحر مرمرة. الماء والخضرة والوجه الحسن، والطعام الحسن، والغناء الحسن، والحرير الذي يمتد حسن صناعته إلى خمسة قرون في عمق الزمان، ولا ينتهي حسن بورصة.

لقد طفنا مسحوري الأرواح في ظلال المسجد الكبير المبني من الحجارة المسواة برهافة الحرير، عبرنا بواباته الثلاث ومشينا تحت قبابه العشرين، وسمعنا القرآن بصوت تركي صاف لم تخدش صفاءه أصوات النوافير الست عشرة تحت قبة صحنه الهائلة.

«أولو كامي» أو المسجد الكبير، لم يكن هو آية الفن العثماني الوحيدة في بورصة، فقد رأينا هناك المسجد الأخضر المقدود كله من المرمر، والخان المعمول من الطابوق الوردي، والسوق المغطى الذي يعج بروائع نسيج بورصة وأريج عطورها.

غادرنا بورصة الخضراء ميممين شطر قمة «يولودوج»، فكان القلب معلقا في سماء بورصة والعين ترنو إلى القمة البعيدة المغطاة بالثلوج. ثلاثون دقيقة من الصعود في الجبال البكر، ومع كل مرحلة يتبدى فصل من الفصول تلوح علائمه على أوراق الشجر،

أوراق الخريف الصفراء صفرة ذهبية، وأوراق الربيع الخضراء، وأوراق الصيف كثيفة الخضرة، وأغصان الشتاء العارية، ثم ترامت ساحة الثلوج أمامنا، بياضا ناصعا تطرف له العيون وبرودة قارصة لم نكن قد تدثرنا لها بما يكفي، فجلسنا في أحد المقاهي المطلة على ساحات التزلج نحتسي الشاي الساخن ونراقب المتزلجين في ملابسهم الملونة الثقيلة وكأننا نطل على ساحة تزلج سويسرية. نقاط بشرية ملونة تنساب في بهجة الثلج، وتغرينا بالخروج، فخرجنا لكننا لم نمكث إذ أسرعنا إلى جوف السيارة الدافئة نهبط من قمة الثلوج ساعين إلى سفر طويل في اتجاه قلب الأناضول.. في اتجاه العاصمة.

أنقرة.. وصال آخر

في تركيا، فسيفساء تلاقي الأماكن والأزمنة، لا تخطط كثيرا لخطوك، فمع كل خطوة سيتفتح أمامك عالم من سحر الأماكن وصدى الزمان ينادي خطوتك التالية، لقد كنا ذاهبين الي العاصمة أنقرة لننهي استطلاعنا بشكر نقدمه لوزير السياحة التركي ولقاء نجريه معه، كما كنا على موعد مع مسئول كبير بوزارة الخارجية التركية لإجراء حديث ثقافي سياسي، وكانت الفترة الزمنية ضيقة بينما كان المسئولون في حالة حركة دائبة تهيؤا لانتخابات مارس، شكرنا من يسرّوا مهمتنا من وزارة السياحة التركية، وانتقلنا إلى مبنى وزارة الخارجية العصري الهائل. والتقينا بالمسئول عن العلاقات الخارجية السيد «فرهات إتمان»، تحاورنا حول الاستقرار في المنطقة، والفعالية الإقليمية، والتعددية كشرط حقيقي للتنمية والتحديث، واتفقنا بيقين على أن الثقافة هي بوابة المحبة والسلام الحقيقية ليعبر كل منا إلى قلب الآخر، وكانت الثقافة هي التي حملتنا إلى قلب أنقرة بعد اللقاء.

وعلى الرغم من أن أنقرة تعتبر إحدى عواصم العالم الأكثر حداثة، إلا أن الموغل في قلبها يدرك كم هي غائرة في الزمان، فبعيدا عن قمتها العصرية حيث الشوارع الفسيحة المرصوفة جيدا، والأبراج السكنية، والفنادق، والمطاعم، والمقاصف الأوربية، ومباني السفارات الحديثة، وعمائر الوزارات، ثمة قمم أخرى في تضاريس أنقرة التي تقع في حوض الأناضول مشرئبة على مجموعة من التلال هادئة الارتفاع، فما أن تأخذنا الشوارع

الجانبية لمنطقة «جيسيكوندو» (والتي تعني مأوى الليل) حتى نحس بأننا في أنقرة أخرى، أنقرة القادمين من ريف الأناضول الذين لم يغير الكثيرون منهم أزياء الريف بعد، ملابس النساء الضافية المزركشة وسراويل الرجال الفضفاضة الوسط، حتى البيوت تبين متزاحمة وكأنها لا تريد أن تترك شبرا خاليا على هذا التل، وهي ملونة بألوان شتى تحمل بساطة الذوق الريفي لثلاثة ملايين إنسان يشكلون الثقل العددي الأكبر لسكان العاصمة ويعيشون على هذا التل الملون، أما حي القلعة القديم فهو نسيج وحده في العراقة والعتاقة، يغوص في التاريخ حتى ثلاثة قرون فيما قبل الميلاد وتحوطه أسوار العثمانيين والرومان. نأكل لقمة شهية عجلى في مطعم عمره أكثر من قرن، وبناؤه من الخشب والرخام، وننطلق في الأزقة الضيقة النظيفة. نحوم حول القلعة العتيقة فنجد أنفسنا في سوق التوابل، وسوق المكسرات والحبوب، ونمر على محال فراء الأغنام فنلمس نعومة أصواف الموهير التركي الشهيرة، ندخل بيت السجاد عند أقدام القلعة فتتألق في عيوننا أبسطة الحرير التركي، وسجادة الحرير دقيقة الصنع تتغير ألوانها مع تغير مساقط الضوء عليها، ومن بيت السجاد إلى بيت المصنوعات اليدوية العريقة: أطباق سيراميك «إزنك» بهية التلوين، ومصابيح النحاس المطروق، والنرجيلات المزوقة، والسماورات، وخرزات الكريستال الأزرق، والصناديق المطعمة بالعاج والأصداف، وتماثيل الدراويش من البورسلين الأبيض.

وعلى مبعدة خطوات قليلة نعثر على متحف الحضارة الأناضولية، ونمضي من زمن إلى زمن، بادئين من آثار العصر الحجري الحديث حتى الرومان، نتوقف طويلا أمام آثار إحدى الحضارتين الأعرق في تاريخ البشرية، أي حضارة ساكني الجبال، (بموازاة حضارة المصريين القدامى التي كانت حضارة وديان).. حضارة الحيثيين التي تعتبر ملمحا زاهرا من ملامح عصر البرونز. ولغتها «الحيثية» تعتبر أم اللغات الهندوأوربية التي خرجت منها اللغات التي تتحدث بها أوربا والهند في عصرنا.

شدهتنا وبهرتنا أعمال النحت الضخمة الرهيفة في الحجر، وفتنتنا أدوات الحياة التي يختلط فيها الجمال بالنفع، حيث الجرار تتشكل في صور حيوانات وطيور، والنصال تزهو بروعة الزخرفة والتماثيل تُسجِّل بدفء القلب البشري سعي الإنسان في بيئة الجبال الوعرة.

وخارج بوابة المتحف حيث كان النسيم الشتوي باردا ومنعشا، كانت أنقرة هناك، تلالا للقديم والجديد وسط هضبة الأناضول التي ترتفع ١٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. إطلالة على عالمين يبدوان مختلفين في تركيا، عالم الساحل الغربي الذي تمثله اسطنبول وعالم الهضبة الآسيوية التي كنا نقف في مركزها. وحانت مني التفاتة مندهشة إلى مرشدتنا في أنقرة، لقد قالت إن اسمها «أويسال»، فسألتها عن معنى الاسم، ولما شرحت لي عرفت أن هذا الاسم هو بالعربية «وصال».

طوفت البصر بالأرجاء الرحيبة في أنقرة، وكنت أطالع في خاطري تركيا التي رأينا فيها الكثير ولم نر الأكثر، لوحة فسيفساء تتجاور وحداتها الزمانية والمكانية، لكنها لا تبدو منفصلة، قلت مفكرا بصوت مسموع: إنه «وصال». فظنت مرافقتنا أنني أناديها، لكنني كنت أنادي سر لوحة الموزاييك التركية الفاتنة.

الصين

أنشودة الإبداع والبساطة

ما الذي يجمع بين سور الصين العظيم في امتداده المثابر، وميدان «تيان آنمين» الذي يسع مليونا من البشر، واللوحات المرسومة بدقة داخل زجاجات ضيقة الأعناق، وتدفق ملايين الدراجات في شوارع بكين، والرسم بألوان الماء على الحرير، وفلسفة كونفشيوس، وسياسة الباب المفتوح، والسمك بالعسل، والشاي بالياسمين، ورياضة الكونغ فو؟.. لابد أن هناك روحا لذلك الشعب تجري في ذلك كله، صانعة أنشودة تتردد أصداؤها عبر الزمان والمكان.. فهل نبحث عن نشيد الروح في روعة الأثر ومسعى البشر؟ لنمض في الطريق الصينية إذن، من بكين إلى شنغهاي.. ونرهف كل الحواس.

«أنا من مدينة صغيرة
ليست كالمدن الكبيرة
مدن الضوضاء والغرور
مدينة صغيرة فسيحة القلب»

صباح صيني مبكر، في بهو فندق السلام ببكين، وصوت المغنية «تن بي تشن» يغرد. والغناء الصيني قبل موجات «الروك» و«الديسكو» الزاحفة كان غناء جميلا، حنونا وبه رنين صاف، كأنه تكسر الصدى بين جبال تيريان البنفسجية التي رأينا سور الصين العظيم يرقى ذراها بلا كلل، أو خفق مياه خليج «يانجتسي» حول أحد زوارق «الشانج» المفرودة أشرعتها كجناح الطير والتي ركبناها فيما بعد في شنغهاي.

«تن بي تشن» النجمة الجميلة كفت عن احتراف الغناء الآن، وهي في ذروة شبابها

ومجدها. لماذا؟ سألت. فأخبرني أحد العاملين بالفندق أنها: تزوجت. تزوجت؟! تعجبت من سبب كهذا يدعو نجمة غناء للاعتزال. وعرفت أنها «تفرغت لبيتها» لكنها تغني أحيانا متطوعة لجمع التبرعات للمنكوبين سواء كانوا في الصين أو خارجها. ضحايا زلزال أو فيضان أو حريق.

لا أعرف لماذا رأيت في ذلك السلوك الشخصي، لتلك المغنية رقيقة الوجه والصوت، اتساقا مع معطيات روحية وثقافية صينية تبدو بعيدة، في فلسفة الطاوية التي اتخذ منها الصينيون دينا منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى حرمها الإمبراطور كوبلاي خان حفيد جنكيز خان، وتقول بأن الكائن ذاتية محضة ومن يطعها ينعتق باتجاه الطاو (الطريق، والقوة القصوى)، وفي معتقدات تقديس الأسلاف التي نشأت في عصر البرونز وعصر شانج وما زالت سارية في حنايا الصين المعاصرة ـ رغم كل شيء ـ وفيها تقدس المرأة ـ متى تزوجت ـ جد زوجها. وفي البوذية ـ ديانة الصينيين السائدة ـ التي توصي بالزهد والتنوير، وفي قانون كونفشيوس الأخلاقي الذي حاربته «الثورة الثقافية» ولم تقدر على اقتلاعه ويقول ضمن وصاياه «إذا قام البيت على أساس سليم أمن العالم وسلم» وكان يعني بذلك احترام التراتب العائلي والحياة الأسرية.

هل أسرفت في التأويل لفرط انفعالي ببساطة الغناء وصفائه في ذلك الصباح الصيني الباكر؟، هل جنحت بي الموسيقى المليئة بالإشراق الذي لا كآبة فيه والذي تشع به آلة «الارهيو» الصينية ذات الوترين، ومجموعات الفلوت الصيني (الدانجزياو والديزي).. ربما!

في ذلك الصباح الانفعالي، راق للنفس أن توغل في شرايين بكين على ظهر دراجة. وتأجير الدراجات متاح في كل مكان، ابتداء من فنادق النجوم الخمسة وحتى أزقة الأحياء الشعبية.

والدراجات أنواع: عادية، ومتعددة السرعات. وإيجار الواحدة من النوع المتوسط، في الفندق، يصل إلى ٢٥ (يوانا) لليوم الكامل، أي ما يعادل ثلاثة دولارات.

بكين.. على ظهر دراجة

إن قيادتك لدراجة في شوارع بكين، وسط فيض الدراجات، وسيلة للانتقال وللرؤية، ولإبطاء مروق الصور أمام ناظريك لو كنت وراء زجاج باص سياحي أو سيارة ضيافة. إنها وسيلة للاقتراب. ومن ثم، تقبل عليك بهدوء وحميمية لحد ارتواء البصر: الحدائق التي يتشمس فيها كبار السن الذين لم يغير معظمهم سترات الزمن الماوي الزرقاء والرمادية ذات الياقات العائدة إلى (موديل) صن يات سن، والأطفال في ملابسهم الملونة، ولاعبو ملاكمة الظلال البطيئة «تاي شي»، والمعابد البوذية الملونة ذات السقوف الجمالونية صينية الطرز، والأبنية الحديثة بارتفاعاتها الشاهقة، ومطاعم الأرصفة القماشية المتنقلة التي يتم تركيبها في لحظات وتمتد مئات الأمتار ويلتم عليها آلاف الآكلين، ثم تتلاشى بعد ذلك في لحظات، ومحال التدليك التي ترى عبر أبوابها المشرعة الزبائن أشباه عراة بين أيدي المدلكين المهرة. وحلاقو الأرصفة. ستذكرك اللافتات وزينات الورق الملونة، وملامح الناس بأنك حقا في الصين، في قلب تيار الحياة داخل شوارعها، وستلفت انتباهك حركة الهدم والبناء التي توشك أن تكون نسفا للبيوت القديمة وولعا بإقامة عمائر شاهقة مكانها. لا مبالغة إذا قلنا إن كل شارع في بكين يشهد حركة للهدم وللبناء لا تهدأ، ليلا ونهارا، فالأيدي العاملة متوافرة والعمل في أضواء الكشافات ممكن، والاستثمارات تتدفق بجنون في اتجاه العاصمة. ولسوف يمكنك التوقف لتتبين الإيقاع المجنون لأجهزة الكمبيوتر والفاكس ونداءات الهواتف النقالة والسيارات الفارهة التي تمرق حاملة رجال الأعمال الجدد. والتجارة تشتعل نشاطا داخل المحال الكبيرة وتفيض على الأرصفة: ملابس وكهربائيات وأطعمة ولعب أطفال وأدوات زينة. وأناقة الأجيال الجديدة من النساء الجميلات تخطف البصر. لابد أن بكين تتغير، ومطاعم كنتاكي ومكدونالدز وماركات شانيل وبيير كاردان وكوكا كولا تؤكد ذلك، لكن نهر الدراجات الذي ألقيت بنفسك فيه لا يكف عن الجريان. وكل ما تحتاجه في هذا النهر، حتى تمضي سالما، هو أن تظل يداك على المقود، وأن تطيع إشارات المرور نفسها التي تطيعها السيارات فتنطلق مع الضوء الأخضر وتتوقف أمام الأحمر. والزم دائما أقصى اليمين حيث الطريق المخصص للدراجات في الشوارع الكبرى. ولا تخش من حدوث الأعطال. فقط، توقف في مكانك ولا تتحرك، عندئذ سيخف لنجدتك سائق دراجة مجاورة مخرجا صندوق (العدة)

الصغير. وإن لم يف بالغرض فستقودك الإشارات والإيماءات إلى أقرب (عجلاتي). كل ما تحتاجه هو أن تقول «دوه شيوه شيين» أي: كم يكلف هذا، ولا داعي لمعرفة أية كلمات صينية أخرى، فالصينيون لديهم نظام إشاري عريق وبسيط. وتكفي دقيقة واحدة لتتعلم هذا النظام. ولقد تأكدت أن الإطار الداخلي للدراجة لا يكلف أكثر من خمسة عشر يوانا (أي دولارا ونصف) مع أجرة التركيب، والخارجي والداخلي معا يكلّفان ٣٦ يوانا أي أربعة دولارات. ولا تدفع أكثر من ذلك.

في نهر الدراجات ستكتشف يقينا مدى اتزان الإنسان الصيني، المرح بلا صخب أو الحزين بلا اكتئاب، وستكتشف الزهد الذي قد يكون بوذيا أو اشتراكيا، وتكتشف تزاوج الإبداع والبساطة. فالدراجة تحولت في شوارع بكين إلى قناعة ووسيلة متعددة الأغراض، فعلى مقودها سلة معدنية للتسوق، وعلى رفرفها الخلفي كرسي إضافي للزوجة أو الطفل، ويمكن أن تتحول إلى قاطرة تشد عربة خفيفة لنقل خشب التدفئة أو الخضار أو الصحف، بل إن الحيوانات يمكن نقلها على المقعد الخلفي بعد لف الحيوان (ممددا) في حصير وربط الحصير فوق المقعد. وأكثر المناظر التي يمكن رؤيتها طرافة وسط نهر الدراجات في بكين، هو منظر دراجة تجر دراجة أخرى لتخرجها من مأزق في زحام الطريق!!

لكن مأزق الدراجات المستقبلي يبدو أعقد من ذلك بكثير، فالانفتاح الصيني، وما يسمى باقتصاديات السوق الاشتراكية الذي في ظني ـ وبعد مناقشتي الطويلة لمسئول لجنة التطوير الاقتصادي الحكومية ـ لا يعدو كونه اقتصادا للسوق الرأسمالية وإن خضع لبعض من النوايا الطيبة لرقابة السلطة الاشتراكية. هل تطيق هذه السوق صبرا على الرفيف الوادع للدراجات الهوائية. وكم عدد هذه الدراجات، وعدد ما يحدق بها من منافسي الطريق؟! أسئلة خطرت لي، ولم أكن أتوقع أن يأتي للإجابة عنها مسئول صيني كبير.

لقد رتبت لنا الجريدة الاقتصادية اليومية ـ ثاني أكبر الصحف الصينية ـ موعدا مع نائب رئيس حكومة العاصمة بكين، وكان مكان اللقاء هو مبنى الحكومة، لكنهم قبل الموعد اعتذروا بسبب انعقاد مؤتمر طارئ ورأينا أن نضع بدلا من الموعد

زيارة لمقر الجريدة الاقتصادية، وبينما كنا في غرفة الزوار نحتسي الشاي الساخن بالياسمين سمعنا همسات جادة ولاحظنا حركة نشطة، وأخبرونا أن نائب رئيس الحكومة وجد ساعة في برنامجه قبيل انعقاد المؤتمر وساءه ألا يقابلنا كما كان مقررا، لهذا سيأتي بنفسه ليتحدث معنا. وفوجئنا بالمسئول الشاب الذي رأيناه في التليفزيون بالأمس يتحدث عن بيئة العاصمة يهل علينا. «شن باو شانج» طلعة مضيئة وتواضع لا تصنُّع فيه وأناقة معتدلة كقوامه الشاب، حدثنا باستفاضة عن بكين الهائلة التي تتهيأ للمستقبل، بسكانها الثابتين (١١ مليونا) والمتحركين (مليون ونصف) إضافة لزوارها من السياح البالغ عددهم مليونين من كل بقاع الدنيا كل سنة. حدثنا عن جامعات بكين الثماني والستين. وخريجيها الأربعين ألفا كل سنة. حدثنا عن حلقات الطرق الدائرية الثالثة والرابعة الجاري إنشاؤها. وخطوط المترو الستة الجديدة التي سيمر بعضها تحت ميدان «تيان آنمن»، والمحطات العملاقة لإعادة معالجة مياه الصرف، وإخراج المصانع الملوثة للبيئة من رحاب المدينة. وتلقى ملاحظتنا عن تنافر الطراز المعماري الغربي الحديث مع الطراز الصيني بترحاب وموافقة وأطلعنا على قرار حديث لمعالجة هذا التلوث المعماري بتصميمات حديثة تحافظ على الطابع الصيني. وعندما تطرقنا إلى سؤال الدراجات أخبرنا أن عددها في بكين وحدها يبلغ ٨ ملايين دراجة. وعرفنا أن هناك زيادة في عدد سيارات التاكسي بلغت سبعين ألفا دفعة واحدة وهي من ماركة فولكس فاجن التي تصنعها الصين الآن. أما الدراجات النارية فهي ممنوعة إلا لتوزيع البريد. بينما الشاحنات يُضيَّق على دخولها المدينة فيسمح لحاملة الأرقام الفردية منها بالدخول في فترة والأرقام الزوجية في فترة أخرى.

كان المسئول الصيني الكبير الشاب واضحا وبسيطا وكانت أحلامه لبكين المستقبل مضيئة وملونة، لكن قلبي ظل يخفق قلقا على مستقبل الدراجات البعيد.. هل تصمد هذه الوسيلة البسيطة والمبدعة أمام طوفان السرعة القادمة في الغد؟

إنه سؤال خاص، وإنساني عام، ولن يجيب عنه إلا المستقبل.

بعد مرورنا في طابور طويل أمام جهاز الكشف عن الأسلحة، وبعد مصادرة كل ما يمكن أن يستخدم في حفر أو خدش الجدران والأفاريز والأبواب، صعدنا على درج رخامي عال إلى منصة بوابة السلام السماوي، وهي البناية الشهيرة التي تعلو مدخل «المدينة المحرمة» مواجهة بلونها القرمزي وسقوفها الجمالونية المتعاقبة ميدان «السلام السماوي»، وبعد أن مررنا بالبهو الكبير ورأينا القاعة التي يجلس فيها أعضاء الحكومة الصينية في المناسبات المهمة، خرجنا إلى الشرفة الهائلة المثقلة بالزهور. وفي موقع يحرسه جنديان وقفنا حيث كان يقف ماو تسي تونغ عندما يخطب في الجماهير في المناسبات الحاشدة. ولقد كنا في هذا الموقع لا نستعيد فقط فترة من تاريخ الأمة الصينية، بل كنا نطل على معظم هذا التاريخ فأمامنا كان ميدان تيان آنمين بكل إيحاءات الماضي القريب والبعيد والحاضر واللحظة، وخلفنا كانت المدينة المحرمة والقصر الإمبراطوري. أما المنصة التي كنا نقف عليها ضمن حشود الزوار وأمواجهم المتحركة فإنها كانت الماضي والحاضر وربما المستقبل أيضا. فهذه البوابة توغل بعمرها خمسة قرون أمضتها في ظل الحكم الإمبراطوري. وهي ملتقى السلطات الصينية منذ ذلك التاريخ وحتى الآن. ولعلها تكون أحد الأبنية التاريخية التي لا يوجد مثيل لها من حيث الارتباط بالسياسة والارتباط بقلب العاصمة الممثلة لقلب الأمة الصينية. فمخطط المكان مرسوم على محور يمتد من الشمال إلى الجنوب في مركز بكين. ولقد كان بإمكاننا أن نطل في الخلف على تعاقب السقوف القرمزية التسعمائة وتسعة وتسعين لأبنية المدينة المحرمة ممتدة حتى الأفق وحتى برج الأجراس، وأمامنا كان الميدان الشهير.

إن تاريخ الصين بأسره يمكن أن يحكيه هذا المكان لو تكلم، ولقد تكلم، ففي داخل المدينة المحرمة يمكن للزائر أن يحصل على جهاز تسجيل خاص بسماعة (هيد فون) يحكي له مع كل خطوة أسرار البنايات وتاريخها، ويتم تسليم هذا الجهاز عند بوابة الخروج.

نمضي ونجول بين أبنية المدينة المحرمة والميدان، بين الماضي والحاضر، ونصغي للصوت الذي يروي لنا:

في القرن الخامس عشر عندما ظهرت أول أعراض الرأسمالية في أوربا وبدأت التطلعات الاقتصادية الأوربية تتجاوز الحدود. في ذلك الوقت كان الإمبراطور «جودي» الحاكم الثالث في مملكة مينج (١٣٦٨ ـ ١٦٢٤) قد بدأ في تجديد السور بقرب بكين حتى يحمي ملكه. وبدأ في الوقت نفسه إنشاء المدينة المحرمة التي كانت مجموعة من القصور الإمبراطورية رائعة التشييد. أما «تيان آنمين» ـ المدخل الرئيسي للمدينة المحرمة فقد كانت معروفة باسم (شنج تيان مين) أو (بوابة استقبال أوامر السماء) وكانت عبارة عن قوس خشبي هائل. وفي عهد مينج وفينج (١٦٤٤ ـ ١٩١١) كانت الاحتفالات العظيمة والفرمانات ومراسم الأعراس الإمبراطورية والاستعراضات العسكرية تجري في أو على مرأى من «تيان آنمين». لقد استمر عهد مينج حوالي ثلاثة قرون انتهت بثورة الفلاحين التي قادها «لي زيشنج» الذي اضطر آخر أباطرة أسرة مينج إلى الهروب من المدينة المحرمة وشنق نفسه في شجرة صينية عند قمة جنجشان الواقعة خلف القصر الإمبراطوري. ولقد ذاقت «تيان آنمين» نار الحريق مرتين وأعيد بناؤها عام ١٦٥١ واكتسبت اسمها الحالي، وقد شيدت أعلى وأفخم من أي مدخل آخر للمدينة المحرمة من طابوق وردي على قاعدة من رخام. وكان يمر أمام المنصة جدول يسمى نهر المياه الذهبية الخارجي تقوم عليه خمسة جسور من المرمر تواجه المداخل الخمسة تحت المنصة وما زالت كلها موجودة. وتحيط بجانبي البوابة أسود حجرية وأعمدة من المرمر. وفي كتابه «الرحلات» وصف «ماركوبولو» الصين بأنها «البلد الذي تجد فيه الذهب والتوابل في كل مكان»، ولقد كشف الكتاب للأوربيين عن الصين وبدأ تدفق التجار الأوربيين، وفي عامي حرب الأفيون ١٨٤٠ ـ ١٨٤٢، اقتحم البريطانيون أبواب الصين بالقوة مستخدمين البارود الذي كان اكتشافا صينيا وفي مدى المائة سنة التالية حدث الكثير أمام بوابة تيان آنمين، وفي أغسطس ١٩٠٠ غزت جيوش الحلفاء المكونة من ثماني دول بينها إنجلترا وأمريكا بكين وصار ميدان تيان آنمين معسكرا لقوات الغزاة. وما زالت أعمدة المرمر تحمل آثار طلقاتهم. وفي يناير ١٩١٩ عقد المنتصرون في الحرب العالمية الأولى مؤتمر السلام في باريس وأخضعت الصين للسيطرة اليابانية ولقد لاقى هذا رفضا واسعا لدى الصينيين. وفي ٤ مايو ١٩١٩ تجمع آلاف من الطلاب الصينيين

مخترقين حواجز الشرطة وتظاهروا في ميدان تيان آنمين ولقد سميت هذه التظاهرة «حركة ٤ مايو». وفي عام ١٩٣٥ احتلت اليابان ثلاث مقاطعات من شمالي شرقي الصين. وفي أثناء الزحف الطويل للجيش الأحمر تجمع الطلاب في الميدان مطالبين الحكومة في ٩ ديسمبر بوقف الحرب الأهلية والتصدي لليابانيين ورغم قمع المظاهرة إلا أن هذه كانت مفترقا مهما في تاريخ «الصين السياسي». وفي أول أكتوبر ١٩٤٩ تجمع سكان بكين للاحتفال بإعلان قيام جمهورية الصين الشعبية وقام ماو تسي تونغ برفع العلم الأحمر خماسي النجوم. ومن ثم كان الميدان يمثل الصين وسياستها:

في جانبه الشرقي متحف التاريخ الصيني وفي جانبه الغربي قاعة الشعب العظمى حيث تعقد الاجتماعات المهمة وتصنع السياسة الصينية ويرقد جثمان ماو تسي تونغ. وخلال عشر سنوات عاصفة، ظل الميدان مكانا يتجمع فيه الناس للتعبير عن أفراحهم وأتراحهم. في ٥ أبريل ١٩٧٦ أثناء احتفالات كنج مينج التقليدية لتقديس أرواح الموتى تجمع الناس لتحية روح شو إن لاي الذي كان مؤيدا لدينج زياو بنج الذي نفي في الثورة الثقافية ولقد كانت هذه بداية التغيير الذي هز الصين لمراجعة سياسة الحزب التقليدية. وفي ٢٤ أكتوبر ١٩٧٦ تجمع آلاف الصينيين ليؤيدوا سقوط عصابة الأربعة معلنين نهاية السنوات العشر من عمر الثورة الثقافية. ومنذ نهاية السبعينيات والصين تتبع سياسة «الباب المفتوح» والإصلاح الاقتصادي.

ولقد ظلت منصة تيان آنمين ممنوعة على الجمهور حتى عام ١٩٨٧ ثم فُتحت للسياحة في أول يناير ١٩٨٨ وتجمع آلاف الصينيين لمشاهدة هذا الحدث الذي كان بطلاه فلاحا صينيا هو «جاو زيو» وزائرا أمريكيا هو «ريتشارد كارتر».

أما آخر أحداث تيان آنمين الشهيرة فهو أحداث الطلبة عام ١٩٨٩ والتي ازدهرت في أعقاب زيارة جورباتشوف للصين، وكانوا في الغرب يتصورون أنها ستتطور إلى ما يشبه تراجيديا الانهيار في أوربا الشرقية، لكن جورباتشوف كان أصغر من الصين بكثير، والدعاية الغربية كانت أكبر من الحقيقة بكثير، وقدرة الصين على التوازن لم يحسب الخصوم حسابها بدقة. وتحولت الأحداث التي وصفت في الغرب بأنها «مذبحة الديمقراطية» إلى مجرد ذكرى يمثلها مجموعة أفراد عاصرنا الإفراج عن

بعضهم في وقت زيارتنا وكان الشارع الصيني في إيقاعه الجديد ـ المنفتح ـ يكاد لا يذكرهم.

لقد كان التاريخ الصيني المعاصر كله أمام أبصارنا في ميدان واحد، يصنع لمحة أخرى من لمحات الخصوصية الصينية التي أظن أنها حمت الصين من انهيار كارثي مماثل لانهيار الاتحاد السوفييتي. وبغض النظر عما يمكن أن يحمله المستقبل من تغيرات فإن الانهيار الدراماتيكي الذي حدث في شرق أوربا غير قابل للحدوث في الصين. الصين التي تحترم ماضيها وتقدس أسلافها. فرغم إدانة النظام الجديد لأحداث «الثورة الثقافية» التي باركها ماو إلا أن صورته ما زالت مرفوعة على صدر بوابة «تيان آنمين»، وضريحه تحرسه الزهور والشموع في قاعة الشعب.

وكان المشهد الختامي لإطلالنا على المكان والزمان في ساحة ميدان السلام السماوي احتفاليا مدهشا. فمن تحت البوابة القرمزية ظهرت فرقة الحرس لتحية العلم الأحمر ذي النجوم الخمسة، قاطعة شارع السلام العريض، ثم داخلة الميدان، في إيقاع صيني دقيق، ميزانه ١٠٨ خطوات في كل دقيقة، وكل خطوة طولها ٧٥ سنتيمترا.. بالضبط!

موائد صينية

كنا على موعد مع الطعام الصيني في مطعم «الاستماع للصفير» في قلب «قصر الصيف». فكأنما كنا نتهيأ للطعام بمقدمات من صنوف الإبداع الصيني القديم والجديد لنتذوق فلسفة هذا الطعام مع طيب مذاقه ونمنمة تقديمه وتناوله. ففي الطريق رأينا بيوت الفلاحين في القرى الواقعة عند أطراف بكين، صغيرة ومتواضعة، كأنما لتبرز جبروت أسوار القصر القريب. وعند ما كنا ندور لندخل القصر من بوابته الشمالية لفتت نظري مساحات واسعة مربعة ومستطيلة الشكل تغمرها المياه. ولقد أدركت أن هذه المساحات المائية هي التي لفتت نظري وأثارت تساؤلي ونحن نحلق بالطائرة قبل الهبوط في بكين. ظننت وقتها أنها حقول للأرز مغمورة بالمياه في مرحلة الشتلات، لكن الوقت لم يكن وقت «شتل الأرز». واستبعدت أن تكون حمامات سباحة بالطبع

أو أحواضا لتخزين المياه لكثرتها اللافتة والتي تعتبر ملمحا جويا لم أر مثله في أي بلد طرنا في سمائه من قبل. وشرح مرافقنا جوانج: إن هذه أحواض لتربية الأسماك، فبكين البعيدة عن البحر والتي حرمت من الأنهار الطبيعية، عوضت نفسها بنفسها إذ شقت عدة أنهار صناعية مبطنة الضفاف على أطراف المدينة، وأنشأت أحواضا عملاقة لتربية الأسماك توشك أن تكون بحيرات كاملة، وحتى يمارس هواة الصيد ما يرغبون فيه، فإنه يسمح لهم بالتصيد من هذه الأحواض مقابل رسم معين يدفعونه، ولقد كان هذا الحل الصيني، الشعبي، الحديث، يجد معادله الموضوعي، القديم، والإمبراطوري والراجع إلى القرن الثامن عشر في «قصر الصيف» الذي عبرنا بوابته الشمالية، فالقصر الذي يتكون من سلسلة من البنايات الإمبراطورية وسط الحدائق يمتد على ضفاف بحيرة هائلة تسمى بحيرة «كيو نمنج» حفرها مائة ألف إنسان بالإضافة لفيالق كاملة من أفراد البحرية الإمبراطورية. ومن الطريف أن أبنية هذا القصر أعيد بناؤها مجددا عام ١٨٨٨ بأمر من الإمبراطورة «دو سيسي» مستخدمة في ذلك ما كان مرصودا في الميزانية الإمبراطورية لبناء سلاح بحري حديث. إن تصرف «دو سيسي» يوصف الآن بالحماقة، لكن ترى ماذا كان يبقى من «السلاح البحري الحديث» مقارنة مع ما بقي من عمارة مذهلة الجمال وحدائق تغني فيها الروح وبحيرة تسرح فيها الأبصار رضية وتجوبها زوارق العشاق الملونة ويمرح فيها الأطفال في زوارق أخرى بلون البرتقال والشفق وعلى هيئة تنانين ضاحكة. صحيح أن الإمبراطورة، كامرأة، شطحت في الأبهة كثيرا إذ بنت سفينة من الرخام تسمى «القارب الحجري» عند طرف البحيرة ووضعت عند أركان البحيرة مرايا عملاقة تملأ البحيرة والأرجاء بالألق. إلا أنها لم تهمل صالة العرش، وقاعة العمر المديد. والأبراج التي دمرتها القوات الأنجلو فرنسية وأعيد ترميمها، ومعبدبحر الحكمة البوذي. ولعل الشيء الذي سيظل الحاضر مدينا فيه للماضي، لهوس المرأة الإمبراطورة، هو ذلك «الممر الطويل» على الضفة الشمالية للبحيرة، إذ إن السقف الخشبي الملون لهذا الممر الرخامي الممتد ٧٠٠ متر، تحكي رسومه الملونة كل حكايات الصين الخرافية وحواديت الأجداد، وما زال الكبار يأخذون بأيادي الصغار، آباء وأبناء، أو تلاميذ ومعلمين ومعلمات، وتراهم في «الممر الطويل» ماضين على مهل ووجوههم شطر السقف الملون. يتأملون الرسوم

ويسمعون الحكايات التي تمثلها. ألا تستحق حماقة «دو سيسي» المسرفة بعضا من الامتنان؟ بلى. وإننا لنرسل إليها ببعض من امتناننا إذ تمتعت أبصارنا بجمال البحيرة والحدائق وعبقرية العمارة وبهجة الألوان. ثم إن امتناننا بلغ ذروته، عندما وصلنا أخيرا إلى مطعم «بتيخليجوان» الذي يرتفع فوق أحد التلال وسط الأشجار الإمبراطورية.

وللطعام فلسفة

صعدنا درجا من رخام نحو بوابة تتدلى من عارضتها القناديل الملونة وتحيط بها الصبايا الرافلات في ثياب الزمن الإمبراطوري البعيد الملون. ثم كان الضوء الهادئ ينير المكان العتيق بموائده الخشبية الواسعة و(البرفانات) الصينية المنقوشة والقناديل ولوحات الرسوم المائية على الحرير والمزهريات الخزفية. وكانت هناك على المائدة المستديرة عصي الطعام الخشبية، كل عصاوين تحملهما قنطرة منمنمة من الخزف الملون. وبدأ مجيء الأطباق.

الطعام الصيني حكاية لم أشبع منها طوال الأيام الاثني عشر التي قضيناها في الصين، وفلسفة أحاول العثور على ملامحها من بين ثنايا الحكاية.

ولقد حاول مرافقنا أن يفسر لي سبب التنوع المدهش لأطباق المطعم الصيني، فقال إن الصين في كل عصورها كانت كثيرة السكان ومن ثم ظل الطعام هاجسا ملحا، وصنع ذلك فيضا من الحيل والإبداعات للاستفادة بكل ما هو متاح». نعم، كل ما هو متاح، حتى أن هناك مزحة تقول إن الصينيين يأكلون كل ما يمشي على الأرض باستثناء العربات وكل ما يطير باستثناء الطائرات وكل ما يعوم باستثناء السفن!. وقد يكون في المزحة بعض الحقيقة. المائدة الصينية عامرة بالمدهشات، أعشاب وفطر ولحوم وتوابل. ولقد أكلنا في أحد مطاعم الحي الصيني القديم في شنغهاي وجبة مريبة لأننا رأينا عند المدخل صندوقين زجاجيين بأحدهما ضفادع خضراء اللون وبالآخر نوع من الأفاعي المرقشة، ورغم أن أننا تلقينا تأكيدا بأن ما نأكله ليس ضفادع أو ثعابين إلا أننا مكثنا مرتابين ولاحظنا أن الطعام كان شهيا. والمطعم الصيني طيب المذاق رغم مفاجآته، فهناك البيض الأسود الذي يسودون بياضه بطريقة ما لكنه لذيذ، وأيضا السمك المنقوع في العسل والخل قبل

وضعه في الفرن، وشرائح الأحشاء الشفافة المتبلة، والأعشاب المسلوقة بالبخار، والخبز المحشو بالخضر والمطهو بالبخار أيضا، تحسبه كريات من العجين الأبيض لكن مذاقه لا ينسى، ثم هذه السمكة المغطاة بأوراق الغار والتوابل التي يتم إنضاجها أمامك في وعاء للبخار وعلى موقد وسط المائدة، وبطريقة تشبه السحر تأتي فتاة المطعم الصينية وبضربتين رشيقتين من سكين صغير عند الذيل وتحت الرأس تخرج لك كل عظام السمكة دفعة واحدة ليبقى أشهى لحم سمك مسلوق يمكن أن تتذوقه. أما «بطة بكين» الشهيرة فهي سلسلة من الطقوس. فالطاهي يأتي إليك أولا بالبطة لتعاينها قبل طهوها، ثم تتبل وتوضع في الفرن معلقة بحيث يطالها الوهج والدخان دون أن تلمسها النار وهي تؤكل في شرائح وبطريقة معينة.. شريحة من البط مع شريحة من الخيار الأخضر وقليل من «صلصة» خضراء من الأعشاب والثوم والخل.. كل هذا في رقيقة مدورة من الخبز الخفيف جدا وتؤكل (كساندوتش) صغير. وحكاية دجاجة الشحاذ واحدة أخرى من ذخائر المطعم الصيني، إذ يتم إعدادها بعد تتبيلها وتغطيتها بالطين ثم تدخل الفرن وتخرج ناضجة في قالب الطين الذي تحول إلى فخار تقشره وتأكل شاكرا فضل الشحاذ الذي اكتشف هذه الطريقة عندما سرق دجاجة ووضعها في النار ثم عندما أحس باقتراب عساكر الإمبراطور أسرع إلى تغطية الدجاجة بالتراب ورش المكان بالماء لكن الدخان كشف خبيئته التي أخرجها العسكر وأكلوا منها فسحرهم طعم دجاجة الشحاذ. وسحرنا أيضا عندما تذوقنا شيئا منها في «مطعم الصفير» في «قصر الصيف».

لقد لاحظت شيئا جوهريا لعله يشير إلى فلسفة الطعام عند الصينيين، فالأطباق عديدة وصغيرة وتوضع على مائدة دوارة يحركها الجالسون فتمر الأطباق على الجميع ليأخذ من يشاء ما يشاء، وكل شيء قابل للالتهام دون ترك بقايا، ولا توجد قطع ضخمة، بل منمنمات يتم التقاطها بالعصي. ولقد فشلت في استخدام العصي وإن كنت قد اكتشفت قانونها الذي يتمثل في تثبيت العصا السفلى وتحريك العليا متقاطعة معها كأنها طرف ملقط يمسك بقطع الطعام. ورغم فشلي فإنني أشهد أن الأكل بالعصي الصينية ربما يكون أكثر صحة من الأكل بالملاعق فالملعقة تدخل الفم وتخرج وتدخل أما العصي فإنها لا تفعل ذلك، كما أنها تهذب الكمية التي يتم دفعها إلى الفم. أما الحساء فإن له آنية خاصة وملعقة من الخزف عالية الحواف لا تدخل الفم أيضا.

إنها مائدة شعب كبير، وتراث ضخم، وفلسفة ابتهاج بالجميل القليل، وتواضع أرواح لا تستعلي على خيرات الأرض جميعا، وتحترم النعمة فلا تلقي بأي جزء منها في صفائح القمامة، لأنها عبر تاريخها وكثرتها الكاثرة أدركت أن الإسراف سفه، وربما خطأ روحي.. وتاريخي أيضا.

العائدة إلى البحر.. أي بحر؟

«عدد السكان ١٣,٥ مليون. المساحة ٦٣٤١ كيلو مترا مربعا. تنتج ١/ ١٦ من مجمل الإنتاج الصناعي الصيني. عدد الشركات ٤٠,٠٠٠ شركة، العاملون فيها ٣,٤ مليون إنسان، الإنتاج ٣٢٧,٢ مليار يوان».

هكذا كانت تترى الأرقام عن شنغهاي على لسان «لو بو وانج» أحد مسئولي لجنة الاقتصاد لكنني لم أكن مع الأرقام تماما، فلم تستوقفني إلا بعضها مثل أن شنغهاي تصدر سنويا ما قيمته ٧,٤ مليار دولار وتستورد ما قيمته ٣,٦ مليار دولار. وصناعة التكنولوجيا العالية والسيارات والكمبيوتر قفزت ٥٠٪ هذا العام. و١٢٠٠ شركة تملك حق التجارة الخارجية دون تدخل حكومي. هذه إذن شنغهاي التي يسمونها «رأس التنين» الزاحف لتبوؤ مركز المال والتجارة الأول في العالم في القرن القادم.

كنت أتابع الأرقام متابعة الحالم لضوضاء اليقظة. فقد كان ميناء شنغهاي يبدو وراء النافذة، والسفن تروح وتجيء في حوض نهر «هوانجبو» الذي يلتقي بعد قليل مع مصب نهر «يانجتسي» في البحر الأصفر المفتوح على المحيط الباسفيكي. ورأيت عبر الزمان مدافع الإمبراطورية البريطانية تضرب المدينة الصينية بالبارود الذي اكتشفه الصينيون، والسبب أن التجار الأوربيين تفتق ذهنهم الشيطاني عن حيلة جهنمية، فبعد أن كانوا يدفعون بالفضة ثمنا للتوابل والحرير والبارود والورق الصيني (إذ لم يكن لدى أوربا ما تقدمه) سربوا الأفيون إلى الصين حتى شاع إدمانه، ومن ثم راحوا يدفعون بالأفيون بدلا من الفضة، لكن الإمبراطور الصيني ـ بعد أن رأى دمار شعبه ـ حرم الأفيون، فقامت قيامة أوربا آنذاك، وتدخلت السفن الحربية البريطانية لتدك مدافعها شواطئ الصين، مهددة: إما العودة إلى الدفع بالأفيون، أو تعويض التجار الأوربيين ـ والإنجليز خاصة ـ عن أفيونهم

المكدس في مخازن كانتون وشنغهاي! إنها مدافع حرب الأفيون التي زعقت بالباطل في منتصف القرن التاسع عشر معلنة عن إحدى أحقر عمليات «البلطجة» الأوروبية لابتزاز الشرق، وأي شرق؟ الصين. وكان ثمن الأفيون الأوربي باهظا.. قهر العملاق الصيني وانتزاع هونج كونج بعقد إيجار مدته ٩٩ عاما. ومن خلف المدافع الإنجليزية جاءت حقوق الامتياز الأجنبية، للإنجليز، عام ١٨٤٢، ثم الفرنسيين عام ١٨٤٧، ثم الاستيطان الدولي عام ١٨٦٣، واليابان أخيرا عام ١٨٩٥. ولم يكف تدفق الأجانب على شنغهاي، ليمتلكوا فيها أعلى بنايات آسيا في ثلاثينيات هذا القرن، وأفخر دور السينما، والفنادق، والبارات، والسيارات، وأقوى بيوت المال. وما زالت بقايا الأحياء الأوربية ماثلة في المدينة تعطي لها طابعا مختلفا وتذكر بالمأساة والملهاة رغم أناقة بيوت الأوربيين وهو ما شعرت به وأنا أشاهد الڤيلّات الأنيقة والأبنية الكولونيالية الباقية. ومن مساخر الصور أن الفرنسيين كانوا يستخدمون الفيتناميين كعساكر للشرطة في «المدينة الفرنسية». بينما يستخدم الإنجليز الهنود السيخ في «المدينة الإنجليزية». لقد كانت هناك إمبراطوريات «الدم الأزرق» التجارية، ماركات جاردين وماتيسون وساسون الذين بدأوا نشاطهم بتجارة الأفيون. وكانت تنافسهم الشركات الأمريكية الناشئة ذات الطبيعة المغامرة والعدوانية والاستعداد للتجارة في أي شيء، ثم صنوف وألوان من التجار والمستثمرين والمغامرين الأوربيين. وكانت السفن الحربية الأجنبية تحرس كل هذا الجراد الأبيض. وفي مناخ كهذا قيل إن من لديه المال كان يستطيع شراء أي شيء في شنغهاي العشرينيات والثلاثينيات..: صالات الرقص، والقمار، ومستلزمات الأفيون، والمطاعم الفاخرة، وجيش قوامه ثلاثون ألف بغي من اللحم الصيني المهيض. أما وقود ذلك كله فكان جهد ٢٠٠,٠٠٠ من العمال الصينيين المهرة الذين يعملون في ظروف تشبه الاعتقال داخل مصانع شنغهاي التي كانت أكبر مدن آسيا الصناعية آنذاك. ولقد تذكرت وأنا أسرح البصر في مدى شنغهاي، صفحات شريفة كتبها الأديب الأمريكي إدجار سنو الذي زار شنغهاي، في أواخر العشرينيات من هذا القرن وفضح عمليات استعباد الأطفال الصينيين ـ بنين وبنات ـ في عمر ١٢ و١٣ سنة للعمل ـ خاصة في مصانع الحرير ـ وكيف أنه لم يكن مسموحا لهم بمغادرة أماكن إقامتهم داخل أسوار المصانع ليلا أو نهارا ولمدة ٤ أو ٥ سنوات كاملة.

تذكرت ذلك كله، فأعلنت ضجري من لغة الأرقام، وفضلت أن أقرأ لغة الحياة في الشوارع وكان الشارع الأفضل للقراءة هو شارع «نانجين» الذي يمنحه العارفون بالتجارة لقب «الميل الذهبي» ففيه تتكدس أشهر متاجر شنغهاي وتتدفق أمواج البشر. في شارع نانجين تحس فعلا أنك في الصين الشعبية، زحام هائل من البشر وحركة بيع وشراء لا تهدأ منذ الخامسة صباحا وحتى العاشرة ليلا واختناقات المرور في الشارع تبدو بلا نهاية رغم الجسور العلوية والمخارج والمداخل العديدة. ولقد لفتت أنظارنا براعة البيع رغم الزحام فالفتيات البائعات يرتدين نماذج مما يبعنه كأنهن يقمن بعرض أزياء مستمر والفواتير مملوءة ومختومة وكل شيء يتم بسرعة ورقة وابتسامة لا تنقطع. وفي هذه الأجواء تبدو قفزة الجمال والأناقة الصينية ملحوظة جدا. الشعب الصيني شعب جميل له جماله الخاص، أعواد معتدلة ووجوه فيها رقة ونمنمة ولطف.

من شارع نانجين ذهبنا إلى المدينة الصينية القديمة فكنا نخترق شوارع ضيقة تشبه شوارع مصر القديمة أو دمشق القديمة ولكن على الطريقة الصينية. محال الحرفيين ومطاعم المقليات السريعة والخبز المعمول بالبخار. ثم دلفنا إلى سوق مغطاة تسمى سوق حديقة الماندارين فكنا نمر عبر محال متواصلة يفضي كل منها إلى ما يليه تعرض الحرير والخزف ولعب الأطفال والمنسوجات والمراوح الملونة والأجهزة الكهربائية والمصنوعات اليدوية من الخشب والنحاس والفضة. ولأن هذه السوق يقدر زوارها بنحو ٢٠٠,٠٠٠ زائر يوميا فقد كان تيار الحركة ينقلنا من مكان إلى آخر ثم انتهى بنا المطاف أخيرا إلى حديقة الماندارين «يويوان». وهي حديقة استغرق تشييدها ١٨ عاما (من ١٥٧٧ إلى ١٥٥٩) لكنها دُمرت في أيام إذ أصابتها قذائف من حرب الأفيون عام ١٨٤٢ وأعيد ترميمها. والحديقة مُلحق بها معبد بوذي يسمى معبد آلهة المدينة «شنج هوانج مياو» وثمة بحيرة تُحدق به عليها جسر الرخام الزجزاجي المفضي إلى «قصر الشاي» المطل على البحيرة والحوانيت المائة في محيط المكان. كل ذلك كان يعطي لمحة عن تكامل الأزمنة وتناسج القديم والجديد واختلاط الروحي بالدنيوي في معزوفة صينية توشك أن تبلغ حد الكمال حيث لا يترك الصيني فضاء إلا وجمَّله.

ومن المدينة الصينية القديمة إلى شنغهاي الجديدة، أو «حي بادونج»، توجهنا فبدا لنا أننا نغادر زمنا لنواجه آخر.

سفراء.. عرب، وصينيون

ليلة مغادرتنا لبكين كنا على موعد مع الدبلوماسية العربية، التي ما زالت مستودعا زاخرا للعقول اللامعة ـ ثقافة ووعيا ورؤى ثاقبة ـ فليس يحيى حقي وعمر أبو ريشة وشاكر مصطفى وغازي القصيبي آخر نماذجها. وقد أقام الدبلوماسي والإنسان العربي الممتاز الأستاذ غازي الريس سفير الكويت في الصين حفل عشاء على شرف مجلة «العربي» حضرة السادة سفراء البحرين والإمارات العربية وسلطنة عمان وأعضاء السفارة الكويتية في بكين. وعلى العشاء كان السؤال الصيني هو الضيف البارز والمحتفى به من قبل كوكبة العقول العربية هذه، وقد كان حصاد الكلمات تعبيرا عن التعاطف مع معجزة بلد يستطيع إطعام البشرية كلها وجبة كاملة كل يوم ـ على حد تعبير السفير الكويتي ـ ما دام يطعم سكانه ثلاث وجبات يوميا وهم قرابة المليار وثلث. وكان ثمة إجماع على ضرورة الوجود العربي في الأفق الصيني، لأنه أفق مستقبلي بمعطيات تاريخ هذا الشعب ووقفاته الثابتة مع الحق العربي وإخلاصه الحضاري لقيم العمل والإبداع والإنسانية. وإذا كانت هذه هي رؤية الدبلوماسية العربية النيرة، فإن هناك دبلوماسية أخرى تستحق إيلاء النظرة فثمة صرخة ننقلها عن قسم اللغة العربية بجامعة شنغهاي ـ عميدا وأساتذة وطلابا ـ وهم بكل المعايير سفراء للثقافة العربية في الصين. ويصدرون على نفقتهم مجلة بالصينية تسمى «العالم العربي». إنهم يشكون الإهمال العربي، ومطالبهم تبدو ممكنة: بضعة برامج عربية للكمبيوتر، ومسابقات ثقافية يرعاها العرب، وزيارات ميدانية لساحات لغة الضاد.

الإمارات العربية المتحدة

«صير بني ياس».. جزيرة الحكمة

عندما يطمئن طائر الفلامنجو إلى المكان ويعود إلى التكاثر فيه لأول مرة بعد سبعين عاما، وعندما يذهب طائر البشاروش ويحضر صغاره للإقامة معه، وعندما تعود الحياة إلى غابات المنجروف التي كادت تندثر في مياه الخليج، فإن ذلك يعني تغيرا بيئيا هائلا وجميلا، ولا بد أن يكون هذا التغير الجميل الهائل نابعا من حكمه قلب حسن.. حكمة الاحتفاء بالحياة الفطرية وسط عالم كاد يفقد هذه الحكمة فأوشك أن يحكم على نفسه بالفناء. إنها رحلة تمضي على درب طويل أخضر، امتد بنا واقعًا وطيفا عبر الصحراء والبحر، ثم خلانا مفتونين على ظهر جزيرة يدعو تأملها إلى كل معاني الجمال.. والحكمة.

بعد أن تمت الرحلة، يتضح لي الآن، أن الطريق في جزيرة «صير بني ياس» ـ بالمغزى البيئي الذي نستهدفه ـ لا يبدأ من مطار «أبوظبي» فقط، أو من مرسى مراكب «الظنة» وحسب، أو حتى عند مرفأ الزورق الطائر بشاطئ العاصمة، بل يبدأ من سماء دولة الإمارات التي دخلنا في رحاب جزئها الغربي، عندما انعطفت بنا الطائرة الهيلوكبتر شمالا في اتجاه الساحل، فبدا كأننا نودع استوحاش محيط الرمال في صحراء الربع الخالي، وندخل في هالة من حوار متناغم بين اليابسة ومياه الخليج. فعندما قللت الطائرة من ارتفاعها لاحت كثبان الرمال موشاة بظلال السحب. لكن رقة الظلال لم تكن تمحو الإحساس بقساوة الصحراء. وعندما لامس البصر أطراف ساحل «أبوظبي» شهدت العين شيئا مختلفا. فثمة حوار بين البحر واليابسة. بين رمادية الرمل وفيروزية المياه. لكن هذا الحوار لم يكن يشبه أيًا من حوارات الماء والأرض التي تجلت لناظري وأنا أحلق من قبل في آفاق عديدة من أركان الدنيا. فلا تلك الاستدارات الناعمة الساكنة للبحيرات الطبيعية. ولا ذلك التعرج

الضائع للبحيرات الصناعية. لا جهامة الألسنة الممدودة قسرا لأرصفة الموانئ داخل البحار. ولا ذلك القطع القاسي لأحواض بناء السفن هنا وهناك. فالذي تراءى لعيني من ساحل أبوظبي يشبه غزلا عربيا حييا بين اليابسة والماء.. ينال الود بلا اقتحام. ويبلغ الوصل بالتراضي. فتلك الأجزاء المتناثرة من اليابسة في مياه الخليج العربي الجنوبية الشرقية، ثمة من أراد لها التواصل الرحيم دون اندفاع نحو مقاطعة الماء. وتحول البحر إلى أقواس تلو أقواس كأنها قنوات توصل ما بين عشرات الجزر في هذا الجزء من الأرض العربية والبحر العربي. ففي هذا الجزء من شاطئ الخليج العربي تمتد إمارة أبوظبي بمساحة ٧٧٠٠٠ كيلو متر مربع، أي ما يعادل ٨٦٪ من مساحة دولة الإمارات كلها. وتتقدم الساحل جبهة من جزر عربية تبلغ مائتي جزيرة تشغل العاصمة «أبوظبي» إحداها، بمساحة ٢٢٣ كيلو مترا مربعا، وتتبعها عدة جزر مهمة منها «داس» و«ميرز»، و«السعديات»، و«أبو الأبيض»، و«أم النار»، و«صير بني ياس» التي تبعد ١٨٠ كيلو مترا غربي العاصمة (وإن كان الطريق البري البحري الذي سلكناه إليها يتجاوز ضعف هذه المسافة).

هبطت الطائرة فتغير لون الرمل في ساحة المطار الوسيع. وبينما استمرت الطائرة في انطلاقها على المدرج الطويل كانت ساحات العشب تترامى على الجانبين، وكان الدوران الدائب لرشاشات المياه فوق خضرة العشب الطالع. إيحاء بإصرار عجيب على تحويل الرمل إلى تربة خصبة وانبعاث الخضرة من خصوبة الأرض. ثم كان طريق الأشجار والأزهار الطويل من المطار إلى المدينة.. أكثر من عشرين كيلومترا ولا انقطاع للخضرة والظلال والألوان على جانبي الطريق في الجزيرة الممتدة بين نهري الشارع. ولم تكن هذه الكيلومترات العشرون إلا مفتتحا ـ لمعزوفة بيئية كاملة أبدعتها هذه الدولة العربية الصغيرة الكبيرة وكانت عيوننا تلتقط طرفا منها ونحن بعد في أولى خطوات استطلاعنا.

ولا في مدن الأنهار الكبرى!

كان طموحنا إلى الرؤية كبيرا. لكن أيام الاستطلاع بدت محدودة بينما راح الوقت في رحاب الخضرة يمضي خاطفا وناعما كالحلم.

حدائق. حدائق. حدائق. مليون متر مربع من الحدائق تشتمل عليها مدينة أبوظبي وامتدادها الغربي.

فإذا عرفنا أن عدد سكان هذه المدينة وتوابعها هو ٢٥٠ ألفًا (بتعداد مواكب لزمن تقدير مساحة الحدائق) لكان نصيب الفرد هو ثمانية أمتار مربعة من الزهور والفاكهة والخضرة. وهو رقم تكاد لا تصل إلى طرف أطرافه مدن عربية وعالمية تخترقها أنهار كبرى أو تغمرها الأمطار الغزيرة. والمدهش تنطوي عليه آلية تخضير أكثر إدهاشا تعتمدها أبو ظبي. فوراء جمال هذه الحدائق تقف نوايا حسنة، وذوق حسن، وتدبير حسن أيضا. لأن ري المساحات الخضراء في مدينة أبوظبي يعتمَد على معالجة مياه الصرف التي يُستخدم منها أكثر من مائة وخمسين ألف متر مكعب تتوزع على حدائق المدينة بشبكة مواسير يبلغ طولها ٣٢ كيلومترا. ولا تقف حكمة التعامل مع الماء العذب عند حدود معالجة مياه الصرف بل تمتد إلى ترشيد استخدام هذه المياه بطرق للري محسوبة ومتوافرة. فالري بالرش للمساحات المتسعة، وبالتنقيط للخضراوات، وبالفقاعات (دفعات متواترة من الماء) للأشجار، خاصة المثمرة منها.

ولم يتوقف التدبير الإماراتي الحسن عند هذا الحد في مسيرة التخضير بل لجأ إلى توطين وابتعاث أنواع من النباتات تحتمل حرارة الجو ولا تتسم بالشراهة في استهلاك المياه.

فإضافة إلى الأشجار الصحراوية المعروفة في المنطقة (السنط والطلح والغاف والأثل والنبق) تم استقدام واستزراع أنواع مختلفة من الأشجار عالية المقاومة تحتمل ملوحة المياه وحرارة الجو.

ولقد لفتت نظري بشدة أشجار «الاسباثودا» التي جاءت من إفريقيا الاستوائية لتتألق في أبوظبي بأوراقها العريضة دائمة الخضرة وأزهارها النارية الحمراء الكبيرة. فهذا الاختيار ضرب عصفورين بحجر واحد كما يقال. إذ وفر شجرة عالية الاحتمال قادرة على التأقلم، إضافة لجمالها اللافت وخضرتها الدائمة. ولم تتوقف عن مصافحة ناظري أشجار وأشجار، جاءت من أربعة أرجاء الدنيا لتقف بزهو حي على شاطئ الخليج في «أبوظبي». أشجار اللوز الهندي والمطاط من الهند، والصبار الهندي من الفلبين

والمكسيك، والدراداكسيا ونخيل واشنجطونا من أمريكا الشمالية، ونخيل الجوز من جزر المحيط الهندي، واليو هينا (خف الجمل) من الصين، والأكاسيا من أستراليا، وغيرها من الأشجار كثير. واستمرارية الزهور والخضرة تقف وراءها مشاتل ضخمة لتربية وإكثار الأشجار والشجيرات وزهور الزينة. وتقدر كمية المنصرف من مشتلي «الخالدية» و«المنهل» وحدهما، وفي عام واحد، بأكثر من مليون ونصف مليون شتلة شجرية، وأكثر من عشرين مليونا من شتلات الزهور.

كسر شوكة الكثبان

ثلاثة طرق تؤدى إلى جزيرة صير بني ياس.. جوا، وبحرا بالزورق الطائر (الهوفر كرافت)، وبرا.. من أبوظبي إلى جبل الظنة ومنه إلى الجزيرة عبر الماء في طراد سريع. والطريق الأخير هو الذي اخترناه. انطلقنا من أبوظبي في الصباح الباكر، وفي الطرقات المغمورة جنباتها بالخضرة راودني السؤال: هل ستستمر مسيرة اللون الأخضر طويلا؟ أم أن مظاهر الخضرة ستنقطع بانقطاع البيوت عن الظهور؟. خلفنا آخر البيوت والعمران وراء ظهورنا، وانطلقنا في الصحراء، وعلى مدى أكثر من مائتين وخمسين كيلو مترا كان جليا ومدهشا أن نتيقن من كون التجربة البيئية الإماراتية شديدة الجدية والإخلاص، ومليئة بالمثابرة، ولا أعرف لماذا تغيب عن واجهة الإعلام البيئي العالمي ملامح هذه التجربة في قهر الصحراء.

لم تكف أرتال اللوريات البرتقالية اللون عن الظهور أمامنا.. تنقل أتربة تملأ صناديقها المغطاة بقماش أبيض من مكان إلى مكان وقد عرفنا أن هذه اللوريات تنقل التربة الخصبة من مكانها إلى الأماكن المراد استزراعها في الصحراء، فتربة أبوظبي ليست كلها رمالا. وعملية الاستزراع نفسها تجري وفق نسق مبتكر تماما يعود فضل ابتكاره إلى رئيس الدولة العاشق للون الأخضر ونقاء الحياة البرية سمو الشيخ زايد آل نهيان، فقد وجد أن أبوظبي تعاني كغيرها من ظاهرة زحف الصحراء، وانجراف الرمال فتغطي المزارع وتقضي عليها، مما يهدد أية محاولة لاستصلاح الأرض أو زراعتها. واهتدى الشيخ زايد في فكرة رائدة لمواجهة زحف الصحراء، بتسطيح

الكثبان والتلال العالية التي تهب منها الرمال، كأنما ليكسر شوكتها، حتى لا تسقط فوق المساحات المنزرعة وتقضي عليها. أما الخطوة التالية فإنها تتلخص في فرش طبقة جديدة من الطين (تربة مرشوشة بالماء) فوق الأرض التي جرت تسويتها. ونجحت التجربة، وجرى تقسيم الأراضي الجديدة إلى مساحات وزعت على المواطنين بعد إقامة أحزمة خضراء من الأشجار حولها..

لم تنقطع المساحات والأحزمة الخضراء عن التجلي.. لاح قلب الصحراء طوال الطريق أمام عيوننا، وحيث لم تكن هناك خضرة كان التمهيد لها يجري على قدم وساق وحتى تكتمل الصورة المعمورة بحب الحياة الفطرية فإن الجمال الطليقة كانت لا تني تظهر سارحة على هواها على جانبي الطريق الطويل.

وصلنا إلى جبل الظنة ومنه حدنا في طريق جانبي إلى ميناء (مغرق) وهو ميناء خاص بالجزر تخدمه (عبَّارة) لنقل الركاب والبضائع والسيارات إضافة إلى مجموعة من اللنشات السريعة قفزنا إلى أحدها وانطلق بنا عبر مياه الخليج التي لم تكن هادئة هذا النهار.

من الطيف إلى اليابسة

راح الزورق الخفيف السريع يطير بنا فوق مياه خافقة، وكانت الريح الشتوية تدافع وجوهنا وصدورنا بلطف، وبعد فضاء من الماء الأزرق المخضر ونثار التبج الأبيض لاح طيف الجزيرة، وراودني شك فيما ينتظرنا في هذه الجزيرة المتوحدة وسط الماء. هل يمكن أن تنبض الحياة في قفر من الصخر والرمل وسط مياه مالحة؟

وما أن وطئت أقدامنا أرض الجزيرة حتى دارت الرأس بالمراجعة... طيور وزهور وشجر.. ثم ماذا؟

ركبنا سيارة (لاند روفر) وانطلقنا في رحاب صير بني ياس بصحبة الدكتور ناجي سالم أحد أطباء الجزيرة البيطريين وهو يقوم بدور في العلاقات العامة إضافة إلى ذلك، وعبر الذرا والوهاد كان الخاطر ينطلق مع التاريخ...

دورات من الحياة والموت عاشتها هذه الجزيرة، وكل منها مرهون بنوايا البشر

وحياة ضمائرهم، فثمة دلائل على استيطان الجزيرة في أزمان بعيدة منها تلك الكشوف الأثرية لقطع من الفخار عثر عليها في رأس دانان شمالي الجزيرة وتعود إلى العصر الإسلامي الوسيط في زمن الساسانيين وامتدادا حتى عهد بني أمية. كما أن الجزيرة ظلت مستراحا لصيادي اللؤلؤ الذين تمركزوا في جزيرة دلما القريبة. واسم الجزيرة نفسه يشير إلى عراقة إعمارها فكلمة صير تعني الموطن الأصلي، ومن ثم فهي الموطن الأصلي لقبيلة بني ياس التي ينتمي إليها آل نهيان. لكنها هُجرت وصارت قفرا وكان جنود الاستعمار البريطاني يستخدمونها ميدانا للرماية، وظلت قاحلة حتى شملتها رعاية الحاكم الممتلئ بحكمة الحياة وعشق فطرية البيئة، ففي عام ١٩٧٠ قام الشيخ زايد آل نهيان بزيارة إلى الجزيرة، وأعطى توجيهاته بالانطلاق في تطوير الجزيرة لتصبح ملاذا للحيوان والطير وواحة للزهور والفاكهة، ومشهدا جماليا يخاطب ذوق الإنسان وضميره. وهذا ما خلصنا إليه بعد جولة طويلة في أرجاء الجزيرة التي نهضت لوحة بيئية استثنائية وسط مياه الخليج..

صير بني ياس وهي ثالث أكبر الجزر في إمارة أبوظبي وتبلغ مساحتها ٢٥٠ كيلو مترا مربعا إضافة إلى عشرة كيلو مترات تم ردمها لتكون امتدادا للجزيرة وتسمى «الجزيرة الخضراء» وقد خصصت لزراعة الفاكهة.. الموالح، والموز، والرمان، والأناناس، والمانجو، وصنوف من الفاكهة يصعب تعدادها ويصعب تصور أن تثمر في منطقة الخليج، بل في جزيرة وسط مياه الخليج. ولقد تذوقنا في الجزيرة الخضراء أطيب برتقال يمكن تذوقه وهو من نوع «البرتقال الشموطي»، كما تلمسنا بدهشة براعم الرمان وأعذاق الموز الطالع وأسباط التمر السخية التي يجود بها نخيل في متناول اليد. ولا تتوقف محاولات توطين الخير في الجزيرة، فقد نجحت زراعة السترة والمانجو والشيكو والجوافة والباباي والرمان والتين والتفاح والخوخ والبوملي والجريب فروت والليمون الحلو والموز والعنب والتين الشوكي والزيتون (المنتشر بكثرة في الجزيرة) والخروب والمشمش والبطيخ والتمر والرطب، لكن إرادة التحدي الأخضر لا تكف عن محاولة إعمار الجزيرة بمزيد من الثمار فهي تشهد حاليا تجارب عديدة لزراعة الجوز وفواكه القشدة والعنب الياباني والتركي والمغربي!!

لقد درنا حول الجزيرة في الطريق الدائري البالغ طوله ٥٠ كيلو مترا، وصعدنا وهبطنا تلالها، ومرقنا بين مراتع الغزلان وبحيرات الطيور. صرنا في ظلال أبراج الحمام البري. وطفنا بجنبات الزهور والخضرة.

لوحة طبيعية بديعة تأملنا ألوانها من قمتين عرفنا من مرافقنا أن الشيخ زايد يرتقيهما ليتأمل الجزيرة بنظرات شاملة ليلمح أي نقص ينبغي استكماله، أو منطقة يوجب تطويرها، حيث إنه يتابع كل شيء بنفسه. ومن شرفة هذه المراقي طوَّفت أنظارنا بالحلم الذي يطفو متحققا فوق الماء، وتنفسنا هواء شفيفا يملأ الصدور براحة يحس الإنسان معها أن الإصرار على تخضير هذه الجزيرة وإعمارها بحياة الطير والحيوان المسالم لم تكن عبثا.

منذ تم اتخاذ القرار والجزيرة تتطور، ببطء مدروس في البداية (حيث كانت كمية المياه المستعملة في حدود عشرة آلاف جالون تنتجها وحدة تحلية محدودة) لكن منذ عشر سنوات بدأت الجزيرة انطلاقتها الخضراء المتسارعة إذ وصلت طاقة وحدات التحلية في الجزيرة إلى (٤) ملايين جالون، ومن ثم، ومع زيادة كمية المياه العذبة، راحت تسع مساحات التشجير وتمتلئ أحواض ومساقي الطيور الحيوانات.

ولقد رأينا بحيرتين صناعيتين مبطنتي القاع برقائق ومواد عازلة تمنع التسرب، وعلى ضفاف هذه البحيرات، وتحت مظلاتها تتجمهر أسراب من الطيور، وهنا وهناك تتناثر أبراج للحمام تطوي المآوي في قلبها الأخضر الموسوم بأشرطة بيضاء فهي ليست كأبراج الحمام الداجن تفتح أبوابها على الخارج وتختبئ في مآويها فخاخ الصيد فلا صيد هنا بل إن الصيد محظور في أبوظبي منذ ١٥ عاما بأمر الشيخ زايد، فبعد أن كان صيد الغزلان والمارية والطيور مألوفا في الإمارات وبعد أن تحول الصيد مع مجيء السيارات وبنادق الصيد الحديثة إلى تهديد لتوازن البيئة صدرت تشريعات حظر الصيد، وانتشرت في دولة الإمارات كلها، ففي الفجيرة حظر حاكمها الشيخ حمد بن محمد المشرقي صيد الفهود المارية والقطط البرية في الجبال، كما منع صيد الغزلان البرية التي تعيش في المناطق النائية، أما على صعيد الحياة البحرية فقد أصدرت وزارة الزراعة والثروة السمكية قرارا حظرت فيه إمساك السلاحف أو أخذ بيضها، وتقوم بتغريم الصيادين الذين ينتهكون القرار.

في ظل التشريع البيئي الجيد وعلى ضفاف النوايا البيئية الحسنة، وبين تلال ووهاد الجزيرة المدهشة مضينا وكان البحر يرنو إلينا هادئا وبلون الفيروز.

كانت اللاندروفر تصعد وتهبط وتنطلق... وتتوالى صور الجزيرة التي تحولت إلى مشروع غاب آمن.. تزينها أشجار السدر والسمر والطلح والغاف والأراك والمرخ منتشرة فوق مسافة مزروعة تقدر بنحو ٣٠ ألف هكتار.. وهنا وهناك تنتصب أشجار الفاكهة وحقول الخضراوات وأحواض الزهور التي تنشر عبقا حلوا يضفي على الجزيرة نعومة الحلم.. ورود وفل وياسمين تشكل مع زهور الفاكهة مصدرا لرحيق عطر يغذي ثمانين خلية نحل في الجزيرة.

لم تكن الجزيرة سهلا خالصا ولا جبالا متصلة، بل كانت وسطا متناغما ترعاه إرادة ذوق إنساني حسن، اعتمدت مشاريع الزراعة والتشجير بالجزيرة على إزالة الجبال الصخرية عند الشاطئ أولا لتوفير مرافئ رسو الزوارق والسفن، ثم في الوسط بعد ذلك، مع تسوية دائمة للتربة الخصبة التي أغناها مطر المواسم الغزيرة ووقف حارسا عليها ذُخر ما تحتجزه السدود الصغيرة.

مدارج من الخضرة وبرار فسيحة وأسراب من غزال الريم تنداح كأنها حقل من السنابل تطوف عليه ريح هينة. وتتزاحم جماعة غزلان المها البيضاء مبتعدة بلا ذعر إذ نمر بها. بينما الزرافات تشرئب في غاب مسيج إذ إنها تأتي على خضرة الأشجار فيتم نقلها من مكان إلى مكان لتستعيد المساحة التي أجدبت خضرتها.

إن الجزيرة تتحول بتسارع إلى محمية ترتع فيها الحيوانات المجلوبة من داخل البلاد أو من خارجها مثل أبو ملعقة والحمام المتوج والنعام والغزلان والكنغارو والمها والزراف والصقور والكركي المتوج والوضيحي (أو العربي) وظبي الماء واللاما والجاموس الإفريقي. والتجربة تثبت نجاحا مشجعا على مدى السنوات التي عاشتها حيث راح معدل التكاثر للحيوانات على أرض الجزيرة يزداد، ويوجد الآن جيل ثالث من بعض الحيوانات التي كانت مهددة بالانقراض كالمها العربي والغزال العربي «الديماني» والمها الإفريقي والماعز النوبي. إلى جانب التوالد الملحوظ بين قطعان الغزلان التي يقترب عددها من ثلاثين ألفا. ولقد تكيفت الحيوانات الآتية من

الخارج حتى وصلت إلى درجة التوالد في بيئة الجزيرة وهي أعلى درجات التكيف، ومن الحيوانات التي وصلت إلى هذه الدرجة المها الإفريقية وأبوحراب وأبوعدس وظبي إيلند وظبي الماء واللاما (أو الجمل الأمريكي) والزرافة والأنتيلوب الأسود وظبي تيالا وغزال طوسون وكبش أروي «البربري» وغزال أمبالا والإبل الأرقط إلى جانب أسراب من الطيور التي تأقلمت مع مناخ الجزيرة واتخذت من غابها مأوى لها برغم أن مواطنها بعيدة ومختلفة في إفريقيا وأستراليا وجنوب القاره الأمريكية مثل النعام الإفريقي ونعام الإيمو ونعام الكاسوري والحباري وطائر التم الأبيض وأبو منجل والحمام المتوج. ولقد مضت حلول التأقلم في طريقها إما بالتطبع أو بالتطبيع عبر حلول مبتكرة وبسيطة، فالجمل الأمريكي (اللاما) من الجيل الأول كاد ينفق في فصول الصيف حيث الرطوبة المربعة والقيظ، لكن مجرد توفير أحواض للاستحمام ومظلات واقية عبرت بالجمل الأمريكي إلى بر الأمان وتوالد وجاءت سلالته قادرة على التأقلم أكثر مع البيئة التي ولدت فيها. ومن المؤشرات المهمة على تصاعد نجاح التجربة هي تلك الظاهرة التي تتحول فيها الطيور المهاجرة إلى طيور مقيمة، فهذه لا تقيم إلا حيث تكون الحياة أفضل والأمان أكثر. وهذا ما حدث مع طائر الفلامنجو «الفانتير» وطيور الحباري، فقد راقت لها الحياة في صير بني ياس فاستقرت واستوطنت. وهناك حكاية طريفة عن طائر البشاروش الذي لم يبلغ حد القدرة على التكاثر في الجزيرة لأسباب وراثية قوية. فقد عرفنا أن طيور البشاروش بعد أن تفقس بيضاتها وتشتد أعواد صغارها تأتي بها إلى الجزيرة، تلتمس المأوى والأمان..

عودة إلى غابات القرم

قربت جولتنا على الانتهاء وذهبنا لأخذ قسط من الراحة وتناول غداء متأخر في مطعم الجزيرة المخصص للضيوف. ومن الجدير بالذكر أن الإقامة تتوافر مجانا في الجزيرة، إذ تم تخصيص عشرات الغرف المكيفة في نزل خاص (تمهيدا لإقامة فندق عالمي لاستقبال زوار الجزيرة) وملحق بهذا النزل مطعم يقدم الوجبات مجانا إضافة لوسائل الانتقال بصحبة أدلة ومرشدين في سيارات خاصة تناسب تضاريس الجزيرة وتحافظ عليها..

رحنا نأكل بشهية تفتحت مع التجوال والإطلال على بكارة البيئة ونقائها، وكان الطبق الرئيسي من سمك الهامور الطازج الذي صيد للتوّ من المياه القريبة من شطآن الجزيرة. فهذه الشطآن غدت بيئة بحرية شديدة الثراء الحيوى بفضل نباتات «القرم» التي أوشكت أن تنقرض لولا أن أعادت توليدها وتكاثرها في الإمارات تلك البصيرة البيئية الثاقبة لرئيس الدولة الشيخ زايد وأولي الأمر فيها. فمن المعروف أنه في نطاق المد والجزر بالمناطق الساحلية الضحلة توجد أنواع من النباتات العشبية والشجرية التي تستطيع التأقلم مع المياه البحرية المالحة والمناخ الحار الرطب، وعلى رأس هذه النباتات تأتي شجيرات القرم وهي نوع من نبات «المانجروف» التي كانت غابات بحرية على شاطئ الخليج وكادت تنقرض تماما لفرط استخدامها القديم وقودا وطعاما للجمال وخشبا للنجارة وبعض أدوات الصيد.. لكنها عادت من جديد. وهي شجيرات تظهر فوق سطح الماء وترتفع فوق مياه المد بطول قد يصل إلى ثلاثة أمتار وتتجمع جذورها تحت الماء على هيئة مستعمرات من الأجمات الخضراء أو الزرقاء الداكنة، ولكل نبات مجموعة من السيقان تحيط بالجذر الرئيسي فتشكل مرشحا (فلتر) يصفي المياه من ملحها فتصير عذبة يرتوي منها نبات القرم. ولهذا تموت شجيرات القرم إذا مشى بقربها الناس حيث تسحق أقدامهم تلك المرشحات الرقيقة. ولقد عقد في أبوظبي مؤتمر علمي في ديسمبر ١٩٩٠ لتدارس تنمية غابات القرم التي تشكل ملجأ حيويا متكاملا وثري الغذاء يتيح للأسماك والكائنات البحرية فرصة نادرة للتكاثر والنمو، بل النمو بسخاء وهو ما كانت تشهد عليه سمكة الهامور التي كانت على مائدتنا وأشبعت أربعة أشخاص جائعين.. وتبقى منها الكثير!.

اقتراح.. وحلم

إن العناية بالبيئة ليست تهويما (رومانسيا) لدى البعض، بل هي ادخار واستثمار ونوع من الحدس المستقبلي الحكيم ينبغي أن نتوقف عنده، بل ينبغي أن يتوقف عنده كل المهتمين بشئون البيئة في العالم، فالتجربة جديرة بهذا الحجم من الاهتمام إذ تقدم أملا ملموسا لدرأ رعب التصحر الذي يخيف البشرية التي لا تكف عن التكاثر. لهذا أقترح أن تكون الجزيرة محطة عالمية للدراسات البيئية، يقام بها مركز للإبداع البيئي،

سواء كان هذا الإبداع علما أو فنا، يمنح الجديرين فرصة للتفرغ للإبداع في أحضان هذه الجزيرة، ويقدم جائزة للإبداع البيئي في الأدب والفن وهو الفرع الذي يبدو وليدا على المستوى العالمي، ويبدو منعدما أو يكاد على مستوى الإبداع العربي.

لقد كنت مفعما بالتأثر وأنا أغادر الجزيرة، وبينما راح زورقنا الطائر فوق أمواج الخليج يبتعد، راحت الجزيرة تغوص في غلائل المدى فتبدو كطيف حالم، بل كحلم بعيد، وهو حلم ينطوي على كثير من الحكمة لمن يتأمل جوانبه. فمن يتعلم الحنو على النبات والرفق بالحيوان والعطف على الطائر، لابد أن يكون حانيا ورفيقا وعطوفا على الإنسان، والأرض التي يدرج عليها الإنسان. ومن ثم على مجتمعه.

هكذا أفهم مأثرة «صير بني ياس».. وهي مأثرة تستحق جائزة كبرى من جوائز السلام العالمي. فالسلام لم يعد مجرد مسالمة بين البشر والبشر، بل هو في الأساس مسالمة واجبة بين البشر والأرض. لأن الحرب على بيئة الأرض هي مأساة سرمدية، بينما مآسي أشد الحروب فتكا في تاريخ البشرية يمكن للزمن أن يتجاوزها. فسلام يا صير بني ياس.. همست بها إذ غاص الطيف وراء الماء، ولم يعد حولنا غير الموج.. والحلم.

فيتنام

الطريق إلى «هالونج»، رأس التنين العائم

أغوتنا الرءوس الخضراء الألف، المطلة من صفاء زرقة خليج التنين العائم، فغيرنا خط سيرنا من الجنوب إلى الشمال لنكون أول عرب معاصرين يبحرون في فتنة هذا الخليج. وكان الطريق إلى هناك يكتنز ملامح هذا البلد البسيط الساحر، الذي خبأت جماله أدخنة الحروب، وسوء الحظ التاريخي، وعزلة المكان والزمان وسوء تدبير البشر.

«السيد فان كيم نيجوان» ـ المؤسسة الفيتنامية للتعاون مع الإعلام الأجنبي.

بعد التحية،..

كتبت الفاكس في بانكوك وأرسلته من هناك إلى هانوي وأنا أحس بالإثارة والتشوف. فبعد تنقيب نصف يوم في مكتبة «كتب آسيا» في العاصمة التايلاندية، وقعت على بعض صور ساحرة لهذا الخليج، وإشارات عديدة إليه ضمن مجموعة من الكتب عن فيتنام أضفتها إلى الكتاب الوحيد الذي وجدته في الكويت ولم يكشف عن فرادة هذا الموقع، الذي لم نكتب عنه، ولم يكتب عنه غيرنا، على الأغلب.

الطريف أن الفاكس لم يصل أبدا إلى هدفه، بينما ركبنا طائرة الخطوط الجوية الفيتنامية من بانكوك إلى هانوي ونحن مطمئنون إلى حدوث الريادة، ولولا أن الزمان تغير، وحل شعار «الأبواب المفتوحة» في متن السياسة الفيتنامية، لما كنا استطعنا إدراك التغيير.

وكانت ملامح (بعض التغيير) بادية داخل الطائرة الفيتنامية التي انطلقت بنا في اتجاه الشمال الشرقي، ولمدة ساعتين، نحو هانوي.

الطائرة، على غير المتوقع، لم تكن سوفييتية الصنع.. بل كانت أوربية من نوع «الإيرباص»، وإن كانت صغيرة وعتيقة الطراز، ففي مواجهة الحظر التجاري الأمريكي على فيتنام ـ والذي انفك أخيرا ـ كانت سلطات هانوي وهي تحاول الخروج من العزلة، خاصة بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، لا تجد أمامها سوى أوربا، وجيرانها من «النمور الآسيوية».. بالطبع.

مضيفات الطائرة كن يعكسن سمات الجمال الفيتنامي وخصوصية الزي، فهن ـ كأترابهن اللائي رأيتهن كثيرا فيما بعد ـ رقيقات العود إلى درجة الإحساس بالهشاشة والخفة، وملامحهن دقيقة دون إغراق في المغولية. ولونهن أفتح من لون جيرانهن في الجنوب.. أقرب إلى الصينيات، مع عيون أقل انحرافا وقوام أنحف. والنحافة سمة فيتنامية غالبة على الرجال والنساء على السواء، بل إن ملوك فيتنام القدامى الذين رأيت صورا لهم ـ في المتحف التاريخي فيما بعد ـ كانوا نحافا أيضا. أما الزي فقد سألت عن اسمه إحدى المضيفات وهي تقدم لي قدحا من الشاي الفيتنامي الساخن وهو شاي من الأعشاب يعطي الماء لونا بلوريا أصفر خفيفا وله طبيعة قابضة بقوة ويقدم دون سكر ويسمونه «ميوك شا».

تضرجت وجنتا المضيفة بحمرة الخجل وهي تشير إلى اسم الزي وردي اللون الذي ترتديه «آو ـ داي»، وهو ثوب طويل محبوك، بياقة عالية، ومفتوح من جانبيه، وتحته بنطال واسع الأرجل، ورحت أراجع ما ذكرته الكتب عن هذا «الآو ـ داي»، فقرأت وصفا كتبته النيوزلندية «هيلين وست» تحت عنوان فتنة «الآو ـ داي»، قالت إنه «يغطي كل شيء لكنه لا يخفي شيئا». لكنني لم أر في الأعواد الرقيقة الخفيفة ما يمكن إخفاؤه. وهو ما اتفق معي فيه كاتب غربي آخر هو «كلاير إيليس» صاحب كتاب «فيتنام الصدمة الحضارية» وهو يقصد الصدمة التي يمكن أن يصاب بها الغرباء الذين يزورون فيتنام لأول مرة دون تمهيد معرفي.

العجيب أن «الآو ـ داي» هذا يصلح مثالا لمصداقية قول قرأته عن الفيتناميين الذين «يكاد لا يوجد شعب تنعكس عليه آثار الجغرافيا والتاريخ مثلهم». ولا بد من إطلالة على هذه الجغرافيا وهذا التاريخ لنرى آثار انعكاسهما، حتى على الأزياء الفيتنامية!

ففيتنام التي تشبه حرف (S) مساحتها أكثر من ٣٢٧ ألف كيلومتر مربع تواجه في الشرق بحر الصين الجنوبي المفضي إلى المحيط الباسيفيكي بساحل طوله ٣٧٣٠ كيلومترا، وتظاهرها ـ من أعلى إلى أسفل ـ الصين ولاوس وكمبوديا وخليج تايلاند. وتمثل الصين ثقلا جغرافيا وتاريخيا فوق رأس هذه الـ(S)، برغم أن سلسلة الجبال والوديان التي ترسم حدود فيتنام مع جيرانها تمتد لتكون فاصلا طوبوغرافيا بينها وبين الصين، فإن سلسلة الجبال (التي يبلغ أعلاها وهو جبل «فان سي بان» ـ الذي رأيناه فيما بعد ـ ٣١٦٠ مترا) والوديان المقعرة السحيقة، لم تستطع أن تحول دون الاختراق الصيني الطبيعي، فالنهر الأحمر (والذي سمي أحمر تبعا للون مياهه المثقلة بالغرين) ينبع من مرتفعات إقليم «يونان» الصيني ويخترق شمال فيتنام ليجري جنوبا وشرقا نحو مصبه في البحر مكونا في طريقه «دلتا النهر الأحمر» التي يعيش فيها قرابة خمس السكان. وليس هذا هو الاختراق الصيني الطبيعي الوحيد لفيتنام، فثمة اختراق آخر مهم يمثله نهر الميكونج والذي يسميه الفيتناميون «كيو لونج كيانج» أي نهر (التنينات) التسعة، وهو أحد أطول أنهار آسيا ويبلغ طوله ٤١٨٠ كيلومترا. وهو صيني المنبع أيضا، إذ يأتي من جبال التبت مخترقا حدود الصين الجنوبية مع بورما، ومن بورما إلى لاوس، فجنوب تايلاند الشرقي ومنها يدخل كمبوديا التي يعبرها إلى جنوب فيتنام مكونا دلتا الميكونج الشهيرة (أعرض دلتا في جنوب فيتنام وتبلغ مساحتها ٧٥ ألف كيلومتر مربع) قبل أن ينتهي إلى البحر.. بحر الصين الجنوبي الذي يسميه الفيتناميون غيظا من الصين: «البحر الشرقي». هذا الاختراق الصيني الجغرافي لفيتنام لم يكن الاختراق الوحيد، فثمة اختراقات أخرى طويلة، وعميقة، شكلت موجات من الغزو امتدت تسعة عشر قرنا.

وخلال تلك القرون التسعة عشر من الحضور الصيني، والغياب المنذر بالحضور، لم تكن مياه الأنهار، ولا فرق الغزاة، هي الوحيدة التي تأتي من الشمال إلى الجنوب، من الصين إلى فيتنام. بل كانت الثقافة الدينية أيضا تأتي فوق الموج وفي أعقاب الجنود. آثار صينية واضحة في الثقافة الدينية والدنيوية مازالت ماثلة في هذه الأرض وإن (فتنمها) الفيتناميون. فالعقائد الثلاث: البوذية والكونفشيوسية والطاوية أتت من الصين متباعدة ليدمجها الفيتناميون في عقيدة واحدة شاملة. الشيء نفسه ينطبق على تقاليد في الحياة، والفن، والطعام، والشراب، والألبسة. ومنها ذلك «الآو ـ

داي» الوردي الذي ترتديه مضيفات «القونج فيتنام» أي الخطوط الجوية الفيتنامية. وهو الزي القومي الحالي للمرأة الفيتنامية، وإن لم يكن الوحيد. وهو مأخوذ عن زي الحريم في البلاط الإمبراطوري الصيني. وكانت ألوانه قبل إطلاق سراحها بين الناس وقفا على طبقات بعينها، ومناسبات بعينها. فالأصفر كان وقفا على الأباطرة الذين كان لهم وحدهم أن يزينوا ثيابهم بتطريز صور التنين ذي البراثن الخمسة. والأبيض لتشييع الجنازات. والأزرق للرسميين وحدهم في المناسبات العامة. وحتى منتصف القرن الثامن عشر كانت النساء الفيتناميات لا يرتدين غير جلابيب ضافية. ثم جاء أحد حكام أسرة «نجوين» وأمر بتغيير زي النساء إلى نسق القفطان والبنطال الصيني. وتبعه حاكم آخر فحرم على النساء ارتداء البنطال. ثم جاء العام ١٩٣٠ بفنان من مجموعة الإصلاحيين الليبراليين، فأعد تصاميم شتى لترتديها المرأة الفيتنامية، وأطلق حرية الألوان والنقوش، وكان من بين تلك التصاميم والألوان «الآو ـ داي». لكن بعد نهاية الحرب مع الولايات المتحدة عام ١٩٧٥ ارتفعت الرايات الحمراء ذات النجمة الذهبية، وفي فيتنام الموحدة من الجنوب إلى الشمال انتشر الزي الشعبي «البروليتاري».. قميص وبنطال، للرجال وللنساء على السواء.

لكن مع العام ١٩٨٧ م وبشائر الانفتاح الذي كانت تواكب به هانوي «مكاشفة» موسكو جورباتشوف، عادت كثير من الممنوعات إلى الظهور، وكان أن عاد «الآو ـ داي».

وتركت «الآو ـ داي» الوردي وشأنه، يسري خفيفا في ممر الطائرة التي كان ظلها الضئيل يقطع في لحظة مجرى نهر الميكونج وهو يدخل إلى «لاوس» ثم يتدحرج الظل على سلسلة الجبال التي تشير إلى دخولنا في المجال الجوي الفيتنامي، وتأتي دلتا النهر الأحمر بخضرة حقول الأرز الشاسعة. ثم تظهر جبال شمال هانوي الخفيضة ونظل نراها حتى تحط الطائرة على مدرج مطار العاصمة الفيتنامية. وأتذكر مما قرأت أن هذه الجبال كانت «معلما» أرضيا يسترشد به طيارو القاذفات الأمريكية لإلقاء هداياهم القاتلة على شمال هانوي في الستينيات وأوائل السبعينيات. ومازالت هناك بعض الحفر التي صنعتها القنابل الأمريكية الثقيلة التي ألقت بها الطائرات، حفر تبين

كعيون مترقرقة من الجو، أما على الأرض فقد امتلأت بالمياه وحولها الفيتناميون إلى أحواض لتربية الأسماك تتناثر داكنة عبر خضرة الحقول.

نصف قرن إلى الوراء

مطار «نوي باي» هو المطار الدولي للعاصمة الفيتنامية، لكنه يعطي الإحساس بأنه مطار طائرات شراعية في بلدة من بلدات الأربعينيات في فيلم تاريخي، مبنى استقبال صغير، وبرج مراقبة متواضع، والحقول تحيط بالمدارج حيث ترعى بهدوء بعض الأبقار، ويتهادى على حافة ترعة سرب من البط، وعلى الطريق الترابية يمضي بعض راكبي الدراجات في سلام معتمرين تلك القبعات المخروطية من القش، كأن لا طائرات تحت أعينهم تصعد وتهبط. والطائرات نفسها، قليلة، ومعظمها قديم وصغير، وتأوي في حظائر أشبه بمظلات أسواق الخضر.

مررنا بيسر إلى الداخل بمساعدة مندوب لشركة جديدة تسمى «شركة مساعدة وسائل الإعلام الأجنبية»، وهي من ملامح «الانفتاح» لكنه انفتاح عجيب أسميه «رأسمالية على الطريقة الشيوعية»، فهذه الشركة تفعل ما كانت تفعله نظم استضافة الصحفيين في النظم الشيوعية، وهي استضافة ومراقبة بالطبع! الجديد في الأمر أنهم استضافونا على حسابنا، وبالدولار، وبأعلى سعر! ولقد طلبت أن يتركونا وشأننا لنتصرف كالسياح (لأن هذا أكثر حرية وأقل تكلفة)، لكن «لا، أنتم صحفيون ولستم سياحا». وبرغم ذلك فإن هذه الاستضافة الرأسمالية على الطريقة الشيوعية، مع تناقضها، قدمت لنا مساعدات في التصوير والانتقال والحركة من المؤكد أنها كانت ستستحيل دونها، ويكفي هذا الخروج السلس من المطار بصحبة المرافق اللطيف الذكي «كيو» خريج كلية الاقتصاد والسياسة والمؤهل في الإدارة والإعلام من طوكيو، وهو يجيد الإنجليزية ويحب النكتة وحساء الدجاج بمكرونة الأرز المسمى «فا» والذي دعانا إليه في مطعم ريفي على الطريق وكان لذيذا على غير توقع.

خرجنا من المطار بزهو، إذ كان هناك بعض الأوربيين والأمريكيين ينتظرون حتى يسمح لهم بالدخول في يأس، والمرجح أن بعضهم سيوضع في أول طائرة تعيده من

حيث أتى لأنه لم يأت بتأشيرة دخول، مثلنا تماما، لكن تأشيرة الدخول كانت تنتظرنا في المطار بفضل ترتيبات السيد «هين» مستشار فيتنام التجاري في الكويت. ولقد مكثت صورة تلك المرأة الأمريكية العجوز التي تنتظر تأشيرة الدخول ماثلة في خاطري بينما كنا نعبر باب الخروج من المطار. وكنت أفكر في أنها لا بد أم أحد الجنود الأمريكيين الذين مازالوا مفقودين في فيتنام برغم مرور عقدين على انتهاء الحرب، إنهم يدعون «مفقودي العمليات» وعددهم يصل إلى ٢٢٦٥ مفقودا، يقال إن منهم ٤٠٠ قضوا عند سقوط طائراتهم المغيرة على الساحل الفيتنامي وتحللت أجسادهم بفعل المناخ المداري الحار والرطب. وهؤلاء يقابلهم ٣٠٠ ألف فيتنامي مفقودون في العمليات أيضا ولا أحد يعرف مصيرهم. مأساة ما زالت تجر أذيالها في الحاضر، برغم التقارب الفيتنامي / الأمريكي الأخير وافتتاح السفارة الأمريكية في هانوي (وإن كانت السفارة وقت زيارتنا قد هُدِّدت بقطع التيار عنها لأنها تأخرت عن دفع فاتورة الكهرباء بسبب أزمة رواتب الحكومة الفيدرالية! فما زال في الجو غيم.. بل غيوم كثيرة!)

هل هذه حقا فيتنام؟ هل أنا حقا في فيتنام؟ سؤال ظل يدور ويفور داخلي وأنا أتأمل العالم من حولي. كل شيء فقير وقديم، والناس لفرط نحافتهم ودقة ملامحهم تظنهم تلاميذ وتلميذات في مدرسة ثانوية على الأكثر. والعالم هادئ ومتطامن. مجموعة بشر صغار خلف (درابزين) ينتظرون ذويهم القادمين من السفر، وأحدهم يمسك بطاقةً زهور بسيطة. ثم تأخذنا السيارة في الطريق بين المطار وهانوي. قرابة خمسين كيلومترا على طريق لم يكتمل رصفه. حقول خضراء وادعة، وأخرى مغمورة بالماء، وثالثة ينكفئ فيها الفلاحون بقبعات القش المخروطية على رءوسهم يغرسون شتلات الأرز. المحاريث الخشبية والزحافات تجرها الجواميس. وطفلة تمتطي ظهر جاموسة سوداء. وقروي يدلي خيط سنارته في حوض تربية أسماك هو في الأصل حفرة تركتها قنبلة ألقتها قاذفة أمريكية في زمن الحرب البعيد. أما الطريق الذي كانت وصلات الأسفلت فيه تتوقف كثيرا لتمتد مدقات التراب، فقد كان طريقا قرويا يذكر بطرقات الريف منذ ثلاثين أو أربعين عاما: أولاد يلعبون الكرة في الشارع. وصِبية تقود سرب بط إلى البيت. وراكبو الدراجات لا يكفون عن المجيء والذهاب. وبعضهم يُظهرون براعة في حمل كمية هائلة من السِّلال أو أوعية البلاستيك المربوطة بمهارة على الدراجة حتى يكاد سائقها

يختفي وسط ما يحمل. كل شيء يبدو قابلا للحمل على الدراجة. حزمات البامبو، و(سباطات) الموز في شبكة كبيرة وسلة (بناموسية) للطفل، وبضع دجاجات في سلة أخرى على المقعد الخلفي. وعائلة كاملة من أب وأم وطفلين كلهم على دراجة واحدة. وكلما اقتربنا من هانوي يزداد ظهور الدراجات النارية (الاسكوتر) وإن ظلت الغلبة للدراجات. وأنتظر أن تكبر البيوت وتظهر عمارات العاصمة العالية. لكن دون جدوى. فبيوت هانوي المكدسة المتربة هي نفسها بيوت جنبات الطريق الريفي. بيوت صغيرة مستطيلة ذات أسقف مائلة من قرميد قديم بشرفات خشبية قديمة ونوافذ بسيطة وفي كل بيت دكان، والدكان يفضي إلى داخل البيت. ثم غصنا في تلافيف شوارع هانوي القديمة حول بحيرة «هو هوان كيم» أي «بحيرة السيف الذي عاود الظهور» والتي يتوسطها معبد بوذي صغير وتحوطها المماشي التي تظللها الأشجار وتسكنها أسطورة وحكاية عن السلحفاة المقدسة التي قدمت للملك سيفا مسحورا واستردته بعد أن دحر الغزاة، فما من مكان رأيناه في فيتنام إلا وراءه أسطورة وله حكاية. لقد قرأت يوما أن حب رواية الحكايات مبعثه الرغبة في مقاومة الموت. وحكايات فيتنام وأساطيرها هي نوع من مقاومة العزلة التي هي صورة من صور الموت.

مدينة التنين الصاعد

خلال أيام مكوثنا في هانوي رأيت خمس بحيرات، وعددت على الخريطة اثنتين وعشرين بحيرة. وفي فندق صغير بشارع «فولي ثاي» شرق بحيرة «هوان كيم» سكنا. وبرغم أن رواية مارجريت دورا «العاشق» والفيلم المأخوذ عنها وكذلك رواية جراهام جرين «الأمريكي الهادئ» كل هذه كانت تدور في سايجون التي صار اسمها «مدينة هوشي منه» بعد انتصار جبهة تحرير فيتنام (الفيت كونج) وتوحيد الجنوب والشمال. برغم ذلك فإنني كنت أحس بأنني أعيش أجواء الروايتين والفيلم وزمنهما أيضا. فهانوي على حالها منذ عقود كما يبدو، تقبع على الضفة اليمنى للنهر الأحمر «سونج هونج». وترجع الحكاية الشعبية بتاريخ بنائها إلى العام ١٠١٠ م حيث قدم الملك «داي لا» إلى المكان فرأى تنينا ذهبيا هائلا يطل من أكبر البحيرات «هو ـ تاي» ويشرئب برأسه عاليا في اتجاه المكان الذي صار هانوي وإن كان أسماها في بادئ الأمر «شانج لونج»

أي مدينة «التنين الصاعد». والفيتناميون ينطقونها مقطعة: (ها) وتعني النهر و(نوي) وتعني الضفة الداخلية.

بهانوي عشنا أياما وديعة مليئة، بل مزدحمة بالصور، صور البوابات الأربع العتيقة ذات الطابع الصيني، والمعابد البوذية الكبيرة والصغيرة، والشوارع المليئة بالبشر والدراجات وراكبي (الاسكوتر)، والبشر الصغار الذين يرتدون قبعات القش المخروطية أو تلك (الكاكية) المدورة كقبعة الفيت كونج، والبائعين الجوالين الذين يحملون بضاعتهم على عربات صغيرة تمضي في ضوضاء أغاني يذيعها مسجل كبير عتيق، والقرويين والقرويات الذين يبيعون الخضر والفواكه والدجاج والبط حاملين على أكتافهم تلك القصبة الشهيرة التي تتدلى من طرفيها كفتان توازن إحداهما الأخرى. لقد أوقفت بائعة يوسفي في شارع الحرير، كنت أريد شراء بعض اليوسفي، لكنني كنت أريد أكثر أن أعرف ثقل الحمل الذي تمضي به على كتفها المتهالك. إنه حمل ثقيل عجبت لكيانها الضئيل كيف يحتمله، وعجبت أكثر لأنها تمضي به متوازنا وإن كانت القصبة تتقوس من فرط ثقل الكفتين حتى تبدو على وشك أن تنكسر. لكنها لا تنكسر فهي من «البامبو» الفيتنامي الشهير الذي يصنعون منه دعامات الأسقف، وأسرة النوم، والكراسي، وأنابيب التنفس تحت الماء عندما كانوا يصنعون الكمائن للفرنسيين ثم للأمريكيين وهم غاطسون في الماء. كما أنه وسيلة تهوية خنادق المقاومة الشهيرة تحت الأرض. وهو أداة تحريك «العرائس العائمة» التي أبهجتنا في ليلة قضيناها بمسرحها الكبير على ضفاف بحيرة «هوان كيم».

وعلى ضفاف هذه البحيرة تمشينا كأننا في أمسيات بلدة صغيرة قديمة، مصابيح الشوارع قليلة حتى تبدو وكأنها مصابيح زيت عتيقة تنوس في سكينة الليل. وثمة عشاق يتناجون على المقاعد الخشبية تحت الأشجار وقد ركنوا دراجاتهم المتواضعة إلى جوارهم لتعيدهم إلى شوارعهم الدقيقة وبيوتهم الصغيرة بعد سكوت كلمات الحب.

حول بحيرة السيف «السيف الذي عاود الظهور» والذي تحكي عنه الأسطورة أنه كان هدية من الآلهة حملتها السلحفاة المقدسة على ظهرها خارجة من أعماق البحيرة لتسعف به الملك حتى يصد أعداء مدينة التنين الصاعد؛ حول هذه البحيرة كان لاعبو

الدومينو الفيتنامي أو السيجة الفيتنامية يصنعون دوائر وهم منهمكون في اللعب وقد جلسوا القرفصاء. وبائعات قصب السكر والذرة المشوي يجلسن على كراسي خشبية صغيرة يعرضن بضاعتهن للساهرين. وفتيات يحملن بطاقة ملاجئ الأيتام يبعن صورا وكتيبات سياحية وتاريخية فقيرة الطباعة. تفقدت معروضات إحداهن فلم يرق لي أي منها وأعطيتها ورقة نقدية ضئيلة على سبيل الهبة ففزعت في وجهي: «لا أريد نقودا دون مقابل.. اشتر مني». واضطررت أن أشتري نسخة رديئة الطباعة من رواية الأمريكي الهادئ» برغم امتلاكي طبعة بنجوين الأصلية. وعندما دخلت في يوم تال إلى إحدى المكتبات اكتشفت أن البنت التي رفضت التسول ضحكت علي إذ باعتني الكتاب بخمسة أضعاف ثمنه!.

يطلع النهار دافئا ورطبا في هانوي بينما نحن في يناير، ونستيقظ مبكرا لنشاهد جماعات مصطفة تؤدي تمارين «التاي شي» على ضفة البحيرة، وتدب الحركة في الشوارع أبكر من أي مدينة أخرى رأيتها، ولأننا صممنا اليوم ليستوعب جولة في المدينة فإننا نركب اثنتين من الدراجات ثلاثية العجلات «التريسكل»، وهي شبيهة تلك التي في الهند باسم «ريكشا» وفي تايلاند باسم «توك توك» وفي الصين باسم «ريكشو». وهي في فيتنام تسمى «تسيكلو»، بثلاث عجلات، واحدة في الخلف واثنتان في الأمام ويقوم عليهما مقعد لجلوس الزبون أو الزبائن، فيمكن أن ترى أسرة فيتنامية كاملة في هذا المقعد، بينما سائق الدراجة (يبدل) بقدميه خلف المقعد. والتسيكلو الفيتنامي في رأيي ألطف من الهندي والتايلاندي والصيني، فهو الوحيد الذي يجعل الراكب جالسا في الأمام والمجال مفتوح أمامه لرؤية الشارع، وهو إحساس بديع وطازج.

وصلنا إلى بحيرة «هوتاي» في أقصى شمال المدينة واسمها يعني «البحيرة الغربية»، وهي أكبر بحيرات هانوي، تبلغ مساحتها ٥٨٣ هكتارا وتقع في حوض قديم من أحواض النهر الأحمر ويمحاذاته. وعلى ضفاف البحيرة قلعة من الخشب والبامبو يرجع تاريخها إلى زمن الاحتلال الصيني في عام ٥٤٥، وعلى شبه جزيرة ممتدة في البحيرة ثمة معبد بوذي «باجودا» يسمى معبد «حامي البلد» وهو عائد إلى القرن السابع عشر وهو نموذج للمزج بين المقدس والملكي عند الفيتناميين. فكثيرا ما وجدت معابد

هي في الأصل أضرحة للملوك. وليس المزج وقفا على المقدس والملكي، بل هو قائم بين الإنسان والحيوان والطبيعة، وماثل في الواقع والأسطورة التي تعامل كواقع. فعلى سبيل المثال ثمة أسطورتان تفسران كيف تكونت هذه البحيرة الغربية. أولاهما تقول: إن البحيرة كانت جحرا هائلا لثعلب شرير ذي سبعة ذيول كثيرا ما كان يخرج من جحره ليروع الجوار، فذهب التنين الملك وسحبه من جحره وأصر النهر الأحمر أن يغمر الجحر بالماء حتى لا يعود إليه الثعلب ومن ذلك تكونت البحيرة، والأسطورة الثانية تقول: إن مكان البحيرة كان مرقدا لجاموسة ذهبية هائلة وكان هناك راهب لديه جرس برونزي وعندما قرع الجرس حسبته الجاموسة الذهبية صوت أمها فخرجت لتملأ مياه النهر مرقدها فتكونت البحيرة! ودائما هناك في هانوي بين كل بحيرة وبحيرة بحيرة ثالثة أصغر. فلصق البحيرة الغربية ثمة بحيرة صغيرة تسمى بحيرة الحرير الأبيض «تروك باش» لأنه على ضفتها كان هناك مبنى مخصص للحريم كانت الوصيفات فيه يعكفن على نسج الحرير الأبيض لثياب الأميرات.

بين البحيرتين مضينا وإذ بنا في شارع «دونج هونج فونج»، وإذ بشكل البيوت يتغير، وفجأة ظهرت الأبنية كولونيالية الطراز والحدائق والشوارع المشجرة فأخرجت الخريطة لأدرك أنني على مرمى حجر من حدث مثير لم أكن أتصور أبدا أن يتحقق في حياتي.

لقاء حقيقي مع هوشي منه!

انفسح الشارع فجأة وأفضى إلى ميدان كبير هو ميدان «باردينه»، وعلى ربوة خضراء رأيت الكتلة المعمارية المكسوة بالرخام الرمادي وقرأت بالأحرف اللاتينية (إذ إن اللغة الفيتنامية تكتب باللاتينية منذ زمن الاحتلال الفرنسي) «MINH - CHI - HD»، وصحت في وجه مرافقنا «كيو» وأنا أشير إلى المكان: «سندخل، سندخل» وإذ به يؤمئ موافقا ببساطة. وذهب وتحدث مع مركز الحراسة الذي لا يسمح للسيارات ولا للأفراد بعبور المكان دون إذن. وبعد مفاوضات «كيو» سمحوا لي ولسليمان حيدر بزيارة ضريح هوشي منه على ألا نأخذ (الكاميرات) معنا وأن نلتزم بالنظام المتبع عندما يكتمل الطابور. وبالمصادفة كنت على رأس الطابور! ثم جاء ضابط وتقدمنا بخطوة

منتظمة عبر الميدان واستدار إلى مدخل الضريح بين صفين من الحرس ومضى بنا على بساط أحمر أخذ يمتد ويمتد. صعدنا درجا، ودرنا يمينا ثم صعدنا درجا آخر، وانعطفنا ندخل بابا وإذ بقاعة معتمة وضوء ساطع وحيد ينصب على وجه رجل نائم وجسد مسجى. إنه هوشي منه.

يا الله. كم هو وديع في رقدته هذه! وأبيض أكثر مما تصورت. وشعره البلاتيني مع ملامح وجهه المغمض الدقيقة المسالمة، ويداه المبسوطتان المتطامنتان إحداهما على الأخرى فوق بطنه، وبذلته الرمادية البسيطة، كأنه قديس نائم في غمرة الضوء.

إن جثمان هوشي منه موضوع في صندوق من البلور الشفاف مفرغ الهواء، محمول على قاعدة تتوسط بئرا مربعة يقف عند كل ركن من أركانه حارس شاكي السلاح.

والبئر محاطة بدرابزين من الرخام يدور حوله الزوار دورة واحدة يطلون فيها على الجثمان الواقع في مستوى النظر ثم يمضون خارجين، بلا صوت، بلا صوت. ولما كنت على رأس الطابور فقد تباطأت بأقصى ما أستطيع لأرى وأمعن النظر وأتذكر دقائق المشهد الذي لا يزال، وسيظل طويلا، يسطع في ذاكرتي.

«باك هو» العم هو.. هكذا يسمونه في فيتنام أيضا. إنه أحد نجوم صباي. بل إحدى أساطير عمر الصبا. ولكم كنت مفتونا بإنسانية هذا الرجل وأحفظ من أقواله ما كان يردده على أسماع الأمريكيين: «إنه لشيء مؤسف، إنكم تأتون لقتلنا، فنضطر إلى قتلكم»، و«لا شيء أغلى على الإنسان وأثمن من الحرية». كان رومانتيكيا ثوريا يناسب وهج ذلك العمر الحبيب البعيد. (حدوتة) إنسان صغير استطاع أن يجترح المستحيل/ الحلم، ويؤكد أن طغيان القوة يمكن أن ترده إرادة الضعيف وعزة نفسه. العم هو ـ ياه ـ لكم كنت معجبا برحلته العجيبة في الحياة، وتنقله في أركان الدنيا، من (جرسون) على ظهر سفينة فرنسية إلى (جنايني) في باريس، فحمال ثلج في لندن، وعامل تصوير في نيويورك. أجاد الفرنسية والإنجليزية والألمانية والصينية، والدفاع عن حرية بلده وحرية شبه جزيرة الهند الصينية كلها. عاد إلى فيتنام بعد ثلاثين عاما من الغربة ليبدأ عام ١٩٤١ م ـ وهو في الحادية والخمسين ـ السير في اتجاه تحرير بلده المقسم آنذاك بين احتلال شرقي ياباني وآخر كولونيالي فرنسي. ومع ضغوط جبهة تحرير فيتنام التي

شكلها، آثر اليابانيون أن يمضوا دون هزيمة في أغسطس ١٩٤٥، بينما مكث الفرنسيون ليواجهوا حرب عصابات استمرت ثمانية أعوام لتنتهي بهزيمة / فضيحة للفرنسيين في معركة ديان بيان فو عام ١٩٤٥ بعدها صار «العم هو» رئيسا لفيتنام الشمالية التي دخلت في حرب زحف لتوحيد الجنوب واجهت فيها كل جبروت الولايات المتحدة الداعمة للحكومة الجنوبية، لكنه مات في سبتمبر ١٩٦٩ فلم يشهد وقائع الساعة السابعة وثلاث وخمسين دقيقة من صباح يوم ٣٠ أبريل ١٩٧٥ عندما حلقت هليكوبتر أمريكية لتلتقط آخر جندي أمريكي من فوق سطح السفارة الأمريكية في سايجون منهية بذلك وجود الولايات المتحدة في شبه جزيرة الهند الصينية. لم يشهد «العم هو» هذه اللحظة لكن سايجون تغير اسمها وصارت بعد ذلك «مدينة هوشي منه» عاصمة الجنوب في فيتنام الموحدة.

لقد رأيت هوشي منه، ورأيت بيته الخشبي على ضفاف بحيرة قريبة وراء القصر العائد إلى الحاكم الفرنسي والذي رفض أن يسكنه هوشي منه إذ قال: «إنه كبير وأنا رجل وحيد». وظلت صورة الجثمان المسجى والوجه الوادع لاصقة بذهني وأنا أطوف بأرجاء المكان. برغم أن تحنيطه منحني فرصة للإطلال عليه فإنني أحسست أنه يتعذب من هذا البقاء وهذا العرض المستمر، ولقد عرفت من ردود الاستعلامات على أسئلتي أن الضريح بُدئ بناؤه في سبتمبر ١٩٧٣ (من جرانيت ورخام وأخشاب جُمعت من كل أنحاء فيتنام) وانتهى في أغسطس ١٩٧٥، في هذه الأثناء كان الجثمان محفوظا في غرفة مثلجة داخل البناء حتى تم عرضه. وهو يغيب شهرين في السنة يشحن خلالهما إلى موسكو (ليعالج) ويعود. شقاء. رأيت ذلك شقاء، وكان هوشي منه نفسه ضد ذلك، وأوصى بدفنه بعد موته كسائر الفيتناميين. لكن (رفاقه) حنطوه ـ برغم إرادته ـ حتى تملأ الجماهير عيونها منه خاصة هؤلاء الجنوبيين الذين قدر لهم ألا يروه في الحياة!! وكم من الفظاظات ترتكب باسمك أيتها الجماهير، وبالمناسبة فإن الميت الفيتنامي يدفن مرتين، الأولى في قبر عادي حتى يتحلل جسده ولا تبقى غير العظام وبعد ٣ ـ ٥ سنوات يفتح القبر وتؤخذ العظام وتنضد في صندوق من السيراميك تهيؤا للانعتاق، أو الانبعاث في كائن حي آخر، تبعا لحسن أو سوء عمل الميت. فالفيتناميون ـ بوذيون وكونفشيوس وطاويون ـ

يؤمنون بدورة التناسخ. ومن المناظر المألوفة أن ترى كثيرين من الناس يغطون أنوفهم وأفواههم في الشارع، وفوق الدراجات، وفي الحقول، بقناع من القماش. والغاية ليست وقاية من الأتربة الكثيرة وأدخنة العادم، فلا عوادم في الحقول، بل إنها احتراز أن يدخل واحد من الكائنات الحية الدقيقة فم الإنسان فيبتلعه دون أن يدري بينما هذا الكائن هو موضع حلول أخ أو قريب مات.

إنهم متدينون وأسطوريون برغم لافتات الشيوعية والأعلام الحمراء والنجمة الخماسية المشدودة على الرايات وكأنها إحدى نجوم موسكو السوفييتية الآفلة. ولا ينبغي أن ننسى أن شرارة الحرب مع الجنوب المدعوم بالأمريكيين بدأت عندما انتحر الراهب البوذي «وثينش كوانج دوك» البالغ من العمر ٦٦ عامًا صباح ١١ يونيو ٦٣ في سايجون بإحراق نفسه علنًا حتى الموت احتجاجا على اضطهاد البوذيين على يد النظام الحاكم الفيتنامي الجنوبي الموالي للأمريكيين آنذاك «نجو دينه ريم». وبرغم شيوعية النصف قرن في فيتنام فإنه يكاد لا يوجد شارع ولا زقاق في فيتنام إلا وترى فيه «باجودا» أي معبدبوذي، أو مزار كونفشيوسي، مهما صغر حجم هذه المعابد أو هذه المزارات.

حتى العِلم، له تراث ديني عميق، فقد زرنا، بعد ضريح هوشي منه، مجمعا معماريا عتيقا ذا نسق صيني يسمى «فان ميو» ويعني: «معبدالعلم»، وقد بُني هذا المعبد عام ١٠٧٦ وكُرِّس «لفضل كونفشيوس» وملحقة به أبنية متعاقبة تسمى «كويوك توجيام» وهي تعتبر أول جامعة فيتنامية، وواضح أنها سبقت الكثير من جامعات الدنيا، أوكسفورد مثلا! وفي هذه المدينة العلمية / الروحية، نقرأ على الباب لافتة قديمة تأمر الداخل أن «يتأدب ويترجل عن حصانه»، وعبر «بوابة النجاح العظيم» نجد باحة ذات أروقة وفي الأروقة تحت الأشجار تنتصب ١١٧ لوحة من الجرانيت محمولة على ظهور سلاحف جرانيتية أيضا، وعرفت أن كل لوحة تحمل اسم عالم من النابهين الذين حصلوا على درجة الدكتوراة قبل أن تولد هذه الدرجة بمفهومها الغربي بقرون، وعلى اللوحة بعد الاسم حفروا مسردا بالأعمال العلمية التي أنجزها صاحب الدرجة. وفي عمق «الجامعة» كان هناك معبدكونفشيوسي، ورأيت مرافقنا ـ ككل الفيتناميين في المكان

ـ يذهب ويشعل عودا من البخور يضعه بين يدي تمثال لكونفشيوس وينحني مرات متتابعة وهو يردد أدعية، سألته عنها بعد أن فرغ من طقوسه فترجمها لي وهي تقول: «إلى من حفظ روح الأمة وصان موهوبيها».

كل شيء يختلط بالمقدس في فيتنام، العلم والعمل والموت والميلاد والزواج، وكل شيء يتداخل مع كل شيء في أخوة الحياة: البشر، والشجر، والحيوان، والطير. وكل ذلك يرتكن على زخم أسطوري ويقين روحي متجدد، لهذا فإن أي محاولة للتغريب بزعم التحديث هي فاشلة سلفا ابتداء من حرب الأمريكيين ضد هانوي وحتى الماركسية اللينينية. لقد قال أحد الأمريكيين عن الحرب الفيتنامية: «لقد كسبنا كل المعارك لكننا لم ننتصر». نعم، وكيف كان ينتصر اليانكي والمارينز المدججون بالقاذفات الثقيلة والكاشف الأحمر القاتل للبشر والشجر والقنابل الموجهة بالليزر التي كان أول استخدام لها عام ١٩٧٢ لتحطيم جسر «هام رونج» أو «فك التنين» الذي عبرنا عليه نهر «ما» جنوبي هانوي عندما ذهبنا لزيارة العاصمة الإمبراطورية القديمة. كيف ينتصر هؤلاء المتحركون بالمسطرة على هؤلاء المتحركين بالأسطورة. مواجهة محسومة لصالح من يعتقد أن روحه ستخرج لتنتقل إلى أخ آخر: إنسان أو حيوان أو طير، وما الموت إلا ولادة جديدة. بينما الآخر يعتقد ببؤس أنه ميت بموته.

تلك الماركسية اللينينية أيضا، ما هي إلا رطانة خارج إيقاع الحياة الفيتنامية. فغرب شارع «تران نهان تونج» عثرت على حديقة تسمى حديقة لينين، وهي شاسعة ووارفة تحيط ببحيرة داخلية، وعند مدخلها وجدت تمثالا للينين وكأنه في أحد الميادين أو الحدائق السوفيتية المندثرة، واقف وقفته الخطابية تلك ويده اليسرى في جيبه بينما يده اليمنى تمسك بصدر معطفه. صورة نشاز وسط سيل الدراجات والتسيكلو وحاملات القصبات ذات الكفَّتين والمعتمرين بقبعات القش المخروطية ولا بسي أقنعة القماش على الأفواه. صورة نشاز، صورة لينين تلك في قلب هانوي، ولقد سمعت في شأنها أهزوجة ساخرة مرحة يرددها الفيتناميون، وهي على هيئة متتالية من الأسئلة يوجهها عابر فيتنامي للتمثال: «السيد لينين» ألست أنت من روسيا؟ ولماذا أنت واقف هنا في هذه الحديقة؟ ولماذا يدك اليمنى على جيبك الأمامي؟ ويدك اليسرى على جيبك

الخلفي؟». ويضحك الفيتناميون، ويظل التمثال صامتا! ونغادر هانوي ضاحكين.. باتجاه الشمال الشرقي، إلى خليج هالونج.

إلى الأعالي.. رأس التنين

نهار كامل على طريق وعر في سيارة روسية، بين البلدات، والقرى، وحقول الأرز، والبحيرات، والتلال، على الجسور العديدة فوق أنهر لا تنقطع عن الظهور، ومن ذرا الجبال المغطاة بالغابات المدارية إلى ذرا جبال أخرى. نهار كامل مليء بالصعود، والهبوط، والتوقف، والمسير، والضحك، والجوع، والعطش، والشبع، والارتواء، والتعب، وبعض الخوف، وكثير من الطمأنينة. «كأننا» كأننا نمضي على ظهر تنين».

برقت في خاطري الصورة وأنا أتخيل فيتنام تنينا هائلا يتمدد على حافة بحر الصين الجنوبي المرفود من المحيط الباسيفيكي. ونحن على ظهر هذا التنين نمضي بتلك السيارة الأجشة، نرتفع فوق ثآليل ظهر التنين ونهوي في قيعانها. صورة خطرت لي وأنا أتأمل معنى الاسم الذي يحمله الخليج الذي نسعى إليه: «هالونج» أي «التنين القابع».

لقد وصلنا إلى المدرسة التي تحمل اسم الخليج «هالونج» بينما خيم الليل، فبتنا تحت خيمته في أحد الفنادق الصغيرة مهدودين. وفي النهار أفطرنا وجبة من الموز المقلي ومكرونة الأرز في حساء الدجاج بالشطة، وحملنا معنا بعضا من الفاكهة وكيسا من شرائح الموز الرقيقة المجففة المملحة، وهي (فيشار) الفيتناميين، ولا بأس بها. ابتعنا بعض زجاجات الماء، وخريطة بحرية واتجهنا إلى الشاطئ لنستأجر زورقا يُبحر بنا في الخليج.

بعيني المبهورتين ورأسي المشدوه رحت أتفاوض مع أصحاب الزوارق والمراكب، سألوا إن كنا نريد أن نتعمق في الخليج، فقلت: لو إلى حدود المحيط. لقد كان الخليج أمامي، مذهل السحر بينما تطل من هدأة مياهه وصفائها تلك الرءوس الجبلية الخضراء.. كأنني أطل على منظر في أسطورة تناديني إلى قلبها. لقد كونت فكرة عن

الطابع الأسطوري في الثقافة الفولكلورية والروحية لدى الفيتناميين. لكنني لم أكن أتصور أن للبيئة أيضا أسطورتها.

أخبرني البحارة أن الإيغال في الخليج يتطلب مركبا قويا ولن تنفعنا في ذلك زوارق «السحبان» الضئيلة أو زوارق «الجنك» ذات الأشرعة. فاتفقنا على مركب خشبي كبير بمحرك ميكانيكي. وهم يطلقونه على هذا النوع من المراكب «بوم» تماما كما في الخليج العربي. وأنزل البحارة سقالة إلى الشاطئ لنصعد عليها بينما كان هناك واحد عند أعلى السقالة وآخر عند أسفلها، يحملان على كتفيهما عودا من البامبو صار (داربزينا) تساندنا عليه ونحن نصعد إلى ظهر المركب العالي. وانطلقا في السحر الخالص، والرهبة والشجن.

لقد أخذ الخليج اسمه من أسطورة تحكي عن أنثى تنين مقدسة مهيبة. كانت تظهر بين الحين والحين قادمة من بين السحب لتطلق صغارها كيما يمرحوا في جزر الخليج العديدة الخضراء. وفي زمن الجفاف كانت تسعف الأرض بماء مسحور وعند العواصف كانت تهبط لتمنع الريح من إغراق زوارق الصيادين الفقراء. وكانت تعيد من يسقط منهم في الماء سالما إلى الشاطئ. وعندما اختفت مع صغارها بين السحب ظهر إمبراطور شرير سام الناس في المكان العذاب. ولما صرخوا طالبين العون ظهرت التنينة المهيبة غاضبة من بين السحب وراحت تصب أنفاسا نارية على الظالم وأتباعه حتى أحرقتهم. وسمي الخليج باسمها. وتحولت ألسنة النار التي أطلقتها إلى ألسنة صخرية تشرئب من الماء.

سذاجة حلوة، ومبنى حكائي يدل على إحساس عميق بمعاناة الغبن الطويلة وإيمان عميق بأن لكل غبن نهاية. لكن الحقيقة خارج الأسطورة هي أن هذه الجزر الخضراء المشرئبة فوق الزرقة هي قمم لجبال مختبئة تحت الماء الذي غمرها منذ بدء الخليقة. ومن بعد انهمرت عليها مياه الأمطار فنحتت منها أشكالا وحفرت فيها مغارات وكهوفا وأنفاقا مازالت تجري داخلها مياه جوفية عذبة.

تخيلوا معي ما كان يخايل بصري، بينما مركبنا يشق طريقه في صفاء الزرقة العميقة ويجتاز رأسا خضراء تظهر من خلفها رءوس ورءوس. ألف رأس صخري تكسوه

الخضرة كانت تتناثر على صفحة الماء المترامي في مساحة ألف وخمسمائة كيلومتر مربع تشكل مساحة الخليج. صخرة تأخذ شكل ديكين يتقاتلان. وصخرة تأخذ شكل صياد عجوز في لحظة تأمل. وصخرة ترسم هيئة قلعة. وأخرى توحي بصورة عماليق ما قبل التاريخ. ولا تنتهي الأشكال الهائلة على صفحة الماء هادئ الرقرقات.

راح الشاطئ يبتعد، وكان آخر ما رأيناه في ذهابنا هو الجزء المسمى بالفيتنامية «باي شاي» أي «الضفة المحروقة»، لأن المكان كان قد تعرض لحريق أحال خضرته إلى رماد قبل أن تنبت من جديد بينما كان يسميها الفرنسيون الذين احتلوا المكان ضمن احتلالهم للشمال الفيتنامي: «فاتشاي». وهو شاطئ يمتد في ظل جبل عريض يكسوه بساط من الخضرة الكثيفة وتتناثر على مدارجه «ڤيلّات» بيضاء صارت فنادق بديعة.

لم يعد هناك غير الماء ورءوس الجبال الطافية المتعاقبة. ودخلنا بالمركب في ظل إحداها بعد أن أوقف البحارة المحرك. ساد صمت كأنه خارج الزمن وهبطنا إلى شاطئ الرأس الصخري المسمى رأس الشظايا «داو جو» لندخل في مغارته التي تأخذ فوهتها صورة نجمة بحر. وفي جوف المغارة اتسعت قاعة خرافية تصعد من أرضها وتتدلى من سقفها حليمات هائلة من الرواسب الكلسية ومن هنا نبعت التسمية. وعبرنا نفقا إلى الجانب الآخر المفضي إلى خور فيروزي المياه وكانت الجدران الصخرية ترشح بمياه تذوقنا عذوبتها المدهشة. وفي طريق العودة تبدت الزوائد الصخرية وهي تكون معرضا لنحت غريب أبدعته يد القرون. أشكال لفارس يرفع سيفا، وفيل غاضب، وحصان جامح يعدو، ورجل تُبعثر أسماله الريح. وكان ذلك كله في بطن الجزيرة الصخرية التي ترتفع ١٨٩ مترا فوق سقف الكهف.. فوق رءوسنا.

ومن رأس جبلي إلى رأس جبلي. ومن مغارة إلى أخرى. مكثنا نبحر ولم يكن الخليج مهجورًا، فثمة بشر يبحرون فيه، ويقيمون أيضًا، صيادون فقراء كانوا يسرعون إلى مركبنا بزوارقهم الصغيرة ليعرضوا علينا صيدهم بأسعار زهيدة. حفنات من الاستاكوزا، والقريدس، والمحار، والأصداف، والسمك.

وكانت هناك (دكاكين) متنقلة تبيع كل ما يلزم السائح. زوارق تبيع الأفلام، وبطاريات آلات التصوير، والأدلة المطبوعة، والصور والقبعات، والخبز.

أما عما يكسر القلب في هذا المجال الفطري البكر، فهو الزوارق ـ البيوت التي يسكنها فقراء الصيادين في هذا الخليج، زورق يضم أسرة كاملة، الأب والأم والأطفال، والموقد، والأغطية، وعشة الدجاج أيضًا، وزورق ينساب وليس فيه إلا مجموعة أطفال لا يزيد عمر أكبرهم على سبع سنين، كأنهم في البيت وقد تركهم أبواهم وذهبا للعمل. وبنت صغيرة تجدف وحدها في زورق نحيف وكأن والدها أرسلها لتشتري له شيئًا من السوق القريب. وزورقان ربطا معا ينتشر على ظهريهما أفراد أسرة كبيرة العدد.. الأم تغسل والأب والابن الأكبر يصنعان خزانة خشبية والأطفال معا يرعى كبيرهم صغيرهم.. أسرة كبيرة، وبيت كبير.. عائم!

سكان الزوارق كانوا لمسة الأسى الحاضرة في خليج هالونج، ولمسة أسى أكبر كانت غائبة عنه لكن ذاكرة التاريخ تحفظها.. إنهم لاجئو القوارب الفارون من فيتنام بحثًا عن رزق أوفر أو حرية أكثر. من هذا الخليج مروا.. ومضوا في المجهول يلتمسون شاطئا ترسو عليه قواربهم التي كانت في أحيان كثيرة لا تزيد على مجرد لوح من الخشب أو باب قديم.

مئات الآلاف وصلوا إلى هونج كونج من الشمال، وإلى تايلاند من الجنوب. لكن معظمهم شاء الهرب إلى حلم فوقع في مأساة، ففي تايلاند عند رجوعنا علمنا عن قمع احتجاج للاجئي القوارب الفيتناميين الذين وضعتهم السلطات التايلاندية في معسكرات هي إلى السجون أقرب. وكانت الصور التي نقلتها شاشات التليفزيون شديدة القسوة، وشديدة البؤس. ولقد كان اللاجئ من قبل تتاح له فرصة العودة ليبدأ من جديد في وطنه ويقدم له عونًا قدره خمسمائة دولار، بمساعدة المجموعة الأوربية. وكان هناك من يعاود الهروب بعد أخذ العون ويرجع ليأخذ مرة ثانية وثالثة. حتى توقف العون. ولم يتوقف هروب بشر القوارب.

لقد تبدلت صورة الخليج كثيرا مع فيض الخواطر وانحسارها. وتبدلت الصورة أيضا مع فيضان ضوء النهار وانحساره.. ففي الصباح كان الضباب الفضي ينحسر رويدا رويدا كأنه ستارة مسرح كوني تنفتح على المشهد الجليل. وفي الظهيرة كانت خضرة الرءوس الصخرية تتوهج ألقا مع اشتعال بريق الشمس في الماء. وفي الغروب كان

الشفق يُظاهر مئات الأجرام الصخرية التي تبدو كما أراد تصويرها سليمان حيدر ـ رفيق رحلتي ـ في لقطات السلويت ـ سوداء بين أفق وماء يشتعلان بالحمرة.

ثم غابت الشمس، وصار لون الأفق ولون الماء بنفسجيا، فمضينا نقفل راجعين إلى الشاطئ الفيتنامي، قبل أن تتكاثف الظلمة، ويطل الكائن المهول من الماء.. فثمة حكاية ثابتة باتت تتردد في المكان، عن وحش بحري غامض يسكن مياه الخليج، ويطل برأسه من الماء بين الحين والحين. ولا أحد يعرف حدود حجمه، ولا مدى خطورته.

سوريا (حِمْص)

رحابة المكان.. مرافئ الزمان

ونمضي في «حمص» التي تترامى رحبية في القلب السوري الرحيب.. من مسرى النسيم في ذرا قلعة الحصن، إلى مرسى القوافل في تدمر ومن مودة القلوب الطيبة في مدينة ابن الوليد، إلى بسمات الزهر في بساتين العاصي. ومن خضرة مدارج وادي النضارة، إلى عمق مغارة ملونة عمرها مائة مليون عام.

«يسعدْ صباحك سورية صُبْحك حِلُو»

كما في عديد المرات التي زرت فيها سوريا، وجدت ذلك المقطع من أغنية صافية بعيدة، لفرقة هواة مجهولة، يتردد في صدري. فالصباح السوري له طعم خاص حقا، فما إن تخرج إلى الرحاب السوري المضاء بشمس أليفة خارج أبواب مطار دمشق، حتى تجد نفسك منطلقا بين خضرة السرو والعالي والحور والصنوبر، وحمرة زهور الدفلى. ثم توغل في دمشق فلا يجعلك بعض الزحام وبعض الغبار - إن كنت منصفا وعارفا - تنسى أنك تمضي في دروب أقدم مدينة في العالم ظلت عامرة ومأهولة دون انقطاع، ومنذ الألف الثالثة قبل الميلاد.

وتوغل أكثر، فيلقاك الياسمين على أسيجة بيوت دمشق القديمة، وقبل أن تصل سيارتنا إلى مبنى وزارة السياحة للقاء الوزير الدكتور «دنحو داود»، نمر على مقربة من سوق الحميدية، فأتذكر المسجد الأموي، وذلك النور الناعم والظلال الحنون اللذين يحيطان به وبالمنطقة العتيقة من حوله. وكأنه يقرأ ما بداخلي، سألني مرافقنا الشاب من العلاقات العامة بوزارة السياحة الأستاذ «أنس قولي»: «ألا تفكرون في تغطية

عملية ترميم الجامع الأموي؟». فأعلن عن التمني، لأنني أتابع تلك العملية الكبرى منذ سنوات، منذ شملها برعايته الكريمة فخامة الرئيس حافظ الأسد.

وكأننا كنا على موعد مع القديم الجليل، منذ أول خطونا في الواقع السوري باتجاه مقصدنا، محافظة «حمص»، فعندما تحدثنا مع الدكتور وزير السياحة السوري، عن تصورنا لاستطلاع يتناول محافظة «حمص»، بعد ثلاثة وثلاثين عاما منذ أجرت «العربي» فيها آخر استطلاعاتها في مارس ١٩٦٣، فاجأنا الدكتور الوزير بهدية صحفية لم تكن تخطر على بالنا، إذ قدم لنا أول تقرير عن «مغارة القصير» حديثة الاكتشاف، مع إذن بزيارة هذه المغارة الحدث، التي يقدر عمرها بنحو مائة مليون عام، لنكون بذلك أول بعثة صحفية في العالم ـ بعد الصحافة السورية ـ تدخل هذه المغارة الهائلة، ولتكون هذه هي أقدم مرافئ الزمان التي رسونا عندها في محافظة «حمص»، أكبر المحافظات السورية مساحة وأكثرها تنوعا بيئيا، إذ تشغل منطقة الوسط السوري بمساحة ٤٣ ألف كيلومتر مربع، ممتدة من بادية الشام شرقا، مارة بحوض نهر العاصي، ومنتهية بالحدود مع لبنان غربا. شمالها تحده محافظات حماة والرقة ودير الزور وجنوبها محافظة دمشق. أما نهر العاصي الذي يقسم واديه هذه المحافظة إلى قسمين متمايزين مناخا وتضاريس فقد سمي كذلك لأنه النهر الوحيد الذي يتجه في سوريا من الجنوب إلى الشمال.

لغة الأشجار

خلال ساعتي السفر، من دمشق إلى حمص، أعدت قراءة كتاب الأستاذين «منذر الحايك» و«فيصل شيخاني» «حمص.. درة مدن الشام»، ومع اقترابنا من المدينة كانت الجبال تتراجع عن جانبي الطريق، ويصير المدى سهلا، وعلى مشارف «حمص» ـ وحدها ـ ألاحظ أن الأشجار تميل باتجاه الشرق ميلا واضحا وتنحني كأنها ستهوي. وأتذكر تخريجا طريفا ورد في مقالة ممتازة للشاعر «شوقي بزيع» عن شاعر حمص القديم الأشهر، وعن شاعريتها، وجمهور الشعر الكبير المتميز فيها، بعنوان «أسطورة ديك الجن المتجددة» يشبه فيها هذه ا لأشجار بأنها «كأجساد نساء غابرات ينُحن على «ورد» المقتولة ويهيئن لشاعر حمص عويلا لا يكف عن تجديد نفسه إلى ما لا نهاية»

والمعروف أن ديك الجن، أو «عبدالسلام بن رعنان»، المولود عام ٧٧٨ ميلادية، أصله من سلمية (قرب حماة) لكنه ولد،وعشق، وشك، وقتل معشوقته «ورد»، كل ذلك في حمص، ثم هام على وجهه في متنزهات الميماس على ضفاف العاصي، يقصدها ليلا، وينشد فيها مرثية عشقه الدامي البديعة: «يا طلعة طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردى بيديها». لكن أشجار «حمص» كانت تميل وتنحني لسبب آخر (غير السبب الشعري!) هو الأثر المديد للرياح الشهيرة التي تهب على المدينة من الغرب وتجعلها دائما أبرد من دمشق بنحو خمس درجات، حتى ليقال إن أهل حمص ليسوا في حاجة إلى الذهاب للمصايف؛ فمدينتهم بذاتها مصيف، وعن جغرافيتها يتحدث كتاب «درة مدن الشام» فيقول إنها تسموفوق هضبة لطيفة ترتفع حوالي ٤٠٠ متر فوق سطح البحر المتوسط أمام نافذة خليج عكار، مواجهة تلك الفتحة في جبال لبنان الغربية، فتهب عليها نسائم البحر المتوسط لترطب أجواءها صيفا وتعدها بالغيث في الشتاء. والمستعرض لبنية حمص الظاهرية يلاحظ عدم وجود الجبال المعيقة بها، لهذا كانت ـ ولاتزال ـ عقدة مواصلات مهمة. ولقد ساهم موقعها ليس في جعلها منطقة اتصال إداري مهم فحسب، بل جعلها منطقة اتصال ثقافي، واتصال اقتصادي، واتصال إنساني أيضا. «فالجغرافيا أم التاريخ»، أقول لنفسي ذلك ونحن ندخل حمص، مارين بأشجار السروالصنوبر البري في غابتي ٨ آذار و٦ تشرين، وتلفت نظري جزيرة الخضرة المؤنقة بين نهري الشارع، والمصابيح ذات اللمسة التراثية في الوسط، وتتوالى على يسارنا في البعيد أبنية الجامعة التي تتكاثر وتعلو، فعدد الكليات بها يتزايد كل عام.. ستكون بها كلية للطب في العام الدراسي القادم، وكلية للصيدلة بعد ذلك.

نوغل في قلب حمص (المدينة)، فتمنحنا شوارعها طمأنينة وألفة، ثم نخترق شارع «المتنبي» الشهير باسم شارع «الدبلان» (ويمثل القلب التجاري الحديث للمدينة)، فلا يفزعنا الزحام، إذ إن دعة البشر على حالها، تتجلى في وجوه هذا الخليط البشري من أبناء وبنات المدينة، والريف، والبادية. وأنتبه منذ البداية وحتى الأطراف إلى تلك التغيرات الإنشائية الجمالية، فثمة مقبرة كانت تتوسط المدينة تحولت إلى حديقة، وثمة مصابيح وتشكيلات من الإنارة التزيينية تعلن عن وعدها المضيء في الليل، والطرقات صارت أنظف وأفضل تعبيدا وتشجيرا. إنه أفق هندسي جمالي يعلن عن

مشروع طموح لدى إدارة المحافظة وعاصمتها. ولقد تيقنت من ذلك عبر اللقاء المليء بالمودة والوضوح مع محافظ حمص المهندس محمد ناجي عطري، ثم رئيس مجلس المدينة المهندس محمد بسام النجار وكان يعنيني أكثر ما يعنيني في اللقاء الإجابة عن سؤال يتفق مع جوهر استطلاعي: «ماذا لدى الحاضر لصون الماضي.. واستثماره أيضا؟». ولقد أثلجت الصدر تلك المخططات بعيدة النظر للحفاظ على ما تبقى، وتنمية الجديد في المحور التراثي أوالسياحي بحمص القديمة، وضوابط البناء والهدم والترميم، وحفز الناس على البناء بتقاليد معمارية تستلهم جماليات تراث المدينة. وفي أمسيتين قضيناهما ساهرين مع مجموعة من الفنانين الحمصيين بحديقة نقابتهم تحت أغصان الكرمة المورقة كان تأييد ذلك الطموح المعماري الجمالي واضحا، وثمة اقتراح جيد يقول بأن الأبنية الحكومية الجديدة ينبغي أن تكون القدوة في هذا الاتجاه. وقد لا أضيف جديدا بقولي: إن البناء بجماليات تراثية، كتلبيس الواجهات بالحجر الحمصي الأزرق أواستعادة سقوف القرميد، كل ذلك مكلف، ويتطلب تشجيعا.. ربما ببعض الإعفاءات، ربما ببعض التيسيرات، لكن المؤكد هوأن إحياء هذا المحور التراثي سيكون له مردود اقتصادي سياحي لا شك فيه. ولعل وجود مهندسين معماريين على قمة الجهاز التنفيذي في حمص المحافظة، والمدينة، يؤكد جدية هذا ا لاتجاه.

تل الحنين

لقد سألت الأستاذ أحمد سيف الدولة سلامة مدير سياحة حمص والفنان عون الدروبي عندما التقيتهما فور وصولنا: متى ومن أين نبدأ؟ وكانت محصلة الرؤية أن نبدأ فورا، ومن البعيد فالقريب. لكن الكتابة لها منطق آخر، إذ تدفعني للبدء من ذروة قريبة، من قمة تل حمص وأعالي قلعتها..

صعدت بنا السيارة المرتقى الصعب إلى قمة قلعة «حمص» التي تربض على تل يرتفع عما حوله ٣٢ مترا ويرتفع عن مستوى سطح البحر ٥٣٣ مترا ويقع في الطرف الجنوبي الغربي من حمص. لم تكن هناك غير أطلال البناء القديم وبضعة أبنية برتقالية

مغبرة وحيدة الطابق منذ زمن الاحتلال الفرنسي وبقايا وحدة عسكرية وهوائي ضخم وخزان ماء قديم جاف. لكن التجوال عند حواف تلك القمة كان يمنح، فرصة نادرة للإطلال على «بانوراما» مدينة حمص، خاصة الجزء القديم منها إلى الشمال حيث البيوت القديمة بحجارتها السود وسقوفها من القرميد الأحمر ومسجد خالد بن الوليد بقبابه الفضية ومنارتيه السامقتين شاهقتي البياض. من هذا المرتقى أجدني أتأمل لا فقط حاضر المدينة المنبسط تحت ناظري باتساع كبير بل أتأمل أعماق الأزمنة التي ظل هذا التل منتصبا عبرها كنقطة جذب تؤرخ لحياة المدينة وتموجات هذه الحياة.

فقد أثبتت القرائن الأثرية المكونة من كِسر فخارية وُجِدت في التل أنه أقدم موقع تم السكن فيه إذ يعود تاريخها إلى حوالي ٢٤٠٠ ق. م. وهذا يؤكد أن وجود حمص سابق لتسميتها التي هي «حمص» بالعربية و«إيميسا» «Emesa» باللاتينية والإغريقية. وثمة من يقول إن «حمص» هي لفظة آرامية تعني «الأرض اللينة». وثمة من يقول بانتسابها إلى حمص بن مكتف العماليقي. لكنني أميل عاطفيا وفنيا، إلى ما قرأته في كتاب «حمص.. دراسة وثائقية» للكاتبين «محمود عمر السباعي، ونعيم سليم الزهراوي».

ولقد سرني لقاء الأخير، وأدهشني الشيخ الشاب وهو يجمع بدأب عجيب مادة الجزء الثالث من كتابه المتفرد عن تاريخ «أسر حمص»، يقول الكتاب إنه في فضاء «عاليه» من محافظة جبل لبنان قرية تدعى «حمص» ذكرها الدكتور «أنيس فريحة» في كتابه «أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها» واللفظ «حمص» جذر كنعاني يعني فيما يعنيه «الخجل» ربما من حمرة اللون. ومن المعروف أن الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط تعرضت منذ منتصف القرن ١٥ ق. م إلى غارات «شعوب البحر» أو لصوص البحر عليها، ولعل حمص اللبنانية أصابها ما أصاب أوغاريت التي تهدمت وأحرقت على يد هؤلاء المغيرين عام ١١٠٠ ق. م. ومن ثم انسحب الناجون من حمص اللبنانية باتجاه الشرق التماسا للأمان. وأقاموا في المنطقة الوسطى من سوريا في موقع التل الحالي، وأنشأوا قرية أسموها «حمص» ليعبروا عن تعلقهم بموطنهم الأول على عادة النازحين في كل زمان ومكان. ومن هذا الملاذ الآمن عاودت الحياة نموها واتسعت، فصارت حمص التي ربما أعطتها هذه الهجرة اسمها، وإن كانت جذورها العربية أبعد، فقد كانت هناك موجات هجرة عربية أخرى سبقتها بدأت بالعموريين منذ الألف الثالثة

ق. م، ثم الكنعانيين ـ خاصة من عرف منهم باسم الفينيقيين، ثم الآراميين في إطار الهجرة العربية الثالثة، وأخير جاءت خاتمة الهجرات التي كانت عربية أيضا تحت راية الإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي.

تلك البداية بذلك التل الملاذ، بعد عناء الرحيل. وذلك النسيم الآتي من البحر عبر نافذة الجبل، وأحضان الخضرة المعطاءة على ضفاف العاصي، وشجن الحنين، هل كان ذلك كله وراء تركيبة الشخصية الحمصية التي لا شك في تفردها؟ لقد عرفت هذه المدينة والناس فيها كثيرا من قبل، والطيبة قيمة واضحة تستطيع أن تتلمسها كل يوم، في كرم الناس، وفي تراحمهم، وفي تلاحمهم الاجتماعي، وفي حسن وجوه صباياها وصغارها خاصة، فالخير جميل ويجمل، وأول ما يتجلى حسنا يكون في وجوه الصغار والصبايا.

ولمناسبة الخير فإنني أقطع مشهد تسنمنا لذروة تل حمص، وأنتقل لذروة أخرى وقفنا عليها في أحد أيام استطلاعنا. فأثناء زيارتنا لمشفى «جمعية البر والخدمات الاجتماعية» استأذنت من الدكتور «غانم رسلان» والأستاذ «أديب علوان» اللذين كانا يطوفان بنا أرجاء المشفى، أن ننتقل إلى السفح قليلا قبل الغروب لنرى حمص بصورة شاملة من ضفاف نهر «العاصي» الغربية. مشهد فسيح بديع في غمرة من شلال النسائم والبرودة العذبة بعيدا عن دخان المصفاة. وحمص الراسخة هناك وراء خضرة البساتين الغامرة بينما حمص الجديدة من حولنا في أرض الوعر التي ينهض في صدرها ذلك المشفى المأثرة.

لا تسول.. ولا عقارب

«الوعر» مكان جميل، وأخلاقي أيضا، للامتداد العمراني. فالأرض لم تكن تزرع لفرط ما بها من صخور وحجارة لهذا سميت «الوعر»، وقامت الدولة بتنقيتها وتهيئتها للبناء وتزويدها بالمرافق، وسرعان ما اشرأبت العمائر في تنظيم متقن بإطلالة لا أبدع منها على البساتين التي أتمنى ـ كما يتمنى أهل حمص، وكما أكد ذلك مسئولوها الذين التقيتهم ـ أن تظل «خضراء».. رئة تتنفس منها المدينة، وحقلا للخير يطرح على موائد

أهلها، وبساتين لا أحلى من لقمة هنيئة في ظل كرومها كتلك التي دعانا إليها الأخ والصديق «سعد الفيصل».

هبطنا من قمة مستشفى جمعية البر، لنستكمل طوافنا بأرجاء هذه القمة الإنسانية وفي طريقنا التقينا الدكتور «يوسف الماضي» جراح العظام، الذي عاد بالذاكرة إلى يوم كان في العاشرة من عمره، وكان يرى أعضاء الجمعية، كلا منهم يحمل دفترا ويتجول ليجمع التبرعات البسيطة، خمسة قروش للإيصال الواحد، فيما سمي آنذاك بمشروع «الفرنك». ومن هذه القروش القليلة وإرادة الخير في حمص، وبمباركة الدولة وفعالياتها السياسية والتنفيذية، شمخ صرح حقيقي ونموذج لعمل الخير يكاد يكون فريدا في عالمنا العربي.

فبرغم الضمير الديني وراءه فإنه يبرأ تماما من أي أهداف غير عمل الخير، ويوجه خيره لأهل حمص دون استثناء ولا تفرقة، حتى أن هناك كثيرين من غير المسلمين شاركوا بالتبرع لدعم هذا العمل.

وبينما كنا نتجول في أرجاء المشفى شديد النظافة حديث التجهيز، ابتداء من غرف العمليات حتى أسرة المرضى، رحنا نلم من مضيفينا ببعض من تاريخ الجمعية وأعمالها...

لقد تأسست الجمعية في ٢٣/ ٢/ ١٩٥٥، هادفة إلى مساعدة الفقراء والمحتاجين وتقديم العون للمعوقين والمسنين. وهي تقدم اليوم عونها لأكثر من ١٠٠٠ أسرة وأكثر من مائة نزيل بدار للعجزة، وترعى عددا من المكفوفين وأسرهم، وتقيم دارا للصناعات اليدوية تتعلم فيه ٥٠٠ طالبة سنويا. وفي إطار الخدمات الصحية افتتحت عدة مستوصفات وعيادات ليلية إضافة للمشفى الكبير الذي بدأ افتتاحه عام ١٩٨٨ وهو يضارع أي مشفى استثماري ويتفوق في كثير من المناحي، خاصة الضمير المبرأ من أي غاية للكسب.

إن الخير يستدعي الخير، مهما كان بعيدا، ففي طريق خروجنا من مشفى جمعية البر، التقينا الدكتور «رضوان رجوب» جراح وطبيب ا لأعصاب الذي يعمل ويعيش بولاية

بنسلفانيا الأمريكية منذ ٢٤ عامًا، لكنه يجيء مرتين كل، عام ليعالج المرضى من أبناء بلده دون مقابل. وإذا كان الخير بالخير يذكر فلا بد من التنويه بواحدة من أهم مآثر جمعية البر وخصائص مدينة حمص، إذ هي مدينة لا يوجد بها متسولون، وتكاد تكون ا لمدينة الوحيدة، عربيا وربما عالميا، التي لا تعرف شوارعها ظاهرة التسول؛ فمنذ سنوات بعيدة وجمعية البر تدعمها الدولة ويعضدها الأهالي تتعقب ظاهرة التسول. فإذا كان المتسول محتاجا تبذل له المساعدة، إن كان مقطوعا تعيده إلى بلده، وإن كان عاجزا تؤويه وتكفله في الدار المخصصة لذلك، وإذا كان محترفا وهوالسبب الأعم كما يؤكد الحاج «أديب علوان» ـ تتخذ السلطات بشأنه الإجراءات القانونية. كما أن وعي الأهالي يدعم هذا السعي بشدة، فإذا واجه أحد المواطنين متسولا يتصل بجمعية البر لتفعل ما يناسب في شأنه. وهكذا قضت حمص على ظاهرة التسول. ولن يعرف طعم مدينة بلا متسولين إلا من عانى تكدير هذه الظاهرة وهو يطوف بالكثير من مدن العالم، فالمتسولون يقبضون القلب ببؤسهم،ويزهقون الصدر بإلحاحهم ويكدرون الرؤية حيثما كانت، بينما الفقراء الحقيقيون وكما يقول قرآننا الكريم ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾. لهذا كان تجوالنا في شوارع حمص وبين أرجائها صافيا من الكدر، برغم أننا بدأنا من باب السوق، وفي ذروة الزحام. قبل أن نغوص في موج البشر الساري تحت سقوف الأسواق القديمة، عرجنا على الجامع النوري الكبير.

وهو مرفأ مهم من مرافئ الزمن الخاص بمدينة حمص. شققنا زحام بائعي «المستورد» باتجاه المدخل الغربي للجامع. وعبرنا تحت القوس المعمول من الحجارة البيضاء والسوداء على النمط الأبلق فصرنا مباشرة في صحن الجامع الذي يشكل فضاء متطاولا يظاهره المصلى الصيفي ذو الرواق العالي والأبسطة الملونة. أما الحرم الذي يوازي الصحن فتلفت النظر حول أعمدته لوحات الرخام المطعم بالزخار ف العربية. ويؤرخ لبناء المسجد ببداية زمن التحرير العربي لمدينة حمص من البيزنطيين. ولقد ظل يلعب دورا وطنيا تنويريا إلى جانب الدور الروحي الذي اضطلع به، ففيه نشأت أول المدارس الأهلية لدراسة اللغة العربية وآدابها في مواجهةاستبداد الاستعمار العثماني ومن بعده استبداد الانتداب الفرنسي. وظلت أروقته حتى ستينيات القرن تشكل نوعا من المكتبات الحية يتبادل فيها المتعلمون معارفهم.

أثناء خروجنا من حرم الجامع النوري كان هناك ناووس من الحجر البازلتي الأسود في أقصى الغرب لصق السور. على الناووس كان ثمة نقش يمثل عقربين متواجهتين حول كرة كأنها الأرض. ولا بد أن النقش يعود إلى زمن أبعد من زمن بناء الجامع. ولفتنا ذلك إلى إحدى أساطير حمص الحية، التي تقول إنها مرصودة ضد العقارب، لا تدخلها ولا تعيش فيها وهي أسطورة يؤكدها الواقع الذي لم تُرَ فيه عقرب واحدة عبر قرون، ولقد ذهب الخوري عيسى أسعد المتوفى عام ١٩٤٩ في كتابه «تاريخ حمص» إلى تفسير عدم وجود العقارب بعدم ملاءمة التربة لبيضها، وثمة تفسير علمي آخر يرد هذه الظاهرة إلى وجود نسبة من مادة الزئبق في تربة حمص تطرد عنها العقارب.

إنها أسطورة يرجعها البعض إلى جذور طوطمية ضمن الرموز الدينية للقبائل البدائية القديمة، لكن المدهش أنها ظلت تعبر بثبات ما تعاقب على المكان من معتقدات وثنية آرامية، فيونانية، فرومانية، ولم تتوقف الأسطورة عن الحياة بعد ذلك سواء مع مجيء المسيحية،أو دخول الإسلام،وذلك لسبب بسيط هو أن الأسطورة متجسدة في الواقع، فلا عقارب ـ حقا ـ في حمص. ولعل ذلك في حد ذاته يدعم القول بطيبة الشخصية الحمصية التي هي ـ برغم ما بها من عناد ومباشرة صادمة أحيانا ـ أبعد ما تكون عن أي ملامح للغدر والمؤامرة والالتفاف واللدغ التي تتسم بها العقارب.

قباب فضية.. وأحجار سود

من المؤكد أنها ليست صدفة معمارية أن يكون المتجه لدخول جامع خالد بن الوليد يبدو وكأنه يصعد، وفي صعوده يتهيأ مرحلة بعد مرحلة ليعلوببصره وكيانه إلى حيث تلامس ذرا المنارتين والقباب تلك الزرقة الصافية الرحيبة لسماء مدينة طيبة عريقة من مدن الشرق. فمع الاقتراب يبدو الجامع هائلا وجليلا بجدرانه البازلتية السوداء المزرقة والنوافذ ذات الأقواس المؤطرة بالحجارة البيضاء، وامتداد السور الأبلق ـ صف أسود وصف أبيض ـ إلى يسار كتلة الجامع الأساسية ليحيط بالصحن. بينما على الكتلة الأساسية في اليمين ـ حيث بيت الصلاة ـ يتوالى الصعود البارق للقباب الفضية التسع والسموق اللطيف المهيب للمنارتين الناصعتين. إن المسجد الحالي، شأن كل

بناء قديم في حمص، طبقة من الزمان تخبئ تحتها طبقات، فقدأقيم في أواخر العهد العثماني،في النصف الثاني من القرن ١٩ الميلادي، على أنقاض مسجد أقدم يعود إلى الظاهر بيبرس في القرن ١٣ الميلادي. ولا بد أن هذا بدوره أقيم على أطلال أبنية أقدم.

المسجد الحالي، الذي يسميه أبناء حمص «جامع سيدي خالد»، مشيد على الطراز العثماني الممزوج بالطراز العربي، وعلى يمين الداخل إلى بيت الصلاة المضيء الفسيح يقوم ـ تحت إحدى القباب التسع ـ ضريح الصحابي القائد خالد بن الوليد والى جواره قبر ابنه عبدالرحمن وقبر عبدالله بن عمر. ومدينة حمص على العموم تضم حشدا زاخرا من قبور وأضرحة الصحابة والأولياء، وهي ظاهرة تستدعي التفكير في أسباب تدفقهم للإقامة أو الاستقرار في حمص، وتأثير مكثهم المضيء بين جوانحها، فلا بد أن نفوسهم الطاهرة قد استطابت المكان، ولا بد أن المكان وأهله قد تطيبوا بوجودهم.

الغانية الحاضرة.. زنوبيا

قبل أن ننطلق من حمص إلى تدمر في الصباح الباكر من أحد أيام استطلاعنا، وبصحبة الأستاذ «أحمد سلامة» كنت قد قرأت مجموعة من الكتب عن تدمر. لكن هذه الكتب التي منحتني من المعرفة الكثير، لم تمنحني الرؤية التي جادت علي بها الزيارة الميدانية لتدمر، بصحبة رئيس شعبة سياحتها الأستاذ محمود شويتي، ومدير الآثار الأستاذ العالم خالد الأسعد

لقد حيرتني الأدوات الصوانية وراء زجاج صناديق المتحف، تلك الأدوات التي سواها من الصخر إنسان تدمر الأول ليشق بها طريق حياته اليومية، منذ الألف السابعة قبل الميلاد، لكن اليقين في العظمة الغابرة لم يغادرني لحظة وأنا أرنو إلى الأطلال الحجرية البيضاء التي صبغتها شمس البكور بلون ذهبي يشع في رحاب الكيلومترات الاثني عشر المحتضنة لما تبقى من أزهى عهود تدمر. ذلك الزمن الممتد بين القرنين ا لأول والثالث الميلاديين، ففي هذه الفترة استطاعت تدمر،التي كونتها في عهودها الأقرب هجرات شعوب الجزيرة العربية،أن تجد لنفسها مكانا بين الإمبراطوريتين الأقوى آنذاك، فارس وروما. بل صارت هي ذاتها إمبراطورية تمتد من البوسفور

إلى النيل في عهد زنوبيا. معبد بل، وقوس الشارع الطويل ذي الأعمدة والأروقة، و«الآجوارا» التي شكلت أول منطقة للتجارة الحرة عرفها العالم، والمسرح القديم، ووادي القبور الذي توقفت عنده طويلا، والسور القديم الذي ينهض من جديد.

كان تطوافنا خلال النصف الأول من النهار داخل هذه الكيلومترات الاثني عشر، ولقد توقفت مندهشا أمام بقايا أنابيب فخارية تمتد مدفونة قرب السطح بطول المكان وعرضه وثمة بالوعات بأغطية حجرية تتقاطع عندها الأنابيب. لقد كان هناك نظام صرف دقيق في ذلك الزمن البعيد، ونظام آخر لتزويد المدينة بمياه الشرب. وبينما كنت أدلف من بين أعمدة الحمامات الملكية لأقف على حافة حمام الملكة زنوبيا «زينب» بأحواضه الثلاثة التي جففتها القرون. تملكني الشجي والشجن لمصير هذه المرأة الرائعة التي هي منا ونحن منها. زينب التي ورثت ثأر تدمر منذ عام ٢٦٧ م. فقد حاولت تدمر على يد أذينة ـ زوج زينب ـ أن تتصرف وفق إرادتها، ضد أطماع الساسانيين الفرس والرومان المهيمنين على سوريا. وقُتل أذينة غيلة، لكن حمص قتلت قاتله. ومن ظلال تدمر خرجت شمس زينب اللاهبة الساطعة. كانت سمراء جميلة سوداء العينين، تتكلم لغات ذلك الزمان الثلاث الكبرى: «التدمرية واليونانية والمصرية»، وكان لديها حلم باتساع الشرق. وفي عام ٢٦٨ م، لاحت لها الفرصة فقد كان البرابرة ينوشون الإمبراطورية الرومانية التي يتآكلها من الداخل النزاع على السلطة، بينما مصر يتهددها القراصنة، ومنطقة الخليج العربي أغلقها الساسانيون «الفرس» فانقطع طريق القوافل من تدمر إلى الهند. سيرت زنوبيا جيوشها لاحتلال مصر بعد أن هيمنت على سوريا، ثم أرسلت جيوشها شمالا حتى وصلت إلى البوسفور. وبتلك الإمبراطورية من البوسفور إلى النيل امتلكت زنوبيا كل منافذ طرق المواصلات البرية والبحرية مع الشرق الأقصى دون إذعان لاستبداد الساسانيين ولا انصياع لاستعلاء الرومان.. ولم تهنأ زنوبيا بتحقق حلمها طويلا إذ عادت روما إلى سابق عهدها. وفي عام ٢٧٢ م، وبعد أن استعادت روما مصر زحفت جيوش أورليان لتواجه جيش زينب. وعند إنطاكية على ضفاف العاصي كانت المواجهة، وكانت الغلبة للروم، فتراجعت زنوبيا تحتمي بأسوار حمص ثم انكفأت حتى تدمر. ولحق أورليان بها فحاصر المدينة التي استسلمت بعد أن ضربها الجوع ودخلها أورليان في خريف عام ٢٧٢. وماذا عن زنوبيا؟ قيل إنها أُسرت ضمن كوكبة من الفرسان حاولت طلب نجدة من خصوم روما

في الشرق، أي الفرس. وقيل إنها قضت في طريق الأسر إلى روما إذ امتنعت عن الطعام حتى الموت. وقيل إنها عاشت حتى عُرضت ضمن موكب الأسرى في روما عام ٢٧٤م، وكانت تسير مثقلة بحليها، ومصفدة بسلاسل الذهب من عنقها حتى قدميها. وقيل إنه قد أُطيح برأسها بعد موكب النصر. لكن هناك من المؤرخين من يذكر أنها عاشت وتزوجت أحد أعضاء مجلس الشيوخ وقضت أيامها في «ڤيلّا» ببلدة تيبور عند أطراف روما قرب قصر هادريان وثمة أحفاد لها كانوا هناك في القرن الرابع. لقد ملأتني قصة زنوبيا الغائبة الحاضرة في المكان بشجن مقيم جعلني شاردا طوال الوقت، حتى إنني لم أخرج من عمق هذا الشرود إلا بصيحات الاستحسان التي سمعتها بعدة لغات تتصاعد من حولنا في المطعم، مع التفات أعناق مجموعة السياح الموجودة في المكان إلينا. لقد جاء الطاهي ومساعدوه بجوهر الوليمة التي أعدتها لنا شعبة سياحة تدمر: المنسف! خروف مشوي فوق تلة من الفريكة المفروشة بالجوز والصنوبر.

وادي الجذور

الكرم عربي، والجذور عربية، واليقين العربي وجدته في عظمة المدافن التدمرية. ففي فترة ما بعد الظهيرة كانت زيارتنا لوادي القبور. ولقد كان بالنسبة لي واديا لحياة الجذور الحضارية العميقة للعروبة. فجذورنا العربية، وهذا ما تصرخ به أعماق تدمر، ليست رمالا للتيه وقبائل متناحرة وجلافة بدوية تكرس لها الانطباعات الرخيصة رخص السطحية وعدم الإنصاف. حتى في ذهنية الكثيرين من المثقفين العرب.

لم أشعر بالزهو الثقافي لكوني عربيا كما أحسست بذلك وأنا داخل المدافن التدمرية، خاصة بعد زيارة المتحف والمرور على لوحات الجص النحتية الجنائزية وقراءة الكتابة التدمرية الآرامية المحفورة عليها والتي راح بنثرها على سمعنا مدير آثار تدمر الأستاذ «خالد الأسعد»، ذلك الحارس العاشق لما يحرس والجدير بالائتمان علي كنز كنوز الأصالة العربية في تدمر.

شيء عجيب.. الأسماء أسماؤنا، وبشارات الروح الديني كانت هناك، والوجوه تكاد تكون هي التي نحملها حين تصفوا لنا الدنيا!

إنني اعتقد أن روح التحضر الفلسفي، ومن ثم الثقافي الأعمق، تكمن في نظر الإنسان إلى نفسه من زاوية كونية، على اعتبار أنه سيرورة متصلة، رحلة بالجسد وامتداد بالروح. وإلا ماذا يكون الفرق بين البشر والسوائم. الغرب لم يمتلك هذه الرؤية أبدا، إلا استعارة من الشرق ولدى نفر قليل من مفكريه بينما أبسط إنسان شرقي فُطِر على هذه الرؤية. والعرب شرق.ووادي القبور في تدمر برهان. فلقد اعتنى التدمريون بمدافنهم عناية فائقة. عناية إنسان متحضر ينظر إلى ذاته كعنصر كوني متعددة ومتواصلة أشكال وجوده. فهو ليس جيفة ينقطع خبرها بتحللها العضوي. تلك هي المسألة. ولقد كان التدمريون ـ جذرنا الثقافي العربي ـ يسمون المدفن «بيت الأبدية» حيث تُحفظ الأجساد وتحلق الأرواح. وكان المدفن صرحا معماريا جماليا رفيع القيمة شكلا ومعنى. فهو بناء رشيق من الحجر الجيري سواء تعددت طوابقه كما في المدافن البرجية أو لم تتجاوز الطابق الواحد كما في المدافن البيتية. ولكل مدفن باب من الحجر المنحوت بأعلاه نافذة للإنارة والتهوية. أما داخل المدفن فما من مساحة إلا مشغولة بلوحات الزخرفة على الجص أوالحجر أوالفرسكات (لوحات الرمل الملون). وعادة ما تكون هناك كتابة فوق النافذة تذكر اسم مؤسس المدفن وتاريخ التأسيس. أما القبور فهي داخله في الجدران، تتعالى في طوابق وتتولى في صفوف، ويغلق كل منها تمثال نصفي يبرز من لوحة نحتية للمتوفى يسمى «صلم» (صنم) أو«نفشا» (النفس) وهذه اللوحات النحتية هي شواهد يُكتب بأعلاها أوفي زاوية منها اسم المتوفى وتاريخ وفاته وكلمة «حبل» التي تعني: «وا أسفاه».

إن المدافن التدمرية كانت مضافات روحية ـ إن صح التعبير ـ تستقبل زوار الراحل حتى تأتنس روحه وتخفف عنه عذابات «الغربة الأبدية». لهذا ترى كل مدفن مجهزا ببئر للسقاية والتطهير، وثمة لوحات نحتية إضافة للشاهدة، تشغل صدر الجناح الرئيسي وتمثل مشهد الوليمة الجنازية التي تضم مؤسس المدفن وأسرته في لقاء رمزي. ودائما يكون رب الأسرة مضطجعا وإلى جانبه زوجته والأولاد حولهما وقوفا في مشهد مؤثر. وأكثر ما يلفت النظر في هذه اللوحات النحتية هي الوجوه المتوجهة دوما إلى الأمام والمرتسمة بخطوط واضحة. الوجوه رغيدة والعيون صافية مفتوحة والانطباع هو ذاته الذي يقابلك في الشوارع السورية، خاصة حمص، أما الأسماء والمعاني التي تنطق بها

الكتابة التدمرية الآرامية. فإنها تفاجئك بمدى عمق الجذور لشجرة وجودنا العربي: سلمى، ونبيل، ومالك، ومبارك، وشمعة، ووائل، وعامر، وبحرة.. وسلام الله!!

بئر الأماني

من قلعة حمص بدأت، وإلى قلعة حمص أعود، دون أن أنتهي.. فحمص المحافظة التي تعادل مساحتها أربعة أمثال مساحة لبنان أوخمسة أمثال مساحة قبرص، كنت كلما مضيت فيها تتسع، بينما الصفحات تضيق. إذن إلى القلعة أعود، وعلى سطحها المنبسط العالي أتلمس الحلم الذي حكى عنه رئيس مجلس المدينة، والمتمثل في إحياء المكان بأفق جمالي سياحي معاصر، وترميم خزان المياه واستعماله لمسرة العيون وفائدة إرواء الأماكن المجاورة. فهل هذا الخزان ضخم الاستطالة عميق الغور هو «جب النبات» الذي كانت تنبت فيه الأماني في احتفالات خميس النبات القديمة، حيث كان المكان يغص بالزائرين وتتزاحم كثرتهم حول البئر، يلقي كل منهم بحجر إلى قاعه وهويتمنى، فإن كان لصوت ارتطامه بالقاع رنين، فأبشر! لقد كانت البئر القديمة عند الطرف الشرقي، بينما هذه البئر تتوسط سطح القلعة. لكن لابأس، فلألق بالحجر وأتمنى..تمنيت لنفسي ما تمنيت، وتمنيت لولديَّ اللذين وُلدا في هذه المدينة أفضل ما يتمناه أب لأولاده، وتمنيت لسوريا الغالية أعز ما أتمناه لبلدي مصر وبلاد العرب جميعا. وتمنيت من حمص أن تقبل الاعتذار! فقد رأيت فيها الكثير، والمتاح من الكتابة قليل. فلم تبق غير الإشارات.. لبهاء وادي الرستن، ووادي النضارة الساحرة جباله الخضراء وقراه المتعاقبة سلاما على المدارج المزهرة، و«نبع الفوار» الذي يهدر قبل أن يفيض فيملأ جواره بالخير والمسرة، وقلعة الحصن التي تعد واحدة من أروع ماخلفته العصور الوسطى من الحصون على قمة منطقة من أروع هبات الطبيعة، ومهرجان الألوان والعطور في زحام وتلافيف الأسواق العتيقة، وانسكاب الضوء من فتحات القبة يتخلل فورة البخار الحار في الحمام القديم، ورنين الأزاميل تسوي الصخر الأزرق وتحفر الرخام وتنقش بريق النحاس بين جنبات المنطقة الصناعية، وتجربة دخول غرفة صناعة (الأمبولات) كاملة التعقيم مع العزيز الدكتور رشيد الفيصل بزي كأزياء رواد الفضاء في مصنع أدوية ابن حيان شديد النظافة والتحديث.

وصخب مياه العاصي الدافقة التي يفرح بخوضها الأولاد والبنات عند قرية جوسية، وبحيرة قطينة التي أدهشني اتساعها عندما رأيتها يوما من نافذة طائرة مرت بي فوق حمص، وهالني تكدرها عندما وقفت على حافتها بمنتزه «قطينة» أغالب ابتراد وعنف تيار الهواء فوقها، وكنيسة أم الزنار ورنين التراتيل الصافية تنبعث من قلبها عبر الأزقة العتيقة، وحنين المهاجرين إلى أقاصي الأرض والبيوت التي يعمرونها في وطنهم الأم بفتنة شجية، ومغارة القصير التي قطعنا إليها الجبل المقدودة منه الصخور البيض لتشييد سد «زيتا»، وكانت المغارة هناك في بطن الجبل، توشك أن تغلق فوهتها صخرة هائلة بحجم بيت من عدة طوابق. تسلقنا الصخرة وهبطنا إلى جوف المغارة الفسيح الملون..هواء مبترد رطيب وصواعد وهوابط عملاقة.. معزوفة متناغمة الأشكال والألوان عمرها يُقدِّره العارفون بمائة مليون عام!! مائة مليون عام يا حمص، ورحابة الأرض تغوص فيها مرافئ الزمان وتطفو. فهل تكفي من المحب الإشارة؟.. أعرف أنها لا تكفي.. لهذا لا أقول وداعا، بل أقول: إلى لقاء.

تركيا

من أزمير إلى بودروم.. الزهرة في قلب الحجر

في البدء كان هناك مؤتمرٌ دولي لطب المسافرين في «بودروم»، لكن الطريق إلى بودروم بدا مزدحمًا بما يستوقف البصر ويحرك الذاكرة، فعوضًا عن الجبال الخضر المحيطة بخلجان بحر إيجه، والقلاع، والمساجد والمساقي، وشوارع المرمر، ثمة لقاءات أتيحت لنا مع آلاف السنين، في مواطن هوميروس، وهيرودوت، وأهل الكهف، والحيثيين، واليونان، والرومان، والبيزنطيين، والسلاجقة، والعثمانيين، وناس زماننا. إنها رحلةٌ امتدت أيامًا. فتماست مع آثار أربعين قرنًا من المواجهات، وحاولت أن تمسك بمشروع إجابة عن سؤال التلاقي.

فور خروجنا من المطار الدولي باستانبول، وبينما كنا في الطريق إلى المطار المحلي لنلحق بطائرة أزمير، استوقفتنا المسيرات الحاشدة، والهتاف المهلل:

يا الله. باسم الله. توركيا. توركيا

عشرات الآلاف من المشاة، وأرتال سيارات لا تنتهي، والأعلام الحمراء ذات الهلال الأبيض والنجمة تخفق مرفوعة فوق رءوس الحشود، وخارجة من نوافذ السيارات المفتوحة، بل فوق أسقف السيارات أيضًا.

لأول وهلة ظننت أن الهتافات موجهة إلينا، كونها بالعربية، لكنني سرعان ما أدركت الموقف، واستوعبت المفارقة. فقد كان الأتراك يودعون فريقهم الكروي، المتجه للقاء السويد في تصفيات كأس الأمم الأوروبية. ولقد فاز الفريق التركي، وكانت أفراحًا صاخبةً، لم نحضرها حية، وإن نقلتها شاشات التليفزيون إلينا في «بودروم» ـ حيث حططنا الرحال لأربعة أيام، فيما بعد.

في الطائرة إلى أزمير شققنا بحرًا من السحاب الأبيض الناصع، ثم طفونا مرتفعين فوقه قرابة ساعة ونصف من الزمان. أمواج تلو أمواج من السحب البيض راحت تترجع على صفحتها في خاطري تلك الهتافات العربية المسلمة للجمهور التركي. ألا تكتنز تلك اللمحة العابرة دلالة ما على الوضع الثقافي/ الروحي التركي، حيث القلب مسلم، والدعاء عربي، والمسابقة في أوربا؟!

أظن أن ذلك يعني الكثير، أو ينبغي أن يعني الكثير، خاصة لهؤلاء الذين يريدون لَيّ عنق هذا البلد غربًا، وغربًا فقط، ظنا منهم أن النجاة كل النجاة في الغرب، بينما الحقيقة الأقرب ـ للجسد الجغرافي والروح معًا ـ هي أن هناك كثيرًا من النجاة في الشرق الجديد بصدق التآخي والاعتبار.

الطائرة بعد أن اتجهت جنوبًا من استانبول، حادت لتسلك مسار الشمال الغربي قاصدة ذلك الساحل المطل على ذلك الجزء من الماء، الفاصل بين تركيا واليونان، والواصل بين البحر المتوسط وبحر مرمرة، والمسمى «بحر إيجه». بحر الاحتكاك الدامي، والتثاقف البديع، والهجرات المليئة بالشجن.. بين الشرق والغرب، ولقرابة أربعين قرنًا من الزمان أظنها لم تنته بعد.

كان بحر السحاب الأبيض الذي تضيئه الشمس باهرًا وبديعًا خارج نافذة الطائرة، لكنه كان مملا أيضًا إذ تتكرر صورته دون انقطاع، فلُذت بكتاب عن تاريخ المنطقة التي نطير فوقها، ورحت أتسكع فيه بين وقائع السنين.. وأتوقف عند بعض التواريخ: ١٩٠٠ ـ ١٣٠٠ قبل الميلاد: الإمبراطورية الحيثية التي ارتكزت على حضارة أهل الجبال وكانت مزدهرة ومجاوره لحضارتي مصر القديمة وبابليون/ ١٢٥٠ (ق.م): حرب وسقوط طروادة (حاليا تروفا على الشاطئ التركي من بحر إيجه)/ ١٢٠٠ ـ ٧٠٠ (ق. م): موجات الهجرة اليونانية إلى تركيا وتكوين ممالك اليونان المزدهرة مثل إيونيا وليديا وبامغيليا/ ٧٠٠ (ق.م): مولد هوميروس في سميرما (أزمير حاليا) وبدء ازدهار الثقافة الهيلينية على ساحل بحر إيجه التركي/ ١٣٠ (ق. م): الأناضول تصير الشق الآسيوي من الإمبراطورية الرومانية، وتتخذ من إيفيوس (حاليا إيفيس) عاصمة لها/ ٤٠ (ق.م) زواج أنطونيو وكليوباترا في أنتيوخ (حاليا أنطاكيا) ـ ٤٧ ـ ٥٧ (ميلادية). هجرة القديس بول التبشيرية وإقامة أول

مجتمع مسيحي في أنطاكيا ـ ٣١٣ م: المسيحية تُعتمد كديانة رسمية من قبل الإمبراطورية الرومانية الآخذة في الأفول ـ ٣٣٠ م: البيزنطيون يطلقون اسم «كونستانتينبول» ـ أخذا عن اسم إمبراطورهم كونستانتين ـ على المدينة التي اتخذوها عاصمة لهم (استانبول الحالية) ـ ٦١٨ ـ ٦٣٦م: المسلمون العرب يتغلبون على البيزنطيين ويفتحون «كونستانتينبول» (القسطنطينية ـ استانبول حاليا) ـ ١٠٥٤م: بدء الشقاق بين اليونانيين والرومان ١٠٧١م ـ ١٢٤٣م: السلاجقة الأتراك يُخضعون الأناضول ويتخذون من «قونيا» عاصمة لملكهم ـ ١٠٩٦ ـ ١٢٠٤م: الصليبيون بجيوش من اللاتين يدخلون الأناضول وتتفتت الإمبراطورية البيزنطية ـ ١٢٨٨م: مولد الإمبراطورية العثمانية واعتماد «بورصة» عاصمة لها ـ ١٤٥٣م: محمد الثاني (الفاتح) يدخل كونستانتيبول ويعيد تسميتها «استانبول» وينقل إليها عاصمة الإمبراطورية العثمانية ـ ١٥٢٠م ـ ١٥٦٦م: فترة حكم سليمان الأول وأقصى صعود للنفوذ العثماني الذي امتد من الدانوب حتى إرتيريا ومن الفرات والقرم حتى الجزائر ـ ١٦٨٢م ـ ١٧٥٢م: حرب القرم ودعم فرنسا وإنجلترا لتركيا ضد روسيا ـ ١٩٠٩م: عبدالحميد آخر سلاطين العثمانيين تعزله تركيا الفتاة/ ١٩١٤ م: تركيا تدخل الحرب العالمية الأولى كحليف لألمانيا ومع هزيمتهما يقرر الحلفاء اقتسام الإمبراطورية العثمانية / ١٩١٩ م: حرب المقاومة من أجل تحرير كل تركيا من قبضة الحلفاء/ ١٩٢٣ م: قيام الجمهورية التركية واعتماد الأبجدية اللاتينية في الكتابة التركية، وتبادل هجرات الأقليات بين اليونان وتركيا ـ ١٩٤٥م: تركيا تبقى على الحياد في الحرب العالمية الثانية / ١٩٥٢ م: تركيا تلتحق بحلف الناتو / ١٩٧٤ م: تركيا تدخل جزيرة قبرص لدعم الأتراك القبارصة ضد اليونان ويستقل الجزء الشمالي من الجزيرة تحت سيادة الأتراك / ١٩٨٥م ـ ١٩٩٠م: بدعوى الخلاف مع اليونان حول قبرص وزعم انتهاك حدود المياه في بحر إيجه تفشل المحاولات التركية للانضمام ـ كعضو عامل ـ للاتحاد.. الأوربي!

زخم من التواريخ ودوران عجلة الحضارات والإمبراطوريات والثقافات والمعارك، تتابع كل ذلك بين دفتي الكتاب الذي كنت أطالعه في الطائرة، لكن ما إن هبطنا إلى الأرض، وأوغلنا في قلب أزمير، حتى تلاشى كل التاريخ ولم يبق إلا الراهن المثقل بأكداس البيوت المعلقة ـ في ازدحام شديد ـ على منحدرات التلال المحدقة بخليج أزمير المرفود من بحر إيجه.

إنها «أزمير الجميلة» ـ يشير «إسماعيل بيه» مرافقنا من مديرية السياحة بالإقليم إلى آفاق المدينة التي نقطع شوارعها صعدا، وأعرف أن ذلك هو الاسم الشائع للمدينة، لكن، كان ينبغي أن يمر وقت كاف للتعرف على «أزمير الجميلة» تلك في أعماقها. فهذه الأحياء القديمة من البيوت المكدسة على التلال والمكون معظمها من الخشب، ما إن يمضي الإنسان في أعماقها حتى يفاجأ بصورة مختلفة تمامًا للصورة المغبرة للبيوت المتزاحمة على التلال، فهنا في القلب تتلوى الأزقة والشوارع الدقيقة المغمورة بالظل والعبقة بعطر تركيا القديمة، وأبناء البلد، وحوانيت الحرفيين وبائعي الفاكهة. وبرغم الفقر النسبي لهذه الأحياء فإنها تبدو نظيفة وأليفة. ونجد قبالتنا ونحن نصعد ونهبط وندور مجموعةً من الرجال في (أفرولات) برتقالية يسحبون بغلةً تحمل على ظهرها سلتين كبيرتين من الخيزران المجدول، إنهم عمال النظافة، وهذه هي «عربة البلدية» في هذه الأحياء التي يصعب تحرك السيارات فيها، بينما تجيد البغال الصعود والهبوط في هذه المدارج المتوِّهة شديدة الانحدار. إنها وسيلةٌ قديمة ما زالت فعالة في أيامنا، ونظافة أحياء أزمير الشعبية تشهد بذلك.

نهبط باتجاه الماء، باتجاه الخليج المستدير المحاط بالتلال الذي يمنحه بحر إيجه للمدينة، فنجد الشاطئ يرسم ملامح ذلك الجمال الموشى بالزوارق واليخوت عند حافة الماء وحتى الذرا الخضراء للجبال. إنها ثاني أكبر ميناء تركي بعد استانبول.

أمطرت الدنيا مطرًا فتذكرت سيول أزمير التي قتلت سبعين إنسانًا قبل أسبوعين من قدومنا، فسألت إسماعيل وأخبرني أن ذلك كله تم في خمس ساعات، خمس ساعات من مطر عنيف، ولا بد أن بيوت الأحياء القديمة هي التي هوت من فوق الجبال بسكانها على بيوت أخرى تحتها، لكن السيول التي لم تمض عليها أيام لم يكن لها أثرٌ.. في شارع الكورنيش المحيط بالخليج، والذي تحده البيوت الحديثة وتنتشر فيه المقاهي ومطاعم الأسماك اللذيذة... إنها مسقط رأس هوميروس، يخبرني إسماعيل بذلك، فأومئ له، وأتعرف المزيد: لقد نشأت المدينة في الألف الثالثة قبل الميلاد فيما يعرف اليوم في أزمير بناحية «بايراكلي»، وفي هذا الوقت كانت المدينة مع جارتها الشهيرة «طروادة» أكثر البقاع تقدمًا ضمن حضارة «الأناضول الغربية». وفي العام ١٥٠٠ قبل الميلاد

تأثرت بملامح حضارة الإمبراطورية الحيثية التي طالتها من منطقة وسط الأناضول. وفي القرن الأول قبل الميلاد صارت أزمير تحمل اسم «سميرما».

وفي هذه الفترة كانت تشهد صعودًا حضاريا انتهى في العام ٦٠٠ قبل الميلاد عندما قهرتها الإمبراطورية الفارسية في منتصف القرن السادس قبل الميلاد. وفي القرن الرابع (ق.م) بُنيت مدينة جديدة على شرف الإسكندر الأكبر على منحدرات «باجوس». وفي الفترة الرومانية من عمر المدينة (ابتداءً من عام ٢٧ قبل الميلاد) شهدت المدينة ثاني أزهى أوقاتها، وتبع ذلك الحكم البيزنطي في القرن الرابع، وفي القرن الحادي عشر سادها السلاجقة حتى صارت المدينة جزءًا من الإمبراطورية العثمانية عام ١٤١٥ تحت إمرة السلطان محمد شلبي.

«هل يمكننا المرور على أهم المواقع التاريخية في يوم واحد؟».

«هذا متوقف على ما تريد أن تراه».

كان سؤالي لإسماعيل بيه نابعًا من إحساسي بالفرار السريع للوقت بينما كانت أمامنا رحلة برية طويلة على الطريق الساحلي المحاذي لمياه بحر إيجه والصاعد والهابط بين الجبال. وكان المطر شديدًا وكنت أطمح لرؤية عدة بلدات على هذا الساحل قبل الوصول إلى شبه جزيرة بودروم، التي سيُعقد فيها المؤتمر الدولي الخامس عن صحة المسافر، وكنت إضافةً لمهمة تغطيته قد دُعيت للمشاركة في فعالياته العلمية.

حددت مع إسماعيل عدة مواقع شهيرة تمثل فترات تاريخيةً مختلفةً، وانطلقنا من جوار محطة «التليفريك» إلى قلب أزمير، وكانت العمائر الحديثة تمضي إلى الوراء بينما تظهر البيوت العتيقة باطراد.

في منطقة بايركالي كانت أطلال معبد أثينا تقوم في شكل أجزاء من أسوار المدينة اللونيانية «Lonian» التي شهد المكان أقصى ازدهارها بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد. وعلى قمة جبل «باجوس» في ضاحية كاديفيكالي ألقينا نظرات على البقايا الشامخة لقلعة الإسكندر الأكبر التي تكلل أعلى ذرا أزمير، ومن فوق أسوار القلعة طافت أنظارنا المسحورة بخليج أزمير تحتنا حيث تمضي إليه كل سهول التلال. ولما

هبطنا لرؤية «الأجورا» أو «مجمع الأسواق» على عهد الإسكندر كانت بقايا أعمدة المرمر والأقواس والتماثيل المحطمة تعيد إلى الخاطر ذكرى زلزال مدمر أطاح بالسوق المرمري عام ١٧٨ ميلادية. وعندما مررنا بجسر يقطع نهر ميليس استوقفتنا القناطر التي تحمل قنوات مياه «سيرنير»، إنها عينةٌ من الهندسة الرومانية التي مكثت تنقل المياه إلى مرتفعات المدينة عبر عصري الإمبراطوريتين البيزنطية ثم العثمانية وما زالت تعمل حتى الآن. كأن ما هو نافع وخيِّر يبقى في الأرض برغم اندثار الإمبراطوريات وتعاقب العصور.

الشيء نفسه، قانون البقاء للأنفع برغم ضراوة الصراعات،رأيته في «كيزلار غازي خان» أحد نماذج عمارة الأسواق العثمانية منذ القرن الثامن عشر، وقد جُدِّد، وتتوالى على جانبي ممراته المقنطرة محال الهدايا والسجاجيد التركية وسيراميك أزتيك. وذلك المقهى في ساحته الداخلية، حيث استرحنا لحظات وارتشفنا (استكانات) الشاي التركي الساخن في صباح مضيء يميل إلى البرودة.

لقد مررنا في ميدان «كوناك» برمز المدينة الشهير «ساعات كوليسي» أي برج الساعة، فكأن هذا تأكيد جديد على فكرة أن النافع يبقى ويظل يعمل في الحاضر برغم مجيئه من الماضي. فهذا البرج وهذه الساعة عند قمته هما هدية من السلطان العثماني عبدالحميد للمدينة، وقد شُيد البرج على الطراز العثماني المتأخر عام ١٩٠١، وبعد ٩٤ عامًا كان البرج الرخامي الناصع لا يزال يشمخ وساعته تشير إلى التوقيت بدقة في ذلك الصباح من نوفمبر ١٩٩٦. والذي طفنا خلاله ـ في يوم واحد ـ بآثار أربعين قرنًا من دوران عجلة الممالك والحضارات.

إن أزمير مبنية على التلال والجبال وممتدة في السهل الدائري المحيط بخليج أزمير المرفود من بحر إيجه، لهذا وتوفيرًا لوقت الدوران الطويل في الطرق الصاعدة والهابطة، توجد خطوط تليفريك تنقل الناس من السهل إلى القمم كما يوجد مصعد مدهش في حي «أسانسور» نسبة إلى كلمة مصعد التركية. ولعلنا أخذنا عنها كلمة «أسانسير» الشائعة. هذا المصعد ينقل الناس من شارع سوكاجي الأسفل إلى الشارع الأعلى (وبالعكس) بارتفاع واحد وخمسين مترًا وهو من إنجازات القرن التاسع

عشر. صعدنا من الشارع الأسفل إلى الشارع الأعلى في «أسانسور» وعدنا نطل على بانوراما أزمير قبل أن نودعها بفنجان قهوة تركية في مقصف المصعد الأعلى. وكانت السيارة قد استدارت لتلتقطنا من دفء مقهى «أسانسور» لنخترق بعض البرودة وكثيرًا من المطر باتجاه الجنوب بين الجبال التي ولدت الأساطير، والبحر الذي حمل سفائن أربعين قرنًا من الزمان.

سمكة متوهجة في شارع المرمر

حططنا الرحال في بلدة «سلجوق»، مدينة سياحية صغيرة جميلة، أو قرية كبيرة متمدينة. تحدها الجبال، وترنو إلى البحر القريب وتشرئب بين تلالها مآذن المساجد عثمانية الطراز، وإن صغرت ودقت بين حشد البيوت. وكان أن استضافنا مركز التدريب السياحي في المدينة، وهو واحدٌ من عشرات المراكز من هذا النوع. والتي تقوم على فكرة إعداد عمالة مدربة ومتعلمة للعمل في حقل السياحة والفندقة. ويحدثنا «ناجي بيه» المدرس بالمركز: «الدراسة نظرية وعملية وتستغرق سبعة أشهر بعد الشهادة المتوسطة». في هذه الشهور السبعة يتعلم الطلاب أصول الفندقة والإرشاد السياحي إضافة للتركيز على لغة أجنبية. وهناك أقسامٌ للمطبخ، وخدمة الغرف، والاستقبال، وكمبيوتر الفنادق، والإرشاد السياحي». لقد أمضينا ليلتين في هذا المركز الذي بني على غرار فندق متوسط، والطلاب يتدربون عمليا على الفندقة مقسمين بعضهم بعضًا إلى نزلاء ومشرفين. إضافة إلى تدريبهم العملي في فنادق المنطقة. ولقد لعبنا بالطبع دور النزلاء، وقام على خدمتنا بلطف ورقة هؤلاء الفندقيون الصغار. كانت خدمتهم جيدة وكافية. ولم نبق طويلًا في المركز ـ الفندق، إذ انطلقنا عند أطراف «سلجوق» نعاين آثار السنين وتجليات الأيام.

مررنا «بكوشاداسي» ورأينا فنادق مذهلة الفخامة من البلور وسط خضرة الجبال تطل على فيروزية بحر إيجه كعمائر باذخة من الزجاج الصافي. وعندما سألت عن أسعار الإقامة في أحد هذه المنتجعات رفضت المديرة الشابة الجميلة «أيشا» ـ أي عائشة ـ أن تحدد ذلك. ولا بد أنها أدركت استحالة أن أحل ضيفًا على هذا المنتجع

الذي يأتي إليه بارونات أوربا والعالم بالطائرات الخاصة للاستجمام واللعب، ولم تكن لي غايةٌ في ذلك على أية حال، فاستعجلت سائقنا أن نذهب إلى إيفيس أو «إيفيسوس»، ويا لها من أسطورة حية لا تزال تتنفس.

يُحكى أن.. المهاجرين الذين أتوا من اليونان إلى تركيا عبر بحر إيجه كانوا تحت قيادة «أندروكليس»، وما إن بلغوا الشاطئ التركي حتى راحوا يسألون عرافهم أين يقيمون مدينتهم الجديدة؟. وقال العرافون إن موضع المدينة الجديدة ستدلهم عليه سمكة وخنزير بري. وبينما كان أندروكليس يشوي في العراء سمكة صادها للتوّ من بحر إيجه قفزت السمكة بآخر ما تبقى لها من أنفاس من النار، وكانت زعانفها مشتعلة، فأمسكت النار بالعشب الذي وقعت عليه. وامتدت إلى الدغل القريب، فخرج من الدغل خنزير بري، روعته النار، وتبع أندروكليس الخنزير الراكض حتى صرعه، وفي الموضع الذي سكتت فيه الطريدة استعاد أندروكليس كلمات العرافين وقال مستبشرًا: «إن هذا هو مكان المدينة الجديدة». ونهضت «إيفيس» أو «إيفيسوس» في هذا الموضع منذ قرابة خمسة وثلاثين قرنًا من الزمان.

ظلت تتقافز في خيالي تلك السمكة المشتعلة التي فرت من نار أندروكليس منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة، وراحت تتدحرج على بلاطات الرخام المعتقة في «شارع المرمر» الذي مضيت فيه أتأمل مقاومة الأثر للزمان، وأتأمل لمسات البشر في المكان.

دخلنا إلى أطلال إيفيس من الجانب الشرقي للمدينة، ودرنا حول السوق الروماني العلوي القديم الذي تتحلقه بقايا الحمامات الرومانية من القرن الثاني وأطلال سور المدينة ومن «السوق العلوي» مضينا غربًا في شارع كوريتيس الذي تربض في زواياه نافورتا «توليد» «وتراجان» الراجعتان إلى القرن الرابع، والواجهة الحجرية المدهشة لمعبد هادريان والحمامات وبوابة هرقل. ثم مررنا فوق أحد التلال ببقايا البيوت ذات الشرفات التي تكتنز لوحات الفريسكو (الرمل الملون) من القرن الثاني. عاودت المسير في «شارع المرمر» الذي يمنح السائر فيه إحساسًا غريبًا بأنه يعود إلى زمن الرومان، حيث تسطع تحت قدميه البلاطات الكبيرة البيضاء التي ترصف الشارع، وتذكِّره بقايا الأعمدة المنتصبة والمصطفة على الجانبين بوقع حوافر الخيول ورنين الدروع وبريق

الخوذات. لكن بداية «شارع المرمر» كانت تقود إلى إيقاع آخر غير إيقاع الجند وخيول القتال. فهناك «السوق السفلي»، وفي الطرف الآخر «مكتبة سيلسوس» التي تجتذب واجهتها متعددة الطوابق أنظار الزائرين. ومن ساحة المكتبة يمضي طريق آخر يشبه «شارع المرمر» إلى «السوق العلوي»، ومع صعود بعض الدرجات الحجرية البيضاء يقف الإنسان على المنظر الباذخ للمسرح الروماني الشهير الذي تسع مدرجاته ٢٥ ألفًا من النظارة. هنا كانت تدور المبارزات الدامية ومباريات المصارعة حتى الموت واستعراضات البذخ الروماني. أين ذلك كله؟!

مضى البشر، وبقي الحجر وإن عاد بشر زماننا يعمرون الحجر بحياة جديدة. فالمسرح الروماني الذي جرى ترميمه وتتابعت صيانته يقام فيه كل ربيع مهرجان إيفيس الدولي للفنون والعروض الشعبية. لم نكن في الربيع وقت زيارتنا، لكن امرأةً من مجموعة سياح ألمان جذبها سحر المسرح فنزلت إلى الساحة، ويبدو أنها مغنية أوبرا معتقة، ويبدو أنها كانت ترى بعين خيالها جمهورًا حاشدًا خفيا يملأ المدرجات، إذ انطلق صوتها «السوبرانو» القوي يصدح ويرن في فضاء المسرح حتى أنها عندما أنهت غناءها وانحنت تحيي (الجمهور)، التهبت الأكف بالتصفيق، ووجدت نفسي أصفق بإعجاب حقيقي، ودهشة. فالغناء كان متقنًا، والمدهش هو ذلك التناسق (الهارموني) الذي يستوعب به المسرح الصوت فيمنحه أصداء وانعكاسات وامتدادات، تجعل له رنينًا صافيًا وقوةً كأن هناك عشرات مكبرات الصوت الإلكترونية الحديثة. لا بد أن ذلك لم يكن مصادفةً، ولا بد أن تصميم ذلك المسرح الروماني كان مهيأ لتلك الإصاتة، فالماضي لم يكن مصارعات ومبارزات دامية وقاتلة فقط، بل كانت هناك أيضًا الأغنيات والأناشيد بين حنايا هذه العمارة الشامخة. وإنها لمفارقة الحضارات القديمة، معظمها، حيث يتوازى الإبداع والقسوة!

الإبداع والقسوة، ثنائية كنت أتأملها مطرقًا وأنا أمضي في «الرواق»، الذي كان الطريق الرئيسي لهذه المدينة الرومانية.. مرصوفة أرضه ببلاطات الرخام المصقولة، ومحفوفة جوانبه بالأعمدة، وكان يوصل بين المسرح الكبير والميناء القديم الذي غمرته تمامًا مياه بحر إيجه. غمرته ومعه ذلك الحمام الروماني الذي كان صخب

القادمين من البحر يعربد فيه قبل أن ينطلقوا في عمق البر، فيمنحوا ذلك البر ثنائية الإبداع والقسوة.

الإبداع والقسوة، ثنائية لم تبرح خاطري وأنا أجول في رحاب أطلال إيفيس الرومانية، ولفتت نظري كإشراقة مدهشة تلك الزهور الصفراء الذهبية التي كانت تشرئب على أعوادها الخضراء الرقيقة طالعة من بين الأحجار، أحجار الطريق، والأعمدة، والجدران. ألا توحي تلك الأزهار الطالعة من قلب الحجر بسبيل ما إلى تجاوز الميراث القاسي بين البشر، لبلوغ مطمح جميل؟.

حملت سؤالي بين جوانحي وأنا أغادر المكان إلى مكان آخر، بل أغادر عصرًا لأدخل في عصر مختلف، فبالقرب من إيفيس الرومانية كانت هناك كنيسة «العذراء المقدسة» ولصقها بناء قديم يقال إنه «بيت مريم العذراء»، وتبعًا للحكاية القديمة يقال: إن أحد القديسين أحضرها إلى هذا البيت بعد (صلب المسيح) وقضت فيه آخر أيامها. ولقد رأيت عشرات الأوربيين (يحجون) إلى هذا البيت الذي يعده الفاتيكان «محمية مقدسة».

كان مكان «بيت مريم العذراء» يبعد عن إيفيس حوالي سبعة كيلومترات، ومنه انتقلنا لزيارة موقع «أهل الكهف». وهو كهف حجري يتسم ببعض العمق وتنتاب المرء أمامه حالة من الرهبة، لعلها أطياف روح الحكاية المذهلة، ولعلها هالة التوهم حيال ما يروى عن المكان وتحديد أنه كهفٌ: «أهل الكهف».. المسيحيين الشبان الذين قد يكون عددهم سبعة والذين فروا ومعهم كلبهم من بطش الإمبراطور الروماني الوثني «ديسيوس» (٢٥٠ ـ ٢٥٣ م)، والتجئوا إلى الكهف يستريحون، فناموا سنين عددًا ليستيقظوا في عهد إمبراطور مسيحي ورع هو «ثيودوسيوس»، أي بعد نحو ثلاثة قرون من الزمان!

وعدنا من إيفيس إلى «سلجوق» في انتظار من يأخذنا إلى محطتنا الأخيرة «بودروم»، فكأن تعاقب الأزمنة كان يتعقبنا ليمنحنا بعضًا من ملامحه، حفنة من الأزمنة لوحت لنا من فوق ذرا البلدة الصغيرة الجميلة، ففي قمة الجبل كانت القلعة البيزنطية، وفي السهل بين البيوت كانت مئذنة مسجد عيسى بيه تشرئب بكل أبهة السمو السلجوقي وزخرفة أبراجه.

أرسلت البروفيسورة «جورسو» أستاذة جراحة التجميل بجامعة أنقرة ورئيسة المؤتمر الدولي الخامس لصحة المسافر الذي افتُتحت أعماله في «بودروم» سيارة لتأخذنا من «سلجوق»، وعرفت أن المؤتمر أدرج في برنامجه الورقة العلمية التي أعددتها على عجل عن «الجوانب الطب نفسية والعصبية في صحة المسافر. إضاءات طبية وصحفية» وفي السيارة أطلعني المرافق على برنامج المؤتمر وموعد إلقائي للبحث. كان اسم المرافق «أفق». اسم عربي جميل ونادر بين الأسماء لدينا. ومع «أفق» كانت السيارة تنهب الطريق تحت المطر وعلى مدارج الجبال، وفي الآفاق كان دائمًا بحر إيجه تحتنا وغابات الصنوبر وأحراج الزيتون في الأعالي، خمس ساعات في الطريق الذي سطعت الشمس عند منتصفه وفي الصفو تجلت لناظري إحدى أجمل صور الطبيعة التي رأيتها في حياتي: البحر وخلجانه والجبال الخضر والزوارق والبيوت البيض المكللة بالقرميد. جمال ساحر يملأ الجوانح بحب الحياة، كل أشكال الحياة، حتى اللقمة الطيبة، لهذا توقفنا في الطريق لنأكل.. كبابا وسجقا مشويين على الفحم مع أرغفة الخبز التركي الطيب وشرائح البصل المشوي والحليب. وفي ظل جبل تملؤه أحراج الزيتون توقفنا عند بائع على الطريق يبيع العسل والتين والجوز والبندق والزيتون. كانت لذيذة جدا «سندويتشات» التين المحشو بالجوز والمُرقَّد في بودرة السكر، وتذوقت لأول مرة الكستناء المنقوع بالعسل. أدفأنا الطعام وطابت لنا الصور، فدخلنا إلى بودروم الفاتنة ونحن مؤهلون للافتتان.

«بودروم» حلم عذب على آخر نقطة على ساحل بحر إيجه، بل في النقطة الفارقة بين شاطئي إيجه والمتوسط.

بودروم.. بلدة من البيوت الجميلة ناصعة البياض على الجبال الخضر المحيطة بخليج خاص تتوقف عند حافته مراكب صيد الأسماك والإسفنج أو اليخوت البيضاء، وتتوسطه إحدى قلاع القرون الوسطى التي بناها «نيبل رودوستي». وتسمى قلعة «سانت بيتر» وهي نموذج فريد من عمارة القرن الخامس عشر وقد تحولت الآن إلى متحف مائي يضم قسمًا غائصًا تحت الماء.

وعند هذه القلعة تلتقي مياه بحر إيجه بمياه البحر المتوسط.

بودروم ذات «الكورنيش» المحفوف بالنخيل والخليج المزدهي بالأشرعة وصواري مراكب صيد السمك والإسفنج واليخوت. بلدة الجاليريهات الصغيرة (معارض الفن)، وملاعب الغطس، والإسفنج الملون، وأطباق البحر الشهية، والزجاجيات الزرقاء، وأضواء الليل الأنيسة حول الخليج. إنها «هاليكرناسوس» كما كانت تعرف قديمًا حيث ولد المؤرخ الشهير «هيرودوت» وموضع مقبرة الملك «ماوسولوس» الراجعة إلى القرن الرابع قبل الميلاد والتي كانت إحدى عجائب الدنيا السبع قبل انهيارها.

جمال بودروم الوديع، وهدأتها الفاتنة، استدعت إلى الذاكرة فصلًا مدهشًا من فصول التاريخ. عندما يحب الملوك مدائنهم أكثر من حبهم للمُلك. ففي زمن الهيمنة الرومانية القاهرة، كان الرومان إما أن يُدعوا لدخول البلاد التي تعترض طريق زحفهم أو يدعوا أنفسهم بالقوة لدخولها. لكن مع بودروم حدث شيء آخر، فببساطة، وفي مواجهة التهديد الروماني تنازل ملك «هاليكارناسوس» (التي صارت بودروم) عن ملكه، فأسقط في يد الرومان، فلا المدينة دعتهم إليها، ولا كان لائقًا أن يدعوا هم أنفسهم إليها. وظلت بودروم وادعة حرة.

لم يكن ذلك منطق ملك بودروم وحده، بل كان منطق المدينة الذي استمر إلى يومنا. فقد صارت ملاذًا لسلام الأجساد والنفوس حتى بين الأتراك أنفسهم، فهي مقصد الهاربين من ضجيج وزحام المدن الكبرى. وأرانا مرافقنا «أفق» بيته الصغير الجميل بين البيوت البيض المطلة على البحر فوق أحد التلال المحدقة بالخليج. وليس اللجوء إلى بودروم هربًا من الضوضاء والضجيج هو ملمح اللجوء الوحيد، فثمة موجات من اللاجئين جاءت من أربعة أرجاء الدنيا لتجد مستراحها في بودروم. فمن جزر بحر إيجه جاءوا، وأشهرهم «الكريتيون» الذين فروا من جزيرة كريت أمام قوة الطرد اليونانية. وتتابعت موجات اللاجئين من أوربا، من المجر عام ١٣٧٦ في مواجهة الاضطهاد الديني ومن فرنسا عام ١٣٩٤ نتيجة لتعصب وقسوة «شارل الخامس»، ومن روسيا جاء الفارون من تعصب القيصر بطرس عام ١٧٠٠، ومن بولندا جاء عام ١٨٠٠ المناهضون للهيمنة الروسية، وفي عام ١٩١٧ كانت الموجة

الكبرى من المهاجرين الروس هربًا من الزحف الأحمر، بل من الحمر أيضًا جاء تروتسكي الذي حل بهذه الأرض قبل ارتحاله إلى المكسيك. وفي الثلاثينيات من هذا القرن، وأمام انتشار النازية والفاشية، جاءت موجاتٌ أخرى من المهاجرين، ومن بين أشهر رموزها ألبرت أينشتين.

كانت بودروم، ولا تزال، ملاذًا لمن ينشد سلام النفس والجسم بين جوانحها المحروسة بالجبال الخضر ومياه الخليج الهادئة، صافية الزرقة، بعد هروبها من صخب بحر إيجه وعنفوانه.

ألا توحي هذه الحالة بمشروع إجابة عن سؤال التلاقي المعلق بين فرقاء الدنيا ومفترقات الأرض؟ أظن أن الإجابة تجيء في مبحث الجمال، واتساقًا مع مقولة «ديستويفسكي» الرائعة الخالدة: «الجمال هو الذي سينقذ العالم». نعم، فلو حرص البشر على جمال الأرض لنبذوا الحروب، واشمأزوا من المذابح، ونبوا عن التباغض، واجتهدوا في إيجاد سبل للتلاقي وأطر للحلول العادلة فيما يشتجر بينهم».

كانت تلك هي الفقرة التي اختتمت بها كلمتي (العلمية) عن «الجوانب الطب نفسية والعصبية في صحة المسافر» أمام المؤتمر الدولي الخامس لصحة المسافرين. تحدثت عن انطلاق حالات الاكتئاب المقنع والفصام الكامن والهوس الدوري نتيجة إجهادات السفر. وتحدثت عن اضطراب إيقاعات النوم وإحداثها للوهن العصبي ـ النيورثينيا ـ نتيجة الاختراق السريع لخطوط الطول في السفر من الشرق إلى الغرب أو العكس. وتحدثت عن «صداع السفر الطويل» «Long Flight Headache».

وقلت: إن كل ما عرضه المؤتمر من مشاكل طبية، هناك سبلٌ لتجاوزها أو توقِّيها، أما معاناة البشر من عواقب التناحر والمواجهة، فربما كان الحرص على الجمال هو السبيل إلى تفاديها.

«نشدان الحياة في بيئة جميلة ولو لأيام.. ألا يصلح ذلك تعريفًا للسياحة؟».

كانت تلك الفقرة هي ما اختتمت بها حديثي، وأختتم بها الآن هذه الصفحات.

كمبوديا

هبة المطر، شجن البشر

على المسارب الخطرة في حقول الألغام التي تمتد من الحدود إلى الحدود مشينا.. تفيأنا ظلال الأشجار الاستوائية العملاقة، وصدمتنا حفر المقابر الجماعية وأبراج الجماجم. شدهتنا ملحمية آثار «أنكور» المذهلة، وانتشينا ببهاء خيوط الحرير الملونة بين أنامل الصبايا الجميلات الفقيرات. إنها كمبوديا، قلب الهند الصينية التي تشبه خارطتها شكل القلب، وهو قلب مترع بالجمال.. وبالآلام.

«تويوك هانومان» فنان شاب مقطوع الذراعين. صادفته في العاصمة «بنوم بنه» وأنا أجول بين حوانيت المصنوعات اليدوية، المحيطة بالمتحف الوطني ذي اللون القرمزي العميق بين خضرة النباتات الاستوائية السخية. «تويوك» في نحو الخامسة والعشرين (وإن كان هؤلاء الكمبوديون يبدون دائما أصغر من أعمارهم الحقيقية لفرط نحافتهم وسواد شعورهم التي لا يدركها الشيب إلا متأخرا)، بدا لي بملامحه نمو ذجا من عرق «الخمير» الذي يشكل ٩٠٪ من مجمل سكان كمبوديا البالغ عددهم تبعا لآخر تقدير للسكان تم منذ ثلاث سنوات ٩,٣ مليون نسمة، فهو أكثر سمرة وأطول قليلا من سكان الجوار ـ الفيتناميين والتايلانديين، شعره الغزير الأسود لامع وأجعد، وملامحه دقيقة كالماليزيين والإندونيسيين الذين يرجح عودة جذور الخمير إليهم، وهم يدينون بالبوذية «الثيرافادا» أو «الهينايانا» التي تعتبر مدرسة الجنوب البوذية وهي أكثر محافظة والتصاقا بجذور البوذية في سنواتها الأولى ومفاهيمها الهندية. تويوك، وكأنه يجسد صورة الخمير، كان يرتدي زيهم التقليدي المسمى «سامبوت» وهو رداء بين السروال والفوطة ـ التي يرتديها الكمبوديون عمومًا وتسمى «سارجون» ـ من قطن «مشجر»،

وفوقه قميص طويل، وعلى الرأس «شال» بمربعات منمنمة حمراء وبيضاء يسمونه «كرامار» يستخدمه الرجال والنساء، وله وظائف بلا حصر، فهو غطاء للرأس يحمي من حرارة الشمس، ومنشفة للعرق، وحزام لربط السارجون على الخصر، وأرجوحة حمل الطفل، و«بقجه» لجمع الثمار من الشجر، وغير ذلك كثير. ولن ترى كمبوديا أو كمبودية إلا بصحبة «الكرامار».

أربعة وجوه لبنوم بنه

في دكان «تويوك» وأمام مدخله كانت تنتصب عدة تماثيل من الأسمنت المخلوط بالرمل وأحدها لم يجف بعد، ولم يكتمل تشكيله. سألته عمن نحت هذه التماثيل؟ فأجاب بإنجليزية مرتبكة: «أنا أعمل» وكان يقصد بالطبع أنه هو من نحتها. وفي برهة الدهشة التي تولتني أفلتت مني نظرة إلى يديه المقطوعتين، يمناهما من منتصف الساعد ويسراهما من أعلى المرفق. وتقبل تويوك نظرتي ببساطة وذهب وأحضر يدا صناعية من خزانة بظهر دكانه، كان يتأبطها، ثم وضعها على منضدة أمامي ومال عليها يثبتها ويدخل في تجويف ساعدها بقايا ساعده الأيمن، ورفع يده الصناعية هذه أمام وجهي وكانت أصابعها مضمومة على ماسورة قصيرة تخرج منها «دفرة» ـ من أدوات الحفر ـ وراح يريني كيف يعمل بها في تشكيل وجه التمثال الذي لم يجف بعد. كان يعمل وفقا لصورة ثبتها على يد التمثال. سألته عن الصورة، فأجاب: «من أنكور»، واستطعت أن أفهم من لغته الإنجليزية المهشمة أن الصورة لتمثال من تماثيل «أسباراه» وهي تعد «ربة الجمال» في حضارة الخمير التي تألقت في عهد مملكة أنكور «من سنة ٨٠٠ إلى سنة ١٥٩٤ م»، وأن نماذجها يشتد الطلب عليها من السياح الذين بدأوا في التدفق على كمبوديا منذ ثلاث سنوات فقط، أي منذ الوصول إلى حالة السلام النسبية في هذا البلد الذي اكتوى طوال ربع قرن بحرب أهلية عمياء البصر والبصيرة والقلب، خلفت آلاف آلاف الضحايا ونهرا من الآلام ما زال يتجدد. تويوك نفسه كان واحدا من ضحايا هذه الفترة، فقد انفجر فيه لغم من ملايين الألغام التي بعثرتها سنوات العمى والدم في كمبوديا.. رفع يده الصناعية المثبتة فيها «دفرة» النحت، وقال لي: «لولاها لقتلت نفسي. لقد صنعتها لي هيئة إغاثة أوربية بعد أن فكرت جديا في الانتحار، لكنها أعادت لي الأمل».

كم عدد الذين فكروا ويفكرون في الانتحار في هذا البلد المنكوب؟!. وكم منهم ستنقذه قدم أو يد صناعية تقدمها له هذه الهيئة الإنسانية أو تلك؟ السؤال مرير، والإجابة غائمة. ففي كمبوديا يقدر المختصون عدد الألغام المنتشرة بطول وعرض الأرض الكمبودية كلها بنحو ١٤ مليون لغم، بمعدل أكثر من لغم لكل واحد من السكان، ويقدر أن كل رابع إنسان كمبودي تلحق به إصابة من جراء انفجار لغم، وغالبا ما تكون الإصابة قاتلة نظرا لتدني الخدمات الطبية في كمبوديا عموما وفي القرى خاصة، إضافة للفقر الشديد في الريف، حيث يمنع العوز أهل المصاب من نقله إلى المدينة للعلاج لأنهم في غالب الأحوال لا يمتلكون أجرة نقل المصاب إلى المدينة.. مجرد أجرة النقل!

إنها مأساة حية، ظلت تطبع بصمتها المؤلمة على كل صور الجمال الحاضر والغابر التي فاجأتنا بها كمبوديا، البلد الذي يمتلك جدارة حقيقية لأن يكون مكانا ساحرا وهنيئا. فما من مكان قصدناه إلا وجدنا على أبوابه وبين حناياه وطواياه مبتوري الأطراف هؤلاء.. أطفالا، ويافعين، ومسنين، ذكورا، وإناثا.

ودعت أمل وألم الفنان «تويوك»، ومضيت في جولتي الأولى في العاصمة «بنوم بنه» التي تسمى «ذات الوجوه الأربعة» لإطلالها على ملتقى ثلاثة أنهار وبحيرة. إنها قطعة جميلة أهملت أسوأ الإهمال، لكن لا يزال يتجلى فيها تناسق العمارة الخفيضة والشوارع الواسعة المحفوفة بالأشجار ـ كالبوليفارات الفرنسية، وثمة نافورات هنا وهناك، ونُصب تذكارية للحرية باللون القرمزي، وفي شوارعها تجري عشرة آلاف عربة دراجة «تسيكلو» إضافة للسيارات والدراجات النارية «الاسكوتر» التي تتناثر محطات بنزينها على الأرصفة: مناضد صغيرة تحمل وقود هذه الدراجات معبأ في زجاجات المياه الغازية، والتموين بالزجاجة!

صعدنا تلة في قلب العاصمة يتسنمها أشهر معابدها البوذية القديمة، ويسمى «وات بنوم». ويحكى أن امرأة ثرية من نساء الخمير وجدت بعد أحد الفيضانات المدمرة شجرة على ضفة نهر الميكونج وعلى أغصانها تتألق أربعة تماثيل لبوذا، فبنت المعبدعلى نفقتها الخاصة تكريسا للمعجزة، وتعويذة ضد غرق المدينة في الفيضان. ولا يزال المعبد هو أعلى قمم المدينة التي لم يعد يغرقها الفيضان. وفي أركانه لا يزال الأهالي يقدمون الفاكهة

نذورًا ويوقدون الشموع.. لمجد بوذا. فيأكل الرهبان الأناناس والموز في اليوم التالي «إذ لا يأكل الراهب بعد الظهر»، ونأكل مع زوار المكان شرائح المانجوالوافرة التي تبيعها النساء والصبايا في ظلال الأشجار المحيطة بالمعبد. وتصيبنا حلاوة المانجوالاستوائية بالعطش فلا نشرب إلا ونحن في رحاب معبد آخر.. إنه المعبدالفضي، وهو لصيق بالقصر الملكي، وكان موقوفا على الأسرة المالكة وحاشيتها إذ تتبرك وتتعبد وتحتفل، ففي شرق آسيا يختلط دائما الحاكم بالمقدس. لكن هذا التضييق تخففت منه أخيرا بنوم بنه، ففتحت المعبدالفضي للجمهور وللسياح. وهو مدينة دينية كاملة تتناثر في رحابها صروح وأبراج تغطيها نقوش زخرفية بديعة من الحجر الرملي الرمادي توحي لمن لا يدقق أو يقترب بأنها زخارف محفورة في الرخام. وفي المبنى الرئيسي الذي لا يُسمح لأحد بصعوده إلا حافيا.. تغطي أرضه خمسة آلاف «بلاطة» من الفضة الخالصة، وفي الصدر ينهض تمثال لبوذا من الذهب الخالص وزنه ٩٠ كيلوجراما، ترصعه تسعة آلاف وخمسمائة ماسة! فلماذا لم ينهب «الخمير الحمر» ذلك وهم ملحدون؟.. سؤال اعتراضي تعلق بخاطري وأنا أمشي حافيا على أرض الفضة الخالصة، وظل معلقا بهذا الخاطر بعد أن ارتديت حذائي ومشيت على الأسفلت والأسمنت والتراب باتجاه القصر الملكي حيث عاد الأمير سيهانوك ليتوج من جديد ملكا للبلاد، وإن قيل إنه ملك رمز وليس سلطة حقيقية، برغم أن مسماه الرسمي طويل جدا ومهيب جدا، فهو «جلالة برياه بات ساميديش برياه نوردوم سيهانوك فارمان ملك كمبوديا».

إن سيهانوك الذي كان عائدا لتوه من رحلة علاج في الصين، إذ يعاني من سرطان البروستاتا في مراحله المتأخرة، كان داخل القصر، رمزا تنطفئ شموعه رويدا رويدا في الواقع المعيش، لكنه يتوهج في تاريخ بلده، بل في تاريخ الهند الصينية كلها.. ملكا من نوع خاص، عندما انقلب عليه ابن عمه والعسكريون لم يبحث عن ملاذ إلا في الصين الشيوعية. رحت أطل على قصره وأنا أعتلي منصة ملكية تشرف على النهر العظيم من جهة وتطل على الحدائق الملكية من الجهة الأخرى، ويحيط بها صخب المستجمين والمتسولين والبائعين على الشاطئ.. بائعو العصافير المشوية، وشرائح المانجو، وأطباق الأرز، وحساء السمك المتبل، وزهور اللوتس مغلقة البراعم، وشموع البركة البوذية.

جعلتُ قصر سيهانوك ورائي، ونهر الميكونج أمامي، والكمبوديون على الضفاف، ورحت أتطلع إلى رحابة الماء الذي كنت على موعد معه في رحلة نهرية طويلة.

نهر المطر

هبطنا إلى مرسى الزوارق الممتد كلسان خشبي من حديقة فندق «كمبوديان» وكانت هناك سفينة ركاب سنغافورية بيضاء كبيرة ترسو كفندق وملهى ليلي، فالنموذج التايلاندي للسياحة يمارس نفوذه على الهند الصينية كلها. ومن المرسى انتقلنا إلى زورق بمحرك «ديزل» يسع ثلاثين راكبا غير الطاقم. لكن الفوج الذي ضمته الرحلة لم يزد على خمسة عشر شخصا من التايوانيين، أي الصينيين. والصينيون ـ بالمناسبة ـ عنصر بشري يحسب له ألف حساب في شرق آسيا، فهم ملوك التجارة والصناعة أينما كانوا، سواء كأقليات كما في ماليزيا وتايلاند وكمبوديا، أو كأغلبية في هونج كونج وسنغافورة وتايوان. إنهم نشطون وعمليون وجامعو أموال مهرة، وأكثر صخبا عندما يخرجون عن إطار الانضباط المعروف في وطنهم الأم ـ الصين الشعبية. ولقد بدأ رفاق رحلتنا صخبهم ففزعت، وخشيت إن استمروا أن يفسدوا عليّ متعة التأمل في هذا الإبحار النهري الطويل والجميل. وعند أول سانحة تذرعت لإيقاف الزورق عن الانطلاق بعدم وجود «مرشد» يتحدث الإنجليزية، إذ إن المرشد الموجود في الزورق كان لا يتحدث إلا الصينية، بينما دفعت وزميلي مثلما دفع التايوانيون. وهددت بالنزول وتقديم شكوى من صحفي، للملك شخصيا، ولرئيسي الوزراء ـ إذ إن كمبوديا بها رئيسان للوزارة ـ لو أهدر حقي!

ولقد أفلحت الخطة، فقد تعطل الزورق عن الإقلاع حتى استجابت إدارة الشركة المسيرة للرحلة لنداءات المشرف ـ عبر جهاز الهاتف اللاسلكي ـ ووفرت مرشدا إضافيا يتحدث الإنجليزية. لم أكن في حاجة حقيقية إلى هذا المرشد ولا غيره في أي رحلة آسيوية أو إفريقية، فهؤلاء عادة ـ وخاصة الآسيويين ـ يتحدثون الإنجليزية بلكنة تستعصي على الإدراك، وهم لا يقولون شيئا يتجاوز ما تقوله أفقر الكتب السياحية. لكن الهدف الأساسي لثورتي تحقق، فقد صمت التايوانيون تماما والتزموا حدود التحادث

همسا، أو بأصوات خفيضة، إذ أدركوا أن معهم عنصرا مناوئا، وأن لضوضاء بهجتهم أو خفَّتهم حدودا تنتهي عند حدود «الآخرين».

انطلق الزورق بلا صخب ـ إلا صوت المحرك عند الإقلاع ـ في رحاب النهر الذي يدعونه «الميكونج العظيم». وكان المرشد المتكلم بالإنجليزية يميل على أذني ليحدثني عما آراه، فألتقط شيئا من لغته، وتضيع أشياء. إنه ـ أي المرشد ـ شاب رقيق الجسم دقيق الملامح، اسمه «كمبكساو» فقد أمه وأباه في أيام حكم «بول بوت» الرهيبة، فقد كان الأب رجل أعمال صغيرا، وكانت الأم مدرسة. وكان نظام «الخمير الحمر» بقيادة «بول بوت» يتبنى مقولة أن كمبوديا تدهورت وضاعت بسبب الاستعمار ولا سبيل لاستعادتها إلا بالقضاء على كل أثر لهذا الاستعمار وذيوله المحليين، والعودة بالبلد إلى المجتمع الزراعي الأول. ولهذه الغاية تم القضاء في أربع سنوات على أكثر من مليون إنسان اعتُبروا أعداء للثورة، وعلى رأسهم كان الاقتصاديون والأطباء والفنانون والعلماء والمعلمون ورجال الدين.

الميكونج نهر عظيم بحق، وهو عاشر أكبر أنهار الدنيا من حيث طاقة الامتلاء، طوله ٤١٨٦ كيلومترا ويصل عرضه في بعض المواضع إلى أكثر من خمسة كيلومترات. ينبع من هضبة التبت في جنوب الصين ويهبط باتجاه لاوس ثم يدخل كمبوديا منحدرا على سلسلة من المهابط تكون مجموعة من الشلالات الفاتنة. وفي قلب كمبوديا ينبسط مجراه، ويغدو صالحا لملاحة نهرية تستوعب سفنا ضخمة كالتي تجوب أعالي البحار، وبعد ٥٠٧ كيلومترات من مسيرته في الأرض الكمبودية يتفرع جنوب العاصمة «بنوم بنه» إلى فرعين تترامى بينهما دلتا عرضها ٣٢٠ كيلومترا، ثم تُختتم رحلة النهر بتفرعات جديدة قبل أن ينتهي إلى مصبه في بحر الصين الجنوبي شرقي السواحل الفيتنامية. لكن الميكونج في جزئه الكمبودي ـ غير أجزائه الأخرى كلها ـ يدين بمعظم عافيته لجبروت المطر الاستوائي الذي ينصب انصبابا في كمبوديا، ولستة أشهر كاملة، ودائما بعد الظهر! فثمة بحيرة هائلة في كمبوديا تسمى «تونل ساب» أي البحيرة العظيمة، كانت في غابر الزمان مجرد رافد يمتلئ بمياه الأمطار التي تذهب إلى البحر، لكن باتساع وارتفاع ضفاف الدلتا التي يرسبها نهر الميكونج تحولت «تونل ساب» إلى بحيرة داخلية تربطها

بالنهر العظيم قناة وسيعة طولها ٨٠ كيلومترا تشكل نهرا يسمى «نهر التونل ساب»، وفي الموسم الجاف (وهو ليس جافا أبدا بل قليل الأمطار وحسب)، الذي يمتد من نوفمبر إلى مارس، تغطي البحيرة زهاء ٢٦٠٠ كيلومترا مربعا، ولا يتعدى عمق الماء فيها مترا ونصف المتر. أما في الفترة من مايوإلى أكتوبر، التي تهب فيها الرياح الموسمية الجنوبية الشرقية المطيرة، فإن البحيرة تفيض وتتسع لتغطي مساحة ١٩٩٤ كيلومترا مربعا، ويرتفع منسوب المياه فيها إلى أكثر من ١٢ مترا، ومن ثم تندفع المياه في نهر «التونل ساب» عكس اتجاهه الأصلي لتملأ مجرى الميكونج ذاته. وبعد انقطاع الرياح الموسمية وانحسار المطر يكون الحصاد عظيما، فالمحصول السمكي في البحيرة يصبح أغزر محصول لأسماك المياه العذبة على وجه الأرض، ويقدر بمليون رطل من الأسماك في كل ميل من أميال البحيرة، أي ٤٢٠ ألف كيلوجرام في كل ٢,٦ كيلومتر مربع.

هذه الأرقام أضحت محسوسة لدي، بينما كان الزورق يبحر في عرض الميكونج الزاخر والوافر والقوي برغم أن الرحلة كانت على مشارف نهاية الموسم الجاف.

لقد دخلنا في نقطة ملتقى فرعي الميكونج، وبدا أننا في بحر وليس نهرا. وصارت الضفاف التي نراها مجرد حدود لجزر تتناثر في مياه الحوض العظيم. جزر بكر لا يربطها ببعضها ولا باليابسة القريبة منها أي جسور لهذا ظلت عذراء، عذرية واضحة للعين تتبدى في كثافة الخضرة التي تطل من بين فرجها البيوت الصغيرة، وتشرئب بالكاد بين هامات أشجارها الوارفة سقوف المعابد البوذية، وكلما اقتربنا من الضفاف كنا نشاهد الأطفال يرطبون أجسادهم العارية سابحين ولاعبين في مياه النهر ومعهم الجواميس التي تبرد أجسامها وتطفئ عطشها، بل ثمة أفيال كانت تستحم أيضا في مياه الميكونج. ولم تكف عن الظهور زوارق صيادي الأسماك والمراكب التي تعمل كوسيلة مواصلات وحيدة بين الجزر والحضر، وفي لحظة من لحظات انسيابنا فوق مياه النهر لمحت أكواخا خشبية على مقربة تنهض على أوتاد أمام إحدى الجزر وتصعد على مدرج شاطئها حتى تغوص في الخضرة الكثيفة، وفي غمرة الخضرة لمحت بناء صغيرا أبيض ناصعا، فلم أصدق ما أراه، واستعرت من زميلي طالب آلة تصويره وعدسة «الزووم» لأسددها نحوما أرى. وكان ما أراه حقيقيا..

كان المسجد الأبيض الصغير يعلن عن وجود المسلمين في هذه الجزيرة، وكانت البيوت الخشبية ـ الأكواخ ـ المهيأة للطفو والرحيل عندما يجيء الفيضان ـ تعلن عن شدة فقر المسلمين في هذه البلاد.

والمسلمون في كمبوديا مُختلفٌ على عددهم ففيما قال لي إمام المسجد الكبير في بنوم بنه إن عددهم ٧٠٠ ألف، قال أحد المراجع إنهم ٢٥٠ ألفا، بينما يذهب قول ثالث إلى التوسط فيقول إنهم ٥٠٠ ألف. وترجع جذور المسلمين الكمبوديين الذين يطلق عليهم «شام» أو «تشام» ـ ولا علاقة لهم بشامنا العربية ـ إلى حضارة عظيمة سادت في شرق آسيا لأكثر من ألف عام وكونت مملكة الشامبا التي كانت تعبيرا عن التأثيرات الهندية في هذه المنطقة، وظلت هذه المملكة مزدهرة حتى هُزمت في فيتنام في القرن الخامس عشر بعد حروب طاحنة مع الخمير من ناحية، والصينيين من ناحية أخرى. ويقال إن الإسلام وصل إلى هذه الأصقاع عبر التجار المسلمين، وأن سبيل الهداية كان شرف هؤلاء التجار وصدق كلمتهم وأمانتهم. ولقد اعتاد المسلمون الشام على سُكنى الجزر المتناثرة على امتداد حوض نهر الميكونج شرق وشمال العاصمة وفي منطقة الحدود الفيتنامية، وهم أقرب إلى الماليزيين ويرتدون مثلهم ومثل الإندونيسيين ورجال الخمير تلك الفوطة التي تلف حول الوسط وتسمى «سارجون» بينما ترتدي النساء ملابس ضافية ويحطن رؤسهن بالشيلان. ولا يكاد المسلم الكمبودي من الشام يخلع عن رأسه الطاقية البيضاء. ولقد ظلت الأعمال التقليدية للشام هي التجارة في الأغنام، والصيد، وبناء القوارب. بينما تشتهر نسوتهم بالبراعة في نسج القطن والحرير. ويتردد أن المسلمين الكمبوديين كانوا من أكثر الفئات التي اضطهدها نظام بول بوت. وإمام المسجد الكبير نفسه كان معتقلا لمدة أربع سنوات في عهد بول بوت وأُجبر على ترك الإمامة والعمل الجماعي في إحدى المزارع الجماعية تحت شروط أقرب إلى الموت. وهو لا يزال يرتعد حين يتذكر هذه الفترة، وعندما حاولت أن أحصل منه على تفاصيل لذكرياته لم يتكلم برغم أنه يجيد العربية التي تعلمها في الأزهر، فقلت له: «ألا تزال خائفا يا شيخ...؟» «فقال: نعم.. فمن يدري ماذا يحدث غدا».

المسلمون في كمبوديا أكبر الأقليات، فهم العنصر الثاني بعد الخمير، ويزيد عددهم على العناصر الأخرى التي تشكل التركيب السكاني الكمبودي، فهم أكثر عددا من الفيتناميين، ومن الصينيين ومن أبناء القبائل ساكنة التلال. وبالرغم من أن المسلمين أكثر مدنية من أبناء التلال الذين ما زالوا في حالة فطرية بدائية ومنقطعين عن العالم، فإن المسلمين ومجتمعاتهم أشد فقرا وتخلفا من الصينيين الأكثر غنى والمسيطرين على التجارة، والفيتناميين الأكثر تأهيلا مهنيًّا. هذه الحالة من الفقر والتخلف جعلتني أبحث عن أوجه نشاط الهيئات الإسلامية العربية في كمبوديا، وقد علمت أن هناك عدة هيئات عرفت منها جمعية إحياء التراث الإسلامي الكويتية، وهيئة الإغاثة الإسلامية السعودية، وجامعة أم القرى. وفيما تقوم جمعية إحياء التراث بدور الكفالة للأيتام والفقراء، وتسعف هيئة الإغاثة بمساعداتها العاجلة نوائب الفيضان واحتياجات الأعياد، تركز جمعية أم القرى على نشر الوعي الديني. هذا جميل كله، لكن هناك عناصر غائبة في أداء هذه الهيئات التي لا تنسيق بينها برغم شرف المهمة المشتركة التي تقوم بها. وإذا كان لي أن أقترح شيئا عليها مجتمعة، أو عليها فرادى، فإنني أقول: نعم بناء المساجد مهمة جليلة خاصة وقد دمرت الحرب الأهلية وحقد الخمير الحمر ومن لف لفهم ثلاثة آلاف مسجد كانت تعم أرجاء كمبوديا لم يعد منها غير ثلاثة عشر مسجدا. والمسجد الكبير نفسه كان الخمير الحمر قد أغلقوه وباعوه ليصير ملهى ليليا، ولم يستعده المسلمون إلا بعد تدخل عربي إسلامي ومناشدة للملك نوردوم سيهانوك استجاب لها وضغطَ لإعادة المسجد إلى المسلمين.

بناء المساجد مهم، لكن الإسلام الذي انتشر في جنوب شرق آسيا عن طريق حسن معاملة التجار المسلمين لأبناء هذه البلاد وصدق كلمتهم وطيب أخلاقهم، مما جعلهم يثقون في دين هؤلاء التجار ويبحثون عنه ويعتنقونه، هذه المعاملة الدنيوية الحسنة التي أدت إلى نصرة الدين إيمانا واعتقادا، تجعلني وقد رأيت بؤس حال المسلمين في كمبوديا أقترح شيئا دنيويا طيبا، ملموسا، يأخذ بعون المسلمين هناك، بل يقدم عونه إلى غير المسلمين أيضا (أليس للمسلم في كل كبد رطبة أجر؟).. تحديدا أقترح أن يكون العون في مجال الخدمات الصحية، مستشفى مسلم، بأطباء مسلمين أكفاء، يغيث البشر حيثما تألموا وأينما جرحوا، والألم كبير والجرح أكبر. فعلى سبيل المثال

تشكل حوادث الألغام صعقات قاتلة للبشر، خاصة الفقراء منهم، والقرويون على وجه التحديد. فانفجار لغم في رب أسرة يحيل أسرته إلى أدقع الفقر في دقائق عندما تنتهي الحادثة بموته أو إعاقته.

وثمة ٣٠٠ حالة وفاة من انفجار الألغام كل شهر. وتقول الإحصاءات إن واحدا من كل ٢٥٠ إنسانا هو من مبتوري الأطراف. وثمة وكالات إغاثة وهيئات تبشيرية وغير تبشيرية غربية تركز على هذا الجانب، والإعلام يلهج بذكر محاسن هؤلاء الذين يقدمون مصانع الأطراف الصناعية ـ برغم بدائيتها ـ ويقدمون مع الأطراف دروس التأهيل المهني وإعادة التأهيل النفسي، ويحمدون ويشكرون، بل لا أستبعد أن يتجه نحو كنائسهم ومعابدهم المتعَبون من الكموديين. فهل على طريقتها الآبدة المؤبدة ستظل تفكر الهيئات الخيرية الإسلامية؟

وإلى من يريد أن يعرف مدى أهمية عون صحي يقدَّم للمسلمين، وغير المسلمين إن أمكن، في هذه البلاد، أذكر هذه الأرقام: متوسط عمر الفرد الكمبودي ٤٩,٧ عاما، ومعدل موت الرضع ١٢٠ من كل ألف، ويعيش طفل واحد من كل خمسة حتى يبلغ سنة من العمر، و٢٥ من كل ١٠٠٠ أم يمتن في أثناء الولادة.

لقد زرت مؤسسة كفالة الأيتام المسلمين التي أنشأتها جمعية إحياء التراث الإسلامي الكويتية ودُعيت لإلقاء كلمة فحدثت الصغار الشام عن «الدين المعاملة»، وحدثتهم عن أن لهم إخوة وآباء وأمهات وأعماما وأخوالا وأقارب مسلمين في هذا العالم الواسع، ووعدتهم بأن أحمل نداءهم إلى من أستطيع من الأهل (وهأنذا أفعل عبر هذه السطور) وختمت كلمتي بتحية السلام عليكم، ففوجئت بهدير ثلاثمائة صوت معا: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته». ثم كان علي أن أشق طريقي بصعوبة وسط حشد المسلمين الصغار الذين كانوا ينهالون علي محاولين السلام يدا بيد. كأنهم يريدون أن يتيقنوا باللمس أن هناك ـ حقيقة ـ مسلمين آخرين في هذا العالم.

وكان علي أن أعجل، برغم أنني كنت امتلئ بالرغبة في الجلوس والبكاء، والبقاء بين هؤلاء الأيتام الذين أذابت ضلوعي ووشائج قلبي نظرات عيونهم المحرومة. كان علي أن أعجل، فالمكان مقطوع، وحوادث السطو المسلح قائمة، وكان هناك حراس

بالرشاشات على دراجات نارية يتبعون سيارتنا حتى نصل إلى بر الأمان، بعد عدة كيلومترات، قرب المطار!!

لغة الأيادي.. طعم التوابل

تجاوز قاربنا المبحر في حوض الميكونج العريض قرية المسلمين في الجزيرة وبعد نصف ساعة من الإبحار اقتربنا من جزيرة أكبر تحمل اسم «الميكونج» ذاته، ووجدنا المرسى المظلل والدرج الصاعد على ضفة الجزيرة العالية، وهناك كانت في انتظارنا الأفيال ترفع خراطيمها محيية، ثم إنها ـ أي الأفيال ـ وقد كانت في عمر الصبا، لا يتجاوز عمر الواحد منها عشر سنوات، أخذت تصطف في قطارين على الجانبين صانعة من تقاطع التقاء خراطيمها المرفوعة قوسا نمر تحته لنعبر بوابة هذه الجزيرة التي حولها بعض المستثمرين الفرنسيين إلى قبلة سياحية بقليل من المنشآت الخشبية الأنيقة، وبعض اللمسات التنسيقية للأزهار. أما الأشجار والنباتات والحيوانات والطيور فقد تركت على حالها. والفرنسيون أقلية محدودة جدا في كمبوديا يقدر عددهم بآلاف لا تزيد على عدد أصابع اليدين، ومع ذلك يشكلون مركز ثقل ثقافيا يستمد عافيته من سطوة الأيام التي كانت فيها كمبوديا محمية فرنسية برغبة ملكها «نوردوم» الذي وقع موافقة على الحماية عام ١٨٦٣ ليتقي بذلك شر الغزو من جارتيه الأقوى، فيتنام وتايلاند، ولتصير كمبوديا بعد ذلك إحدى بلدان «اتحاد الصين الهندية» التي كان يسيطر على مقاليد الأمور فيها جنرال فرنسي مقيم في هانوي حتى قويت شوكة اليابان وأصبحت في عام ١٩٤٠ شريكا في الهيمنة على كمبوديا بينما بسطت تايلاند نفوذها على مقاطعتي سيم ريب (التي تضم مدينة أنكور التراثية إحدى عجائب الدنيا، والتي قدر لنا زيارتها فيما بعد). وبعد هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية عادت فرنسا إلى مطلق السيطرة على كمبوديا مع بقاء المقاطعات الشمالية الغربية منها تحت نفوذ مملكة تايلاند. وفي عام ١٩٥٣ ومع صعود الشعور بالكبرياء الوطني أعلن الأمير «نوردوم سيهانوك» (الذي توِّج ملكا على كمبوديا عام ١٩٤١) استقلال بلاده عن فرنسا التي ظلت حتى عام ١٩٥٤ تعتبر هذا البلد إحدى «مستعمراتها الآسيوية». ذلك النفوذ الفرنسي الذي هيمن على كمبوديا لأكثر من ٩٠ عاما، انحسر تاركا نكهة فرنسية يمكن تذوقها حتى

الآن في شوارع العاصمة الوسيعة المظللة بالأشجار (البوليفارات) وطبق أوراك الضفادع الذي اندمج بالمطبخ الأرستقراطي الكمبودي، والخبز الفرنسي الذي يباع في أكياس نايلون على الأرصفة المغبرة، واللغة الفرنسية التي ما زالت اللغة الأجنبية الأولى (بعد لغة «الخمير» الرسمية التي تُكتب بحروف مدورة تسمى «مول»).

كل هذه البقايا ما زالت تشي بالتأثير الفرنسي. والجزيرة التي هبطنا عليها بعد الإبحار الطويل في نهر الميكونج كانت حافتها ملموسة بطابع المستثمرين الفرنسيين، لكن وراء الحافة كان الطابع الكمبودي يجتاح هذا اللمس الفرنسي الخفيف بكثافة وعرامة.

طفنا بأرجاء الجزيرة العذراء، تلك الغابة الاستوائية المؤنقة، أكلنا ثمار المانجو التي التقطناها من الأغصان القريبة، وروينا عطشنا من ماء ثمار جوز الهند الطازجة التي فتحت لنا فيها امرأة صغيرة فتية بضربات محكمة من ساطور، نوافذ ندلي فيها أنابيب الامتصاص. ثم خلعنا أحذيتنا ونحن نصعد إلى مطعم من طابقين من الخشب المورنش بلون بني عميق شديد النظافة مرصع بأصص الأزهار والنباتات الاستوائية وتحوطه أشجار الجزيرة ويرى النهر من كل جهاته الأربع المفتوحة. وكما في مطاعم الأسواق الشعبية الكمبودية يلعب الأرز دوره الرئيسي، وكلمة «سي باي» التي تعني بالكمبودية «أكل» تعني كذلك «أكل الأرز»، ولقد رأيت تلك المطاعم الشعبية في الأسواق، والمطعم كله لا تتجاوز مساحته مترين في مترين بما في ذلك منصة الطعام، وكل شيء صغير وسريع، ويأتي الزبون فيغترف كمية من الأرز في طبقه، ثم يمر على أطباق صغيرة بها مقليات منمنمة من قطع السمك أو الدجاج أو اللحم ومرقات عديدة أشهرها في كمبوديا مرقة السمك بالتوابل المسماة «توك ترا»، ويضيف إلى الأرز من هذا الطبق أو ذاك ويجلس على مقعد صغير ليشغل مكانا صغيرا ويأكل بالعصي بسرعة ويحاسب ثم ينصرف أو يكرر طبقه إذا كان جائعا، ويمكنه أن يلتقط ليحلي بعض شرائح المانجو أو البطيخ، لكن الحلو المفضل هو نوع من عجينة الأرز والسكر وجوز الهند ملفوفة في أوراق موز قديمة بنية وتسمى هذه الحلوى «شونج روت» يلتهمونها بتلذذ وإن كنت لم أستطع إلا تذوقها، بينما استحال علي أن أقترب من أطعمة أخرى غريبة مثل بيض البط المشوي وهو موشك على الفقس ويسمونه «بونج تي كو» وهو

من الأطباق الفاخرة في كمبوديا. أما الفستق الشعبي هناك فهو نوع من الزيزان السود يوجد بكثرة في الأشجار الوارفة ويكاد يصم بضوضائه آذان من يمر تحت أشجاره. هذه الزيزان (التي تشبه الخنافس الطنانة) يسلقونها ويحمصونها.. ويقزقزونها بسعادة لم أستطع فهمها أبدا.

مائدتنا في مطعم الجزيرة الخشبي لم تكن شعبية بالطبع، بل خليط من المطبخ الكمبودي المعتدل والأرستقراطي مع لمسات فرنسية، وهو مثقل بالتوابل، وغني بأسماك النهر والبحيرة العذبة، فأخذت طبقا من كباب السمك النهري المتبل بالعسل والبهار والمشوي على الفحم، كان لذيذا، ثم شربت شايا واستلقيت على جزء من دائر خشبي يحيط بجوانب المكان المفتوحة، وهو مخصص لمن يحب إغفاءة بعد الطعام. لقد كانت إحدى أهنأ لحظات السلام التي تذوقتها في عمري. أن أتمدد وفوقي أغصان الشجر والنخيل الاستوائي وتحتي الخضرة وعلى مرمى بصري يمضي نهر الميكونج العظيم، ولا صوت إلا شدوالعصافير وحفيف أو راق الشجر. يا الله كم هو متاح السلام والشبع والهناءة في هذا البلد البكر الذي حُرم طويلا من طعم السلام وتضور جوعا وشقي طوال تاريخه، خاصة زمن الحرب التي يقال إنها «أهلية»، برغم أنه لا توجد حرب أهلية خالصة أبدا، والتي استمرت قرابة ربع قرن، منذ انقلاب العسكريين على سيهانوك بدعم أمريكي، ثم هزيمة العسكريين أمام شيوعيِّي «الخمير الحمر»، وهزيمة «الخمير الحمر» واختفاء قائدهم الرهيب ـ اللغز «بول بوت» أمام الفيتناميين الذين غزوا كمبوديا، ثم انسحبوا، وحتى تكوين حكومة ائتلافية وعودة الأمير سيهانوك.

لم يدركني النعاس، كأنني كنت أخشى أن أنام وأترك هذه اللحظات من الجمال والسلام والرضا في جزيرة الميكونج. ثم قرعوا جرسا نحاسيا رقيقا، فنهضت مع الآخرين لنشهد حفل الغناء والرقص في مسرح الجزيرة الخشبي والمبني على هيئة كوخ كمبودي كبير محاط بالأزهار.

كانت فرقة الرقص بالجزيرة من صبايا صغيرات وفتيان، أرديتهم من الحرير الملون ويؤدون رقصات ذات طابع تعبيري بطيء وأنيق، لكن خلف البطء الموقع

تختفي أعمق المعاني في أصغر تحركات الأجساد الخفيفة الرقيقة. فلغة الأيادي عنصر مهم من عناصر الرقص الكمبودي، الراجعة جذوره إلى فجر حضارة الخمير. فالأصبع المشير إلى السماء يعني: اليوم، والأذرع المتقاطعة على الصدر تعني «إنني لفي غاية السعادة». أما عندما تكون الذراع اليسرى مفرودة وممدودة وراء الراقص واليد اليمنى مرفوعة أمام الصدر بينما ثلاثة أصابع منها مرفوعة والسبابة تلامس الإبهام فهذا يشير إلى «ناجا» الأفعى متعددة الرءوس التي ترمز إلى روح الكمبوديين الصبور الحكمية. أما وضع اليدين إحداهما إلى أعلى فهذه تشير إلى الموت بينما اتجاه الأخرى إلى أسفل يشير إلى الحياة، وتبديل اليدين وضعيهما أربع مرات بسرعة فإنه يشير إلى مراحل الحياة الأربع عموما، وبينها حياة الإنسان، كما في التعاليم البوذية: الميلاد، والسعي، والمرض، والموت. هذا الرقص الجميل الحيي الرافل في صفاء ألوان الحرير يصير متعة روحية حقيقية لمن يفك رموزه. ولقد حاولت فعرفت شيئا وجهلت أشياء، فالإشارات كثيرة وغزيرة، فهذا الرقص المسمى «أبسارا» يعود بجذوره إلى فجر حضارة الخمير التي تبلورت في مملكتهم في القرن الثامن، وهم بذلك أسبق من التايلانديين الذين تأخروا عنهم خمسمائة سنة، ولم ينشئوا فنهم إلا بعد غزوهم لكمبوديا وتوقيفهم لراقصي الأبسارا ونقلهم إلى تايلاند لينشروا هذا الفن هناك.

رهافة الحرير.. جلافة الحديد

دورة واسعة أخرى في العاصمة ومن حولها. ويتصادف أن تتقابل عتامة صدأ الحديد مع إشراق ألوان الحرير في هذه الدورة. ففي سوق «ثماي» بقلب «بنوم بنه» كان محل ناسجة الحرير «برانج سن» الشابة يبدو كماسة تأتلق بالألوان من الأرض إلى السقف حيث تتراص لفات قطع الحرير.. لامعة بهيجة، دقيقة، «ولكل لون معناه» كما تخبرنا «برانج»، ففي التقاليد الكمبودية لشعب الخمير يقولون إن من يحترم تناسب الألوان والأيام يجد السعادة والنجاح، فالأحمر ليوم الأحد، والأصفر الداكن للإثنين، والبنفسجي للثلاثاء، والأخضر صدأ النحاس للأربعاء، والأخضر الفاتح للخميس، والأزرق الغامق للجمعة، أما السبت فيناسبه الكحلي.

كانت «برانج» الشابة الضحوك تحادثنا وهي توشي ثوبا من الحرير بخيوط ذهبية وفضية برهافة ومهارة. وضاحكتها سائلا: «عندما تولدين من جديد هل تحبين أن تكوني دودة قز؟»، فردت بسعادة: «نعم نعم». إن إجابتها جادة، فهي بوذية تؤمن بدورة التناسخ وميلاد الروح في كائن جديد بعد الوفاة البشرية، واختيارها لدودة القز منطقي منطق الأسطورة الكمبودية التي تقول إن حكيما عاد إلى بيته فوجد زوجته الجميلة تغزل خيوطا للحرير تخرج من فمها الرقيق الجميل لتصنع «ناموسية» من الحرير تقي من لسع البعوض. فوقف يراقبها حتى انتبهت إلى وجوده وخجلت من اكتشافه لسرها حتى أنها ماتت من شدة الخجل، وبعد موتها ولدت روحها في كائن جديد: دودة حرير. أما زوجها فقد قتل نفسه ندما على إخجال زوجته الجميلة حتى الموت، وبعد موته ولدت روحه في بعوضة. لهذا تغطي أشجار التوت بشباك من حرير تقي دود القز من لسع البعوض وهي ترعى على الأوراق الخضراء.

ألوان حقيقية، وأسطورية، كانت تضج بها كمبوديا حتى ذلك اليوم الرمادي من العام ١٩٧٥. ففي السابع عشر من أبريل من ذلك العام سقطت بنوم بنه في يد الفصيل الأقوى من الشيوعيين الكمبوديين المسمى «الخمير الحمر». وقد كانوا «ماويين» يعلون من شأن طبقة الفلاحين، ويؤمنون بأن كمبوديا تردت بسبب الاستعمار ولا سبيل إلى استعادتها لرفعتها إلا بالعودة إلى الجذور ونبذ أي أثر استعماري، أي العودة إلى المجتمع الزراعي، وتحولت هذه الفكرة القابلة للنقاش إلى إحدى أعجب وأعتم فترات المجازر والمذابح في عمر الشعوب. فتحت قيادة شخصية غامضة تحمل اسما سريا هو «بول بوت» تم القضاء على كل الألوان، غير اللون الطيني، بكل ما يعنيه ذلك اللون حرفيا ورمزيا. ففي غضون أيام تم تفريغ العاصمة من كل المتعلمين والفنانين والمثقفين، قُتل من قُتل، وسُجن من سُجن، ودُفع الباقون إلى العمل في مزارع جماعية بشعة، حيث العمل من الفجر إلى الليل، والطعام وجبة واحدة، واللباس لا لون له إلا اللون الطيني.. فقد أُرغم الجميع على صبغ ملابسهم كلها بغليها مع لحاء الشجر، ثم دحرجتها في الطين لتكتسب في النهاية لونا طينيا كئيبا ساد كمبوديا كلها طوال فترة حكم الخمير الحمر التي امتدت حتى ٧ يناير ١٩٧٩ عندما غزت القوات الفيتنامية كمبوديا ودحرت قوات «بول بوت» التي انسحبت فلولها إلى منطقة قرب الحدود

التايلاندية لا تزال تتحكم فيها برغم اختفاء الرجل اللغز «بول بوت» وتبعثر الخمير الحمر واستسلام الكثيرين منهم للسلطة الجديدة التي عاد بها سيهانوك ملكا مع اثنين من رؤساء الوزارة، أحدهما من العائلة المالكة والآخر من المعارضة، في حكومة ائتلافية بعد انتخابات ١٩٩٣ التي جرت تحت إشراف الأمم المتحدة.

أقل من ثلاث سنوات حكم فيها الخمير الحمر كمبوديا، فقضوا على أكثر من مليون إنسان ـ معظمهم من المتعلمين ـ وزرعوا الأرض بأربعة عشر مليون لغم ليحموا مواقعهم، وأظلمت كمبوديا وأقحلت برغم شعار العودة إلى الزراعة، وكانت المجاعات والمجازر هي إنجازهم!

ثمة من يقول إن في الأمر مبالغة، وإن كل الشرور التي تُنسب اليوم للخمير الحمر إنما شارك فيها آخرون منهم الأمريكيون الذين قضت غاراتهم على نحو نصف مليون إنسان عندما استجاب نيكسون لنصيحة مستشاره كيسنجر بتوسيع مجال الحرب الفيتنامية لتشمل خطوط إمداد الفيت كونج في كمبوديا وراحت القاذفات الأمريكية آنذاك تحرق بقنابلها الأرض الكمبودية كما كانت تفعل في فيتنام.

ليكن أن هناك مساهمين آخرين في إحراق كمبوديا، لكن حريق الخمير الحمر المرير لا يمكن إنكاره. لقد كانوا مثالا صارخا على تحول أصحاب مزاعم احتكار الحقيقة والرأي الواحد إلى جزارين جهلة وسفلة. وهي ظاهرة سنجدها في كل ما يماثل ذلك سواء كانت الحقيقة المزعومة تعزى للسماء أوللأرض، وسواء كانت الرؤية أحادية الجانب دينية أو دنيوية. لقد اقشعر بدني وامتلأت عروقي غضبا كتيما وأنا أزور موضعين للموت والخراب أحدهما في قلب بنوم بنه، والثاني على مبعدة ٣٠ كيلومترا منها. ففي معتقل «تول سلنج» الذي تحول إلى متحف للرعب الذي كان سائدا على زمن «بول بوت» رأيت كيف تحولت مدرسة «تول سفاي» العليا، المحوطة بأشجار التين وجوز الهند والمانجووالمفعمة بخضرة الحدائق، إلى سجن قوى الأمن رقم ٢١ «SS ٢١» سجن رهيب شهدت زنزاناته تعذيب عشرات الآلاف من البشر الذين كان يقضي منهم عام ١٩٧٧ قرابة مائة قتيل في اليوم الواحد. تفقدت المشنقه وروافع السلخ والعصر وأدوات التحريق

والتغريق وصناديق التعذيب بلدغ الأفاعي والعقارب وأجهزة الصعق بالكهرباء. وآلاف الصور للمعتقلين - إذ كان الجلادون منظمين ودقيقين في عمل أرشيف كامل لضحاياهم على اعتبار أنه ملف «أعداء الثورة». أطفال، ونساء، وشيوخ، آلاف من الصور البشرية الحزينة التي تكسر القلب. فظاعة بلا حدود، وحديد صدئ قميء. فالقسوة منحطة كأدواتها، ولا تحتاج إلى ابتكار ولا دقة ولا نظافة.. عصي حديدية عجراء وسخة، وقيود غليظة ركيكة، وصناديق لا مهارة في صنعها، وصواعق مهملة الأسلاك. نفس القذارة والغلظة والركاكة التي رأيتها من قبل في معتقلات أخرى. تبا لانتهاك حرية وحرمة الإنسان وحياته مهما كانت الذرائع. كنت أهتف مغلولا وممرورا في داخلي. وتعالى هتاف غضبي الداخلي في موقع آخر على مبعدة ٣٠ كيلومترا من العاصمة. بعد أن سرنا على دروب حذرة بين حقول غامرة الخضرة مبثوثة بالألغام. وفي ظلال الشجر الاستوائي الثري البديع وصلنا إلى حقول الموت في ناحية «شويونج إك». درت مسحوق القلب حول البرج الذي بُني حديثا ليضم على أرفف ترتفع عشرين مترا أكثر من ثمانية آلاف جمجمة من رفات الضحايا الذين اكتُشفت هياكلهم ومُزق ثيابهم في ١٢٩ مقبرة جماعية تم الكشف عنها في المكان وتُركت منها ٤٣ مقبرة دون أن تُمس. مشيت أدور وأعود إلى الدوران ذاهلا بين حفر كستها خضرة عشب رهيف كألحان الأسى. وهزتني حتى الأعماق مزق الملابس التي كان يرتديها الضحايا وقد تهتكت وحالت ألوانها. كانت هذه لبشر انتقوها ببهجة أو أهديت إليهم من أمهات أو حبيبات أو أزواج أو عشاق، مزق من نفوس بشرية استباحتها نفوس أخرى لبشر كالوحوش.

وعدت صامتا لم أنبس بحرف حتى وصلنا إلى العاصمة، ولم يبرحني الصمت الأليم حتى طارت بنا طائرة صغيرة في صباح باكر.. عاليا وبعيدا.

أنكور.. الكنز المغدور

بعد ثلاثة أرباع الساعة وصلت بنا طائرة الخطوط الجوية الملكية الكمبودية إلى مطار «سيم ريب». ولم نضيع وقتا.. انطلقنا من المطار مباشرة إلى هدفنا. اجتزنا

شوارع مدينة سيم ريب الصغيرة الغارقة في الخضرة، ثم بدأنا نوغل في أحراش الغابة الاستوائية حتى أطلت علينا عظمة الحجر من بين الشجر. إنها أنكور. مدينة أثرية تمتد على مساحة ٢٠٠ كيلومتر مربع وتُعد إحدى عجائب الدنيا القديمة التي ما زالت على قيد الحياة. مدينة معابد ظلت تخفيها الغابة الاستوائية حتى وقع عليها بصر عالم طبيعة فرنسي هو «هنري موهوت» عام ١٨٥٩ فأذاع خبرها في العالم لتتحول إلى قبلة سياحية لأثرياء ذلك الزمان وتجاره ولصوصه الغربيين والمحليين أيضا، وحتى زماننا. ففي المطعم الذي تناولنا فيه عشاءنا مال علينا مرافقنا «ماني» وقال بهمس: «هل تذكرون تلك النقوش الجدارية الجميلة في معبدي بايون وأنكور؟ هذا المطعم وحديقته جاءا من ثمن نصف متر مربع سرقه المالك من هذه النقوش وباعه في تايلاند». ولم يكن صاحب المطعم وحده هو الذي فعل ذلك. فقد قرأت أن آثار أنكور ظلت مستباحة للناهبين حتى أدرجتها اليونسكو في قائمة التراث العالمي الذي يخص البشرية جمعاء عام ١٩٩٢. ومن أشهر لصوص آثار أنكور الكاتب الفرنسي العالمي أندريه مالرو ـ ولكم أحزنني ذلك وأسقطه من نظري بعد حب كبير ـ فقد كان يعمل تاجرا للأعمال الفنية في فترة من حياته، وفي عام ١٩٢٣ زار كمبوديا وانتزع، بل سرق، تمثالا صغيرا من الحجر الرملي الوردي من معبد «بانتبه» بأنكور، ويقال إنه قبض عليه في بنوم بنه لذلك السبب، وصودر التمثال الذي لم يعد إلى مكانه في معبد بانتبه إلا بعد سبعين عاما.. أي عام ١٩٩٣.

إنها كنز مغدور حقا، وأثر حضارة تكالبت عليها كل غوائل الدنيا.. من أطماع البشر حتى وحشية الغابة. فالبقايا الهائلة العظيمة التي رأيناها، تنمو عليها الآن الطحالب السوداء والخضراء، وتسكن فيها الخفافيش وتفسخ صروحها الجذور الهوائية لأشجار التين العملاقة، أما الألغام التي بثها الخمير الحمر في أرجاء المكان، فقد قام مختصون من قوات الأمم المتحدة بتطهيرها إلى درجة تكفي لزيارتها دون مخاطرة عند الالتزام بعدم الخروج عن الدروب المحددة للزيارة. وفي هذه الدروب، بين جبروت الحجر والشجر، سرنا يومين كاملين دون أن نتمكن من رؤية كل شيء. رأينا التاريخ منقوشا في رسوم على لوحة جدارية من الحجر الرملي طولها كيلومتران ومساحتها ١٣٠٠

متر مربع. وعبرنا على الطريق المرصوف بالحجارة فوق قناطر الخندق المائي المحيط بأنكور وات إلى حيث يشمخ النصب الجنائزي للملك جايا فارمان المؤسس. صعدنا درجا وتسنمنا أبراجا، تهنا في دهاليز لا نهاية لها، وتوقفنا طويلا أمام الوجوه العملاقة المطلة من الحجر تحكي جميعها في صمت تاريخ تلك الحضارة المنهوبة. ففي عام ٨٠٢ نَصَّب جايا فارمان الثاني ملك الخمير نفسه إمبراطورا عالميا في أنكور. ولا بد أنه كان محقا في بعض من جنون عظمته تلك بدليل ما بقي من أنكور التي ورثها عنه عام ٨٨٩ الإمبراطور ياسوفارمان وشيد «الباراي» حول المدينة، وهو خندق على شكل حوض يحيط بأربعة أضلاع المدينة طول كل ضلع ٧ كيلومترات وعرضه كيلومتران، وكان يهدف إلى اصطياد المياه الهابطة من التلال في موسم الأمطار الاستوائية الغزيرة فيعمل على الحماية من غارات الغزاة ويكوِّن خزانا للماء اللازم للزراعة واحتياجات السكان في هذه المدينة التي كانت تنتج في ذلك الزمان البعيد محصولين من الأرز سنويا مجموعهما ١٥٠ ألف طن لتغذية سكان هذه المدينة الدينية، التي كان يقوم على خدمتها ٩٥ ألف إنسان. ومن الغريب أن البشر لم يكن مسموحا لهم بسكنى الحجر فالحجر للآلهة وتحديدا لهيئاتهم أي تماثيلهم، أما البشر من الخدم حتى الملوك، فلهم أكواخ خشبية تنهض على أو تاد كالأكواخ التي ما زالت موجودة على حواف البحيرة وشواطئ الأنهار في كمبوديا حتى الآن، وإن كانت أكواخ أنكور القديمة قد تلاشت بفعل الرطوبة والأمطار والحشرات. لقد كانت مدينة دينية وإمبراطورية لمملكة الخمير التي بلغت من القوة حد أنها كانت تشمل تايلاند الحالية ولاوس وأجزاء من بورما وماليزيا وفيتنام. لكن الأيام دارت دورتها وجاء السياميون (التايلانديون) لهزيمة الخمير في القرن ١٤ واحتلوا أنكور عام ١٣٥١ ونهبوها ورحّلوا أهلها إلى بلادهم كعبيد. أقفرت أنكور، ثم راحت أحراش الغابة الاستوائية تخفيها شيئا فشيئا حتى أعادت اكتشافها عيون الغربيين واللصوص المحليين وغير المحليين. ولم يستثنها وباء الحرب الأهلية من بعض طلقاته وآلاف ألغامه.

لقد أجهدتنا سيرا وصعودا وهبوطا مدينة الأطلال العظيمة هذه. وفي داخل معبد حجري صغير يسمى معبد «رنين الصدر» رحت أختبر أسطورة سمعتها تقول

إنّ من يركن ظهره على حائط داخل هذا المعبد ويدق بيده على صدره فإنه يسمع للدقات رنينا تردده الجدران ومع هذا الرنين ينجاب أي حزن أو ضيق تختزنه الصدور فتكون الراحة..

لقد دققت على فخذي فلم أسمع رنينا، ودققت على كتفي فلم أسمع رنينا، ودققت على صدري فأدهشني رنين حقيقي تردده وترجعه الجدران، فعاودت الدق على صدري مغمضا عيني لأستريح.. أستريح.. وفي عذوبة الراحة أتساءل: يا رب.. الدنيا التي خلقتها غنية وبهية.. فلماذا يشقيها ويشقى فيها البشر؟!

ميانمار (بورما)
في ظلال أبراج (يانجون) الذهبية

أبراج من الذهب الخالص في معابد الحفاة. وياقوت حقيقي بلون دم الحمام الشفيف. راهبات بوذيات حليقات الرءوس. ومسلمون يتوضأون من حوض تسبح فيه أسماك ملونة. طعام شبه صيني بتوابل هندية حارة. وعصير جوز الهند الطازج لري العطش. إنها (يانجون) التي مكث العالم قرنا ونصف القرن يسميها كما أسماها الاستعماريون البريطانيون (رانجون)،وهي عاصمة (ميانمار) التي ظللنا ـ وراء البريطانيين أيضا ـ ندعوها (بورما).

قلت له وأنا أهم بركوب السيارة خارج مطار يانجون الدولي البسيط الفسيح: «لكن ما اسمك؟»، فقال: «آي كوكو»، فعاودت السؤال، وعاود الإجابة: «آي كوكو». وكان «آي كوكو»، مع أشجار الشارع الاستوائية الكثيفة الوارفة خارج المطار، أول لمحة عن خصوصية هذا البلد تسنح لي. عمره بين الخامسة والعشرين والثلاثين، نحيف ومتوسط القامة وخفيف السمرة، كسائر الرجال الذين رأيتهم في طريقي، وكسائر الرجال الذين رأيتهم ـ باستثناء العسكريين في ملابسهم الرسمية ـ كان «آي كوكو» يرتدي ذلك الزي الوطني، الواضح تمسك أهل البلاد به، وهو «لونجي» الذي يشبه السارجون الماليزي والكمبودي ويتكون من قطعة قماش واحدة تلف حول الوسط كإزار وتنسدل حتى القدمين، ويرتديها الرجال والنساء على السواء بينما الاختلاف يكمن في الألوان والنقوش والربطة حول الوسط، فالرجال يربطون الـ «لونجي» من الأمام بينما النساء على الجانب. وهو يُلبس على «أنجي» أي قميص خفيف ذي ياقة عالية مدورة وفوقه جاكيت خفيف دقيق وبلا ياقة يسمى «تونجاي».

«آي كوكو» يعمل سائقا ومرشدا سياحيا لدى شركة خدمات تاكسي المطار، اكتشفته ولعله اكتشفني، بعد أن أطبقت علينا حلقة البنات الجميلات اللائي وقفن في صفين على جانبي باب الخروج من المنطقة الجمركية. ظننتهن في البدء، وهن يرتدين الثياب الوطنية الذهبية والبرتقالية ومعهن باقات صغيرة لزهور طازجة يهدينها للقادمين، ظننتهن يقمن بتقليد خاص لتحية ضيوف بلدهن، لكنني سرعان ما اكتشفت أنهن ممثلات لشركات السياحة الخاصة التي أخذت تتكاثر في ميانمار بعد انفتاحها الأخير على العالم وانتباهها للسياحة كمصدر لجلب العملة الصعبة، وكجزء من هذا الاتجاه توجب علينا أن نغير بعد عبور بوابة الجوازات ثلاثمائة دولار أمريكي هي ما ينبغي على كل «سائح» أن يغيره قبل السماح بدخوله هذا البلد. وبقيمة الدولارات الثلاثمائة يعطونك «كوبونات» على شكل عملات ورقية جيدة الطباعة وخاصة بالأجانب تسمى «فيس»، والفيس الواحد يعادل دولارا. وهكذا تنفق دولاراتك دون أن تفقد بنسا واحدا، فالفيس يمكنك التعامل به مع السوق البيضاء والسوداء، أيهما شئت داخل البلد، بينما تكون الدولارات الحقيقية في خزانة الدولة التي بينها وبين الحكومة الأمريكية فجوات وفجوات، إلا فجوة الاقتصاد التي لا تتركها أمريكا للآخرين حتى يملأوها ويمتلئوا بها، فرجال الأعمال الأمريكيون كانوا كثرة على الطائرة التي أقلتنا من بانكوك إلى يانجون، وشركات البترول الأمريكية مستثمر أساسي في الغاز الطبيعي الذي اكتشف في ميانمار بكميات هائلة. أما حكاية مناوأة أمريكا للنظام العسكري الحاكم في ميانمار دفاعا عن الديمقراطية، وحقوق الإنسان، وضغطا لمكافحة المخدرات التي تلوح أمريكا بمسئولية بعض أركان النظام العسكري عنها فهي حكاية أخرى.. ملتبسة، وغريبة، وتفصح دهاليزها وتاريخها المكبوت عن أن السياسة مصالح، ومصالح، ومصالح. ومادامت كذلك، فقل على الأخلاق السلام، وقل عن الحقيقة ما شئت، فهي ذات وجوه ووجوه. أما وجوه الصبايا اللائي أحطن بنا عند باب الخروج، فقد كانت ولا أحلى، مدورة، دقيقة الملامح ورقيقة، لكن لغتهن الإنجليزية لم تكن كذلك وهن يتكاثرن علينا ويتصايحن ويلوحن بقوائم الفنادق وبرامج الرحلات التابعة لشركاتهن.. كل منهن تدعونا إلى جانبها. وأنقذنا «كوكو» من هذا الزحام الجميل والصخب المصوصئ، إذ كان يتدخل من بعيد لإيضاح ما تقوله البنات بإنجليزية أفضل منهن. فشققنا الطريق

إلى «كوكو» مدبرين عن البنات اللائي كففن فجأة عن الصخب الجميل محسورات، وعندما استدرت ألوِّح لهن مودعا صائحا بالكلمة الميانمارية التي تعني إلى اللقاء: «ثوا ماي»، رددن بخفوت «ثوا».

ماء وأسماء

علمني السفر أن شئون السفر في أي بلد من بلدان العالم هي شبكة صيد متقنة للإيقاع بالزبائن، مقابل خدمة، نعم، لكن بأكبر قدر من المال إن أمكن. لهذا اشترطت على «كوكو» قبل أن نتحرك أن أرى قبل أن أدفع وأسكن في أي من الفنادق التي يقودنا إليها. وفي سيارته اليابانية الصغيرة انطلقنا عبر شوارع العاصمة يانجون، أنا أمسك بالخريطة التي حددت عليها المواقع الأفضل للإقامة والرؤية، وهو يدلني على المتاح من الفنادق في كل موقع. ومضت ساعة ونصف ونحن ننطلق في شوارع واسعة، معتورة نعم، لكنها جميعا مبلطة بأسفلت لابأس به، وعلى أرصفتها من الجانبين أشجار استوائية وارفة تحيل هذه الشوارع إلى «بوليفارات» ظليلة رحيبة، ورقيقة الحال. مضينا من النهر إلى النهر، ومن البحيرة إلى البحيرة، فالعاصمة يانجون شبه جزيرة يحيط بها نهر يانجون الكبير جنوبا وغربا، ويتحلقها من الشرق رافد النهر المسمى «بازونداونج». وفي العاصمة شبه الجزيرة هذه بحيرتان كبيرتان أولاهما بحيرة «إنيا» في الشمال، وبحيرة (كانداويجي) ـ أو البحيرة الملكية ـ في الجنوب الأوسط. هذا إضافة إلى بحيرات صغيرة ولجج لم تكف عن الظهور أمامنا ونحن نجوب المدينة من أقصاها إلى أقصاها. وفكرت في أن ذلك ليس بغريب عن المدينة التي قرأت أنها كانت قرية ساحلية تطل على بحر (اندمان) المفضي إلى المحيط الهندي منذ ٢٥٠٠ سنة عندما شُيد معبدها البوذي الكبير الشهير «شويداجون». لكن خمسة وعشرين قرنا كانت كافية لإنشاء دلتا واسعة في جنوب البلاد من ترسبات مياه نهري (ايير وادي) وهيلانج وهما في طريقهما إلى البحر، وضمن هذه الدلتا ولدت العاصمة التي وإن صارت بعيدة عن الساحل فإنها تظل ـ عبر ما يحيط بها من مياه ـ ميناء تجاريا نهريا مهما، يقود إلى البحر، ثم المحيط. ويقودني اسمها ـ عبر ثرثرة الطريق مع آي كوكو ـ إلى لغز الأسماء في هذا البلد. فكلمة «يانجون» هي الاسم الذي أطلقه الملك «ألاونجبايا» على قرية استولى

عليها عام ١٧٥٥ من شعب «المون» وكان الاسم يعني «نهاية الكفاح» وبمعنى آخر «استراحة المحارب»، وعندما جاء الإنجليز واحتلوا البلاد والعباد حولوا الاسم مع أسماء أخرى إلى «رانجون» ليكون يسيرا على ألسنتهم. لكن الاسم عاد إلى أصله منذ سنوات، ففي عام ١٩٨٩ صدر مرسوم وطني بتغيير الاسم الإنجليزي للدولة (اتحاد بورما) إلى «اتحاد دولة ميانمار» وهو الاسم الذي عرفت به البلاد من قديم، على الأقل منذ أيام الرحالة (ماركو بولو) في القرن ١٣. وميانمار تدل على البلد بأسره، أما بورما فهي نطق إنجليزي لكلمة «بامار» الدالة على العنصر البشري الغالب واللغة التي يستخدمها. وفي الحقيقة تنطق «ميانما» إذ إن حرف الراء ضعيف في اللغة الميانمارية.

الأسماء لفتة وطنية تثير الدهشة في هذا البلد. لكن الأكثر إدهاشا هو أسماء الناس من الغالبية البوذية. ففي ميانمار لا يوجد اسم عائلة، والاسماء لا توضح أبدا من يكون ابن من أو شقيق من، فبعد مولد الميانماري بأسبوع يقام احتفال يسمى «حفل التسمية» حيث يعطى المولود اسما يتكون من مقطع أو اثنين أو ثلاثة، وعادة ما يختار الاسم تبعا لرؤية المنجم أو الوسيط الروحاني أو الراهب البوذي. وبرغم أن التسمية بهذا الشكل ليست تقليدا بوذيا فإنها سائدة في ميانمار، ثم إن الإنسان يستطيع تغيير اسمه متى شاء، إذا اعتقد أنه سيكون ذا حظ أفضل باتخاذ اسم جديد.

وعادة ما يعطى الأطفال أسماء رديئة لدفع الشر والمرض، وعندما يكبرون يمكنهم تغييرها بأسماء أجمل. لكن الاسم مع ذلك يوضح جنس حامله ومرتبته الاجتماعية، فالرجل الذي اسمه «كاو رنج» يمكن أن يصير «أو كاورنج»، أو «كو كاورنج»، أو «مونج كاورنج» حيث «أو» تشير إلى الرفعة في المكان الاجتماعي أو مكانة كبيرة السن ولعلنا نتذكر اسم «أوثانت» سكرتير الأمم المتحدة السابق، وأونو أول رئيس وزارة في فترة التحرر الوطني وأحد أصدقاء جمال عبدالناصر وزملائه الخمسة في قيادة دول عدم الانحياز.

أما في داخل الأسرة فإن الزوجات ينادين أزواجهن «إينج جالو»، أو «إين ثار» وتعني رجل البيت الطيب، و«ماما» للأم أو الأخت الكبرى. وأسماء التوقير «كوجي» أو «سايا» تطلق على المدرس أو الطبيب، والرهبان «سايا داو»، وضابط الجيش «بو». أما المفاجأة

الآتية في عالم الأسماء فقد كانت «كوكو» وتعني «الأخ الأكبر»، وهكذا اكتشفت أن «كوكو» الهادئ والصبور كان ماكرا أيضا، وربما كان مرحا أو معتدا بنفسه، فقد جعلني أناديه طوال الوقت «يا أخي الأكبر». على أية حال لقد كان له صبر أخ أكبر، إذ درت به العاصمة كلها وصعدت وهبطت لأعاين غرف فنادق كثيرة حتى استقر اختياري على فندق جديد وفاتن، ورقيق الأسعار، يسمى «المركزي العائم» وهو سفينة فاخرة بُنيت في روسيا وأُثثت في الدانمارك وعبرت بحر البلطيق إلى المحيط الأطلنطي فالبحر المتوسط فقناة السويس والبحر الأحمر والمحيط الهندي حتى بحر أندمان الذي دخلت منه في نهر يانجون واستقرت عند جنوب غرب العاصمة، ووجدت مستقري بها في غرفة عبارة عن قمرة صغيرة كل شيء فيها دقيق ونظيف. ولقد تعشيت أرزا مطبوخا بالبخار وسمكة نهر مشوية ونمت متعبا في اليوم الأول.. على موعد مع صباح «نهر يانجون» وشوارع مدينة «يانجون».

إخوتنا الطيور

لمست «ماي جي جي مي» «الجرسونة» الجميلة دعوة لم أنتبه إليها موضوع مثلها على كل موائد الإفطار في مطعم السفينة بالطابق العلوي. وقالت تذكرني برقة رصينة: «لا تنس إطعام الطيور.. إنه إحساس رائع». وكانت رائعة في صفاء جمالها وأناقتها المحتشمة، وهي سمات فارقة تأكدت يوما بعد يوم وطوال إقامتنا في ميانمار. فالقادم من بانكوك مثلنا يلحظ على الفور مدى الاحتشام والحياء في يانجون، فلا عُري في الثياب ولا دعارة، وثمة خفر جميل يلازم البكارة التي تسم هذا البلد بيئة وبشرا. وكان ذلك رائعا كله. أما دعوة «ماي جي جي مي» فقد كانت بريئة مثل وجهها المدور الحلو، إذ إن وجودنا في مياه نهر يانجون كان يتيح لنا خبرة ومشهدا فريدين مع النوارس، آلاف النوارس التي اعتادت الاقتراب من الشط في ساعة معينة لتتناول إفطارها من بين أيدي الناس. ولأن خبرة هذه الطيور بالبشر المسالمين طويلة فإنها تقترب حتى تحط على الأيادي والأكتاف وعلى الموائد. وقد كان صباحا خاصا ونقي الروعة ذلك الذي افتتحناه بصحبة النوارس. لكن إطعامنا لهذه الطيور، كما سائر نزلاء فندقنا العائم من السياح، كانت شيئا آخر غير ما يفعله الميانماريون في الزوارق الموغلة في

النهر وعلى الجزر وعلى الشاطئين ففيما كنا نفعل ذلك سياحة أو ترويحا أو تجريبا، كانوا هم يفعلونه بيقين ديني، فمن ناحية يتعلم البوذي ألا يؤذي أيا من الكائنات، ومن ناحية ثانية هو إذ يطعم كائنا جائعا يكتسب حسنة تقربه من الإشراق أو الانعتاق من آلام تكرار دورة الميلاد والموت، ومن ناحية ثالثة لأنه يؤمن بدورة التناسخ والميلاد المتكرر في كائن جديد، فكل الكائنات بها احتمال القربى، فربما كانت تحمل روح أب أو أم أو أخ أو عزيز من الراحلين، فإطعام طائر يعتبر برا بقريب أو عزيز من البشر.

ارتفعت الشمس في سماء يانجون فكأنما رُفعت موائد إفطار الطيور التي راحت تبتعد في الآفاق الخضراء البعيدة عند الضفة الأخرى، وصعدت إلى ذروة سطح السفينة أرقب النهر وأطل على العاصمة الميانمارية بنظرة صنعت شاعريتها صحبة النوارس، يا لعظمة النهر الرحيب! ويا لغرابة وضوح ظاهرة المد والجزر في نهر كبير كهذا! ينحسر الماء عن الكثير ويبقى في حوض النهر من الماء كثير. ويانجون هناك في المدى بحر من الخضرة الاستوائية تتناثر فيه البيوت الخفيضة ذات العليات المثلثة، وفوق ذلك كله يطفو برج جرسي الشكل يلمع في شمس البكور ببريق الذهب الخالص. وتستدعي شاعرية اللحظة انطباع شاعر عالمي كبير ـ وإن كان استعماريا بريطانيا قحا ـ هو روديارد كبلنج الذي كتب منذ أكثر من مائة عام، وتحديدا عام ١٨٨٩، في كتابه «رسائل من الشرق» عن المنظر ذاته الذي كنت أطالعه من قمة السفينة:

«ويصعد في الأفق سامقا لغز من الذهب الخالص، فاتن يلمع في ضوء الشمس، ينهض على ربوة خضراء». يقول عنه مرافقي: «إنه (شوي داجون) العتيق. لكن اللغز الذهبي يقول: بل بورما، وستعرف أنها مختلفة تماما عن أي أرض عرفتها من قبل».
تترجع في خاطري أصداء كلمات «كبلنج» وأنا أستدير عن حافة نهر الطيور، وأهبط من قمة السفينة إلى جوفها فالممشى المعلق الذي يوصلها بضفة النهر، فأرصفة الميناء الذي تتبدى ملامحه جليه في هذا الجزء الجنوبي الغربي من العاصمة الميانمارية، فسفن نقل البضائع التي تمخر مياه النهر حاملة أثقالها من خشب الساج الثمين، والأُرز الذي تجود الأرض بأفضل أنواعه في العالم، وصنادل نقل الركاب المزدحمة التي تقل آلاف العمال النازحين من القرى إلى الضفاف في الجانب الشرقي من العاصمة حيث تتكاثر

الآن الضواحي الصناعية، وكأنها عناقيد الفطر يلذ بعضها بعضا. وبين المراكب تنساب في نعومة وسرعة زوارق خفيفة مستطيلة يجذف ملاحوها وقوفا وهي منحوتة من جذع شجرة «التيك» التي يُعرف خشبها لدينا باسم خشب الساج، والذي تنتج منه ميانمار ٨٠٪ من الإنتاج العالمي. وهو خشب يُسيل لعاب بارونات تجارة الأخشاب والموبيليات فوق الفاخرة في العالم، ويثير شجونا عربية نتبادلها على عشاء في ليل يانجون الناعم، دعانا إليه المستشار الدبلوماسي المصري فوزي العشماوي. فالعرب ليس لديهم تمثيل دبلوماسي في ميانمار غير السفارة المصرية، ولعل من أفضل توصيات الجامعة العربية تلك التي نادت بالإبقاء على السفارة المصرية كتمثيل دبلوماسي عربي في ميانمار.

عبد الناصر مرّ من هنا

بالقرب من فندقنا العائم وفي حي السفارات غربي البحيرات الملكية ذهبنا للقاء السفير العربي الوحيد في يانجون عبد الرحيم شلبي الذي لقينا بسببه ترحيبا جميلا من أحد مسئولي المطار، فالرجل حسن السمعة وجم النشاط ترك انطباعا طيبا عن العرب في هذا البلد. وهو لم يكن الأول، فسفير العرب الأول في ميانمار كان جمال عبدالناصر الذي مر بيانجون وهو في الطريق إلى باندونج وقابل آنذاك «أونو» أول رئيس وزراء وطني بعد الاستقلال مع شوين لاي الذي جاء عبر الحدود الشمالية لهذه البلاد مع الصين وطاروا ثلاثتهم إلى الهند للقاء الزعيم الهندي نهرو. وقد كانت ميانمار إحدى الدول الخمس المؤسسة لمنظمة عدم الانحياز، أو الحياد الإيجابي. وبرغم ابتعاد الزمان فلايزال المخضرمون في هذا البلد يذكرون عبدالناصر بمودة. ولقد أثار تمثاله النصفي الصغير ببهو السفارة العربية الوحيدة في ميانمار حنينا وامتنانا كبيرين في داخلي إذ رأيته هناك لايزال. حنين لرجل جاد، وامتنان لمجتهد كبير، وصلت خطواته إلى هذه الأصقاع البعيدة التي كنت أتصور أن أحدا غيري وغير ابن بطوطة لم يصل إليها.

لم يكن السفير موجودا، وكان يقوم بأعماله المستشار فوزي العشماوي الذي تدفق حديثه عارفا بفرط أهمية هذا البلد الذي يكاد العرب يسقطونه من ذاكرتهم برغم أنه كنز بكر يتسابق عليه العالم حتى الذين يدعون معارضته من القوى الدولية.

تركز حديثنا حول الاقتصاد، واستمر مفعما بالنداء تلو النداء للعرب جميعا ألا يتركوا فرص الاستثمار في هذا البلد تفوتهم، للصالح العربي، وللصالح الإنساني، فليس بالغرب وحده يحيا الإنسان. وميانمار قادمة، برغم كل معوقات التنمية بها، لأنها سلة ثروات طبيعية نادرة في شرق آسيا. وليس بمستغرب إن كانت ميانمار المصدر الأول لأفضل أنواع الأرز في العالم، وهي لاتزال تنتجه مع الفواكه وقصب السكر، والسمسم، والتبغ، والجوت، والمطاط، كما تنتج الفحم الحجري والغاز الطبيعي والنفط والزنك والرصاص والتنجستين والفضة. أما الأحجار الكريمة فحدث ولا حرج. وحتى نأتي إليها لنتذاكر ما يمكن أن أسميه «الأخشاب الكريمة». لنفكر ـ نحن العرب ـ ولو في خشب ميانمار وحده، والساج أحد أنواعه، ودعنا من البخور الذي لا مثيل له فيكفينا منه قليل الشظايا. لماذا على سبيل المثال لا يُستثمر المال العربي في صناعة أثاث مشتركة بمهارات حرفية عربية وخشب ميانماري وأبواب رزق تفتح لأبناء المسلمين هناك، وفائدة تعم الجميع، وحبل مودة يمتد بين العرب وبين هذا النمر الآسيوي القادم ضمن نمور منظمة شرق آسيا الآخذة في السطوع الاقتصادي المبهر تحت اسم «آسيان».

لقد أسرني خشب الساج حتى أنني طوال فترة الاستطلاع مكثت أدمن نقر الأبواب والأثاث حيثما توقعت وجود هذا الخشب البديع الراسخ. أما عصر اليوم الذي تغدينا فيه طعاما شبه صيني بتوابل هندية حارة في مطعم على شكل طائرين خرافيين عائمين بتلاصق فوق مياه البحيرة الملكية «كاراويك»، فقد قادتني خطواتي المتوفزة بحرارة الطعام إلى مكان أسطوري على ضفاف البحيرة يسمى قصر «كانداواجي» وهو مكان يؤمه بارونات التجارة العالمية وبليونيرات السياح الغربيين، لكنه يسمح لخفاف الوزن أمثالي بنزوة احتساء فنجان من الشاي على أنغام أوركسترا صغير لعدد من العازفين على ربوة في ظلال الأشجار الكثيفة بحديقته المسماة «الحديقة الاستوائية»، وهي استوائية فعلا، وخرافية أيضا، واستعمارية الفخامة بكل تأكيد، وأرجح أن روديارد كبلنج وسومرست موم وجورج أورويل وكل من لف لفهم في هذه البلاد، لابد زارها، فارتشفت الشاي منتشيا وأنا أغبط نفسي، وفي ثمالة الغبطة، وحيث لا أحد يعرفني، لم أستطع أن أكبح رغبة جارفة في خلع حذائي وجواربي لأستمتع بنشوة السير حافيا

في ردهة ملكية أرضيتها من خشب الساج الثمين الثقيل الصقيل اللامع الذي يبعث في الأوصال بردا وسلاما.. ويشع ألقا!!

بوذا بالنيون

مما قيل عن هذا البلد، إنه «إذا كان معبد شويداجون هو روح عاصمتها فإن معبد سولي هو قلبها» ولعلي أضيف بعد التجربة: والطريق إلى معبدسولي يكشف عن أعماق وأحشاء وأوردة وشرايين يانجون. فالمنطقة التي مركزها المعبد هي بؤرة النشاط التجاري والاجتماعي والديني بالمدينة. فالإنجليز حين وضعوا نظام الشوارع ذي الطابع الفيكتوري في منتصف القرن ١٩ جعلوا المعبد مركز انطلاق هذه الشوارع. ولايزال المعبد المشرئبة أبراجه بارتفاع ٤٨ مترا يهيمن على منطقة وسط البلد لايتجاوزه في الارتفاع أي مبنى آخر حتى فندق «تريدرز» شديد الحداثة والضخامة والفخامة واللغط المتكاثر حول مصادر أموال المساهمين فيه. والشوارع من حول المعبد ـ مثمن الأضلاع ـ تتقاطع بزوايا قائمة، وهكذا يظل المعبد العائد بتاريخ بنائه إلى عام ٢٣٠ قبل الميلاد عاليًا في مربضه المكشوف من كل الاتجاهات فوق ربوة «سنجاتورا» ومجسدًا لاسمه الذي يعني «الروح الحارسة» وهو روح حارسة لخليط من البوذية الملونة بقوة التأثيرات الهندية وطابع المعتقدات المحلية ذات الظلال السحرية والأسطورية. لهذا لايزال المعبدحتى اليوم مركزا لوجود المنجمين وقارئي الكف الذين أعطيت كفي لأحدهم ليقرأه دون أن أعرف منه شيئا فقد كنت مأخوذا بطرافة الصورة أكثر من انتباهي للغته الإنجليزية المهشمة التي لم أفهم منها كلمة واحدة. ومضيت أتأمل لغط الرصيف الدوار حول المعبد الذي يتزاحم فوقه بائعو العاديات والفواكه والزهور والتماثيل اللازمة للعبادة البوذية، والتي لم تخل من إضافات عصرية فبعضها مزود بدوائر كهربية تصنع هالة من النيون حول رأس بوذا.

إن الدوران في قلب يانجون، حول معبد سولي، يتيح «بانوراما» من الرؤية تكاد تمثل كل مكونات هذا البلد، فعبر التقاطعات تتقاطر الوجوه والملابس كاشفة عن التنوع العرقي الثري لشعوب ميانمار. ومن كل الزوايا تسمق صاعدة أبراج المعابد

البوذية، ومنارات مساجد المسلمين الدقيقة، وأبراج الكاتدرائيات الإنجليكانية. ومن هذه الزوايا عينها نرى تدفقات البشر في حياتهم اليومية ذاهبين إلى دور السينما المثقلة بعواطف الأفلام الهندية ومغامرات أفلام «الأكشن» القادمة من الغرب، أو حاملين نذور الفواكه والزهور والأعلام الحمراء الصغيرة للمعابد، وهي ليست أعلامًا سياسية، بل هي أعلام يرشقونها في البطيخ المنذور والذي ينضده العجائز بحيث يكون في جانب والموز ومختلف الفواكه في جانب آخر. وطقوس الزيارة لمعبد سولي تستمر حتى الليل، والدوران حول المعبد يكون دائمًا في اتجاه عقارب الساعة. لقد اختلطت البوذية «الثيريفادا» بالعقائد المحلية القديمة وصارت سمة خاصة بثلثي شعب البلاد الذين تحس أنهم في حالة تعبد دائمة. وبرغم رقة الحال إلا أن النذور لا تنقطع، والإفطار تصنعه ربات البيوت في الفجر ليخرج جزء منه في الصباح الباكر ليوضع في الأوعية التي يحملها الرهبان البوذيون المصطفون هنا وهناك في ملابسهم البرتقالية الداكنة أو التي بلون الزعفران وهو منظر أدهشنا مرارًا عندما كنا نراه في الصباح الباكر. هذه الروح المحافظة لدى الأغلبية البوذية انعكست على الأقليات الدينية الأخرى بروح محافظة أيضًا. فالنسيج العام للميانماريين يمكن توصيفه بأنه ديني محافظ. ومن مدهشات معبد سولي أن طبقة الذهب التي كانت تغطي أبراجه قد تآكلت بفعل الأمطار الموسمية العنيفة على مدار السنين، لهذا يجري جمع تبرعات من كل أرجاء البلاد لإعادة كساء المعبد بالذهب، ولا أحد يتخلف عن التبرع الذي تورده نشرات التليفزيون الرسمي، ابتداء من قادة الحكم حتى رجل الشارع البسيط والفقير. فالبوذية الميانمارية لُحمة وسداة الحياة المعيشة للناس، منذ الميلاد وحتى الموت. فبعد عيد التسمية المقام على خلفية بوذية ينمو الطفل، وفي الخامسة عادة ما يذهب الأولاد إلى مدارس تابعة للمعابد تسمى «كيانج» وفي سن التاسعة يجري ترسيم الصبي للانتقال من مرحلة الطفولة إلى البلوغ عبر فترة من الرهبنة تستمر أسابيع أو شهورًا في احتفال ديني يسمى «شن بيو». بينما البنات في هذه السن تثقب حلمات آذانهن ليستقبلن مع بركات الرهبان أول الأقراط في احتفال مماثل يسمى «نهتون». وتستمر مسيرة الولاء الديني عبر الزواج والإنجاب حتى الموت. فعندما يموت الميانماري البوذي توضع في فمه قطعة نقود معدنية لإعطائها (للمراكبي) الذي سيعبر به النهر في زورقه المقدس

إلى الحياة التالية. وأقارب المتوفى ومعارفه يدعون لاحتفال في منزله حيث يعتقدون أن روح المتوفى تبقى معهم في هذا البيت أسبوعًا قبل أن تنتقل إلى مرحلة أخرى.

ومع حديث انتقال الأرواح الذي يثيره معبد سولي نمشي، وغير بعيد عن المعبد يفاجئنا بناء فيروزي من عدة طوابق تعلوه مئذنة دقيقة مزخرفة الشرفات، بذوق شبه القارة الهندية، إنه «مسجد جامع» أو المسجد الكبير في شارع ومنطقة «بوسن بات». وبينما رحنا ندور في المكان بحثا عن مدخل المسجد اكتشفنا أننا في منطقة كثافة مسلمة، شوارع مزدحمة، ووجوه سمراء أليفة. وقادنا بعض أبناء المنطقة لزيارة المسجد وفي طريق الصعود إلى بيت الصلاة في الطابق الثاني مررنا في زقاق طويل تفتح عليه أبواب الطابق تحت الأرضي من المبنى، وكان عمال نشطون يخرجون أوعية نحاسية «حلل» كبيرة جدًا يجلونها بحمية، وعرفنا أنها أوعية إعداد طعام الإفطار الجماعي الذي يقدم في المكان طوال شهر رمضان الذي وقفنا على أبوابه الكريمة في هذا البلد البعيد. إنه الإسلام السمح الذي يتيح لك وأنت في أقاصي الدنيا أن تجد إخوة لك بمجرد أن تلقي بالتحية وكأنها كلمة السر العظيم والحميم: «السلام عليكم»، فيتبدد الشعور بالغربة على الفور برغم اختلاف الألوان والملامح وبعض المدهشات، كتلك الأسماك الاستوائية الملونة التي كانت تسبح وادعة في شفافية حوض الوضوء الكبير المبطن بالقيشاني والمحاط بمقاعد مدورة من الرخام يقتعدها المتوضئون.

وعلى جناحي «السلام عليكم» تنقَّلنا في منطقة المسلمين حتى التقينا بعمدة المكان، رجل نحيف فارع باكستاني الملامح برغم أنه ميانماري تمامًا في نحو السبعين عمرًا، وفي غاية من النشاط، اسمه سليمان أحمد جنوال. دعانا إلى بيته في شارع «بوسن بات» وصعدنا درجًا نحيلًا قائمًا حتى وصلنا لاهثين إلى الطابق الثاني المرتفع بينما الرجل يسبقنا نشيطًا، ودخل باب الدار المفتوح زاعقًا بصوت جهوري: «السلام عليكم» فسمعنا صوت تراكض النساء يتوارين عن الأنظار. إنه طابع محافظ للمسلمين الراجعة جذورهم لشبه القارة الهندية. ويحدثنا الرجل بإنجليزية واضحة وصوت مليء، وبالعربية أحيانًا. فنعرف أن الإسلام سبق البوذية في دخول ميانمار إذ وصل في أفئدة وسلوك التجار والبحارة المسلمين الذين قصدوا المكان في القرن السابع،

أي قبل مجيء البوذية بسبعة قرون كاملة. كانوا يجيئون لشراء خشب «التيك» (الساج) الذي يصنعون منه مراكبهم وأبواب مدنهم ودورهم الكبيرة. عاد منهم من عاد، وبقي من بقي، وظل إشعاع الإسلام الذي تزود برافد آخر بعد سقوط مملكة يونان الصينية ومجيء المسلمين البانديز من الشمال.

المسلمون في ميانمار حوالي ١٥٪ من عدد السكان فهم نحو ستة ملايين مسلم. وفي العاصمة وحدها ١٢٠ مسجدًا وثمة ١٢ ألف مدرسة ملحقة بالمساجد في كل أنحاء البلاد. وهم ـ باستقراء آراء من التقيتهم وهم شتى ـ لا يريدون إعانات، بل يريدون المعرفة ومزيدًا من فرص العمل عبر استثمار عربي في ميانمار.

أمضينا يومًا كاملًا بين المسلمين في العاصمة الميانمارية، وأكلنا على مائدة «العمدة» سليمان جنوال أطعمة طيبة حريفة المذاق، راق لي منها ذلك السمك النهري المعمول بالصلصة والمطهو في التنور.

أكلت حتى التخمة، وشربت شايا يسمونه «أسود» لأفيق، ولم أفق إلا على اكتشاف أن «العمدة» سليمان جنوال هو بالمهنة والأصل «جواهرجي» وخبير في الأحجار الكريمة، فتمنيت عليه أن يذهب بنا ليرينا الياقوت.. خاصة الياقوت.

أحجار كريمة وخشب عاطر

مضينا على الأقدام إلى أشهر أسواق يانجون أمام زوار العاصمة الميانمارية، واسمه الحالي «يوجيوك أونج سان» وكان سابقًا يسمى «سكوت ماركت» حاملًا اسم مؤسسه الإنجليزي. بناء كولونيالي الطراز ذو أروقة ومداخل عديدة تقود إلى سوق كبير مغطى تحتشد فيه كل أنواع البضائع التي يبحث عنها السائح والمقيم، من التوابل حتى الدراجات، ومن تماثيل خشب الصندل العاطر حتى لوحات «اللاك». ومن اليشب والياقوت إلى خشب البخور الذي يباع بأسعار الياقوت واليشب ولاتقع على صورته العتيقة إلا أعين المحظوظين. وكان لابد أن أزعم أنني سأشتري.. لأحدق في فصوص الأحجار الكريمة التي راح يقودنا إلى دواخلها «العمدة» سليمان جنوال، وكان خبيرًا يقلب في فصوص المجوهرات مسلطا عليها شعاع ضوء من كشاف صغير يحمله، عارضا صفاتها، ومترجمًا

أسعارها التي يعرضها البائعون، «مع خصم خاص لأجل خاطر الرجل». وبرغم كل الخواطر، فإنه لم يخطر بالبال أبدًا حلم أو وهم أن أقتني ولو أصغر قطعة مما أراه، فالياقوتة الحقيقية بحجم حبة رمان، وبحمرة لون الرمان وتساوي ثمن بيت كامل، فاكتفيت بمجرد أن أضع واحدة منها في راحتي لبضع ثوان، فكأنني حملت بيتا على كفّي! وقصة الياقوت ذات فنون وشجون؛ ففي زمن الانتشار الأوربي وصل مغامر إيطالي إلي بانجون وقدم للملك هدية متواضعة وتلقى من الملك ردًّا للهدية ٢٠٠ ياقوتة كانت تساوي آنذاك مايعادل مئات الآلاف من الدولارات «بأسعار القرن السادس عشر بالطبع». ذهب دي فاريتا الإيطالي، ومضت ثلاثة قرون، ثم جاء الإنجليز عام ١٨٨٦، ووضعوا يدهم على شمال بورما التي ألحقوها بكبرى مستعمراتهم في الشرق، الهند، واحتلت إنجلترا مناجم المجوهرات وأعلنت نفسها صاحبة الحق الوحيد في الاتجار بها عبر شركة «ميسير ستريت» بلندن!

إنها قصة مكررة للسلوك الاستعماري، لها نهاية أولى مع نيل المستعمرات لاستقلالها، لكن ثمة بدايات أخرى، ذات فتون وشجون من نوع جديد، أما فنون الأحجار الكريمة فهي بلا حدود، تحس ولا يدركها إلا الخبير، ولم أكن خبيرا بالطبع، لكنني خلال الحملقة في قلوب الياقوت الأرجوانية أصابني دوار ساحر كان دليلي الوحيد على أصالة الكنوز الميانمارية التي نلت حظ رؤيتها، مجرد رؤية.

اخلع نعليك

عند بوابة معبد «شويداجون» الباذخة، بين الأسدين الأسطوريين المذهبين، قال لي الراهب العجوز في مئزره الأحمر الزعفراني وابتسامة خجول تتسع على وجهه النحيف المتغضن: «عفوًا، لتخلع نعليك». وعندما خلعت حذائي أشار إلى جوربي وهو يقول بابتسامة أوسع وخجل أكبر: «وهذا أيضًا». عندئذ اكتشفت أن كل المتجهين للصعود نحو قمة الذهب يمشون حفاة. وأحسست بحرارة الرخام الذي تدفئه الشمس، ثم برودته في الداخل الظليل. حملت حذائي وجوربي في «كيس» من النايلون ومضيت أصعد مع الصاعدين نحو الضريح الذهبي الرابض على ارتفاع مائة متر متخذًا شكل جرس

أسطوري ينكفئ على أسطورة ويكتنز ذهبا قيل عنه يومًا إنه أكثر من احتياطي الذهب في بنك إنجلترا، يوم كانت بريطانيا إمبراطورية استعمارية لاتغيب عنها الشمس، ومنها شمس هذا المكان. إنه معبدأو مزار «شويداجون» والذي يعتبر الصعود إلى قمته نوعًا من رحلة الحج عند البوذيين في ميانمار. واعتبره كثير من كتاب العالم صعودا باتجاه أعجوبة ومنهم سومرست موم الذي قال عنه: «ويسمق «شويداجون» مهيبا، متألقا بذهبه الخالص، كرجاء حار في ظلمة ليل الروح التي كتبت المعجزة فيها شيئًا متلألئا يواجه ضباب ودخان المدينة المزدهرة».

إن باجودة أو معبد «شويداجون» هو مدينة دينية ذات أبراج ذهبية عددها أكثر من مائة يتربع وسطها وعلى قمتها الضريح المكسوّ بـ ٨٦٨٨ رقيقة من الذهب الخالص يقارب ثمن الواحدة منها ٥٠٠ دولار، وترصع قمته بـ ٥٤٤٨ ماسة، و٢٣١٧ ياقوتة، وثمة زمردة ضخمة في الوسط وُضعت بحيث تلتقط أول شعاع للشمس المشرقة وآخر شعاع للشمس الغاربة. والشكل الجرسي نفسه يرتفع عشرة أمتار قائمًا على سبعة أعمدة من الذهب الخالص مزينة بـ ١٠٦٥ جرسا ذهبيا و٤٠ ٢ جرسا فضيا.

كل هذا الذهب والأحجار الكريمة والفضة في الأعالي، بينما المتعبِّدون على الأرض يجلسون متربعين سكونا في وضع التأمل، لاتكاد تنم عنهم حركة إلا تمتمة شفاه تردد أدعية صامتة، وأنامل تعد حبات مسابح طويلة من خشب الصندل العاطر. ولاتكف الشموع عن الاشتعال نذورا، وكذلك انسكاب الماء المعطر على التماثيل المسماة صورة بوذا، بينما رائحة البخور القوية تحملها نسائم الهواء الدافئ برغم أن الوقت كان في يناير. وما أن نصل إلى نهاية الساحة حتى يبتدىء النزول بالتكرار نفسه: الرواق المغطى، والعتمة، ثم النور من جديد.

هذه العمارة، شأنها شأن كل التفاصيل التي وقفت عليها في رحاب شويداجون، الأجراس العملاقة التي تُدَق بأوتاد مطموسة حتى لايكون رنينها صاخبًا، والرهبان في مآزرهم البرتقالية لصغار السن والقرمزية للكبار والوردية للنساء، وحلق شعر الرأس للمترهبنين من الرجال والنساء، وتقديم العطايا للرهبان باليدين كلتيهما، وتحاشي وطء ظلال الرهبان خاصة الرءوس التي لها منزلة كريمة، والدوران على اليسار

دائما، والتحديق في نقطة متحركة تبعد دائما مترين عن قدمي السائر، والأضرحة المغلقة على ذاتها، وتناوب النور والعتمة والمشقة والراحة، إنما ذلك كله مجرد رموز مجسدة لفلسفة روحية يعتنقها البوذيون خاصة من أتباع «الثيرفادا» المحافظة في معظم بلدان شرق آسيا، فلسفة تقول إن «الدوكخا» أي المعاناة هي قدر الوجود الفاني، و«الساموديا» أو سبب المعاناة إنما يكمن في الرغبات والشهوات البشرية، و«النيروذا» أو كف الرغبات هي حالة الخلاص باتجاه الوجود الأمثل، أما الطريق إلى ذلك فهو «الماجا» ومعالمه: العيش الأخلاقي، وتأمل الوجود، لإدراك الحكمة. أما الأمر الأخطر فلسفيا فهو التدفق الدائم للروح بمعنى عدم ثباتها.

رموز، رموز، رموز، وأوضح تلك الرموز هي التي تكتنزها عمارة شويداجون، فالمدخل المضيء يمثل الميلاد، والرواق الصاعد والمتصاعد عتمة ومشقة إنما يمثل تقدم العمر والمرض والوهن، وباحة النور عند القمة هي الموت الذي يعلن عن ميلاد ثان، لتتكرر القصة، حتى الانعتاق.

ولقد صعدت وهبطت وتعبت، واكتشفت مجددًا أن الحياة حقا «دوكخا»، وفي ذروة الدوكخا جلست حافيًا على آخر عتبة من درج «شويداجون» وأمامي بحيرة وديعة، تنفست في النور بعد المشقة، ومنيت نفسي ـ بعد إتمام الرحلة التالية إلى لاوس ـ أن تكون هذه آخر رحلاتي الطويلة، فهل تغلبني «الساموديا»؟ أم تنتصر «النيروذا»؟ أم أن البشر سيظلون يشْقَوْن بما يحبون.. ولا حول ولاقوة إلا بالله.

لاوس
تضاريس من الجبال والأنهار والفيلة

اسمها الأصلي يعني بلد المليون فيل، لكن الأفيال التي كانت وسيلة النقل والموصلات الأساسية عبر دروبها الجبلية تناقصت، وبرز نهر «الميكونج» الذي يشق وديانها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب كوسيلة نقل ومواصلات بديلة. وهي أفقر وأغرب بلدان منطقة الهند الصينية، وأعجوبة الطبيعة البكر في جنوب شرق آسيا.

(ما هذه الرائحة الأليفة الغريبة)؟

ظل ذلك السؤال يطاردني طوال اليومين الأولين من أيام تجوالي في العاصمة اللاوسية فينتيان. وفجأة انبثقت الإجابة من تلافيف ذاكرة حميمة نائية، عَدَت عليها ضوضاء الزمان المتسارع. إنها رائحة (الكانون) في بيت جدتي القديم بالسنبلاوين، ورائحة أفران القرى التي عرفتها زائرًا، وعابرًا، وضيفًا.. لكنها ظلت كامنة في وعيي، ولاصقة بروحي.

يا الله يافينتيان.. عاصمة من عواصم شرق آسيا المتنمر، في نهاية القرن العشرين وعلى مشارف القرن الحادي والعشرين، ومع ذلك تظل كثرة من بيوتها تطهو طعامها في مواقد الطين والآجر التي يشتعل فيها الحطب والقش والخشب. رائحة أليفة، غرّبها زمان أفران البوتاجاز والكهرباء والميكروويف في كل الدنيا، لكنها لاتزال ترف في شوارع فينتيان. ويالشوارع فينتيان! التي ينطقها أبناؤها (فينج شان)، وهي تعني (مدينة القمر).

شوارع قليلها مرصوف، وكلها تظللها الأشجار، ونادرًا ماتعلو أبنيتها على هامات

الشجر المداري الوارف، ونخيل جوز الهند الولود المثقل بالثمر الكبير.. الأخضر بعد، وكم هو عذب الارتواء من عصير قلبه الشفيف الطازج، بدلًا من الكوكاكولا والسفن أب والفانتا! وفي المقاهي التي مقاعدها حصير البامبو تحت أغصان شجر الشوارع. لنترك ذلك الجزء الصغير من الضاحية الجنوبية الشرقية، حيث يترامى في تواضع ذلك القصر الأبيض ذو الطابق الواحد والحديقة الواسعة، فهنا يقيم رئيس الجمهورية الاشتراكي وراء أسوار خفيضة تطل منها خضرة الأشجار وعلى جانبي بوابتها يافطتان نحاسيتان تشيران إلى (القصر الجمهوري) إحداهما باللغة الفرنسية تلفت النظر إلى البناء ذي الطراز الباقي من زمن المستعمرات الفرنسية، حيث كانت فينتيان إحدى حواضر الفرانكفونية الغازية للهند الصينية، شأنها شأن (سايجون) في فيتنام و(بنوم بنه) في كمبوديا. جاء الفرنسيون وذهبوا بعد نصف قرن ولم يتركوا أثرًا في لاوس غير بضعة أبنية من قرن داثر في ضاحية القصر الجمهوري، صار أحدها سنترالًا لم يعرف أكشاك الهواتف الرقمية إلا منذ شهور قلائل، وصار الآخر مبنى للإذاعة متواضعاً وأنيقا، باستثناء ذلك لا أثر للفرنسيين بقي، اللهم إلا الخبز الفرنسي الطويل الذي يعرضه باعة الفاكهة على الأرصفة الترابية في حزمات تعتلي أكوام الأناناس والموز والباباي وما لا أعرف من الفاكهة في هذا البلد الجبلي المداري المطير، الذي أحكمت عزلته ثلاثة قرون من الحرب وأربعة تخوم مغلقة. فلاوس يسكنها أربعة ملايين ونصف مليون نسمة يتبعثرون في مساحة ٢٣٧ ألف كيلو متر مربع، لتكون بذلك أقل بلدان شرق آسيا من حيث الكثافة السكانية التي لاتتعدى ١٨ إنسانًا في الكيلو متر المربع. هذا البلد الذي يأخذ شكل رقعة متطاولة تنحصر بين سلسلة جبال «أنامايت» من ناحية ونهر الميكونج من الناحية الأخرى، تحدها من الجهات الأربع حدود مع بلدان أربع هي فيتنام في الشرق وكمبوديا جنوبا وتايلاند غربا والصين شمالًا. أربع جهات موصدة بحدود مع جيران طالما اشتعلت معهم حروب وحروب غير الحروب مع الآتين من أقاصي الدنيا، من وراء البحار التي لاتراها أبدًا لاوس. فهذا البلد الذي بدأ كدويلات صغيرة لم يتوحد إلا عام ١٣٥٣م في مملكة أسميت (لانزانغ) وتعني (أرض المليون فيل) إذ كانت الأفيال فيها ـ ولاتزال ـ وسيلة النقل الأساسية للأحمال الثقيلة خاصة من خشب الغابات المنتشرة في وديان هذا البلد. ولم تلبث هذه الوحدة حتى تفصّمت من

جديد فصارت ثلاث ممالك منفصلة في عام ١٧٠٠م. ولم تكف الإغارات عليها قادمة عبر الحدود مع جيرانها الأقوى خاصة الصين وتايلاند. لكن الإغارة الكبرى جاءت في نهاية القرن التاسع عشر عندما قررت فرنسا ابتلاع لاوس لتكمل إخضاع منطقة الهند الصينية (فيتنام وكمبوديا ولاوس) لنفوذها الذي ثقل وطال لأكثر من خمسين عامًا. ولم تنل لاوس بعض حريتها إلا عام ١٩٤٩ عندما حصلت لجنة (لاوس الحرة) التي رأسها ثلاثة من الإخوة الأمراء اللاوسيين ـ على استقلال داخل مايسمى بالاتحاد الفرنسي ـ ومع هذا الاستقلال الغائم انقسم الإخوة الثلاثة حيث برز من بينهم سوفانوفونج الذي صعد نحو الشمال الغربي وأقام علاقة قوية مع زعيم فيتنام الشمالية الشيوعية (هوشي منه) وأسس في لاوس حركة (الباتيت لاو) أو (شعب اللاو) الشيوعية. ومع هزيمة فرنسا في معركة (ديان بيان فو) الفيتنامية عام ١٩٥٤ سارع الغرب إلى عقد مؤتمر سلام في جنيف وتقرر إقامة دولة لاوس كحزام عازل بين فيتنام الشمالية الشيوعية في الشرق وتايلاند غير الشيوعية في الغرب. وظل الوضع في لاوس هادئا ـ على السطح ـ حتى عام ١٩٦٠ عندما قام ضابط في الجيش بانقلاب ضد الحكومة الموالية للغرب وسرعان مااتحد مع الباتيت لاو وسيطروا على شمالي لاوس واشتعلت حرب أهلية بين الشمال الشيوعي والجنوب غير الشيوعي، إلى أن عُقد مؤتمر دولي في جنيف ١٩٦٢ اتُّفق فيه على أن تتكون حكومة ائتلافية في لاوس يرأسها الأمير المحايد سوفانا فوما ويكون الأمير الشيوعي (سوفانو فونج) والأمير المعادي للشيوعية (بو ناوم) عضوين فيها يعادل كل منهما تأثير الآخر. وصارت لاوس محايدة تحت الإشراف الدولي وغادرتها كل القوات الأجنبية، لكن سرعان مااندلعت من جديد الحرب الأهلية بين (الباتيت لاو) الشيوعيين والحكومة التي لم تكن كذلك. وهي حرب أصداء لما كان يحدث على جانبي البلاد. وانقسمت لاوس على نفسها، وظلت الهدنة بين شقيها تستقر حينا وتحترق بعد ذلك حتى انتهت الحرب الفيتنامية عام ١٩٧٥، وسرعان ماصارت كمبوديا تحت سيطرة الشيوعيين، وكذلك لاوس التي حكمها (الباتيت لاو) وهيمن عليها الفيتناميون الذين خف تأثيرهم مع تغيرات الدنيا والزمان. وبرغم أن لاوس لاتزال شيوعية بالاسم ونظام الحكم، فإن شيوعيتها بدأت تنفتح كما غيرها وتتمحك في اقتصاد السوق وإن على استحياء وتحت مسميات وأشكال شتى كان من بينها رفع المطرقة والمنجل من شعار

البلاد عام ١٩٩٠، وهو ماتأكدنا منه طوال أيام تجوالنا في فينتيان وماوراء فينتيان. تبدو فينتيان ـ للوهلة الأولى مملة ـ لكنها تتسلل إلى النفس بهدوء، وتغدو شوارعها الترابية المظللة، وحوانيتها الفقيرة الصغيرة، وبشرها النحاف السمر الطيبون، يغدو كل ذلك كما لو كان من صحبة أول العمر. وكأنني أعرفهم من زمان، كنت أقفز في صناديق التوك توك قائلًا لسائقيها (مرحبا) فينطلقون دون أن نتفق على هدف أو أجر. فالأماكن المستهدفة بالزيارة قليلة، وأجور التنقل بالتوك توك أزهد من التفاوض حولها، والناس لايعرفون كيف يكذبون. فالسياحة في لاوس وليدة بعد، تثغو ببراءة دون أن تتراكم عليها أدران السياحة التي لامهرب منها. والسلطات الاشتراكية البيوريتانية (المتطهرة) تجادل للاحتفاظ بهذه البراءة. ويعبر عن ذلك أحد مدراء السياحة الذين التقيتهم في شركة (ل.إ.ت) بمبناها المتواضع بشارع (ثانون سيتثاسيرات)، وأحسست أنه يردد كلاما رسميًا يحفظه أكثر مما يسبر أغواره.. قال لي عندما أبديت احتجاجي على نظام تضييق منح التأشيرات السياحية وإخطار السلطات بالإقامة في كل مدينة ينتقل إليها السائح: (نحن نتحاشى سياحة تؤدي إلى التلوث الثقافي.. نريد سياحة ثقافية وبيئية).

كلام جميل، وبريء في عالم ليس كذلك، فالذي حدث ويحدث في مواجهة هذه الروح البيوريتانية أن السلطات تحكم باب السياحة من ناحيتها، فيأتي الآخرون من فوق الأسوار ويتسللون من الثغرات والنوافذ.. عبر نقاط الحدود البرية المترامية ومن نهر الميكونج. ففي إحدى السنوات الأخيرة دخل لاوس ٦٢ ألف سائح بالطرق الرسمية، لكن من دخلوا من تايلاند وفيتنام المجاورتين أضعاف ذلك، دفعوا نقودهم هناك وجاءوا إلى لاوس بكل (الملوثات) السياحية، فحدث التلوث الثقافي ولم تغنم لاوس في المقابل فلسًا ولا بنسا!

مدرج لاتصعده الطائرات

أطرف مرشد سياحي انطلق بنا في أطرف مركبة سياحية في أطرف عاصمة من عواصم شرق آسيا، ولتعميق التعارف أعطاني (الكارت) الخاص به، وهو كارت طريف أيضا. على بطن قصاصة من علبة سجائر كتب اسمه مسبوقًا بلقب مستر وتحته كتب

العنوان ورقمي هاتف متباعدين رجحت أن أحدهما لجاره البقال والآخر ربما لأحد أقاربه في الجانب الآخر من المدينة. وفي التوك توك المتقافز على ثلاث عجلات انطلق بنا المستر (بوفالاي سيسوثان) الذي لايعرف إلا ثلاث كلمات إنجليزية هي (يس) و(نو) و(مستر)، مررنا بميدان النافورة الذي يعتبر نقطة الانطلاق السياحية في قلب فينتيان، نافورة صغيرة في وسط مقهى يتوسط ميدانا دائريا تحيط به أبنية حديثة من طابق أو طابقين وبها تتناثر مقاه ومطاعم أوربية صغيرة، محال تبيع العاديات والتحف القديمة للسياح القليلين الذين تخففوا من ثياب الشتاء في شتاء لاوس الدافئ وراحوا يظهرون هنا وهناك ماشين بصنادل خفيفة دائخين من فرط السكينة وربما من الأفيون أو الساكي.

أشار مرشدنا إلى النافورة وقال: «يس»، فقلت: «نو»، ففهم وانطلق إلى أشهر معالم فينتيان وصروحها، يسمونه (نصب الجندي المجهول) وهو على نسق قوس النصر الباريسي وإن برقة حال وزخرفة يمكن تسميتها (الباروك) الشرقي. قوس أسمنتي اللون هائل الارتفاع والضخامة تتوضع تحته وداخل قوائمه محال لبيع منحوتات الخشب والمنسوجات اليدوية للسياح الذين لم يكن منهم في المكان غيرنا. هذا الصرح يسميه أهالي فينتيان (مدرج الطائرات الرأسي)، وسبب التسمية التهكمية هي أن الولايات المتحدة أحضرت شحنة من الأسمنت لبناء مطار لحلفائها وما إن استولى الشيوعيون على الحكم حتى أخذوا الأسمنت الأمريكي وبنوا به هذا الصرح الصاعد في الأعالي.. هائلًا، كالحًا، وسط حديقة لابأس بجمالها تتوسط الميدان الدائري الكبير الذي لاتزال بعض الطرق المؤدية إليه ترابية لم ترصف بعد!.انتهينا من تفقد (قوس النصر) الفينتياني فأشار (سيسوثان) بيده إلى بعيد سائلًا: «يس» فقلنا: «يس»، وانطلقنا إلى أهم صروح فينتيان الدينية وأكثرها قداسة لدى أبناء لاوس البوذيين ـ الثيرفادا.. إنه (شات لوانج) وهو ضريح برجي ذهبي أصفر مغلق على ذاته يصعد إليه الزائرون ويدورون حول قاعدة البرج المصمتة ثم يهبطون، وبالطبع فإن القاعدة مغلقة على مايعده البوذيون أثرًا مقدسًا أو صفحة مقدسة. لم أشعر بتلك القداسة أبدًا لهذا لم أكمل الدورة ونزلت. وخرجنا إلى ساحة المعبد الفسيحة، حيث تتناثر معابد بوذية أخرى ويمر في هدوء الرهبان في أروابهم البرتقالية، وثمة بناء بائس عرفنا أنه مدرسة دينية للرهبان الصغار

الذين كانوا بالعشرات داخل المبنى المتقشف وفي ظلال الأشجار. وفي ظل شجرة، وعلى حصير من البامبو، جلست أستريح وأبرد جوفي المحتر بشراب بارد، وياله من مقهى أرضي ممتع ترف نسماته بوداعة لامثيل لها في ظهيرة شتاء ساخن!

وعاد (سيسوثان) يقول: «يس» فنقول: «يس»، وننطلق إلى معلم آخر من معالم فينتيان.. بل عدة معالم متتابعة يكتنزها سوق يسمى (سوق النهار).. سوق مغطى، في الخارج منه يوجد موقف لعربات (التوك توك) بالعشرات و(جراج) لأكداس مئات الدراجات التي يستخدمها بكثرة أهل فينتيان رجالًا ونساء، كما توجد حول أسوار السوق الخارجية الخضر والفواكه القادمة مباشرة من الريف ومن أعالي الشجر، والميزان من ذلك النوع الأثري العتيق ذي الكفتين المرفوعتين في الهواء.. البضاعة في كفة والموازين في الكفة الأخرى وبعضها قطع من الحجارة نحتت بحيث يوازي وزن كل منها أحد الموازين المعروفة. أما في داخل (سوق النهار) المغطى فالحوانيت تتتابع مفتوحة ومتواجهة على جانبي ممرين طويلين يكونان معبر السوق. حوانيت لكل الأدوات المنزلية ومقصد السياح من المنحوتات الخشبية والمنسوجات التقليدية التي تتراص مغطية جوانب المحال ومنشور بعضها عند الواجهة، وهي جميعًا تصنع لوحات من المنمنمات اللاوسية تكثر فيها الزهور ورسوم الأفيال. والطريف والمؤثر أن كل هذا الإبداع من خيوط القطن والحرير الملونة وتوشيات خيوط الفضة والذهب تصنعه أصابع الفقيرات على أنوال يدوية في معظم البيوت حتى ليقال إنه لاتوجد امرأة في لاوس لاتعرف النسج. ومن الطريف المؤلم أن النسج اليدوي في لاوس تأثر تأثرًا مباشرًا بالحروب العديدة التي أثخنت جسد هذه البلاد بالطعنات من كل صوب. فبينما احتفظ أسلوب النسج الجنوبي بطابعه القديم البسيط من أفضل خيوط الحرير وبرسوم من تضاعيف صور المعابد والأفيال من المناظر التي تكثر رؤيتها في مقاطعة (شامبا ساك)، تأثر أسلوب النسج في شمال لاوس بتدخلات السلم والحروب العديدة مع الفيتناميين والصينيين واليابانيين وحتى الأمريكيين، فظهرت الرسوم ذات الطبيعة الزخرفية المعقدة، وكثر استخدام الخيوط الصناعية، وهذا جلي في التأثرات الصينية خاصة، التي تكثر فيها رسوم التنين الزخرفية. لكن يظل مدهشًا في هذا الفقر أن هناك ست عشرة طريقة من طرق النسيج التقليدي في لاوس، ولاتزال الأصباغ المستعملة

طبيعية بحتة، من النباتات والأحجار وحتى بعض الحشرات، ولهم في تحضيرها طرق بدائية عجيبة من المعالجة بالتفاعلات الطبيعية واستخدام الجير والشب والملح. وهي أصباغ عظيمة الثبات حتى أن قطع النسيج اليدوي الفاخرة تطير من لاوس إلى أوربا، خاصة الشمال الاسكندنافي لتباع بأعلى الأسعار. ولقد التقيت سائحا دنماركيا وجدته يتفقد الأقمشة بولع خبير أريب، وكان كذلك، وأخبرني في معرض حديث عجول بأن تلك الطرق التقليدية التي يستخدمها أهل لاوس في الصباغة تؤدي إلى بلوغ درجة من التوازن الدقيق بين القلوية والحامضية، هذه التي يعبر عنها كيميائيا بتوازن الـPH، وهو توازن تعجز عن بلوغه معامل الغرب الكيميائية الحديثة، لهذا تظل ألوان منسوجات لاوس اليدوية الفقيرة أثبت.. وأزهى على مر السنين!

تعجبت، ونظرت في لحظة تعجبي إلى وجه (سيسوثان) الذي بادرنا مشيرًا إلى البعيد، سائلًا: «يس»، فرددت مأخوذا ومفتونا: «يس»، «يس»، «يس»، «يس»، وانطلقنا.

أم المياه.. أبو الحياة

لم أر الفقر جميلًا أبدًا إلا في لاوس، خاصة تلك المقاهي المتربة البائسة المعلقة على ضفة نهر الميكونج. ولعله من الأفضل أن أقول بدلًا من الفقر رقة الحال. فلا أرقّ من تلك المناضد العتيقة المسودة والكراسي القديمة من خشب التيك الثقيل وأرض المقهى الخشبية القائمة على أوتاد مغروسة في شاطئ النهر لتظل أعلى كلما علت مياه الفيضان. أما البناء فهو مجرد حيطان منسوجة من لحاء البامبو وسقف (جمالوني) من أعواد البامبو والقش، وقناديل زيت عتيقة، وشجرة حور وارفة يستند إليها البناء.. إنها شرفات على النهر تحوطها جذوع نخيل جوز الهند والغاب العملاق، وفي الأفق تسري وادعة حياة النهر العظيم، وكنت في إحدى هذه الشرفات أتابع عظمة تلك الحياة، وأنتظر مع عشرات من الغربيين سحر الغروب، وأي سحر؟؟

يا الله، ما أبدع خلقك، وما أكرمك أن مننت عليّ بهبتين نادرتين في عمري، إذ جعلتني أعاين رحلة نهر النيل الطويلة طائرًا من أواسط إفريقيا حتى أقصى شمالها، وأنعمت عليّ بالإطلال والإبحار مرات من بلدان مختلفة على نهر الميكونج.. فيتنام

وتايلاند وميانمار (بورما) وكمبوديا.. وأخيرًا.. لاوس. ولم يبق لي إلا أن أصعد خمسة آلاف متر فوق هضبة التبت، في مقاطعة قينغاي الصينية، لأبلغ منابع النهر العظيم الذي يمضي مخترقًا السهول والجبال والحدود ليصب بعد رحلة طولها ٤٣٥٠ كيلو مترًا في البحر عبر الساحل الفيتنامي.

يسمونه في الصين (لانكانج جيانج) أي النهر العاصف، وفي تايلاند وميانمار ولاوس (مايي نام خونج) أي أم المياه، وفي كمبوديا (تونلي ثم) أي عظيم الماء، وفي فيتنام (كو أو لونج) أي نهر التنينات التسعة.

إنه نهر يبلغ اتساعه ١٤ كيلو مترًا بين الضفتين عند امتلائه في موسم الفيضان (من يوليو إلى نوفمبر) قرب الحدود بين لاوس وكمبوديا، وكان ماركو بولو أول الغربيين الذين أذهلهم هذا النهر عندما رآه في القرن ١٣، ولايزال مذهلًا، فطاقته الهيدروليكية تساوي الطاقة التي يولدها كل النفط المستخرج من بلد نفطي كبير كإندونيسيا، وضفافه الخصبة تطرح معظم محاصيل الحياة حيثما يمر. وفي بلد تشكل تضاريس الجبال ٧٠٪ من مجمل مساحته كما في لاوس فإن النقل النهري في الميكونج يمثل الجزء الأكبر من حجم المواصلات والشحن عبر هذا البلد الذي تفوق مساحته مساحة بريطانيا.. العظمى.

هذا بعض من نهر الميكونج، أما البعض الآخر، والأهم بالنسبة لي، فقد كان شيئًا لايحسب بالأرقام. إذ إنه يتعلق بالسحر الذي عاينته بنفسي، بعد أن قرأت عنه وصفًا لم أستوعبه إلا بالمعايشة، ففي أكثر من موضع تصف كتب الرحلات منظر ضفاف الميكونج عند الغروب بأنها هادئة أو ذات تأثير مهدئ. لكنني أقول بأنها تعادل (المهدئات الكبرى) التي يصفها أطباء النفس والأعصاب لمكدودي العقول والنفوس في كل مصحات وعيادات العالم. وهاكم التجربة..

فيتيان مدينة، بل بلدة ريفية الطابع، تتمدد في ارتياح على قوس مديد من ضفاف نهر الميكونج. النهر واسع المجرى إلى درجة أن ضفته الأخرى تبدو وكأنها في بلد بعيد، وبين الضفتين ثمة جزيرة تسمى (دون شان) تكبر وتصغر تبعًا لارتفاع المياه في النهر. ولأنني حين جلست على الضفة في تلك الأيام من شهر يناير بينما النهر في غيض، فإن جزيرة (دون شان) كانت تترامى باتساع بلدة.. بلدة من الرمل الرمادي الناعم الصافي.

أمامها مياه، ووراءها مياه، وعلى رمالها يمضي كثرة من الأطفال وبعض البشر ومنهم رهبان صغار في أرواب برتقالية. وفي شرفة مقهى خشبي معلق.. مترب وفقير، كنت أراقب الغروب مع حشد من السياح الغربيين الذين تأهلوا لسحر المنظر بجالونات من البيرة، وربما خمر الأرز المحلية أيضًا، وقد يكون هناك بعض الأفيون الذي جلبوه معهم عبر الحدود من منطقة المثلث الذهبي أو من أبناء القبائل الجبلية الذين يزرعونه في تلافيف الجبال. ولم أكن مؤهلًا بأي من ذلك، مجرد علبة (بيبسي) شربت بعضها وزهدت في البقية، ورحت أطرد عن وجهي وأطرافي عشرات من النمل الكبير الذي راح ينبع من خشب أرض المقهى ومن جذوع الشجر المجاور. ومع النمل المفزع بركضه على جلدي، أخذ البعوض الاستوائي يتزايد ويتزايد معه الطنين واللسع ولم يكن معي ذلك الدهان الطارد للبعوض إذ اكتفيت بأقراص الوقاية من الملاريا.

باختصار، كان جحيما، قررت أن أحتمله لأرصد مشهد الغروب الذي قرأت عنه. وبدأت الشمس تهبط في الأفق البعيد.. تكبر ويحمر قرصها وتتكاثف حولها هالة بنفسجية تدكن كلما زاد الهبوط. ومن القرص الأحمر الوهاج تراءى على صفحة النهر الوادع الفسيح انسكاب رقراق من الذهب الأحمر تعبره ظلال زوارق منسابة وبشر نحاف يخوضون في اللجة وطيور آيبة في سلام. ولم أعد أشعر بوحشية النمل ولا البعوض برغم أنها كانت تتكاثر على أطرافي ووجهي.. تلسع وتعقص، وأنا هناك.. هناك لا أدري بنفسي الهائمة في ترنيمة السحر.. في غروب الشمس فوق نهر الميكونج.

مقعد أمام الجناح.. الأيسر!

في نشوة مغرب من المغارب على ضفة الميكونج في فينتيان بادرني بالحديث سائح بريطاني عرفت أنه مهندس إلكترونيات لندني اسمه (جون ماتسي). كان في نحو الثلاثينيات قوي البنية وأشقر راح يمسح ذراعيه وعنقه بالكريم الطارد للبعوض وبدا لي ثملًا وهو يقول لي: «هل ذهبت إلى لوانج برابانج». قلت: «ليس بعد». فقال هاتفًا: «أوه.. لابد أن تذهب.. لوانج برابانج.. فانتازتيك.. فانتازتيك». ونصحني بأن أجلس على مقعد إلى جوار إحدى النوافذ في الجانب الأيسر لأطل على أروع

مناظر الطبيعة قبل هبوط الطائرة بين الجبال وعلى مشهد من النهر العظيم وتفرعاته في الوديان الخضراء. وكنوع من تسلط الهواجس الغامضة حرصت على أن أكون في مقدمة الصاعدين إلى الطائرة القديمة سوفييتية الصنع، ولأن رحلات الطيران الداخلية لا تحدد أرقامًا للجلوس داخل الطائرة سارعت باحتلال أحد المقاعد بجوار نافذة في الجانب الأيسر. وبينما كانت الطائرة الفقيرة تخفض من ارتفاعها بعد رحلة زمنها ٣٥ دقيقة، تهيؤا للهبوط في مطار لوانج برابانج، أيقنت أن مهندس الإلكترونيات البريطاني السائح لم يكن ثملًا، بل كان مفتونا وهو يتذكر روعة المنظر.

جبال خضراء تغطيها الغابات، تتناغم ألوانها في تعاقبها الذي لاينتهي، فتبدأ من البنفسجي في الأفق السماوي البعيد، وتتألق خضرة مع الاقتراب، وفي الوديان والسهول تتراسم مدارج وأحواض الحقول المروية واليانعة. وبين الجبال الخضر يمضي نهر الميكونج رحيبا تتبعثر في حوضه جزر خضراء ورملية وأخرى بألوان الصخور المتدرجة ألوانا من الأحمر إلى البني فالأزرق الداكن. وما من أثر يبدو للبيوت المبعثرة في ظلال الأشجار الكثيفة على التلال.. لا أثر لوجود البشر إلا الخطوط النحيلة للدروب التي شقها الإنسان على مدى القرون دون أن تغيرها القرون، تتبدى بلون التراب الطيني البرتقالي الدافئ متلوية نحيلة بين أمواج الخضرة.

هبطت الطائرة كأنها تطفو نازلة في بئر خرافية فسيحة بين روعة الجبال.

وما إن نزلت من الطائرة وخطوت مع سرب الركاب على أرض المطار الريفي الوادع، حتى وجدت هناك من ينتظرني حاملًا لوحة مكتوبا عليها اسمي بحروف لاتينية مرتبكة وبتهجئة خاطئة. كانت فتاة فيتنامية الملامح ترتدي ملابس رياضية متواضعة وأخبرتني أنها المرشدة السياحية التي ستصحبني في جولة لوانج برابانج.. وبعد حوار خاطف بالإنجليزية عرفت أننا سنبدأ برحلة إبحار في الميكونج إلى منطقة الكهوف والشلالات وعند العودة سنتوقف عند بعض القرى النهرية. وكنت متلهفًا لبدء الرحلة، لذلك ضقت بالإيقاع شديد البطء لتسليم الحقائب من منطقة جمركية تشبه أكشاك باعة الخضر، ثم إنه كان يتعين علينا أن نراجع الجوازات لتسجيل إقامة جديدة لدى سلطات المقاطعة. بطء شديد، وبؤس شديد، وبيروقراطية تعيسة. لكن ما إن انتهى كل شيء وعبرنا جسرًا

حديديا قديما معلقا فوق واد أخضر يمضي فيه فرع من النهر، ورحنا نخترق مدينة لوانج برابانج، حتى أحسست بانقشاع كل الضيق، وبدأت أتنفس ملء رئتي من هواء عالم شديد البكارة في بلدة جبلية من بلدات القرن الثامن عشر، لم تتلوث روحها بعد. وأدركت أنني أمضي في إحدى أبهى رحلات العمر بينما الميكروباص السياحي يخترق شوارع تنام بيوتها الخشبية والمعمولة من البامبو في ظل الأشجار ونخيل جوز الهند، وعلى الأرض الترابية المرشوشة يسعى البشر والدراجات والتريسكلات والدجاج والكلاب الهائمة والدواب على أنواعها في وداعة آتية من هدأة زمن سحيق غادر العالم وأقام هنا.

تركنا حقائبنا في (الميكروباص) وهبطنا إلى النهر في واد سحيق، فضفاف الميكونج في هذا الجزء الشمالي من لاوس تتكون من سلسلة جبلية شاهقة وخضراء. خطونا فوق سقالة بين الشاطئ والزورق تترقرق تحتها مياه النهر الخضراء المزرقة والتي سنراها تغير ألوانها على امتداد رحلتنا التي طالت إلى نهار كامل وودت لو أنها تطول حتى نهاية العمر وأن يصحبني فيها كل من أحبهم ويحبونني.

قالت لي مرافقتنا التي كانت بسيطة ورقيقة وإن كان اسمها مركبا وعسيرًا حتى أنني مكثت أناديها اختصارًا: «داو داو». قالت «داو داو»: إن غايتنا هي شلالات (كوانج سي) التي تبعد ٢٩ كيلو مترًا جنوب المدينة. لكنني ألححت أن نرى أولًا كهوف (باك أو) وكانت على مبعدة ٢٥ كيلو مترًا إلى الشمال، وهكذا صارت الرحلة رحلتين، ومكثنا نهارًا شبه كامل في رحاب الميكونج وبين ضفافه الجبلية وفي غابات جباله وكهوفها وبعض القرى والجزر. نهار كامل في دنيا كأنها في بداية الخلق أو ماقبل التاريخ. كان الزورق نحيلًا جدًا وطويلًا جدًا ومسقوفًا برقيقة محدبة من (الصاج) أخذت تدق بإيقاعات بعض المطر الذي تساقط خفيفًا في جزء صغير من الرحلة، وكان يجري بسرعة (موتور ديزل) عتيق لم يكن يخدش سرمدية سكينة النهر والجبال من حولنا عداه، وعدا الزوارق التايلاندية الحديثة السريعة التي كانت تطير مفزعة الضوضاء عابرة إيانا حاملة (سياح الحدود) الذين يمضون رحلة نهار واحد في لاوس عبرالنهر ويعودون في آخر النهار إلى مستقرهم في تايلاند.

ارتديت سترة النجاة البرتقالية صارخة اللون فيما كانت (داو داو) وقائد الزورق

ومساعده ينظرون نحوي بابتسامة عطوف. وكان طالب الحسيني المثقل بآلات تصويره ينظر إليّ في زهو لأنه يتحرك دون سترة نجاة. لكنني لم أكن مستعدًا للمنافسة الضاحكة. فلم تكن سترة النجاة مجرد رغبة للشعور بالأمان، بل كانت أيضًا وأساسًا رغبة في طرد أدنى تشويش للذهن والخاطر والروح، لأنني أحسست بُعَيْدَ انطلاقنا بأن هذه واحدة من أندر رحلات العمر، وعليّ أن أصفّي نفسي تمامًا وأفرغها لتتشرب دقائق اللحظات، وبأقصى طاقة الحواس.. كل الحواس. ولعل ذلك النهر يفسر النهم الذي رحت ألتهم به وجبة مقررة في برنامج الرحلة أتت بها (داو داو) على ظهر الزورق. نظر طالب إلى الطعام بريبة واكتفى ببرتقالة وبعض الموز فيما رحت أنا أقبل على كل شيء وأقول له وأنا أمضغ: «كل يابني.. الأكل ثقافة شعوب.. تثقّف». لكنه خشي وخشيته مبررة، ويفترض أن أكون ـ كطبيب ـ أكثر منه خشية لأنني أعرف المستوى الصحي الوقائي المتواضع جدًا في بلد فقير كهذا. لكنني رحت ألتهم الطعام اللاوسي بيقين كامل أن شيئًا أبدا لن يصيبني، لا سلامونيلا ولا شيجيلا ولا فيروس التهاب كبدي ولا معدي ولا غيره، إيمان كامل بأنني سأقهر كل هذه الدنايا برغم الاحتمال الكبير لوجودها، فقد كنت آكل مع الدجاج المتبل بالصويا والسكر جبروت روعة الجبال المغطاة بالغابات البكر من حولي، وكنت أزدرد عجينة الأرز الأحمر المطبوخ بالبخار في أقماع من البامبو بفيض من انسياب النهر العظيم وهو يدور حول جزر صخرية تبدو حجارتها النارية المنحوتة بمرور القرون وكأنها من زمن البراكين الأولى، وتحليت بسكاكر الأرز وجوز الهند الملفوفة في أوراق الموز البنية المعتقة وأنا أوقن ـ لحد الرغبة في البكاء صفاءً ـ أن دنيا الله حلوة خضرة، حقا.. لو تُركت لفطرتها، وابتعد عنها جشع الإنسان. انشقت الجبال الخضراء فجأة عن يميننا، مفسحة الطريق لنهر يخرج من النهر، أو يدخل إليه، يسمى نهر (أو)، وكانت كهوف (باك أو) عن يسارنا، وعرفت بسر تسميتها هكذا، فكلمة (باك) في اللغة اللاوسية تعني فوهة النهر، ومنها أسميت الكهوف بكهوف فوهة نهر أو. ولقد رأينا منها كهفين أولهما يسمى (ثام تينج)، صعدنا إليه عاليًا على درج منحوت في حجارة الجبل الجيرية البيضاء. والكهف نفسه مغارة عميقة التجويف من هذه الحجارة وبها تماثيل لبوذا أشهرها وأكبرها تمثال (بوذا واقفا)، والكهف ليس مجرد موقع سياحي بل هو مزار ديني يعتقدون في حلول البركة على زواره. وفي هذا الكهف حدث لي

أمر عجيب إن لم ينطو على خدعة ما. فهناك تمثال صغير لبوذا جالسًا في وضع التأمل وحوله تشتعل شموع الزائرين وزهورهم. وثمة صندوق معدني قديم للنذور وعلبة بها عصي على كل منها رقم، وتبعًا لخطوات شرحتها لي المرشدة وضعت قطعة نقد في صندوق النذور المعدني وحملته بين يدي أهزه ليخشخش بينما كنت، في سري، أتمنى ما أتمنى وأسأل ما أريد، ثم سحبت عصا قرأت رقمها وسحبت ورقة من لوحة أوراق بالرقم ذاته، وراحت (داو داو) تقرأ المكتوب باللغة اللاوسية وتترجم ماتقرأ، وكان مذهلًا ماقرأته إذ كان إجابات محددة على تمنياتي وأسئلتي تحديدًا والتي رددتها في سري. واقشعر جلدي في كهف (ثام تينج). ثم هدأت مع خروجي من الكهف في الطريق إلى كهف آخر اسمه (ثام فوم). جسور معلقة على حافة الجبل فوق الماء، ودرج يواصل الصعود عبر غابة الجبل المدارية. أشجار مترعة، عملاقة، أشجار مانجو لم أر أضخم ولا أعلى منها وثمار كبيرة بشكل غير عادي، وكذلك كل الأشجار خاصة أشجار التيك التي تصعد سامقة منتهية بمظلة خضراء محكمة الاستدارة. وكانت الأشجار تتكاثف والأغصان تشتبك فتزداد العتمة والبرودة حتى موقع الكهف الذي لم نستطع الوصول إليه إلا بإرشاد الكشافات التي أحضرها المرشدون وزودنا بها حراس الغابة والكهوف. لكنني اكتفيت بدخول الكهف الأول، وعدت أدراجي إلى النهر والزورق. وأقفلنا في اتجاه الجنوب

إنهم يصيدون الذهب

مررنا في أول طريق رجوعنا بقرية للصيادين، وجزيرة لصانعي الجرار، وثالثة للنساجات على الأنوال اليدوية، وكانت الصور ذاتها.. قرى على منحدرات الجبال وعلى ضفاف النهر تنهض بيوتها على أوتاد من الخشب وهي على هيئة صناديق كبيرة من البامبو بسقوف (جمالونية) مائلة ونوافذ صغيرة تطل منها وجوه مليئة بالسكينة وبعض الدهشة. طرقات ترابية محفوفة بأشجار المانجو ونخيل جوز الهند يلهو فيها أطفال كثر خفاف الثياب مع الدجاج والماعز والكلاب. أما أغرب القرى فكانت قرية صانعي (الساكي) أو خمر الأرز. قرية رائحتها لاتطاق ومدخلها ساحات تترامى فيها جرار تخمير الأرز وأدوات التقطير البدائية وصناديق الزجاجات المعبأة. لكن

الغريب هو عدم العثور على سكران واحد في القرية التي تفقدناها بما يكفي ونحن نكاد نغطي أنوفنا لعدم احتمال فظاعة الرائحة.وبينما كنا ننطلق إلى الشلالات مكثنا نمر بأناس متباعدين، أسر كاملة من الأب والأم والأولاد، يقرفصون على حافة الماء، على شواطئ القرى المعزولة وفي الجزر، يمسكون بغرابيل ينخلون بها الرمل بحثا عن الذهب. وتقول (داو داو): «إنهم يعثرون فعلًا على ذهب في حوض النهر أثناء انحساره، وأحيانا ما تكون الكمية جرامًا كاملا من الذهب في اليوم الواحد».

٢٥ ميلًا من الإبحار رجوعًا إلى لوانج برابانج ثم ٢٩ ميلًا إلى الجنوب منها، أي ٥٤ ميلًا من الإبحار حتى الوصول إلى شلالات (كوانج سي) وأكاد لا أقطع هل كانت روعة الصور حلمًا أم واقعًا. فلعلني بتأثير رحابة النهر الساجي وبكارة الجبال الخضر السامقة قد نمت، أو صرت في سرنمة، فمياه الشلالات الصافية المنحدرة من الغابة العالية كانت تنحدر على الحواف الحجرية البيضاء فتنداح ستائر شاسعة الرحابة من الفضة الشفافة تنتهي بهدير ناعم في برك خضراء في الوادي العميق المسالم. ولقد تم تحويل سفوح الشلالات إلى حدائق عامة في مشروع تبنته منظمة الفاو عام ١٩٨٧. وفي الحدائق ثمة مقاصف بسيطة شربنا فيها مياها غازية واسترحنا لنعود، وفي طريق العودة نمت.. وفي نومي كنت أطير سابحًا فوق نهر بين جبال خضر، تمر بي في الفضاء السماوي طيور بيضاء وعلى المسارب بين الجبال ألمح أفيالًا تسير وئيدة بأحمال من البامبو وخشب الأشجار الأحمر.

زهور على عظام

لوانج برابانج، يالها من مدينة حلم، (فانتازتيك) حقا كما قال لي السائح البريطاني الذي التقيته في فينتيان. مدينة يحتضنها نهر الميكونج بطول شاطئ مديد، ويحنو عليها فلا يتركها إلا بإحاطتها مزيدًا برافد آخر يمنحه الميكونج للمدينة ويسمى (نام خيان). أما الجبال فإنها تحرسها بعناية ألوانها الخضراء والزرقاء والرمادية والتي بلون الضباب والسحاب.

مدينة ليست من دنيانا ولازمننا، وهذا سر جمالها البريء، برغم رقة حالها وافتقاد

أشياء كثيرة نظن أنها لازمة للحياة ونكتشف في لوانج برابانج أنها ليست كذلك. فحتى وقت قريب يحكى أنه لم تكن هناك آلة نسخ مستندات واحدة في المدينة التي كانت عاصمة ملكية للاوس، وحتى الآن تعوزها التليفونات التي لم نعثر عليها في فندق بديع كان قصرًا من قصور أوائل القرن التاسع عشر سكنا فيه. أما السيارات فهي صرعة جديدة في طرقات البلدة التي يزعجها مجرد رفيف الدرجات وعربات الجر اليدوية. مدينة تنام مع الغروب وتصحو مع الشروق على صياح الديكة وأصوات الأطفال وشدو الطيور في غمرة أشجارها التي تخرج من بين خضرتها البيوت الجميلة الخفيفة التي لا تتعالى أبدًا على هامات نخيل جوز الهند.

أسواق ريفية ومعابد ملكية وقصور قانعة قديمة وحديقة تلتم فيها نسوة القبائل الجبلية يشتغلن ويبعن مايبدعنه بإبر التطريز ولوحات القماش ساحرة الزخارف والألوان. فواكه مدارية في كل ركن، وشوارع تغسلك بوداعتها وبساطتها كلما درت فيها. لازحام، ولاضوضاء، ولاعجب في أن منظمة اليونسكو أعلنت منذ سنوات هذه المدينة واحدة من محميات الثقافة والتراث الإنساني العالمي. وثمة لوحة خشبية، كبيرة، وجميلة، معلقة تحت مظلة ـ هي بذاتها قطعة فنية ـ في شارع (فان باتانج) تُشهر نص إعلان اليونسكو. مدينة حديقة، محوطة بالنهر والجبال، تتناثر بين أشجارها البيوت، ويتصاعد الدخان من مواقد الطهو المشتعلة بالخشب والحطب في بيوتها. مدينة صعدت للإطلال عليها من قمة تسمى (فوسي) وتعني (جبل الأعجوبة) حيث يتسنمها ضريح بوذي يوفر حوله شرفات دائرية تتيح إلقاء نظرة بانورامية على رحاب المدينة من جبال الأفق حتى جبال الأفق، ويعود تاريخ إنشاء الضريح والشرفات إلى عام ١٨٠٤ الذي يبدو أن المدينة لم تغادره إلا قليلًا.

وصلت إلى قمة (فوسي) بعد ارتقاء سلم حلزوني من الحجر يرتفع ٣٢٩ درجة ويصعد في غابة تكثر فيها أشجار عجيبة بلا أوراق وأغصانها تنتهي بما يشبه الأصابع وعلى أطراف الأصابع تتفتح زهور أعتقد أنها من فصيلة الياسمين الهندي، زهور هادئة البياض وفي قلوبها صفرة ناعمة مشرقة. عرفت أن هذه الزهور هي رمز لاوس التاريخي. وهذا النوع من الزهور يسميه أهل الزراعة (إزهار على العظم) إذ يقوم مباشرة على

جسم الفروع. جمال غريب يوحي بالزهد والفتنة معًا، ويوحي لي بسر فتنة لاوس، التي وقفت عند قمة من قممها أطل على أبهى صور الطبيعة البكر وعذوبة قناعة الإنسان بالفطرة. أطل وأعاود الإطلال وأود لو أبقى وأذوب في صفاء هذا الوجود، لكن لامفر من الهبوط، ولامهرب للبلدة مما يسمى بالتحديث وأول بواكيره مشروع لطريق دولي سريع (هاي واي) سيمر بها رابطا بين الصين ولاوس وتايلاند، فهل أهتف: مرحى، أم أقول: وا أسفاه.؟!

تركيا (كابادوكيا)
مأثرة البشر والحجر

وجدنا أنفسنا أمام ستين مليون سنة، في بدايتها ثارت البراكين لتغمر وجه الأرض برمادها وحممها ومن الثقل الحمم والتهاب سعيرها فوق الأرض والرماد تكون لوح من حجر التوفا البركاني الهش، سمكه يقارب المائة متر واتساعه ٢٢ ألف كيلو متر مربع هي مساحة كابادوكيا. فماذا فعلت ملايين السنين بالحجر، وماذا فعل الإنسان؟!

للقدر ترتيباته، وللمصادفة أسبابها.

وكان أن وصلت آخر طائرات رحلتنا من استنابول، إلى آخر مطارات وسط الأناضول «كايسريا» أو القيصرية في نحو العاشرة مساء، ومن كايسيريا أخذنا باصًا صغيرًا لينقلنا إلى أورجوب وهي المدينة المركز لمن يريد التجول في منطقة كابادوكيا بسرعة وبعض اليسر.

كانت ليلة بلا قمر، ولا نجوم، وكانت أضنة في الجنوب التركي الذي لا يبعد كثيرًا عن مسارنا، تهتز بروع في قبضة التوابع التي أعقبت زلزالها الكبير. ولم نكن غير ثلاثة في ليل الجبال ـ سائق الباص وسليمان حيدر وأنا. ورحنا في قبضة الظلمة نصعد ونهبط وندور، نرى أشباح جبال هائلة غامضة السواد، وبطون وديان سحيقة الحلكة، وما من هادٍ غير التشبث برحمة الله، وخبرة سائقنا التركي الصموت، وبعض ضوء ينوس هنا أو هناك، أما الأشجار التي لم تنقطع عن الظهور على جانبي الطريق، والتي يفترض أن تكون باعث طمأنينة، فقد تحولت إلى ألغاز للرهبة في كل هذا الليل.

ثم جاءت الانفراجة، ونطق السائق وهو يشير إلى نجمة كبيرة مكونة من آلاف نقاط الضوء المتقاربة تتمدد في الأسفل البعيد، ببطن واد تحدق به حلقة من الهضاب والجبال:

«أورجوب»! فتنفسنا ارتياحًا من هواء صاف مبترد رقيق، يندر أن يكون في شهر يوليو، خاصة وقد كنا خارجين من حرارة قدرها ٥٠ درجة مئوية سجلتها نهارات الكويت.

سقطنا في جب الليلة الأولى نائمين هالكين من فرط التعب والتوتر، لا أحلام ولا كوابيس، وصحونا كأنما وُلدنا للتو، فامتلأت عيوننا بأول الدهشة: أورجوب!

تمام؟ تمام!

ما إن أطللت من نافذة الغرفة على المشهد المغمور بشمس الصباح حتى هتفت: «يا الله»، وسارعت لأهاتف سليمان حيدر في الغرفة المجاورة حتى يسارع بالإطلال من النافذة فبادرني قائلًا إنه يصور! من خلف حزام أخضر تكثر فيه أشجار الحور التي توحي بأنها شموع برد وسلام خضراء، تسرح صاعدة «أورجوب» الموصوفة بأنها المدينة المتكهفة، في السهل المنبسط قليلًا وراء الأشجار تتراتب البيوت «الكريمة» ذات السقوف القرميدية الحمراء، ومن ورائها تصعد البيوت «بلون الكريم أيضًا» متكهفة، محفورة في أحجار هضبة عالية عريضة تبدو كأنها عش للنحل البري، ومن وراء هضبة البيوت المتكهفة تلوح ذرا جبال طباشيرية البياض توشيها الخضرة، ثم تكون في الأفق السماء، صافية الزرقة، تسبح على مهل فيها سحابات شفيفة خفيفة كنسائم الصيف الرقيقة في هذه المدينة، بل البلدة.

وقعت في حب أورجوب من أول نظرة، وتوثقت عُرى الحب مع أولي الخطوات. فالبلدة نظيفة هادئة، وأنيقة الشوارع والأبنية، ومترفة الأرصفة والباصات والمداخل بأشجار الكرز والمشمش ودوالي العنب إضافة للحور الذي يتألق منتصبًا في كل الأماكن ولم يكن هناك بشر كثير، واضح أن البلدة قليلة السكان كثيرة الأشجار والزهور والفنادق الصغيرة.

في شرفة معرشة بدالية العنب تطل على حديقة مركز أورجوب للاستعلامات ومع رشفات شاي التفاح المنعش ناقشت خطة عملي المقترحة في كابادوكيا مع مدير سياحة أورجوب إحسان تارهان. وعندما شرعنا في بدء التنفيذ رجوته أن يختار لي سائق تاكسي خبيرًا بالمنطقة وجاهلًا باللغات لا يعرف إلا التركية التي لا أعرفها.

وإزاء دهشة مدير السياحة طمأنته بأنني أريد أن أرى فقط ولا أحب أن أشوش الرؤيا بالسماع خاصة أن الكتب تقول عادة أكثر وأعمق مما يقوله الأدلّاء السياحيون. وكان أن اختار لنا رجلًا طيبًا لطيفًا، بسيارة صفراء صغيرة واثني عشر مليون ليرة تركية كأجرة يومية! (حوالي أربعين دولارًا في اليوم). بلغة الإيماءات والإشارات التي تتحول إلى مواقع على خريطة صغيرة فردتها بيني وبين السائق «مهميت إينال» «أي محمد إينال»، اتفقنا على نقطة البدء، وسألته: تمام؟ فأجاب: تمام، وانطلقنا.

اخترقنا شوارع أورجوب الصافية الندية، صعودا وهبوطا بنعومة ورفق، ثم خرجنا إلى دروب الجبال الخضراء حيث لم ينقطع توارد الحور والكرز والمشمش والعنب واللوز الأخضر، وبعد أربعين دقيقة وجدنا أنفسنا نرتقي قمة «ديفريت»، فنوقف السيارة ونترجل لنطل على المشهد الأول من أعجوبة الحجر.

حتى الآن لا أستطيع العثور على تسمية دقيقة للتكوينات الحجرية الجبلية الغريبة التي شاهدتها في وادي كبادوكيا التركي، وهي ليست حيرتي وحدي بل حيرة كل المراجع التي عدت إليها سواء لكُتّاب أتراك مثل «عمر ديمير» و«يوسيل أكات» أو غربيين خبراء بالمنطقة مثل الدكتور «مارتين أوربان». وبرغم وضوح العنصر التشكيلي الغالب بين هذه التكوينات الجبلية المخروطية، فإن هناك من يسميها مداخن خرافية، أو مسلات، أو أقماعا، وأجد لنفسي تسمية عربية واسعة لكنها توحي بمكنون هذه التكوينات السرمدية، فأقول تعميما: «الأنصاب».

من قمة «ديفريت» رأينا الأنصاب المخروطية الهائلة تتجاور، بألوانها السُّكَّرية «الكريمية» والوردية الملوَّحة بظلال خفيفة خضراء أو رمادية، وتكلل هاماتها المدببة عمائم سوداء من قطع البازلت الضخمة يتعجب الإنسان كيف استوت في مكانها هناك، وكيف حافظت وتحافظ على توازنها العجيب ذاك؟! كأنها منحوتات تجريدية جبارة، جبروت الجبال، تستوحي صورة أسراب لدراويش خرافيين في جبب فاتحة فضفاضة وعلى رءوسهم الصغيرة تستقر عمائم داكنة كبيرة. منظر يخلط في النفس ما بين الدهشة والرهبة. الدهشة وليدة صدمة الصورة للمألوف في ذاكرتنا، أما الرهبة، فقد رحت أفتش عن سرها وأنا على قمة ديفريت ثم بعد نزولنا عنها ودوراننا حول

أنصاب الحجر الخرافية الممتدة على مدى عشرات الكيلو مترات في هذا الوادي، وهي رهبة شبيهة برهبات أخرى انتابتني، ولابد أنها تنتاب سائر الناس، إزاء المشاهد الهائلة في عالم الأثر والطبيعة، الهرم الأكبر، سور الصين، سلسلة جبال آرارات أو جبال الألب المكللة بالثلوج من الجو، معابد وات بو في تلافيف الغابة الاستوائية، المحيط الأطلنطي، قمة رأس الرجاء، حوض نهر الميكونج، إنها أشياء هائلة تقول للإنسان: أنت مجرد طيف، صغير، ضئيل، وعابر في هذا الوجود الذي لا تعرف حدوده، بل حتى حدوده الدنيا، كوكب الأرض الذي تعيش عليه.

مضيت مبهورًا مسحورًا، من ديفريت إلى زلفى إلى باشاباج، مواقع مترامية في وادي كبادوكيا، والأشكال ذاتها تكرر جوهر تكوينها وإن اختلفت هيئاتها هنا أو هناك، وهنا أو هناك تتباين ألوانها في لوحات طبيعية جبارة عجيبة، من الوردي إلى الأصفر الليموني إلى الأبيض الكلكي إلى البرتقالي إلى الفيروزي، وكل هذا من الحجر، فأي حجر؟ إنه ما تبقى من أثر عشرات الملايين من السنين، ويقال إن تاريخ منطقة كبادوكيا بدأ منذ نحو ٦٠ مليون سنة، عندما أدت التحركات المتموجة للقشرة الأرضية إلى بروز سلسلة جبال وسط الأناضول، وفي غضون هذه التحركات لقشرة الأرض الغضة كانت هناك نشاطات بركانية غمرت عشرات الآلاف من الكيلومترات المربعة في المنطقة بمقذوفها من الحمم والرماد. وحتى الآن لاتزال قمم الجبال الأكبر الثلاث في منطقة كابا دوكيا: إرسيش «٣٩١٧ مترًا» وحسان «٣٢٦٣ مترًا»، وجوليو، تعتبر براكين كامنة برغم أنه لم يسجل لها ثوران منذ فجر التاريخ وحتى العصر الروماني. كانت في الأصل براكين عملاقة محمومة النشاط، وكان من آثار هذا النشاط البركاني القديم أن غُطيت هذه المنطقة بكميات هائلة من الرماد البركاني والحمم مكونة طبقات إضافية على سطح الأرض بترتيب انقذافها من أعلى إلى أسفل، ومع مرور الأزمنة الجيولوجية تيبست هذه الطبقة البركانية مكونة لوحًا حجريًا أرضيًا سطحه من البازلت وعمقه من حجر التوفا الذي تكون من تفاعل الطين والرماد البركاني والحمم، تخللته شقوق بفعل التقلص المصاحب للابتراد، ومن ثم بدأت عملية التآكل أو التحات التي تحدثها الرياح والأمطار تتباين. في طبقة البازلت الصخرية الصلبة والداكنة على السطح كان المطر يحفر فيها صدوعًا دقيقة ويوغل في هذه الصدوع حتى يقطع البازلت رأسيا

ويواصل القطع فيما تحته من أحجار التوفا الهشة. ومع الزمن راحت الريح والمطر يحولان لوح الأرض الصخري إلى كتلة عنقودية من الأبراج «أو المخاريط» متواصلة القواعد مستدقة الرءوس وتحمل على رءوسها شرائح سميكة من البازلت. ومع مرور الزمن كان هذا الشكل الأساسي يتغير من مكان إلى مكان تبعا لصلابة الأحجار وشدة الريح والمطر، فقد رأيناه في «أوشيسار» حائطًا من مخروطات متلاصقة تتدرج من منطقة إلى أخرى بين الأبيض والوردي والأصفر الليموني. وفي «جوريما» كانت المخروطات رملية اللون محمرة وضخمة وبلا «عمائم» بازلتية، أما في «زلفى» خاصة في منطقة المداخن الخرافية فقد كانت «عمائم» البازلت السوداء تتوج رءوس الأشكال المخروطية والاسطوانية ذات اللون الكريمي المشوب بالحمرة.

حيث لا يمكن أن تراني!

تتواصل أيامنا في كابادوكيا والتي يعني اسمها المشتق من تعبير فارسي قديم: «المكان الذي تجلب منه الخيول الجيدة»، لم نر في تجوالنا إلا خيولًا قليلة عند مرورنا بالقرى الجبلية. لكن خيول الصخور والحجارة كانت ترمح دائمًا موحية بتذكارات الريح والمطر في الأزمنة السحيقة، والأزمنة القريبة أيضًا، والتي اضطربت كثيرًا في تأريخها كما في وادي «جوريما».

يبعد وادي جوريما عن أورجوب ١١ كيلومترا فقط، وبرغم أنه يدعى «المتحف المفتوح» أو «متحف في الهواء الطلق» فإن الدخول إليه يتم برسوم ليست قليلة، لكنه يستحق الزيارة. ويستحق المراجعة التاريخية أيضًا!

نعبر بوابة الدخول الأنيقة ونمضي مع أسهم الإشارة، فنرى التكوينات المخروطية الضخمة غير مكللة في هذا المكان بقبعات أو عمائم قطع البازلت، وفي هذه الجبيلات «تصغيرًا» نشاهد كنائس محفورة في حجر التوفا، وثمة لوحات دينية مرسومة بالرمل الملون «الفريسكو»، ومعظمها راجع إلى الفترة من القرن السادس إلى العاشر وبها تقاليد الفن الأيقوني للرسوم الدينية البيزنطية حيث البساطة في أسلوب التصوير والاستخدام المسرف للألوان القوية المثقلة بالتأجج العاطفي.

في تفسير للجوء المسيحيين للتعبد في هذا الوادي تقول بعض المراجع، وهو ما سمعت بعض الأدلاء الأتراك يرددونه ـ ربما لزوم الشغل ـ علي مسامع السياح الغربيين، أنه كان هربًا من ضغط العرب المسلمين عليهم حتى أن التسمية «جورما» تعني «حيث لا تستطيع أن تراني». وهو تفسير لا تطمئن إليه نفسي، ليس فقط لأنني مسلم عربي، ولكن أيضًا لأنني لا أصدق أن قسسًا ورهبانًا هاربين من الاضطهاد أو العسف يمكنهم أن ينجزوا فنًا كهذه الرسوم على جدران وأسقف كنائس وادي جوريما. فالفن، كل فن، هو وليد الطمأنينة حتى لو كان يعالج موضوعات الرعب. فما بالنا بفن روحي يستوحي مشاهد البركة والسلام. من جهة أخرى فإن هناك من الشواهد التاريخية ما يدرأ عن المسلمين العرب الشبهات أو بعضها على الأقل. فلوحات الرمل الملون المدمرة ببعض هذه الكنائس تم تدميرها على يد مسيحيين بيزنطيين يونانيين، أي من تابعي هذه الكنائس أنفسهم، والسبب عجيب، فقد كانوا يعتقدون أن منقوع كسرة من رمال هذه اللوحات في الماء له قدرات شافية إن شربه المريض. ثم إنه كان على من ينتزع كسرة من اللوحة أن يحفر اسمه بجوار فجوتها ليسجل أمام الله مجيئه! بالتأكيد هو فعل سوقي لبعض عامة المسيحيين في زمن ما، كما أن هناك فعلًا سوقيًا من بعض عامة القرويين المسلمين الأتراك في زمن لاحق، إذ راحوا يطمسون وجوه الرسوم في هذه الكنائس معتقدين أن الرسوم عندما تصير بلا وجوه تغدو ميتة، بينما الرسوم ذات الوجوه والعيون، المفتوحة تحديدًا، كانوا يعتبرونها حية وكل حي من شأن الله وحده.

المسألة إذن سوقية التقدير والفعل لدى بعض العامة، وليست تعليق الذنب على مشجب الكل كما يريد بعض «الخاصة» من علماء «الغرب». هذا إذا انتبهنا إلى أن أول من أرخ لهذه الكنائس المحفورة في الصخور بوادي كبادوكيا هو راهب فرنسي في الفترة من عام ١٩٣٠ إلى ١٩٤٠، وهي فترة كان الغرب يخلط فيها الدين بالدنيا، بوحشية، ليحكم قبضته على مستعمراته الآخذة في التمرد على سطوة استحكامه آنذاك. ما ساءني أكثر هو سماع مزايدات على هذا الأمر من بعض الأدلاء السياحيين أمام زبائنهم الغربيين إذ كان بعضهم يقول ـ وهو ما تردده بعض المراجع أيضا ـ: إن هذا الأمر، أي الاضطهاد الديني، كان من فعل العرب وليس الأتراك. وكأنه بذلك يستقطب الغربيين ناسيا أن الغربي المتعصب هو معادٍ لنا جميعًا ـ بمن فينا

من مسيحيين شرقيين ـ بحكم شراهة مصالحه وتطلعاته الدنيوية الأنانية ومسحة الصهيونية في ثقافة التعصب الغربي.

كنت أتأمل أسى هذا الخلط كله وأنا أمر بلوحات، أو بقايا لوحات، كنائس وادي «جوريما»، وبتلقائية الرغبة في التخفف من هذا الأسى رحت أتذاكر مدلولات الرموز التشكيلية لفترة كان المسيحيون البيزنطيون أنفسهم يحرمون فيها رسم الشخوص البشرية، ولم أر في اللوحات أن هذا التحريم كان مطلقًا فهناك رسوم مع الرموز، مما يعني أن الأمر كان اختيارًا وليس اضطرارًا، والرموز على أي حال تدعو للتأمل حيث:

الحمامة (أو اليمامة): تعني الخصب، والسلام، والحب، والبراءة أو الطهر.

الديك: إذا كان أبيض فهو إشارة حظ حسن، وإذا كان أسود فهو علامة الشر.

الطاووس: انبعاث الجسد.

الأسد: النصر والنجاة.

الأرنب: الجنسية، الشر، السحر.

الكرْم: المخلِّص

النخلة: الجنة والحياة السرمدية

السمكة: الحِواري، الورع

هات المفتاح يا غزال

كان علينا أن نتوجه إلى الجنوب، وإلى الجنوب دائما، لنتفقد ما قرأت عنه معلومات نادرة مبعثرة تحت مسمى «مدن تحت الأرض» في كابادوكيا. واكتشفت أثناء وجودنا في تركيا أنه لا معلومات متاحة أكثر مما قرأت عنه. فتواريخ اكتشاف هذه المدن التحت أرضية حديثة جدًا في عمر اكتشاف الآثار، وهي لم تفتح لجمهور الزوار إلا في منتصف الستينيات والسبعينيات، مثل المدينة التحت أرضية المسماة «أوزكوناك» والتي اكتشفها بالمصادفة مؤذن البلدة لطيف أكار (لابد أنه عكار) عام ١٩٧٢ عندما عثر على مدخلها وهو يعمل في حديقة بيته، وأوكلت إليه الحكومة أمر حماية هذه المدينة التحت أرضية. سرنا جنوبا عبر القرى الجبلية لنبدأ بزيارة مدينة تحت الأرض

في «مازيكوي»، ثم بعد ثمانية كيلومترات غربًا منها نزور «كايما كلي»، وهي تبعد ٧٤ كيلومترًا من أورجوب، ثم «دينكويو» وهي الأكبر والأشهر إذ تبلغ طوابقها التحت أرضية ١٨ طابقا، وبعد ذلك نصعد في اتجاه «زوزكوناك» لنقطع بعدها ٢٥ كيلومترًا عائدين إلى نقطة تمركزنا في أورجوب.

وصلنا إلى «أوزكويو» في وقت ضحى رائق، وأدهشني أن المكان وسط قرية فقيرة وبسيطة من قرى الأناضول، وأمام بيت ريفي صغير من طابقين عشوائيين توقف سائقنا مهميت، ولما رآنا لم نهبط أشار إلى حانوت صغير في الطابق الأرضي قرأت فوقه لافتة مكتوبا عليها بالتركية وبالإنجليزية: «حجز تذاكر مدينة تحت الأرض». وعندما دخلت الحانوت وجدت النداءات تتوهج: «جوزال». «جوزال». كنت أعرف أن جوزال معناها «غزال». وجاءت جوزال! امرأة قروية شابة، وافرة الصحة ومتوردة، ويبدو أنها قدمت على الفور من حقل قريب. قطعت لنا التذاكر وسألتها عما إذا كان هناك مع التذكرة كُتيب إرشادي، فلم تفهم إلا بعد أن التم حولنا جمع من القرية ومن هنا وهناك فهمت أن المطلوب كتاب عن المكان وكلمة كتاب في التركية كما هي في العربية «كتاب». وأشارت غزال إلى «خزانة» حديدية عتيقة في ركن الحانوت تفهمني أن الكتاب هنا وعندما قلت لها إنني أريد شراء كتاب قامت الدنيا في القرية ولم تقعد! بعض رجال البلدة رأوا أنه لا مانع أن نرى الكتاب. البعض الآخر رفض ذلك رفضًا قاطعًا تحت قيادة غزال التي أخذت تردد بانفعال وحزم: «نوكتاب نو كتاب». أما أن آخذ الكتاب الذي يبدو أنه كان نسخة وحيدة، فقد كان الرفض جماعيًا في القرية ومهما كان الثمن، ربما ظنًا منهم أنه نسخة واحدة في الوجود جاء بها ذكر قريتهم وبعض صورها وأخذ هذه النسخة يعني تجريد القرية من صك الاعتراف بها في تركيا وفي العالم! كدت أنهار من فرط الضحك وأنا أستفز غزال، وهي تقود تظاهرة رفض التسليم أمامي، أقول: «كتاب»، فتهتف غزال: «نوكتاب»، ويردد مؤيدوها الكلمة وراءها «نوكتاب». ولم تسمح غزال ببدء زيارتنا لمدينة تحت الأرض في قريتها إلا بعد أن عرفت أننا مسلمون مثلها، فلانت قليلًا مشترطة عدم فتح موضوع الكتاب نهائيًا. وأدركت أن من ائتمنها على حمل مسئولية زيارة هذا الأثر في قريتها كان حصيفًا، فهي مديرة حديدية أمينة بالفطرة، وبالعافية!

أعطت غزال لأحد الرجال القرويين من مساعديها مفتاحًا كبيرًا صدئًا فتح به قفلًا كبيرًا صدئًا في باب قروي متهالك، ودخلنا ممرًا معمولًا من الحجارة ومعرشًا بالخشب والصفيح فكدت أصرخ مصدومًا لكنني بعد خطوتين ابتلعت مشروع الصرخة وكدت أهتف مذهولًا، كان ثمة أعجوبة تستدرجني إلى جوفها السرمدي. وأنا أطيع الإغواء. أمضي من بهو إلى غرفة ومن غرفة إلى أخرى، أهبط درجًا فأصير في طابق أعمق، ومن طابق إلى طابق ومن ممر إلى ممر. وبين الحين والحين تتدفق حزمة ضوء من نفق صاعد إلى السطح، وثمة أنفاق بعيدة الغور أُلقي في أحدها بقلم من أقلامي فلا يأتيني صوت ارتطام القلم بالماء إلا بعد حين مما يقطع بعمق البئر الذي تقدره المراجع بنحو ٧٠ ـ ٨٥ مترًا.

الجو مبترد لكن الهواء كاف وجدران المدينة وسقوفها وأعمدتها كلها محفورة في حجر التوفا البركاني الهش وشديد التماسك في هذه المدينة التحت أرضية والتي تتشابه مع كل مدن تحت الأرض الموجودة في منطقة كبادوكيا والمُكتشَف منها حتى الآن ٣٤ مدينة وكل مدينة مساحتها حوالي ٤ كيلو مترات مربعة!

مدينة تحت الأرض في قرية مازي كويو تتميز بوجود مقابر محفورة في الطبقات الحجرية العليا بطريقة تأخذ أحيانا شكل صفوف من القبور الرأسية وبلغ عددها الإجمالي نحو ٣٠ صفًا وإن لم يُعثر فيها على جثث، وهي منفصلة تمامًا عن العمارة الأساسية للمدينة التحت أرضية.

وفي «كايما كلي» كان عدد الطوابق المفتوحة للزيارة أربعة طوابق، ويربط هذه المدينة بالمدينة التحت أرضية في ديرنكويو نفق طوله ٩ كيلومترات ويسمح بمرور أربعة أشخاص يتحركون جنبا إلى جنب معًا.

أما دير نكويو فهي المدينة التحت أرضية المعتنى بها أكثر في كابادوكيا سواء على مستوى تنظيم الدخول أو توفير إرشادات السلامة والإضاءة الداخلية، بل إن هناك مقصفًا في أحد الطوابق يقدم الشاي والقهوة والمشروبات الباردة وقيل لنا إنه كان في أساس تكوين المدينة مكان الاجتماعات الذي يلتقي فيه القيمون على شئون سكان هذه المدينة التحت أرضية المقدرين بنحو ٢٠ ألف إنسان.

مدينة تحت الأرض في أزكوناك هي أكبر مدن تحت الأرض في كبادوكيا وقد قُدِّر عدد سكانها بنحو ٦٠ ألف إنسان في وقت واحد مع ماشيتهم وطيورهم. وما يميز هذه المدينة أن أبوابها الصخرية الدائرية كانت تُصنع داخلها في مكان لا تزال به آثار هذه الصناعة على عكس المدن التحت أرضية الأخرى التي كانت أبوابها الصخرية الدائرية تصنع في الخارج ثم تدخل دحرجة إلى داخل المدينة. عالم مدن الإنسان القديم التي حفرها في أعماق حجارة التوفا البركانية في هذه المنطقة هي لغز لم تفك معظم طلاسمه ومازالت معظم أسئلته الأساسية معلقة دون إجابة، متى ولماذا وكيف حفرت هذه المدن؟ وكم عدد السنين التي طويت والبشر الذين استخدموا في حفرها؟

إن الدراسات القليلة التي نشرت عن هذه المدن تحت الأرضية تقول بأن بداية العمل كانت تتم بحفر نفق عمودي يبلغ طوله في المرحلة النهائية من ٧٠ إلى ٨٥ مترًا حتى يصل إلى مجرى المياه الجوفية، ومع كل مرحلة يتجه الحفر إلى الأجناب لعمل ممرات وغرف وممرات أخرى ودرج لإنشاء طوابق سفلية جديدة، ومع كل توسع يجري إنشاء فتحات تهوية إضافية. أما التراب المتخلف عن عملية الحفر فيُرجح أنه كان ينقل إلى السطح عبر فتحات التهوية، لكن عدم العثور على تلال تكونت من ركام أتربة الحفر إلى جوار هذه المدن على السطح وضع افتراضًا مؤداه أن أتربة الحفر كانت تُرمى في عمق تيار المياه الجوفية ليجرفها في طريقه ولقد ثبت وجود مثل هذا التيار في أعماق المكان الواصل بين كايماكلي وديرينكويو بطول ٨ كيلومترات وعرض يتراوح بين ٥٠ و٦٠ مترًا.

أما عن أدوات الحفر فهي أيضًا مجهولة وقد وجد رحالة إنجليزي اسمه كامبل تومسون عام ١٩١٠ فأسًا حجرية تعود إلى العصر الباليوليثي الأدنى ـ أي العصر الحجري المبكر للإنسان منذ حوالي مليون سنة ـ في مجرى سيول سوجانلي على بعد ٢٦ كيلومترًا من ديرنكويو، مما يرجح أن الحفر يعود إلى هذا الزمن وبهذه الأدوات البدائية.

لكن تكوين مدن تحت الأرض الكابادوكية لم يكن بسيطًا أبدًا مع ذلك، فنظام

التهوية جيد حتى أعماقه، لدرجة أنني رأيت سائحًا يشعل سيجارة في الطابق السابع تحت الأرض في ديرنكويو وسرعان ما كان الدخان يجري إلى فتحة التهوية ويصعد متلاشيا على الفور. درجة الحرارة شبه ثابتة وقدرها ٧°م عند فتحات التهوية، وبعيدًا عنها تتراوح الحرارة طوال العام بين ١٣ إلى ١٥°م. كما أن هناك نظام اتصال عجيبا عبر ثقوب وأنابيب محفورة من السطح إلى الداخل ومن الداخل إلى الداخل باتساع ١٠سم وامتداد ٤ أمتار في كل وصلة. والمدهش أنه لم يعثر على مطابخ خاصة بكل مسكن بل كان هناك مطبخ واحد عام حتى لا تختنق المدينة بكثرة وتعدد مصادر دخانها ولعل هذا المطبخ العام كان أيضًا لتحاشي كشف موقع المدينة للأعداء عندما يرون أدخنة عديدة تتصاعد من تحت الأرض في أوقات متفرقة. أما دورات المياه فلم يُعثر على أثر لها مما يرجح أنهم كانوا يقضون حاجاتهم إما بالخروج الجماعي في وقت معين من المدينة إلى السطح، أو أنهم كانوا يفعلون ذلك في أوان تغطى وتنقل إلى الخارج، قواعد صحية وقائية مبكرة، عجيبة! لقد شعرت بالابتراد وأنا أتجول تحت الأرض، فتعجبت كيف كانوا يعيشون هنا؟ وجاءتني الإجابة عبر أحد الأبحاث المنشورة التي تقول إنهم كانوا يرتدون خلعات من صوف الحيوانات التي كانوا يربونها والتي اختصوها دائما بالطابق الأول ربما لاعتبارات صحية حتى يتيسر نقل مخلفات هذه الحيوانات إلى الخارج أولًا بأول وبسرعة.

كنت أنحني كثيرًا وأنا أمر عبر ممرات مدن تحت الأرض هذه وقرأت أن ارتفاع الممرات يتراوح بين ١٦٠ ـ ١٧٠ سم. فكم كان طول البشر الذين حفروها؟ لابد أنهم كانوا قصارًا أو متوسطي الطول. ومع ذلك أرجح أنهم كانوا أقوياء إذ رأيت الأبواب الصخرية الدائرية التي كانت تُغلق من الداخل فقط، وهي ضخمة وثقيلة من صخر أصم بسمك أكثر من نصف متر وقطر يتراوح بين ١٧٠ ـ ١٧٥ سنتيمترا ويزن الواحد منها نصف طن. وتحريك صخرة هذا شأنها لابد له من قوة لم أجدها عندي على أي حال عندما حاولت زحزحة إحدى هذه العجلات ـ الأبواب الصخرية، فلم تتزحزح ولو سنتيمترًا واحدًا.

في جدران الحجرات والممرات والدرج لاحظت أن هناك فجوات صغيرة عرفت

أنها كانت مواضع قناديل الزيت التي تضيء ليلا ونهارًا مدن تحت الأرض. انطفأت القناديل منذ زمن بعيد يقدره البعض بالقرن الثامن عندما لم تعد تستخدم هذه المدن للسكنى أو الإيواء وسدت الأمطار والثلوج وما تحمله السيول مداخلها وفوهات مداخنها وقنوات تهويتها وبنى اللاحقون قراهم ومدنهم عليها حتى أعادوا اكتشافها مدهوشين. وكنا نزورها بدهشة أظن أنها ستبقى طويلًا في الذاكرة.

كنز تحت المقبرة

برغم أن الطريق إلى بلدة أفانوس لا يمتد أكثر من ثلاثة عشر كيلومترًا شمال أورجوب، فإن الطريق بدا لي غنيًا وكأنه بامتداد مائة كيلومتر، دروب الجبال المحروسة بالشجر والوديان المفعمة بالخضرة ثم وادي بيريبكلان الذي تحتشد فيه الأقماع أو المخروطات أو المداخن أو الأنصاب الحجرية بشكل يبدو معه الوادي وكأنه غابة تنتصب فيها هذه التشكيلات المصطبغة بلون قرمزي خاص في هذا المكان. فكأنها تهيئة للدخول في مدينة النهر الأحمر والصلصال الأحمر «أفانوس» والتي يرحب بك عند مدخلها صرح نحتي من حجر كريمي ضارب إلى الحمرة يمثل صانعا للخزف يجلس وراء دولابه وبين يديه تتشكل آنية من أواني أفانوس الفخارية الحمراء الشهيرة، وعند قدميه تجلس صبيتان توليانا ظهريهما وهما تنكبان على نول أمامهما تتشكل عليه سجادة من سجاجيد كبادوكيا.

أفانوس بلدة صغيرة تدخلها عبر جسر على نهر يسمى كيزيلير ماك «أي النهر الأحمر» وهو أطول أنهار الأناضول واسمه يطابق واقع حاله لأنه يتماوج بتيار من مياه حمراء أخذت لونها من حمرة التربة المكونة لحوضه ولتربة أفانوس كلها والتي كان ولايزال يؤخذ منها أفضل أنواع الصلصال لصنع الأواني الفخارية والخزف النادر. وبرغم أن أفانوس غارقة في الخضرة وذات طابع قروي أنيق، فإنها في جوهر نشاطها ورشة فنية كبيرة تتوزع أعمالها على كل بيوت البلدة ومصانعها ومعارضها وتجذب أنظار وأقدام العارفين بشأنها من كل أنحاء العالم.

كان الاختيار صعبًا بينما المتاح من الرؤية كثير، لهذا قنعنا بأقرب هذه الورش

إلى الطريق، هبطنا درجًا صغيرًا وسط حديقة صغيرة لما بدا أنه منزل خاص جميل وبسيط، وعبرنا قوس بوابة صغيرة فإذا بنا نهبط تحت الأرض ونوغل في «عالم» من عوالم الفن والحرفة رفيعي المستوى. راجعت الملاحظة التي دونتها من يافطة المدخل «سيرشا ـ الساناتلاري مركزي شيني ـ كيراميك إيما لاتانزى». لم أفهم من ذلك إلا أن المكان مركز لصناعة الخزف تملكه عائلة «سيرشا». لكنني لم أجد عائلة بل وجدت قبيلة، مجموعات من البشر المستغرقين في عملهم حتى بدا أنهم لم يلتفتوا إلى وجودنا. ممرات مطروسة بأرفف لتجفيف المنتجات وهي طينًا عاريًا لا تزال، ثم صالة واسعة انهمك فيه أكثر من ثلاثين فنانًا وفنانة تحت إضاءات خاصة يرسمون الأطباق والأواني، ثم ممر يفضي إلى صالة أخرى يعالج فيها فنانون بالتثقيب رسوما على ورق رقيق، ومكان واسع به أفران كهربائية ضخمة، ولما وجدت أنني سأغرق أو أتوه في هذا العالم الفني التحت أرضي طلبت من يغيثني وعلى الفور أحضروا «إبراهيم توركن» الذي يعمل بالمكان ويجيد الإنجليزية ويجيد نقل افتتانه بالحالة التي يمثلها المكان إلى مستمعيه، وهو افتتان عن جدارة. مضينا مع إبراهيم، يعبر بنا ممرًا ويضيء نورًا فنجد أنفسنا في قاعة ومن قاعة إلى قاعة، معارض واسعة فاخرة تحت الأرض، ثرية ثراء مذهلا بمنتجات الفخار والسيراميك شديدة الرقي تتناغم ألوانها زرقة وتشتعل بالحمرة أحيانًا وتصخب بكل الألوان في أحيان أخرى وتتخلل بعضها عروق الذهب أو الفضة فتغدو من مقتنيات القصور. وكل هذا تحت الأرض! في هذا المكان الذي لا يكف عن الاتساع ويبلغ حتى لحظة زيارتنا ٤٢٠٠ متر مربع يعمل فيه ١٢٠ فنانًا بينهم ٧٦ من عائلة سيرشا التي توارثت المكان والحرفة ـ الفن ـ جيلا بعد جيل حتى وصلت إلى الجيل الشاب الموجود حاليًا.

يقول إبراهيم توركن إنهم ينتجون خزفيات إيزينك الملونة وهي ذات تقاليد تعود إلى منشأ الأتراك في تركمنستان بوسط آسيا. فهناك كانوا يصنعون هذا النوع من الأواني الفخارية الملونة وكانوا يحتفظون بالصلصال مخزنا حتى عشر سنوات ليكتسب صفات نادرة من الصلابة والقوة والخفة وهم هنا يحاولون مواصلة التقاليد ذاتها وإن باختلافات حتمتها المستجدات، فالطبق ـ أو الآنية ـ يشكل من الصلصال ويترك ليجف طبيعيًا

حتى شهرين ثم يجفف في فرن درجة حرارته ٩٥٠°م لمدة ١٦ ساعة ويرسم ويلون ويطلى بورنيش الجلاز الذي يعطيه الشفافية والالتماع ثم يجفف في فرن درجة حرارته ١٠٤٠°م لمدة ١٢ ساعة.

في أبهاء ورشة الفن الجميل التحت أرضية هذه توقفت أمام فنان يعمل في طبق كبير جدًا أمامه، تحت أضواء مركزة، اسمه باهري بولوت ومعنى اسمه بحري الغيمة أو السحابة، وهو اسم معروف في عالم هذا الفن، كان الطبق الذي أمامه بلون الفخار الكريمي العاري وهو يرسم عليه زخارف معقدة متداخلة وثيقة الصلة بالفن الإسلامي والطبق يبلغ قطره ١٢٠ سنتيمترًا وسيدخل به مسابقة الأرقام العالمية.

إن بحري السحاب يستل الزخارف من رأسه دون الاعتماد على أي تصاميم مسبقة، وهو إذا أخطأ يتوقف عن العمل لهذا يستبق الخطأ بالتوقف إذا أحس بأنه سيفقد عمق تركيزه ومن ثم كان حديثنا المقتضب معه يكلفه التوقف ساعة على الأقل حتى يعود إلى التركيز والإمساك بخيوط التصميم الذي في رأسه. يقول إبراهيم توركين إن ألوان مصنوعاتهم لا يدخل فيها عنصر الرصاص ومن ثم يمكن أن يأكل فيها الناس بلا خوف من التسمم البطيء كما في ألوان الأطباق الخزفية الصناعية، ويمسك إبراهيم بطبق ويسكب فيه بعضًا من الكحول ويشعل النار حتى تتلاشى وإذا بالطبق هو هو لم تتغير ألوانه. ثم بعد أن يبرد الطبق يرفعه إبراهيم مرتكزًا على أصابع يده اليسرى من أسفل ويضرب بأصبعه السبابة اليمني على حافة الطبق فنسمع رنينا كأنه رنين أجراس معدنية، فيقول إبراهيم: إذا لم تسمع هذا الصوت فاعرف أن الطبق ليس من فخار «إيزينك».

وعندما تهيأنا للمغادرة قال لي إبراهيم: عندي لك مفاجأة، فهذا المكان كله يقع تحت مقبرة البلدة وقادني إلى سطح الأرض ثم رحنا نصعد التلة التي تمتد تحتها الورشة وكانت هناك المقبرة بالفعل تتناثر شواهدها الرخامية ساكنة هادئة في ضوء الشمس.

كل هذا الفن تحت الأرض، وتحت أرض المقبرة تحديدًا؟ سألت نفسي مدهوشًا من قدرة الإنسان على مواصلة الحياة بإبداع رغم وعيه بفنائه ووجوده المؤقت

المحدود على ظهر كوكب قلِق الاستقرار هائم وهش ومصيره كما مصير سكانه إلى زوال.

إنني أظن أن أفضل ما حصلت عليه في كبادوكيا هو إكباري لأعجوبة الإنسان وخلق الإنسان، ومن ثم الشكر والحمد لله العظيم خالق هذا الإنسان. فبقدر قسوة امتحان الإنسان في مواجهة الطبيعة الجبارة والزمن الأكثر جبروتًا من الطبيعةِ أودع اللهُ في أشرف خلقه سرًا عجيبًا جعله يواجه وعيه بمصيره المتهافت والزائل بالانخراط في تدبير حياته الممكنة والتسامي بها روحًا ونشدانًا للجمال.

لقد ثارت البراكين وخمدت وكان الإنسان في حيرة مع العالم يبحث عن ملاذ دافئ فوجد جوف الأرض الحجري الهش من توفا البراكين يمنحه حرارة ١٥°م يستطيع معها مواصلة الحياة حتى يذوب الجليد، ويستعين في ذلك بخلعة من صوف حيوانه وجرعات من لبنه ولقيمات مما اختزنه تحت الأرض.

ثم إنه ـ هذا الإنسان ـ لم يكتف بمجرد الحياة الملاذ تحت الأرض، بل تحت الأرض راح يرسم ويلون ويغني.

رأيت ما رأيت في أفانوس. وفي مكان اسمه «كراكوش» قضينا سهرة راقية على عشاء طيب. والمكان منحوت أيضًا من حجر التوفا البركانية تحت أرض كبادوكيا، وهو مطعم فاخر دائري التكوين في وسطه خشبة مسرح تصعد وتهبط وحوله رواق دائري يقوم على أعمدة اسطوانية متقنة ذات تيجان مزخرفة، وكل هذا نحتًا في الحجر! وعلى مدار الرواق الدائري تتوالى «البنوارات» التي صفت فيها المقاعد في مستويين يتيحان الرؤية لأكثر من ألف إنسان يأكلون ويشربون في وقت واحد. لكن الخمر والتصوير والحديث بصوت عال كل هذا ممنوع، فالعرض عرض روحي، لدراويش المولوية الذين سيرقصون مع موسيقى النايات والأناشيد المستلهمة من ابتهالات مولانا جلال الدين الرومي.

خبت الأضواء إلا طيف بنفسجي ضعيف فكفت الملاعق عن الرنين، وهمس الهمس، وأخذ في الصعود صوت الناي، وبدأ الدراويش في الظهور كأنما ولدوا

من بنفسجية العتمة الشفيفة أو من مسيل النايات الشجية. ثم راحت بقعة ضوء تظهر وسط الدائرة وتتسع فيما كانت طبول خفية يعلو دقها. وفي غمرة الضوء والإيقاع تجلَّى الدراويش، قائدهم في عباءة سوداء طويلة وعلى رأسه ذلك الطربوش الدقيق الطويل، وهم في عباءات بيضاء من قطعتين وعلى رءوسهم ذات الطرابيش الطويلة المستدقة. وغنى صوت عميق رخيم فكان رقص الدراويش.

إن الدرويش يبدأ رقصته بيديه مكتفتين على صدره وراحتيه على منكبيه ـ الراحة اليمنى على الكتف الأيسر، واليسرى على الكتف الأيمن، ينحني في تحية عميقة بطيئة ثم يصعد ويبدأ الدوران محررًا يديه منزلهما ببطء، ويعود بذات البطء وهو يدور يرفعهما، وعند وصول ذراعيه إلى مستوى الكتف يفتح مرفقيه ويرفع يديه إلى أعلى من رأسه بزاوية مفتوحة قليلًا فيما وجهه يعلو فكأنه وهو يدور يتضرع وتكون التنورة البيضاء قد تحولت إلى دائرة واسعة وتهدأ الموسيقى فيستمر الدوران على ذات الوضع حينا، ثم تسكت الموسيقى فيخفت دوران الدرويش وهو يعود إلى تكتيف ذراعيه كما بدأ، وتنغلق التنورة المفتوحة ملتمة على جسم الدرويش النحيل فكأن شراعا يُطوى على نفسه معلنا عن خاتمة الإبحار. ويعلو الغناء فينحني الدرويش بعد الجمود ويصعد في بطء خاشع فيما لا أميز من كلام الغناء المأخوذ من أشعار مولانا جلال الدين الرومي باللغة التركية غير: «أشكر ربي». وأميز أيضا، وبالطبع: لا إله إلا الله.

ثم تخفت الأضواء لتعود العتمة البنفسجية الشفيفة التي ينسلّ عبرها الدراويش، فكأنهم لم يكونوا في المكان أبدًا، أو أنهم طيف عبر، أو حلم تلاشى.

يدوم فضاء الظلمة البنفسجية حينا، والمسرح خال، الألف إنسان ـ مسلمين وغير مسلمين ـ يلبثون على صمتهم كأنهم في جمدة، فتفيض عيني وتنشد روحي: «أشكر ربي. أشكر ربي. لا إله إلا الله».

باكستان (كراتشي)
مرفأ يبحث عن مرفأ

العاصمة الأولى للدولة الباكستانية عند قيامها منذ خمسين عامًا، وأكبر المدن، وأهم الموانئ. تقول الأسطورة إنها ولدت من رحم الطوفان، ويقول واقعها إنها لاتزال تصارع الطوفان، طوفان الزحام، والمفارقات، والبحث عن مرسى.

ناولت (عياشة) القفل مفتوحًا لزوجها (معين الدين محمد) فوضعه بين كفيه وراح يوشوشه وكأنه فرخ صغير، ثم شك القفل في أحد أسلاك شبكة النافذة وسط عشرات الأقفال الأخرى المعلقة، وأغلقه، ووقفت عياشة لصق معين الدين وراحا معًا يرفعان أكفهما بالدعاء، متشفعين ببركة صاحب المقام العالي المحلق فوق قمة الهضبة التي تعلو سقف القبو فوق رأسيهما (الشيخ عبد الله غازي).

ما الضائقة التي كان يضرعان إلى الله أن يفرجها عليهما؟ لقد تصورت لصغر سنهما وقدهما أنهما لم ينجبا بعد سنوات عديدة من الزواج، لكنني بعدما سألت معين الدين وهما في طريق الانصراف، أخبرني أن لديهما أربع بنات، وهما يريدان ولدًا، ثم إن (الظروف) تضيق عليهما وعلى الناس وهما يضرعان إلى الله ألا تضيق أكثر. فهو موظف صغير في إحدى بلديات إقليم السند الداخلية، وسياسة (التقليص) التي بدأت تنتهجها الحكومة تلبية لتوصيات البنك الدولي طالبت اثنين من أشقائه بالتسريح من وظيفتيهما، وهي على وشك أن تطاله.

عياشة سمراء خجلة ترتدي (شلوار قميص) ملون وتداري أسفل وجهها عند النظر إليها بوشاح من لون الثياب نفسها تلفه حول عنقها وتسدله على كتفيها. ومعين الدين

نحيف وأسمر ويرتدي مثلها (شلوار قميص رجالي). ولقد جاء مع زوجته بالباص من داخل إقليم السند إلى كراتشي لينضم إلى المسيرة الحاشدة التي ستقودها (بي نظير) بعد يومين للاحتجاج على سياسة تسريح الموظفين والعاملين بالحكومة. وهو انتهز الفرصة وأحضر زوجته لقضاء يومين معه في كراتشي، وجاء أولا للتبرك والدعاء والنذر للشيخ (عبدالله غازي)، أن يفرجها الله وأن يرزقهما بالولد.

«عبد الله غازي مزار»، أو مزار الشيخ عبد الله غازي، أسطورة باكستانية تربض فوق تلة مرتفعة في منطقة كليفتون. ضريح ومسجد صغير يتسنم القمة عابقًا بزخم عمارة المساجد الآسيوية المزركشة، بلون فيروزي وزخارف وآيات وأدعية مختلفة الألوان تزين حوافه. وثمة درج عال ذي طريقين يصعد مفروشًا بسجاد أحمر متسخ، إلى اليمين طريق الصعود وإلى اليسار طريق الهبوط. والمكان محاط بحوانيت صغيرة مرتفعة كأنها صناديق مُعلّقة يجلس داخلها أصحابها متربعين كما في حوانيت شبه القارة الهندية كلها.

والبضاعة التي تطل من الحوانيت وتكتنز بها دواخلها هي لوازم الزيارة والزوار، حبيبات بخور داكنة وسكاكر بيضاء مدورة وأقفال، وورود حمراء وهدايا من الثياب والصور والآيات. البخور والسكاكر يحملها الزوار معهم بينما يقرأون الفاتحة لصاحب المزار ويرفعون إلى الله أدعيتهم متشفعين ببركة الشيخ عبدالله غازي، يتركون ورودهم على قبر الشيخ الذي يتلمسون حواف قبره، وينحنون عليه وهم يتمتمون غائبين عن الدنيا بأدعية لإصلاح أحوال الدنيا ثم يهبطون ماسحين على صدورهم راضين مستبشرين بالقبول، وثمة من يعمق الرجاء بالهبوط إلى القبو، أسفل المزار. ثم يشقون طريقهم الضنينة جميعا ليخرجوا عبر زحام المتسولين والدراويش الحفاة وذوي العاهات والمجاذيب وأصحاب الطبول ذوي الثياب الصفراء الفاقعة البراقة والعمائم، يهدون البخور والسكاكر التي حلت عليها البركة للأهل والأحباب والجيران. وينتظرون الفرج.

جبل على الماء

ثمة أعجوبة ترقد أسفل هذا الضريح في قبو الأقفال الذي التقيت فيه بعيّاشة ومعين الدين، فالتلة أو الجبل الصغير الذي يرتفع قرابة ثلاثين مترًا يجري تحته نهير صغير

أطللنا على رقرقة مياهه من وراء البوابة والسياج المعلقة في مشبكاتهما مئات الأقفال. كيف تتعلق الهضبة العالية فوق المياه. لابد أن هناك تفسيرًا علميًا عصريا له صلابة الجيولوجيا وإيحاء الجسور.

لكن هذه الصورة المثيرة للدهشة ولدت أسطورتها القابلة للتصديق في الواقع. فمعروف أن كراتشي تقع في منسوب منخفض عن سطح البحر. فكيف لم تغرقها مياه البحر؟

ويجيب عن سؤالي أحد دراويش المزار:

إن الذي يرقد على قمة جبل يجري من تحته الماء، بركته ـ بمشيئة الله ـ تحمي أرض كراتشي من إغارات الماء!

وليست أسطورة الشيخ غازي وحدها هي التي تفسر صمود كراتشي أمام البحر، فثمة أسطورة أخرى أقدم وتعود إلى حضارة (الأندوس) التي سادت منذ ٤٠٠٠ عاما وكانت في ذروة ازدهارها في الفترة من ٢٥٠٠ إلى ١٥٠٠ قبل الميلاد، وهي حضارة وديان عرفت الزراعة المؤسَّسة على مياه نهر الإندوسي الذي يتدفق بالماء الناتج من ذوبان الثلوج فوق الهيمالايا ويصب في البحر العربي مكونًا دلتا خصبة، وتقول الأسطورة إنه في زمن الطوفان حملت فتاة اسمها كولاتشي إبريقا من الماء العذب وشقت مياه البحر وتضرعت إلى الله أن يرفع البلاء، فانقطع الطوفان وصعدت تحت قدميها الأرض التي روتها بعذب الماء من إبريقها، صارت الأرض كراتشي بعد تحريف الاسم مع مر السنين، وحفرت مياه البنت مجرًى للأنهار العذبة التي مازالت تفيض في هذه المدينة الواقفة على حافة البحر.

الغريب أن الأسطورة تقول بميلاد كراتشي من قلب الطوفان، والواقع القريب تاريخيا يقول مايشبه ذلك.

ففي السنوات الأولى من القرن الثامن عشر الميلادي ضرب إعصار عنيف دلتا السند الواقعة بمحاذاة ساحل البحر العربي، على مبعدة ١٦ ميلًا شرق كراتشي التي كانت مجرد قرية صيادين هاجعة في منعطف من الساحل. ودفع الإعصار ـ مع بعض

من دُفع التماسًا للأمان ـ بالتاجر الهندي الكبير (سيت بهودج مل) إلى الاستقرار في منطقة من كراتشي لم يطلها الإعصار، تدعى كيمار بندر، ومنها عاود نشاطه التجاري الذي جذب الكثيرين من التجار الهنود الكبار فصارت كراتشي مرفأ تجاريًا مهما في شبه القارة الهندية كلها، ومركز جذب للتبادل التجاري مع بلدان الخليج العربي، ومحطة مهمة على طريق الحرير واللؤلؤ.

ومثلما يثير بريق الذهب أطماع المغامرين واللصوص، أثارت كراتشي المزدهرة شهوات الامتلاك بين (حكماء) السند التي تمثل كراتشي مركزها وإن لم تكن عاصمتها آنذاك، وبين (حكماء) البلوش من الجوار، ودخل (حكماء) الكلهور ذوو الأصول العربية على خط هذا التنافس. وفي صراع (الحكماء) ضاعت الحكمة، وتحيرت كراتشي، فقفز الإنجليز عبر أطماع إمبراطوريتهم التجارية التي تمثلها شركة الهند الشرقية.

في عام ١٨٣٥ ميلادية تغلغلت الجيوش البريطانية الاستعمارية في منطقة السند وهي تتجه نحو أفغانستان لكنها لم تستطع إخضاع كراتشي. فعاود الإنجليز الكرَّة مع استخدام الحيلة، ففي ٧ فبراير عام ١٨٤٣ زعم السير تشارلز نيبور أنه يقصد إقليم السند للسياحة والترفيه. لكنه أوعز للكابتن البريطاني (باريدي) بتجهيز جيش لقهر أمراء كراتشي. وأفلح في ذلك باستخدام ٣٠٠ جندي أخضعوا كراتشي بعنف بنادقهم لتقع في أسر شركة الهند الشرقية ذات الطابع العسكري الاستعماري، وعندما وقعت السند بكاملها في قبضة الإنجليز نقلوا عاصمتها من حيدر آباد إلى كراتشي، وتحت ظلال البنادق الاستعمارية البريطانية راحت كراتشي تتمدين بتألق مقهور لم نر من بقاياه أثناء زيارتنا غير آثارٍ منطفئة في قلب المدينة.

مجيء الريح.. وذهابها

ماذا ترك الإنجليز في كراتشي؟

سؤال راودني باستنكار وأنا أجول في قلب كراتشي. في منطقة الأسواق المسماة صدر أو كما ينطقونها (سادار). منطقة محتقنة بالمركبات والبشر. كل أنواع المركبات

وشتى ألوان الثياب التي يرتديها البشر. شوارع تجارية واسعة تفضي إلى أطراف ضيقة الأزقة مكتظة بالناس وبضائع الأرصفة.. ملابس، أحذية، جلديات، مصنوعات نحاسية، توابل، إلكترونيات، أقراص مدمجة. مطاعم على عربات تحمل أواني ضخمة من النحاس (المبيض)، بلون القصدير ورائحة الكاري تفوح من الأواني فوق المواقد السيارة. وثمة باعة للفاكهة، خاصة الموز والشمام الذي يتناولونه مع وجبة الإفطار.

إن منطقة صدر أنشأها الإنجليز منذ خمسين عاما لتكون مركزًا تجاريًا يخدم الذوق الإنجليزي، وبدأت مجرد صف واحد من المتاجر الإنجليزية ذات الطراز الفيكتوري في شارع كان اسمه طريق فيكتوريا. صار اسم الشارع (طريق زينب)، ولم يتبق من المتاجر فيكتورية الطراز غير أطلال، جدران بلا نوافذ ولاسقوف تطل السماء من فجواتها وتنتظر الهدم لتقوم بمكانها مراكز تجارية متعددة الطوابق من الأبنية الحديثة العملية التي لايعنيها نسق العمارة كثيرًا فالمهم هو السوق. سوق نشط برغم الزحام ومستوى الدخل المنخفض للفرد، والعنف الكامن في كل ركن والذي تكشف عنه ظاهرة الحراس المسلحين بأزياء وأسلحة مختلفة، حكوميين من الشرطة وأهليين من القطاع الخاص. مظهر لافت وباعث على التوتر وعدم الشعور بالأمان برغم أنهم واقفون في أماكنهم بهدف الأمن والأمان، أمام كل محل وفي داخله، وعند مدخل البنايات، وفي زوايا الطريق، رجال وبنادق، كأن طريق فيكتوريا غادرته حراب الإنجليز ليصير طريق زينب فتحل به البنادق المحلية.

يتوقف نظري كثيرًا عند إطلال الأبنية الفيكتورية الزائلة، وأفكر في أنها برغم أبهتها الزائلة قد أقيمت بالقوة، ولو القوة المكتومة، لهذا تزول بالقوة وبإهمال الزمن والناس.

لقد أدخل الإنجليز نظام البلديات الإنجليزي، وأنشأوا صحفا تصدر بالإنجليزية، ونقلوا عاصمة السند من حيدر آباد إلى كراتشي. لكن ذلك كله تم سحقه في طاحونة الزحام والعنف الذي ربما يكون الاستعمار الإنجليزي هو واضع أول بذوره.

ففي روح التجارة شراهة وعنف، والصحف التي تصدر في كراتشي بالإنجليزية تتكلم وتصور العنف بعنف، واجتياح الطابع الخاص ـ أي طابع ـ يتم بعنف. حتى وإن بدا هذا كله عنفًا كتيمًا. يستدعي نقيضه في أحيان كثيرة.

لا أحد يعرف عدد سكان كراتشي على وجه التحديد، فالرقم يتراوح بين ١٠ ـ ١٨ مليونًا كما تزعم مصادر عدة. والمؤكد أنه أكثر من عشرة ملايين نسمة. أما مساحة كراتشي فهي مساحة دائرة قطرها ٥٠ ميلًا. وهي مساحة شاسعة، وقابلة للاتساع على حساب الصحراء المترامية في إقليم السند، لكن شيئا ما يدفع البشر للتكوم في أماكن بعينها في مركز المدينة وفي الأطراف عشوائية البناء. وأشعر بالرغبة في الخروج من ربقة الزحام ومن قبضة الأرض المنخفضة فيشير عليَّ خالد يوسف الذي نذرته لنا القنصلية العامة للكويت في كراتشي دليلًا ومستشارًا من أبناء البلد بالذهاب إلى منطقة (هيل بارك) في الشمال الشرقي من كراتشي، ثم الهبوط منها باتجاه الشمال الغربي نحو (مزار قائد أعظم).

الطريق إلى بستان القمة كان يمر بأهم وأحدث وأغنى شوارع كراتشي، (شارع فيصل) الذي يحمل اسم ملك المملكة العربية السعودية الراحل. وهو شارع حديث تنتصب على جانبي مساريه الواسعين عمائر حديثة تتمركز فيها المكاتب التجارية والخدمية وتحف برصيفيه الأشجار والخضرة وهو الطريق نفسه الذي سلكناه قادمين من مطار كراتشي الذي يحمل اسم مؤسس الدولة الباكستانية محمد علي جناح أو (القائد الأعظم) كما يسمى في باكستان.

قصدنا ربوة مرتفعة عبر شوارع تتلوى صعودا بين صفوف من الڤيلّات الأنيقة، وكانت أناقة الڤيلّات لا تُخفي عدم الشعور بالأمان، فهي تبالغ في وسائل تأمين نفسها. حرس مسلح أمام كل بوابة حديدية يتم التحكم في معظمها إلكترونيا من الداخل، ومشبكات حديدية مزخرفة تحرس النوافذ والشرفات، وأسلاك شائكة فوق الأسوار العالية وأحيانا أسيجة حديدية ذات حراب مدببة فوق الأسوار الخرسانية.

مظهر ينبئ عن الكثير من افتقاد الأمن الذي معناه بالأوردية الباكستانية أيضًا (أمن)، ويذهب بكل روعة هذه البيوت. لكن مواصلة الصعود تمنح مزيدًا من الشعور بالأمان وسط الدرج الصاعد بين الأشجار وأحواض الزهور ومساحات الخضرة المشرقة ومسابح الإوز ومساقي الطيور ذات الكثرة الملحوظة في أجواء كراتشي وباكستان

عمومًا والتي تجعل من هذا البلد مقصدًا لهواة الصيد الأثرياء في موسم الخريف عندما تتجه طيور الشمال البارد نحو دفء الجنوب في منطقة السند.

ارتقينا منصة دائرية مرتفعة فكانت كراتشي كلها تنكشف للبصر من الأفق إلى الأفق، مدينة شاسعة تطل على البحر العربي، تكثر فيها المآذن وتغمرها الخضرة، لكن ضباب العوادم من زحام شوارعها يتصاعد مع ضوضاء المركبات ليغشى أطرافها ويبلغ أسماعنا برغم الارتفاع. مدينة متضخمة كالقاهرة لكنها لاتتسم بطابع خاص أو روح مميزة.

ومن حديقة القمة هبطنا فكانت الضوضاء تعلو وعوادم المركبات تختلط بالهواء الذي نتنفسه، لوريات، باصات، سيارات خاصة، عربات (ريكشا) بدراجات نارية، إضافة إلى ماتجره الجمال والخيول والبشر، ثم خف الزحام فجأة، واتسعت الطرق، وتجلى فوق مرتفع من الخضرة الضريح الأبيض اللؤلؤي الذي يضم جثمان مؤسس الدولة الباكستانية.

في الحديقة الواسعة الصاعدة نحو الضريح المتربع على القمة تنساب موجات من الزائرين من أبناء البلد، تلاميذ مدارس يتجهون صفوفا لصعود درج الضريح، وأسر كاملة، وشبان، وعجائز، فالضريح تحول واقعيا إلى مزار من مزارات الأولياء وليس مجر بناء تذكاري لقائد سياسي.

درج مرمري واسع يصعد نحو رحبة واسعة من الرخام يقوم في مركز بناء الضريح ذي الأضلاع الأربعة والأبواب المقوسة التي تذكر بطعم العمارة في الشمال الإفريقي ثم القبة التي تتوسط سقف البناء، وذلك كله في كساء من الرخام الأبيض الذي يتألق في ضوء الشمس.

في الساعة العاشرة دوى النفير الذي رددت أصداؤه جنبات المبنى المرمري، وقت تبادل نوبات الحراسة للجنود في قمصانهم السماوية وبناطيلهم الرمادية والبنادق على الأكتاف والبيريهات الكحلية على الرءوس. جنود الحرس أمام باب الضريح، وداخل أركانه الأربعة، وفي وسط البناء يتمدد القبر الرخامي لمؤسس باكستان محمد علي جناح يحيط بالقبر سياج من الفضة يتكئ عليه الزوار ضارعين قارئين الفاتحة لصاحب

المقام ورافعين أدعيتهم إلى الله عبر وجوه الرجاء التي يرفعون صفحتها الضارعة إلى الله. السقف البعيد مستدير وسماوي اللون وتبدو الجدران كأنها تنسدل منه وثمة ثريا هائلة من الكريستال تتدلى من مركز السقف يقال إنها جُلبت من الصين.

محمد علي جناح الملقب في باكستان (القائد الأعظم) أو (أبو الأمة الباكستانية) ليس مجرد رمز سياسي، بل هو رمز ديني أيضًا، وهما رمزان لايمكن فصل أحدهما عن الآخر كأنهما وجها عملة واحدة. فالديني والسياسي امتزجا معًا منذ بدأ السعي نحو استقلال باكتسان والتي تعني (الأرض الطاهرة) بعد ورودها في قلب قصيدة لشاعر باكستان الأكبر الراحل (محمد إقبال).

أقرأ الفاتحة وأدور في رحاب الضريح الباعث داخله الرحب على الشعور بالسلام والارتياح، وألاحظ شيئا يذكرني بتقاليد عمارة الصروح المغولية التي رأيتها في تاج محل ومدفن الإمبراطور (أكبر) في الهند. فعندما تقف عند رأس القبر وتنظر عبر الباب تكتشف أن هناك خطا واصلًا ممتدًا من الشاهد، إلى الباب، إلى الساحة، إلى الدرج، إلى المدخل، وينتهي عند الأفق السماوي. كأنها إشارة معمارية لطموح الروح إلى التحرر والصعود نحو السماء.

وأتذكر شيئًا من تاريخ سعي محمد علي جناح، الذي لاشك كانت لديه دوافعه الصادقة، وكان يعبر عن أشواق قطاع كبير من المسلمين في شبه القارة الهندية تحت نير الاستعمار البريطاني.

في الثالث والعشرين من مارس عام ١٩٤٠ وبينما كانت الهند كلها مستعمرة بريطانية، وكانت السلطات البريطانية كعهدها دائما تنتهج حيلة (فرق تسد) المعروفة عن الاستعماريين الإنجليز، كانت هناك تفرقة وكانت هناك معاناة للمسلمين. ونادى محمد علي جناح في هذا اليوم بقيام وطن مستقل لمسلمي شبه القارة الهندية.

كان محمد علي جناح ابنًا من أبناء كراتشي، محاميًا درس المحاماة في إنجلترا، ورئيسا لحزب (رابطة كل مسلمي الهند). وجه كفاحه لتحقيق مطلبين متلازمين هما الاستقلال وخروج الإنجليز مع إنشاء كيان إسلامي خاص بالمسلمين. وتحقق له ما

أراد بعد أمواج من التمرد على الاستعمار الإنجليزي من كل أبناء شبه القارة الهندية، بعضها نبع من سياسة التمرد السلمي كما لدى غاندي وبعضها لم يكن كذلك. وفي ١٥ أغسطس ١٩٤٧ أُعلن استقلال الهند وفي الوقت نفسه استقلت باكستان بشطريها (الشرقي الذي صار بعد حرب الانفصال عام ١٩٧١ بنجلاديش والغربي الذي تمثله الآن باكستان) وكانت كراتشي هي العاصمة الأولى للدولة الباكستانية واستمرت عاصمة لباكستان بعد انفصال بنجلاديش لكن في ٢٨ أكتوبر ١٩٥٨ قرر المارشال محمد أيوب خان نقل عاصمة باكستان من كراتشي إلى مدينة حديثة الإنشاء هي (إسلام آباد)، والتي لاتزال عاصمة لباكستان.

لقد ترافق قيام باكستان بحدوث فيضان هائل من البشر النازحين. أمواج وراء أمواج من البشر، على الأقدام والدراجات، والدواب، والعربات، ومعهم متاعهم الذي استطاعوا حمله في هذا النزوح الدراماتيكي. ١٥ مليون إنسان أتموا نزوحهم في غضون بضعة أسابيع. المسلمون اتجهوا نحو الأرض التي صارت باكستان والهندوس خرجوا من هذه الأرض. ولابد أن كراتشي شهدت الزخم الأكبر من موجات هذا النزوح.

قاد محمد علي جناح البلد الذي حلم به فترة وجيزة، ولم يمهله العمر ليرى صعود حلمه، إذ مات متأثرًا بمرض السل، وتحول بعد موته إلى رمز ديني كما هو رمز سياسي.

لكن يبدو أن هذه اللُّحمة بين الوطن والروح لم تواصل مسيرتها برغم أن لافتات معظم الفرقاء السياسيين في باكستان اليوم تدعي أن سعيها في الدنيا هو نصرة للدين. حتى وسط أحياء المهاجرين الأفغان التي تترامى أكواخها على مشارف كراتشي وهم يقدرون في باكستان بنحو ٣,٣ مليون مهاجر، جاءوا فرارًا من نيران المتحاربين على حكم الدنيا بدعوى الدين، وحملوا معهم ضمن ما حملوا بعضًا من دعاوى المتحاربين هناك وبعضًا من سلاح هؤلاء المتحاربين وكثيرًا من مخدراتهم. ولقد رأيت المخدرات على الأرصفة بين أيدي الصبية المشردين البؤساء، الباكستانيين والأفغان معا، وبقرب المنزل الذي وُلد فيه محمد علي جناح في منطقة (دار الوزير).

أُعلن في كراتشي يوم ١٦/ ١١/ ١٩٩٧ عن مسيرة تقودها (بي نظير) بوتو للاحتجاج على سياسة تقليص الوظائف الحكومية التي انتهجتها حكومة نواز شريف أخذًا بتوصيات البنك الدولي. وكانت هذه فرصة لرؤية (جولة) كبيرة من جولات المنافسة بين الفرقاء السياسيين في باكستان. برغم أن الأيام القليلة السابقة كانت مثمرة في هذا الجانب وإن بتعابير أقل حجمًا. رأينا في عدة أيام خمس تظاهرات مختلفة، وثلاثة اعتصامات، وأربع حوادث طريق مصبوغة بالدم، كما أننا كنا قاب قوسين أو أدنى من حادث الاغتيال الذي وقع صباح يوم الأربعاء ١٢ نوفمبر ١٩٩٧ وراح ضحيته أربعة أمريكيين وسائق باكستاني في سيارة على (جسر العشاق)!

الجسر يسميه الناس (جسر العشاق) لأن عاشقًا (وربما أكثر) ألقى بنفسه من فوقه ليلقى حتفه بعد أن خذله الحب ويئس من الوصال أو سئم الوصال!

الغريب أنني وزميلي سليمان حيدر كنا قد توقفنا في مكان الحادث قبل سويعات من وقوعه، فعند قمة الجسر الذي لايبعد إلا خطوات عن الفندق الذي نزلنا به (وكان ينزل به اثنان من الضحايا أحدهما تذكرت أنه كان يتناول معنا الإفطار)، أحسست بانقباض نفسي غامض، ربما من جهامة منظر شريط القطار المهجور تحت الجسر وغابة أوناش الميناء التي تلوح في الأفق، وكثافة الحدأ والغربان المحلقة في سماء المنطقة، وربما كان ذلك الانقباض مبعثه الإحساس الغامض بوجود الجناة أو طلائعهم في المكان، لقد قلت لسليمان حيدر: «كفاية هنا.. المكان مريب.. نرجع» ورجعنا لتفاجئنا الأنباء في اليوم التالي، في جميع الصحف ونشرات التليفزيون المحلية والعالمية، تعلن عن حادث الاغتيال. وكاد الفندق يخلو علينا بعد ذلك إذ كان كثيرون من الأجانب يحزمون حقائبهم ويغادرون كراتشي.

في اليوم التالي لوقوع الحادث على الجسر أردنا أن نذهب إلى مكان يسمى (المغسلة)، ورفض السائق (محمد سليم)، رفضًا قاطعًا دخول هذه المغسلة خوفا من الخطر الذي يمكن أن نتعرض له هناك في هذا اليوم المتوتر، وقال إن المكان وما حوله هو بؤرة يكثر فيها اللصوص والقتلة والسلاح والهيروين. لكننا في يوم آخر استطعنا دخول المغسلة

مع سائق اسمه (محمد فاروق) ويبدو أن الباكستانيين معظمهم يتسمى باسم محمد أولا ويضيفون بعد ذلك اسما ثانيا للتمييز.

كانت المغسلة في طريق عودتنا من حي قاطعي الرخام. عشرات بل مئات الورش تعمل دون انقطاع في تقطيع الرخام وصقله وخرطه في أشكال جميلة عديدة وبألوان رائعة كونتها في الطبيعة يد القدرة. ورش يدأب فيها البشر وشوارع صغيرة وأزقة لاتكف عن الكدح بشرف. وفي المغسلة كان الكادحون هناك أيضًا برغم أن التيارات الباطنية للجريمة كانت تفوح رائحتها في بؤس المكان، شريط واسع على شاطئ نهر أو مصرف عكر المياه، نطل عليه من وراء سور عند مرتفع الطريق فنجد ورشة غسيل بدوي هائلة وساحة (لمناشر) الغسيل ترفرف على حبالها قطع الملابس والملاءات البيضاء على امتداد قرابة ثلاثة كيلومترات.

هبطنا إلى المغسلة، رائحة لاتطاق، ومياه قذرة ينظفون بها ملابس قذرة، ينقعون الملابس في أحواض أسمنتية، ثم ينقلونها إلى مصاطب أسمنتية يضربون عليها الغسيل لينفض أوساطه، ثم يشطفون ما ضربوه بمياه جديدة أقل ما يقال فيها إنها عكرة، ومع ذلك تصير الثياب أنظف. لكنه حد من النظافة بائس لايقنع غير البؤساء، والظاهرة كلها على أية حال بائسة، فعدة غسالات حديثة يمكن أن تقوم بالعمل المضني الذي يقوم به هذا الجيش من البشر. لكن يبدو أن هذا الجيش من البشر أرخص من بضعة آلات للغسيل.

بؤس المغسلة ودروبها الموحلة وأكواخها وفساد هوائها يمكن أن يأوي الكثير من الإجرام واليأس، لكنه يأوي أيضًا بشرًا يكدحون حتى العظام. والحي المحيط بالمغسلة نفسه يوحي بهذه الظاهرة، البؤس الذي يمكن أن يولد كل شيء، ابتداء من الانكسار حتي الانفجار. فالباطن يحوي ما يحوي، وفي الوقت نفسه يوضح الظاهر كد البشر المحيطين بالمكان، صانعو الأحذية والصنادل اليدوية الملونة، والرسامون الشعبيون الذين يزخرفون كبائن وصناديق السيارات بألوان زاهية، وميكانيكيو السيارات المهرة، والمعلمون والتلاميذ الضامرون الذين ينجزون العملية التعليمية في مدارس كأنها علب الصفيح، وتجار الجمال في سوق الجمال قرب ضفة النهر، وباعة سوق البلح ورواده.

وفي ثنايا هذا كله يمكن أن نتوقع وجود سوق السلاح والمخدرات وأوكار الإجرام

الذي يتقمص رموزه صورة الدعاة في كثير من الأحوال. هذه الحركة الدائبة المتقاطعة والمتعارضة والمتواجهة لنشاط البشر في السر والعلن، تشي بها حالة المرور في شوارع الأسواق (البازارات)، فالزحام الخانق لا يعيق المتحركين في كل الاتجاهات، وفوضى المرور لا توقف المركبات التي من كل نوع، باصات حديدية مزدحمة أجوافها القاحلة بالركاب الفائضين عبر الأبواب لكنها مزخرفة بالألوان حتى آخر ميلليمتر من جسمها. وعربات نقل وسيارات تاكسي وسيارات خاصة فارهة وعربات تجرها الجمال وأخرى تجرها الخيول وثالثة يجرها البشر.

ولا أحد يتوقف

الشيء نفسه رأيناه عندما ذهبنا لرصد ملامح تظاهرة (بي نظير بوتو) في ضحى ذلك اليوم المكرر من أيام كراتشي.

ولو.. الحرية أفضل

- السلام عليكم
- وعليكم السلام
- هل ستبدأ من هنا؟

تحية وسؤال كررناه على تجمعات بشرية كثيرة مدججة باللافتات والصور ومكبرات الصوت، تتهيأ للحركة في ذلك الصباح المشمس من أيام شتاء كراتشي. لكن الإجابات كانت تنبئنا أن هناك أكثر من تظاهرة ومسيرة. وكان رجال الأمن الرسميون في كل مكان، بملابسهم وخوذاتهم وهراواتهم وبنادقهم ومدافعهم الرشاشة وبعضهم يبدو من القوات الخاصة يرتدون ملابس مموهة ويتدرَّعون بالقمصان المضادة للرصاص.

كأن هناك حالة حرب، وساحتها باتساع كراتشي، بدءًا من مزار قائد أعظم حتى ساحة البرج (تاور) التي تأكدنا أن مظاهرة بوتو ستبدأ منها. وكان هناك من نصحنا بالابتعاد عن المنطقة وعن الحدث لأن التظاهرات يمكن أن تتحول إلى أعمال

عنف في لحظة. لكن جاذبية المشهد كانت أقوى من دفع الخوف، وأوغلنا في ساحة الوغى.

كانت (بي نظير) ستصل من الخارج في الصباح الباكر وتأتي مباشرة لتتقدم المتظاهرين، وبغض النظر عن تحفظات كثيرة لدى الناس على (بي نظير) وزوجها القابع في سجون الحكم الحالي بتهم الفساد السياسي والاقتصادي، فإن المشهد كان يؤكد الحالة الديمقراطية، فالمتظاهرون وبعضهم يعلق صورة (بي نظير) في شارة على صدره، جاءوا من داخل إقليم السند بالباصات، أرتال من الباصات، مئات بل آلاف الباصات المزخرفة كالعادة وعلى سقوفها حشود البشر ومنهم نسوة اعتلين سطوح بعض الباصات، فالباصات لها سلالم تصل إلى السطح. وتتناثر أرتال الباصات مثل قوافل من المراكب بين أمواج بحر من البشر، لافتات ملونة وهتافات شتى. والمتظاهرون رقاق الحال وفقراء معظمهم، وفي زحام الحشود يدور بائعو العصير وبعض الفاكهة وينتشر عند الزوايا بائعو البابر، وهو نوع من رقائق تشبه البطاطس الشيبس لكنها مصنوعة من العدس ومعبأة في أكياس كبيرة من الجوت وعلى الأرصفة تنتشر آلات ضخمة متنقلة لعصير القصب.

حفنة من رقائق البابر لملء فم أو فمين، وكوب من عصير القصب، مع حبة برتقال أو إصبع موز أو بدونها، هذا هو كل زاد اليوم الطويل الشاق.

تأملت رقة حال المتظاهرين الغالبة، وتواضع الزاد، ومشقة الرحلة وضنى ماينتظرهم من احتمالات الإعياء أو الخطر، ومع ذلك!

مع ذلك تظل الديمقراطية هي العزاء الأكبر حتى في البؤس، بل لعل حرية التصريح والتلويح بما في النفس تكون أهم من الطعام، فبعض الطعام يكفي زادًا للاحتجاج.

لم تكن (بي نظير) قد وصلت قرب الظهيرة، وسألت أنصارها فعرفت أن أمامها ساعة أو ساعتين، فاخترت أن أذهب لقضاء الساعتين في تلافيف المنطقة المحيطة (بتاور) في الجانب الآخر من شارع البنوك الوسيع الباذخ ذي الأبنية الحديثة الفخمة، والأسفلت النظيف الذي تقطعه السيارات متمهلة بين تدفقات المتظاهرين المتجهين نحو الميدان.

المنطقة تذكرني بشوارع المحلة الكبرى، حيث مصانع النسيج الصغيرة وورش الملابس الجاهزة والمصنوعات الجلدية، من هنا تنطلق إبداعات الأسطوات الباكستانيين إلى أفخم متاجر العالم، فالأنسجة القطنية الباكستانية تعد أرقى من مثيلاتها حتى في دول متقدمة وكذلك الجلديات إضافة لرخص الأسعار التي يخفضها رخص اليد العاملة، وتواضع أسعار المواد الخام.

مصانع وورش لاتتوقف حتى أن هناك نوعا من توصيل الطعام من البيوت إلى الورش على دراجات يقودها شبان نحاف وهي مثقلة بعشرات (أعمدة الأكل) المعلقة في كل مكان من الدراجة.

عمل دائب في مصانع وورش في الطوابق الأولى وقباء البيوت، ونصل إلى (دار الوزير) البيت الذي ولد وعاش فيه محمد علي جناح، بيت ذو شرفات خشبية مفتوحة وطلاء من ألوان سماوية وفيروزية ونقوش وآيات بخطوط زرقاء وحمراء وثمة قبة ومئذنة مضافة إلى جانب البيت، فالرجل الذي مات مصدورًا وهو يرى بشائر تحقيق حلمه وحلم ملايين المسلمين تحول إلى رمز ديني يُزار وتُنذر له النذور.

وقرب البيت المزار كان ثمة مطعم من نوع غير مألوف، فبعض المحسنين يقدمون نذرهم في صورة طعام للفقراء، يشترون المواد ويقدمونها للمطعم ليعدها ويقدمها للفقراء لقاء أجر معلوم يدفعه المحسن للمطعم الذي رأينا أمام مدخله تجمع كبير من الحفاة أشباه العراة، من كل الأعمار. وعلى مقربة خطوات من المطعم الخيري المجاني رأينا مجموعة من الصبية المشردين يلتفون في حلقة وهم يجلسون القرفصاء وبينهم ـ على مائدة الرصيف الكالح ـ لفافات من القصدير مفضوضة وأعواد من الثقاب تشعل ما بها ليتنفسوه، إنه الهيروين.

ـ بكم الجرعة؟ سألت. وجاءتني الإجابة عادية تمامًا وكأنني أسألهم عن سعر نوع من الخضار:

ـ ٤٠ روبية.

أي أقل من دولار! أرخص هيروين ربما في العالم كله، وعلى قارعة الطريق، على مبعدة خطوات من منزل (القائد الأعظم) للحلم الباكستاني، وعلى مرأى من نذور الورعين والمحسنين، ووسط المصانع والورش التي لاتتوقف. وعلى مبعدة مسيرة

دقائق على الأقدام من التظاهرة التي كان صوت (بي نظير) الحماسي المذبوح يلهب حماستها، صوت ابنة ثكلى وزوجة ملتاعة تصرخ من صدرها. والله أعلم بصدق النوايا، وإن كان الواقع يشكك في كل شيء.

خبيئة الصحراء

كنا على موعد للخروج من ضوضاء كراتشي، نحو منتجع على أطرافها في أرض صحراوية أو شبه صحراوية، وكانت الرحلة إلى المكان تناوبات بين الرحابة والتكدس. ففي مسجد طوبي الذي يتكون أساسًا من قبة هائلة تنهض مباشرة على الجدران وتستطيع استيعاب آلاف المصلين في وقت واحد، رحت أردد النداء: يا الله؛ فيتردد في رحاب المكان الفسيح كله. إنه بناء صممه معماري باكستاني ليتجاوب مع أصغر همسة للروح فيسمعها آلاف المصلين، ملمح رحيب وسط زحام كراتشي، وملمح رحيب آخر لتألق العمارة رأيناه في الطريق عبر أبنية مستشفى أغاخان المقدودة عمارتها من المرمر الأحمر بتناسق فاتن. لكن الفتنة تراجعت ونحن على حدود كراتشي نخترق الطريق العابر بين ضفتي مخيمات المهاجرين الأفغان، زحام، وبؤس، وخطر مريب، ويأس لا يستريح إلا في ادعاء التشدد، أو العنف، أو في فضاء المخدرات.

وأخيرًا وصلنا إلى منتجع (دريم لاند)، في قلب أرض قاحلة يغطيها العشب، وعليها تشرئب روابي خضراء ومسابح وبحيرات يصطخب فيها موج صناعي يماثل موج البحر حتى بياض الثبج والزبد.

من أين كل هذه الخضرة وكل هذا الماء؟ أسأل فتأتيني الإجابة على لسان مضيفنا (حسان أنا مولا): الماء من باطن الأرض، وهو وفير تجدده الأمطار الموسمية كل عام. والبحيرات والخضرة من هذا الماء والباقي علينا.

إذن الخروج من زحام كراتشي وكل مخلفات الزحام ممكن، والجمال رهن الخروج، والأرض شاسعة، والهواء بعيدا عن الزحام لا أنظف منه. أليس كذلك؟

الإمارات العربية المتحدة
تحليق في أفق أخضر

ما بين رمال الربع الخالي القاحلة، ومياه الخليج الساخنة عالية الملوحة، ثمة ملحمة من مائة وثلاثين مليون شجرة وثلاثة وعشرين مليون نخلة. ولكي نحيط ببعض من أطراف هذه الملحمة الخضراء، التي قادها صاحب القدم الخضراء، رئيس دولة الإمارات، كان علينا أن نرنو إليها من الأعالي، من فوق هضبة، ومن قمة جبل، ومن نافذة طائرة محوِّمة.

كعادتها، أبوظبي، والإمارات جميعا، تفاجئك وأنت تطل عليها من الجو بإدهاش علاقة الماء باليابسة، فثمة غزل واضح بين الماء والأرض.. جزر تشرئب محاطة بفيروزية المياه، ومياه توغل في الأرض بألسنتها فتلتمع حول اليابسة الأخوار، وأرض تشف فوقها رقائق المياه فيتألق عناق الرمل والبحر.

هذه رؤية «رومانتيكية» بالطبع، لأنها من بعيد ومن جوف طائرة ناعمة التكييف والهمس، لكن من عرف الاقتراب يدرك أن هذا الوجه يخفي وجها آخر يحفل باحتدام الصراع الطبيعي، فهذه الأرض المكونة لدولة الإمارات العربية المتحدة والبالغة مساحتها أكثر من ٨٣ ألف كيلومتر مربع تمتد سواحلها المطلة على الشاطئ الجنوبي من الخليج العربي بمسافة ٦٤٤ كيلومترا من قاعدة شبه جزيرة قطر غربًا وحتى رأس مسندم شرقًا ويتواصل امتداد ساحلها على خليج عمان بطول ٩٠ كيلومترا أخرى عند إمارة الفجيرة أي جبهة طويلة يواجه فيها البر البحر من جهة، ومن جهة أخرى تحدق بالأرض رمال الصحراء التي تبلغ أوجها في كثبان الربع الخالي العالية المهولة.

رمل، وأي رمل؟! إنه رمل إحدى أقسى صحراوات العالم. وبحر، وأي بحر؟! إنه

بحر الخليج الذي تبلغ حرارة مياهه أعلى معدل عالمي «٤٥ درجة مئوية» بينما ملوحته تفوق ملوحة كل البحار، إذ تبلغ ١٠٠ في الألف، بينما تثبت درجة الملوحة عند ٣٥ في الألف في بقية بحار العالم.

هذه هي المعضلة، وهي مبعث الدهشة في ملحمة البيئة الإماراتية. فعندما أتمثل حقيقة كل هذه القسوة المناخية، يذهلني الإنجاز والذي يتبدى واضحًا ونحن ندخل أجواء أولى الإمارات ـ أبوظبي، فما من أرض تطل من الماء أو يدور حولها الماء إلا وهناك لمسات خضراء لا تترك الرمل رملًا ولا البحر بحرًا رغم الحرارة والملوحة وندرة الأمطار.

دوافع عادلة للتكريم

لقد اكتشفت المأثرة البيئية الإماراتية وملحمة التخضير فيها من قبل والأرقام المذهلة واضحة، ففي الإمارات ٢٣ مليون شجرة نخيل و١٣٠ مليونا من الأشجار المتنوعة، وحيث إن عدد سكان الإمارات هو مليونان وثلاثمائة وسبعة وسبعون ألفًا وأربعمائة وثلاثة وخمسون نسمة، فإنه مقابل كل واحد من السكان توجد عشر نخلات وحوالي خمس وخمسون شجرة!

أرقام يصعب تصديقها على من لم ير الإمارات. لكنني رأيتها وعدت أراها، من الجو، ثم على أرض مطار أبوظبي، وقد كانت غابة الأشجار التي تظاهر مبنى الركاب وبرج المراقبة واضحة الكثافة وكأنه مطار بلد آسيوي مطير. أما الطريق من المطار إلى قلب مدينة أبوظبي وعلى مرأى من مياه الخليج، فشيء لا يمكن تصديقه. طريق بطول عشرات الكيلومترات تغمر جوانبه وجزيرة وسطه الأشجار والأزهار والنخيل والخضرة التي تتحول إلى متنزهات بديعة فسيحة عند الكورنيش.

إن المأثرة الإماراتية لم تعد تجربة، بل صارت واقعًا بيئيًا عالميًا تنهال عليه اعترافات العالم وتقديره.

ففي شهر مارس ١٩٩٧ مُنِح سمو الشيخ ـ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات شهادة الباندا الذهبية التي يمنحها الصندوق العالمي للحفاظ على البيئة

وهي المرة الأولى التي تُمنح فيها الجائزة لرئيس دولة في العالم. وقد حمل شهادة التقدير إليه الأمير فيليب دوق أدنبره، الرئيس الفخري للصندوق العالمي للحفاظ على البيئة. كما مُنح سمو الشيخ زايد في ١٥ يونيو ١٩٩٧ شهادة الدكتوراه الفخرية في مجال الزراعة من جامعة عين شمس تقديرا لجهوده في مشاريع التنمية الزراعية. هذا غير جوائز أفضل المدن العربية أخيرا، ومن قبل في ديسمبر ١٩٩٥ قام الدكتور جاك ضيوف المدير العام لمنظمة الأغذية والزراعة الدولية «فاو» بتكريم الشيخ زايد «لإنجازاته في نشر الخضرة في صحاري البلاد، واعترافًا بأنه قد تم تحقيق هذا الإنجاز العظيم بأسلوب فعال، ومع نظام للري يستفيد من كل قطرة مياه متوفرة».

هذا التكريم قد لا يصدق دوافعه العادلة من لم ير ولم يسمع، لكننا سمعنا ثم رأينا، وعدنا نرى من جديد لا لنكتشف الحقيقة فهي قائمة ومزدهرة، ولكن لنطرح الأسئلة الكبيرة التي تندفع لتطرح نفسها في أعقاب كل نجاح كبير: أسئلة الاستمرار، والجدوى والامتداد في المستقبل.

ولأنه ليس من رأى كمن سمع، فقد اخترت الرؤية، ومن جهتيهما: وزارة الإعلام والثقافة والقسم الخاص التابع لصاحب السمو رئيس الدولة وضعا تحت تصرفنا كل وسائل المواصلات المتيحة لهذه الرؤية ومن بينها طائرة عمودية عسكرية حملتنا إلى الأعالي لنحلق في سماء الإمارات، في أفق الخضرة، وهي رؤية دالة في شمولها.. تكشف حجم الكد وثماره، مقارنة مع عسر التضاريس وتجافيها.

صباح أخضر باكر

«الطائرة ستنطلق في السابعة»

عرفنا بموعد طيراننا الداخلي من مدير إدارة البيئة والحياة الفطرية بالدائرة الخاصة عبدالله مطر بني مالك، وهو رجل فائق الحيوية لطيف الحضور ومسكون بحب المكونات البيئية من شجر وحيوانات وطيور إلى حد الانشغال الدائم بها وكأنها بشر من أقرب معارفه، وهي طبيعة ثانية لاحظت أن معظم العاملين في مجال البيئة والحفاظ على الحياة الفطرية والزراعة يكتسبونها حتى تغدو طابعهم المميز.

الموعد مبكر، فهو يعني أن نكون في طريق المطار الحربي ـ قاعدة البُطين الجوية ـ قبل ذلك بوقت. وفي السادسة والنصف صباحًا حضر مرافقنا الضحوك حاضر النكتة دائما عبدالله الحوسني من العلاقات العامة بوزارة الإعلام، وانطلق محيي الدين بالسيارة التي تحملنا على طريق الكورنيش في اتجاه الشمال الشرقي. وفي هذا الوقت المبكر من حياة المدن الخليجية رأينا كورنيش أبوظبي ينبض بالصحو في غبش البكور. فثمة من يتمشون في حدائق الكورنيش وثمة من يقف وراء السور المشغول من الحديد الملون يحدق في مياه الخليج وقد فاض عليها ذهب الشمس الطالعة، وثمة من يتحدث في أكشاك الهواتف الدولية الوافرة الأنيقة بامتداد الأرصفة النظيفة والخضراء، إنهم آسيويون استيقظت الشمس في بلدانهم منذ ساعات وهم يبادرون بالتواصل مع أهلهم هناك.

ثمة شيء رائق وحلو في الصباح الظبياني، لعله صفاء الحياة في صدح ورفيف الطيور المستيقظة على الأشجار، وفي خبايا أدغال شجيرات القرم السارحة مع الماء من خط الشاطئ وحتى بعيد. ولعله فعل الأشجار والأزهار والخضرة المنبسطة والغامرة في كل مكان، والحياة تلمس إطلالة المدينة على الماء والشوارع الواسعة النظيفة والأبنية العصرية التي ألاحظ في سموقها الجبار شيئًا رقيقًا وأليفًا، من المؤكد أنه من وحي الذوق الرفيع الذي انحاز للماء والخضرة ونبض الحياة في فطرتها الصافية. فما من لون من ألوان الأبراج السكنية وأبنية أبوظبي عموما إلا وهو مفعم بلمسة الرقة والوداعة اللونية. لا يوجد لون «فاقع» أو كما يقول خبراء فصل الألوان «سوليد». فالألوان كلها «درجات» فاتحة من الألوان الأساسية المتمازجة فيما بينها بلمسات خفيفة، ساحرة.

وينشق قلب الخضرة التي نوغل فيها عن مبنى عسكري ونقرأ على المدخل لافتة «قاعدة البطين الجوية»، ونجد كل شيء جاهزًا في انتظارنا لننطلق.. نركب الباص العسكري حتى ساحة المطار ونتجه إلى مرابض الطائرات العمودية التي تأهبت إحداها لاستقبالنا بعاصفة مروحتها الكبيرة الدائرة وهديرها الذي يبتلع أصواتنا ونحن نتنادى متجهين إلى بابيها المفتوحين. صعدنا الدرج بمساعدة الطيارين اللذين رحبا بنا في طائرة «البوما» ذات اللون الكاكي المموه. وأعطيانا بذلات الطوارئ وساعدانا في ارتدائها وجلسنا في أماكننا ثم ربطنا أحزمة الأمان وأُغلقت الأبواب ودارت المحركات

بحمية أكثر وهدير أشد حتى راحت ترتفع طائرتنا عموديًا فيما كان العشب الذي أراه من النافذة أمامي على جانبي المدرج تمشطه بعنف أهوية المروحة الهائلة. ثم حامت الطائرة مندفعة إلى الأمام تحلق فوق مدينة أبوظبي.

الصورة من الجو شاملة ورائقة.. بحر أزرق ومدينة ترفل معظم أبنيتها في اللون الأبيض وتبدو كأنها نثرت وسط الخضرة. ومع ابتعادنا عن المدينة نحلق فوق البحر والرمل، فوق مياه الخليج وأخواره الموغلة في اليابسة وجزر اليابسة المطلة بلون رمالها الفاتحة وسط فيروزية الماء، لكن الخضرة في هذا المدى الذي يتسع لا تترك الفرصة أبدًا لانفراد الرمل والبحر بكل الصورة، فما من مكان، ولو جزيرة صغيرة من الجزر المائتين إلا وهناك نخيل وأشجار أو على الأقل زحف لشجيرات القرم في المياه الضحلة التي تشف عن الأرض تحتها، وهي أرض واسعة تحت المياه الإقليمية الإماراتية تبلغ مساحتها حوالي ٦٠٠ ألف كيلو متر مربع. فرصة هائلة لمن يجيد استغلالها، ويبدو أن هناك من يجيد.

غابات البحر

إن شجيرة القرم وحدها، كمفردة من مفردات جهود الحفاظ على البيئة في دولة الإمارات، يمكن اعتبارها إلهامًا بيئيا مبكرًا اهتدت إليه الفطرة السوية للشيخ زايد ـ رئيس الدولة قبل أن تبلوره المفاهيم البيئية العلمية في طرحها الحديث. فهذه الشجيرة ـ القرم أو المانجروف كادت تنقرض بعد أن كانت من غابات الأرض المغمورة برقيقة مياه الخليج الدافئة الضحلة، ومع زحف التخضير الذي بدأته دولة الإمارات عمومًا وإمارة أبوظبي خصوصًا أي منذ قرابة عقود ثلاثة لا غير، راحت اليد الخضراء تعيد استنبات شجيرات القرم على الساحل الإماراتي، وفي غضون العقود الثلاثة عادت غابات القرم تغطي مساحات شاسعة من الأرض المغمورة بالمياه الضحلة. وهذه الشجرة المكونة لهذه الغابات الساحلية معجزة في حد ذاتها، فمن شبكة جذورها يتكون مرشح «فلتر» يأخذ الماء بعد تصفيته من الملح وبذلك ترتوي شجيرة القرم من ماء زلال برغم حياتها غارقة الجذور في الماء المالح. هذه الشجرة، ومن ثم هذه الغابات، في المفهوم البيئي

الحديث تكون ما يسمى Microclimate أو نظاما بيئيا مصغرا، فالشجرة تنمو فتجذب إليها في الماء كائنات بحرية دقيقة تتغذى على جذورها، أما في الجو فهي تجتذب الحشرات والهوام. وعلى هذا النحو تنمو سلسلة التكامل والتكافل والتنوع البيئي، فالكائنات البحرية الدقيقة تجتذب الأسماك والحشرات، والأوراق الخضر تجتذب الطيور، فتموج غابات القرم بزخم الحياة: عالم من الأسماك ينمو ويتكاثر، وأسراب من الطيور تحط وتعشش، وأشجار طافية على الماء تنظف الهواء لأنفاس البشر وكل ما يعيش على البر، وتسر العيون التي يفعمها بالراحة والرحمة ذلك التجانس الرباني بين الأزرق والأخضر وتدرجاتهما في السماء والبحر والبر. وأنا أعتقد ـ كمختص في الطب النفسي وطب الأعصاب ـ أن هذا المجال البصري الذي تنساب فيه «الهارمونية» اللونية المتناغمة من تدرجات الأخضر والأزرق ـ أي لونا النبات والماء والسماء ـ هي عنصر مهدئ وعظيم التأثير على الجهاز العصبي والوظائف النفسية، لأن العين كنافذة للجهاز العصبي المركزي على العالم الخارجي، وكمستهلك أعظم للطاقة المقررة للجهاز العصبي المركزي، بسبحها المرتاح في المجال اللوني الوديع المتناغم تقود إلى حالة من الارتياح Soothing تنعكس على الجسد والنفس عمومًا. وإنني لأتصور أن أي دراسة عن معدلات الجريمة أو الانهيارات العصبية ستكشف أنها في مدينة مثل «أبوظبي» أقل كثيرا من أي مدينة من المدن التي تعادي الأشجار والزهور والخضرة.

وبرغم الريع الخالي

كأن قائدي طائرتنا أدركا مرادي دون أن أتبادل معهما الكلام، فقد حانت من النقيبين ـ إبراهيم عيسى النعيمي وفهد راشد ـ التفاتتين متتابعتين إلى الخلف نحوي، ولم يكن ممكنا سماع ما يقولانه لأن هدير الطائرة كان هائلًا ولم أكن قد وضعت سماعات الأذن لأتيح لنفسي حرية الإطلال وخفة الحركة ولو من مكاني. وتطوع الضابط خليفة السويدي من طاقم الطائرة المصاحب بإبلاغي بما يقوله الطياران، لكنني لم أتبين من مجمل حديثه غير كلمة واحدة قرأت عنها الكثير: «بينونة».

إنها غابات بينونة، وراحت الطائرة تخفض من ارتفاعها حتى صار ممكنا رؤية

الأشجار والطرقات وأحواض الماء وبعض الظباء وكثير من أسراب الطيور وكأننا نطل من شرفة محومة فوق هامات الشجر.

بلى، إنها غابات بينونة.. ملايين الأشجار تصطف وتتقاطع صفوفها على مد البصر كأنها منسقة ببرنامج حاسوبي أخضر جبار. فبرغم تحليقنا ودوران الطائرة كان عصيًا على البصر أن يلم بحدود الغابة في نظرة واحدة ولو مديدة. نعم، فثمة غابتان رأيناهما في بينونة يفصل بينهما شريط من الرمل عرضه حوالي كيلو مترين. وعلى جانبي هذا الشريط غابتان، أولاهما تمتد «٥٠» كيلومترًا وبعرض «٣٥» كيلومترًا، والثانية طولها «٣٥» كيلومترا وعرضها «٢٥» كيلومترًا.

لقد رأيت جذوع الأشجار من نافذة الطائرة المروحية بشكل واضح، الصغير منها محمي بأقفاص تقيه الرياح وصدمات الحيوانات والطيور، والكبير بلغ من القوة والارتفاع حد الرسوخ وإمكان منح الأخشاب.

المأثرة هنا أن هذه الغابات كما غيرها في الإمارات تقف على حدود الربع الخالي، تلك الصحراء القاحلة القاسية، وهي مغروسة ومحمية ومروية بالإرادة الحسنة والعنيدة للإنسان الخير، غرسة غرسة وقطرة قطرة، وفي مساحة واسعة يندر فيها المطر، فإضافة لاستصلاح أكثر من ١٠٠ ألف هكتار من الصحراء التي تحولت إلى أراض زراعية منتجة هناك ٣٠٠ ألف هكتار من الرمل غطيت بالغابات.

إنه جهد جبار عندما ندرك كم المياه اللازمة لإنشاء ذلك كله والحفاظ عليه، وهي مياه منتزعة انتزاعا من مصادر شتى كلها ليست سهلة ولا جارية. فالمياه العذبة المتحصل عليها من تحلية مياه البحر بلغ إنتاجها السنوي حوالي ٤٧ مليون متر مكعب، والمياه المعاد معالجتها من مياه الصرف لاستخدامها في ري المسطحات الخضراء وأشجار الحرجيات بلغ إجمالي إنتاجها السنوي ٨٠ مليون متر مكعب، أما مياه الأمطار فقد انشئ لأجلها ٣٥ سدًا في جميع أنحاء الإمارات تقدر سعتها التخزينية الإجمالية بنحو ٧٠ مليون متر مكعب سنويا.

جهود دائبة، وحالة من المبادرة الرسمية انتقلت لتحفيز مبادرات شعبية مدهشة، فعلى سبيل المثال هناك من أثرياء الإمارات من تطوعوا لبناء سدود على نفقتهم الخاصة

دعمًا لجهود الدولة وتأسيًا بها في نشر الخضرة والارتواء في ربوع وطنهم. وهي لفتة نادرة ندرة التجربة البيئية الإماراتية، حيث الدولة تمنح فيتأسى بها المقتدرون. والأسوة حسنة وهائلة، فقد أدخلت الدولة تقنية شبكات الري الحديث مقدمة نصف تكاليف هذه الشبكات مجانًا للمزارعين، ومن ثم كانت الاستجابة للتطوير واسعة، إذ أصبحت هذه الشبكات تغطي أكثر من ٦١٪ من إجمالي المساحة المروية بالمزارع إضافة لمساحة الغابات التي أشرنا إليها من قبل وتبلغ ٣٠٠ ألف هكتار.

بلد يعتصر الماء اعتصارًا من أعسر مصادره ويحافظ جهد الطاقة على مخزون مياهه الجوفية صعبة التجدد، ويروي ما غرسته الأيادي بحرص الضمير.. قطرة قطرة. والنتيجة كانت تحت أبصارنا ونحن نحوم فوقها طائرين، فكأننا نحلق في مجال أخضر انتُزع من قبضة الصحراء انتزاعًا.

نخيل العين.. وأعجوبة العجبان

راحت سيارتنا تصعد على الطريق الحلزوني الواسع الجديد نحو قمة جبل «حفيت» لنرى بأعيننا صورة شاملة «للعين» الخضراء من ارتفاع ١٢٢٠ مترًا. وجبل حفيت يشكل الحد الجنوبي لواحة البريمي حيث تقع مدينة العين وتتفرع منه سلسلتان متوازيتان تنتهيان جنوبا وتحصران بينهما بعض المرتفعات.

إن العين وضواحيها هي إحدى واحات الإمارات الشهيرة التي وجدت سقياها بفضل وجود الجبل المكون في تضاريسه لشبكة ري طبيعية تنهل من المياه الجوفية وتجري في تكوينات بديعة في «العين» وفي «لوا» الواقعة على بعد نحو ٢٠٠ كيلومتر إلى الغرب من العين وتضم أكثر من ٦٠ قرية ومثلها المراعي الخصبة الموجودة في مناطق الظفرة والتي ترتوي أيضًا من المياه الجوفية. كل هذه الواحات نماذج لرحمة الله متجلية في رحمة الطبيعة بساكنيها. فإلى الجنوب من هذه المناطق الخضراء الريانة تنتصب الكثبان الرملية الهائلة التي تشكل حدود صحراء الربع الخالي. وهذا يعني أن رحمة الله لا ينعم بها إلا من يبذل الجهد ليصون نعائم الطبيعة. فالصحراء على مرمى حجر والمصير مهدد بحفنة رمل في قبضة رياح الصحراء الجافية. وكم من واحات

الصحاري كان مصيرها الاندثار، لكن «العين» عليها حارس يقظان، تشهد بذلك رؤيتنا للعين بنظرة من فوق قمة جبل حفيت، وبنظرة التجوال بين دروبها الخضر على الأرض.

من قمة الجبل المعبدة والمسيجة والتي التقينا في ساحتها بمجموعة من السياح الأوربيين المفتونين بجمال المنظر، كانت واحة ملايين النخيل تترامى في نسق لا تشبهه أي غابة أو بساتين لأي من الأشجار الأخرى. ولم يكن النخل منفردا بكل الصورة فثمة بساتين وحدائق أخرى عند أطراف رحاب النخيل. وفي طرقات العين المثقلة بالزهور وظلال الأشجار وخضرة العشب على جانبيها، وفي مراكز ميادينها، كانت آثار أيادي البشر الحارسة لهذا العالم الأخضر الريان واضحة، تجميلًا وتشذيبًا وعناية غير منقطعة.

لقد تحولت العين إلى منتجع أليف وفاخر إضافة لكونها واحة غناء بالنخيل وأشجار الفاكهة، ولم يكن هذا الاستمرار في النمو يسيرًا يسر المتعة التي ينالها أي زائر لمدينة العين. فاخضرار العين واستمرار هذا الاخضرار ظل يتحقق أساسًا بوسيلة فذة وشاقة، حيث يتم جر المياه اللازمة لري بساتين النخيل بواسطة نظام بديع ومعقد يسمى «الأفلاج» وهو عبارة عن شبكة منحوته في الصخور من الممرات المعقدة لدرجة محيرة وتتألف من أنفاق وحجرات لتجميع المياه محفورة تحت سطح الأرض من أجل جلب المياه الجوفية من الينابيع القائمة عند سفوح الجبل.

وقد تطلب ويتطلب شق الأفلاج جهودًا بدنية كبيرة وشجاعة ومهارة، فصفوة الرجال العاملين في أي مجتمع قائم على نظام الأفلاج ينجزون مهامهم تحت الأرض وفي قلب الحجر سواء في مد وتوسيع الأفلاج أو صيانتها لضمان تدفق المياه نحو أهدافها.

كان يوجد في مدينة العين وحدها قرابة ٣٠٠ فلج جف معظمها بفعل الزمان. لكن إرادة التخضير لم تهن، فتواصلت الجهود المبذولة في البحث عن مصادر جديدة للمياه الجوفية، ووجدت بلدية العين غايتها في منطقة «مبرزة» تحت سفح جبل حفيت منذ يونيو ١٩٩٤، وقد شهد رئيس الدولة بعد ذلك، في يوليو ١٩٩٥، وعلى الطبيعة، تدفق المياه بارتفاع ٢٥ مترا من عشرة آبار أمر بحفرها في المكان للتعرف على منسوب المياه الجوفية بأودية الجبل، وتدفقت المياه بكمية بلغت ٢٥

ألف جالون في الساعة، وتم توجيه المياه المتدفقة من الآبار لتصب في بحيرة صناعية رحيبة، ومن بين الآبار العشرة وُجِدت ٤ آبار تبلغ حرارة مياهها العذبة ٥١ درجة مئوية فأنشئت حولها برك للعلاج الطبيعي زودت بالمظلات وأنشئ شلال كبير من المياه لخدمة الزوار، فكأن جدية السعي نحو ماء للأشجار بوركت وأثمرت لقيا ثمينة من المياه العلاجية لمعافاة البشر.

لقد صعدنا قمة جبل حفيت لنلم باتساع الصورة وهبطنا لنتفقد دقائقها ومضينا من خضرة غالية إلى خضرة غالية أخرى عبر الصحراء وبرغمها وحيثما أُتيحت قطرة الماء.

بالقرب من مدينة العين توقفنا على أطراف حقول وبساتين منطقة اسمها «العجبان». لم يكن هناك مرتفع طبيعي لنطل من عليائه على شمول الصورة الخضراء التي تفقدنا مفرداتها على الأرض. لكن إرادة البشر الجادة والطيبة لم تحرمنا من إمكان هذا الإطلال الذي خططنا لنواله. فثمة تلة صناعية هيئت على شكل جبل صغير من نتائج حفر بحيرة صناعية مدهشة في العجبان. صعدنا بالسيارة على الطريق المعبد الدائر حول الجبل الصناعي حتى وصلنا إلى رحبة القمة ورحنا نطل على العجبان.

أعجوبة خضراء شيدت في قلب الصحراء مؤسسة على عين ماء. تروي مياه العين بساتين الفاكهة وحقول المحاصيل، ثم لا تذهب المياه المنصرفة هدرًا، بل حُفرت بحيرة واسعة وقناة توصل إليها المياه المصروفة من الري بعد إعادة معالجتها. ومع الأيام تكونت بحيرة حقيقية تكاثرت فيها الأسماك ولاذت بها أسراب البط وحطت على حوافها وشجريات شطآنها الطيور. أما ثمار الغرس الطيب فهي في العجبان ١٥٠٠ شجرة مانجو، وخمسة آلاف شجرة جوافة، و٣٠ ألف نخلة وآلاف أشجار الموالح.

نموذج آخر من إنشاء نظام بيئي تُكمل فيه حلقات التنوع الحيوي بعضها بعضًا. وتنمو في تماسك مدهش. وبينما تندثر الواحات في كثير من صحراوات عالمنا المعاصر، تشهد هذه الأرض ميلاد واحات جديدة.

الطائرة العمودية العسكرية الضخمة التي ثابرت معنا في التحويم كانت من نوع «بوما» وهي كلمة إنجليزية تدل على نوع من أسود الجبال الشمالية اسمه الكوجر ويشبه الفهد. وفي قلب هذا الفهد الطائر رحنا نطل من نوافذ المروحية السابحة في سماء الإمارات على مجموعة الجزر الواقعة على امتداد مسارنا باتجاه الغرب. وكانت وداعة الألوان بين السماء والخليج والبحر تخفف من وطأة إحساسنا بضجيج وخشونة المروحية العسكرية. رحنا نحوم فوق جزيرة «السعديات» وهي أقرب الجزر إلى أبوظبي إذ لا تبعد عن العاصمة أكثر من كيلومتر واحد. ومساحتها ثمانية كيلومترات مربعة. وفي هذه المساحة من الأرض وسط مياه الخليج كان يتجلى بعض من إرادة التخضير، بشكل مباشر راحت الصورة المفعمة باللون الأخضر تؤكد على دأب هذه الإرادة. وبشكل معرفي كانت المعلومات تشرح تجليات الصورة. ففي هذه الجزيرة أنشئ مركز عالمي لأبحاث الزراعة في الأراضي القاحلة، راح يشرف على نشاط هذه الجزيرة الزراعي، التي خُطط لها أن تكون مصدرًا من مصادر الأمن الغذائي، وخلال عقدين من عمر الزمان ـ وهي فترة قصيرة نسبة إلى طموح الهدف ـ نهض مشروع متكامل لإنتاج الخضر والفاكهة داخل بيوت بلاستيكية مكيفة بطريقة تجعلها لا تتأثر بقسوة الطقس وتغيرات الحرارة عبر الفصول. ورغم مساهمة جامعة أريزونا الأمريكية في الأنشطة البحثية في هذه الجزيرة، فإن جزيرة السعديات تفوقت بإنتاجها عن إنتاج مشروع أمريكي مماثل، ففي السعديات وصل معدل الإنتاج إلى ١٠٠ طن سنويا بينما هو في الولايات المتحدة لا يزيد على ٨٠ طنا سنويا. والسعديات اليوم تلعب دورًا أساسيا في سد احتياجات أبوظبي من الفاكهة والخضر والأسماك.

تركنا السعديات وراءنا وتقدمنا في زرقة السماء فوق مياه الخليج وراحت تتبدى لنا من قريب ومن بعيد جزر أخرى، وبعد قرابة ثلاثة أرباع الساعة لاح في أفق الماء طيف عزيز، وأشار الطيار ملتفتا نحوي في ابتسامة طيبة. وشعرت بإحساس من يتهيأ للقاء صديق حميم قديم.

إنها صير بني ياس

لقد زرتها عبر الماء منذ ثلاثة أعوام مضت، وهأنذا أعود إليها من جديد عبر الجو. فكأنما أُريد لي أن أقاربها من كل الزوايا وأن أتفقد حالها عبر السنين.

ثلاث سنوات ليست بالشيء الكثير، لكن النظرة الشاملة من الجو قبل الهبوط كانت تؤكد على حدوث الكثير من التغيرات في الجزيرة، فمساحتها اتسعت، وقد عرفنا فيما بعد أن ذلك تم بردم مساحات من مياه الخليج، كما أن غابات القرم اتسعت هي الأخرى وتكاثرت على حواف شطآنها، أما الأشجار على أرضها فبدت أكثر رسوخًا وأكثف خضرة وتغطي ما لا يقل عن نصف مساحة الجزيرة. لقد هبطت الطائرة في ساحة خاصة أعدت لذلك وسط البساتين، ولاحظنا أن طيور النعام وراء سور المهبط ترفرف بفعل هواء مروحة الطائرة فظننا أنها تجفل لكن العكس كان صحيحا، فهذا الطائر الضخم التواق للطيران كان يجد في حركة الهواء الجارف متعة تدنيه من توقه. وجدنا في انتظارنا مسئول نشاطات الجزيرة معتوق عبدالرحمن صقر وبعض العاملين معه، وبدأنا على الفور تفقد أحوال «الصديق الحميم القديم»، جزيرة الحكمة، ولم يكن صعبًا أن ندرك بالعين، ودون حاجة للأرقام أن أصعب أسئلة الزراعة والمحميات في الأراضي التي كانت قاحلة تجري الإجابة عنها بجدية وبلاغة يجسدها الواقع. فالغزلان ـ خاصة غزال الريم ـ صارت أعدادها تستعصى على الحصر العابر بعد أن كانت قليلة منذ ثلاث سنوات، والمها العربية التي أوشكت على الانقراض في العالم كله صارت تتزاحم في مراتعها. أما المدهش فهو نجاح زراعة الزيتون في الجزيرة رغم أنه من زراعات ساحل المتوسط. وعلى مائدة الغداء العامرة في قصر الضيافة بالجزيرة كان كل شيء من هامش إنتاج صير بني ياس المسموح باستخدامه، فالممنوعات كثيرة وحاسمة في هذه المحمية. إن تجربة الزراعة وإعادة الحياة البرية في الإمارات تجربة مدهشة على مستوى العالم، ويكفي أن نتصور أكشاك سوق الفواكه والخضار في كوفينت جاردن بلندن وقد صارت تعرض فراولة يانعة وجريب فروت وجوافه وموزا من إنتاج أرض الإمارات، وفي باريس تباع زهور رائعة ندية من أرض الإمارات أيضًا.

أما الأهم فهو قدرة الإمارات على تحقيق الاكتفاء الذاتي من الطعام. لقد ودعنا صير بني ياس وراحت طائرتنا ترتفع في الجو عائدة إلى العاصمة ومارة من جديد فوق الجزر

الخضراء، وكان سؤال الجدوى يراودني بينما الإجابة عنه واقع مرئي حتى من عل ومن نافذة طائرة محلقة، ففي هذا الوقت من تحليقنا كانت أزمة أسعار النفط المنهارة تواصل فصولها المؤلمة، وبينما كان سعر برميل النفط يجاهد للإفلات من وهاد أدنى مستوى وصل إليه في السنوات الأخيرة، كان نخيل الإمارات وشجرها يصعد وثمارها تطيب وتفيض، فهل هناك حكمة أبعد من ذلك؟ حكمة بدأت منذ عقود قليلة جدًا بمسيرة القدم الخضراء للشيخ زايد على هذه الأرض، يوم لم يكن يتوقع حتى العلماء وخبراء النفط أن يهوي سعره إلى ما تدنى إليه. وتخفض طائرتنا العمودية من ارتفاعها تهيؤًا للهبوط في مطار قاعدة البطين الجوية، وكلما هبطنا في المكان المحاط بالأشجار نجد هامات الأشجار تصعد.. تصعد.. تصعد.. ثم يطيب لنا السير في ظلالها.

لبنان (بيروت)

فراشاتٌ في غابة الباطون

هل كانت بيروت في حاجة لإعلانها عاصمة ثقافية للعالم العربي هذا العام (١٩٩٩)؟ ولماذا ثار الجدل اللبناني الثقافي حول الموضوع؟ وهل من حصاد لذلك؟ أسئلة راودتنا ونحن نراقب من بعيد، فحملناها وطرنا بها إلى بيروت، لعل الاقتراب يشفي غليل الأسئلة، أو يلد أسئلة جديدة!

شيء ما، كأنه الإغواء، راح يجذبني إلى ما كان يسمى أثناء الحرب الأهلية اللبنانية (خطوط التماس) أو (الخطوط الفاصلة). كان خيالي يحاول استحضار تلك الصور الزائلة من ذلك الجنون البشري، تلك اللعبة الوحشية التي لم أستطع أبدًا تمثّلها عبر رؤية بيروت الآن ومعرفة اللبنانيين في شتى الأماكن والأزمنة، هذا البلد الجميل، وهؤلاء البشر الأكثر لطفًا بيننا، هل يعقل أنهم كانوا مادة لجحيم من هنا مرّ؟!

على مشارف الأشرفية، وفي عين المريسة، ومن ساحة البرج إلى طريق الشام، وفي الشياح، كلما رأيت أبنية ترقشها آثار الطلقات، أو تسحقها أفعال القذائف، سألت: «هل كان هنا خط تماس؟»، وتأتيني الإجابة دائمًا: «نعم»، فكأن بيروت كلها كانت خطوط تماس، وهي الآن في شبكة خطوط تماس جديدة تلائم سلامها الغض، بين الإعمار والترميم وبقايا الخراب، بين الجسور والأنفاق الحديثة والطرق الباذخة ولون الحجر الأشهب وسقوف القرميد في الأبنية القديمة. يقول الشاعر محمد علي شمس الدين في تعبير موجز فور تعارفنا وبدء الحديث عن بيروت: «إنها مدينة تبحث عن هويتها»، فأتذكر مداخلة شربل داغر: «بيروت تبحث عن بيروت».

وهل كان كل ما مرّ بها ويمر هو بحثًا عن هوية؟ عبر الحرب التي كانت، والهدأة الكائنة، وحتى في غمار الجدل الذي وجدت نفسي غارقًا فيه وأنا أبحث عن معنى لإعلان بيروت عاصمة ثقافية للعرب هذا العام، الذي هو آخر أعوام القرن العشرين (بغض النظر عن سجال الجمع والطرح لتحديد آخر سنوات الألفية الثانية وأول أعوام الألفية الثالثة)؟!

يقول شربل داغر: «ما أتيح لبيروت في تاريخها المعروف أن تكون محل نظر وخشية وأمل، مثلما هي عليه في السنوات الأخيرة، حتى أنها تبدو في نظر بعض كاتبيها وأهلها أشبه بـ (الطلل) الجاهلي: يستنطقون متبقياتها بحثًا عنها، فيما هي لا تتوانى عن العيش والتبدّل».

رحت أدور في بيروت التي يخفي الترميم بتسارع آثار خطوط تماسها الوحشي الذي كان، بينما طلقات الجدل الثقافي تحيط بي من كل صوب، سجال حار، منفعل، وأنيق، وبلا حدود في جرأته التي يندر أن تكون في غير بيروت، أداره المثقفون اللبنانيون حول إعلان العاصمة الثقافية، منذ عُرف شأن الإعلان، وحتى لحظة تواجدنا في بيروت ـ منتصف يونيو (حزيران) هذا العام.

سجال خرج على صفحات الصحف العربية الدولية، والمحلية، وعلى بعض موجات البث المرئي والمسموع. أما في بيروت، فقد استوقفني في هذا السجال ملفان مهمان، أولهما عدد خاص من (الملحق) الذي تصدره جريدة النهار، وكان تحت عنوان يستفز فضول القراءة: (بيروت ١٩٩٩ عاصمة الثقافة العربية ـ التدجين)؟!

أما الملف الثاني، فقد أوردته في الموضوع ذاته مجلة (الناشرون) التي تصدرها نقابة اتحاد الناشرين في لبنان.

كانت طلقات هذا السجال، ورشقاته، ونسماته أحيانًا، هي أسئلتي للمدينة التي أدخلها لأول مرة، وإن كانت هي قد دخلت في نسيج الحلم والمتخيل لديّ، كما لدى أي كاتب أو مثقف عربي تراءت له بيروت جنّة للكتب، وشاطىء أمان، ونافذة على البحر، وغابة حرّة تمنح أكناف صنوبرها لكل الطيور البرية إن شرّدت.

لهذا، عندما اجتاحت النار غابة الصنوبر، تحرّقت أفئدة كل الطيور، حتى هذه التي لم تحط أبدًا على صنوبرات غابة بيروت، ولم ترها إلا بعيون الحلم، أو في هالة المجاز، وهو مجاز خايلني منذ تعلمت قراءة الكتب الممنوعة، وراح يخايلني بينما الطائرة بعد في سماء بيروت.

البحر

المألوف أن أقصر مسافة بين نقطتين هي الخط المستقيم، ومن ثم كان على الطائرة التي حملتنا من مطار الكويت أن تقطع سماء شبه الجزيرة العربية، فبادية الشام، فسلسلة جبال لبنان، ثم تحط في بيروت. لكنني وجدت خط سير الطائرة على شاشة التليفزيون الداخلي أمامي ينحرف إلى الشمال قليلًا، ثم ينطلق إلى الغرب ـ في نقطة بين طرابلس وبيروت ـ ويوغل في أفق البحر، مسافة جعلتنا معلقين تمامًا بين الزرقة والزرقة، ثم دارت الطائرة على نفسها واعتدل مسارها وهي تخفض الارتفاع، لتهبط في مطار بيروت، وكأنها قادمة من البحر!

من المؤكد أن هناك مبررًا فنيًا لدى أهل الطيران لتحديد خط سير الطائرة على هذا النحو، لكنني متأكد أيضًا أن لكل صدفة قانونًا، وأن الظواهر تكتنز البواطن، وفيها يمثل المجاز، وعندما خرجت من باب الطائرة تلقفتني نسائم بيروت، فتذكرت قيظ الخليج، وأنشد درويش في داخلي: «من مطر على البحر اكتشفنا الاسم/ كأننا أسلافنا نأتي إلى بيروت كي نأتي إلى بيروت»، وعندها، انتقل الصوت إلى وضاح شرارة ليزيح أستار المجاز عبر مرافعة موجعة في شأن بيروت (العاصمة الثقافية) والتي آثر أن يومئ إلى محتواها بعنوانها الحاد الجامع: (خرس فصامي لا تشفيه الاحتفالات).

قال ـ ضمن ما قاله ـ إن: (بيروت الثقافية، أو ثقافة بيروت اللبنانية، إنما تصدر عن السوابق المتوسطية والبحرية هذه: عن الهزائم التي سبقت الأفول وآذنت به، وعن الغارات المدمرة والمخلفة وراءها الأنقاض والسبايا، وعن فشو الأوبئة في المدن المملوكية الحصينة والمغلقة على الخارج، وعن استدخال (الداخلية) المنيعة وتقويض مناعتها ومناعة جماعاتها وعصبياتها وربطها بخارج وغير، تامين ومختلفين. والحق

أن بيروت الثقافية هذه، في معظم أطوارها في القرن العشرين، صدرته عن سوابقها المتوسطية والبحرية).

كان وضاح شرارة يرسم لوحة لتفاعل البر والبحر، لافتتان أهل (الداخلية) بأهل (الساحلية) وبالطريقة التي يباشرون حياتهم عليها، ومن ثم بانسياب هؤلاء في مدينة أولئك، وميلاد أعمال أدبية وفنية قامت على وجه المراءاة الإثنية المغلقة بين (الساحلية) و(الداخلية)، وعلى (ترجمة الحد من الحدين إلى الحد الآخر).

كان يقلب قضية (العاصمة الثقافية) بمبضع قاس، كأنما يشرح أعماق نسيجها، وكانت نتيجة التشريح حادة كما إشارة البداية إذ يقول: (فنحن اللبنانيين، على هذا، (عاصمة ثقافية) لا تعصم من شيء، لا من خواء وفاض العبارة، ولا من عجمة ما نستنطقه وخرسه الفصامي، ولا من استدراج الأجانب إلى البيان عن (نفس) لا نعلم من تكون ولا هل تكون شيئا خارج ترجمتها الضيقة والفقيرة. وهذه الحال لا تشفيها الاحتفالات السنوية ولا اليومية).

جرأة ـ بغض النظر عن الاختلاف أو الاتفاق مع محتواها ـ تذكرني بأنني في بيروت، فتشدني أكثر إلى بيروت.

الكتب.. المقاهي

نصف نهارنا الأول في بيروت كان مفتوحًا، بلا مخططات لزيارة فعاليات ومواقع، وبلا مواعيد. لكنني كواحد من ملايين العرب الذين حلموا فترة من عمرهم ببيروت، كنت أهفو إلى مواقع في ذاكرة الحلم ومواعيد طائرة في الخيال. وكان شارع (الحمرا) على مقربة دقائق بالأقدام من موقع فندقنا في منطقة (الرملة البيضا)، فانطلقنا.

آثار الحرب بدت قليلة على امتداد خط سيرنا، فالترميم وارى سوءات القذائف إلا القليل منها الذي بقي يرقش بعض الشرفات والجدران، وفي شارع الحمرا كانت حركة الناس ونبض المحال توشك أن تنفي أن الحرب اللبنانية مرت من هنا. كما أن هذه الحركة وهذا النبض لم يسفرا أيضًا عن أي علامة تشير إلى أن عاصمة ثقافية تمر

من هنا. فلا ملصق واحد، ولا إعلان في المكتبات التي دخلناها والتي تشهد بأن تحولًا جارفًا حدث ويحدث في عالم الكتاب اللبناني والكتاب العربي بشكل عام، ثمة ركود واضح في الإقبال على شراء الكتب التي يتصدر قائمة المبيعات منها كتاب عن الطهي، ومنذ ستة أشهر. ومع ذلك فالكتب تتدفق عناوينها فوق الأرفف بغزارة وبجرأة نسبية قلما توجد في بلد عربي غير لبنان. بحثت عن المعرض الدائم للكتاب دون جدوى، وعندما دلني عليه الأستاذ جهاد فاضل في مناسبة لاحقة ضممت إحباطي إلى شجنه، فقد طرد معرض بيروت الدائم للكتاب كل الكتب واستبدل بها بضاعة أخرى، صار متجرًا للإلكترونيات ولوازم الكمبيوتر. وتجاوزا للإحباط والشجن رحت أبحث عن مغزى في هذا التحول، وكان المغزى واضحًا، وإن بقي ثقافيا على أي حال!

الكتاب اللبناني، شأن الكتاب العربي عمومًا، يبدو في حال محزنة من الهجران أمام اتساع التلقي السلبي عبر وسائط البث المرئي والمسموع الأخرى. لكن الدكتور سهيل إدريس صاحب دار الآداب يبدي تفاؤلًا إشراقيا إذ يقول: «إن الكتاب الذي يصدر في لبنان مضمون التوزيع في سائر البلدان العربية، إلا إذا تصدت الرقابات العربية لمنعه أو مصادرته. ومن المؤسف حقًا أن عددًا من البلدان العربية لا يزال يفرض رقابة صارمة على الكتاب بحجة (حماية) القراء من (سموم) الكتاب في الوقت الذي تتمتع فيه وسائل الإعلام الأخرى كأقنية التليفزيونات المتنوعة التي تدخل كل بيت وتحمل لجميع المشاهدين كل أصناف الأفلام دون حسيب أو رقيب!».

ويعرِّج الدكتور سهيل إدريس على قضية طالما عكرت مياه نشر الكتب، لكنها وحال الكتاب هي ما هي عليه تبدو أفدح من مجرد تعكير للمياه: «وإذا لم نستطع أن نحارب التزوير الذي تشكو منه معظم دور النشر الجادة في لبنان، فلن تكون بيروت جديرة بأن تُعلَن عاصمة ثقافية!».

ومن جيل إلى جيل تنتقل قضية الكتاب، همومه وشجونه، وتعبر عنها الناشرة رنا إدريس في إطار ما نتعقبه قائلة: «إن بيروت لم يعد لديها ذلك الزخم الطليعي السابق، وذلك لا يعني أن المدينة مسئولة عنه تمامًا. فكل بلد عربي بات لديه نوع من الاستقلال في النشر، وباتت متوافرة لديه المواد الأولية والتقنية اللازمة. الحرب جعلت هذه البلدان

تنسى بيروت قليلًا لهذه الناحية وتبدأ في الاعتماد على نفسها. الجانب الأخطر من الموضوع هو فقدان القارئ الجدي في بيروت كما في العالم العربي، ما يجعل دور النشر تتردد في نشر الكتب الطليعية. دار النشر لا تخلق القارئ، هذا وهم، ولكن ثمة قارئا ما عاد يُقبِل على هذه الكتب، وبما أن دور النشر غير مدعومة من جهات أخرى، فهي باتت تخشى المجازفة».

نترك مكتبات شارع الحمرا، ونبحث عن دار نشر جديدة لعل الرؤى تختلف، فنقصد (دار الجديد) لنجدها في شقة من عمارة أرستقراطية قديمة بناحية الصنائع، وعلى فناجين القهوة نلتقي مع مسئولة الدار (رشا الأمير)، تبدو حزينة لكنها تسيطر على حزنها. تذكرنا بفجر الطباعة الذي أشرق على بلاد العرب من لبنان: (الطباعة كفعل مبدع حلت فور وصولها إلى ديارنا وأديارنا ـ وفي طليعتها بالطبع دار مار قزحيا (١٦١٠م). وتستطرد: «على عتبة الألف الثالثة، وفي هذا الأصيل، على ما يبدو من عمر صناعة الحرف، نشرًا وطباعة، أضعف الإيمان أن يحاول أهل هذه الصناعة ألا يتواروا وراء أسباب منسوبة إلى الثقافة ليفسروا ما يصيب قطاعهم من مصاعب. وقد آن لنا أن نتصارح ونتعالن بأن معظم صناعة الحرف في لبنان، نشرًا وطباعة، خلال العقود الماضية، كانت أدخل في نطاق الاقتصاد الخدماتي لهذا البلد منها في دائرة الثقافة، وأن هامش الإنتاج الثقافي البحت كان يتعيش طفيليا، ونعم الطفيلي هو، على المتن الخدماتي».. وتلوح بيدها في حركة صغيرة حائرة بينما الجدية تكسو ملامحها مشوبة بأسى عميق: «بعاصمة ثقافية أو من دون عاصمة ثقافية كنا ننشر الكتب وسنظل ننشر الكتب».

ونترك الكتب، لنبحث عن المقاهي! نعود إلى شارع الحمرا لنستريح في إحدى هذه المقاهي ذات الأسماء الشهيرة لدى المثقفين ـ حتى خارج لبنان. نجد (الهورس شو) وقد تحول إلى مطعم للشاورمة والفلافل. بينما مقاهي المثقفين الشهيرة الأخرى كانت قد أقفلت أبوابها منذ مدة ـ (لاروند) و(الروكسي) و(النيغرسكو) ـ لكننا نجد بديلًا جيدًا في طرف الحمراء، إنه مقهى (سيتي كافيه) الذي يواصل دورًا قديمًا انقطع، بإصرار من مالكه السيد حسن الذي يرحب بنا في مودة واثقة، ثقة رجل تآلف مع وجوه

النخبة الثقافية اللبنانية والعربية التي مرت وتمر بمقهاه، نطلب مشروبًا باردًا يطرد عنا حر بيروت القليل، ونستمتع بمشاهدة وجوه الزبائن من بقايا مشاهير الثقافة والأدب والفن ونمر باللوحات التي تُعرض على جدران المقهى بشكل أنيق ومدروس، فقد كرس المقهى جدرانه لتكون معرضًا فنيًا مفتوحًا ومتجددًا..

ويتحول (مقهى المدينة) منذ تلك اللحظة، إلى نقطة التقاء لنا في بيروت، ومركز انطلاق.

ردم البحر

متى بدأت القصة؟.. قصة إعلان بيروت عاصمة ثقافية للعالم العربي هذا العام (١٩٩٩)؟ ذلك هو السؤال الأول الذي حملته في أول صباح بيروتي مفعم بالشمس ومرطب بنسائم البحر وانطلقت إلى مبنى وزارة الثقافة اللبنانية. لتوثيق الاجابة، التي من الطبيعي أن تعقبها أسئلة تبحث عن إجابات جديدة.

لم يكن الوزير محمد بيضون موجودًا، وكان هناك مدير عام وزارة الثقافة رئيس اللجنة المشرفة على ملف بيروت عاصمة ثقافية الأستاذ محمد ماضي، وكان الموعد في تمام العاشرة بينما بدأ انطلاقنا في صباح بيروت الندي والمضيء أبكر من الموعد بساعتين. واقترح مرافقنا عدنان: (ناخد شي برمة تاييجي الموعد) قلت: (إيه). ومضينا ننطلق في الصباح البيروتي العذب.

تهبط السيارة على شوارع عين التينة، بين أبراج (الباطون) في منطقة الرملة البيضا نحو زرقة البحر، وعلى الجانبين تتبدى العمائر الباذخة، يقول عدنان إن ثمن الشقة في هذه المنطقة، وصل إلى مليون دولار، (أوف. أوف) نصرخ، وتنعطف السيارة داخلة في الكورنيش باتجاه (الروشة).. واحة الاصطياف العربية تبدأ استيقاظها المبكر مثلنا، فالمقاهي على الأرصفة تشرع أبوابها للنور والنسائم والناس، والمطاعم والمقاصف ومحلات البوظة تنبض بحركة نشطة. وعلى طول رصيف الشاطئ يكمل المتريضون هرولتهم أو مشيتهم الصباحية. ثمة ملامح تؤكد على نصيب بيروت الكبير من المدنية والانفتاح، ديكورات المحال، ثياب الناس، خليط الموسيقى والأغاني التي تتقاطع

معها في طريقنا. حيوية تفاجئ من يطالعها لأول مرة وهو يعرف أن الحرب الأهلية المسعورة كانت هنا، والاجتياح الإسرائيلي ـ المدحور ـ أيضًا.

أسطورة طائر الفينيق الذي ينبعث من الرماد تبدو ماثلة في نهوض بيروت المدهش من ركام الحرب، لولا بعض الآثار لمبنى محترق هنا وجدار ترقشه القذائف هناك لما صدق الرائي أن هذه المدينة ظلت تصطلي على مدى ١٧ عامًا بنيران حرب أهلية مجنونة إضافة إلى اجتياح إسرائيلي مسعور.

نتوقف على الكورنيش لنطل على صخور الروشة الشهيرة، الصخرة الرئيسية تنتصب شهباء في مياه البحر قرب الشاطئ، كأنها ساقا خائض أسطوري في اللجة الزمردية حتى ركبتيه، وثمة شوائب تتأرجح فوق سطح الماء. خفق تيار السنين وموج الدهور وريح العمر حتّت في بياض الصخر حزوزًا، وحصاد الأيام القليلة الأخيرة ترك على سطح الماء فتات نفاياته.

يشير عدنان إلى الفتحة بين ساقي الصخرة ويقول بحماس: (عبدالحليم حافظ مر من هنا)!! نسي عدنان، أو تناسى، كل التباسات الروشة من قفزات المغامرين في جُرفها العميق إلى الماء، وانتحارات من جرح العشق قلوبهم أو أظلمت في عيونهم نوافذ الحياة، وآثر عدنان ـ ابن حي الشياح الشعبي البيروتي ـ أن يقدم لنا صخرة مدينته الأشهر في إطار من صدح العندليب الذي يحبه. ويعمل الطبيب النفسي في داخلي معلقا: «هذا سرهم ـ هؤلاء اللبنانيين ـ لا يستسلمون للاكتئاب بسهولة، حبهم للحياة يمنحهم القدرة على التجاوز. فهل هي بقايا الساحلية في كل فرد؟»

نلتقط إفطارًا سريعًا من سلال بائعي الكعك وقدور بائعي القهوة الجوالين على الكورنيش، ونواصل انطلاقنا.

وزارة الثقافة والتعليم العالي تقع في مبنى حديث أنيق بواجهات من الزجاج والمعدن، لكن الطريق إليها يذكرنا بثنائية ما كان وما هو كائن، فبناية فندق هيلتون المهجورة منذ سنين تنتصب إسمنتية عارية، بالية، تأكلتها القذائف وأهوية البحر الرطبة، كانت مشروعًا باذخًا لم يكتمل وهو ينتظر الآن الإزالة لينهض من جديد، ليطل على

ساحة حديثة، مقتنصة من مياه البحر الذي ردم اللبنانيون نصف مليون متر مربع منه لاستيعاب طموح إنشاءات بيروت بعد الحرب.

نترك السيارة في جراج حديث متعدد الطوابق تحت الأرض، ونمتطي مصعدًا أنيقًا يوصلنا إلى الطابق الحادي عشر، فنجد مدير عام الثقافة الأستاذ محمد ماضي في انتظارنا، يستقبل الأسئلة، ويرسل الإجابات، فنسجل:

كيف بدأت القصة؟

«هذا الاختيار تم في أواخر عام ١٩٩٧، حيث كانت هناك مداولات في اليونسكو عن مناطق عالمية يجري فيها التركيز على اختيار إحدى العواصم لهذه المناطق لكي تبشر بثقافة السلام المعاكسة لثقافة الحرب، أي خدمة السلام بالثقافة، خلال الاجتماعات ارتؤي، وتمت الموافقة، أن تكون بيروت عاصمة ثقافية عام ١٩٩٩، وقد كانت العاصمة عام ١٩٩٨ هي الشارقة، ونستطيع أن نقول إن اختيار اليونسكو لاسيما رئيسها فيدريكو مايور كان موفقًا ودقيقًا، لأن بيروت عاصمة ثقافية للعالم العربي منذ زمن، بيروت المطابع، الجامعات، دور النشر، الصحافة، الإعلام، كانت على مدى طويل عاصمة ثقافية للعالم العربي، وملجأ للمثقفين العرب وهذا معروف خاصة في الستينيات من هذا القرن. أتى الاختيار دون تحضير فكان مفاجأة سارة إنما هذه المفاجأة كانت في حاجة لبعض التحضير.

أنا لا أعرف التفاصيل، أقول إن الاختيار قد تم ولا أدخل في تفاصيل المناقشات. إنما أقول إنني لو كنت أحد أعضاء الوفد اللبناني وقيل إن هناك اقتراحا بأن تكون بيروت عاصمة ثقافية وفاز هذا الاقتراح بالموافقة أكون مسرورا جدًا، هذه بلدي، دون أن أنظر إلى التنظيم المسبق. المهم الموافقة هي الأساس ويأتي بعدها التنظيم، نحن تهمنا النتائج الباهرة».

يلفت انتباهي تعبير (النتائج الباهرة) فأتذكر أن وزارة الثقافة اللبنانية أطلقت إعلان بيروت عاصمة ثقافية والدعوة إلى فعالياته في يونيو ١٩٩٨، ومن ثم مضى عام على إطلاق الإعلان، فأسأل عن حجم ما أنجز؟ ويجيب الأستاذ محمد ماضي:

«أود قبل كل شيء أن أوضح أمرًا يتعلق بسياق الأمور في لبنان، نحن نتعامل كدولة مع القطاع الخاص، وهذا التعامل له طابع الرعاية والتوجيه وليس التدخل المباشر. المثقف طاقة محترمة نحافظ عليها ونتعامل معها بكل الاحترام والشفافية».

العنوان (بيروت عاصمة ثقافية) أحدث دويًا وشعورًا عند الجميع بأن ما يجري يجب أن يكون مميزًا، وتحت هذه اللافتة يعمل المثقفون اللبنانيون).

تتواصل أسئلتنا عن دور وزارة الثقافة فنأتي إليها في يوم تال لنلتقي بمسئول آخر عن ملف (العاصمة الثقافية)، فنجد فيه صيغة تثري التنوع إذ يمكن اعتباره ليس رسميًا تمامًا، فهو شاب وقانوني رفيع التأهيل، وأهم من ذلك أنه فنان، كاتب روائي له عملان مرموقان كتبهما بالفرنسية وقد قرأت ترجمة لأحدهما بعنوان (الفلكي) وهو رواية عالية. وطرحت على (إسكندر نجار) صاحب الفلكي أسئلتي عن التباسات سماء العاصمة الثقافية، فتكلم.. (لقد خُلق جو معين لكن هذا الجو يتلاشى، من هنا كانت أهمية أن تكون هناك مشاريع ثقافية كبرى مثل المكتبة الوطنية للأوركسترا السيمفونية، المكتبة السينمائية، المتحف الوطني، المركز الدولي لعلوم الإنسان. وأعتقد أن ٥٠٪ من المشاريع أُنجزت؟ ومازال أمامنا ٦ أشهر. النقطة الحساسة هي ما الذي سيضاف؟ برأيي أنه في لبنان جاء هذا الحدث في وقته لأننا منذ أن انتهت الحرب وحتى اليوم كانت الثقافة ليست من الأولويات. كان دائما ترميم الحجارة والاقتصاد من الأولويات وجاءت هذه السنة لتظهر أن الثقافة من الأولويات ونستطيع أن ننهض شيئا ما بالمشاريع مثل المكتبة الوطنية، فالكتب مكدسة في صناديق بالمستودع. جاء الخبراء ولدينا خطة للنهوض. هناك عدة مشاريع أعتقد عند إنجازها نكون وضعنا حجر أساس للألفية الجديدة.

يوجد من يلومنا لأن هناك مشاريع هي أصلًا موجودة، إن إعلان بيروت عاصمة ثقافية هو عرس وكل الناس مدعوون إليه، فهي حالة جماعية لابد أن يحس بها اللبناني؛ فإحساس اللبنانيين بها في حد ذاته تَقدُّم لأنهم يحسون أن هناك شيئا جديدا يحدث في البلد وهذا يعطي زخمًا للألفية الجديدة.

منذ مدة لعلكم سمعتم مرسيل خليفة قال شيئا استغربته هو أن الفن ليس في حاجة

إلى أموال. هذا الشيء ليس صحيحا لربما بالنسبة له، هو مع جيتاره لو طلع إلى الشارع وغنى فلن يكون في حاجة إلى شيء. ونحن ككتاب عندما نجلس على الطاولة ونكتب أيضا. لكن المشاريع الثقافية الكبيرة من المؤكد أنها في حاجة إلى تمويل.

بالتأكيد لو كان لدينا أموال أكثر للثقافة لكنا فعلنا ما هو أهم لكن أعتقد أن هذه الحركة التي تحدث بحد ذاتها مهمة. يعني كل أسبوع هناك نشاطات متواضعة، وأخرى وسط، وثالثة كبيرة، هذه كلها مهمة كحركة. بالنتيجة ما سيبقى شيئان: أولا المشاريع الكبرى، ثانيا هذا الوعي لدى الناس بأن هناك شيئا اسمه ثقافة وهي من الأولويات مثلما الأمن والخبز والإعمار. المسرح في لبنان وكل العالم العربي لديه صعوبات كبيرة لأنه لا يعيش إلا المسرح الترفيهي، أما المسرح غير التجاري - حتى في فرنسا - فلا يعيش إلا بتمويل ومساعدة الدولة.

هذه السنة يوجد لدينا أكثر من ١٥ مسرحية مولناها لنؤمن الاستمرارية، على الأقل استطعنا أن نبين أن المسرح اللبناني الذي لعب دورا كبيرا في النهضة ونشأة المسرح العربي، مع مصر، أنه لا يزال موجودا، أنا أعرف - كمثال - ثلاثًا من الفرق المسرحية التي نساعدها لم تقدم عملًا منذ ١٩٨٠ رغم أنهم كبار لأنه لم تكن لديهم إمكانات. هكذا بالمساعدة البسيطة نستطيع إكمال الطريق معهم).

الدليل

بين شقي الرحى، أو بين نصفي البرتقالة، وجدنا أنفسنا دائخين ونحن نتعقب آراء الفرقاء في موضوع العاصمة الثقافية، فثمة رؤية مفرطة في التفاؤل تقول بإنجاز كل شيء، وثمة رؤية مغرقة في التشاؤم تقول بأنه لن يكون هناك أي شيء. وثمة تحفظات - بين بين - تقول بأن المشاريع الكبرى كالأوركسترا السيمفونية والمكتبة الوطنية والأوبرا والمكتبة السينمائية لا يُعقل إنجازها هذا العام. والمسرح في حالة متردية حيث تضاءل نشاط مسرح المدينة وأغلق مسرح بيروت أبوابه وصوت اتحاد الكتاب اللبنانيين خافت والتعليم في أزمة رغم وجود عشر جامعات.

وللخروج من هذا المأزق باتجاه تلمُّس الواقع تركنا أنفسنا للدروب، نسلكها باحثين

عن فعاليات الثقافة في بيروت المعلنة عاصمة ثقافية للعالم العربي هذا العام، دليلنا هو البرنامج السنوي الذي أصدرته وزارة الثقافة والتعليم العالي للمناسبة وحجتنا كُتيب ـ صدر ضمن مجموعة متتالية من هذه الكتيبات ـ مخصص لفعاليات الشهر الذي كنا فيه ببيروت (يونيو ١٩٩٩)، وثمة رقم هاتف (١٤١٦) مخصص لإرشاد السائلين عن فعاليات كل يوم.

البرنامج السنوي الذي يحمل اسم وزارة الثقافة اللبنانية وشعار هيئة اليونسكو، يميزه (لوجو) لطيف رسمه الفنان غازي قهوجي يمثل حمامة سلام بيضاء بجناحين ريشهما بألوان قوس قزح. وبعد أن نمر على لوحة لأمين الباشا رسمها للمناسبة تلوح كفسيفساء يتناوب عليها اللونان الأحمر والأخضر، ندخل في البرنامج.. وأول الدخول لحن عظيم يتحدث عن عشية الألفية الثالثة حيث تستعيد بيروت دورها كعاصمة ثقافية للعالم العربي، فتطلق وزارة الثقافة والتعليم العالي مشاريع ثقافية كبيرة (ستتحقق في القريب المنظور). وهي ـ أي هذه المشاريع ـ (تشكل البنية التحتية للمستقبل وستساهم حتما في تطوير الحياة الثقافية والعلمية في لبنان).

أما عن تفصيل هذه المشاريع الثقافية التي هي كبرى بكل تأكيد، فيعدها البرنامج: ١ إعداد تشريع ثقافي يناسب الألفية الثالثة يعني بحماية الملكيةالفنية والأدبية ويشرّع لما يتعلق بالسينما والآثار. ٢ انشاء أوركسترا سيمفونية (وعد البرنامج أن تجري تمارينها الأولية قريبا). ٣ إحياء المكتبة الوطنية. ٤ إقامة متحف للفن التشكيلي في طرابلس بمعاونة اليونسكو. ٥ توقيع بروتوكول تعاون سينمائي مع فرنسا. ٦ تخصيص صالة تكوّن مكتبة سينمائية للأفلام والصور والوثائق المتعلقة بالسينما اللبنانية. ٧ إنشاء دار أوبرا وطنية. ٨ إنهاء الأعمال في المتحف الوطني. ٩ تدشين المركز الدولي لعلوم الإنسان في جبيل. ١٠ إنشاء متاحف إقليمية في بشرى وانطلياس وجبيل وصيدا وصور وطرابلس وبيت الدين وغيرها من المدن. ١١ إعادة ترميم المعالم الأثرية.

وبعد ذلك يشير البرنامج إلى المشاريع والفعاليات، (التي ليست كبرى)، في الآثار والبيئة وسائر ألوان الآداب والفنون والعلوم والمهرجانات والأزياء والأطفال.

لاشك أنه تطلع طموح، لكن هناك من يلاحظ أن كل المبلغ الذي خصصته وزارة

الثقافة لدعم المشاريع (وعددها ٣٨٠ مشروعًا) لايزيد على مليون دولار. وقال أحد المتابعين إن اليونسكو وعدت بثلاثة ملايين دولار مساعدة (لكن بقي الوعد وعدًا).

ثمة من علق بظُرف على مجمل المشاريع المعروضة قائلًا: «وإذا أنجزنا كل هذه المشاريع فماذا سيتبقى لنفعله في السنوات القادمة!».

بحثنا عن المكتبة الوطنية فلم نجدها وقيل إن هناك ٢٠٠ ألف كتاب في المخازن، أما المتحف الوطني فقد كان مغلقًا وإن وضح استكمال ترميمه من الخارج.

لجأنا إلى الدليل الصغير لفعاليات شهر يونيو، وكانت أولى صفحاته صادقة بالفعل رغم أنها تشير إلى أحد (المشاريع الثقافية الكبرى): معرض (المحفوظات الوطنية، ذاكرتنا).

قطعنا جادة فؤاد شهاب باتجاه الأشرفية، وأوغلنا في حي أرستقراطي تخفي أسيجة الأشجار داراته العريقة، وهبطنا أمام قصر باذخ العمارة البيروتية العريقة بلون أرجواني دافئ، وعندما شرع سليمان حيدر يدخل مقتربا بمجالات تصويره أوقفه الحراس. قلت: (أليس هذا متحف نيقولا سرسق؟ قالوا: لا، بل قصره. ودلونا على المتحف على مقربة خطوات بجوار القصر، وهو قصر آخر ناصع البياض صعدنا درجه الرخامي ثم دخلنا في رحابه فهالنا ترف الحفر البديع في الخشب الجوزي الذي يغطي الجدران، طابقان أُفسحا لبعض من كنوز الذاكرة اللبنانية، مخطوطات ووثائق تاريخية وصور قديمة وأفلام وثائقية نادرة. مجموعة من دُرر التاريخ تتشكل من جزء من المحفوظات الوطنية اللبنانية وجزؤها الآخر من محتويات المكتبة الوطنية التي كانت في مبنى البرلمان اللبناني والتي بُعثرت أثناء الحرب. انبعاث عجيب من ركام السنين وجوائح الحرب تضافرت في إنجازه أرستقراطية نبيلة راحلة ومؤسسة للمحفوظات الوطنية وجهود فنانين لبنانيين وصناع وتقنيين مهرة بقوا على قيد الحياة.

ومن معرض الذاكرة ننتقل إلى منطقة الوسط التجاري، فنجد انبعاثا لذاكرة إضافية، أعمق وأبعد غورًا في الأرض وفي الزمان.

مرة أخرى ألتقي بالمجاز في ملموس الحوادث.. فمنطقة الوسط التجاري وخاصة

ساحة الشهداء، هي من الأماكن التي كان استشهادها أليما وساحقًا عبر سنوات الحرب، تخرب معظمها. وبعد انتهاء الحرب وضعت خطة لإعمار وسط بيروت بطموح حداثي، أو حتى ما بعد حداثي، وتكفلت شركة (سولدير) بإنجاز المشروع، لكن ما إن شرعت الجرافات في إزالة خرائب الحرب ونبش الأرض، حتى نهضت بيروت التاريخ لتوقف الجرافات، وتقول: (مهلا، ثمة آلاف من الأعوام ترقد هنا، وسبع عشرة حضارة إنسانية تتعاقب آثارها تحت التراب). وقال فريدريكو مايور الأمين العام لمنظمة اليونسكو في تعقيبه على ما اكتُشف ـ بالصدفة ـ من آثار في وسط بيروت: «إنها تعتبر كنزًا فريدًا في العالم».

مكثنا نتجول في وسط بيروت مدهوشين من هذه المفارقة: قدرة الماضي على إيقاف الزمن ولجم جماح السباق إلى عمائر العولمة، فقرب مبنى البرلمان بساحة النجمة اشرأبت معالم مدرسة الحقوق الأولى التي بناها الرومان في القرن الثالث الميلادي وأكسبت بيروت لقب أم الشرائع. وثمة سور لمدينة فينيقية، وسور آخر وبوابة يعودان إلى الحقبة الكنعانية. أعمدة رومانية ونواويس ونقوش في الحجر لكتابات يونانية قديمة وقباء كنائس بيزنطية وبقايا قلعة صليبية في تل بيروت.

كل مفارقات الأزمنة كانت ماثلة في ساحة أبصارنا ومرمى الخطوات في وسط بيروت: ساحة رياض الصلح والدار الكبيرة مكتملًا الترميم، بقايا الأبنية التي دمرتها الحرب، واجهات الأبراج العصرية، والأرض التي تكشف أحشاؤها ما تكتنزه من عصور وحضارات للكنعانيين والفينيقيين واليونان والرومان والعرب والمماليك.. وعلى السطح الانتداب الفرنسي وزمن الاستقلال والحرب الأهلية.

سفر هائل للثقافة التاريخية دوخ رءوسنا وأرهق أقدامنا، فآثرنا أن ننتقل إلى فعاليات برنامج العاصمة الثقافية (٩٩) الصغير، برنامج شهر يونيو.. فلم نسترح!

كان هناك أكثر من ثلاثين معرضا في أكثر من عشرين صالة عرض شاهدنا منها معرضًا لمحمد القيسي في (غاليري أبوستروف)، والثاني لبولاند نوفل في (غاليري مرايا) ومعارض لسيمون صقر، وريتا عون، وطلاب جامعة البلمند. ولاحظنا ما لاحظته الناقدة التشكيلية الدكتورة زينات البيطار، من أن «الفنان اللبناني ملوّن بالفطرة وحساس

لمسألة تناغم الضوء واللون، فالغنائية اللونية هي سمة الفن اللبناني اليوم» رغم أنف ستة عشر عامًا من الحريق. تذكرت أن ذلك يشرق بقوة في لوحات فاطمة الحاج ومحمود صفا ووهيب بتديني، وتمنيت لو أشاهد معرضًا شاملًا وجماعيًا لكبار مبدعي لبنان اليوم، وبشرتني الدكتورة زينات البيطار بحدث ضخم يتهيأ للتحقق هو (بينالي بيروت الدولي للفنون التشكيلية) الذي يكوّن معرضا للفن التشكيلي العربي الحديث في القرن العشرين. لكننا لم نسعد بمعايشة تحقق هذا الحدث إذ كان سفرنا يسبقه.

برنامج شهر يونيو كان عامرًا، رغم أن الزخم الأكبر كان ينتظر شهر يوليو ليبدأ اندفاعه مع موسم الاصطياف! في البرنامج فاتنا ـ بسبب قصر الزيارة ـ الكثير من الندوات الفكرية والحفلات الموسيقية وعروض مسرحية زائرة وأخرى لفرق تجريبية لبنانية وإن كنا أدركنا عرضا زائرًا على مسرح المدينة للفرقة التونسية من تأليف وإخراج المنصف السويسي وعرضا آخر لمسرح الدمى في قصر الأونيسكو تحت عنوان «شو حلو.. يا قمر».

أما الأمسية (الثقافية) المدهشة فقد كانت في مناسبة عيد قوى الأمن الداخلي، وقد ترددت في حضورها جريًا على المألوف في استغرابنا لعلاقة (الأمن) بالثقافة أو الأدب أو الفن. لكن الأمر في لبنان يبدو مختلفًا.

ذهبت وإذ بفرق موسيقى قوى الأمن تصطف خارج قصر الأونيسكو في انضباط عسكري نعم، لكن في أناقة مرهفة أيضًا، أما في الداخل فقد كانت وجوه الثقافة مشاركة في هذا الاحتفال، وزير الثقافة وقد عاد من السفر، وأركان وزارته، وفي الصفوف الأولى رأيت الشاعر الكبير سعيد عقل. وتألق على المسرح ـ كعادته ـ الفنان وديع الصافي، وشدت بعذوبة ورصانة المطربة فاديا نجم.

في الطبيعة والحرية

شيئان أخرجانا من دروب بيروت للبحث عن امتدادات العاصمة الثقافية في الجبل وما وراءه، أولهما تعقب حال المهرجانات اللبنانية الدولية التي تقام صيفا في المناطق التراثية والأثرية كجبيل وصور وبيت الدين وبعلبك، وثانيهما ذلك الملف الجميل

الدقيق الذي قدمته لنا الملحقة الإعلامية النشطة زينة الجوعان وتضمن مجموعة كتيبات مصورة عن ملامح لبنان الطبيعية التي لم يكن ممكنا تجاهل تميزها.

تحركنا على عدة محاور خلال نهارات معدودة، إلى بعلبك، وإلى بيت الدين، وإلى جبيل. في بعلبك بوادي البقاع وعلى مبعدة ٨٥ كيلو مترًا من بيروت كانت أعمدة جوبيتر الستة تنتصب شاهقة لتطل على مجمع الآثار الرومانية بالغة الثراء، وفي قلبها كان الفنيون اللبنانيون يشيدون مسرحًا عصريًا مؤقتًا ليستقبل فعاليات مهرجان بعلبك الصيفي، وفي جبيل التي تبعد ٣٦ كيلومترا عن بيروت كانت بقايا الربيع تذكرنا باحتفالات إله النبت أدونيس الذي يموت في الشتاء ويزهر في الربيع، أما في بيت الدين على مبعدة ٤٣ كم من بيروت، فقد كانت جوهرة التشييد اللبنانية ـ قصر بيت الدين ـ نموذج العمارة المشرقية التقليدية العريقة والباذخة ـ تتألق في انتظار رئيس الجمهورية اللبنانية لينتقل إلى مقره الصيفي في هذا القصر، وفي باحته الكبيرة كانوا يشيدون مسرحًا لاستقبال فعاليات (مهرجانات) بيت الدين.

لقد تعجبت عندما قدمت لي مسئولة الصحافة في مركز إدارة المهرجان ببيروت ملف الفعاليات الأنيق الذي يستخدم في عنوانه صيغة الجمع (مهرجانات) بدلًا من مهرجان، لكنني بعد زيارة قصر بيت الدين ومكان المسرح وبعد أن تعرفت على اتساع البرنامج، أدركت أن استعمال صيغة الجمع حق مشروع للقائمين على هذه المأثرة الفنية التي هي مؤسسة ثقافية بذاتها، ساحة تتألق فيها باقة من موسيقى ومسرحيات ورقصات وأغنيات العالم الراقية، إضافة لما هو لبناني جميل وأصيل.

شيء آخر، مهم وشديد الأهمية، لفت نظري ونحن نجوب ربوع لبنان على هذه المحاور التي ذكرت، إنها الطبيعة سخية الجمال والمتنوعة بشكل نادر، الجبال الخضر، والأنهر الصغيرة والعيون، والسهل الخصب بين الذرا المتقدة بالشمس وراء الغابات، صواعد ونوازل مغارة جعيتا الملونة مذهلة الاتساع، ونهرها الجاري في أعماق الجبل.

كنز لفطرة الروح ومسرة للعيون لم أجد في برنامج العاصمة الثقافية إلا القليل المكرس لهما، بضع ندوات بيئية وكلمة موجزة، وخلا الجدل الثقافي من أي مداخلة حقيقية ترى أن البيئة قضية ثقافية كبرى لا تقل خطورة عن قضايا الكتاب والمسرح

والأوبرا. فالبيئة الفطرية الجميلة والحرية، هما ـ في ظني ـ وظن البعض ـ أهم دوافع وروافع تميز ثقافة لبنان.

حول تلك الثقافة، وفي شرفة بديعة تطل على خليج جونيه والجبل الذي تتناثر في حناياه الخضر بيوت ناصعة البياض، دعانا الكاتب اللبناني المعروف وممثل مجلة العربي في بيروت الأستاذ جهاد فاضل إلى (غداء عمل) ضم إلينا فيه الشاعر محمد علي شمس الدين والمفكر اللبناني منح الصلح. ومع طيب الطعام اللبناني ـ الذي هو ثقافة إنسانية أيضًا ـ وفي أحضان جمال خليج جونيه، انساب الحديث.

مما قاله المفكر منح الصلح في إطار موضوع العاصمة الثقافية «إن بيروت أوجدتها إلى حد بعيد الثقافة والانفتاح على العالم» وأرجع ذلك إلى مولد بيروت (التاريخية ـ الحديثة) في منتصف القرن ١٩ بعد أن أخرج إبراهيم باشا الوجود العثماني منها. ورأى أن «ما يصون بيروت هو وجود الحرية والديمقراطية لضمان قدرتها على التجدد. ولابد من الاعتراف أن الديمقراطية لا تدوم إلا مع روح القلق عليها والخوف من زوالها».

أما الشاعر محمد علي شمس الدين فقد حدد ثلاثة معان ينبغي الانتباه لها في شأن العاصمة الثقافية بيروت: أن تتلمس دائما ثقافة سلم أهلي، وأن تستعيد حرية الرأي والرأي المضاد ـ أي تكون مدينة نقدية، وأن تكون معاصرة من حيث اهتمامها واهتمام النخب الثقافية والسياسية فيها بالمؤسسات الثقافية الكبرى.

وبلور مضيفنا الأستاذ جهاد فاضل التأكيد على معنى الحرية فقال: «عندما يجري لجم الروح والنقد ويبدأ الكاتب أو الفنان يعد للعشرة قبل أن يكتب أو يبدع أو ينشر، فعلى كل العواصم الثقافية السلام».

رفيف

ونحن نغادر فندقنا تمهلنا قليلا، ورحنا نبحث بين العمائر المتطاولة وفي سماء الشوارع المنحدرة نحو البحر عن مصدر الغناء، إنه شريط جديد لفيروز تترقرق فيه بلحن جديد لزياد، (اشتقتلك.. إيه والله.. اشتقتلك)، فكأن حفنة فراشات ملونة مسحورة

بضوء النهار انطلقت تخفق في فضاءات غابة الباطون، الخرسانة، أو الأسمنت المسلح، تتقاطع في تحليقها مع بعضها البعض، ويدور حول بعضها البعض، لكنها لا تتباعد، كأنها تخاف أن تتلاشى إن انفردت في هذه الدنيا المختلفة.

وهل كانت كل أصوات الفرقاء التي أصغينا إليها في مجادلة (بيروت عاصمة ثقافية للعالم العربي (١٩٩٩)).. هل كانت شيئا غير ذلك؟

لقد أصغيت لشريط فيروز الجديد دون انقطاع ودون شبع من صوتها واللحن فيما بعد، أعجوبة أن ينجو صوت هذه السيدة من اجتياح السنين، وأعجوبة أن تستطيع التحول إلى فراشة تخفق بألحان زياد، كأن زمنا يحتضن زمنا آخر وينبض به.

أما جوهر الأغنيات ذاتها: «سلم لي عليه، واشتقتلك، وكان غير شكل الزيتون»، فإنها مقاربة أخرى لما كنا نبحث عن إجابة له.

فثمة إدراك في الأغنيات بتغير العالم، وثمة حنين لما كان، لكن المثير والخطير في زياد وأمه، التي انضمت إليه، هو الإقرار بحقيقة ألَّا سبيل لإرجاع الزمن، ولا معنى لترك الحنين يتأكلنا، فلنغنٌ ساخرين من فرط حنيننا، سخرية رقيقة حلوة.. تعيننا على الاستمرار في غابة مدن الباطون الجديدة. فالثقافة كما عرفناها: الكتاب، واللوحة، والمسرحية، واللحن الراسخ، كل هذا يواجه الطوفان، ولو كان بالإمكان رؤية موجات البث الرقمي لأبصرنا بالفعل طوفانًا!!

جزر المالديف

فاتنة المحيط.. يهددها المحيط

أكثر من ألف ومائة جزيرة ساحرة، تتناثر كزمردات يحيطها الفيروز وسط زرقة المحيط الهندي، يعتبرها السياح جنة الاستجمام في هذا العالم، ويخشى العلماء أن يبتلعها البحر في غضون خمسين سنة، لا أكثر.

بدأت الطائرة التي حملتنا من العاصمة السيريلانكية كولمبو، تخفض من ارتفاعها بعد ساعة من الطيران، وأعلن عن دخولنا مجال دولة المالديف الجوي، فاختفت الحدود بين الماء والسماء!

من النوافذ لم تكن هناك غير زرقة ناعمة تسبح في آفاقها سحب تضيء حوافها الشمس، وفي الأسفل تتناثر الجزر متباعدة عميقة الخضرة، تحيطها هالات بيضاء، وتنسرح منها هالات أوسع من اللون الفيروزي، ثم تنبسط حولها زرقة المحيط.

بعد دقائق من الطيران في المشهد الساحر أطفئت أنوار الطائرة وأضيئت لوحة الإرشادات فعدلنا مقاعدنا وربطنا الأحزمة تهيؤا للهبوط، لكننا لم نر من حولنا سوى الماء، كأن الطائرة ستهبط في البحر، دقائق أخرى من الوجل والدهشة، ثم طمأنتنا عجلات الطائرة تلامس أرض المدرج في مطار المالديف الجوي الذي لم يكن غير جزيرة من جزر المالديف تحولت إلى مطار وكان المدرج يشغل محورها الطولي كله، من الماء إلى الماء.

كانت درجة الحرارة كما هي دائما على مدار العام في المالديف بين ٤ , ٣٠ درجة م و٤ , ٢٥ درجة م.

وفي صالة المطار الصغير النظيف أسفرت طوابير القادمين عن هويات أصحابها، سياح أثرياء قدموا من أوربا وأمريكا واليابان، وبعض رجال الأعمال، وأزهريون جاءوا من مصر للتدريس في المعاهد والمراكز الإسلامية. وكان رجال الجمارك المالديفيون يصادرون زجاجات الخمر من السياح الغربيين، فالمشروبات الكحولية ممنوع دخولها، لكننا رأيناها فيما بعد في مقاصف الجزر السياحية ذات الاستثمار العالمي!

غادرنا جزيرة «هولولي» التي تشكل المطار الدولي، وكان فندقنا في العاصمة «ماليه» التي أشار إليها دليلنا على مقربة نحو كيلو مترين من ساحل جزيرة المطار. جزيرة أخرى تلوح كثيفة الأبنية، مع القليل منها الذي يتجاوز الخمسة طوابق. وبينما يذهب الناس من مطارات العالم معظمها إلى فنادقهم في الباصات أو السيارت، ذهبنا نحن ـ كما سائر الناس ـ من المطار إلى الفندق في زورق! فالتنقل بين الجزر المكونة لدولة المالديف إما أنه يتم على الماء بالزوارق والسفن واليخوت، أو يتم فوق الماء بالطائرات التي تقلع وتهبط على سطح الماء ورأينا بعضها بلون أحمر ساخن تحمل اسم «تاكسي المالديف الجوي» وأخرى بيضاء مزركشة بألوان بهيجة تحمل اسم «الطائر الطنان»!

«ماليه» تحت المطر

كاد المطر أن يحبسنا في فندقنا الصغير بنهاية الشارع الرئيسي «ماجيد هي ماجو» في قلب العاصمة «ماليه»، وعلى مبعدة خطوات من ماء المحيط الذي يحدق بالعاصمة الجزيرة من كل جانب.

سألت «نصير» منظم رحلتنا عن وضع المناخ، فقال لي وهو يفتح ذراعيه: «في الماضي كنا نعرف، الآن لم نعد نعرف متى يبدأ المطر ومتى يتوقف».

التقطت كلمات نصير بانتباه شديد، فهي تصب في قلب موضوعي الذي قطعت من أجله هذه الرحلة الطويلة لأتأمل مصير دولة مهددة بالاختفاء تحت الماء في غضون عقود قليلة بسبب تغيرات المناخ على ظهر كوكبنا.

كان مناخ المالديف السابق مستقرا، يحفظ أهلها مواقيت تغيراته التي تحددها الرياح الموسيمة بدقة. والرياح الموسيمة كانت خفيفة الوطء عنها في بلدان أخرى مجاورة للمالديف كالهند.

فالرياح الموسمية كانت تهب على جزر المالديف مرتين في العام، أولاهما تأخذ الاتجاه الجنوبي الغربي وتأتي حاملة معها المطر، وثانيتهما تهب في الاتجاه الشمالي الشرقي خفيفة تصنع الموسم الجاف والممتد من نوفمبر إلى أبريل.

ورغم أننا كنا في الموسم الجاف فإن الأمطار لم تنقطع وبطريقة يصعب التحسب لها، فبينما الشمس ساطعة إذ بالسماء تحتقن وتغطيها السحب الداكنة وفي لحظات ينصب المطر عنيفا، وسرعان ما يتبدد وتعود الشمس، فننتظر احتقانا جديدا.

خطر لي أن نظافة العاصمة «ماليه» المشهودة، تعود لهذه الانصبابات من الماء السماوي، تهطل فينغسل كل شيء لكن الواقع أكثر من ذلك، فنظافة العاصمة الصغيرة هي اختيار أهلها رغم بساطة وفقر معظمهم، ملابسهم بسيطة تختزل أحيانا في مجرد إزار يعقد حول الوسط، لكن النظافة واضحة تشع بها وجوه الكبار والأطفال رغم سمرتهم الداكنة الأقرب إلى سمرة أهل سيريلانكا. لن تجد من يلقي في الشوارع بورقة أو عقب سيجارة. ومقارنة بمدن آسيوية أخرى في جنوب وشرق القارة أرى أن ماليه هي الأنظف على الإطلاق.

ما بين تلبد السماء وصحوها أخذنا نتجول في العاصمة حتى يستقر الجو فيمكننا الإبحار للتنقل بين الجزر، وتغطية ماليه بجولة على الأقدام لا تستغرق نصف ساعة على الأكثر، من أقصاها إلى أقصاها، فالعاصمة الجزيرة، ماليه لا تتجاوز مساحتها ١,٧٧ كيلو متر مربع ويسكنها قرابة ستين ألفا من عدد سكان المالديف البالغ عددهم ٢٤٤ ألف نسمة «بتعداد ١٩٩٥».

أي أن ربع عدد السكان يعيش في جزيرة ماليه، بينما الثلاثة أرباع الباقون يتوزعون على ١٩٩ جزيرة من الجزر المأهولة.

«جزيرة السلطان» هو الاسم القديم لماليه التي لم يعد بها سلاطين من البشر، وهي

بلدة متواضعة حية الطموح في مظاهر شوارعها الصغيرة وأبنيتها التي لا تتطاول كثيرا، والتي في معظمها مجرد بيوت بطابق أو اثنين أو ثلاثة وتحيط بكل بيت ـ صغر أو كبر ـ حديقة تطل من فوق أسوارها البيضاء النباتات الاستوائية وتتسامق في فضائها أشجار جوز الهند التي لا تغيب عن النظر أينما وليت وجهك في جزر المالديف.

ماليه شوارع صغيرة وبيوت خفيفة ذات حدائق وأشجار جوز الهند، وطرق مرصوفة بالحجر في المنطقة القديمة الأساسية من العاصمة، وصفوف طويلة من الدراجات على الأرصفة أمام المدارس والمعاهد بل أمام مجمع الوزارات ذاته الذي يتكون من مبنى بسيط من خمسة طوابق بلا مصاعد، تشغله عدة وزارات بينها وزارة البيئة التي كانت مقصدنا. أما السيارات فهي صغيرة وقليلة في الشوارع.

«لا. لقد تغيروا كثيرا». يخبرني زميلي سليمان حيدر بملاحظته على العاصمة التي زارها مع أستاذنا سليمان مظهر وأجريا فيها استطلاعا جميلا لـ «العربي» منذ أربعة عشر عاما. يقول لي إن الشوارع كانت كلها ترابية، ولا سيارات في الطرق، وبالطبع لم تكن هناك أكشاك هواتف محلية ودولية في الشوارع، ولم يكن هناك مبنى يتجاوز ارتفاعه مجمع الوزارات، الذي لا يزيد ارتفاعه على ثلاثة طوابق، الآن اختلفت الصورة. وهناك أبنية تصل إلى عشرة طوابق وبألوان تذكرك بمزاج المحيط الهندي الرائق كالأزرق والبنفسجي الفاقع والأبيض الناصع المحلى بشرائط حمراء برتقالية.

القلب القديم.. الجديد

وسط المنطقة الشمالية من المدينة هو القلب العتيق والأنيق لها، ففيه الفيلّات البديعة والأبنية الحكومية والمعاهد والمساجد وقصر الرئيس. وفي فترة لا تتجاوز ساعتين يمكن زيارة الأماكن اللافتة في العاصمة.

فهناك مسجد الجمعة الكبير أو مسجد السلطان محمد، وهو يضم أيضا المركز الإسلامي الذي تهيمن على بنائه الأبيض الناصع قبة ذهبية تشد البصر من كل الاتجاهات، والمسجد من الكبر بحيث يمكنه استيعاب خمسة آلاف من المصلين في وقت واحد. وجدران المسجد الداخلية مزينة بزخارف إسلامية بديعة محفورة في الخشب ورغم أن

المركز الإسلامي مضى على افتتاحه أكثر من ١٤ عاما إلا أنه يبدو جديدا تماما لفرط نظافته والعناية به.

ميناء ماليه الداخلي الذي بُني بين عامي ١٦٢٠ ـ ١٦٤٨ لا يزال حيويا وفاعلا، والآن يشكل مع الواجهة البحرية شاطئا متعدد الوظائف، فهناك قسم متخصص لرسوم مراكب «الدهواني» العاملة بين الجزر، وهناك جزء متخصص لرسوم مراكب الصيادين يواجه سوق السمك التي رأينا فيها الصيادين يبسطون محصول صيدهم من أسماك التونة معا لتباع بالجملة، وثمة بيع بالمفرد، فترى المالديفي يشتري سمكة أو سمكتين، ويذهب بهما إلى جزء في السوق مخصص «للتشقية». يضع سمكاته أمام «جزار» أسماك محترف، شديد المهارة، يرتدي قفازا من المطاط وبمدية حادة يضرب عدة ضربات طويلة وعرضية فينظف ويُنصِّف السمكة الواحدة إلى شريحتين كبيرتين من لحم التونة الأحمر، الذي عندما يُشوى يشبه لحم الضأن أو الأبقار الصغيرة. وهم يملحونه ويدخنونه ويباع جاهزا مثل أسماك «الرنجة» بكميات كبيرة. وسوق السمك توجد حوله أسواق للخضر والفاكهة والبضائع المحلية، وكلما مضينا يمتد الميناء فنجد مرسى لليخوت وآخر للسفن الحربية. وما أن ننعطف شارعا واحدا إلى الداخل حتى نجد أنفسنا في تلافيف الذاكرة البعيدة، قليلا، والقريبة أيضا، لجمهورية المالديف.

نعبر الحديقة المواجهة لوزارة الدفاع ذات الأسوار العالية البيضاء ونمر تحت علم عال وكبير للمالديف يرفرف أحمر متوهجا، وبوسطه مستطيل أخضر يتمركز فيه هلال أبيض ناصع. وبعد خطوات نقف على أثر يؤرخ للإسلام في المالديف يدي «ميدهو زيارات» وهو مزار يذكِّر بالرجل الذي أدخل الإسلام إلى المالديف عام ١١٥٣م: أبو البركات يوسف البربري. وهو داعية مغربي وصل إلى المالديف وتحكي عنه الذاكرة الشعبية أنه أبطل عمل «الجني» الذي يخيف سكان الجزر فدخلوا الإسلام بعد أن شدتهم بركات هذا الداعية، إضافة للقناعة بالدين الإسلامي بعد أن تعرفوا على تعاليمه السمحة.

هذا الانتقال مما قبل الإسلام إلى ما بعده شاهدناه في أثر جميل ومدهش بقب ماليه يواجه أجمل مساجد ماليه ـ «هوكوروميسكي» أو مسجد الجمعة ـ وهو مسجد

بني عام ١٦٥٦م أثناء حكم السلطان إبراهيم إسكندر وقد زينت جدرانه الخارجية والداخلية بمحفورات جميلة من الزخارف العربية. هذا السلطان نفسه هو الذي أضاف للمسجد عام ١٦٦٥م مئذنة بديعة، اسطوانية وناصعة البياض، يدعونها «مونارو» (منارة) نسخت عن شكل إحدى المنارات التي رآها السلطان أثناء زيارته لمكة عند أدائه لفريضة الحج.

ولا يفوت قلب ماليه أن يحتفظ بآثار التاريخ السياسي المعاصر وسط إضاءات التاريخ الروحي، فثمة مقبرة لمحرر المالديف من نير البرتغاليين «محمد شاكور وفانو» الذي يُحتفل بذكراه في يوم المالديف الوطني في اليوم الأول من شهر ربيع الأول كل عام. ولم يكن هذا الرجل مجرد محارب وطني، بل كان مصلحا أدخل الكثير من الإضاءات في نظام التعليم والنظام المدني بالمالديف.

بضع خطوات أخرى ونصل إلى بناء صغير أنيق ذي عمارة كولونيالية يسمونه «مولياجي» كان السلطان «شمس الدين» الثالث قد بناه لابنه قبل الحرب العالمية الأولى. ولم يسكنه الابن، لكنه تحول إلى «قصر رئاسي» بعد تحول المالديف إلى جمهورية عام ١٩٥٣.

والآن يقيم في هذا القصر الرئيس محمد عبد القيوم رجل المالديف الرسمي والشعبي، وهو أحد علماء الشريعة تخرج بتفوق في جامعة الأزهر في القاهرة ويدعونه «رجل كل الجزر» إذ يحظى بشعبية واسعة. وقد حدثنا أحد أعضاء البرلمان المقربين منه بأنه رجل خارق الذاكرة يعرف كل سكان بلاده فردا فردا بالاسم، صغروا أو كبروا، ولا استغرب ذلك فقد كان الأول حتى على العرب عندما تخرج في الأزهر. ولم نحظ بلقائه الممكن لأنه كان في زيارة لألمانيا أثناء وجودنا في ماليه.

جنان عائمة... ولكن!

صغر المدينة، الجزيرة، العاصمة، ظل يغرينا دائما بالمشي برغم أننا حفظنا معالمها، شوراعها الصغيرة وأفنية البيوت التي يتسامق فيها نخيل جوز الهند والمحال الصغير التي تبيع كل شيء. وثمة مجمعات تجارية حديثة رأينا واحدا منها قرب الميناء.

ومع نهاية كل جولة من جولاتنا الطويلة الدوارة على الأقدام كنا نجد أنفسنا دائما عند فندقنا في منصة تشكل نصف دائرة تطل مباشرة على المحيط، ولا حظنا أن المنصة مرتفعة عن الشارع ويفصلها عن الماء سور أسمنتى يلف شمال المدينة كلها، وخارج السور تتراكم الكتل الخرسانية الضخمة المتشعبة مُكسِّرة ما يهب على الشاطئ من أمواج المحيط.

المدهش والمفزع فيما لاحظناه عبر جلساتنا الطويلة في هذه الشرفة المالديفية على المحيط الهندي، أن منسوب المياه في المحيط يكاد يكون في منسوب الشارع، مما يعني ببساطة أن أقل هياج للبحر كفيل بإغراق العاصمة، فما بالنا بما يقال عن احتمالات ارتفاع مستوى مياه البحار والمحيطات في العالم كله كنتيجة لارتفاع درجة حرارة جو الأرض؟! هواجس مفزعة خاصة عندما ينطق واقع الحال بإمكان حدوثها!

كان البحر في ماليه موجودا أينما يممنا وجوهنا، وكانت الشوارع تحت أقدامنا، وتحت أعيننا كان التقارب الواضح بين المنسوبين، فماذا يفعل الحاجز الخرسانى وكاسرات الأمواج في مواجهة الرعب المستقبلي؟!

إن «سيناريوهات» المستقبل المؤسسة على معطيات ونماذج علمية تقول إن درجة حرارة الأرض ـ التي هي في ارتفاع ملحوظ ـ سترتفع أكثر، نتيجة لزيادة تصاعد غازات الدفيئة الأرضية بسبب المحروقات وغيرها ومن ثم اتساع ثقب الأوزون. (وإن لم يكن ذلك هو السبب الوحيد لارتفاع درجة حرارة جو الأرض).

يقول العلماء إن التسخين سيستمر وسيبلغ عام ٢٠٢٥ ميلادية «أي بعد ربع قرن من الآن» حوالي درجة واحدة مئوية زيادة، وهذه الدرجة الزيادة شيء خطير إذا عرفنا أن درجة حرارة الكوكب منذ ١٨ ألف سنة «أي منذ العصر الجليدي» لم ترتفع غير خمس درجات مئوية. وفي تداعيات زيادة درجة حرارة الأرض سيذوب الكثير من جليد القطبين، ومن ثم يُتوقع أن يرتفع مستوى سطح البحر ٢,٣٤ بوصة ـ أي ٦ سم ـ كل عشر سنوات، وبمعدل يتروح بين ٣ ـ ١٠ سم.

وبحسبة بسيطة فإنه خلال خمسة عقود من السنين ستتروح الزيادة في ارتفاع سطح

البحر بين ٣٠ـ ٥٠ سنتيمترا. وهذه العقود الخمسة هي الفترة التي يتوقع العلماء أن تختفي بعدها جزر المالديف تحت سطح الماء.

لقد ذهبت إلى المالديف حاملا السؤال الأصعب على نفوس أهلها الطيبين، فمجرد توجيه السؤال في حد ذاته يشكل ألما لا حدود له. فإذا كنت تسأل إنسانا: هل ستختفي بلدك تحت سطح البحر بعد عقود قليلة، فأنت تغمره بسيل موجع من الصور المريرة كاختفاء بيوت الأهل وشوارع الأحباب وضياع من يبقى على قيد الحياة بعد هذه الجائحة المرعبة.

ذهبت مرات إلى وزارة البيئة والتخطيط والقوى البشرية ـ فهي ثلاث وزارات معا ـ ولم أجد ترحيبا كبيرا، وعندما نجحنا في الوصول إلى الوزير عبر وساطة طيبة من أحد أعضاء البرلمان المهمين، هو مدير المدرسة العربية الإسلامية إبراهيم زكريا موسى، كان الوزير يتجه إلى المطار في زيارة خارج البلاد، وكلف أركان الوزارة المعنيين بالإجابة عن تساؤلاتنا.

الشيء نفسه حدث في وزارة السياحة وإن كانت الاستجابة أسرع في حدود معرفتهم البيئية وعلامات استفهاماتها المؤثرة على السياحة التي هي اختصاصهم.

وقبل أن يتبلور المتاح من الإجابات حول هذا السؤال المرعب، كان أن أفلتنا لبعض الوقت ناشدين الجمال الماثل والفتنة القائمة في جزر المالديف، فانطلقنا على مياه المحيط باتجاه الجنان العائمة.

بينما كنا نهم بالاستقرار في القارب الشراعي المزود بمحرك ديزل، تأرجح القارب بشدة، وسألت طاقم القارب إن كانت هناك سترات نجاة، فأبدوا دهشة بالغة اندهشت لها، ثم زالت دهشتي إذ انتهيت إلى أنني أتحادث مع بشر شوارعهم وطرقهم هي مياه المحيط والزوارق هي دراجاتهم وسياراتهم.

فالمالديف دولة معظمها من الماء ونسبة اليابسة فيها هي ١ ٪ من كل حدودها بينما ٩٩ ٪ من حدودها مياه إقليمية. فدولة المالديف هي أرخبيل تتناثر فيه ١١٩٠ جزيرة مرجانية تنتظم في مجموعات من الجزر عددها ٢٧ وكل مجموعة تسمى «أتول»

والكلمة دخلت إلى اللغة الإنجليزية من لغة أهل المالديف المحلية المسماة «ديفى» ولا توجد بين هذه الجزر جميعها إلا ٢٠٠ جزيرة مأهولة بالسكان المحليين إضافة إلى ٧٠ جزيرة تحولت إلى منتجعات سياحية باستثمارات عالمية مختلفة.

انطلق قاربنا من الميناء على مياه صافية تبدو معها بطون الزوارق الغائصة جلية وكأنها وراء زجاج متماوج مخضر. وكانت أقرب الجزر إلينا هي جزيرة «فونادهو» المخصصة كمخزن لوقود الدولة، وكانت مستودعات النفط الضخمة قائمة تطل من بين خضرة النباتات الاستوائية وجذوع نخيل جوز الهند.

وظاهرة تخصيص جزيرة لغرض محدد هي أمر لافت في دولة الجُزر، فهناك جزيرة «ثولو زدهو» وجزيرة «دهيفوشي» مخصصتان للصيد، وجزيرة «كودا باندوز» تعمل كمشتل للنباتات النادرة، كما أن هناك جزيرة بها محطة الإذاعة والتليفزيون.

بدت السماء قريبة بزرقتها المتآلفة مع فيروزية المياه، وأخذت الجزر تأتي وتروح، منظر ساحر كأن كل جزيرة زمردة، بإطار أشهب، داخل هالة من الفيروز وسط زرقة المحيط. فالجزر مسطحة بلا هضاب أو تلال، ومعظم أراضيها لا ترتفع كثيرا فوق سطح البحر إلا بأدغال نباتاتها الاستوائية وغابات أشجار جوز الهند فيها، وهي سطح لحيود مرجانية تستقر على قاع المحيط ورمالها البيضاء مجرد طحين من المكونات الكلسية للشعاب المرجانية، وفي هذه الأرض تنبت الأشجار الاستوائية المقاومة للملوحة فالمياه العذبة نادرة إلا من بعض العيون القليلة في الجزر الكبيرة.

مررنا في الشمال بجزيرة كبيرة اسمها ثودو وبها رأينا بقايا معبد بوذي، وفي هذا المعبد عام ١٩٥٨ تم اكتشاف تمثال ضخم لبوذا في إحدى الغرف وبداخل التمثال عُثر على بعض الأواني الفضية وسوار ذهبي ونقود رومانية يعود تاريخها إلى العام ٩٠ قبل الميلاد مما يعني أن هذه الجزيرة كانت معمور منذ قرابة ٢٩ قرنا.

تأملت عدد القرون، وتذكرت توقعات المستقبل، التي تحدد نصف قرن كحد كاف لغرق كل شيء.

حقا البناء صعب لكن الهدم ـ أي هدم ـ هو أسهل بكثير سواء كان بيد الإنسان أو

بيد الريح أو المطر أو البحر. وقررت أن أرجئ التفكير في سؤال الغرق الكبير المتوقع لآلاف الجزر الفاتنة في القرن القادم، بإغراق نفسي في الفتنة المتجلية أمام عيني ونحن ننطلق فوق مياه المالديف وبين جزرها.

زمرد النباتات الاستوائية في الجزر، ولؤلؤ الرمل على شواطئها، وفيروز المياه الصافية حولها، وزرقة المحيط التي تلف كل شيء، وحياة بشرية تتروح بين الحياة في القاع، أو فوق البحر بل فوق السحاب. إنه الفارق بين حياة أبناء الجزر البسطاء وحياة المستجمين القادمين من كل أنحاء العالم لقضاء شهور العسل، وتلقي قبلات الشمس المدارية، والغوص على كنوز المرجان الملونة.

من قاع المحيط إلى ظهر السحاب

مضى بنا الزورق المالديفي التقليدي «الدهواني» منطلقا في رحاب المالديف، أي مسرعا فوق الماء الكثير ومقتربا من اليابسة القليلة المتناثرة كجزر متقاربة. وكما البلاد والمدن المختلفة تتبدى الممرات والرحبات المائية بين الجزر وكأنها شوراع وميادين بها مشاة وراكبون ومركبات ومحال، لكن ذلك كله بمنطق جزر المالديف أي بمنطق بلد ٩٩ ٪ من مساحته مياه إقليمية.

وفي هذه الشوارع والميادين والطرق المائية تتسابق زوارق سريعة تنافسها الزوارق الشراعية التقليدية التي يذكرني قيدومها العالي المقوس إلى الداخل بمراكب الفينيقيين والفراعنة، مما يرجح أنهم مروا من هنا وتركوا آثارهم في الناس والزوارق، وهو برهان جديد على قدم إعمار هذه الجزر، ومن ثم إضافة لأحزان الهواجس التي تتحدث عن مستقبلها القريب، فخمسين عاما من عمر الأمم والشعوب هي ساعة من عمر الإنسان الفرد.

كانت الزوارق تطير مسرعة فوق الماء الفيروزي والسفن تمخر بحذر عباب الممرات بين الحيود المرجانية المستخفية تحت سطح الماء القريب، وثمة يخوت فارهة بيضاء كانت تتناثر هنا وهناك، أما المدهش فهو السفن التي تعمل كسوبر ماركت عائم يزود بعض الجزر السياحية بما تريد، وهناك مراكب هي محال بقالة يلجأ إليها السكان

المحليون بقواربهم لشراء حاجياتهم القليلة، فثمة اكتفاء جميل مؤسس على القناعة لدى سكان الجزر يجعلهم شبه مكتفين ذاتيا مما يعطيه البحر ومما تمنحه اليابسة.

رسونا قليلا على إحدى الجزر القريبة من العاصمة واسمها فيليجيلي لنتفقد حياة أهلها، بيوت بسيطة وسط مساحات مزروعة بنخيل جوز الهند وشجر الموز وأشجار الخبز، وثمة ضريح صغير مسقوف بالقرميد وقد رشقت في زوايا سقفه رايات صغيرة بيضاء.

وفي باحة مسجد صغير كان مؤذن القرية «ويدعى مودهيمو» يعلم الأولاد الجالسين متربعين تلاوة القرآن. الناس خجولون والنساء شديدات التحفظ، والرجال يهبطون قبل الفجر بزوارقهم لصيد أسماك التونة بالشص والحربة. ومما يصيبون تكتمل متطلبات الحياة البسيطة على الجزر البكر، فالسمك يكون لب الطعام والخبز يصنعونه من ثمار نبات نشويّ القلب، وشجرة جوز الهند تكمل كل شيء: فمن جوف ثمارها يشربون حليبها المرطب للجوف، ومن لبها يأكلون ويتحلون، أما الجذوع فتغطى جدران وأسقف البيوت وهياكل الزوارق، ومن أوراقها ينسجون أغطية للنوافذ وأوعية لحاجياتهم، وما يزيد على ذلك يبادولنه مقابل الأرز والشاي والخضر المجلوبة معظمها من سيريلانكا.

حياة بسيطة أقرب إلى التقشف ورمال الجزر البيضاء الناعمة ترحم الأقدام العارية فلا تحتاج ـ غالبا ـ إلى أحذية، بينما درجة الحرارة المعتدلة والأقرب إلى الدفء تختزل ملابس الرجال إلى مجرد إزار من قطعة قماش واحدة.

وبالطبع تختفي وراء هذه البساطة مكابدات البحر، والريح التي تهب عاصفة أحيانا، والمطر الساحق، وصراعات البشر العادية التي تعني في هذه الجزر أن تحمل عائلة كل متاعها القليل في زورق ينقلها إلى جزيرة أخرى تكون غير مأهولة في الغالب. أما أفراح الحياة فهي بسيطة أيضا وقد شاهدنا رحلة فريق كرة قدم ذهب يتبارى مع فريق جزيرة أخرى وكانت الزوارق تحمل الفريق والمشجعين وبحماس جرت المباراة، ورغم أن الهزيمة كانت من نصيب الجزيرة المضيفة فإن الموائد مدت بطول الشارع تحية للفريق الزائر ومشجعيه من الجزيرة المجاورة!

تلك هي حياة المالديفي على الجزر. لكن هناك حياة أخرى يكاد لايعرفها، بل لا يتخيلها، سكان البلاد المحليون، وهي حياة السياح في الجزر السبعين التي حولتها الاستثمارات العالمية إلى مرافئ مغمورة بكل هذا السلام الجميل والوفرة المواتية على جزر كأحلام فيروزية وسط المحيط الهندي.

لقد بدأ عصر السياحة الذي أسس لمالديف جديدة عام ١٩٧٢ عندما أقام مستثمرون إيطاليون منتجعا سياحيا في جزيرة كورنبا ـ والاسم مأخوذ عن الاسم المحلي لثمرة جوز الهند «المكورة» ـ وهي من بين جزر مجموعة ماليه «أتول ماليه». وبعد ذلك اكتشف الأوربيون الباحثون عن الخيال جُزرًا خضراء وسط المحيط، شواطئها رمال مرجانية بيضاء، تحف بها بحيرات فيروزية، ونخيل جوز رالهند يميل قرب حوافها باتجاه الماء نحو المزيد من الانفراد بالشمس.

وبالقرب من شواطئ هذه الجزيرة تحلو السباحة والغوص في أنظف مياه بأنظف محيطات العالم، حيث تتراءى الكنوز الملونة للحياة تحت الماء في كنف الشعاب المرجانية ساحرة الأشكال والألوان.

المالديف كانت فتحا جديدا في أسواق السياحة بالغرب، فهي سياحة تتيح الهرب من ضغوط المجتمع الصناعى وصخب المدن العصرية إلى جزر يتعلم فيها الإنسان أن يعيش مسترخيا لا يفكر في شيء غير الاستجمام، والطعام الطيب، وتأمل جمال الطبيعة وسط مناخ ناعم وهواء شفيف. وإن راق له السهر فليكن تحت سماء أبنوسية تتلامع فيها النجوم وعلى رمال يشدو لها وشيش البحر. كل ذلك عبر خدمات فندقية راقية جدا وذات بنية تحتية متقدمة ابتداء من تحلية المياه حتى التكييف المركزى. أما البشر أبناء البلاد فلا أرق منهم عودا وروحا واستعداد للتعاون؛ تراهم متناثرين في صمت بين حنايا هذه الجنان متأهبين للخدمة فور أن تطلب منهم. شيء واحد لا يمكنهم تلبيته، وهو أن يقبلوا احتساء كأس يدعوهم إليه مستجم غربي، فالمالديفي إذا عاقر الخمر يحكم عليه بالإبعاد سنة كاملة في جزيرة نائية يتعبدفيها ويكفر عن ذنبه حتى تقبل توبته.

السياحة دماء جديد ضخت وتضخ في جسد الاقتصاد المالديفي المتواضع، لكن هذه السياحة ـ كما الدماء الغريبة ـ لها مخاطرها. فالأبنية السياحية الجديدة والسياح

المتدفقون عبء جديد على النظام البيئي المرهف في جزر المالديف. فنهب الكلس المرجانى يتزايد لتلبية الحاجة لمواد بناء لتشييد الأبنية الجديدة، وهذا يضعف الحيد المرجانى الواقي حول الجزر. كما أن الغوص السياحى يؤدي إلى موت لوامس المرجان الحي بمشي السياح عليه أو بمجرد لمسهم له.

وموت المرجان يعني موت الحيد المرجاني أي القضاء على السياج الطبيعي للجزر في مواجهة أمواج المحيط. كما أن زيادة انسكاب النترات في مياه الصرف أدت لنمو متزايد من الطحالب البحرية الضارة.

أما المزيد من مراسي الزوارق السياحية فهي أداة لتخريب الحركة الحلزونية الطبيعية لترسيب الرمال حول الجزيرة ومن ثم تآكل الشواطئ في جانب وامتدادها العشوائى في جانب آخر.

المالديف جنة سياحية هبتها في بيئتها الجميلة المرهفة، والسياحة بلا ضوابط تشكل تخريبا لهذه البيئة، ومن ثم تآكلا في مستقبل السياحة ذاتها. فكأن المستقبل كله في خطر، خطر السياحة، وخطر المناخ، فماذا تفعل المالديف؟

كثير من الخوف.. قليل من الأمل

بعد دوران كثير حول الجزر ومكوث بها استقر بنا المقام في العاصمة من جديد، ورحت أطارد من أتوسم فيه تحديد سؤالي عن المستقبل والإمساك بخيط في إجابته.

وزارة البيئة والتخطيط والقوى البشرية. وزارة السياحة. كان الوزيران غير متاحين فأحدهما خارج البلاد، والآخر أوكل أمرنا إلى أركان وزارته بعد أن استطعنا الوصول إليه وهو في المطار يتأهب للطيران في زيارة خارجية. التقيت السيد محمد زهير من وزارة البيئة، والسيد موسى زامير حسان المحلل الاستراتيجي البيئي من وزارة السياحة.

ومن خلال اللقاءات والاطلاع على ما أتيح من مطبوعات ونشرات كانت الرؤية، وإن ظلت مفتوحة الأفق!

إن السياحة في المالديف عمادها البيئة البحرية، فهناك أكثر من ١٤٠ موقعا للغوص

تمت بها ٣٣٦ ألف طلعة غوص أثمرت أكثر من ١٠ ملايين دولار في سنة واحدة، ومن ثم فالمعادلة صعبة بين هشاشة البيئة ومتطلبات هذه السياحة.

اتخذت حكومة المالديف بعض الإجراءات لإحداث بعض التوازن، فتقرر أنه مقابل كل جزيرة تُستثمر سياحيا تُترك جزيرة كمحمية طبيعية لا تمس. والجزر المستثمرة عددها يمثل ٦٠ ٪ من بين الجزر الـ ١١٩٠ في دولة المالديف ويخطط ألا تزيد خلال عقد من الزمان على نسبة ١٢ ٪ من عدد الجزر مع ما يماثلها من محميات.

من ناحية أخرى جرى تقنين يقلل عدد السياح بكل جزيرة حتى لا يشكلوا عبئًا على بيئة الجزيرة وذلك بألا تزيد مساحة المباني على ٢٠ ٪ من مساحة الأرض. وتحديد ارتفاع أي بناء بطابقين لا أكثر.

أما عن الإجراءات البيئية الضابطة فقد تحددت في: عدم المساس بأي تكوين بيئي، وبالتالي منع قطع الأشجار الكبيرة والنباتات النادرة على الجزر، وإبعاد أي بناء خمسة أمتار على الأقل من خط الساحل للحفاظ على نباتات الساحل، وتشجيع كل ما يؤدي إلى الحفاظ على الحيد المرجاني، مثل وضع حواجز الموج، ومنع أخذ الرمل وفتات المرجان كمواد للبناء إلا من مواقع محددة. ويمنع على السياح منعا باتا الصيد إلا في أماكن وأوقات محددة وبالصنارة فقط ولأنواع بعينها. ويُجرَّم إخراج الأصداف الكبيرة والسلاحف البحرية أو منتجاتها، وكذلك الاستاكوزا وبعض الأسماك من البلاد. كما يُجرَّم إلقاء القمامة في غير الأماكن المخصصة لها.

كل ذلك طيب ولا بأس به، لكن ماذا تراكم فاعلين في الخوف المستقبلي الكبير؟! الخوف من ارتفاع مستوى سطح البحر وغرق جزر المالديف، التي لا يعلو معظمها أكثر من ١,٥ متر فوق سطح البحر؟ ثم إن معظمها يشبه في تكوينه الأطباق، أي عالية الحواف ومقعرة الداخل مما يعني غرقها ليس فقط من غمر مياه البحر لها، بل لمجرد هبوب عاصفة بحرية من عواصف اضطراب المناخ العالمي؟

سألت المعنيين وما تجمع بين يدي من أوراق، وكانت الإجابة مزيدا من الأسئلة، هل مياه البحر ستعلو حقا؟ إنه سؤال تفرضه درجة الحرارة التي ارتفعت وبشكل

ملحوظ في العالم كله، والمناخ الذي اضطرب، والعواصف التي اكتسحت أكثر من مكان في المحيطين الأطلسي والهادئ ولم يعد لها غير المحيط الهندي. وحتى أعثر عن إجابة مرئية كان ينبغي أن أسأل عن تغيرات «الطوبوغرافيا» في جزر المالديف.. هل تآكلت مساحة جزيرة هنا أو هناك؟ هل اختفت جزر؟ هل ماتت من تصاعد الماء المالح أشجار؟

يبدو أن عدد الجزر المالديفية لم يتفق عليه أحد فالتاجر سليمان السيرافي «عام ٨٥١م» ذكر أنها ١٩٠٠ جزيرة والمسعودي «عام ٩١٦م» ذكر أنها ٢٠٠٠ جزيرة، وابن بطوطة «عام ١٣٠٤ ـ ١٣٦٩م» قال إنها ٢٠٠٠ جزيرة تعد من عجائب الدنيا. ولم يتوقف الاختلاف حول عدد الجزر على القدامى، فالمحدثون أيضا يختلفون، ولعل ذلك مرجعة تحديد مفهوم الجزيرة فهناك «نتوءات» مرجانية صغيرة لعل بعضهم عدها جزرا.

فإذا أردنا تحديد تآكل الأرض من واقع هجر الناس للجزر تجد الاختلاف أيضا، فالهجرة قائمة لأسباب شتى: العواصف التي تكتسح جزرها وتحولها إلى أطلال، والهزات الأرضية التي ترج قاع المحيط والانزلاقات الأرضية التي تجعل قطعة من جزيرة أو كلها تغوص تحت الماء. هذا إضافة للإقفار الذي يسببه اجتياح الأغراب لبعض الجزر كما حدث من هجوم تاميلي على جُزر الأطراف.

ومن أسباب الإقفاز الغريبة، توهم بعض سكان الجزر بوجود أرواح شريرة تهدد حياتهم فيتركون جزيرتهم إلى أخرى. باختصار، لم أجد في البحث عن تغيرات طوبوغرافيا المالديف ما يوثق لمأزق حالي مع ارتفاع مستوى سطح البحر. لكن المؤكد أن حرارة الأرض ترتفع؛ والمناخ يضطرب، وأن هواجس العلماء المبكرة غالبا ما تتحول إلى حقائق متأخرة.

مضت أيامنا في المالديف سريعا، وبينما كنا نركب الزورق مغادرين ماليه إلى المطار الجزيرة، لم يكن هناك غير الليل، أسود في اضطراب الموج، وأسود خلف لمعان النجوم المرتعشة في السماء البعيدة.

أحسست بخوف شديد من انقلاب الزورق الذي يتلاعب به المحيط، وما من أنيس غير أضواء تخفت خلفنا على شاطئ ماليه، بينما تنوس أضواء المطار الذي على غير عادة مطارات العالم، به فنار يهدى ضوؤه السفن. ووجدتني أفكر في «الدهيفي» الذي يسكن مخيلة المالديفيين الخرافية أو «الجنى» كما يسمونه، وهو يرتبط لديهم بكل حدث شرير خارق للعادة. وهم في مواجهته يلجأون إلى تلاوة القرآن لإحباط تدميره، وأحيانا يلجأون إلى رجل شبه ساحر يمارس نوعا من الطقوس اسمه «الفانديثا».

فهل ذلك «الدهيفي» أو «الجني» ليس إلا ما تخبئه مياه المحيط في الغد؟

ألم أقل بأن بحثي عن إجابة للسؤال قد تحول بدوره إلى أسئلة؟!

الهند (مومباي)

من أبراج المجوس إلى معابد الفلوس

في مدينة الزحام والأحلام والبؤس والذهب، اقتحمنا أبراج الصمت المجوسية حتى آخر أبوابها الممنوعة، وصعدنا إلى ذرا الحدائق المعلقة، ثم هبطنا إلى بحيرة بانجانجا العكرة «المقدسة»، وقرعنا الأجراس في معبد «ربة» الثروة والحظ السعيد، وانتهينا على صراط داخل البحر لنقرأ الفاتحة عند مقام «حاجي علي» العائم فوق الماء.

مطار «ساهار» الدولي، في الثالثة بعد منتصف الليل.. تواضُع أقرب إلى الفقر، وأضواء لا سطوع فيها، وبعض الوقت للخروج. وها هي مومباي قبل الفجر.. شوارع ضائعة في حقول ترابية، تحف بها أشجار جوز الهند السامقة والموز الخفيض، أشباح تبرز بالكاد في العتمة لتذكرك بأنك في موضع لا تنساه أمطار الرياح الموسمية الغامرة، ومع ذلك تكاد الآفاق تخلو من الخضرة، ومع الإيغال في قلب مامباي يتكشف أكثر أن البيوت تلتهم الأشجار، والبشر تضيق بهم البيوت، بيوت صغيرة فقيرة في منطقة «ماهيم». وعلى الأرصفة وفي قطع الأرض الفضاء أمام البيوت تتكدس نائمة آلاف عربات «الريكشو» ثلاثية العجلات، وسيارات التاكسي الصغيرة باللونين الأصفر والأسود. تشبه جميعها جحافل ساكنة من خنافس «أبو العيد» بلونين مختلفين يلتمعان في ضوء مصابيح الشوارع الصفراء. ثم يأتي طريق الكورنيش الدائري «مارين درايف». يتبدى القوس الكبير حول الخليج، والأبراج السكنية المُقتِّرة في الضوء، مانهاتن هندية على نحو ما، وفي هذا الوقت بين آخر الليل وأول النهار يمتلئ طريق الكورنيش بالسيارات، وأرصفته بالبشر، وبين البشر كثرة يمارسون رياضة المشي أو الركض في قمصان وشورتات وأحذية رياضية، كلها بيضاء تذكرك بأيام الإنجليز الخوالي. لقد

ذهبوا كمستعمرين، لكنهم تركوا بصماتهم على ملابس التريض الهندية، وفي ملاعب الكريكيت الشعبية التي كان بعضها عامرا في هذا الوقت من الليل، وفي الأبنية ذات الطابع الفيكتوري الباقية على امتداد الكورنيش من أقصى نقاط خليج «باك باي»، وحتى آخر قوسه المضاء بالفنار القديم في منطقة كولابا، وهي المنطقة التي سكنا في أحد فنادقها، وهي نقطة الانطلاق الأشهر لدى كل زوار مامباي، فهنا تنتصب «بوابة الهند»، وينهض راسخا أحد أشهر فنادق العالم واسمه «تاج محل» والذي لم يكن في مقدورنا أن نقيّم فيه لأن أسعاره فلكية فأقمنا بقربه، وإن استطعنا أن نغشاه كأننا من نزلائه، بل تناولنا عشاء في أفخر قاعاته، عندما أعوزنا الاطلاع على بعض الفنون الشعبية، خاصة الموسيقية منها والتي كان يقدمها لرواده هذا الفندق.

عند نقطة البداية، في اليوم الأخير من أيام استطلاعنا، توقفت حائرًا، ورائي بوابة الهند، وأمامي فندق تاج محل. وأظن أنها الحيرة التي تنتاب كل من يريد الكتابة عن الهند، أو جزء منها، أو حتى جزء من الجزء. فمشكلة الكتابة عن الهند تكمن في غناها الفاحش بما يدهش ويكون جديرًا بالكتابة فكل خطوة في الهند عالم من المدهشات، وكل لحظة أعجوبة، والرغبة في كتابة كل شيء يمكن أن تجعلك لا تكتب شيئا. لهذا وقفت على حافة الماء في مامباي، أسرح البصر في مياه «الخليج الخلفي» وأبحث عن مخرج، وأعود إلى الجغرافيا والتاريخ لعلهما يفتحان أمامي معبرًا.

في البحر العربي

في نهاية القرن ١٣ كانت المدينة الحالية مجرد جزر سبع غير متواصلة، انتشرت للحياة عليها مجموعات من السكان الأصليين من قبائل المكوليز، وخضعت معظم أراضي هذه الجزر لنفوذ سلطان كوجارت، لكن قرب منتصف القرن ١٤ جاء البرتغاليون واستسلم لهم سلطان كوجارت عام ١٥٣٤ ثم تنازل البرتغاليون فيما بعد للإنجليز عن جزيرة «ما مباديفي» كجزء من مهر الأميرة كاترين بمناسبة زواجها من الأمير تشارلز الثاني! وفي منتصف القرن السابع عشر تمكنت إنجلترا من السيطرة على كامل الجزر السبع التي ظلت على بكارتها حتى أوائل القرن

الثامن عشر، سهول وتلال خصبة تظللها غابات من أشجار النخيل وأشجار التمر هندي ونباتات المناطق شبه الاستوائية.

إن خارطة مامباي تشبه منظرًا جانبيا ليد يسرى ممدودة من أرض الهند باتجاه البحر العربي الذي هو امتداد من المحيط الهندي ويفصل بين ساحل شبه القارة الهندية الغربي وساحل عمان في الشرق. ومن الشمال تطل عليه باكستان الحالية. هذه اليد تبدو وكأنها تحاول الإمساك بشيء من البحر العربي، طرف إبهامها هو نقطة مالابار حيث الإبهام يمتد من هذه النقطة بجسر يوغل في البحر نحو ضريح «حاجي علي» ويغطي ذلك الإبهام بمنطقة متميزة من مناطق مامباي هي هضبة، أما الصورة الجانبية للراحة والأصابع الأربعة فهي تتقوس منتهية بأطراف أصابع اليد الباقية التي تشغلها منطقة أخرى متميزة من مناطق مامباي تسمى كولابا حيث بوابة الهند وفندق تاج محل الشهير والفندق الذي أقمنا فيه، وداخل قوس الإبهام وراحة اليد والأصابع الأربعة المتضامة ينحصر خليج مستدير يسمى «باك باي» يحده كورنيش مسور بسياج حجري عريض خفيض أمامه رصيف واسع لطريق واسع من اتجاهين محفوفين بظلال نخيل جوز الهند.

وقفت أتطلع عبر مياه الخليج إلى تلال مالابار في الشمال الغربي من موقفي بين فندق تاج محل وبوابة الهند، فرأيتها في الضباب الذي لا يذوب أبدا فوق الماء وكأنها منهاتن تطل عمائرها السامقة من فوق تلال الغابة.

ما بين النقطتين اللتين تمثلان فتحة بوغاز الخليج يقع تاريخ وتُمثل تفاعلات. فبوابة الهند التي تقع على شاطئ البحر والتي صممها المهندس الإنجليزي جورج ويتير عام ١٩٢٧ على هيئة قوس النصر في باريس مع لمسات من الفن المعماري الأندلسي أراد بها الاستعماريون البريطانيون تخليد ذكرى الزيارة التي قام بها الملك جورج الخامس والملكة ماري إلى الهند، وجعلها رمزًا بريطانيا عند مدخل الهند الغربي. لكنها الآن باتت رمزًا لمدينة مامباي التي زحفت إليها الهند بكل ألوانها وروائحها وطعومها فلا يكاد الإنسان يصدق أن هناك أية لمسة إنجليزية في هذا الصرح الذي تنعكس عليه أشعة شمس الغروب أو الشروق فتضيء أعمدته الحجرية بلون عسلي وتتغلغل داخل نوافذه كأنها أبراج شرقية مُسرجة الأنوار من الداخل. أفلت التصميم من يد المهندس البريطاني ليرسخ كصرح

هندي خالص، تحيط به دائما توابل الهند البشرية: الحواة، والمتسولون وذوو العاهات، وبائعو اللعب المغشوشة، والحمص المملح الساخن، وتحط في ساحته آلاف الحمائم. وعبر الشارع يسمق راسخا في مواجهة البوابة فندق تاج محل ذو البناء العجيب بواجهته المليئة بالأبراج المتراكبة وتصاميمه الداخلية الباذخة بذخا هنديا مغوليا بألوان دافئة ما بين البرتقالي والوردي والأحمر الطوبي كحجر الهند الرملي الأحمر الشهير. وبالطبع لم يكن ممكنا نسيان الذهب في المدينة التي أسميت كثيرا «مدينة الذهب»، فمقابض الأبواب ولافتات الأركان والمطاعم تبرق مسقية حتى الارتواء بماء الذهب أو مشبعة برقائقه. وهذا البناء الذي أنجز عام ١٩٠٣ ليطل على حوض نادي اليخوت كان عملًا ثأريا لأحد الهنود المجوس الأسطوريين، جامشتجي نصرواتجي تاتا، فقبل عدة عقود من بناء الفندق كان هناك فندق إنجليزي اسمه واطسون، ورغم أن الرجل «تاتا» كان ميسورا فإنه طُرد من ذلك الفندق لأنه كان هنديا. تقول الحكاية الشعبية المتداولة في مامباي الآن أن فندق واطسون كانت عند مدخله لافتة تقول ممنوع دخول الهنود والكلاب، فقرر تاتا أن يبني فندقا أفخم من فندق واطسون ويكتب عند مدخله ممنوع دخول الإنجليز والكلاب. فأقام الفندق بلا حدود ولا حساب للتكاليف، أعجوبة في زمنه: بمغسلة كهربائية مستقلة، وحمامات تركية، ومكتب بريد وصيدلية وأطباء دائمين، وخدمات باذخة جعلت فندق واطسون يُقفِر، وظل تاج محل أفضل فنادق مامباي حتى الآن، وأحد الفنادق الأكثر فخامة في العالم. وعندما أوليت ظهري لفندق تاج محل وأنا أقف في الجانب الآخر متأملًا تلال مالابار الغائمة في الضباب المعلق فوق الماء، كانت أعجوبة المجوسي تاتا ماثلة في ذهني المتشوق للاطلاع على أسطورة مجوسية أخرى فوق تلال «مالابار»، فمكثت أياما أطوف بأركان «مامباي» وعيني على قمة «مالابار».

الزرادشتيون «المجوس»

في مامباي عادت شهية فضولي تتفتح نحو ملامسة مزيد من الحقائق عن المجوس، الذين تعرفت على شيء من معتقداتهم عبر القراءة، ولم أكن أتصور أبدًا حتى سنتين خلتا أن يكون هناك مجوس باقون في هذا العالم. فالمجوسية إحدى ديانات إيران القديمة، ويؤرخ لها بأكثر من ألفي وخمسمائة سنة إلى الوراء «اعتمادًا على تواريخ

«زرادشت» الذي عاش في شمال شرق إيران في الفترة من ٦٢٨ ـ ٥٥١ قبل الميلاد»، وعندما كنت في زيارة لكراتشي منذ نحو سنتين، اكتشفت أن هناك معبدا للمجوس، يُطلق عليه معبد النار، وعرفت أن المجوس حتى سنوات قريبة كانوا في كراتشي ومن أثرى أثريائها لكن معظمهم هجر كراتشي، وبقي معبد النار الذي عثرت عليه في منطقة سوق زينب، وبمناورات لحوح استطعت أن أصل إلى صفقة مع حارس المعبد «وهو غير مجوسي» أن يؤمِّن لي دخول المعبد ويؤمن لزميلي «وكان سليمان حيدر أيضًا، أن يصور داخل المعبدحتى منطقة الأسرار، أي النار.

وعندما ذهبنا في الليل، في الموعد المتفق عليه أحسست بجسامة المخاطرة في ليل كراتشي التي كانت حوادث الاغتيالات والعنف فيها يومية، ثم إن الحارس بدا مريبًا وراء قضبان البوابة الحديدية الهائلة مُحكمة التكوين والإغلاق، وكان هناك تناقض في وعده المبذول، فالثابت أن المجوس لا يسمحون لغير أبناء ديانتهم برؤية نارهم «المقدسة»، فكيف يعد هذا بتيسير رؤية وتصوير «كل شيء»؟! خفت وألغيت الصفقة يومها في كراتشي. لكن فضولي عاد أقوى في مامباي التي تعد من أكثر مدن العالم أمانا رغم تزاحم سكانها الذين يقترب عددهم من الخمسة عشر مليونا، فالمسالمة هي الطابع الغالب للهنود. ورغم وجود حادث هنا أو اضطراب هناك في شبه القارة الهندية الواسعة، إلا أنه من النادر أن تجد اشتباكا ولو لفظيا بين السائقين عند مفارق الطرق المزدحمة في مامباي أو تحرشًا بأنثى أو اشتباكا على الأرصفة.

في صباح شتوي مشمس اتجهنا إلى تلال مالابار بعد ترتيبات أولية مع المعنيين، وكان الشتاء يشبه الربيع ونحن نصعد في دروب الغابة السخية بالخضرة والألوان التي تغطي مرتفع مالابار، والذي كنا نبحث بين أجماته البديعة عن طقس مقبض، بل مفزع، وهو دفن موتى المجوس في حواصل النسور والعقبان.

في إيجاز شديد، ومحاولة تمهيد لفهم طقوس الموت لدى المجوس، لا بد من المرور بمعتقدات الحياة. فالمجوسية أو الزرادشتية هي تعاليم نُقلت عن المبشر بها في سبع عشرة ترنيمة تسمى «جاثا» ومعناها «الأناشيد» يضمها كتاب الزرادشتيين المقدس المسمى «الأبستاق» أي المتن، وفيها ينص على أن الله هو السيد الحكيم

«أهورامزدا» خالق السموات والأرض، وهو الأول والآخر. وتعارضه الروح الشريرة، للشيطان أهرمان المتسمة بالنوايا الشرسة والتكبر والكذب.

وعلى البشر أن يختاروا، فإن سلكوا طريق الشيطان تمتلئ حياتهم بالأفكار الشريرة، والكلمات الشريرة، وإن سلكوا طريق الحق فسوف يكونون مع العقل الخيِّر، ويبلغون الكمال والخلود، والورع وملكوت السماوات. هذا القطع بين السبيلين لا يقود إلى الزهد عند الزرادشتيين، فالزهد عندهم كالانغماس في الشهوات، خطيئة كبرى. ومن ثم تفرض الزرادشتية على رجالها أن يتزوجوا وتكون لهم زوجات وأطفال. وعلى المستوى الحياتي تعتبر الزرادشتية نفسها ديانة «مرحة»؛ فاليوم المخصص من أيام الشهر لإله يوم الحساب «يوم رشن» لا يُنصح الزرادشتيون أتباعهم بالاكتئاب «فالحياة مرحة ولك أن تفعل ما تشاء في قدسية» كما يقول أحد كتب تعاليم المجوس. ثم إن عدم احترام الآخرين والعادات السيئة والشعور بالملل، تعد جميعًا من الخطايا. في حين أن استمتاع المرء ذاته بالحياة ومساعدة الآخرين أن يفعلوا ذلك مسألة أساسية في الزرادشتية التي تتسم بالحرص على أخلاق اجتماعية قوية فالعمل «ملح الحياة» وعلى الناس «أن يقهروا بعقولهم الشكوك والرغبات السيئة، وأن يقهروا الجشع بالرضا، والغضب بالصفاء والسكينة، والحسد بالإحسان، والحاجة باليقظة؟ والنزاع بالسلام، والكذب بالصدق».

كل هذه القيم المجردة والأطر المعتقدية والأخلاقية في الزرادشتية لم أجد بها بأسا، لكن الذي استوقفني وأثار فضولي في الزرادشتيين «المجوس» شيئان:

أولهما هذا النجاح اللافت للانتباه في التجارة والصناعة ومن ثم مراكمة الثروات والتميز الاجتماعي الخارق للعادة، وثانيهما ما يتعلق بالطقوس، خاصة معابد النار، وطريقة دفن موتاهم.. في بطون جوارح الطير!

اثنان وسبعون خيطا!

كان صعودنا في معارج تلال مالابار كأنه انتقال من عالم إلى عالم، من شوارع الضجيج والزحام إلى أجمات لا يُسمع فيها غير أصوات الطيور بينما البحر يهبط

مزيدًا تحتنا وتتراجع الأشجار كاشفة عن قمم الأبراج السكنية في أرقى أحياء مامباي المحيطة بالتلال، والتي تعتبر من أكثر أماكن العالم غلاءً.

لقد كنا نبحث عن «أبراج الصمت» التي يسجي عليها الزرادشتيون موتاهم لتنهشهم العقبان حتى العظام. وكان العالم الذي تصعد فيه يتناقض مع ما نبحث عنه، فقد كنا نبحث عن أغرب عملية دفن للموتى، في دروب حدائق غناء!

الزرادشتيون، أو المجوس طائفة استثنائية في مامباي، في هذه المدينة التي نزحت إليها أمواج بشرية تبحث عن فرصة للثراء في «مدينة الذهب» نجح كثيرون، وضاع كثيرون، ولا يزال الأمر يتكرر حتى يومنا، وجولة في الليل عبر أحياء البغاء والفقر في مامباي تعمي العين بصور البائسين النائمين صفوفًا على الأرصفة، وتصمي القلب بمناظر البائسات المتجمعات أمام أبواب الأكواخ التعيسة في انتظار زبائن الهوى البائس.

المجوس ـ أو «بارس» كما يدعون في الإنجليزية ولدى الهنود ـ لم ينجحوا فقط في مامباي، بل كانوا من صفوة الناجحين في العالم. عبروا البحر العربي من فارس عندما دخلها الإسلام، ولاذوا بالهند، خاصة مامباي وما حولها. ومع صعود المدينة البارق من وهاد الجزر إلى قمة الاقتصاد الهندي، صعد المجوس بسرعة صاروخية قبل أن تكتشف الصواريخ. ولعل أسرة «تاتا» المجوسية هي نموذج لذلك الصعود الخارق، نحو سماء «البيزنس» في المدينة، فهم ملوك صناعة الصلب، والكيماويات، والمعدات الهندسية، والسيارات التي اشتهرت باسمهم داخل الهند وخارجها.

وما من مجوسي «فقير» فقر الهنود، في الهند، وهي ظاهرة جذبت انتباهي، ولقد رأيت في شارع «شهيد بهاجات» بمنطقة كولابا مربعًا سكنيا يحيط به سور عال وبوسطه حديقة رائعة وعندما رفعت رأسي إلى الكتابة المعدنية بأعلى البوابة الهائلة الباذخة قرأت: «نزل مخصص للفرس». نزل! مجرد نزل! للأسر المجوسية «المتواضعة» بكل هذه الأناقة!

لم يبق من المجوس في العالم غير تسعين ألفًا، وهم في عمومهم أثرياء متعلمون تعليما رفيعا وعلى درجة ملحوظة من وسامة الرجال وجمال النساء.

والغريب أن عددهم يتناقص بنسبة ١٪ سنويًا منذ الحرب العالمية الثانية، لأن ديانتهم بالتوارث، فمن جهة لا يسمح بدخولها لأحد من الديانات الأخرى، ومن جهة أخرى يخرج منها ـ من الأجيال الجديدة ـ شبان وبنات يتزوجون خارج الطائفة فيطردون منها!

وإلى جانب استحالة الدخول، وتعدد الطرد من هذه الديانة، هناك ازدياد في أعداد المجوس الخارجين من الدنيا بأسرها، فعدد المجوس الذين عُرضت جثثهم لجوارح الطير، فوق ما يسمى بأبراج الصمت، يتضاعف منذ عام ١٩٧٠، ولعل ذلك راجع إلى ازدياد كبار السن بين أتباع هذه الطائفة.

وقبل أن نقترب من «أبراج الصمت»، لا بد لنا من مقاربة أشكال التعبير الطقوسية لدى الزرادشتيين، لعلنا نفهم دوافعهم لدفن موتاهم بهذه الطريقة الغريبة، مع احتفاظنا باختلافنا عنهم بالطبع.

للزرادشتيين ـ كالهندوس والسيخ وكثير من الديانات في الهند التي تكاد تكون وعاء لمعظم ديانات العالم ـ رموز تذكرهم بدينهم، فهم يرتدون ـ منذ سن البلوغ ـ تحت ثيابهم العادية مريولًا أو صديريا يسمى بالفارسية «سدرة»، ويتلازم هذا القميص مع حزمة من الخيوط تسمى «كوشتي» بها اثنان وسبعون خيطًا ترمز إلى أسفار «الباسنا» المقدسة، ويقوم حاملها بربطها عدة مرات يوميا تعبيرًا عن استمساكه بعقيدته.

أما الكهنة فيرتدون ثيابًا بيضاء وعمامة بيضاء أيضا، ويضعون قناعًا على الفم أثناء تأديتهم لطقوس النار تجنبًا لتلويث النار «المقدسة» بأنفاسهم. والنار رمز «أهورامازدا» فهم لا يعبدونها بل يتوسلون بها، وهي لا بد أن تحفظ داخل المعبد بعيدا عن التلوث، فلا ينبغي أن تراها الشمس أو عيون غير الزرادشتيين. وقد حاولت اختراق ذلك بالحيلة، وبالنقاش الطويل، وباتصالات التوصية من بعض المهمين في ماماباي، دون جدوى، بل أثارت معاودتي للمحاولة غضب حراس معبد النار حتى أنهم أغلقوا أمامي البوابة الرئيسية للمعبد بعد أن كنت دخلت وصعدت إلى البهو ووقفت على باب القاعة الرئيسية.

ليست النار وحدها المقدسة لدى الزرادشتيين، فمن المقدسات التي لا ينبغي تلويثها لديهم: الأرض، والماء والهواء. ومن هنا جاءت طقوسهم الغريبة في دفن موتاهم. فهم

يرون أن الموت شر، وأن الجثة مستقر الشياطين، وكلما كان الميت صالحًا ازدادت قوة العمل الشيطاني، ولما كان إحراق الجثة «يدنس» الهواء، ودفنها «يدنس» الأرض والمياه في أعماقها، لهذا اختاروا تعريض جثثهم فوق «أبراج الصمت» لتلتهمها العقبان، وليست جثث الموتى وحدها، بل أي جزء يبتر أو عضو يستأصل من جسد مجوسي يكون ذلك مآله أيضًا.. الدفن في حواصل النسور!

أبراج الصمت

لعلني أكون أول كاتب عربي استطاع الاقتراب من أبراج الصمت فوق تلال مالابار إلى هذا الحد كما أخبرني المسئولون عن هذه الأبراج، حد الوصول إلى الباب الأخير الذي لا يعبره في أرواب بيضاء غير حاملي المتوفى من خاصة خاصته ومن خاصة القائمين على سر أسرار الدفن المجوسي.

ولا أزعم أنني وصلت إلى ذلك بمقدرة استثنائية، بل هو الحظ الصحفي الحسن، والحاح الفضول وبعض الاطلاع الذي مكنني من محاورة مقنعة، والوعد الذي قطعته على نفسي مقابل المعرفة: أن أنقل ما رأيته وما سمعته وما عرفته، دون إضافة، وهو ما أحاول تنفيذه الآن.

لقد وصلنا في صعودنا على تلال مالابار إلى درجة دون القمة التي تفترشها «الحدائق المعلقة»، وفوق البحر والأرض بكثير، حتى أن ما يظهر بين الأغصان من قمم الأبراج السكنية السامقة في حي الأثرياء حول التلال كان في مستوى أنظارنا، وكانت كثافة الغابة التي نخترقها تجعلنا لا نرى غير الطريق الذي نصعد فيه قبل أن نتوقف أمام حاجز وراءه فناء مسيج بأحواض زهور بهيجة وأشجار وارفة؟ وبرز لنا من داخل بناء أنيق صغير حارس استدعى آخرين بهاتف نقال، وجاء لمحادثتنا رجل بنظارات يرتدي ملابس بستاني وطاقية غامقة «عرفت فيما بعد أنها تكون عادة من جلد الغنم».

الرجل اسمه «دارادي إلافيا» وهو مجوسي وضح أنه مسئول في المكان الذي يفترض أنه مقبرة يسميها أصحابها «دونجيروادي»، وكانت أبعد ما يمكن عن شكل المقبرة؛ فثمة أبنية بيضاء فخمة ذات سقوف جمالونية من القرميد، ودروب مشجرة ونظيفة بين

هذه الأبنية، ودرج حجري يصعد حتى يتوقف أمام بوابة حديدية مزخرفة ومطلية باللون الأبيض، يليها درج آخر يصعد نحو بوابة أخرى مماثلة، وفي النهاية بوابة بيضاء صماء في سور دائري عال. وداخل هذا السور توجد أبراج الصمت، عددها خمسة وكل منها تسمى «دوخما» إضافة إلى واحدة صغيرة تسمى «شوترا» مخصصة للأطراف المبتورة والأعضاء المستأصلة، وأقدم هذه الدوخمات بني ما بين عامي ١٦٧٢ و١٦٧٣ ميلادية واسمها يحمل اسم العائلة الثرية التي شيدتها؟ «مودي هيرجي».

أطلعنا «دارادي إلافيا» على عربة الإسعاف الكبيرة النظيفة التي تقف عند أول الأبنية الكبيرة قرب البوابة ثم سار معنا صاعدًا وهابطًا ليرينا التوابيت الفولاذية ونموذجا لأبراج الصمت وقاعات «الصلاة» وقاعات «تجهيز» الجثث. وبلغنا موضعًا لم يكن ممكنا بأي شكل أن نخطو خطوة بعده حيث وقفت في وجهنا بوابة صماء بيضاء وعندما نظرت إلى أعلى رأيت عقابًا يربض ساكنًا فوق قمة شجرة بلوط ضخمة، فارتجفت.

من كل ما رأيت وما سمعت وما قرأت في كتاب نادر من كتب الزرادشتيين أنفسهم، ألخص عملية التشييع والدفن لدى المجوس كما يلي:

يُجلب جسد المتوفى المجوسي ـ بعد استيفاء شهادة الوفاة من طبيب مجوسي على ملاءة بيضاء في صديري وسروال أبيض، ويعلن عن الوفاة والتشييع والتأبين، وتقرع الأجراس في دونجيروادي، فيما يجهز البخور وخشب الصندل والعطر والأردية البيضاء، تُغسل الجثة من قِبل أناس من جنس المتوفى وتُجفف وتلبس الثياب التي حدثت فيها الوفاة بعد غسلها ثم تسجى الجثة على طاولة رخامية بينما ينثر العطر ويشعل البخور وتقام صلوات معينة تستمر أربعة أيام، وفي فجر اليوم الرابع يقدم لأقرب نار «مقدسة» مدد من وقود معين صدقة عن روح المتوفى. وفي النهار تُحمل الجثة في تابوت فولاذي يرفعه حمالون زرادشتيون معينون لهذه المهمة، يتبعهم الكهنة ثم أقارب المتوفى فأصدقاؤه، جميعهم في أرواب بيضاء ويسيرون خلف التابوت اثنين اثنين، وبين كل اثنين منديل أبيض يسمى «بايفاند» (ومعناها الرباط) يمسكه كل من طرف وغايته الرمزية هي التواصل للتآزر في تحمل أحزان الفراق.. وفي داخل السور الأخير يُسجَّى الجثمان بعد شق ملابسه على شبكة فولاذية فوق أحد أبراج الصمت وينصرف الجميع حتى تقبل العقبان لتؤدي عملها.

وهو عمل دقيق! حيث يلمح أحد العُقبان أثناء تحليقه العالي جدا الجثة فيدور دورات معينة تنتبه إليها عقبان أخرى وسرعان ما تلتم جميعًا وتهبط فوق الأشجار المحيطة بأمان، ويستمر وقوف العقبان الساكن الصامت طويلًا، ربما عدة ساعات، وعادة قرب الغروب يهم بالطيران عقاب فكأنه يطلق إشارة البدء فتنطلق غيمة العقبان منقضة على الجثة بمناقيرها الجارحة القوية، وفي نحو عشرين دقيقة فقط لا يبقى غير الهيكل العظمي عاريًا تمامًا إلا من بياضه. وتمر الأيام دون أن ينقطع إحياء مناسبات عديدة لروح الفقيد، ومنها يوم ميلاده، ويستمر ذلك لمدة سنة خلالها تحوِّل شمس الأعالي الحارة والمطر الموسمي المدرار الهيكل العظمي إلى فتات ثم طحين من الكلس يهبط عبر مصفاة برج الصمت إلى البئر المركزية ومنها إلى قناة يعترضها مرشح من الرمل والحصى الدقيق يحتجز رماد الكلس وتنتهي المياه إلى خزان تحت أرضي مبطن بمرشح آخر حتى تمر المياه في النهاية «نقية» إلى البحر!

يقول أحد كبار الرهبان الزرادشتيين واسمه «دستور خورشيد دابو»: «إن عملية «التخلص» من الأجساد الميتة ترتبط بقواعد أساسية خمس في الزرادشتية هي الصلاح والاتحاد، والمنطقية، والإحسان، والنقاء. وذلك كله عبر: «أ» الإحسان بتقديم الجسد الميت للعقبان الجائعة فهي مخلوقة لذلك وهذا من طعامها الطبيعي «ب» السرعة في التخلص من المِيتة حيث لا يستغرق ذلك إلا ٢٠ دقيقة، «ج» الاقتصاد، فلا حاجة لمقبرة أو خشب للحرق، فبرج الصمت الواحد خدم مدينة لمدة قرنين كاملين بمعدل ميت واحد يوميا دون تكاليف، «د» المساواة: فالميت الغني والميت الفقير يتساويان في المعاملة وبقايا العظام تلتقي كلها في الوعاء المركزي دون تفرقة «ه» مراعاة الصحة العامة، حيث لا تلوث للعناصر الأربعة للطبيعة ـ الأرض، والنار، والماء، والهواء، فتظل نقية، «و» نبذ العاطفية الكاذبة، فلا تنميق للموت، ولا أضرحة، ولا نُصب، ولا توابيت».

وينهي «دستور خورشيد» كلماته بتقريظ طريقتهم في الدفن، وتتوالى في كتيب بالإنجليزية حصلت عليه من داخل «الدونجيروادي» شهادات استحسان طبي وقائي، وفلسفي أحيانا، من حشد من أساتذة الطب في العالم وبعض المشاهير ـ بينهم مارك توين وتشرشل ـ ممن اطلعوا على ما اطلعنا عليه.

ورغم أنني «ديمقراطي» تمامًا وأؤمن بأن الله كفيل بعباده، وله وحده في خلقه شئون، وأنه في عمق العمق لا يوجد إنسان عاقل وسوي الفطرة إلا وهو يعبد الله الواحد الأحد، إلا أنني تعجبت من الفهم السطحي لمسألة «النقاء» بالمعنى البيئي والصحي لدى الأطباء هؤلاء. ثم إنني عندما وقفت بعد مغادرة «دونجيروادي» على حافة الحديقة المعلقة بأعلى تلال مالابار، وكنت أراقب تحتي بعض العقبان الرابضة فوق هامات الأشجار، ساكنة صامته، ضخمة، شعرت بقشعريرة وحمدت الله الذي أحمده كثيرا على نعمة الإسلام؛ فالعودة إلى باطن الأرض هي عودة إلى الرحم الحنون الذي منحنا إياه رب العالمين، فالأرض شريط رحمة حقيقي، منها نشأنا وإليها نعود، لتستمر دورة الأخذ والعطاء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أرى أن الوطن ليس هو المكان الذي نشأنا فيه ونشأ أحبابنا، فقط، بل هو بشكل أعمق وأوثق المكان الذي لنا في ثراه أحباب راحلون، نتذكرهم فنخفف الوطء وترق القلوب، درس روحي جميل في معاني الترحُّم والرحمة. وبعيدا عن المعتقدات فإنني أرى هذه الطريقة لدى المجوس ليست وليدة تفكير ديني بل هي مما اضطرتهم له الحياة يوم كانوا من سكان الجبال في شمالي إيران، حيث لا قبور يمكن حفرها في الصخر، وحيث العقبان والنسور دائمًا عند الذرا الجبلية، وما هي إلا عادات دنيوية أُسبغت عليها تفسيرات «دينية»، ودليلي القاطع على ذلك أن طريقة الدفن في حواصل النسور «والعقبان من فصيلتها» ليست وقفًا على الزرادشتيين بل يمارسها البوذيون سكان الذُّرا الجبلية في التيبت، بطريقة أخرى وبتفسير «ديني» آخر، لعلني أتعقبها جميعًا باستطلاع قريب.

بانجانجا.. وأساطير أخرى

مضيت أهبط على تلة مالابار مشيًا على القدمين، فكأنني أرى طبقات مامباي الاجتماعية طبقة تحت طبقة. ففي الأعالي المورقة والمونقة تتجاور بارتياح الڤيلّات والأبراج السكنية للأثرياء والتي تعد من أغلى المناطق السكنية في العالم، وفي السفول يتنازل الفقر حتى يَضحى مدقعًا في جسوم وأكواخ «دهوبيجات» أو حي المغسلة، حيث تدور بلا انقطاع ماكينة بشرية بائسة من بشر سمر شديدي النحول وقليلي الأسمال، يغسلون ملابس قذرة في مياه قذرة ويكوونها فكأنها جديدة!

على إيقاع ضرب الغسيل على حواف الأحواض الأسمنتية، وطَرقات «الكي» التي تهبط ساخنة ساحقة تفرد تجعدات الثياب التي جفت، كنت أسائل نفسي عن «المشترك» الجامع بين هؤلاء جميعًا على تلال مالابار، واهتديت على وقع الغسيل والكي إلى أن ما يجمعهم هو «حلم مامباي» نفسه، فهذه المدينة التي أرادها الاستعمار ـ البرتغالي أولا ثم الإنجليزي ثانيًا ـ بوابة للغرب يدلفون منها إلى كنوز الشرق خاصة في شبه القارة الهندية، تحولت مع الأيام إلى برزخ للحالمين الباحثين عن «فرصة» فتدفقوا على مامباي، من كل أصقاع الدنيا ومن داخل الهند أساسًا، والباحث عن «فرصة» عادة ما يقطع جذوره وفروعه ليتفرغ لاقتناص ما أمامه، هكذا ظلت تتدفق على مامباي ومنذ عقود نشأتها ٣٠٠ أسرة يوميًا، بعضها يصعد ليسكن ويموت في القمم، وبعضها يهوي نثارًا على أرصفة النائمين في الشوارع، وفي سفوح حي البغاء، وفي المغسلة. وفي كل الأحوال فإن الجذور والفروع التي بُترت بوعي التسابق على الفرصة، تستعيد غراسها في أعماق أرض اللا وعي الداكنة الدافئة الرطبة ثم تفاجئ الجميع بطلوعها: صروحًا ذات أساطير ومعتقدات تغذي حنين الهوية، وتمنح اللحظة بعض «البركة» لعل الأقدام تثبت على أرض سفينة الأحلام ـ مامباي ـ الراسية في هدأة «البحر العربي»، والماخرة ـ منذ نشأتها ـ عباب بحر الأطماع والطموحات الاقتصادية المتلاطم.

وجدت أمامي بانجانجا! تقول لي: «نعم نعم»! وبانجانجا هي بحيرة تكونت عبر مئات السنين من فيض ينبوع في منطقة «والكيشوار» في وهاد الهضبة.

وحول البحيرة تحلقت بيوت الفقراء ومعابدهم ووُلدت الأسطورة.

تقول الأسطورة التي يُرجعها أصحابها من الهندوس إلى زمن رامايان العائد إلى ثلاثة قرون قبل الميلاد، إن الملك راما شاندرا «المتقمص للإله فشنو» أثناء رحلته الطويلة لاستعادة ابنه «سيتا» الذي اختطفه رمز الشر «راقان» توقف يستريح في «والكيشوار» وراح يصلي للرب أن ينصره على راقان ثم أخذ يقيم رمزًا لإخلاصه هو لينج «رمز العلاقة بين الأنثى والذكر الذي يُعبد عبره شيفا في الهندوسية» وكان يأخذ الرمال التي يشيد بها صرح تعبده من موضع منخفض قرب شاطئ البحر، فتفجرت منه عين الماء، المعجزة التي صارت بحيرة فتحولت إلى مزار مقدس، ومن ثم بطنوا حوافها بالحجر

وجعلوا مهابطها مدارج حجرية، وحولها شيدت صوامع للمتعبدين من النساك، ونهض المعبد الذي تبرعم منه اثنان وعشرون معبدًا آخر، وطلعت البيوت البسيطة حول المعبد، وانتعشت بانجانجا.

الآن أُعلنت المنطقة محمية تراثية ومنذ عام ١٩٩١ وهي تستحق بكل تأكيد ببحيرتها المُدرَّجة، وأزقتها الحجرية القديمة، والبيوت العتيقة، وصوامع النساك وإن خلت الآن وأصبحت مواضع لملصقات الدعاية التجارية والانتخابية.

على درج البحيرة يتناثر «الحجيج» تهيؤًا لتغطيس أبدانهم في مياهها «المقدسة» حتى «يتطهروا» قبل الذهاب إلى المعبد القريب، رغم أن المياه تبدو عكرة وذات رائحة منفرة، ويقول «روكي كراستو» العجوز الذي كان قيِّما على بانجانجا منذ سنوات بعيدة: «لقد أخرجت أنا وأصدقائي عشرات كادوا يغرقون في مياه بانجانجا العميقة».

نبتعد عن بانجانجا ملاحقين بنداءات بائعي الشاي المتجولين الذين يدعون «شاي واللاه» وبائعي حلوى الساموزا المدورة الذين يدعون «ساموزا واللاه» ونخترق أزقة« داهوبي جات» من جديد ماشين بحذر على الأرض الزلقة، وبين أكواخ كالصناديق تمتلئ بنسوة نحاف وأولاد ضامرين سمر. هنا يعيش نحو ٥٠٠ دهوبي «أي غسال» جاءوا من مقاطعة أوتار براديش وهم يمتهنون الغسيل أبا عن جد، يستأجرون الأكواخ الصناديق كل كوخ بما يعادل دولارا واحدا شهريا ويكدحون وسط الملابس القذرة والمياه التي تزداد قذارتها على حافة مدينة الأحلام والذهب الهندية، يحلمون ويُحبطون، لكنهم يتعزون بالأسطورة في متناول يدهم.. في مياه بانجانجا «المقدسة» ومعابد «الانعتاق» القريبة التي لا يلزمها إلا بعض الزهور والنذور الرخيصة!

نأخذ الطريق في والكشوار عبر دونجيرزي ثم نصعد إلى «مارائي باتشآلا»، فنمر بسيل من مفارقات الناس والبيوت بين الغِنى والفقر، حتى نجد الكل في واحد عند معبد «ماهالاكشمي».. معبدالفلوس.. في مدينة كثيرا ما أطلق عليها «ماكينة عد النقود» أو «صندوق النقود» أو «مدينة الذهب» فهي رغم زحامها وغبارها وتناقض قممها

ذات الأبراج السكنية الباذخة وسفوحها الممتلئة بالنائمين (في صفوف منتظمة!) على أرصفة الشوارع الخلفية في مدينة الحلم الهندي: المستحيل والواقعي أيضا، فمامباي تستوعب وحدها ٢٠٪ من إجمالي سوق العمالة المنتظمة في صناعة الهند، وتنهض متفردة بنحو ٤٦٪ من مجمل تجارة الهند الخارجية، فكيف في هذه المدينة لا يلتمسون بركة «لاكشمي» (إلهة) الثروة والحظ السعيد، زوجة فشنو المتخذة صورًا عديدة لتكون معه في تجسداته التي بلا عدد!!

على طريق الحاج علي

نغادر بالكاد هضبة مالابار منطلقين على الطريق الساحلي فيستوقفنا بناء إسلامي أبيض وسط زرقة موج البحر، يبدو وكأنه يطفو على الماء، وثمة طريق رفيع متقوس، يوصل الأثر بالبر، ويمضي عليه الناس كأنهم نمال في دروب السعي. فنهبط، ونسعى مع الساعين.

هذا البناء الأبيض المرمري المتوج بقبة بيضاء ومئذنة ناصعة هو «مقام حاج علي»، بناه مسلمو مامباي على شرف الشيخ الزاهد المسلم العابد «حاجي علي»، على مبعدة ٥٠٠ متر داخل البحر وكان يصعب الوصول إليه لا والبحر في جزر، فأُنشئ الجسر الصخري الضيق فوق سطح البحر ليمضي عليه الزائرون.

زرنا، وقرأنا الفاتحة، وقفلنا عائدين، فرأينا مامباي من قلب الماء.. قبضة ممتدة من الجسد الهندي تحيط بحفنة من مياه البحر العربي، ولعلها تمنحه حفنة من عجائبها التي لا تنتهي والتي تختفي وراء واجهة الأبنية العصرية على قوس شاطئ.

مامباي أم بومباي؟

يُلاحظ أن اسم المدينة يغدو لدى شركات الطيران وفي وسائل الإعلام والمكاتبات الرسمية إلى مامباي بدلًا من بومباي. وثمة جدل قديم حول اسم المدينة، إذ اعتقد الإنجليز في القرن ١٧ أنه «يون باهيا» بمعنى الشاطئ الجميل، وفي عام ١٦٢٦ أرخ «جون فياو» للمدينة على اعتبار أن جِذرها جزء من الأصل بومباي. وزعم أن الاسم راجع إلى «مامبا» الزعيم الروحي لقبائل الكوليز سكان الجزيرة الأوائل. وفي يونيو ١٩٨١ انتهت التحريات إلى إصدار قرار وزاري باطلاق اسم مامباي على المدينة أخذًا عن الاسم في اللغة الوطنية العامية، لكن القرار لم ينفذ إلا أخيرا.

نيبال
من كتماندو إلى إفرست
الصعود إلى المطهر

كانت الدهشة عنوانًا لرؤانا في وادي كتماندو، حيث المعابد بعدد البيوت، والأساطير وراء كل شيء، والاحتفالات والموسيقى لا يتركان شارعا ولا ميدانًا إلا وملآه بالصخب. لكننا عندما صعدنا إلى ارتفاع ثلاثين ألف قدم لنحدق مبهورين ومذهولين في أعلى قمة عند سقف العالم، انقلبت رؤانا، وصرنا مدهوشين من سابق الدهشة.

هل يمكن أن نكون في نيبال ولا نرى قمة إفرست؟ لم يكن ذلك ممكنًا، ولم يكن ممكنًا أيضًا أن نتسلق إلى هناك بأجسادنا المتعبة، ووقتنا القليل، وتجهيزاتنا التي لا تسمح، لكن إنجازات العصر أسعفتنا، وقدمت لنا خيمة نضربها في السماء ونتعلق، لنحدق ما شئنا في القمة المستحيلة وبقية قمم الهملايا التي تضم في أفق نيبال ثماني من أعلى عشر قمم في العالم، وهو منظر رهيب الجلال، دفعنا لأجله آخر ما معنا من نقود، ولو خيرنا ثانية، وثالثة، ورابعة... إلى مالا نهاية، لاخترنا أن نصعد ولو ببطون خاوية، فثمة شيء هناك لا يضارعه أي شيء على سطح الأرض، ولا مبالغة في ذلك لمن بلغ نهاية الرحلة، أما من لم يخضها، فلا سبيل إلى محاولة إقناعه، إلا بالعودة إلى البدء... فلنعد.

في مطار دلهي، كان لابد من تقديم بعض الروبيات، للتأكد من الحصول على مقعد في الجانب الأيسر من الطائرة، فالإطلال من نوافذ هذا الجانب في الرحلة النهارية (دلهي ـ كتماندو) يتيح بعض الإلمام بتضاريس نيبال، وهي مدهشة، حيث نرى ـ تباعًا

ـ أرض التيراي المنخفضة متعددة الألوان، وتلال السيوليك المكسوة بغابات الأشجار الخشبية، ومدارج منحدرات المهابهارات، والأخاديد العميقة التي تنحدر فيها أنهار الهملايا الصاخبة في مواسم الفيضان، ثم تتوالى طبقات وراء طبقات التلال المقعية عند أقدام سلسلة جبال الهملايا، فتزداد ألوانها زرقة مع الابتعاد، وفي أقصى الأفق الشمالي وراء ذلك كله تحلق ذرا الهملايا التي لا تُصدَّق، متألقة بأنصع بياض مضيء يمكن مشاهدته تحت ضوء الشمس وفي زرقة السماء العالية، بينما نحن على مبعدة خمسين ميلًا، فكيف تكون عند الاقتراب؟

الطائرة لا تخفض ارتفاعها بتدرج معتاد، بل تبدو كأنها تهبط في هوة تحدق بها جبال صخرية سمراء تتماهى في هواء ضبابي أزرق، وفي القاع المعرق بالأخاديد تنبسط كتماندو فوق هضبة خضراء محفوفة بالغابات.

تتلاشى رومانسية الجو سريعًا بعد أن تحط الطائرة على المدرج ونغادر مبنى المطار البسيط، فنشق زحام البشر النحاف السمر رقاق الحال في الساحة الخارجية، ثم نهبط ونصعد متقافزين بسيارة تاكسي بائسة في شوارع معتورة تعبق بالغبار، تطل علينا معابد متربة سقوفها القرميد، وبيوت رقشت الطحالب الداكنة جدرانها، نبصر بين الحين والحين أحواضًا كبيرة مكعبة تغوص في الأرض، مبطنة الجدران بالآجر ومتدرجة الهبوط، بمصاطب موصولة بدرج من الآجر ذاته، وفي قيعانها مياه راكدة مغطاة السطح بطبقة كثيفة من الطحالب الخضراء، سألت السائق، فقال إنها «خزانات مياه... للاستحمام والغسيل، وأحيانا للشرب»، فمكثت صامتًا حتى استراحت أجسادنا في الفندق المتواضع رغم نجومه العديدة! فنجوم كتماندو تنتمي إلى سماء القرون الوسطى، رغم وقوعها عند سقف العالم، فربع مساحة نيبال، البالغة أكثر من ١٤٥ ألف كيلو متر مربع، تقع على ارتفاع أكثر من ٣٠٠٠ متر، وخط الثلوج يبدأ عند ٥٠٠٠ متر، ومن ثم فإن تباينًا بيئيًا هائلًا يمكن ملاحظته في مساحة صغيرة، يبدأ من الثلوج الأبدية عند قمم الجبال، ويهبط نحو أشجار المناطق الباردة، فمصاطب المحاصيل الأسيوية، ولا تعدم أرض نيبال وجود الغابات المدارية على مدارج تضاريسها، وبرغم أن ما يسقط علي نيبال من أمطار موسمية يعادل ثاني أكبر معدل لهطول الأمطار في العالم

فإن قلبها ـ الممثل بوادي كتماندو ـ يكاد يموت من العطش، وهو ما لاحظناه مع أول جولة لنا في كتماندو العاصمة.

دخان... دخان... دخان

طلبنا من مسئولة مكتب السياحة استئجار سيارة بسائق يعرف الإنجليزية ولديه خبرة جيدة بملامح كتماندو المهمة، وبعد عشرين دقيقة حضرت السيارة والسائق الدليل، كان اسمه «كيران» وعمره ثلاثون سنة، وإن كانت النحافة والسمرة تبديه أصغر من ذلك.

كان لابد أن نخترق منطقة (ثاميل) المزدحمة ذات الشوارع الرفيعة المتعرجة، وكانت أعجوبة أن ننجح ـ بين أرتال عربات الريكشو وأسراب السيارات وأمواج البشر ـ في عبور الشوارع والمفارق بأقل قدر من الانتظار، وبأكبر درجة من براعة المناورة.

منطقة(ثاميل) هي غابة الفنادق، ومقصد السياح، وكانت من قبل (جنة) الهيبز الذين لم يبق منهم إلا القليل، بعد أن ضيقت عليهم الحكومة النيبالية الخناق، وتجاوزهم الزمن، كانت نيبال وكتماندو تحديدًا، بقعة جذب لهم لا تقاوَم، فزحفت عليها جحافلهم من لندن وباريس وسان فرانسيسكو، وكل مكان وصلت إليه صرعتهم المتمردة آنذاك، فكتماندو كانت تقدم لهم كل ما يحلمون به، أو يتوهمونه، الفضاء (الروحي) الأسطوري في الهندوسية الشيفية (نسبة إلى شيفا المدمر أو المتمرد متعدد الوجوه) وبوذيه المهايانا (المتسامحة مفتوحة الحدود) والأرواحية (التي تقدس الروح حتى في الشجر والحجر)، والتانترية (التي تخلط طقوس الروح بشهوات الجسد على درب الخلاص)، ذلك إضافة إلى الجو المعتدل، والحياة الرخيصة، والناس الطيبين، وأهم من ذلك كله ـ للهيبز ـ الحشيش الذي كان ينمو بريًّا على مصاطب الجبال، وكان يباع علنًا في حوانيت مرخص لها بذلك.

كانوا يأتون ملتحين أو حليقين، بشعور سائبة، وحلقان في آذانهم وأنوفهم، وعقود خرزية في أعناقهم وسلاسل أو أساور معدنية في معاصمهم، أما ملابسهم فهي أقل القليل، وكانوا يستمرئون المشي حفاة وأحيانًا يستعيرون خِلع الرهبان زعفرانية اللون لتسترهم، وفي أحيان أخرى، يتزيون بزي الحداد الهندوسي الأبيض.

لقد ذهبوا وبقيت بعض آثارهم في حي (ثاميل) الذي طلبت من سائقنا «كيران» أن يتمهل ويمعن في الدوران داخل تلافيفه، في شارع كان يسمى شارع «النزوات» لا تزال بعض الحوانيت تعلق شعار الهيبز «الحب والسلام» منسوجًا أو مطبوعًا على لافتات من الحرير النيبالي، وأغنيات تلك الحقبة الهيبية تتصاعد من بعض الأركان «لا تهملني»، «نعم...نعم»،«العيون الجوعى»، «يا قمر أغسطس»، «دخان.. دخان.. دخان»، لكن الدخان الأزرق لم يعد يتصاعد بصحبة الموسيقى الصاخبة،فقط ثمة دكاكين لبيع الكتب القديمة من آثار ذلك الزمن الذي تلاشى، ويقال إن الملك «بيرندرا» وصل استياؤه من جحافل الهيبز إلى اعتبارهم «وباء»، وسارعت السلطات عام ١٩٧٥ إلى تجريم تعاطي وبيع الحشيش، وإلغاء تأشيرات إقامة ودخول الهيبز، وتم ترحيل الكثير منهم خارج البلاد ولو على نفقة الحكومة النيبالية الفقيرة، وكان ذلك بلا جلبة، وبلا استئصال جماعي، بل في صمت وبتدرج متسارع حتى أنهم تلاشوا كالدخان الذي كانوا ينفثونه ويغنون له، ولقد رأينا في المطار أن الإجراءات الوقائية مازالت مستمرة لقطع الطريق على وباء فلول أشباه الهيبز، فالذين يرتدون الجينز المخرم واللائي يرتدين القليل على الصدور، يتم توقيفهم في المطار طويلًا قبل أن يتقرر مصير تأشيرة دخولهم مهما كانت جنسيات جوازات السفر التي يحملونها.

أنهار الرماد

«كيران»، سائقنا الدليل الذي شددنا عند طلبه أن يكون عارفًا بالإنجليزية وعارفًا بنقاط الجذب في كتماندو، لم يكن يعرف من الإنجليزية إلا جملة واحدة فهمناها بعد تكرار كثير، وبعد أن طلبنا منه إعادتها بالسرعة البطيئة، كلمة كلمة، فكانت: «في كتماندو ثلاثة أنهار: باجماتي، ومانوهارا، وهانوماتي».

وظلت هذه الجملة افتتاحية مرحة قبل الانطلاق إلى المكان الذي نعينه لكيران، وكان المكان الأول هو:«باشوباتي على نهر باجماتي».

لم يكن السجع مقصودًا، لكن المقصود هو معبد (الإله) شيفا على ضفاف ذلك النهر، ويسمى المعبد (باشوباتي ناث) اشتقاقًا من إحدى صفات شيفا وهي «باشوباتي»التي

تعني (إله القطعان)! فشيفا لدى الهندوس الذين يشكلون الأغلبية الدينية في نيبال هو (إله التكوين) لأنه (مدمر) و(خالق) في الوقت ذاته، لأنه إذ يدمر القديم ينشئ الجديد، ولعل هذا هو المعنى الذي جذب هيبز الغرب إليه في تمردهم على (شكل) مجتمعاتهم الغربية، أما في وادي كتماندو، فهو أكثر (آلهة) الهندوس رهبة وأكثر من يطلبون عونه! وهو يُجسَّد في صورة إنسان نحيف عار، رقبته زرقاء، وله خمسة وجوه، وأربع أذرع، وثلاث عيون! يحمل في إحدى أياديه رمحًا ثلاثي الشعب (رمزًا للتنوير)، وفي الأيادي الأخرى: سيفًا، وقوسًا، وصولجانًا تتوجه جمجمة، وغالبًا ما تصحب صورُه وتماثيله بصور وتماثيل ولده ومساعدة جانيش (الإله) ذي رأس الفيل.

انطلقنا إلى (باشوباتي نات) التي تقع على مسافة خمسة كيلومترات شرقي العاصمة كتماندو، وسلكنا طريق (الحجاج) الذي يربط جغرافيًا ورمزيًا بين مكان الملك ومكانة شيفا، خلفنا القصر الأبيض المتواضع والفسيحة حدائقه وراءنا، وانطلقنا صعودًا وهبوطًا في الشوارع الضيقة الملتوية بين بيوت ضئيلة وجدران يسوِّدها فطر الرطوبة، عبرنا جسرًا حديديًّا صدئًا فوق نهير يابس ووصلنا إلى مفرق على جانب منه ثمة عرائش يستظل تحتها (الحجاج) ووراءها فناء داخلي واسع مخصص للموتى من البقرات (المقدسات) أوقف «كيران» السيارة وترجلنا لنجتاز طريقًا ترابيًا بين تلة غبراء العشب والأشجار وصف من الأكشاك الخشبية يمتد أمامها وحتى نهاية الطريق صف آخر من المناضد تبيع المصنوعات اليدوية للسياح والزهور والسكاكر والمسابح للمتعبدين.

(الأكشاك) كانت مرتفعة على حافة ممشى خشبي كشرفة ممتدة صعدنا إليها، ثمة جماعة من النساء أو الرجال في كل (كشك) في حالة عكوف على ما يبدعونه من مطرزات أو عرائس ملونة أو لوحات (دينية)، وانخرط سليمان حيدر في تصوير الوجوه، إذ كانت الوجوه لافتة بالفعل وهو مغرم بتصوير (البورتريهات) وسبقته أنا مستكشفًا على مهل، وبينما كنت أمعن في فنان من فناني هذه الأكشاك مستغرق في الرسم بإصبعين لم يكن في يده غيرهما، وهو منكفئ على لوحته لا يرفع رأسه، انتبه داخلي الطبيب وهمس بفزع: «جذام»، فسارعت بالانسحاب وتذكرت الأطراف المتآكلة والملامح المتساقطة في وجوه معظم فناني هذه الأكواخ الخشبية، وهرولت

باتجاه سليمان حيدر أحذره أن ينتهي فورًا من التصوير لنبتعد، وعندما ابتعدنا وهو يتساءل مدهوشًا عن الأمر، رددت على مسامعه: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»، ومن بعيد، قرأنا فوق الأكشاك لافتة باللغتين النيبالية والإنجليزية، تقول إن المنشأة مشروع لتشغيل ومساعدة المصابين بالجذام وأسرهم.

وكان ذلك مدخلًا رماديًا مقبضًا لمشاهد أكثر رمادية وإقباضًا في (باشوباتي ناث).

وبشوباتي ناث ليست معبدًا واحدًا، بل هي مجمع (مقدس) يتكون من سلسلة من المعابد ذات السقوف الحديدية الصدئة تتحلق حول المعبد الرئيسي العالي بمظلاته القرميدية، ولا يسمح لغير الهندوس بدخول هذه المعابد التي تعتبر مزارات (للحج) يقف عند عتباتها وأبوابها حراس مسلحون.

نهر بجماتي الذي يعتبره الهندوس النيباليون مقدسًا، يشق المكان، على ضفته الغربية مجموعة المعابد وأمامها على حافة النهر مجموعة أبنية حمراء منطفئة الاحمرار وقميئة، تواجه مصاطب مبنية على النهر مباشرة، لإحراق الموتى، وهي تسمى (غات).

أما الضفة الشرقية، فهي ربوة تسمى كاليش بنيت على مدارجها في مواجهة النهر سلسلة من الصوامع المخروطية البيضاء ذات القمم المزخرفة، وكل طابق من الصوامع يحف به ممشى يحاذي النهر ويطل عليه، أما القمة، فهي غابة مشجرة وممشاها المطل على النهر يشكل شرفة تطل على (بانوراما) المكان كله.

ثمة جسران يربطان بين الضفتين طول كل منهما أمتار قليلة بعرض النهر محدود المجرى، وعند مدخل الجسر الأقصى يصطف بائعو الحلوى والزهور الصفراء، فالعبور يقود إلى ضفة المعابد والدفن حرقًا.

شققنا زحام بائعي الزهور إلى الضفة الأخرى، وكان هناك دخان يتصاعد من بقايا نيران إحدى المصاطب حيث يتلاشى في الفحم والرماد رماد إنسان، بينما كانت تُعدُّ مصطبة تالية لاستقبال ميت جديد.

هبطنا إلى الممشى السفلي بين غرف الانتظار ومصاطب الحرق على ضفة النهر، في إحدى الغرف التي تشبه زنزانة حمراء ببوابة من القضبان الحديدية كان أهل المتوفى

يقتعدون (دكة) خشبية لصق الحائط ويُطرِقون في عتمة ووجوم بينما بقايا المتوفى المتفحمة يقلبها في الجمر الرجل القيم على الإحراق والذي يرتدي أسمالًا بائسة و(برفش) حديدي صدئ كان يقلب المحرقة التي انكمشت واختزلت إلى رماد، وكتل متفحمة وبعض الجمر، ويدفع بالرماد والفحم إلى مياه النهر (المقدس) تحت مصطبة الحرق مباشرة، وكان النهر بلون الفحم والرماد، أسود متسخًا والماء القليل الذي يجري فيه ينحدر في مجرى وسخ بين ركام من الأوحال السوداء تملأ المجرى.

وعلى مسافة قريبة كانت هناك امرأة تخوض حتى وسطها في الماء، تجمع كتل الفحم الطافية وتعبئها في جوال تركته على الشاطئ، اقتربت منها ففزعت إذ إن القطع المتفحمة التي كانت تجمعها ليعاد بيعها كوقود في المدينة لم يكن ممكنًا التيقن مما إذا كانت بقايا خشب الحريق أم قطعًا من جسد المحروق.

اتجهنا إلى المصطبة الأخرى التي يجري تجهيزها لإحراق ميت لم يصل بعد، وكان (الدفان) يرتب خشب الحرق بتؤدة وفي نسق معين: صف بالطول يعلوه صف بالعرض حتى تتكون منصة أو سرير عال من الخشب يسجى عليه الميت وتبدأ طقوس (الدفن حرقًا)، وفي انتظار وصول الميت، كان هناك وقت لأتقصى (الحكاية)، من أولها، أي من نهاية حياة إنسان هندوسي من نيبال، وهي حكاية في بعض جوانبها مثيرة.

تحدث الوفاة فيوضع قنديل زيت إلى جوار الجثة حتى لا تتسلل روح هائمة لتتقمص جسد الميت، ويسجى الجسد على (مكان نظيف) أي ممسوح بروث بقرة (مقدسة)! وبجوار الجثة التي تأخذ اتجاه الشمال ـ الجنوب، توضع حزمة من نبات الماء(المقدس) في وعاء به ماء (مقدس) من نهر (مقدس)، ويحشى الفم بحفنة من أوراق هذا النبات حتى لا يُستدرج الراحل من فمه إلى الجحيم.

تُتلى بصوت مرتفع مقاطع من ملحمة (الرمايانا) ليسمعها الميت، ويوصى الأهل ألا يسفروا عن حزنهم بصراخ أو بغيره، توضع قطعة من الحديد أو سلاح ما إلى جوار الجثة حتى لا تدخل روح خبيثة (بريتا) إلى الجسد الذي يغطى بثوب حريرى أصفر مطبوع عليه اسم (الإله) راما، وتوزع على المعزين كرات من الأرز المطبوخ بزبد ولبن، ثم يحمل الميت على محفة من بوص البامبو الأخضر الذي يعتبر نباتًا مقدسًا،

ويراعى أن تكون قدما الميت في المقدمة ورأسه في الخلف، تؤدى صلاة موجزة تسمى (بوجا) ويخرج الميت من البيت عبر فتحه في الجدار تُغلق وراءه حتى لا تعود روحه إلى البيت، ثم يحمل المحفة أبناء أو أقارب المتوفى ويسيرون إلى المحرقة في موكب تتقدمه الموسيقى ويهتف خلاله المشيعون (رامانام ساتيا هاي)، ومعناها: «ما من اسم حقيقي غير اسم الرب»، وأثناء الطريق، يحذر اقتراب الحيوانات من الموكب، ويحظر نقل الجثة في زورق أو العبور على جسر فوق النهر، كما أن المشيعين ينبغي ألا يتحدثوا معًا، وفيما الجنازة تعبر الشوارع يطلق أهل الميت حيوانًا أو طائرًا للحرية تضحية عن روح الميت، وقبل الوصول إلى مكان الحرق (غات)، (يطهر) المكان بماء النهر وروث البقر! ثم تقام عليه منصة الحرق من سبعة طوابق من خشب الأشجار طابق طولي وطابق عرضي فوقه والعدد يمثل الأسباب السبعة التي تقود إلى النجاة، أما الخشب، فهو من أشجار المانجو والصندل، ويكتفي الفقراء بشظايا منه، تحمل الجثة على المحفة وتسجى على لوح حجري مائل إلى الماء حتى تبتل قدما الميت من مياه النهر (المقدس) التماسًا للانعتاق، ثم تنقل الجثة إلى منصة الحرق مع توجيه الرأس جنوبًا حيث يأوي (إله) الموت (ياما).

وتُجلب كل ملابس الميت وأدواته التي استعملها وتوضع على منصة الحرق معه، (يتطهر) أبناء الميت وأقرب أقاربه في ماء النهر ويرتدون مآزر بيضاء تعقد حول خصورهم، تُشعل نار صغيرة من خشب عاطر على جانب المنصة، ويُكشف وجه الميت حيث ينبغي أن يكون موضعًا للنار الأولى، ويكون الابن الأكبر الذي يتعين عليه حلق رأسه تعبيرًا عن الحداد، هو المنوط به إشعال هذه النار في وجه أبيه! ولا حول ولا قوة إلا بالله!

كانت مناظر قاسية لنا، بينما أصحابها يؤدونها بتقبل يشبه التبتل، وفيما كانت النار تؤجج (والدفان) يسعرها، آثرنا أن نبتعد مولين ظهورنا للمشهد المقبض الأليم، وميممين شطر ربوة كاليش.

أدرنا ظهورنا للمدفونين في النار، فوجدنا في طريقنا الأحياء في التراب، وبعض القردة!

بين الأشجار، يصعد درج حجري نحو القمة، وعلى الأشجار كانت القردة (المقدسة) تتقافز بحرية وتهبط لتتمشي بين الناس في ثقة، وعلى أسوار الطريق الخفيضة، وعلى أبواب الصوامع، رحنا نلتقي كثرة من (اليوجيين)، (نُساكا)، هندوسا شديدي النحافة، سائبي الشعور، طلوا أجسادهم العارية بخليط من التراب والجير وجبّهوا رءوسهم بعلامات (التيكا) الحمراء، وما كنا نقترب من أحدهم حتى يسارع بتحيتنا على طريقته: يلف ساقه حول رقبته أو يطوي جسده كله كأنها لفافة من مطاط، ثم يمد يده أو وعاءه طالبًا العطاء!

عند قمة الربوة، جلسنا على أحد المقاعد الحديدية المثبتة في الأرض وراء سور حجري واطئ، فكأننا في شرفة تتكشف عبرها باشوباتي ناث، من أول النهر الذي يأتي من التلال عن يميننا إلى آفاقه المنحدرة في البعيد، نهر غائض كأنه سبخة متعفنة، يمتلئ بتراب الأرض ورماد الموتى، وتتصاعد روائح عفونته حتى أنوفنا عند قمة التل، ومع ذلك، نرى في آفاقه نساء (يتطهرن) في مائه الحسير بعد كل دورة حيض، وقبل ارتداء (الساري) الجديد، وثمة (حجاج) يغسلون في غياضه السوداء أجسامهم وذنوبهم، أما طبَّاعو القماش الملون، فإنهم كانوا (يباركون) قوالب الطباعة الخشبية بغمسها في غياض النهر، ثم في أوعية ألوانهم الزاهية التي يطبعونها على قطع القماش الأبيض وينشرونها على ضفاف نهر الرماد!

معابد للإناث... مجازر للذكور

في صباح باكر، رحنا نخترق تلافيف كتماندو، ونعبر جسورها لنلحق بمهرجان للدم سمعنا وقرأنا أنه يحدث ـ صباحي الجمعة والسبت ـ خارج العاصمة في معبد يسمى (داكشين كالي) يقع عند نهاية الطرق الموصلة إلى جنوب وادي كتماندو، واسم المعبد نفسه يشير إلى هذا البعد الجغرافي، حيث (داكشين كالي)، تعني: كالي الجنوبية، وكالي هي (الإلهة السوداء) إحدى وجوه زوجات (الإله)، شيفا متعدد الوجوه والتقمصات، واللائي تقدر أسماؤهن وأشكالهن بالآلاف تبعًا لعدد أسماء وأشكال شيفا، وتجمعهن جميعًا زمرة (ماها ديفي) أي (الإلهات)، ومن بينهن جميعًا تتميز كالي بأنها: «المظلمة

كالليل، والمرعبة عديدة النعوت، والتي ـ رغم ذلك ـ تمنح من رحمها هبة الولادة لكل الأشياء»! ومع ذلك ـ فهي تصور دائمًا ببطن خالية لا تمتلئ، كناية عن عطشها الذي لا يرتوي للدم، دم العفاريت، والحيوانات، والبشر! ولهذا، ظل تقديم الأضاحي والقرابين البشرية عنصرًا من عناصر (العبادة) في نيبال حتى حُظر رسميًا عام ١٧٨٠م، وكان قد تم حظره في الهند عام ١٨٣٥م.

كانت العاصمة في ذلك الصباح الباكر أصفى مما عرفناها في النهارات السابقة، وشوارعها أوسع، وفي طرقاتها تتهادى الأبقار (المقدسة) ويسرع القرويون قادمين من الأطراف بأحمالهم الزهيدة من الخضر والفاكهة والدجاج باتجاه أسواق المدينة، أما اللافت، فهو هؤلاء الذين كانوا لا ينقطعون عن التدفق من الشوارع الجانبية مسرعين لتقديم هباتهم المسماة (بوجا) لآلهتهم، فبين أياديهم السمراء النحيلة كانت أطباق من نحاس بها بعض الأرز ومسحوق أحمر وبتلات زهور صفراء، مهيأة جميعًا لنثرها على أقدام (الآلهة)، سواء (آلهة) الأكثرية الهندوسية أو الأقلية البوذية أو حتى معبودات (الأرواحيين) الذين يعتقدون بقدسية الروح في كل شيء فلا تعدم رؤية أحدهم (يصلي) في الصباح الباكر.. لشجرة.

بدت مدينة كتماندو ونحن نخرج منها رقيقة وقابلة لتنامي الحياة، لكن الإحساس بترابها المهيمن على الأرض والبيوت والأفق لم ينقطع، وكانت رائحة الأنهار المحتضرة من شدة العطش تضج بالعفونة، فتصل إلى أنوفنا وتضغط على الصدور، وكنت أتعجل الخروج إلى القرى لعل الصورة تختلف، لكن لعنة العطش ظلت ماثلة رغم الجبال المغطاة بالغابات والقرى القائمة على مدارج التلال حيث سويت المصاطب لزراعة الشاي والأرز.

إحساس مهيمن بعوز الماء تنطق به ملابس الناس وجلودهم وجفاف الأرض، رغم أن الماء يسقط على هذاالوادي بثاني أغزر معدل للهطول في العالم، لكن أمطار الرياح الموسمية الغزيرة تتحول سريعًا وهي تنحدر على أقدام جبال الهملايا بميول حادة وارتفاعات تقاس بآلاف الأمتار إلى سيول جارفة، تكتسح الأنهار النحيلة وتفيض على الضفاف، لكنها سرعان ما تتلاشى ذاهبة إلى الأنهار العظمى في شبه القارة لتروي

الهند وتُغرق بنجلاديش، وتموت نيبال من العطش في أعقاب موسم الأمطار وحتى حلول الموسم الجديد، فخزانات المياه الأرضية سرعان ما تنضب والسدود عصية ومكلفة في بلد فقير ووسط تضاريس قاسية.

إنها مفارقة كاللعنة، أصابت عنصر الماء، ولعلها ماثلة في اللاوعي وراء إسالة الدماء التي كنا نسعى بين الجبال وفوق الأخاديد العميقة المرعبة إلى واد من وديان (كرنفالاتها) المخضبة.

مكثنا نصعد في طرق جبلية وعرة وخطرة، ونمر بقرى فقيرة، ونخلف تحتنا وديانًا مليئة بالضباب، حتى شعرنا بضيق أنفاسنا، فقد كنا نتجاوز ارتفاع الألفي متر، ثم وجدنا الطريق تهبط بنا حتى كان المستقر في بطن واد بين التلال، وأوقفنا السيارة في ساحة تتكاثر عليها وسائل نقل شتى من الريكشو حتى الباصات الهندية المتهرئة التي تنوء بأحمالها البشرية المقترنة بقرابينها وأضاحيها من حيوانات وطيور.

مشينا في طريق ترابية بين الأشجار تزدحم بأمواج البشر الآتين لتقديم قرابينهم، وكان باعة الديكة يربطونها من أرجلها في جذوع الأشجار إلى جوارهم أو يحشرونها في أقفاص تكشف عن بياض الريش وحمرة الأعراف، وهنا وهناك كان باعة الأطعمة والحلوى وجوز الهند والماء والمسابح والتماثيل النحاسية الصغيرة للآلهة الهندوسية والبوذية أيضًا.

هبطنا مع الجموع درجًا حجريًا إلى عمق جديد يشقه نهير صغير شبه يابس يمر به ممشى مبلط ومسيج بسور حديدي أخضر، ويعتلي النهر عند انحنائه جسر يوصل بين الممشى الطويل ودرج يهبط إلى ساحة الذبح التي تحف بها المباخر والشموع،بينما في سماء المكان يحلق صخب تراتيل دينية وموسيقى (روحانية) مضجة.

طابور طويل طويل، يبدأ ولا ينتهي، وفي الطابور يمضي حاملو الأضاحي والنذور وجلهم من أفقر الفقراء، وما يقدمونه للذبح ينبغي أن يكون حيوانًا أو طائرًا ذكرًا غير مخصي، كان بعضهم يمسك حبلًا ربط فيه جِديًا صغيرا، وبعضهم يحمل سلالًا بها جوزة هند وزهور أو بعض السكاكر، وأكثرهم يحمل ديكة، رجال ونساء وأطفال،

يصلون إلى بوابة المذبح مقدمين عطاياهم فيباركهم الكهنة ببخور وترانيم وعلامة حمراء على جبينهم، بينما ضجيج الموسيقى والغناء لا ينقطع، ورشاش دم الذبائح ينتشر في سماء المكان، ويسيل على بلاط الأرض لتخوض فيه الأقدام العارية، فهم يعبرون ساحة الذبح حفاة! وأكثر الآتين زوجات وأزواج صغار مع أول أطفالهم، لعلهم يَنذِرون للطفل، وبعد الوفاء بالنذر، يتوجهون إلى معبد كالي السوداء في ظهر ساحة الدم!

تقول الأسطورة، إن كالي ذاتها أوصت الملك (مالا) في القرن ١٤ أن يبني لها هذا المعبد في هذا المكان الغاطس بين الجبال، وفي داخل المعبد المزينة جدرانه بنقوش حيات نحاسية، يوجد تمثال لكالي ذات الأذرع الست من الصخر الأسود تمسك برجل من البشر، ويجاورها جانيش ذو رأس الفيل.

نمضي في سبيل البشر خارجين وصاعدين إلى التلة المعشبة لنعود من حيث أتينا، فنرتقي درجًا يقتعده (النساك) المتسولون وذوو العاهات، وعند أعلى الدرج، نلقي نظرة على المكان الغائص بين التلال، فنراه مغطسًا للأقدام في دم الأضاحي، ونرى الأضاحي ذاتها بعد أن نالت (المباركة) تطبخ في مواقد من حطب الغابة على طول الطريق وبين الأشجار، ويقول مرافقنا وهو يشير إلى المكان: (كان الهيبز كثيرين هنا.. وهنا كان الحشيش يباع بكثرة، الآن صار الحشيش قليلًا،قليلا جدًا)، فأعقب لاهثًا من تعب الصعود:

ـ نعم...نعم.

نظرة يا...كومارا

بين مدينتي (كتماندو) و (باتان) يرقد نهر (هانوماتي)، وفيهما ميدانان لهما اسم واحد هو (دوربار)، وهما مكانان لا ينبغي تفويت رؤيتهما، فهما ـ كما يوصفان ـ غابتان حقيقيتان للمعابد والقصور القديمة وساحتان (للأنتيكات) والعروض المدهشة، الاجتماعية والدينية والسياسية أيضًا، ففي ميدان دوربار بمدينة باتان شاهدنا لقاء جماهيريا للحزب الشيوعي النيبالي، ففي مملكة نيبال تكوين الأحزاب مسموح، والانتخابات الديمقراطية وسيلة لتشكيل الحكومة، ويالها من صورة: ففي الميدان

العتيق الذي اعتبرته (اليونسكو) إحدى المحميات من تراث البشرية، بأبنية معابده العتيقة والقصر الملكي القديم، حيث الغبار يغطي الجدران المنقوشة ونوافذ الخشب المشغول والسقوف العديدة المائلة، كانت هناك منصة تحت مظلة أحد المعابد، وعلى الجدران عُلِّقت اللافتات الثورية، وهنا وهناك كانت ترفرف الأعلام الحمراء ذات النجمات البروليتارية، وعلى المنصة جلس في وقار خطير قدامى (المناضلين) ذوو الشعر الأشيب إلى جوار شباب القادة في ثياب مقاتلي (الحرب الشعبية) المموهة والمجبهة البيريهات بالنجمات الحمراء وكأن المكان خارج الزمن، فالأبنية العتيقة تعود إلى قرون عدة خلت، والاجتماع (الجماهيري) له مذاق عقود عدة خلت أيضًا، وأحسست بأن وصف نيبال بأنها (القرون الوسطى تحت سقف العالم) ليس نعتًا بلاغيًا، بل هو تشخيص دقيق لحالة.

وما دمنا نتكلم عن إهمال عنصر الزمن، تعالوا نتغاضى عن فواصل الزمن، وننتقل من دوربار باتان إلى دوربار كتماندو كأننا نمتطي عفريتًا، والعفاريت ـ بالمناسبة ـ لها أسطورتها، بل ووقائعها أيضًا في نيبال، فالحديث عن وحش الثلوج الأشعر ذي القدم العملاقة، الهائم في ثنايا ثلوج جبال الهيمالايا، هو عقيدة، خاصة لدى قبائل (الشيرباس) من سكان أعالي الجبال.

في ميدان دوربار بكتماندو، نلمس حقًا وواقعًا، أنه غابة للمعابد العتيقة والقصور الغابرة، و(الآلهة) من كل نوع، ونيبال بعامة توشك أن تجسد لكل غاية (إلهًا) أو (إلهة)، فثمة إله لرعي الماشية هو (باشوباتي)، وثمة إله لشفاء الجروح هو (جانيش)، وهو أيضًا (إله) الأعراس، و(إله) تقوية الشخصية! أما (كالي) المرعبة فهي (إلهة) الولادة، و(شيفا مع سكاندا) هما (إلها) الحرب، و(ناسال) إله الرقص، و(بهيمسان) إله التجار!!

ومن أكثر ما أثار دهشتي من (آلهة) وادي كتماندو، إله (الحبر) الذي يصعد إليه التلاميذ حاملين دفاترهم وأقلامهم عند ذروة معبد (سويا مبوناث) البوذي لتنال أقلامهم ودفاترهم البركة على ارتفاع أكثر من ألفي متر فيما يمكنهم ملامسة السحب.

ولا يقل عن ذلك إدهاشًا (إله وجع الأسنان) المسمى (فايشا داف) الذي أوليته زيارة خاصة في معبده الواقع في جادة (إيكها نارايان) والذي يتميز بصغر حجمه

وسقفيه المتواليين، حيث عُلِّقت أسفل أحدهما لوحة خشبية دُقَّت فيها بتزاحم، رءوس على رءوس على رءوس آلاف المسامير، فليس على موجوع السن إلا أن يذهب إلى المعبد، ويدق مسمارًا في اللوحة ليرتاح، ومع الأسف، لم تكن توجعني أسناني في نيبال، لهذا لم أختبر معجزات فايشا، لكنني لاحظت أن عيادات أطباء الأسنان الفقيرة الصغيرة تنتشر بكثرة حول المعبد!

كل هذه الآلهة، كانت رموزًا، ميتة، لهذا توقَّد فضولي لرؤية (إلهة) تسمى (كومارا ديفي) أي الإلهة الحية، رغم أنه لم يكن مسموحًا لي كأجنبي برؤيتها، إلا أنني رأيتها، وصورناها أيضًا!

بين مدرستين عصريتين في ركن من أركان ميدان دوربار بكتماندو، كان بيت (الإلهة الحية) كومارا ديفي، بناء عتيقًا ذا نوافذ وشرفات من الخشب المحفور بزخارف طواويس وتمائم يرجع إلى منتصف القرن ١٨، يحرسه أسدان ضاحكان من الجص الملون ويتراكم على قاعدتيهما عشرات الأطفال، يبيعون للسياح صور كومارا و(أنتيكات)، ومجموعات من نقود العالم المختلفة التي وصلت إلى أياديهم وأيادي المتسولين.

دخلنا إلى البيت منحنين، فالباب واطئ ويفضي إلى باب وراءه، واطئ أيضًا، لكننا نستقيم عند عبورنا إلى الفناء الداخلي الذي تطل عليه طوابق البيت بنوافذ مشغولة الأطر بخشب داكن ذي زخارف مركبة بديعة، وفي وسط الفناء كان ثمة شجرة مورقة، وجرة ضخمة من الفخار الأحمر وصندوق حديدي بلون أخضر وقفل كبير، لكن فتحة وضع النقود فيه ظلت فاغرة.

يعتقد النيبالون أن كومارا هي تقمص لـ(الإلهة العذراء) التي تعد وجهًا من الوجوه الاثنين والستين لبارفاتي شاكتي زوجة شيفا، وتقول الأسطورة إن الملك (مالا) تعود أن يلعب النرد مع الإلهة (تاليجو) التي ظهرت له في هيئة بشرية، وذات ليلة، اشتهاها وتحرش بها، فغضبت (الإلهة) غضبًا شديدًا، وأخبرته أنها ذاهبة ولن تعود، فاستوحش الملك وظل يناديها نادمًا أن تعود، فسامحته وأنبأته أنها ستعود، ولكن متقمصة صورة عذراء صغيرة طاهرة! ومن هنا، جاءت الإلهة الحية (كوماري) التي تُختار بدقة من بين

البنات اللائي في عمر بين الرابعة والخامسة، من قبيلة (ساكيا) التي يعمل أبناؤها بصياغة الذهب والفضة، ولابد أن يكون جسدها نقيًا من العيوب، وتتوافر به ٣٢ علامة يعرفها كبار الكهنة، ومن ثم تخضع لاختبارات قاسية، فتؤخذ إلى مكان مظلم ليخوفها كهان يرتدون أقنعة مرعبة، وتُلقى عليها رءوس الجواميس المقطوعة الدامية. ومن تصمد في هذا الاختبار وتبقى هادئة غير مروعة، تكون هي الإلهة الحية، وتخوض اختبارًا أخيرًا هو أن تستخرج حلي وثياب (الإلهة) السابقة عليها من بين أكداس مشابهة، وبعد هذا الاختبار، ينظر المنجمون إلى طالعها الذي ينبغي أن يتوافق مع طالع الملوك، وبهذا تُرسَّم إلهة حية (كوماري) وتنقل في زي وحلي الكوماري إلى معبد (باهال) الذي اتُّخذ بيتًا لتلك (الإلهة) من قديم. وهناك تبقى (مقدسة) لا تغادر إلا لحضور احتفالات دينية معينة، محمولة على محفة مفروشة بالزهور، ولا يسمح بأن تلمس قدماها الأرض، وما أن تحيض أو تخرج من جسدها نقطة دم ولو عبر جرح صغير حتى تزول عنها القداسة، وتخرج من بيت (الإلهة) إلى بيتها (البشري) حيث يُسمح لها بأن تتزوج، لكن هيهات، فالنيباليون يعتقدون أن الإلهة السابقة عندما تصير زوجة لبشر، تجلب لزوجها سوء الطالع، ويكون الموت المبكر مصيره!

كانت الأسطورة تتلاعب في خيالي عندما وقفت في باحة (باهال) منتظرًا إطلالة (الإلهة الحية)، وانتابتني لحظة عبثية أخذت أنادي فيها بين ضحك وجد: «كوماري يا كوماري»..أطلي علي، فأنا قادم إليك من بعيد، بعيد جدًا يا كوماري».

وفوجئت بامرأة عجوز تطل من نافذة في الطابق الثالث عن يساري وتقول بإنجليزية مفككة: ضع نقودًا في الصندوق، وانظر هنا. وضعت النقود ونظرت إلى النافذة المواجهة للمدخل في الطابق الثالث، فأطلت كوماري، كطيف (مدندش) بالحرير الأحمر والذهب، طيف طفلة!

كررت المحاولة، وحصلت على إطلالات أخرى من (الإلهة!)، كل واحدة بخمس روبيات نيبالية، أي ما يوازي بضعة قروش أو بضعة فلسات، أما الصورة، فكلفتنا دولارين!

عندما يتحول الحلم المستحيل إلى واقع حي، ويكون ـ فوق ذلك ـ واقعًا أبهى من الحلم، فإن الكتابة ترتجف، ويصير التعبير عن كل ذلك نوعًا آخر من الحلم المستحيل، فلقد سكنني حلم رؤية قمة إفرست منذ أيام الطفولة القارئة، عندما استقر في وعي البشرية المعاصرة كلها، أن أعلى قمة في العالم هي قمة إفرست البالغ ارتفاعها ثمانية آلاف وثمانمائة وثمانية وأربعين مترًا، ومن بعد أخذ حلم الفتى ينمو مع متابعة الكثير مما يرتبط بهذه القمة، التشكيك في تفوقها على سائر القمم، ثم التيقن من هذا التفوق بأحدث وسائل القياس في عصرنا، ثم قصص متسلقي الجبال الذين وصلوا إلى هذه القمة، وقصص الذين فشلوا في الوصول إليها، وقصص الذين ماتوا من أجلها، شغلني كثيرًا التفكير في سيكولوجية هؤلاء جميعًا، وسحرني غموض اللغز المتعلق بإنسان الثلوج الأشعر ذي القدم العملاقة، الذي تدور حوله حكايات كثيرة متناقضة، أما الأساطير التي عثرت عليها في نيبال، فقد زادت من تعلقي بالحلم، ولم أكن أتصور أنه قابل للتحقيق، فلا أنا في عمر وصحة يسمحان لي بالانضمام إلى محاولات مغامري التسلق ذوي الإمكانات العالية، وليس أمامي كثير من الوقت أو المال أو الرغبة للوصول إلى تلك القمة على أكتاف أبناء قبائل الشيرباس النيباليين الذين اشتهروا بالعمل حمالين ومرشدين بصحبة مغامري التسلق الغربيين واليابانيين في جبال الهيمالايا.

كان علينا ـ سليمان حيدر وأنا ـ أن ندفع آخر ما معنا لننال ذلك، وبالشروط العالية التي طلبناها، فقد كان المطلوب ونحن نتفاوض مع وكيل إحدى شركات (الطيران بين الجبال) بكتماندو، في إطار ما يسمى (التخييم الطائر)، أن تكون خيمتنا الطائرة مضروبة في السماء على ارتفاع أكثر من ثلاثين ألف قدم لنعتلي قمة إفرست البالغ ارتفاعها ما يقارب هذا الارتفاع (وهو على وجه التحديد ٢٩٠٢٨ قدمًا)، وإضافة إلى ذلك، كنت أطلب وقتًا معقولًا لتأمل المشهد ولإفساح فرصة التصوير أمام سليمان حيدر، ومن ثم قفزت تكاليف هذه المغامرة بعد اتفاقنا على تحقيق ما طلبناه ـ مع مجموعة من السياح اليابانيين ـ في طائرة حديثة من طراز «Beach 1900 D».

هل حقًا سنعتلي قمة إفرست؟

مكثت أسأل نفسي دون تصديق طوال اليومين السابقين على الإقلاع، وكانت قمم الهيمالايا شاغلي، وعلى رأسها قمة إفرست، التي تسمت بهذا الاسم عسفًا، فهي لدى النيباليين الذين يرونها من الجنوب: (ساجارماتا) ولدى أهل التبت الذين يطلون عليها من الشمال: (شومولونجما)، وما إفرست إلا اسم استعماري احتل الاسم الأصلي لهذه القمة أخذًا عن اسم قائد القوات البريطانية العاملة في الهند في أواخر القرن ١٩ الجنرال (جورج إفرست)، وهو احتلال لفظي في مظهره، لكنه في جوهره إزاحة لأبعاد روحية لدى سكان سفوح جبال الهملايا سواء من الهندوس أو البوذيين في نيبال والتبت على السواء، فحتى العام ١٩٤٩ لم يكن مسموحًا للأجانب بتسلق أي من جبال الهملايا، فهذه الجبال مقدسة لدى البوذيين والهندوس معا، ويعتبرونها (موطنًا للآلهة) ومرتقى لبلوغ (النور)، فهي المكان الذي اعتكف فيه بوذا حتى (تنور)، وهي (مملكة شيفا)، وثمة قمم تعتبر (مقدسة) بذاتها، فقمة (كابلاش) يصلي عند أقدامها الهندوس، لأنها منبع نهري الجانج واليامونا (المقدسين) وهي بما عليها من ثلوج بيضاء تشبه نهدًا يفيض من قمته وعلى جوانبه الحليب.

تحولت مساعي التأمل والتنور مع هجوم متسلقي الجبال الغربيين على قمم الهملايا ـ خاصة قمة إفرست ـ إلى نوع من إسقاطات الجنون ورغبة في (قهر) القمم، وإن كان هذا ليس مطلقًا وتأكدت منه بعد الصعود.

كان صباحًا مشمسًا مفعمًا بالإثارة ذلك الذي توجهنا فيه إلى الطائرة التي ستحلق بنا فوق سلسلة جبال الهملايا من الجانب النيبالي، وتدور ثم تتوقف عند قمة إفرست معلقة في الهواء حينًا، لتكون كالخيمة المضروبة في السماء، نحتمي بداخلها من ندرة الهواء الذي يرق على هذا الارتفاع، ويوشك أن يتلاشى، ونحتمي من الصقيع الساحق، ونطل بأبصارنا، بل بما هو أعمق من الأبصار، إلى معجزة الخالق في ذرا كوكبنا.

انطلقت الطائرة نحو شمال كتماندو، وعبرنا فوق الجبال شفقية اللون، التي تحدق بالمدينة، كان الجو ضبابيًا في مستوى السحب والجبال التي تتعاقب كأمواج هائلة هادرة من دخان، مازلنا تحت مستوى الخمسة آلاف متر التي يبتدئ عندها صعود خط الثلوج، نصعد بتسارع فتتغير ألوان الجبال في تعاقبها، أخضر،يليه زيتوني داكن،

فرمادي مائل إلى الزرقة، فبنفسجي في الأفق، وفوق كل ذلك تلوح القمم البيضاء الموشاة بالثلوج.

نعلو أكثر مقتربين من الثمانية آلاف متر ارتفاعًا، فيتلاشى العالم تحتنا، ولا يكون غير ضباب، فزرقة صافية، وفي هذه الزرقة تسمق قمم الهملايا كأنها جبال من بلور أبيض تطير في السماء، متألقة في ضوء الشمس، وما من شيء يشوب نقاء وجلال وصفاء الصورة، حتى النسور، لا تصعد إلى هذا الارتفاع، وتفتش العين في ثنايا الثلوج ودكنة الأخاديد عن خيمة شاردة لفريق من المتسلقين، لا شيء،لا شيء إلا صفاء الزرقة اللانهائي، ونصوع البياض المضيء شبه المطلق، وها نحن ندور، وها هي قمة إفرست نحوم حولها ونصعد رويدًا رويدًا، إننا نرتقيها، ونتعلق، نحدق مذهولين، تشبه هرمًا رماديًا سرمديًا موشى بالثلوج بين القمم الناصعة، أُمعن، ثمة هالات من النور تحيط شفيفة خفيفة بقمة القمم، أتراه وهم روحي، أم زيغ بصري، أم ارتداد ضوء الشمس عن مرايا أصفى ثلوج الأرض؟ لا أدري، ولن أدري.

الذي أدريه الآن يقينًا، أن من يصعد إلى هذا المرتقى يومًا، لا يعود كما كان قبل الارتقاء، ويظل يهفو أبدًا إلى هذا الارتقاء، لهذا لم أعد أرى في جنون متسلقي قمم الجبال جنونًا، بل هي رغبة مطلقة في الانعتاق من شقاء العالم الأرضي وملامسة مطلق النقاء الذي لم يمسسه البشر أو لم يلوثوه بعد.

تذكرت وادي كتماندو القابع علي مبعدة أكثر من سبعة آلاف متر تحتنا، حيث لا يمكننا أن نراه، تذكرت الأنهر المتعفنة، والآبار العطشى، وآفاق الغبار، والبشر الخائضين في دم السوائم، وضوضاء الطبول والمزامير، والأجساد النحيلة المنهكة، والأساطير، وأحسست بالشفقة، بل بالرثاء!

بولندا

عروس البلطيق الحائرة

لعلها كانت إحدى عرائس بحر البلطيق، خرجت إلى الشاطئ واستلقت، فكان من شعرها بهجة الغابات، ومن نور عينيها ألق الكهرمان، ومن قشور جسمها صفاء الكريستال. على أرضها صدحت موسيقى شوبان، وتوقد ذهن ماري كوري وكوبرنيكوس، وزهت العمارة القوطية وزخارف الباروك. ولكن المدافع كانت عمياء، فلم تر فيها غير موقع عسكري ملائم للاقتناص أو للانطلاق. ومن ثم كان عذابها، وكانت حيرتها، فاتخذت لعاصمتها شعار عروس بحر ترفع سيفا وتحتمي بدرع. ولما بدا أنها ـ أخيرا ـ تستطيع التحرر من ثقل ما حملت، أوقفتها الشدة في موقف الحيرة، وأوقفتنا ـ حين زرناها ـ في موقف التأمل.

«سيباستيم» صبي جميل في نحو الثانية عشرة، جريء برهافة ولطف، وأليف بعذوبة مدهشة، لقيناه على دراجته ونحن نتوه في الشوارع الصغيرة الملتفة بحي الميناء الجديد «نوفي بورت» بـ «جدانسك». كنا نبحث عن محطة المعدية التي تقطع نهر موتلافا المتجه نحو خليج جدانسك، نقصد تلك البقعة على الضفة الأخرى، بين النهر والخليج المفتوح على بحر البلطيق.

«ويستربلات» شبه الجزيرة التي شهدت في الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة يوم أول سبتمبر ١٩٣٩ الشرارة الأولى التي أشعلت الحرب العالمية الثانية.

سيباستيم الجميل الأليف المرهف كان يقف على دراجته في ظل أحد أسوار البيوت القديمة المثقلة بالخضرة، تفرس في وجهينا ثم سألنا: «مرحبا.. هل تتحدثان الإنجليزية» وقلنا ـ سليمان حيدر وأنا ـ في نفس واحد، وبتهلل: «نعم، نعم» فلقد عثرنا

أخيرا على دليل، بعد أن قررنا مقاطعة كل القنوات السياحية، إضافة إلى أننا لم نكن نرتكن إلى أي عون رسمي بولندي. وكانت إنجليزية سيباستيم البسيطة الصافية كافية تماما، فهي توفر علينا مشقة الحديث إلى الناس بلغة الإشارة وتنقذنا من نظرات الشزر عندما كنت أضطر إلى الحديث باللغة الروسية التي يفهمها كثير من البولنديين ويكرهون التحدث بها. وصف لنا الصبي طريق الوصول إلى محطة المعدية، وماكدنا نبتعد في الطريق الذي يحف بالشاطئ وتظلله أشجار الكستناء البري والحور حتى سمعنا رنين الأصوات الصغيرة وراء ظهرينا «كليك تن تن. كليك تن تن» لقد كان سيباستيم يلحق بنا والخرزات الملونة (الملضومة) في أسلاك عجلات دراجته، تصعد وتهبط مع دورات العجلات فتصدر هذا اللحن البهيج الصغير. ولم يتركنا الولد، وظل يمشي بدراجته بطيئا إلى جوارنا، يسبقنا ليتأكد من صحة مسارنا من البحارة وصيادي الأسماك على الشاطئ الذي نمشي بموازاته، ويعود ليطمئننا إلى صحة مسعانا. نحادثه ويحادثنا وكان حديثه عذبا ويشق القلب أحيانا: ـ «ما هي مهنة والدك سيباستيم؟» ـ «ليس لي أب لقد ترك أمي ورحل عندما كنت صغيرا جدا».

«أمي تربيني أنا وأختي وهي تعمل مبرمجة كمبيوتر». لم يكن في حديثه انكسار اليتامى ولا كآبة ذكرياتهم. لكنني لاحظت حركة عصبية صغيرة يختلج بها وجهه الجميل الصافي. لقد كان يتعلم في مدرسة للغات، والمدهش أنه كان يتجه للتخصص في الطبخ. ويحضر دروسا عملية في مطاعم «جدانسك» وأحيانا على ظهر سفن الركاب الراسية في الميناء.

لم يتركنا «سيباستيم» حتى جاءت المعدية، والطريف أنه أسلمنا أمانة لصاحب له التقاه عند المرسى، وشرح لنا الولد الجديد جغرافية المكان مشيرا إلى حوض بناء السفن في الجهة الشرقية حيث بدأت حركة التضامن، وقال بزهو إن والده كان يعمل مع «ليش فاليسا» وإنه يعرفه شخصيا فقد أتى إلى بيتهم مرة على العشاء. ودعنا سيباستيم الصغير بتأثر وظل يلوح لنا ونحن نبتعد حتى صار نقطة بعيدة.. نقطة حياة صافية تمتلك حلما صغيرا.. أن يكبر ويعمل طباخا على سفينة تطوف بدنيا الله الواسعة البهية، أما الآن فإنه سينتظر بتلهف وصول رسالة باسمه من بلاد بعيدة.. من بشر التقى بهم مرة

في نهر الحياة وكانوا متجهين صوب الشاطئ الآخر يبحثون عن البقعة التي بدأت منها النار التي أوشكت على التهام البشرية وإحراق دنيا الله الطيبة، منذ نصف قرن ونيف.

لكمة فاليسا غير القاضية

على ظهر المعدية كانت هناك بضع سيارات، وميزنا من بينها سيارة ليموزين سياحية يركبها بعض الألمان ممن ينزلون معنا في نفس الفندق، وكنا متعبين لأننا مشينا كثيرا. ولقد لمنا أنفسنا للحظة لأننا لم نأخذ سيارة رغم قفزة الغلاء في أسعار كل شيء. وبينما كنا نبحث عن محطة الباص المتجه إلى «وستر بلات» امتقعت الدنيا فجأة وانهمر مطر غزير فأخذنا نركض حتى وقفنا تحت مظلة الباص المجاورة لمدخل إحدى ورش الميناء، وتحت المظلة رحنا نتأمل الدنيا الموشاة بالمطر فتلاشى لومنا لأنفسنا، فلقد أخذت أراجع المشاهد التي وقعت عليها أعيننا، وما كان لنا أن نراها لولا أننا سعينا إليها مشيا على الأقدام. إنها الصور العميقة التي لا تراها أعين السياح والتي ردت على سؤال مكثت أسأله لنفسي منذ وطأت أقدامنا أرض مطار جدانسك الصغير البدائي والذي انكسرت فيه حقيبتي لأنها وقعت مع غيرها من زحام عربة اليد الحديدية، إذ لم يكن في المطار سير كهربائي لنقل الحقائب، هذا في ميناء بلد كان جزءا من استراتيجية حرب الصواريخ العابرة للقارات ومضادات حرب النجوم! كان السؤال: لماذا جدانسك بالذات هي التي بدأت تمرد العمال على حكم الحزب الشيوعي الذي تصرخ وتغني أدبياته بأنه حزب العمال.. لماذا جدانسك؟... ولم أجد الإجابة بالطبع في الجولات السياحية المنظمة التي قمنا بها على مدى يومين، لم تكن الإجابة متاحة في مركز المدينة الذي يشعرك بأنك تمشي في أبهة القرن السابع عشر. البيوت ذات الطراز الجيرماني والألوان الفاتحة وزخارف الجص والعليات وأسقف القرميد. صناديق الزهور وستائر الدانتيلا، المقاهي ذات الشرفات الخفيضة، تفرعات نهر موتلافا التي تمخرها الزوارق البيضاء. هذا القلب القديم للمدينة الذي يبدو وكأنه راجع إلى ثلاثة أو أربعة قرون ماضية ليس إلا إعادة بناء للقديم الذي دمرته بنسبة ٩٠٪ القوات الألمانية الغازية ابتداء من عام ١٩٣٩، ثم القوات الروسية المحررة عام ١٩٤٥. كل هذه الأبهة القديمة المتجددة لم تكن لتجيب عن سؤالنا حول مبادرة عمال جدانسك

بالتمرد على حزب الطبقة العاملة. لكن جولتنا على الأقدام وفي المواصلات العامة هي التي قدمت مشروع الإجابة. فما إن ركبنا الترام رقم ١٠ حتى بدا أن هناك جدانسك أخرى غير تلك السياحية الساحرة التي رأيناها في الحي القديم ومركز المدينة. هنا تتراجع صور الصبايا فاتنات الجمال والثياب، والرجال المتأنقين، والأطفال الرافلين في ثياب العافية والبهاء، وتتزاحم صور العمال المنهكين وأسرهم التي تحمل سيماء الإنهاك أيضا. الأجساد التي لا امتشاق فيها والتي ينتفخ الكثير منها بفعل أكل البطاطس التي ضخمتها أسمدة النترات لتكبر وتسد جوع المتعبين الذين لا قبل لهم بأكثر منها، والملابس الخشنة ذات الأذواق البروليتارية الرديئة والأحذية الكبيرة والوجوه التي تغضنت قبل الأوان. الصبايا الفقيرات في فساتين التيل المشجر التي تشبه جلابيب المطبخ بطبعات حائلة وأزهار معوجة. الأطفال المرقشة وجوههم ببعض من بقع سوء التغذية، والكبار الذين طبعت الخمور وجوههم بحمرة ممتقعة لفرط ما يسكرون لحد الغيبوبة. كل هؤلاء كانوا من حولنا في زحام الترام رقم ١٠ الذي كان يمضي بطيئا مرتجا في تلافيف حي الترسانة والميناء حيث تظهر ساحات الورش والبيوت العمالية الكالحة والحوانيت التي تبيع الأشياء الرديئة الرخيصة. هنا تكمن الإجابة ونجد تفسيرا لبدء اشتعال شرارة التمرد العمالي في جدانسك. فالنظام الشيوعي الذي وعد الطبقة العاملة بالجنة الأرضية لم يف بوعده، بينما كان قادة هذا النظام يحلقون بترف «برجوازي» من فائض قيمة عمل «الكادحين» في شقاء الحضيض. ولقد عن لي أن أفتتح مزادا للإجابة في زحام الترام رقم ١٠، ثم في كل مكان توقفنا فيه داخل حي الترسانة والميناء، وكان السؤال «أي الأيام أفضل؟ في النظام السابق أم الحالي»؟ لم يكونوا يعرفون الإنجليزية فكنت أوجه سؤالي إليهم باللغة الروسية التي يعرفها معظمهم (إذ كانت اللغة الإجبارية الثانية في نظام التعليم إبان الحكم الشيوعي) وإن لم يبدوا ارتياحا للتحدث بها إلا بعد أن أفهمتهم أنني لست روسيا وإن كنت أتكلم الروسية.

«بدوا ودودين كشأن بسطاء الأرض جميعا، وكانوا يتهيبون في البداية ثم يتزاحمون حولنا.

«لا الآن، ولا من قبل» كانت هذه هي الإجابة الشاملة، ولقد أكدتها آخر الصور

قبيل ركوبنا الباص المتجه إلى «وستر بلات» فمن بوابات مصانع الأسمنت والفولاذ وورش الترسانة البحرية رأينا أشقياء الأرض الذين استخدمتهم الشيوعية وباعتهم الرأسمالية، وقد كانوا ينبعون من عوالمهم السفلية في (عفاريت) الشغل، معفرين حتى العظام بتراب الأسمنت أو ملطخين حتى الجفون بالسناج. هؤلاء هم الذين بدأوا شرارة التمرد بقيادة فاليسا، ومسوغات قيادة فاليسا كانت بسيطة وخشنة، بساطة وخشونة هؤلاء العمال أنفسهم، ففي أحد الإضرابات العمالية بجدانسك جاء مدير المصنع ليهدد العمال فما كان من فاليسا إلا أن برز له من بين الصفوف ووجه إليه لكمة طرحته أرضا، ورفعت هذه اللكمة فاليسا إلى مرتبة القيادة. بالطبع لم تكن اللكمة هي المؤهل الوحيد لإيصال فاليسا إلى موقعه، فقد كان هناك تاريخ طويل من الشعور بالمرارة لدى العمال البولنديين الذين لم يكن الشيوعيون بينهم إلا صنائع (موسكوفية) في معظم الأحوال، وموسكو الحمراء لم تكن إلا تسلطا روسيا على بولندا رغم تغير الألوان وتبديل الشعارات. فلو بدأنا من معاهدة عدم الاعتداء التي وقعها ستالين مع هتلر في ٢٣ أغسطس عام ١٩٣٩ (أي قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية بأسبوع واحد) لاكتشفنا روح القيصرية خلف لافتة الشيوعية، إذ إن ستالين اتفق مع هتلر على تقسيم بولندا واقتسام شعبها بين روسيا وألمانيا كما توزع الأغنام. وبعد أن هجم هتلر على جدانسك ووارسو هجم ستالين على الجزء الشرقي من بولندا في ١٧ سبتمبر ١٩٣٩ وابتلعها في نوفمبر من نفس العام وتم ترحيل مليوني بولندي إلى سيبيريا وكازاخستان ما بين عامي ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ لتغيير التركيبة السكانية للجزء البولندي الذي احتلته روسيا. ثم إن الحزب الشيوعي البولندي (حزب العمال) خرج مباشرة من عباءة موسكو ـ ستالين في يناير ١٩٤٢. وبعد أن ترك تشرشل وروزفلت بولندا لتكون تحت سيطرة روسيا في مؤتمر يالطا ـ فبراير ١٩٤٥ تم تنصيب حكومة بولندية في موسكو في يونيو ١٩٤٥ وأرسلت جاهزة إلى وارسو! هكذا زرعت الشيوعية السوفييتية قسرا في بولندا، ومع زيادة الأسعار واستفحال الديون وانتخاب جون بول الثاني البولندي ـ بابا للفاتيكان عام ١٩٧٨، نضج الغضب البولندي على خليط من نار الغليان الداخلي والتربص الخارجي، فشلّت الإضرابات بولندا في أغسطس ١٩٨٠ بادئة من حوض بناء السفن المسمى (لينين) في جدانسك شمالا إلى مناجم الفحم في

الجنوب. وكانت حركة التضامن، وكان ليش فاليسا، وكان عدد المنضمين إلى الحركة ١٠ ملايين عامل يمثلون ٦٠ ٪ من قوة العمل البولندية. والمدهش أنه كان من بينهم مليون من الشيوعيين وجميعهم ضد الحزب الشيوعي البولندي!، ثم كان الصراع حتى حل الحزب الشيوعي نفسه في يناير ١٩٩٠، وفي نوفمبر من نفس العام كان اختيار فاليسا أول رئيس غير شيوعي لبولندا في انتخابات تكميلية مع منافس بولندي مهاجر ومليونير هبط على وارسو (بالبراشوت) قادما من أمريكا، وكان شعاره الانتخابي «ديمقراطية الفلوس» وكاد بهذا الشعار أن يفوز على فاليسا لكنه أخفق.

ولعل فاليسا ظل بسيطا لكنه في النهاية محاصر في نقطة التقاطع المحيرة حيرة بولندا نفسها، بين محور الشروط الرأسمالية المستجدة والخاضعة لمنطق الرأسمال العالمي وبارونات الانفتاح الجدد وبين نداء السواد الأعظم من معذبي الأرض الذين طلع من وسطهم. ولقد استشعرت حيرة فاليسا عندما وقفنا في الفناء الأمامي للبيت الأبيض البولندي على مبعدة أمتار من حيث ينام فاليسا ويصحو. لم يكن هناك إلا عدد لا يزيد على أصابع اليد الواحدة من أفراد الحرس، عمليا لم يكن هناك ما يهدد فاليسا، لكن لا بد أن هناك ما يؤرقه بين زمن اللكمة الماضية ولكمة أخرى فشل في تسديدها للفساد والقسوة الرأسمالية التي تجتاح بولندا وتعصف ببسطاء أهلها.

كانت صور العمال في شقوتهم وعفاريتهم المزيتة والمغبرة هي آخر صور وقعت عليها أعيننا قبل أن نركب الباص الأصفر المتجه إلى وستربلات تحت وابل من المطر، وبين ضفتين من الغابات والزهور.

في مسرح الزمان المكشوف

على شاطئ بحر البلطيق، وباتجاه قمة شبه الجزيرة التي تشكل لسانا ممتدا داخل خليج جدانسك، مضينا راكضين تحت المطر. استرحنا قليلا داخل طابية عسكرية صغيرة وسط الغابة تحمل جدرانها بعض آثار طلقات نيران الحرب الثانية، وبعد أن انقطع المطر واصلنا مسيرنا في الطريق الصاعد وسط الأشجار نحو قمة وستربلات. ورأينا النصب الجرانيتي الداكن، القبيح قبح الحرب نفسها. مكثنا نصعد حتى انقطعت

أنفاسنا عند القمة فارتمينا نستريح ونرنو إلى (بانوراما) المنظر الساحر: ها هو خليج البلطيق، وهناك البحر، وهذا هو مدخل الميناء حيث وقفت السفن الألمانية الحربية تلقي بحممها، وعلى مد البصر كانت تترامى بيوت جدانسك متفاوتة الارتفاعات متباينة الألوان، لكن لون القرميد كان يكشف عن تميز المدينة القديمة، بينما الخضرة في كل مكان كأنها غابة تمد أطرافها نحو البحر.

تنفست هواء الشمال الرائق، ونسائم بحر البلطيق وعبق الغابة البولونية، وزفرت تأثرا وشجنا وأنا أطل على خشبة المسرح الخالية التي جرى فوقها أحد أشد فصول الدراما البشرية دموية وجنونا. ووجدت نفسي (أفهم) أو أتصور أنني أفهم ما مر عليّ من تاريخ هذا المكان، وهذا البلد، فزيارة الحاضر عون لا مثيل له من أجل فهمٍ أصفى وأعمق للماضي، وعلى خشبة المسرح الذي غادرته البوارج وزوارق الإنزال وتلاشت من سمائه ألسنة اللهب وسحائب الدخان رحت أستعيد، لا تاريخ الحرب العالمية الثانية وحده في هذا البقعة، بل تاريخ هذا البلد الذي كنت أقف على إحدى قممه الجغرافية والتاريخية.

«إنها مفتاح كل شيء» ـ كانت هذه هي العبارة التي وصف بها نابليون جدانسك، ولعلها صنعت أصداءها في (دماغ) هتلر فبدأ بها اجتياحه الجنوني، رغم أن هناك من الأسرار ما يوحي بأن الحمقى يقعون في مصايد التاريخ لتنفيذ مخططات كونية جهنمية دبرها شيطان عالمي أو شياطين عدة. لم أر في جدانسك وحدها «مفتاح كل شيء» كما قال نابليون، لكنني وجدت في بولندا جميعها المفتاح لفهم ما استغلق من أمر أوربا والأوربيين، ومن ثم الغربيين الذين لا أخفي اعتقادي في أنانيتهم. كانت بولندا هي واحدة من طرق الآلام التي مشت عليه طويلا وكثيرا الأقدام العارية للإنسانية المعذبة، والأمر هنا لايقتصر على شعوب الجنوب التي استعمرها واستغلها البيض، بل تعداه إلى الجنس الأبيض ذاته، فأنانية هذا الجنس لم تمنعه من أكل لحم أشقائه البيض عندما كانت تستبد به الشهوة والفجعة. وتاريخ بولندا خير دليل، وجغرافيتها كانت موقع الاختبار، وهو اختبار فشلت فيه ـ إنسانيا ـ تلك الأجزاء من أوربا التي شاع بيننا إما أنها لاعدوانية أو أنها راقية أو عظيمة. ألمانيا وروسيا وحتى السويد والنمسا

كلها كانت سواء في تاريخ التكالب على لحم بولندا المهيض، فبعد وحدة بولندية سويدية قصيرة العمر اشتعلت حرب طائفية على أساس من عداء الأغلبية البروتستانتية اللوثرية السويدية للبولنديين الكاثوليك الروم، وكان الغزو السويدي المأساوي الكبير عام ١٦٥٥، حيث فقدت بولندا ربع مساحتها وأحرقت قرى وأبيدت مدن ولقي أربعة ملايين إنسان (من بين سكان بولندا البالغين آنذاك عشرة ملايين) حتفهم في الحرب والمجاعات واجتياحات الطاعون.

أما روسيا القيصرية، المنغلقة والثقيلة، فإنها كانت كلما تململت تمد مخالب الدب وتنهش من لحم بولندا، فعندما أصدرت بولندا دستورها الليبرالي (وكان ثاني دستور ليبرالي في التاريخ الحديث بعد الولايات المتحدة) أرسلت القيصرة إيكاترينا قواتها الكاسرة لتحطيم الليبرالية البولندية التي أزعجت نظامها التقليدي. ولم يمض عام ١٧٩٥ حتى تم تقسيم بولندا بين روسيا وبروسيا (متضمنة ألمانيا) واختفى اسم بولندا من الوجود لمدة ١٢٣ سنة! إذ لم تعد بولندا إلى الظهور إلا بعد انكسار ألمانيا والنمسا في الحرب العالمية الأولى وانشغال روسيا بحربها الأهلية عام ١٩١٧، وتحين المارشال البولندي بيلز يودسكي الفرصة لإعلان استقلال بولندا من جديد في ١١ نوفمبر عام ١٩١٨.

إن ذلك التاريخ من الانتهاك المتواصل خلق ـ في ظني ـ نزوعا بولنديا خاصا على مستوى سيكولوجية الشعب وطموحه السياسي. وهو ما يمكنني تلخيصه في كلمتين: الحرية والرحيل. فالبولنديون مهووسون بالحرية ولو إلى درجة الفوضى وميالون إلى الرحيل كلما استبد بهم الأسى. ومن الطرائف التاريخية التي قد تؤكد ذلك أن بولندا شهدت أغرب نظام سياسي في الفترة من ١٧٧٢ ـ ١٧٩٥ وهو «الجمهورية الملكية» حيث كان البرلمان البولندي (سيجيم) يختار الملك بالانتخاب! وفي عام ١٦٢٥ طبق البرلمان نظام «ليبروم فيتو» وفيه كان صوت عضو برلماني واحد كفيلا بحل البرلمان أو إبطال قانون يجري الاقتراع عليه أو إعادة أي قانون جرى الاقتراع عليه إلى التصويت من جديد، ومن ثم لم ينجح هذا البرلمان في تمرير قانون واحد لمدة ثلاثين سنة! هذا عن عشق الحرية، أما عن السفر.. فيكفي أن نذكر أنه عشية اندلاع الحرب العالمية

الأولى هاجر إلى الولايات المتحدة أربعة ملايين بولندي من أصل مجموع السكان البالغ عددهم آنذاك عشرين مليونا. أي أن خمس السكان رحلوا!!.

هكذا كان الماضي، لهذا جاء التضييق الذي صنعته الشيوعية العسكرية (على النمط السوفييتي) مغالطة تاريخية لم تنسجم أبدا مع الروح البولندية التي لم تكف عن التمرد حتى كانت ورقة الدومينو الأولى التي أوقعت صف الأوراق الأخرى المهيأة للوقوع في أوربا الشرقية أو الكتلة السوفييتية. فماذا عن الحاضر؟ وهل تعلن بولندا عن تمردها بشكل جديد، بعد أن تخلصت من الشيوعية ولجأت إلى الرأسمالية فلم تعثر على الخلاص كما بدا لي من استطلاع رأي البولنديين الذين كنت ألتقي بهم على الأرض، وحتى في الهواء؟. فقد أخبرتني جارتي في الطائرة المتجهة من جدانسك إلى وارسو وهي طبيبة فاتنة حديثة التخرج تدعى فيرا الباتروس: «لم يعد العيش ممكنا، المرتب لا يكفي لشراء حذاء جديد.. إنني مسافرة، ثمة فرصة عمل هناك». لكنها لم تقل لي تحديدا.. أين، وماذا ستعمل؟.

طيران فوق الأخضر.. وهبوط!

تعجبت. ومازلت أتعجب من أمر بولندا. فمن حدود بولندا مع ألمانيا، حيث كانت نقطة دخولنا، وحتى كراكوف ثم وارسو، لم أر إلا اللون الأخضر.

ومن جدانسك إلى وارسو.. لم أر إلا اللون الأخضر.

وفي كل الاتجاهات، وعلى كل المحاور، من الأرض، ومن الجو.. كان اللون الأخضر.

خضرة غامرة وفتية تمتد لتغطي كل التضاريس التي تهبط وتصعد في مدارج وآفاق تشرح الصدر وتسر النظر، خضرة مترعة بالارتواء من أنهار وبحيرات يبلغ عددها في بولندا ٢٥٦١ بحيرة!!.

خضرة تبارك جنة صيادي الأسماك والحيوانات البرية في منطقة.. ما زوري..، وغابات السهوب في بيالوفيجا، وتلال سوبوت التي تقبع بين أشجارها الوارفة «أوبرا

الغابة»، ومرابض الخيول البولندية القزمية «تاربان» في بوبيلتو. خضرة ينبسط منها ١٩ مليون هكتار من الحقول، وثمانية ملايين هكتار من الغابات.

خضرة هي عماد الحياة، إضافة إلى قاعدة صناعية متطورة، وأساس علمي يقوم على أكتاف ٤٣٠ معهدا للأبحاث العلمية و٨٩ معهدا للتعليم العالي من بينها عشر جامعات، وشعب نشط وجيد التدريب يبلغ تعداده أربعين مليونا.

فلماذا يشتكي الناس؟ بل إن البسطاء منهم يصرخون؟ لماذا؟! سألت، فقيل لي إنه الانتقال السريع من الاقتصاد الاشتراكي المخطط إلى اقتصاد السوق الرأسمالي. ففي عام الإعلان عن بدء تطبيق (الإصلاحات الاقتصادية) ارتفعت الأسعار ٢٥٠٪. وهبط الدخل القومي ٤٠٪. وقيل لي إنه الفساد في زمن الانفتاح ومثاله الصارخ شابان بولنديان في العشرينيات هما يوجيوسلاف باجسك وجاسيو رفسكي اللذان أسسا شركة تجارية وظفت خلال ثلاث سنوات ١٥٠٠٠ بولندي وافتتحت لها ٢٠٠ فرع. وتبين أخيرا أن رجلي الأعمال الشابين احتالا على البنوك البولندية فنهبا ـ دون ضمانات ـ ما قيمته ٤.٣ تريليونات زلوتي (وحدة النقد البولندية) وفرا إلى الخارج، وقال في شأنهما ليش فاليسا: «أتمنى أن تعود نقود الشعب إلى بولندا».. و«كل من كانوا في هذه الشركة سينالون عقاب أفعالهم»، لكن هناك من يقول إن الرشاش يمكن أن يصيب فاليسا نفسه، فهذه الشركة كانت تسهم في الحملة الانتخابية للكثيرين ومنهم فاليسا!

الاحتيال، والجريمة، شبح يضع بولندا في مأزق محير، ففي عام ١٩٩٣ وحده سُرقت ٤.٥ تريليونات زلوتي، و٥٥ ألف سيارة، وارتفعت حالات الاغتصاب والقتل. ويعلق على هذه الصورة المخيفة، مقارنة مع الماضي، «أندرج رزبلينسكي» أستاذ القانون في جامعة وارسو قائلا: «لم يكن هناك فقير فقرا ملحوظا ولا غني غنى ملحوظا، وكان حمل السلاح محرما». أما الكاتب.. «بيتردو كازفسكي» فيقول: «إن الجريمة في ارتفاع يماثل ارتفاع نسبة اللامبالاة في المجتمع».

وإنه الإحباط.. الإحباط، الذي قد يدفع بولندا إلى استعادة ما كانت تخلت عنه طوعا، ففي مجال الصناعات العسكرية ـ كمثال ـ كانت بولندا سابع أكبر دولة مصدرة للسلاح في العالم ونتيجة (للخصخصة) وتحويل قطاعات الصناعة العسكرية إلى مدنية،

لم تجن من ذلك إلا الكساد في جرارات وحفارات المناجم التي أنتجتها ـ بدلا من الدبابات ـ رغم امتيازها، فصناعة المناجم البولندية نفسها قد انهارت. كساد ومنتجات لا تجد رأسمالا ولا تكنولوجيا للتطوير و ١٨٠٠٠٠ فرصة عمل ضائعة كانت توفرها الصناعات العسكرية. كل هذا قد يؤدي إلى رد فعل عكسي. وعودة عارمة وانتقامية من الغرب ـ الذي أغرى بالتخلي واختفى ـ إلى سوق السلاح، وهو ما يعبر عنه «جان ستراوس» مدير فريق الهندسة المركزي للجنة الإشراف على التجارة العسكرية قائلا: «نحن أمة أكبر من الاكتفاء بعمل لا شيء أكثر من الجبن المطبوخ وصناعة السلال».

إنها زمجرة غضب بولندي، وجدناها مكتومة ونحن نشاهد مقتنيات المعرض الحربي في وارسو وهو يجاور معرض الفن الوطني جدارا لجدار.. كانت طائرات الميج ٢٣ والدبابات والمروحيات متعددة الأغراض والصواريخ متوسطة المدى.. كانت هامدة يأكلها الصدأ بينما مقتنيات متحف الفن المجاور تتألق. فهل يدوم تقاسم الانطفاء والتألق على هذا النحو إذا بلغ الإحباط مداه؟ الشك يعتري الجواب وهذا بعض من حيرة بولندا.

وارسو القديمة الجديدة

من قمة برج «قصر الثقافة والعلم» يمكن رؤية وارسو من كل الجهات. في الشرق رأيت قلب المدينة العصري يمتد بامتداد شارع «الجيروزوليمسكي» الكبير حتى ضفة نهر «فيسوا»، حيث تشرئب البيوت جمالونية السقوف والأبراج وسط أكمة الشجر، وفي الشمال مع انحناءة النهر كانت كتلة المدينة القديمة «ستاريفا مياستا» تضيء وتعتم سقوفها القرميدية الحمراء تبعا لمرور السحب فوقها. وفي الغرب كانت الغابات عميقة الخضرة تمتد حتى الأفق. أما في الجنوب فقد وقفت في سكون أبنية وارسو التي يعود تاريخ بنائها إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية ومن ورائها تنتصب العمائر العملاقة وليدة عصر الانفتاح وأظهرها كان بناء فندق ماريوت المكسو بالزجاج الأزرق الفضي، يبرق ويلتمع في مواجهة رسوخ وجسامة «قصر الثقافة والعلم» الذي تغير طلاؤه الأبيض المصفر. مواجهة ذات مغزى بين عصرين، وفلسفتين، وطرازين معماريين يمثلان أعلى

بنايات العاصمة البولندية. فـ «قصر الثقافة والعلم» بناء أقامه الاتحاد السوفييتي هدية لوارسو ـ في الخمسينيات ـ وفيه تتجسد كل ملامح عمارة «الواقعية الاشتراكية» من العهد الستاليني، بناء هائل، في طابقه الأول الفسيح مسارح أوبرالية وأخرى تجريبية، ومكتبة ضخمة يقام فيها معرض للكتاب كل عام، وقاعة للمؤتمرات تسمى القاعة المخملية وهي مخصصة للمناسبات والاحتفالات الكبرى، وعلى مدى الطوابق الثلاثين تترامى استديوهات للفن وقاعات للثقافة ومختبرات علمية لكن الكثير من هذه النشاطات أفسحت مكانها (للبزنس) الزاحف على وارسو كالصرعة أو الهوس. وثمة لافتات توشك أن تكون استجداء لرجال الأعمال حتى يؤجروا مكاتب في عقر دار «الواقعية الاشتراكية» أما ماريوت فهو أفخم فنادق وارسو، وهو مبني باستثمارات أمريكية على نمط ناطحة سحاب متوسطة من المعدن والزجاج تبرق عاكسة ضوء الشمس كأنها تخايل البناء الواقعي الاشتراكي وتسخر من هوانه على الناس والزمان. والزمن زمن السوق، نهبط لنجوس فيه وقد ضرب حلقته من حول قصر الثقافة والعلم كأنه يمعن في إهانته دون اعتراف له بأي فضل أو فضيلة، فثمة مدينة للملاهي، وأكشاك لتجارة الرصيف، وأخرى لعرض أفلام الفيديو الإباحية، ومطاعم هامبورجر صغيرة، وأرائك تحت الأشجار تلوذ بظلالها بنات الهوى الصغيرات الضائعات في الفاصل بين انسحاب زمن وزحف زمن آخر.

نعبر النفق الموصل إلى ضفة الشارع الأخرى حيث المتجر الكبير والمسرح الصغير (ماوي تياتر) ومحلات البيتزا هوت وكنتاكي ومكدونالد، فنجد على الدرج ربات البيوت وأرباب المعاشات والذين فقدوا أعمالهم يعملون في تجارة الشنطة على الرصيف وفرقة جوالة صغيرة تعزف «المازوركا» البولندية الراقصة في أحد الأركان تاركة عند الأقدام قبعة تسأل العطاء، وفي الظلال هنا وهناك تتساحب تجارة العملة والمخدرات وبضاعة الجنس وتتأهب الجريمة للانقضاض فنسرع الخطو حتى نخرج إلى نور الرصيف.

على الرصيف تموج صور شتى، حركة التدفق من الشبان والشابات على محال الأطعمة الأمريكية السريعة، وبائعات الملابس الرخيصة اللائي يخبئن وجوههن أمام

عدسة الكاميرا، وشاب يتربع الأرض منكفئا على كتاب يقرأه وقد وضع على رأسه لافتة صغيرة تقول إنه أصيب بالإيدز دون ذنب وهو يطلب المساعدة حتى تمضي أيامه الباقية في الحياة بسلام، وفتاتان وفتى يوزعون منشورا لمجموعة دينية مسيحية مقرها زيورخ في سويسرا اسمها «العائلة» تعادي اليهود وتتنبأ بكساد عالمي تنهار فيه العملات وتفلس البنوك وتشتعل النزاعات فيظهر قائد يوحد العالم ويقيم سلاما ظاهريا ويدعي الألوهية فيسجد له كثير من الناس حاملين رقمه الإلكتروني ٦٦٦ ليأكلوا به ويشربوا، لكن المنشور يحذر الناس من الولاء لهذا الكاذب لأنه بعد ثلاث سنوات ونصف سيبدأ في إشعال الحروب ومن ثم تجتاح العالم موجة من الأوبئة والكوارث والمذابح. لكن بعد ١٢٦٠ يوما بالضبط سيظهر «المخلص» ويقيم العدل والسلام الحقيقي في العالم تمهيدا للقيامة. إنه هاجس الحرب الكونية والنهاية الذي يؤرق كثيرا من المحبطين في كل أنحاء العالم، ولقد أثقل على صدورنا في هذا الجزء من مركز مدينة وارسو، فانطلقنا مبتعدين إلى الجانب الآخر في اتجاه الشمال وعبر طريق «العالم الجديد» (نوفي سفيات). إلى الركن البديع من وارسو والذي لا تكاد تضاهيه جمالا أي أركان أخرى في مدن العالم، إنه «المدينة القديمة».. ولكنها ليست قديمة أبدا...

عبر الطريق المتقوس بلطف، وفي ظلال أشجار الدلب والحور، وأمام واجهات البيوت الجميلة الأليفة، وفي وسط من النظافة الفائقة والهدوء كنا نوغل باتجاه إحدى معجزات وارسو، فوارسو التي تنطق بالبولندية «فارسافا» يحكى أن اسمها هذا منحوت من اسمي حبيبين هما فارس وسافا، فهي مدينة للحب الذي يبدع كل جميل وينجز المعجزات.. ووارسو ـ خاصة في ركن المدينة القديمة ـ تمثل معجزة كأسطورة طائر الفينيق الذي ينبعث من الرماد انبعاثات بلا نهاية وبلا كلل، فالملك «زيجموت الثالث» الذي رأينا مسلته التي يعتليها تمثاله شاهرا سيفه عند مدخل المدينة القديمة في ميدان القلعة الملكية الساحرة، اتخذ من وارسو عاصمة لبولندا ـ بعد كراكوف ـ عام ١٥٩٦، لتكون بعيدة عن الحدود وعن متناول الغزاة، وتكون في طريق القوافل التجارية بوسط أوربا. لكن الأوقات الهنيئة لم تدم طويلا إذ جاء «طوفان» الغزو السويدي في القرن السابع عشر فدمر وارسو وأباد الكثير من أهلها. ونهضت، ثم تكرر الدمار والإبادة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ونهضت، وتكررت موجات التدمير والإبادة حتى

كان آخرها وأكبرها في الحرب العالمية الثانية، إذ في الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥ تم تدمير ٨٤.٥٪ من كل مباني وارسو. وكان النهوض معجزة رأيناها بأعيننا في «المدينة القديمة» الساحرة، ميدان القلعة الملكية، وميدان السوق، وشارع «فريتا» الذي يقع فيه منزل ماريا سكلود وفسكايا كوري (عالمة الفيزياء الشهيرة والحاصلة على جائزة نوبل مرتين ومكتشفة عنصر الراديوم المشع)، والكاتدرائية التي كان يقيم فيها شوبان بعض حفلاته الموسيقية، والأخرى التي تضم رفات قادة وفنانين وشعراء منهم هنري سينكيفتش الحاصل على جائزة نوبل. كأن الروح الدينية لبولندا تتخلل كل إبداعاتها.

تمشينا على مهل في المدينة القديمة، وجلسنا تحت مظلات مقاهي الميدان المفتوحة، وشاهدنا الحفلات الموسيقية المقامة في الهواء الطلق.. تأملنا صفاء الكهرمان العسلي الشفاف ـ الذي تشتهر به بولندا ـ وألق الكريستال البولوني البارق بومضات كل ألوان قوس قزح. لكن بهجة النظر وغذاء الدهشة كانت كلها ماثلة فيما نتأمله من بيوت تعرض طرزا معمارية تمتد على مساحة سبعة قرون. رغم أن عمرها أقل من نصف قرن. إذ جرى تشييدها، جميعا، وبنفس شكلها القديم، بعد الدمار الشامل الذي لحق بها في سنوات الحرب العالمية الثانية. العمارة هي كنز الخيال الإبداعي للشعوب، وهي ثقافة حية توشك أن تتكلم، إذ فهمنا شيئا من لغتها.. ولكم نظرت وأمعنت مبتهج الروح وأنا أتأمل هذا الكنز الناطق بالأشكال والألوان في كتلة أبنية المدينة القديمة.. كنز قرون عديدة... فمن القرن الثالث عشر والرابع عشر كانت هناك الأبنية القوطية (الجرمانية) ذات الأقواس العالية مدببة القمم والعليات المشرئبة فوق الدعامات، ومن القرن السادس عشر رأيت طراز عصر النهضة الإيطالي حيث روعة المنظر ودقة النسب والنقوش البارزة والأروقة ذات العمد والأقواس المدورة والجص الناصع المشغول. ومن القرنين السابع عشر والثامن عشر رأيت طراز الباروك المثقل بإسراف الزخرفة وبهرجة (الديكور) ومن النصف الأول من القرن التاسع عشر أمعنت في عمارة (الارتداد المتطور)، حيث أضيف مقطع «Neo» ليدل على التنويع الحديث للطرز القديمة، فكان الطراز (الكلاسيكي الجديد) الذي استخدم طراز العمارة اليونانية والرومانية وتخلص من زوائد زخرفة الباروك والروكوكو ومنه كانت القصور ذات الأروقة المعمدة عند المداخل، والكنائس التي تشبه هيكل آلهة

الرومان «البانثيون». ومن النصف الثاني من القرن التاسع عشر رأيت طراز الخليط «Electicism» المنتقى من كل ما سبق.

سبعة قرون من الجمال أعادها البولنديون المولعون بالترميم والإحياء، فكانت بهجة للناظرين. وعلى أطراف هذه المدينة القديمة، وبقرب المسرح الكبير المشيد على نمط الكلاسيكية الجديدة، كانت آخر انطباعات الجمال الذي أرتنا إياه بولندا... سهرة مع فرقة «بولاني» للفن الشعبي.. لقد استقبلونا على الباب بالموسيقى والأزياء المزركشة والغناء والوجوه الجميلة الضاحكة و«العيش والملح».. ثم غمرتنا إيقاعات قرن من الموسيقى الشعبية البولندية «الكوجافياك» و«البولونيز» و«الكراكوفياك»، دورات من الحركة الملونة كانت ذروتها رقصة البولونيز التي تشبه موسيقاها وتشكيلاتها شرائط من ورق العيد الملون تطير متقدمة متموجة، الأيادي في الأيادي والركض مع الموسيقى، مرح لا يستثني أحدا حتى أننا استسلمنا للأيادي الرقيقة التي اختطفت أيادينا لنركض في الطابور الطويل المتداخل والمتقاطع والملون والمحلق بنغمات البولونيز شفافة الأجنحة. لحظات منتزعة من قلب الحيرة التي تمسك بقلب بولندا، ويا لها من لحظات بهيجة قالت لنا إن كل الشعوب جميلة عندما تغني، وعندما تغني بولندا الفاتنة تنجاب أمائر حيرتها وتتألق الفتنة التي لا مثيل لها في قلب أوربا. فليته يستمر الغناء.

روسيا (موسكو)

كل هذا الجمال، كل هذا العنف

من الميدان الأحمر بدأت على الأقدام أولى خطوات استطلاعنا. وفي طريق المغادرة ضعنا في خضرة غابات الصنوبر اللانهائية المحيطة بموسكو حتى كادت تفوتنا الطائرة. وما بين الأحمر والأخضر تقلبت أمام نظرتنا المأخوذة ألوان من الجمال والعنف رسمتها أيادي كل الأزمنة الروسية. فكانت بهجة، وكان ألما. ولم يبق إلا الانتظار... والترقب.

في «التوبوليف» بادرتني بعض ملامح موسكو قبل أن نصل إليها، ونحن بعد في الجو، على مبعدة آلاف الكيلو مترات من الحدود الروسية. فالطائرات تحمل ملامح بلدانها. ولقد بدت لي الملامح هذه المرة غريبة، مختلفة عن الملامح التي تعرفت عليها في طائرة توبوليف أخرى حملتني منذ عشر سنوات إلى موسكو، يوم كانت موسكو لاتزال أملا في أفق الحالمين بالعدل بين البشر. يومها بدت الطائرة فسيحة ونظيفة وحسنة الإضاءة وكان قلبي يطير في قلبها الطائر، ألم أكن ذاهبا إلى الحلم، إلى أرض دوستويفسكي وتولستوي وتشيخوف وجوركي وبوشكين..والعدل بين البشر؟ تغيرت الصورة، أم أن الحالم أفاق على بؤس الواقع؟.. صارت الطائرة ضيقة والإضاءة كابية والمضيفات الجميلات في زيهن الأحمر والأبيض والأزرق يشوب جمالهن انكسار موحش يكاد يزري بالجمال. قدمن الوجبة بنزق يائس واختفين، وكنت أريد الجرائد. قلن لا جرائد. فرفعت صوتي الضائق بكل ما بقي في ذاكرتي من تهكم اللغة الروسية المر. عندئذ رحن يجمعن لي ما تركه ركاب الرحلة السابقة في جيوب مقاعدهم. وكان ذلك أفضل..! إذ كانت الجرائد منوعة وبعيدة عن أحادية النظرة الرسمية القديمة.

وضعت أكداس الجرائد في المقعد الخالي إلى جواري وأخرجت ما كنت أحمله من تقارير صحفية ورحت أكون صورة عن روسيا التي أعود إليها بعد غيبة طويلة. وبالبعد الصورة... شركة توظيف أموال اسمها (أم إم) تخدع ملايين الروس وتفلس ـ الكوليرا تظهر بعد سبعين عاما من الغياب في روسيا ـ ٢٠ روضة أطفال في ساراتوف تغلق أبوابها لأن أهالي الأطفال فقدوا أعمالهم ـ مظاهرات تأييد للصرب والتغني بقصيدة ركيكة لرادوفان كاراديتش ـ مسنون ينشرون إعلانات في الجرائد تقول: «إنني أموت في المنزل رقم كذا بشارع كذا» ـ مشروع لبناء متجر من ستة طوابق تحت الأرض أمام الميدان الأحمر يتكلف ٣٠٠ مليون دولار ـ ترام يخرج من مساره في مدينة لوجانسك فيقتل ويصيب ٤٦ إنسانا ـ نواد ليلية بكازينو رويال والقرية الأوليمبية ـ عروض بورنو (عارية) ـ معدل القتل بالأسلحة النارية في روسيا يزيد مرة ونصفا عنه في الولايات المتحدة ـ عروض مسرح الباليه الكلاسيكي ـ كونسرفتوار جيرتسن ـ فتيات الجيش الأحمر سابقا (بودي جارد) للمليونيرات الجدد ـ متوسط عمر الرجال يهبط إلى ٥٩ عاما ـ أكبر نسبة وفيات تسببها أمراض القلب والتسمم بالكحول ـ جرائم الاعتداء المسلح والاغتصاب والسرقة بالإكراه تواصل صعودها في موسكو ـ شركة باراد تطلب مستثمرين وزبائن لتجارة الأسلحة ـ دبابات طائرات صواريخ ومدافع رشاشة ـ معرض التحف والأثاث المصمم على أساس تخطيطات سيلفادور دالي ببيت الفنانين المركزي بموسكو ثمن القطعة يبدأ من ٣٠ ألف مارك ألماني.

صورة تموج ملامحها بالاضطراب والعنف وتبعث على القلق. وفي قاعة تسلم الحقائب بالمطار اختلط القلق بالضيق، إذ مكثنا ساعتين ننتظر حقائبنا وساعة أخرى حتى تجاوزنا المنفذ الجمركي الذي مازال يعمل ببيروقراطية النظام القديم، وإن بعدوانية وفظاظة أشد. وفي ممر الخروج اعتراني شعور الذاهب إلى حتفه لولا أحضان الأصدقاء التي تلقفتنا على باب المطار. ومن باب المطار إلى قلب موسكو في طرق تشق غابات الصنوبر وتسيجها أشجار الدلب والحور. كانت الخضرة داكنة وباهتة في ذلك الوقت من أغسطس، وهو وقت معلق بين تساقط أوراق الشجر وسقوط أول

الثلوج. فموسكو لها مواعيد تكاد لا تخلفها ويحفظها العارفون بها، فيقولون: في ١٦ مارس يبدأ ذوبان الثلوج في الشوارع، وفي ١٢ أبريل تتكسر صفحة الجليد في نهر موسكو، وتكمل ذوبانها في ١٨ يوما، وفي ٢ مايو تهب أول العواصف الرعدية، وفي ٢٤ منه تظهر براعم التفاح، وفي ٢٦ أغسطس تبدأ أوراق الخريف الملونة تساقطها عن الأغصان، وفي ٢ نوفمبر يبدأ تساقط الثلوج، وفي ١٨ منه يتجمد نهر موسكو.

كان الوقت معلقا، واللحظة تثير في النفس مشاعر شتى تجاه موسكو الأليفة الغريبة، خليط من الشوق والريبة يحفزان على الاقتراب، والحذر..

عرائس وعساكر

مرة أخرى، أقف وسط الميدان الأحمر. وسط ساحة السبعين ألف متر المرصوصة بالأحجار السود الرمادية، فينتابني الإحساس بأني أقف على قمة قوس كبير لفرط اتساع المكان. وأكاد أفتح ذراعي امتثالا لهذا الإحساس بينما صدري يمتلئ بنسائم الصباح الموسكوفي الشفيف، في قلب قلب موسكو. نعم، فلو أنني طائر، (نسر برأس واحد لا رأسين كذلك الذي تتخذه روسيا الحالية شعارا لها وتحفره على وجه عملاتها المعدنية)، لو أنني أصعد وأصعد وأحلق عاليا وأنظر إلى أسفل لرأيت موسكو وسط، بحر من التلال الخضر وغابات الصنوبر، خمس دوائر متداخلة، في مركز أصغرها مثلث ترسمه أسوار الكريملين الذي تظاهره استدارة نهر موسكو في اتجاه الجنوب، وطريق ماركس (سابقا) في اتجاه الشمال الغربي، والميدان الأحمر في اتجاه الشمال الشرقي...

الميدان الأحمر، «أجمل ميدان في العالم» كما وصفه الرئيس الأمريكي رونالد ريجان عندما زار موسكو، ولعله حقا أجمل ميدان في العالم، يمتد بطول ٦٩٥ مترا ويعرض ١٣٠ مترا، عن يميني ـ بينما وجهي يتطلع نحو الشرق باتجاه الجنوب حيث كاتدرائية المقدس فاسيلي ـ سور الكريملين الشمالي الشرقي ذو اللون الأحمر القرميدي، وعن يساري واجهة «الجوم» (السوق المغطى) الفيروزية الفاتحة، وخلفي كتلة «المتحف التاريخي» الحمراء الطوبية الراسخة الساحرة. وبمجرد التفاتة صغيرة إلى اليمين أرى ضريح لينين المقدود من الجرانيت الأحمر الداكن

وصخور اللابرادوريت السوداء...يلمع مصقولا كبيت للمرايا الداكنة، موصودة بوابته الإلكترونية المعمولة من الصلب الذي لا يصدأ، لكن حارسي الشرف العسكريين مازالا منتصبين شاكيي السلاح عند جانبي المدخل...فقط...لم يعد هناك ذلك الطابور اللانهائي لطالبي الزيارة والراغبين في إلقاء نظرة على جثمان لينين المحنط داخل تابوت الكريستال مفرغ الهواء هناك. ولقد سمعت أثناء وجودي في موسكو عن رجل أعمال غربي يعرض استثمار جثمان لينين سياحيا بعرضه داخل تابوته الزجاجي في جولات يطوف بها العالم. ويقابل الاقتراح بالاستنكار والامتعاض وربما الغضب...لكن طابور الزوار لم يعد هناك.عدا ذلك، يبدو الميدان الأحمر على حاله، والكريملين بأبراج أسواره السامقة والقباب الذهبية للكاتدرائيات وراءها. لم يتغير شيء باستثناء أن العلم السوفييتي الأحمر في أعلى صواريه حل محله علم جمهورية روسيا الاتحادية ذو الألوان الثلاثة (الأبيض والسماوي والأحمر). لكن هناك تغيرات أخرى كانت من ضروب المستحيل في الزمن السوفييتي الماضي، مباراة كرة سلة نصبت مراميها في الميدان بين فريق أمريكي وآخر روسي مع عروض احتفالية بموسيقى الجاز ورقصات صبايا «الشورتات» الساخنة وأمسيات غنائية راقصة لفرق «الروك» الروسية تسمت إحداها باسم «عجلات الوقت»..

فهل داست عجلات الوقت.. وبعنف.. روح الميدان الأحمر؟

أسأل نفسي وأنا أهم بالتطواف مستطلعا من جديد، وبلا ارتواء، جوانب الميدان الأحمر، وأحبس مشروع الإجابة لعلي أخرج بإجابة أعمق. وأتذكر أن الميدان الأحمر لم يلعب فيه أحد إلا مباراة كرة قدم بين فريقي «دينامو» و«سبارتاك» أقيمت خصيصا لأجل ستالين عام ١٩٣٦، فهل ثمة تشابه بين الزمن الستاليني وزمن موسكو الآن؟!

والعيون هي الثمن

مضينا باتجاه أقصى جنوب شرق الميدان، حيث تنتصب الكتلة ـ التحفة، الملونة، المنمنمة، خارقة البهجة والتناسق ـ كاتدرائية المقدس فاسيلي التي لا مثيل لها في العالم، والتي تشعرك بأنك في عالم الحواديت السحرية لا عالم الواقع.

وفي الطريق توقفنا ليمر طابور عسكري من المجندين الروس الصغار في زيهم الكاكي والقمصان الروسية المميزة بالصدور المقفولة والأحزمة الجلدية العريضة فوق القمصان والأحذية عالية الرقاب. كانوا قادمين من بوابة الكريملين تحت برج «نيكولسكايا» وذاهبين نحو شارع ريزين. لعلهم كانوا من جنود الحرس الرئاسي. ولقد ذكرني طابورهم بوجود أحد أقوى جيوش العالم في هذا البلد. بترسانة الرءوس النووية الروسية المخيفة وبنوبة الفزع التي اجتاحت الغرب إثر اكتشاف عمليات تهريب اليورانيوم والبلوتينيوم المخصب في أوربا. وبعد أن مضى الطابور مضينا لكنا توقفنا من جديد، بفرح وانتعاش هذه المرة، فقد كان هناك موكب عرس قادم من موقف السيارات وراء كاتدرائية فاسيلي، ومتجه صوب أقصى الشمال الغربي نحو حديقة ألكساندروفسكي، حيث توجد الشعلة عند قبر الجندي المجهول لصق سور الكريملين، العروس في ثوب زفافها الأبيض والعريس في بذلته الداكنة والقميص الأبيض الروسي مشغول الصدر والبيبونة الحمراء، والمهنئون المرحون.. قافلة عُرس تقليدية منذ الزمن السوفيتي، حيث يمضي العروسان بعد عقد القران في «قصر الزواج» إلى قبر الجندي المجهول ليضعا باقات الزهور تحت الشعار البرونزي والشعلة التي لم تنطفئ منذ قرابة نصف قرن، ذكرى الملايين الذين قضوا في حرب مريرة امتدت ١٤١٨ يوما، وانتهت في التاسع من مايو عام ١٩٤٩، وبقي من آثارها ذلك الجندي المجهول، الذي حفروا على قبره «اسمك مجهول، لكن مأثرتك خالدة» وكانت الزهور تلثم جبين قبر المأثرة.

لوحنا للعروسين بمرح فبادلانا بالمثل ثم مضينا ليستلب ألبابنا جمال «كاتدرائية المقدس فاسيلي» الأخاذ.. وهناك حكاية تتعلق بجمال هذه الكاتدرائية الذي لم يتكرر، فالقيصر إيفان (الرهيب بعد أن اكتمل البناء فيها، جمع البنائين وسألهم: هل يمكنكم تكرار هذا الجمال أو إبداع أجمل منه؟ وعندما قالوا «نعم»، تولى إيفان الرهيب هياج مخيف وأمر بأن تُقتلع عيون هؤلاء البنائين. وقد كان.

الجميل... الأحمر... الدم!

عنف عجيب يظاهر الجمال. نجده أيضا عن يمين كاتدرائية المقدس فاسيلي حيث

يسمق جزء مهم من أسوار الكريملين، برج سباسكي (أي المنقذ) والذي غدا رمزا شهيرا لموسكو. يرجع تاريخ بنائه إلى عام ١٤٩١ وقد كان مخصصا لمرور القيصر والسفراء الأجانب وكان مُحرمًا المرور تحته إلا بعد خلع القبعات وأغطية الرءوس حتى لو كانت الحرارة ٣٠ تحت الصفر كما يحدث في شتاءات موسكو القاسية. وفي هذا البرج تتوضع ساعات الكريملين الشهيرة التي يصنع دقاتها عشرة أجراس هائلة تشغل ثلاثة من طوابق البرج العشرة، وتتبع الساعة الشهيرة عند الواجهات الأربع والتي يبلغ قطر كل منها ١٢ , ٦ متر وطول كل رقم على مينائها قرابة ثلاثة أرباع المتر بينما طول عقرب الساعات ١٧ , ٢ متر، وعقرب الدقائق ٣٧ , ٣ متر ويبلغ وزن الساعة نفسها ٢٥ طنا. ولما كانت معارك استيلاء الشيوعيين على الكريملين قد دمرتها فإن لينين أمر بإعادة ترميمها عام ١٩١٨. ولهذه الساعة العملاقة رنين خلاب وعميق يميز دقات الساعة المذاعة من راديو موسكو في السادسة صباحا وظهرا وعند منتصف الليل. أما النجمة الياقوتية الحمراء الخماسية التي تتلألأ ليلا ونهارا فوق قمة هذا البرج الذي يرتفع ٧١ مترا فإن من أمر بوضعها على قمة البرج هو أحد أكثر حكام الكريملين عنفا: جوزيف ستالين عام ١٩٣٥. فما أعجب هذا الافتتان بالجمال وذلك النزوع إلى العنف. وهو عنف تذكرني به ـ لدرجة الإحساس بالانقباض وأنا في قلب جمال وبهاء الميدان الأحمر وقرب تحفة «الشفاعة» ـ منصة دائرية من الحجر الأبيض يبلغ قطرها حوالي ١٣ مترا بنيت عام ١٥٣٤ ليعتليها القيصر في الاحتفالات الدينية. وتحت هذه المنصة نفسها ظلت أحكام الإعدام تنفذ بقطع الرءوس حتى القرن ١٨. جمال وعنف، حتى قصة الميدان الأحمر نفسه، وتسميته تعكس تأصل هذه الظاهرة الروسية العجيبة، فأقدم الإشارات إلى الميدان الأحمر ترجع إلى القرن ١٥ وكان سوقا تصب فيه الشوارع الآتية من مدن الجوار الروسية الشهيرة آنذاك: «ريازان، وسمو لنسك، وتفير» وفي القرن ١٧ اكتسب الميدان اسمه من معنى كلمة «كراسني» وكانت تعني آنذاك صفة «البهيج» أو «الجميل»، لكن في نهاية أكتوبر عام ١٩١٧ جرت معركة طاحنة بين البلاشفة والحرس القيصري سالت فيها الدماء غزيرة حتى غطت البلاطات الداكنة التي ترصف الميدان، فصار أحمر، وصارت كلمة «كراسني» تدل على اللون الأحمر. وهكذا اختلط وصف الجمال والبهجة بوصف الدم في الميدان..الأحمر!

لقد قال المؤرخ الروسي «كارامازين»: «إن من يعرف موسكو يعرف روسيا»، وأود لو أقول: إن من يعرف مركز هذه المدينة، يستدل على أحوال روسيا كلها. في مركز الدائرة الأصغر للمدينة يمتد الميدان الأحمر كبساط إنشائي ممدود على طول الجدار الجنوبي الغربي من أسوار الكريملين الذي يشكل مثلثا في قلب هذه الدائرة. من هذا المركز تمتد الشوارع كأشعة مستقيمة تقطع الطرق الدائرية الخمس حول موسكو.

وقبل أن نغادر المركز لا يفوتنا أن ندخل في قلب المثلث، التاريخ الزاخر والزاهر، الكريملين الذي يعني اسمه «القلعة». وهي قلعة عجيبة كأنها طائر الفينيق الذي ينبعث من رماد موته، لكنه في كل مرة ينبعث أجمل مما كان. فمن بناء خشبي اجتاحه حريق رهيب، إلى اجتياح مغولي مدمر، إلى قصف بمدافع نابليون، فرمي بسلاح البلاشفة، ثم قصف بطائرات هتلر؟ وينهض الكريملين صورة باذخة للجمال الروسي وللجبروت والعنف أيضا. ولكم أُخذنا بتهور التصميم الإنشائي والجمالي داخل هذه «القلعة»، التي ظلت مقر أنظمة الحكم الروسي برغم تبدلات هذه الأنظمة، من القياصرة إلى البلاشفة وحتى يلتسين.. القاعة «السفردلوقية» الدائرية في بناء مجلس الوزراء بقبتها الضخمة التي يحير ارتفاعها وثباتها وبهاؤها الأذهان. والعمود المزخرف الهائل الذي تنتشر قمته كتويج زهرة ليرفع قبابا أربعا مزخرفة وراسخة في قصر الجرانيت. وبرج النواقيس الساطع الذي يرتفع ٨١ مترا ويتعلق في إحدى شرفاته ناقوس يزن ٦٥ طنا. المدفع القيصري والناقوس القيصري الذي يزن ٢٠٥ أطنان وقد انكسرت منه قطعة صغيرة كان وزنها وحدها عشرة أطنان. قباب ذهبية. وأرضيات من اليشب الأحمر، وردهات من المرمر الصافي. إبداعات يردها المثل الروسي إلى نفاسة أيدي الصناع الروس المهرة لا إلى نفاسة المعادن التي تشكلت منها. فيقول: «الذهب ليس في الحلي بل في الأيادي التي شكلتها». ولكم اكتوت هذه الأيادي بنيران عنف من كانت تبدع بأوامرهم الأيادي. من قيصر إلى قيصر. وثمة من يقول إن الكريملين يحول كل من يحكم من جوفه إلى قيصر. وفي ظلال قلعة القياصرة جلسنا نستريح قليلا في حديقة ألكساندروفسكي، ويا له من إحساس بالجبروت أن تعرف أن هناك نهرا يجري تحت هذه الحديقة محبوسا في أنابيب ضخمة هو نهر نجلينيا...نهر تحت الأقدام! فلتتحرك الأقدام.

«اليوم وكل يوم في مسرح الفاريتيه بموسكو...برنامج إضافي: البروفيسور (الأجنبي) فولند في حفلات سحر شيطاني مع كشفها الكامل».. وعلى خشبة المسرح المغمورة بالأضواء في مواجهة جمهور حاشد من أهالي موسكو صعد الساحر «الأجنبي» بفراكه ذي الطول الخارق وبظهوره وهو يضع نصف قناع أسود. لكن الأغرب من هذا كله كان مساعدي الساحر: شخص طويل يلبس لباسا ذا مربعات ويضع على أنفه نظارة مشققة، وقط سمين أسود يمشي منتصبا على قائمتية الخلفيتين ويتحدث بصوت بشري.. وبعد مناوشات سحرية صغيرة مع الجمهور، بدأ الساحر الأجنبي عرضه المذهل إذ جعل سماء المسرح تمطر أوراقا نقدية مما أهاج الجمهور وجعل الناس يدوسون بعضهم بعضا ويتشاتمون بأقسى الألفاظ ويتعاركون بالأيادي والأرجل وهم يحشون جيوبهم بالنقود. ثم كانت ذروة العرض افتتاح شارع تجاري غربي كامل بواجهاته المتلألئة وبضائعه البراقة على المسرح. واندفع الجمهور من الصالة ليبدل كل منهم، خاصه النساء، الثياب الروسية الخشنة بأخرى من باريس ولندن ونيويورك دون دفع أية فروق في الأسعار. وكان هياج شديد، وانفعال، وتدافع وحشي لم يخفت حتى نال كل من في الصالة مبتغاه. ومع انتهاء العرض وانتشار الناس في الشوارع حانت لحظة الكشف. زال السحر فراح الناس يصرخون في الشوارع وهم يجرون عراة وأشباه عراة إذ كان هناك من بدل كل شيء حتى جواربه وملابسه الداخلية بأخرى من محال الساحر.وكان في موسكو هياج شديد... وبلبلة....

«كان الشيطان يزور موسكو»

تلك هي صفحة موجزة من رواية الكاتب الروسي ميخائيل بولجاكوف «المعلم ومرجريتا» التي أتمها في الثلاثينيات من هذا القرن، أي قبل أكثر من خمسين عاما، وهو الكاتب العبقري الذي كان طبيبا ومسرحيا وذا قدرة فائقة على التخيل الذي يلامس حدود الاستشراف والتنبؤ. ولقد عانى كثيرا في أخريات أيامه إذ رفض رجال ستالين سفره للعلاج خارج روسيا، وكان ممنوعا من النشر حتى أنه قضى فاقدا بصره عام ١٩٤٠. ولم تنشر روايته إلا بعد قرابة نصف قرن. لتكون إحدى أكثر الكتب مبيعا

ومادة عرض مسرحي مستمر أحببت أن أراه مجددا بعد أولى جولاتي في موسكو. وفي بهو محطة مترو «أرباتسكايا» حيث توجد أكشاك حجز تذاكر المسرح. سألت السيدة عبر النافذة الزجاجية: أريد تذكرتين للمعلم ومرجريتا. وسمعت الإجابة خافتة إذ إن الميكروفون الصغير أمامها كان معطلا والزجاج يحتجز صوتها «٧ سبتمبر»، «لكنني أريد المشاهدة اليوم أو غدا أو حتى بعد غد». وسمعت صوتها يزمجر بشتيمة وكلمات غاضبة التقطت منها ما معناها: «وهل تريد أن تقوم الفرقة بعمل عرض خاص لأهلك». وانفجرت في الضحك مما جعل وجه السيدة السمينة مذهولا. فلقد ذكرتني خشونتها وفظاظتها بتلك الأيام التي كان يرجمنا فيها عند كل مدخل - بينما كنا ندرس في الاتحاد السوفييتي السابق - غضب عجوز حانقة وضعوها «دوجورني» أي مناوبة تسجل أسماء الداخلين والخارجين. لقد فاتني أن المسرح الذي يعرض المعلم ومارجريتا في إجازة ولعل البائعة قالت ذلك دون أن يلتقطه سمعي. ومن ثم فجر إلحاحي حنقها الفظ. وهي فظاظة سرعان ما يمكن انقلابها إلى حنان آسر ومودة غامرة وصداقة أيضا. هكذا الروس كما عرفتهم. وكما وصفهم كثيرون ابتداء من دوستويفسكي حتى فاسيلييف، إنهم حالة خاصة من التطرف العاطفي. ولهذا كان انفجاري في الضحك. إذ تذكرت أنه كان يلزمنا عند كل مدخل أن نقضي وقتا ما في العراك والتصايح ثم التصالح والتصافي.

بدا لي أن الشيطان يزور موسكو حتما، لكن كم ستطول الزيارة مع تركيبة نفسية هذا شأنها عند الروس الذين يسهل استدراجهم وسرعان ما ينقلبون من المسايرة إلى الرفض الذي يبلغ حدود التدمير؟ قالت لي خشونة المرأة السمينة خلف زجاج كشك المسرح في بهو آرباتسكايا، إن زيارة الشيطان لموسكو عابرة. لكن الهوس الذي يسود موسكو أوقفني كثيرا موقف الارتياب في هذه الطمأنينة. فالشيطان لم يبد فقط في زيارة عابرة، بل إنه كان يؤسس للمكوث. تأسيسا مجازيا وماديا أيضا. شيء يدعو للعجب. ففي جريدة تسمى «سافرتشينو سيكزيتنو» وهي إحدى صحف (التابلويد) القضائية الروسية في العدد ٦٣ (أغسطس ٩٤) والصفحات ٢٤، ٢٦، ٢٥ ثمة تحقيق موثق بعنوان «لقد اخترنا الشيطان» ويتكلم عن جمعيات السحر الأسود وأتباع الشيطان المنتشرة في روسيا حاليا وهي جمعيات يقدر عدد أعضاء بعضها بالمئات والبعض الآخر بالآلاف وتمارس طقوسا مختلفة مثل زعم الاتصال بالأرواح وإطلاق الطاقة

الكامنة في جثث الموتى، والتنجيم. ويذكر التحقيق وصفا لأحد اللقاءات التي جرت في غابة بمدينة فالبورجيف التي تبعد بالقطار الكهربائي (الالكتريشكا) حوالي ساعة عن موسكو. فقد وجدوا على محطة القطار من ينتظرهم ويقودهم على مخيم داخل الغابة وهناك كان حوالي ٢٠٠ إنسان سلامهم باليد اليسرى وإلى وجوههم أقنعة من جلد رقيق وبعد انتظار وصل «الجرافينو» أي زعيم المجموعة وقد كان امرأة شابة حادة الملامح ثابتة النظرات وصلت في مرسيدس سوداء وسط كوكبة من الحراس الأقوياء وأجرت أمام أتباعها من مريدي الشيطان عملية إطلاق طاقة سحرية». من جثة حديثة الوفاة اتخذت شكل دخان بدأ الخروج من الجثة خفيفا كالضباب ثم تكاثف وانتشر حتى غطى المكان.

كما يذكر التحقيق طقوس مجموعة أخرى من أتباع الشيطان ترتدي عباءات صفراء ويتبادل أفرادها في لقاءاتهم شرب أنخاب من النبيذ الأحمر المخلوط بالدم وهم يزعمون أن العالم سينتهي عام ١٩٩٦. ومجموعة ثالثة وصفها التحقيق يقودها طبيب سابق مختص بأمراض القلب (وقد حصلت المجموعة على زمالة ـ أو أخوة ـ شيطان السحر الأسود الأمريكية) ومن مآثرها... عملية قتل شبح!.. وفي تفسير للظاهرة يقول بعض أتباع الشيطان الذين التقتهم الجريدة: «الإيمان بالشيطان يعطينا القوة على العيش. فالناس عادة يؤمنون بما يجدي»! المخيف في المسألة ليس التحقق من واقعيتها أو نفيها، بل المخيف هو المناخ الذي أنبت هذا النزوع الشيطاني في روسيا، فالملاحظ ـ وبمعطيات ذلك التحقيق نفسه ـ أن الأعضاء المؤسسين في هذه المجموعات في عمر الشباب من ١٧ ـ ٤٠ سنة، وبدء نشوء هذه الجمعيات عام ١٩٨٩، أي لحظة تهيؤ الاتحاد السوفييتي السابق للانهيار. وتفسيري المتواضع لذلك، ومن خلال معايشة للروس (السوفييت سابقا) امتدت نحو أربع سنوات، أن الروس ـ كأناس شرقيين إلى حد بعيد ـ مولعون بقضايا الروح، لكن خطأ الشيوعية السوفييتية ـ الروحي ـ في حق الروس، أنها فرضت عليهم المادية التي لم تكن جدلية أبدا، بل ميكانيكية الفهم إلى درجة الابتذال، وجرى طمس سوقي وعنيف للحياة الروحية للشعب الروسي ابتداء من الإيمان الديني وحتى البحث في الوجود الكوني للإنسان. أخمدت الشيوعية العسكرية أنفاس أسئلة الإنسان المشروعة عن المصير الروحي للبشر. أخمدت الفطرة

بالمانيفستو. لهذا كانت مسائل الخوارق والتنجيم وما وراء الطبيعة كالجمر تحت الرماد الشيوعي (وإن أحالوها لمعاهد الفيزياء بدراستها ضمن علم الباراسيكولوجي). وأتذكر أن مجرد ادعاء الإنسان معرفة شيء من قراءة الكف كان يوفر له شأنًا مرموقًا بين السوفييت... الشيوعيين! ولما سقط الكيان الشيوعي السوفييتي.. لما سقط الكابح، انطلقت أسئلة البشر الروحية عمياء بلا دليل. ليتلقفها الدجالون المهووسون أو الراغبون في سحق الروس حتى أعمق أعماقهم.

المس الشيطاني - في رأيي - لم يكن فقط موضوع رواية، أو عرضا مسرحيا مأخوذا عن الرواية، أو في سلوك مجموعات تمارس هوسها الأسود في ليل الغابات الروسية الكثيف - وإنما كان في وقائع الحياة اليومية كما لمستها أثناء هذا الاستطلاع في موسكو. فثمة ملامح للجمال - بغض النظر عن أنها كانت محصلة النظام السابق، فالنظام السابق لم يكن شرا كله حتى لو كان شرا في معظمه - هذه الملامح تم تشويهها بعنف يوشك أن يكون شيطانيا... والشيطان الجديد في موسكو هو «الأخضر»... تلك الأوراق الخضراء التي يجري وراءها الموسكوفيون - الروس - كما وصفهم الروائي العظيم بولجاكوف منذ أكثر من نصف قرن... الأخضر... الدولار... كل شيء.

تحت الأرض... فوق الأرض

إذا أردت أن تلمس نبض موسكو فابدأ من تحت الأرض. من أضخم شبكات المترو في العالم والتي ترى فيها عشرة خطوط هائلة تتقاطع وتتداخل وتبلغ أعماقا سحيقة تحت تفرعات نهر موسكو تصل كثيرا إلى عدة طوابق تمرق خلالها القطارات الكهربائية السريعة. ولقد اتخذ قرار بناء المترو في برلمان المدينة قبل ثورة أكتوبر. لكن التنفيذ بدأ عام ١٩٣١ وتحرك أول قطار أنفاق في موسكو في ١٥ مايو ١٩٣٥. ويبلغ طول الخطوط حاليا أكثر من ٢٥٠ كيلو مترا وينتظر أن تصل إلى ٣٦٠ كيلو مترا وهي تنقل أكثر من سبعة ملايين راكب يوميا في قطارات يبلغ عددها حوالي ٨٠٠٠ قطار، معدل تقاطرها في بعض المحطات يصل إلى كل نصف دقيقة. لقد كان ثمن التذكرة (على أيامنا في موسكو) أي منذ عشر سنوات ٥ كوبيكات أما الآن فهو ١٥٠٠٠ كوبيك!! أي أن سعر

التذكرة تضاعف ثلاثة آلاف مرة! هل هناك أعنف من هذا التضخم؟! في بعض محطات المترو البالغ عددها نحو ١٥٠ محطة تبدو معظمها متاحف ضخمة للفن الباذخ، منها على سبيل المثال محطات مايكوفسكي وكروبوتكنيسكايا وآرباتسكايا. فالصور الجدارية من النحت في الرخام والفسيفساء والجص والأعمدة الجرانيتية أو المغلفة بالمرمر أو الصلب الفضي والثريات الكريستالية والأبهاء المصقولة والدرج الكهربي والقناديل. معرض فني مترام لا تشبه فيه محطة أخرى. أما العرض الحي في داخل هذه الأبهاء الفنية فهو الناس في حركتهم المسرعة وأشكالهم الروسية المميزة والقراءة داخل القطارات المنطلقة. ما زال العرض الحي صاخبا وإن بدت وجوه الناس كامدة برغم تغير طرازات ثيابهم الأكثر غربية وعصرية. والقراءة وقوفا أو جلوسا ظاهرة روسية مستمرة وإن كانت المطبوعات بين أياديهم مختلفه، فمن قبل كانت الكتب الأدبية والفنية والعلمية، أما الآن فمجلات وجرائد الإثارة بكل مجالاتها السياسية والاجتماعية والتجارية والجنسية. وعلى الجدران داخل العربات ترى إعلانات ملصقة لم تكن موجودة من قبل وكلها تتحدث عن شركات استثمار الأموال أو توظيف الأموال. «جيرمس... معدل الأرباح يصعد من ٥٠٠٪ إلى ٦٠٠٪ إلى ٧٠٠٪. وشركة الاستثمارات التقنية والعلمية من ٥٤٠ إلى ٩٦٠٪ سنويا». ومن محطة آرباتسكايا الجميلة نخرج مع تدفقات البشر، وفي البهو تتناثر أركان بائعي الزهور، والجديد أنهم يبيعون زهورا صناعية وهذه لم يكن يشتريها الروس إلا لوضعها على مقابر الموتى. ونجد بائعي الصحف أمام المدخل متعدد الأبواب. عشرات الجرائد الغريبة عن السياسة والفضائح والتجارة والجنس. والأغرب أن هناك جرائد غير محدد ثمنها فبدلا من الثمن مكتوبا «دو جفارينا» أي بالاتفاق مع البائع. فالمسألة كلها سوق. عرض وطلب. وكل شيء صار خاضعا للعرض والطلب. وفي هذا نجد صف الأكشاك الطويل في الطريق إلى آربات. والتسول بدأ يظهر وأغرب ما فيه تسول الأطفال؛ فعلى درج النفق طفل يحمل لافتة تقول: «أعيش مع جدتي وحدنا. ساعدونا أيها الناس الطيبون» وعجوز نظارتها مكسورة تتسول لإصلاح نظارتها. وبنات صغيرات يبعن حيواناتهن الأليفة التي لم يعد بمقدورهن إطعامها. قط. جرْو. عصفور. ويخبئن وجوههن الجميلة المنكسرة أمام الكاميرا. وفي شارع آربات المخصص للمشاة. شارع الفن الجميل.. أبرز العنف مخالبه على مرأى من الأبنية الجميلة العائدة إلى بداية القرن

الماضي والقناديل الشفافة بلون الشفق. لينهش أطفالًا في عمر لا يزيد عن ست سنوات يتسولون بالعزف واقفين وحدهم في وسط الشارع. وعلى رصيف أحد شوارع آربات الجانبية تحت حائط مطروس بالكتابات المتداخلة يتجمع ركام من الصبية والبنات في عمر المراهقة، ملابسهم سوداء أو متسخة وشعورهم سائبة ويلتمون كقطيع متزاحم، بعضهم يعزف على جيتار، بعضهم يدخن، والبعض يغني. وعيونهم تتسول الاهتمام. هيبز آخر الزمان في موسكو. وأقترب منهم لأتحدث مع أحدهم لأجد نفسي بعد دقائق محاطا بحشدهم المخمور. وراحت تلفح وجهي رائحة الفودكا والسماجون المصنوع في قباء البيوت. إنهم مجموعة تسمى «سينما» يتعلقون بفنان شاب راحل يسمى فيكتور تسوي مات عام ١٩٩٠ ويغنون كلماته. ومع تجاذب أطراف الحديث أيقنت أنني في خطر وسط أرواح بائسة خاوية، وعقول ضائعة وعنصرية، لهذا اضطررت أن أزعم لهم أننا من «قبرص» فتصايحوا: «هاه...قبرص المضيئة...قبرص المقدسة» وأشرت إلى سليمان حيدر الذي كان يصور من بعيد أن يتبعني مسرعا حتى ننجو من هذه المصيدة المترنحة.

المدهش ليس هذه الصورة في ذاتها، بل اقتحامها لموسكو في هذا الوقت القصير بعد انهيار النظام السابق وكأنها كانت تعد عدتها. وقد كان المساء واعدا بمزيد من الغرابة فموسكو التي كانت تنام مبكرا صارت تسهر، وتسهر حتى الصباح. وأغرب سهراتها تجري في الاستاد الأوليمبي. وهو مجمع رياضي هائل يحولونه في المساء إلى مدينة لعلب الليل، أندية القمار، وساحة لالتقاط بنات الهوى، ومسارح العروض العارية. والغريب أن كثيرا من الرياضيين ـ في هذا البلد الذي كان يضم أكبر نسبة من أبطال الرياضة في العالم ـ تحولوا إلى قبضايات يحرسون صالات القمار، والمراقص، ومسارح العري، وأركان البغايا... وبجدية بالغة، وصرامة أيضا!

في الطالكوشكا

لو لم نكن أربعة لذقنا شيئا من إجرام المافيا الروسية. لكن يبدو أن المافيا درجات. فالدرجة الأولى ليست في حاجة للظهور في الأسواق والشوارع، فهي تعقد اجتماعاتها في أحد الفنادق الفخمة الصغيرة النائية ـ كما سمعنا ـ عند أطراف

موسكو، وهي مشغولة بأمور ضخمة... بصفقات الأسلحة التكتيكية والاستراتيجية المهربة، والكنوز الفنية الروسية القديمة، والمعادن الثمينة، والرقيق الأبيض ذي الشعر البلاتيني المميز لحسان روسيا، وهذه كلها كانت خارج دائرة سعينا في أيام موسكو العشرة.

لكننا التقينا بأدنى مراتب المافيا الروسية في «الطالكوشكا»... وفي نوع يشبه الأسواق الشعبية لدينا وكلمة «طالكوشكا» نفسها مشتقة من فعل التزاحم والتدافع بالمناكب.

تدافعنا في نهر البشر وبين ضفتين من الأكشاك التي تبيع الملابس والبضائع التي يهربها تجار الشنطة الروس الذين رأيتهم من قبل يجوبون العالم... من سوق المصنوعات المقلدة في بانكوك إلى سوق غزة في العتبة بالقاهرة.. ومن أرصفة فرانكفورت في الشمال حتى جبهة الماء في كيب تاون. أطباء وطبيبات وفيزيائيون ومهندسون وحرفيون وبائعات وموظفات ومترجمات...يشدون الرحال إلى أربعة أطراف المعمورة ببعض من الفودكا، والكافيار، وآلات التصوير الروسية، وربما بعض الأيقونات الصغيرة إن أمكن وأجسادهن إن عز ذلك كله، يبعن ويشترين، أي شيء بأي شيء، ويعدن على رحلات «الشارتر» الجوية الرخيصة لإفراغ «الشنط» في أسواق الطالكوشكا.. وفي زحمة إحدى هذه الأسواق أوقفنا العملاق المحشو في زي يشبه زي جنود الصاعقة. كان يحمل جهاز لاسلكي ويعتمر بقبعة كاكية وبوجهه الضخم آثار جروح عميقة تقول إنه تشاجر كثيرا بالسكاكين وناله منها ما ناله. (رد سجون) أريب يرتدي زي قوات «الأمن الخاص»... وهي منظمات قاعدية تتبع المافيا الروسية المنظمة كانت تقوم بدور «القبضايات» الذين يفرضون «إتاوات» على أصحاب المحال والحوانيت والأكشاك مقابل عدم التعرض لهم ولما حاصرتهم الدولة قالوا نحن منظمات أمن خاصة وحصلوا على تراخيص بمزاولة هذا العمل بصورة رسمية وزي معتمد وأجهزة لاسلكي وأسلحة شخصية.

أوقفنا الرجل وقال بصوته الثقيل: «توقفوا وأخرجوا الأفلام من آلات التصوير وأعطوني إياها». وأحسست بالفزع من مصادرة الأفلام فهي جهد أيام طويلة من التجوال في موسكو. قلت للرجل: «إننا صحفيون ومعنا إذن رسمي بالتصوير» فقال:

«أرني الإذن». وفي حقيقة الأمر لم يكن إذنا بالمعنى الصريح. بل كان مجرد كلمة «إعلام» في تأشيرة الدخول التي منحتنا إياها السفارة الروسية. وكانت الجهة الداعية هي مجلة «صدى الكوكب» الروسية. فأشرت له إلى ذلك في تأشيرة الدخول. لكنه قال: «حسنا... ولكنك لا تأخذ إذنا منا، فسألته: «من أنتم» قال: «نحن المسئولون عن الأمن هنا.. هيا اتبعوني». وقد كانت لحظة إلهام أننا لم نتبعه، لأن طلبه كان الابتزاز ليس إلا. وقلت له ليس هناك لافتة ممنوع التصوير. وقال: «ولو... لكن بعض الشركات هنا لا تحب التصوير». لقد استخدم كلمة «فيرما» في حديثه وهي توحي في اللغة الروسية بمعنى «ماركة مسجلة» لشركة. وكتمنا ضحكنا ونحن نتلفت حولنا لنرى هذه الماركات العالمية! بضع عجائز ترفع أياديهن المعروقة ثلاث أو أربع علب سجائر هي كل البضاعة التي يمتلكنها واقفات في طابور متهالك. وثمة طابور آخر لعجائز أخريات تبيع كل منهن شالا أو عدة أكياس من النايلون. عملاق فارع يعرض زوجا من الأحذية الإيطالية. وأخرى تبيع علبة مكياج صغيرة وقلم أحمر شفاه وحيدا. مأساة تضحك وتبكي... بينما كانت هناك واجهات أكشاك مكتظة بالبضائع المهربة التافهة. ولم نضحك ولم نبك. كتمنا مشاعرنا ونحن ندخل في سجال مع «رجل الأمن» ثم افتعلت «زعلا» وأنا أقول له: «شكرا يا سيدي... تحرمنا من التصوير.. إذن لن نصور» ومضينا والرجل في ارتباك فلاح روسي ضخم... لا يجيد التحايل، برغم انتمائه لقواعد المافيا المنظمة، وآثار المعارك الدامية التي خاضها. وما أن بلغنا موقع السيارة وانطلقنا حتى انفلتت منا كلمة «فيرما» وانفجرنا بالضحك.

لكنه ضحك كالبكاء.. فبين طوابير هؤلاء «الباعة» وتجار الشنطة في الطالكوشكا الروسية ثمة أرباب معاشات كانوا يوما ما «بروفوسيرات»، وفتيات يحملن درجة الكانديدات (الدكتوراه)، وعلماء اقتصاد ولغة واجتماع وفلاسفة دارت بهم الأيام دورتها ولم تعد مرتباتهم تكفي ثمنا للخبز في موسكو. حتى رجل المافيا ضخم الجثة الذي قابلناه هو متعلم حتى «الثانوية العامة، أو «البكالوريا» فهذا كان الحد الأدنى للتعليم الإجباري في النظام السوفييتي السابق.

فأي عنف هذا؟!

ما أن أجد نفسي في شارع جوركي حتى أنسى قدميَّ، وأحس بروحي. فمن هنا أنطلق على غير هدى فوق أرصفة الشارع الواسع الذي يضارع شانزلزيه باريس إذ يبلغ اتساعه ٦٠ مترا ـ فألتقي بالكتاب والشعراء الذين أحبهم، وألتقي بالتاريخ، وأتأمل معجزة البنايات الهائلة العتيقة التي نقلوها إلى الوراء ليحافظوا على استقامة الاتساع في هذا الشارع العريق.

لم يعد الشارع يحمل اسم جوركي، فقد أطاحت به الجائحة التي تعصف بموسكو دون تمييز ـ حتى الآن وإلى حد بعيد ـ وعاد الشارع إلى اسمه الراجع إلى القرن الرابع عشر: شارع «دفير»، لأنه كان يفضي إلى الطريق المؤدي إلى مدينة روسية قديمة تتسمى بهذا الاسم. وأحزنني تغيير الاسم، لأن جوركي كان من أوائل ذوي البصيرة والقلب الإنساني الذين رفضوا الفظاظة باسم الثورية. وكلفته مواقفه الرافضة لممارسات الشيوعية السوفييتية أن يعيش ويموت في المنفى وإن عاد جثمانه ليرقد في ظلال أسوار الكريملين في النهاية. ولو، سأظل أناديه في داخلي «شارع جوركي»... شارع المكتبات، ومقاهي العابرين، ومحال الهدايا من صناعات الروس اليدوية البديعة، وميدان بوشكين، وجادات العشاق الفرعية المظللة بالحور السامق والبتولا، والبنايات التاريخية لفندق «ناتسيونال» ومحطة بيلاروسيا ومسرح يرميلوفي للدراما وصالة تشايكوفسكي للموسيقى السيمفونية. أمشي وأمشي. أتنفس الهواء الشفيف من البراح الواسع وأتوقف في كل مرة أمام بناية اتحاد الفنانين عند منعطف «سادوفسكي» ليتولاني ذهول السؤال: كيف أنهم نقلوا إلى الخلف هذه البناية الهائلة التي تم تشييدها عام ١٧٨٠ لتوسعة الشارع ما بين عامي ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠، بل إنهم أداروها أيضا ٩٠ درجة لتتناسق مع ما حولها من أبنية؟! وليست هذه البناية هي الوحيدة التي تم نقلها في شارع جوركي فهناك مبنى «سوفييت موسكو» الذي نقلوه ١٤ مترا إلى الخلف دون أن تسقط منه طوبة! تغير اسم الشارع، وتغيرت روحه...

الحرية حلوة، وتلوين الحياة مطلوب، والتعددية شرط أي استمرار صحي حقيقي... لكنني لم أشعر بالارتياح في شارع «جوركي» الذي صار اسمه شارع

«دفير». صحيح أن الشيوعية الميكانيكية العسكرية السوفييتية كانت تمارس عنفا مكتوما. لكن ما يحدث الآن فيه عنف كثير أيضا. الترولي باص الهادئ تنبذه حركة سيارات باذخة يركبها «رجال الأعمال الجدد» في موسكو وسحناتهم تشي بملامح إجرامية أو ماكرة برغم أنهم في ميعة الصبا. تبخرت مطاعم البلميني (الشطائر الروسية المنمنمة السابحة في الحليب) والبورش الساخن اللذيذ في الشتاء وحساء الكوراشكي اللطيف الغني، والشاي والبيراشكي، وكلها كانت وجبات رخيصة وفي متناول أبأس الناس، لتحل محلها مطاعم (فانتازيا» و(إيتاليانو) التي تحاسب بالدولار، ومكدونالد التي مازالت تبتلع الطوابير الطويلة برغم أنها افتتحت أكثر من فرع في شارع جوركي وحده. الكتب صارت تباع بالمزاد، وتقلصت مساحة بيع الكتب لتفسح مجالا لبيع الأنتيكات بالدولار...أشياء من روح روسيا الفنانة كانت تباع علنا ـ وفي محال كتب الدولة ـ بالدولار (هذا غير ما يتم تهريبه وهو أثقل وأثمن)...أيقونات، أسلحة تذكارية، شمعدانات أثرية، أوسمة وميداليات، حلي، ومخطوطات. تعبت هذه المرة سريعا من المشي في شارع جوركي... وكنت مذهولا بعد دوران مُجهِد في محال الشارع الكبيرة ومخازن الأطعمة...لم يكن هناك شيء روسي باستثناء السماوارات والمصنوعات الخشبية... لا شيء حتى الزبادي والحليب والمناديل وحبوب الصداع، كلها مستوردة. هل كفت روسيا عن الإنتاج؟ ومن أين يؤتى بثمن استيراد هذه البضائع؟

سؤال وجهته لأكثر من مراقب وصحفي التقيت بهم في موسكو وكانت الإجابة ترجيحية، فلا بد أن الثمن هو بيع كنوز روسيا لاستيراد هذه الأشياء. الذهب والماس والتحف والأسلحة المتطورة والنفط والخشب والفراء والكافيار وربما اليورانيوم والبلوتونيوم أيضا (وإن نفت المراجع الروسية ذلك). وفي معرض البحث عن إجابة لهذا السؤال استوقفتني كلمات رئيس تحرير مجلة صدى الكوكب فالينتين فاسيلتس في اللقاء المطول الذي أجريته معه بمكتبه في المجلة. فلقد شرح لي كيف أن التجار يذهبون إلى الأسواق الغربية ويبحثون عن البضائع التي اقترب موعد انتهاء صلاحيتها فثمة قانون في تلك البلاد يحتم التخلص من هذه البضائع قبل موعد انتهاء صلاحيتها بستة أشهر لضمان مصالح المستهلكين خاصة الصحية. هذه هي البضاعة التي يأتي بها

تجار موسكو الكبار والصغار لتملأ متاجرها العجوز. أي أن روسيا تأكل نفايات الغرب. (وهذا الاستنتاج لي وليس لرئيس تحرير صدى الكوكب). شيء يوجع القلب. فروسيا ليست بلدا هينا، ولتذهب الشيوعية إلى الجحيم، أما أن يهان شعب كبير، وفنان، بهذا الشكل فهذا شيء مرعب. وأخشى ما أخشاه أن ينتفض في ردة فعل عنيفة ثأرا لكرامته المهدرة. لقد قال أديب روسيًا الكبير العائد بعد ربع قرن من المنفى، سولجنتسين: «لقد تنبأت بأن البناء الشيوعي الخرساني الضخم سينهار وكنت أخشى أن ينهار فوق رءوس سكانه وهذا ما يحدث الآن». فهل هذا ما يحدث الآن في موسكو؟.

في عصور التوحش...أغنية

أردت أن أستريح من وجع القلب تحت جناحي الشاعر فانعطفت داخلا ميدان وحديقة بوشكين التي يرفدها شارع جوركي... تمثال الشاعر الملهم الذي يقف على رأسه وكتفيه ـ دائما ـ الحمام، ويهيم حوله العشاق في انتظار المواعيد، وكان يأتيه المعارضون ليتجمعوا من حوله صادحين بآرائهم في بداية زمن البيريسترويكا الذي كان واعدا. الآن لا عشاق. لا أصحاب آراء. وإن ظل محبو الشعر يأتون لوضع الزهور عند قدمي تمثال الشاعر. صار المكان مريبا...على حافة أحواض الزهور تجلس بعض البغايا. وتحت الدرج المفضي إلى ساحة الحديقة يتجمع شبان مريبو المظهر لهم سحنات المجرمين والمدمنين. وبوشكين يقف مطرقا ويده داخلي صدر معطفه مبحرا في أعماقه الفوارة بالأغاني، وعلى قاعدة تمثاله تصدح بعض من أبيات شعره، محفورة في الرخام عند الجانب الأيمن:

«تظل قيثارتي
تغني للشفقة الحبيبة
وفي عصور التوحش أشدو
لحرية الإنسان.
وإن ظلت الرحمة
تطلب العدل في عماء العالم».

ما أغرب البيت الأخير، النبوءة الأخيرة، تأملتها وتذكرت أن دوستوفيسكي كان يجيء إلى المكان ذاته الذي وقفت أقرأ فيه أبيات الشاعر، كان دائما يضع الزهور تحت قدمي بوشكين ويقول لزوجته عنه: «إنه المعلم الأكبر».

بوشكين مات مقتولا، ودوستويفسكي حالت بينه وبين الإعدام لحظة، وتولستوي قضى كحفنة من عظام على رصيف محطة مهجورة بعد أن زهد زخرف العالم، وتشيخوف نهش الدرن رئتيه، وليرمنتوف ضاع في مبارزة وجوركي أطلق على نفسه الرصاص في شبابه ليوقف تدمير البؤساء لأنفسهم... أي عنف واجهه صناع الجمال هؤلاء أو وقعوا في براثنه، لقد ذهبت إلى بيت تشيخوف في طريق الحدائق الدائري «سادوفاياكالسو» وهو الذي يعتبر أكثر الكتاب الروس هدوءا ووداعة.. ولاحظت شيئا غريبا فاتني ملاحظته في المرات السابقة... إن مكتبه كان يواجه الحائط!! وبالتقصي عرفت أنه كان يكتب على ضوء الشموع، في مواجهة الحائط، ولعله كان يوفر لروحه المبدعة ـ بذلك ـ مزيدا من العزلة عن عنف العالم الصعب وهو الذي قال: إنني لم أعرف إلا أن كل لحظات البشرية ظلت ينطبق عليها الوصف إنها «لحظات عصيبة».

روسيا التي زرنا عاصمتها، بالقطع، وبرغم أي استحسان أو نقيضه، وبرغم أي رفض أو قبول، كانت تعيش لحظات عصيبة. لحظات من العنف في مواجهة جمال لا يمكن إنكاره بين حنايا التاريخ، والطبيعة، ووجوه الصبايا، وفنون الروح الروسي المبدع.

لقد قال ديستويفسكي ـ أحد أرواح روسيا الباهرة: «إن الجمال هو الذي سينقذ العالم».

فهل ينقذ ما بقي من الجمال روح روسيا من قدر العنف...وقهر العنف؟

آمل ذلك... ليس لأجل روسيا وحدها..بل لأجل العالم..ولأجلنا، فروسيا التي كانت وستظل شرقا، مهما تطلعت إلى الغرب...روسيا هذه، تقع منا على مرمى حجر، أو...على مد البصر.

البوسنة (سراييڤو)
استنفار الذاكرة

مزهرية من نحاس طلقات الموت. زهور على قبور. حسان يخطرن جريحات على حواف الجرح. مآذن مقصوفة يتعالى منها صوت الأذان. نهر يخرج فواراً من عتمة قلب جبل أخضر. بيوت بيضاء وردية السقوف في مروج ملغومة. حياة تستعيد أنفاسها من عبق وعود الربيع. لكن الذاكرة لا تُسقط الألم العظيم. إنها ـ سراييڤو ـ عاصمة البوسنة والهرسك، مدينة انكشاف الربع الأخير من قرننا العشرين.

سماء برغم بدء الربيع تتلبد بالغيوم. تخترق طائرتنا كثافة الغيم وهي تخفض ارتفاعها مقتربة من سراييڤو، فتتجلى الثلوج على قمم الجبال وبين شعابها الخضر.

ثلج هذا على العشب.. أم ثلج على جرح؟

طالت رحلتنا إجباراً لا اختياراً، فأوربا بكل حواضرها لم تمد غير خط طيران مدني وحيد، من ڤيينا إلى المدينة المجروحة: سراييڤو. هكذا مررنا عنتاً بميونخ، فباريس، فڤيينا، حتى نصل إلى سراييڤو في الموعد. وكأن قدر الرحلة أراد أن يعقد مقارنة بين ألق العواصم البراقة، وانطفاء القلوب العصرية.

ثم إنه لم يكن هناك أي خط طيران مدني واحد من أية مدينة شرقية إلى سراييڤو.

فكأنه اتفاق الشرق والغرب.

أفلا يحق للجرح أن يحتمي ـ لا يزال ـ بالثلوج؟!

هوِّن عليك، أو لا تهوِّن، فكل جمال في هذا البلد سيذكرك بنقيضه، وكل سلام

سيجعلك تحس بالارتجاف. وهذا ليس قصدا، إنما هي آلية الذاكرة، فما تحمله ليس مما يُنسى، وخير ألّا يُنسى.

ماذا تُسِرُّ الأرض، والتلال؟

هبطنا في مطار سراييفو المحاط بالتلال الخضر والجبال، فتهيأت للقاء دون توقع أن يكون في انتظارنا أحد. وقفت على أرض المطار طويلاً دون تعجل للانخراط في رتل الذاهبين نحو مبنى المطار مشيا، فما من باصات، وأنبوب نقل المسافرين بين المبنى والطائرات يتعلق مثل قطار أكله الصدأ وثقبته طلقات مختلفة الأعيرة. كأن الثلج والنسيان ونيران الصرب المنصبة من التلال القريبة تآمرت عليه. في الركن البعيد على جانب المدرج المرمم بعوز، تصطف بضع عربات بيضاء مصفحة لجنود الأمم المتحدة، وفي ركن آخر بضع عربات زيتية مصفحة أيضاً لكنها تابعة لقوات حفظ السلام من حلف شمال الأطلنطي.

الأرض تحت قدمي تتكلم، والجبال والتلال الخضر ترنو إليّ وفي أحشائها كلام. أصغي واقفاً تحت جناح الطائرة الوحيدة في مطار سراييفو.

ها هنا لم تكن تأتي أو تطير غير طائرات الإغاثة التابعة للأمم المتحدة، وطائرات الصرب المروحية التي تحلق دون رادع. فالصرب المسلحون كانوا على مشارف المطار، ومدافعهم الثقيلة وراجمات صواريخهم على التلال المحيطة.

كانت طائرات النقل التي تستأجرها اللجنة العليا للإغاثة تجيء بما تجيء به وتنهب معظمه قوات صرب البوسنة (الششتنبك) تواطؤاً وبلطجة. وفي رحلات العودة تقلع الطائرات فارغة توصد أبوابها في وجه المستغيثين من أبناء سراييفو المحاصرة. فقوات «الحماية» التابعة للأمم المتحدة كانت تتذرع لمنع مغادرة الأطفال والنساء والشيوخ بأنه ليس لديها «التفويض»! لكن ذلك كان جزءاً من اتفاق غير مكتوب بين قوات «الحماية» وجنرال الموت الصربي ـ المطلوب الآن في محكمة مجرمي الحرب الدولية ـ ميلادتش، أن تتخلى قواته عن المطار ليكون تحت سيطرة الأمم المتحدة ابتداء من أوائل صيف ١٩٩٢، مقابل حرمان البوسنيين من السفر، بل حتى حرمانهم

من إرسال خطابات مع الصحفيين الأجانب المغادرين إلى أصدقائهم وذويهم في دنيا الله الواسعة الضنينة عليهم. لم تكن قوات «الحماية» تسمح بأكثر من ستة خطابات مع كل صحفي مغادر. هنا كانت قوات الأمم المتحدة تجوب ممر المطار لتعيد البوسنيين الذين خاطروا يأسًا، تحت نيران الصرب، لكي يغادروا سراييڤو المحاصرة والمجوَّعة، وقد مات كثيرون منهم عندما كانت الأضواء الكاشفة لجنود «الحماية» تحدد أماكنهم على المدرج وتهيئهم لطلقات القناصة الصرب القريبين من المكان!

وهنا ـ في عام ١٩٩٣ ـ قامت ناقلة جنود مصفحة تابعة لقوات الحماية أثناء دوريتها بالسير فوق مجموعة من البوسنيين المنكمشين قرب مدرج المطار أملاً في طائرة تخرج بهم من حمام الدم وحصار الجوع والصقيع ـ البالغ في شتاء سراييڤو عشرين درجة تحت الصفر. وهنا وقف بطرس غالي ليؤنب البوسنيين «لأنهم ليسوا أسوأ حالاً من قتلى مجازر رواندا، ولا ضحايا مجاعات الصومال»، وقال جملته الباردة الشهيرة: «إنها حرب الرجل الأبيض» فساوى بين الجلاد والضحية، بل سوّغ استباحة دم الضحية.

أما هنا ـ تحت أرض هذا المطار ـ فقد كان هناك نفق ضيق معتم، حفره البوسنيون ليوصل بين سراييڤو المحاصرة وبلدة للمسلمين اسمها «بوتمير» وراء خطوط الصرب. كان نفقا لنقل المؤن والناس زحفاً، وعندما اضطر الرئيس علي عزت بيجوفتش إلى عبوره «وهو ابن الرابعة والسبعين» ليزور قواته في وسط البوسنة اضطر إلى الركوب على عربة يد اجتازت به النفق الضيق والعتمة. هنا مطار سراييڤو، فلأتحرك نحو المبنى المحطمة أبوابه الزجاجية والحاملة جدرانه كل آثار القذائف والطلقات. أنخرط في طابورين طويلين أمام «كشك» ضابطي الجوازات. تحت سقف مسود بدخان الحريق، وأسلاك خارجة من أحشاء الحيطان، وعلى أرض مهشمة بلاطاتها. أتحرك في هذا العوز الشديد، لكنني أشعر بطمأنينة غريبة إذ أعاين الوجوه.. وجوه ضباط الشرطة البوسنية، والعاملين في المطار، وزكريا الذي كان ينتظرنا بطيبة، ثم هذا الوجه الشريف المريح الذي أشار نحونا فجاء من استثنانا من الانتظار كزوار فوق العادة. كان الرجل هو (أدهم رامز باشتش) مدير مكتب رئيس الدولة ومستشار الحكومة البوسنية. مد يده

مرحباً بألفة، وبلغة عربية ناصعة. إنه أحد قراء «العربي» ومحبي العربية. ولقد التقيناه فيما بعد ليهبنا يوما جميلا في بلدته الساحرة «فوينيتسا».

سلمنا، ومضينا متجهين في سيارة زكريا الصغيرة إلى قلب سراييفو.

الجسر له عيون

الطريق من مطار سراييفو إلى فندق البوسنة ـ الكائن في مركز المدينة حيث نزلنا ـ كان يعني أن نشق قلب المدينة من جنوب غربها إلى شمال شرقها، تبعاً لخريطة قديمة تأملتها ونحن نتحرك. ذلك يعني رؤية اللحظة، والإطلال على الماضي القريب للمدينة، وربما البعيد أيضاً. خاصة أن زكريا عايش تقلبات زمان هذه المدينة إذ كان طالباً يدرس بها قبل اندلاع المجزرة، ولم يغادرها طوال الحصار، فزوجته بوسنية وحياته وحياة أطفاله تناسجت مع أقدار سراييفو قبل أن تبدأ المذبحة وحتى الآن.

مذبحة للبشر، والشجر، والترام، والبيوت، والجسور، والمآذن.. مذبحة أدارها المتعصبون الصرب بطلقات قناصتهم ورماة مدفعيتهم الثقيلة التي تمركزت فوق التلال المحيطة بسراييفو. ولعل أبلغ وصف لسراييفو المحاصرة وسكانها هو أنها كانت سجناً بلا سقف. راحت السيارة تنطلق بنا في جادة «ميشي سيليموفتش» الواسعة المفضية إلى امتداد طريق «زمايا أو بوسنا»، وكانت سراييفو على ضفتي الطريق تحكي ما حدث وما يحدث دون كلمات. ضاحية «علي باشنا» التي تسمق فيها أبراج سكنية مصفوفة بذوق معماري رفيع قلما عرفته عمارة «الكتلة الشرقية» السابقة، جرى قصفها وتشويه الكثير من عمائرها الملونة.

السيارات في الشارع تجري وبعضها بلا زجاج أو بلا «رفارف» ومعظمها لا يزال يحمل آثار القناصة الصرب. وترام سراييفو الذي يؤرخ أنه كان أول ترام سار في شوارع وسط أوربا، عاد للحركة، عجوزاً بطيئاً مطمئنا كعادته، لكن عرباته التي احترق معظمها أثناء القصف جرى تجديدها وطليت بألوان مختلفة.. منها الأخضر والأصفر والأحمر والملون، تبعاً لرغبة من تطوع بطلائها مقابل أن يضع عليها إعلاناً لهيئته.. هيئات إغاثة إسلامية ودولية، بنوك، شركات، مصانع. تقول إحصائية إنه منذ الربيع الدامي في ١٩٩٢

حيث اشتد القصف الصربي على سراييفو توقف الترام وأعطبت القطارات، والباصات ذات الطابقين واللون الأخضر، وكبائن التليفريك التي كانت تأخذ الركاب إلى بهاء القمم المكللة بالثلوج على ارتفاع ١٥٧٠ مترا، كل ذلك توقف. وسيارات التاكسي العشرة آلاف التي كانت تجوب شوارع المدينة لم يعد يتحرك منها غير أربع أو خمس سيارات فلم يعد هناك وقود.

عادت السيارات والترامات للحركة، عاد دبيب الحياة يسري في شوارع سرايبفو، لكنه دبيب وجل كأنه لا يصدق العودة إلى الهواء الآمن والنور.

ونمر بأحد رموز المجزرة الحضارية السافرة، وإحدى أفصح الشهادات عليها.. مبنى جريدة «أوسلوبودينيا» أو التحرير.. تم سحق البرج الذي كان يضم مكاتب المحررين تماما حتى بدا كتلة من ركام أسود وتهشمت الطوابق السفلية. كانت هذه داراً صحفية مرموقة تصدر مطبوعات ثقافية واقتصادية وإعلامية متنوعة. واستمرت تصدر برغم القصف من بدروم الدار.

ـ هناك اقتراح بترك الحطام كما هو عليه كشاهد على غباوة الششتنبك «قوات صرب البوسنة».

ـ ينبغي أن يظل

أُبدي رأيي بأسف، فبرغم فظاعة الصورة، فإن ذكريات بعض الفظاعة ينبغي الاحتفاظ بها لردع وفضح أية فظاعات محتملة في المستقبل.

كنا نسير على ضفة نهر ملياكا الشمالية، نبتعد عن النهر مع امتداد الطريق ونعود للاقتراب منه مجدداً. نهر صغير لكن قوة المياه المندفعة في مجراه المحدود المبطن تصدر هديراً نسمعه كلما اقتربنا من ضفته. إنها مياه ذوبان الثلوج في الربيع، تجيء منحدرة من أعالي الجبال، هابطة من ارتفاعات متوسطها أكثر من ألف متر فوق سطح البحر، نسمع هدير المياه، وتتوالى أمام عيوننا الجسور. لقد قرأت لميروسلاف برستويفتش في مؤلفه الأليم «سرايبفو.. المدينة المجروحة» أن هناك في سرايبفو ثلاثين جسراً «عددت منها خلال أيام الإقامة العشرة في المدينة ثمانية وعشرين»، تربط بين

أطراف المدينة وتشكل عمودها الفقري ونبض تواصلها. على أقواسها مر التاريخ ويمر. وعبرها يجيء الحاضر ليخبر عن المستقبل. وهي أيادي الضفاف الممدودة التي تأبى الانفصال!!

وأتذكر قصيدة للشاعرة (عائشة زاهيروفتش) ابنة سراييڤو التي زارت القاهرة في أواخر الثمانينيات قبل أن تتفكك يوغسلافيا.. تقول القصيدة التي تحمل عنوان (الجسر له عيون):

«نودي عليّ لكي أجيبك

لكن هناك أسئلة كثيرة تملأ عينيك

وكل سؤال يجر وراءه سؤالا آخر

لحظة من فضلك

ربما يتحدث الرجل العجوز

عن الشرفة الخضراء

نعم.. ولكن لا.. لا يوجد أحد

إنه صوت النهر فحسب

وهو ينحدر مع الوادي

مثل الرجل الأعمى

الجسر فحسب له عيون

ترى الشرفة والحديقة الخضراء

وتنتظر في شوق».

لم أحس بمعنى القصيدة الحقيقي العميق إلا أثناء وقوفي على أكثر من جسر فوق نهري ملياكا والبوسنة. تجري مياه النهر دافقة سريعة كأن لا بصيرة لها غير الاندفاع،

متجددة دوما، بينما الجسور تئن مجروحة بآثار القذائف التي أصابتها وحشرجات البشر الذين قضوا فوق ضلوعها، وتحدق بعيونها المفتوحة دوما في الماء الراكض والمدينة المحروقة.

ليس الأمر تشاعراً، بل حقيقة محضة، سجل وقائع تاريخية، لعل أشهرها ما يؤرخ لبدء مجزرة سراييڤو في الخامس من أبريل عام ١٩٩٢، على جسر «كوزيا شوبري» والذي صار اسمه شعبيا ورسميا الآن: (جسر سعاد).

حمرة الشفق

مررنا ونحن ندخل سراييڤو بجسر سعاد، وسمعت القصة مرارا طوال أيام وجودنا في العاصمة البوسنية، وما إن استطعت أن أكوّن في رأسي خارطة للمدينة، حتى قررت أن أقف على الجسر نفسه وأعيد تصوير الحادثة التي كانت علامة فارقة في المأساة البوسنية.

لكنها علامة على تاريخ آلام وآمال طويل. فما من أمل في الرقي الإنساني على ما يبدو، إلا وتتربص به آلام حارقة تُصعِّدها أحقاد نفوس سوداء للتخلف الروحي البشري.

إنها قصة سراييڤو، قصة البوسنة والهرسك، قصة يوغسلافيا السابقة، بل قصة الكيانات الكبيرة متعددة الديانات والثقافات عندما تنقسم على ذاتها، وأكثر من ذلك هي قصة ما يمكن أن يحدث في العالم كصدمة ارتدادية لما يسمى بالعولمة. قال لي حارس سيلادزيتش رئيس الوزراء أثناء حوار أجريته معه في مكتبه بسراييڤو: «البوسنة مختبر صغير لما يمكن أن يحدث في أوربا والعالم. شريط سينمائي يرينا ما يمكن أن يحدث».

وهو قول تؤكده التجربة، ويرجحه الحدس، ويبدو أن البوسنة متعددة الثقافات، متعددة الديانات، قد اختيرت بملابسات شيطانية من التعصب والأنانية الصربيين لتكون تجربة القرن العشرين المرعبة. ولهذا يذهب المنطق باتجاه المسألة الجوهرية وهي أن الحفاظ على حياة البوسنة التعددية اليوم يوازي الحفاظ على العالم غدا،

وتفتت البوسنة وتحطيمها يعد مؤشرا على ما ينتظر العالم من تفتت وما يصاحب هذا التفتت من جرائم.

في منتصف عام ١٩٩١ بدأ تفتت الاتحاد اليوغسلافي، وأعلنت سلوفينيا وكرواتيا استقلالهما. ونشبت الحرب أولا بين الكروات والصرب. وفي ٢ يناير ١٩٩٢، بعد معارك دموية، وقعت اتفاقية سلام بين الكروات والصرب تحت إشراف وسيط السلام وزير الخارجية الأمريكي الأسبق سيروس ڤانس. وفي ٢٩ فبراير من العام نفسه أجري استفتاء شعبي على استقلال البوسنة والهرسك وهو مارفضه الحزب الديمقراطي الصربي، وحرض على مقاطعة الصرب له، وبدأت التحرشات الصربية في حفل زواج بمنطقة البشاريشيا بقلب سراييفو العتيق قُتل فيه شخص واحد، وزاد التوتر والاحتقان في المدينة. وفي الأول والثاني من مارس بدأت المتاريس تظهر في الشوارع وتقطعت الدروب مما هدد بتجويع المدينة. وفي الثالث من ذلك الشهر ظهرت نتائج الاستفتاء الذي شارك فيه من مجمل عدد الناخبين ٦٦٤, ٩٩٧, ١ إنسانًا أدلوا بأصواتهم أي ٤, ٦٣٪ من كل الناخبين، ومن بين هؤلاء جاءت النتيجة لصالح الاستقلال بنسبة ٦, ٩٢٪ ولم يرفض الاستقلال إلا عدد قليل من المقترعين بنسبة ١٩, ٠٪ أي أقل من ٢ من كل ألف.

ومن هذه الثمالة الحثالة أجت النار لتحرق البلد الجميل الذي وصف دائما بأنه فرصة نادرة لرؤية سحر الشرق في الغرب أو تألق مدنية الغرب في الشرق.

في سراييفو، وفي يومي الجمعة والسبت ٣ و ٤ أبريل ١٩٩٢ بدأ رجال ملثمون قرب منتصف الليل يطلقون الرصاص على سائقي السيارات للترويع، ووضعت المتاريس والعوائق لتفصل الأماكن التي حددها الحزب الديمقراطي الصربي، حزب مجرم الحرب ـ طبيب الموت ـ السكير ـ والشاعر التافه رادوفان كاراديتش. وظهرت الحواجز فوق جسر فربانيا وحول منطقتي فراسا وجربا فيتسا ذات الكثافة الصربية، وكان الجيش الفيدرالي ذو النزعة الصربية متمركزا في التلال المحيطة بسراييفو حيث شوهد وهو يعد تحصيناته منذ عدة أيام.

تحت جنح ظلام الليل وعتامة القلوب المتعصبة تم إعداد المسرح الأسود ليوم السبت الدامي الذي كان أول المجزرة. صباح يوم السبت الخامس من أبريل

١٩٩٢ خرج الآلاف من أبناء سراييڤو في مسيرة تهتف للسلام وللحياة، وعند حاجز يفصل بين منطقة جربا فيتسا وجسر قربانيا راح ملثمان يطلقان النار على المتظاهرين من منطقة الصرب. وكانت أولى الضحايا هي الطالبة في نهائي كلية الطب سعادا ديلبرفويتش. سال دم سعاد على الجسر وجرح العشرات وفزع الناس إلى مبنى البرلمان القريب، لكن إطلاق النار لم يتوقف وتكاثر عدد المجرمين الملثمين. واتسعت رقعة مهاجمتهم للناس. وفي الساعة الرابعة عصراً سقطت أول قذيفة مدفعية على الجزء الشرقي من المدينة.

وبدأت (تراجيديا) سراييڤو.. ضمن (تراجيديا) البوسنة والهرسك. تراجيديا ملأت شاشات التليفزيونات في العالم، بجهد منفرد لإعلاميين وصحفيين شرفاء كانوا آخر قطرة من ضمير الغرب الناضب.. صرخت بالدم والنار والأجساد الممزقة، بينما كان العالم «المتقدم» المخاتل يفقد آخر حيله السلبية للتهرب من المسئولية الأخلاقية تجاه ما يحدث، ويفقد ورقة التوت، مما يذكرني بصيحة الكاتب «ديفيد ريف» في مؤلفه مجزرة البوسنة وتخاذل الغرب: «الهزيمة ساحقة والخزي شامل».

وقفت في منتصف الجسر الذي صار اسمه جسر سعاد (سعادا كوبريا) أستعيد الصور، أمامي على سياج الجسر طاقة ورد حول لافتة تحمل اسم الضحية الأولى طبيبة الغد المبتور، وأرقام تشير إلى عمرها الجميل المخطوف غيلة. وعلى الأرض بقعة لونية متسعة من طلاء أحمر برتقالي تمثل بركة الدم المراق. وهي بقعة تسجِّل لكل واقعة سقط فيها ضحايا في شوارع سراييڤو. بقعة كأنها دم طازج يختلط بلون شفق الشروق والغروب، يستصرخ الذاكرة ألا تنسى. بقعة مكثت أراها في كل حنايا سراييڤو.. كلها بلا استثناء.

المجزرة.. والمأثرة

لعل أفضل ما قدمه لنا العرب المقيمون في سراييڤو هو اختيار فندقنا في مركز المدينة.

أتاح لنا هذا الاختيار للإقامة في فندق (بوسنيا) ـ القريب من المسرح الوطني ـ

أن نكون في المركز من دائرة(التراجيديا) التي حدثت ودائرة المأثرة التي تكون. فبعد خطوات قليلة يمكننا أن نصل شمالاً إلى الدروب الصاعدة على منحدرات أحياء ميتاسي وبيلفا وكوسوفو التي يتربع على قمتها المستشفى الشهير الذي كان يعد أكبر وأحدث مستشفيات المدينة، المستشفى الجامعي، الذي لم ينج من القصف الصربي الوحشي. وكانت تجري فيه عمليات البتر للمصابين بالقذائف على ضوء الشموع عندما انقطعت الكهرباء في سراييڤو تحت الحصار. بل كان الأطباء فيه يضطرون لإجراء العمليات الجراحية للمرضى بالقرب من النوافذ لاستغلال ضوء النهار. عاد المستشفى يموج بالحركة ويحلم مسئولوه باستكمال بناء قسم جراحة القلب في المبنى الذي توقف تشييده بسبب الحصار. وكانت هناك في ساحته بقع اللون الأحمر البرتقالي ذاتها. وفي حديقته مقبرة للعشرات الذين قتلتهم قذائف الصرب أو خذلتهم إمكانات المستشفى المحاصر.

عدة خطوات من باب فندقنا في اتجاه الجنوب كانت توصلنا إلى شارع الكورنيش (أبا لاكولينا) وتوقفنا على الجسور التي يواجه أحدها مبنى البريد والتلغراف الذي أحرقه القصف الصربي حتى عظامه. غل غريب. كأن المبنى الذي شُيد في أوائل القرن بفخامة ورسوخ كان يفزعهم، إذ تبدو نوافذه العديدة وكأنها عيون تحدق في عيونهم فأرادوا أن يحرقوها حتى أعمق محاجرها.

عدة خطوات أخرى من باب الفندق كانت توصلنا إلى طريق «المارشال تيتو» الشهير الذي يذهب غربا إلى المركز العصري لسراييڤو حيث فندق الهوليداي إن ذي الطلاء الأصفر الفاقع والوقائع الشهيرة، عندما كان الفندق هو المحمية الوحيدة في سراييڤو لأنه كان نزل قوات الأمم المتحدة والمراقبين الدوليين ومراسلي الصحافة والتليفزيون العالميين. كان صعبا على «النسور البيض» من إرهابيي الصرب الجبناء أن ينالوا من هؤلاء ولو بطلقة صوت. أما الأطفال والنساء البوسنيون فقد كان قتلهم تسلية يومية لقناصتهم المتمركزين في قمم عمائر جرافيتسا وقمم الجبال.

أما الاتجاه شرقاً في شارع المارشال تيتو فقد كان يقودنا يوميا عند المفترق إما إلى شارع «مولا مصطفى باشسكي»، أو إلى شارع المشاة «فرهاديا» المفضي إلى

منطقة السوق الشرقي الشهيرة (باشاريشيا)، ومنها يمكن الصعود إلى منحدرات حي (كوفاشي) أو عبور الجسر على نهر (ملياكا) لرؤية المكتبة الوطنية المحروقة قصفاً أو مكتبة (غازي خسرو بك) ومجموعة المساجد البديعة التي أصيبت بجراح بليغة من القصف الصربي. كما يمكن من منحدرات «كوفاشي» الصعود إلى قمة فراتنيك للإطلال على مشهد عام بديع لمدينة سراييڤو.

هذه المنطقة هي القلب النابض لسراييڤو، ومن ثم ففيها يمكن معاينة آثار الجروح وتألقات المعافاة. هنا تنبض ذكرى المجزرة وإشراقات المأثرة. شارع «مارشالاتيتو» العصري الواسع الذي يذكرك بمناطق وسط المدن الأوربية العريقة وقد استعاد الكثير من رونقه ومن زجاج واجهات محاله الكبيرة الأنيقة، يمضي فيه الترام، وتمرق السيارات، وعلى الأرصفة تتدفق مويجات المشاة وأغلبها من صبايا مُضيئات الجمال أليفات الوجوه، وفتيان ممشوقين بوجوه نضرة. ثمة عجائز ومعوقون قليلون. وثمة أزواج وأطفال وعشاق.

هذا الشارع ذاته لم يكن ممكنا عبور مفترقاته إلا ركضا أو من وراء السواتر التي كانت تسد فتحات الشوارع الجانبية، فالقناصة الصرب كانوا يراقبون عابري الشارع خلال تليسكوبات بنادقهم ويتصيدونهم بطلقات التوحش الغبي.

أما شارع (فرهاديا) الذي يشبه شوارع المشاة في مدن أوربا الزاهرة، فقد استعاد عافية حوانيته، ومقاهي أرصفته البديعة، ومصابيحه الهادئة، والمتمشين في رحاب نسائمه المسائية الصافية. مواطنون، وأفراد من قوات حفظ السلام الدولية، وزوار أجانب، ومصورو تلفزيون أجانب أقاموا آلات تصويرهم في منتصف الشارع لنقل نبض سراييڤو العائدة إلى الحياة.

لكن بقع اللون الأحمر البرتقالي تظل على بلاطات الشارع تسجل لكثيرين سقطوا برصاص القناصة الصرب، وثمة بقعة متسعة تسجل لمجزرة راح ضحيتها عشرات كانوا مصطفين في طابور للحصول على الخبز من أحد المحال اليتيمة التي كانت تبيع الخبز المقتن بالجرام أيام الحصار والجوع. وثمة مقبرة تملؤها شواهد الضحايا في حديقة صغيرة بركن الشارع العائد للحياة مع نسمات الربيع.

في شارع مصطفى باشـكي الموازي لشارع فرهاديا يسير الترام ولا يوجد مشاة كثيرون في المساء، في النهار فقط يتواجدون، ففي وسط الشارع تقع السوق المركزية التي اشتهرت في كل أنحاء الدنيا، بدمائها المسفوكة التي لابد أنها حركت ضمير كل من في وجهه قطرة دم من سكان عالمنا متابعي قنوات التليفزيون الفضائية.

في هذا السوق التي تبيع الطعام والطيور والزهور، سقطت قذيفة صربية من تلال النذالة والخسة بينما كانت السوق مكتظة بالناس في يوم مشمس من أيام ربيع ١٩٩٤، وكانت مجزرة مذاعة على الهواء بالصوت والصورة في كل تليفزيونات العالـم، ولعلها كانت الحدث الذي لم يكن ممكناً تجاهله أمام الرأي العام الغربي فاضطر قادته للتحرك باتجاه فرض السلام في البوسنة وإتمام اتفاق دايتون فيما بعد.

أما البشاريشيا فهي ساحة بهية لبداية التحرشات كما ذكرنا، وهي مطلع جميل لكل شموس السلام الصغيرة البراقة.

صحن بوسني.. بسم الله

لن تمل من التمشي في دروب البشاريشيا المرصوفة بالحجر الأبيض. تحيط بك على الجانبين الحوانيت الصغيرة الأنيقة ذات السقوف الوردية من القرميد التي تعرض المصنوعات اليدوية التقليدية.. السجاد ومشغولات الفضة والنحاس المطروق. وأطرف ما رأيته هو فوارغ القذائف والطلقات الكبيرة التي حولها الصناع البوسنيون المهرة إلى مزهريات منقوشة ببراعة ودقة ولمّعوها حتى صارت تتألق جمالاً. كأنها تلخص الحكاية كلها وتقول: إنهم صناع موت وقبح، ونحن مريدو حياة وجمال. في حنايا البشاريشيا تتناثر مطاعم شرقية أنيقة، طاب لنا كثيرا طعامها.. طبق من المشويات وطبق من المحشيات المشكلة يسمونه (بوسنسكي صحن) أي الصحن البوسني. أما القهوة البوسنية فهي إغراء لا يمكن مقاومته، يعدونها طازجة فواحة العبق وبرغوة وفيرة، بنية فاتحة، يصبونها مرات، وقطع السكر يضيفها الشارب كما يهوى في صحن الفنجان. لقد أدْمنَّا البشاريشيا، نتمشى فيها كل مساء، ونأكل أو نشرب القهوة، ونعرج على المسجد الكبير في قلبها، ومعهد العلوم الدينية الذي زرناه بصحبة رئيس العلماء ورئيس أئمة

البوسنة الشيخ الدكتور مصطفى زيريتش وهو رجل يشع بالمهابة والنبل والتفتح، فهو عالم بأمور الدين وثقافة الدنيا.. درس في الأزهر كما في الولايات المتحدة وظل فترة طويلة إماما لمسجد شيكاغو وهو يجيد الإنجليزية كأهلها. في ساحة المسجد الكبير وقفنا وكان هناك وفد زائر من الجمعيات الخيرية الكويتية برئاسة الشيخ يوسف الحجي. رحنا ننتظر المؤذن وهو يصعد ليرفع أذان المغرب من قمة المئذنة السامقة التي صمدت في وجه القصف الصربي. فالأذان في البوسنة لايكون إلا من فوق المئذنة. تقليد جميل وإشارة إلى تقاليد للقوة الروحية لهؤلاء الناس. كان هناك وقت حتى موعد الأذان، وقلت للإمام (مصطفى زيرتش): يا مولانا.. أنت قلت مرة في أحد أحاديثك للإعلام الغربي: «لا يستطيع الغرب في المستقبل أن يعلمنا دروساً أخلاقية، لقد سمح لجلادي التطهير العرقي الذين توسموا خطى النازية بأن يغتصبوا ويقتلوا النساء بانتظام، وأن يقيموا معسكرات الاعتقال وأن يحولوا بكل برود ماضينا إلى رماد. أنتم الذين تفاخرون بالانتصار على الفاشية. ألم تنتبهوا إلى أنها عادت من جديد لتشعل الحرائق داخل بيوتكم؟!» ألم تزل يا مولانا على رأيك بينما هناك قطاعات في الغرب معنية بأمر السلام في البوسنة؟ وأجابني الرجل بثقة قلب جسور إنه سيكررها، ويكررها «فالغرب في مجمله رسب في امتحان البوسنة، رسب عسكريا وروحيا وثقافيا. وهو يصنفنا تبعاً لمقياس غريب على تقاليدنا، فالحرية والانفتاح لديه يعنيان حرية الانفتاح على النفايات الثقافية للغرب ـ استخدم الإمام التعبير بالإنجليزية ـ الجنس، الشذوذ، الإباحية. أما التقنية المتقدمة والعلم والتقدم فليست من حقنا. وقطع الإمام المهيب حديثه باسماً، وأشار إلى أعلى المئذنة، فالمؤذن كان قد ظهر في الشرفة الأعلى ليطلق النداء العظيم في سماء هذه المنطقة من قلب سراييفو.. قلب قلب البوسنة.

الجغرافيا والناس

تقع جمهورية البوسنة والهرسك في الجنوب الشرقي من قلب أوربا مساحتها ٥١,١٢٩ كم٢ وتحيط بها كرواتيا وإيطاليا شمالا، ويوغسلافيا «صربيا والجبل الأسود» جنوبا وشرقا، والبحر الأدرياتيكي في الغرب. والبوسنة هي القسم الشمالي من الدولة، وهو جبلي أخضر تغطيه الغابات الكثيفة. أما الهرسك فهي القسم الجنوبي

وهو جبلي صخري تتناثر بين جباله سهول زراعية على امتداد نهر نيرتفا الذي يغذي مدن موستار وستولاك وجابيو.

عدد السكان (قبل الحرب) ٤،٥٠٠،٠٠٠ نسمة، ٤٤٪ منهم مسلمون و٣٢٪ صرب (أرثوذكس)، و١٧٪ كروات (روم كاثوليك)، و٧٪ ألبان وغجر.

اللغة هي الصربوكرواتية، يكتبها الصرب بالحروف السريالية (كالروسية) والمسلون والكروات بالحروف الرومانية مع بعض الاختلافات في المفردات والتعابير.

تنتج الذرة والخوخ والبطاطس والضأن والجوز والقمح ومنتجات الألبان البقرية. كما كانت تنتج الآلات الكهربية والمنسوجات والحديد والصلب.

الشتاء شديد البرودة تكثر فيه الثلوج، والصيف معتدل تهطل الأمطار في أوله. متوسط درجة الحرارة في العاصمة سراييفو ١°م في يناير، ٢٠°م في يوليو.

ظل وادي أنهار البوسنة هو المعبر التجاري الأهم بين الشرق الأدنى وأوربا، بين البحر المتوسط والدانوب، وبين البلقان الأوسط والألب. وهذا الموقع بقدر إضفائه الخصوصية التعددية والأهمية على المكان وأهله، ثقافيا واقتصاديا وإثنيا، فإنه كان سببا لإثارة مطامع كل دول وكيانات الجوار، والشرارة المفجرة للاحتراب الداخلي.

السلام الملغوم

دعانا المستعرب القدير ومستشار الحكومة البوسنية أدهم رامز باشتس لزيارة بلدته الجميلة (فويتنسا) الواقعة بين جبال خضراء شكلتها الثلوج البيض، وتتدفق عبر جبالها الينابيع الدافئة وبها مصح للعلاج الطبيعي كان- وبأمل أن يعود – أحد أجمل وأنفع مصحات الينابيع في العالم. وعلى الطريق البالغ طوله قرابة ٤٠ كيلو مترا قدر لنا أن نكتشف ما أثير عن سلبيات اتفاق دايتون للسلام في البوسنة، والموقع في ١٤/ ١٢/ ١٩٩٥ بحضور رؤساء أمريكا وروسيا وفرنسا ورئيس الوزراء البريطاني مع زعماء المنطقة علي عزت بيجوفيتشي عن البوسنة، وميلوسوفيتش عن صربيا، وتوديمان عن كرواتيا.

لقد أقر اتفاق دايتون بقاء جمهورية البوسنة والهرسك ككيان فيدرالي واحد يضم كيانين هما جمهورية صرب البوسنة واتحاد المسلمين والكروات، مع برلمان فيدرالي وشرطة فيدرالية مدربة دوليا، وممرات آمنة بين الأجزاء المختلفة. لكن هذا الاتفاق سلمي أكثر على الورق، ومليء بالألغام على الأرض، فالبرلمان الفيدرالي لا يعقد إلا في مبنى المتحف بسراييفو (تبعا لإصرار الصرب)، وفي حراسة دبابات القوات الدولية، وأجزاء من العاصمة سراييفو جنوب وغرب أليجار تحت هيمنة الصرب لا تزال. والمعبر البحري على الأدرياتيك يغلقه الكروات عندما يريدون. أما الممرات الآمنة فهي ليست آمنة أبدا، بل إن هناك مناطق كرواتية في الاتحاد البوسني الكرواتي تشكل شرطتها على هواها من المتعصبين الكروات الذين أوقفوا سيارتنا على الطريق تحت تهديد السلاح، ولم نخرج سالمين من تحرشهم إلا ببطاقات الصحافة الدولية.

مأثرة الكتب

في جولة مع فضيلة رئيس علماء البوسنة الدكتور مصطفى زيرتش بدار المشيخة الإسلامية بسراييفو ومسجد ومدرسة ومكتبة «الغازي خسرو بك» «والي منطقة البوسنة عام ١٥١٩ والذي يعتبر المؤسس الحقيقي لسراييفو»، كشف الدكتور مصطفى زيرتش عن سر كبير، وهو الحفاظ على محتويات المكتبة الغنية بمخطوطاتها ومراجعها ووثائقها التي هي أدلة دامغة على عمق جذور البوسنيين المسلمين في المكان، وعلى الحالة الحضارية الراقية التي صاحبت وجودهم منذ البداية. المكتبة سلمت كلها من القصف لأن المسلمين تطوعوا، برغم النار والجوع والبرد واحتمالات الموت في كل خطوة، بتنقيل محتويات المكتبة ثماني مرات تحت وابل القذائف الصربية التي تسلطت على المكان ٩٨ مرة، وكأنها ثكنة عسكرية.

مفأجاة «العربي» في هذه الجولة كشف عنها الدكتور مصطفى زيرتش إذ مد يده إلى أحد صفوف الكتب الناجية وقال باسما: «ها هي مجلتنا مجلتكم»، وكانت «العربي» مرتبة ومحفوظة منذ أعدادها الأولى ضمن الذخائر التي أنقذها البوسنيون من النيران الصربية.

وإذا كان مطلب مداومة إرسال «العربي» بنسخ مجانية كافية إلى سراييفو هو المطلب الصغير الذي نتوجه به إلى إدارة المجلة ووزارة الإعلام الكويتية، فإن المطلب الأهم والأكبر هو المساهمة في علاج المخطوطات الثمينة بهذه المكتبة النادرة في التاريخ الحاضر. وهذا نداء نطلقه موجها إلى جميع دور المخطوطات العربية والمعنيين بالأمر من كل بقاع عالمنا العربي والإسلامي.

ألبانيا

من يعيدها من الشتات؟

عبرت الطائرة سماء البحر «الأدرياتيكي»، فأدهشتنا الجبال الخضراء، والأنهر والبحيرات الصغيرة بين الجبال، ثم لم تكف الأرض الألبانية عن الاستمرار في إدهاشنا.

الطائرة التي حملتنا من روما إلى العاصمة الألبانية «تيرانا» راحت تهبط بين الجبال، لتستقر على أرض المطار الصغير، الفقير، الوديع: «ريناس». وبرغم أن تعاقب الجبال البديع، ألوانا وأحجاما، كان يشد بصري بعد الخروج من الطائرة، فإن الشيخ النحيف الجليل في جبته السوداء وعمامته البيضاء المخروطة، ظل يلفت انتباهي.. بملامحه الأوربية الألبانية، وبكوكبة من يتبعونه: البنت المحجبة وزوجها الشاب، والرجل الذي يحمل مكبر صوت ضخما زيتي اللون، لا يزال بعد في غلافه الشفاف.

عاودني التردد في الاقتراب من الرجل حتى ابتعد، وندمت على عدم اقتناص البادرة وإرواء غليل الفضول، لكنني لم أكن أعرف أن المصادفة ستجعلني ألتقي بالرجل فيما بعد مرتين، لأكتشف أنه الشيخ «صبري إدريس كوتش» رئيس المشيخة الإسلامية، مفتي عموم ألبانيا، لأعرف منه أنه كان قادما من زيارة للقاهرة، وأن مكبر الصوت كان لمسجد تيرانا الكبير، وأنه قضى في السجن والعزل، قبل انهيار نظام «أنور خوجا» واحدا وعشرين عاما جعلته ينسى الكثير من اللغة العربية، فالتحدث بها كان ممنوعا، ومن يضبط وهو يقول «بسم الله الرحمن الرحيم» كان يقضي في السجن عشر سنوات. ومع ذلك ظل القرآن في قلب الرجل النحيف البشوش وعلى لسانه. سمعته منه وأنا

أصلي وراءه في زحام جامع العاصمة العتيق «إيتيم بيه» يوم الجمعة، وسمعته منه عندما التقيته لنتحادث، وكان عندما يعجز عن التعبير يلجأ لإيضاح مقصده بآية، أو حديث شريف، أو قول عربي مأثور. أما من رأيتهم بصحبة الشيخ في المطار فلم يتسن لي أن أسأل عنهم، وأرجح أن الرجل حامل الميكروفون الجديد كان مساعدا للشيخ، أما الشاب فالأرجح أنه زوج البنت المحجبة التي لعلها ابنة الشيخ أو حفيدته، وهي الفتاة المحجبة الوحيدة التي رأيتها في العاصمة الألبانية!!

أندريه دورين سعد الدين!

قاعة تسلم الأمتعة في مطار العاصمة الألبانية لا تعدو كونها مجرد غرفة، بلا (سير) للحقائب، التي يصفونها على الأرض حتى يعبر الركاب حاجز الجوازات ويلتقطونها، أو يحملها عنهم الحمالون، فلا عربات للحقائب في مطار «ريناس». ولقد انتقانا أندريه وسط الزحام هامسا: «تاكسي.. تاكسي»، ولم نكن في حاجة لمن يحمل عنا حقيبتينا الصغيرتين وحقيبة أدوات التصوير التي تتبع الزميل الصديق سليمان حيدر على (عربانة) صغيرة ألقينا عليها بالحقيبتين. وفي سيارة أندريه انطلقنا على الطريق (المضعضع) عشرين كيلومترا إلى العاصمة، وكانت الجبال الخضر على ضفتي الطريق، والبيوت الوديعة المسقوفة بالقرميد على مدارج الجبال تظهر بين المدى والمدى ومسجد صغير ناصع البياض تسمق منارته الدقيقة برهافة في الأفق المسالم.. عالم من جمال الطبيعة البكر التي حافظت على بكارتها.. عزلة عجيبة.. عزلة صنعتها قبضة التضاريس، وحلقات التاريخ المقفلة، واستحقاقات ثأر كان على ألبانيا أن تدفعه دون جناية على أحد، بل إنها كانت تدفعه بدلا عن جان عليها هي نفسها. الجبال، والعثمانيون، وأنور خوجا. ثالوث متنافر تضافر في المكان والزمان ليصنع عزلة لم تعرفها دولة في أوربا وربما في العالم. كنت أفكر في ذلك وأنا أتطلع إلى عذوبة الطبيعة البكر على جانبي الطريق. ولفتت نظري أنصاف كرات خرسانية بنوافذ ضنينة تتناثر في السهل الأخضر. صف من أربعة أو خمسة من أنصاف الكرات الخرسانية هذه يظهر كل حين. وقال لي السائق عندما سألته عنها وهو يشير بسخرية كأنه يفك (صامولة) من دماغه: «استراتيجيا». وعرفت أن هذه التكوينات العجيبة هي متاريس، أو خنادق،

أعدت في زمن شيوعية أنور خوجا استعدادا لمواجهة أي هجوم «إمبريالي»، وهذه المتاريس المقببة هي خنادق يتمترس بها جنود المقاومة «البروليتارية» لمواجهة إنزال محتمل للمظليين الإمبرياليين. وكل صف من هذه الخنادق يتواصل بنفق خرساني بسيط يربط بينها ليتيح حرية (المناورة) أمام جنود المقاومة تحت الأرض. تفكير عجيب. لم يكن أنور خوجا في عزلته التي استمرت حتى موته في عام ١٩٨٥ يدري أن الحروب «الإمبريالية» صارت توظف أشياء أخرى غير البنادق والقنابل اليدوية. قنابل حارقة، ومخلخلة، وموجهة بالليزر. وصواريخ باحثة عن أهدافها تدخل من النوافذ وتتعرف على الأشكال. «لقد شوه جمال الأرض» كنت أفكر في خنادق أنور خوجا البروليتارية وهي تتبدى كندوب رمادية صدئة وسط بهاء أبسطة الخضرة ومدارجها. ستمائة ألف خندق خرساني من هذا النوع بعثرها أنور خوجا على طول وعرض الأرض الألبانية. لم تعد تنفع عسكريا وصار عسيرا اقتلاعها من الحقول. كان السائق أندريه لا يسميه في كلامه إلا «الديكتاتور» فتتجسد في خيالي صورة الحاكم العسكري الأبدي المعتق في روايات استورياس وماركيز. ولما عرفت اسم أندريه وسألته عن ديانته قال إنه مسلم، فتعجبت: كيف؟ أندريه ومسلم؟!. ففتح كفيه للحظة ترك فيها عجلة القيادة ليعبر عن سخريته. وهي سخرية مريرة، فقد كانت الأسماء ذات الطابع الديني ممنوعة في زمن أنور خوجا، وكان على الأب عندما يذهب لتسجيل اسم مولوده أن يختار اسما من قائمة محددة أعدتها السلطات ليتسمى به المولود. وكان من نصيب سائقنا اسم «أندريه» ووالده من قبله «دورين»، برغم أنهما مسلمان من عائلة «سعد الدين» الجد الذي لم يدركه نظام أنور خوجا فظل اسمه دون تغيير!

ودخلنا تيرانا في الظهيرة؟

مناخ صيف البحر المتوسط المحتمل، وإيقاع مسالم لمدينة، بل بلدة، بسيطة الشوارع متواضعة الحوانيت، والبيوت. بعضها لا يزال يحمل طابع «المساكن الشعبية»، ومعظمها لا يرتفع أكثر من خمسة طوابق، لكن الزهور كانت تعلن عن وجودها المستمر في غالبية الشرفات والنوافذ. أما اللافت للنظر، فهو وجود نساء يركبن الدراجات في الشوارع (ولعل ذلك من زمن التآلف البروليتاري، الصيني الألباني، الذي لم يدم ـ كغيره ـ طويلا)،

ووجود أطباق استقبال البث التليفزيوني الفضائي (الدش) في معظم الشرفات. أطباق واحدة بيضاء يبدو أن الواحد منها يكفي شقة واحدة. ويخبرني «أندريه» أن سكان تيرانا ـ وألبانيا بعامة ـ يستقبلون بيسر البث التليفزيوني من إيطاليا واليونان وألمانيا وتركيا. سألت نفسي: ترى لو أن أنور خوجا لا يزال يحكم ألبانيا هل كان يسمح بانتشار هذه الأطباق؟ بل هل كان يستطيع منعها وهي صغيرة، وأوربا على مرمى حجر، ومن كل الجهات؟.. من كل الجهات تطل أوربا على ألبانيا، ومن الطبيعي أن تطل عليها ألبانيا أيضا، برغم قوس الجبال الألبانية العالية شرقا ومياه بحر (الأدرياتيك) الفاصلة غربا، فألبانيا التي تحمل اسمها هذا منذ نهاية القرن الرابع عشر انتسابا إلى قبيلة «ألبانوي» القاطنة حتى الآن في الشمال الأوسط من البلاد، ألبانيا هذه تعتبر أصغر وأفقر بلدان أوربا (وإن كنت أرى في فقرها الآني عنصرا عابرا، فهي بمواردها وطبيعتها شديدة الغنى). تشغل الجزء الغربي من شبه جزيرة البلقان بمساحة أكثر من ٢٨ ألف كيلو متر مربع من الأراضي المرتفعة (ثلاثة أرباع مساحتها تعلو ٣٠٠ متر فوق سطح البحر) تظاهرها شرقا سلسلة جبلية تعتبر امتدادا جنوبيا لجبال «الألب» الدينارية. ومن الشرق العالي تمضي التضاريس هابطة إلى الوسط الخصب والساحل الممتد على الشاطئ الشرقي لبحر (الأدرياتيك) بطول ٣٦٠ كيلو مترا، ومع التضاريس تهبط مجموعة من الأنهار الصغيرة، والجروف الوعرة التي تمتلئ شتاء وتجف نسبيا في الصيف. بينما تتناثر في الوديان بحيرات صغيرة أما البحيرات الكبرى فهي ثلاث تقع على خطوط الحدود شمالا وشرقا. تحيط بها اليونان جنوبا، ومقدونيا شرقا، وصربيا والجبل الأسود شمالا، وفي الشرق يفصل بحر الأدرياتيك بينها وبين إيطاليا بمسافة لا تتجاوز طيرانا ثلاثة أرباع الساعة. عدد سكانها ٣،٥ مليون نسمة، ٧٠٪ منهم مسلمون، والأقلية مقسومة بين الكاثولك والأرثوزكس، وقرابة نصف السكان يعملون بالزراعة التي تشكل ثلث الدخل القومي البالغ قرابة ثلاثة بلايين دولار سنويا. لديها نفط وغاز ومعادن شتى، منها الكروم الذي تعتبر ألبانيا رابع أكبر مصدريه في العالم، وهي تصدر فائضا من الكهرباء المولدة من مساقط المياه، إضافة للغابات التي تكفي احتياجاتها من الأخشاب وتفيض.

فلماذا يكون فقيرا ومتخلفا بلد هذا موقعه وهذه موارده؟!

إنها إحدى جنايات التاريخ والجغرافيا على البشر، وهي حكاية قديمة راحت تعبر خاطري صور منها بينما كنا نجتاز ساحة ميدان «إسكندر بيه»، قلب العاصمة تيرانا، الذي كنا نبدأ منه دائما، ونعود إليه كثيرا، كلما تحركنا في العاصمة أو أبعد منها، فإقامتنا كانت في فندق «داجتي» البالغ من العمر عتيا والكائن في طرف الميدان.

خمسمائة وخمسون عاما من العزلة

لم أستطع أبدا أن أرى ألبانيا دون أن أتخلص من فضولي تجاه أنور خوجا، ومنذ خطواتي الأولى في العاصمة، وحتى خروجي إلى الساحل وباتجاه الجبال ظل أنور خوجا هاجسا. ولقد جمعت من التأمل في مساره، ومصيره، وبقاياه، ما يكفي لتهدئة ذلك الهاجس، بعدها تفتحت أمامي دروب ألبانيا.. العذراء.. الجميلة.

لقد كانت إقامتنا بإحدى غرف فندق «داجتي» أول إطلالة على شبح أنور خوجا، والفندق بناء راسخ ورشيق يقبع خلف واجهة من أشجار الصنوبر السامقة الكثيفة، تم بناؤه في ثلاثينيات هذا القرن وشهد تجديدات عديدة أهمها تجديده على يد السوفييت إبان فترة التقارب القصيرة العابرة مع أنور خوجا، وهو ـ أي الفندق ـ لا يزال يحمل طابع الفنادق السوفييتية الهائلة الكتيمة خافتة الإضاءة وإن كانت الغرف أوسع وأرحب لأنها شيدت قبل أن يلصق بها ذلك الطابع. ولقد ظل «داجتي» هو أكبر وأوحد فنادق تيرانا خلال نصف قرن الانغلاق، لهذا كان موضع استقبال شخصيات العالم الزائرة لألبانيا. وبعد انهيار أسوار العزلة وسقوط النظام الشيوعي لم تجد السفارة الأمريكية مكانا مؤقتا في تيرانا لتقيم فيه أفضل من جناح في فندق داجتي. أي الأجنحة يا ترى؟ لم يمكنني تحديده بعد أن ذهبت السفارة الأمريكية إلى مستقرها الدائم في تيرانا. ولم أجد في جوانب المبنى العتيق وأنا أطل من نافذة واسعة بغرفتنا إلى اليمين ـ غربا ـ غير نوافذ متعاقبة وشرفات صغيرة سميكة الأدوار، وحديقة جميلة في الأسفل وعن يساري شرقا، كان جبل داجتي يصعد بنفسجي اللون في الأفق السماوي الصافي، أما في مواجهتي وفوق هامات الشجر ونخيل الزينة، ومن وراء مجرى ماء صغير وضفتين من الخضرة على جانبيه كان يصعد عاليا صرح رخامي أبيض، هائل وعجيب، حرت

في أمره. فطلبت بالهاتف مكتب استعلامات الفندق لأسألهم عن الصرح الذي أراه. وإذا بالإجابة تجعلني أقفز.

ـ «إنه نُصب أنور خوجا.. سابقا»

ـ «إذن أنور خوجا أمامي مباشرة»؟

ـ «ليس تماما الآن».

وتعجلت سليمان حيدر أن يجهز «كاميراته» لننزل، فثمة هدف قريب. بل أهداف عديدة.. خرجنا من باب الفندق إلى الرصيف الشرقي لأطول وأكبر شوارع تيرانا، إنه بوليفار «شتيتوريا داشورميت».. شارع يقطع تيرانا من أقصى شمالها الغربي إلى أقصى جنوبها الشرقي ويمر في وسطه بالميدان الرئيسي «إسكندر بيه»، ويكاد يلخص حياة تيرانا وتاريخها أيضا.. بل تاريخ ألبانيا كلها.. القريب منه على الأقل.

مضينا على الرصيف المغمور بظلال الأشجار التي تتعاقب على امتداد الشارع الواسع الكبير من الجانبين، وكانت المقاهي الصغيرة الغزيرة ذات النسق الأوربي تتواصل وتكاد لا تخلو من الزبائن. بينما دفعت نسائم «العصاري» سكان العاصمة إلى الخروج للتمشي في الشارع. إنها ظاهرة أدمنا مراقبتها فيما بعد. فسكان تيرانا البالغ تعدادهم ربع مليون نسمة، على وجه التقريب، ما إن تميل الشمس حتى يتدفقوا، يوشكون أن يكونوا جميعا في هذا الشارع، وفي الميدان. يتمشون مستروحين النسائم، أو يقتعدون المقاهي أو أبسطة النجيل في الحدائق، أو درج الأبنية الكثيرة في هذا الشارع. جماعات صغيرة، أو ثنائيات، لكنهم لا يتمشون فرادى إلا فيما ندر. الصبايا ذوات جمال ملحوظ وملابسهن أوربية. والشباب كذلك (والعواجيز) غالبا ما يعتمرون (كاسكيتات) وينتعلون أحذية قماشية خفيفة وعندما يتلاقى الألبان يتعانقون وتتلامس خدودهم، وبرغم أن الشارع مفتوح والإغراءات موجودة فإننا لم نلحظ أبدا أي تحرش غليظ من الشبان للفتيات. ولم نشهد خناقة واحدة. فثمة حياء ملحوظ وطابع حضاري وإنساني هادئ لدى الألبان، صغارهم وكبارهم.

هل هو الدين (برغم غيبة مظاهره نسبيا).. أم هو إرث الانضباط القهري الطويل على زمن شيوعية أنور خوجا.. أم صرامة ورهافة التقاليد للمنحدرين ـ أصلا ـ من بيئة

الجبال.. أم هي رقة الحال، والقناعة الطويلة، لدى شعب أوربي لم يمتلك عبر قرون كثيرة أيا من أدوات الزهو الأوربي المغري بالغطرسة؟

ـ لا أدري.

ـ إنه شعب رقيق.

ـ ليس في كل الأحوال.

نعم، فهو لا ينام على ثأره، وبهو الفندق الذي نزلنا به يشهد على ذلك. فمنذ سنوات قليلة قطع قروي، بفأس حادة، رأس رجل ظل يتعقبه ثأرًا لمقتل والده الذي حدث منذ أربعين عاما! وتدحرج الرأس المقطوع على الدرج الذي نزلنا عليه لتوِّنا.

فبرغم شيوعية نصف القرن فإن قانونا للقصاص والثأر يسمى «كانون ليك دوكاكجين» ظل يعمل، على الأقل بين سكان المناطق الجبلية المعزولة، ولا يزال يعمل، وتحكم به محاكم خاصة جدا تتكون مما يشبه «مجلس شيوخ الجبل».

ويبدو أن «كانون ليك دوكاكجين» كان يعمل أيضا على مستوى التاريخ الألباني المعاصر، ثأرا من قهر قديم، ذلك ما رأيته وأنا أقف أمام الهرم أو الطبق الرخامي الهائل الذي كان ـ «ضريح أنور خوجا» والذي وصلنا إليه بعد عدة خطوات ـ إلى جوار فندقنا وبعد عبور الجسر القديم على قناة «لانا».

وأقسى درجات الثأر هي المسخرة.

وأي مسخرة..؟

إن الضريح بناء عصري هائل ومدهش تم افتتاحه عام ١٩٨٨ في الذكرى الثمانين لميلاد الرئيس أنور خوجا!! صممته ابنته، المعمارية «برانفيرا» على هيئة طبق طائر هبط في وسط تيرانا. وقبل فبراير ١٩٩١ كان يضم كل شيء لمسه أو استعمله أنور خوجا. وفي المركز كان ينتصب تمثال رخامي ضخم لأنور خوجا في تكوين غريب كأنه داخل رحم خرساني. وكانت هناك نجمة كبيرة مضيئة تتألق فوق قمة البناء، ساكبة النور على جوانبه البيضاء المائلة بانسياب شديد إلى أسفل. لقد كان أحد أشد متاحف الأشخاص غرابة وفرادة في العالم. لكن كل ما كان يمت بصلة لأنور خوجا في المكان

تمت إزالته وتم تحطيم تمثاله. وتحول المكان إلى مبنى للإيجار بالمتر، به الآن مركز مؤتمرات تجاري، وثمة محل لبيع الكمبيوتر والتدريب عليه، ومقهى يفرش مقاعده الملونة في الساحة الرخامية الوسيعة أمام المدخل.

أطرف ما في الأمر، وأعتبره ثأرا قاسيا جدا تناله ألبانيا الحالية مما حشرها فيه الديكتاتور لقرابة نصف قرن هو ما يفعله الأطفال بهرم أنور خوجا هذا أو طبقه الطائر. فالأطفال الآن مع ذويهم المتنزهين في المكان حولوا جبروت البناء إلى لعبة، إذ يصعدون جدران البناء المائلة حتى القمة ثم يتركون أجسامهم الصغيرة تنزلق خفيفة إلى أسفل بينما أصواتهم اللاهية المبتهجة تتصاعد صادحة في سماء المكان.

هل كان أنور خوجا يتصور ذلك.. أو يسمح به؟! أنور خوجا.. يا له من نموذج يصلح بحثا لحالة اجتاحت، ولا تزال تجتاح، عالمنا وإن بصور أخرى! لا أقصد العنف. بل أقصد الإيمان الجنوني الخيلائي باحتكار الحقيقة وزعم الانفراد بالرؤية الصواب، ومن ثم ضرورة فرضها على الآخرين. أما طرق فرض هذه الرؤية فهي توابع لا تمثل خطورة جوهر المسألة برغم ما قد يكون بها من عسف وعنف وإكراه وتأليه للأشخاص وانفراد بالسلطة.

أنور خوجا الذي ولد في بلدة «ججيرو كاسترا» الجنوبية في ١٦ أكتوبر ١٩٠٨ لأسرة ألبانية مسلمة ميسورة، تلقى تعليمه في مدارس الليسيه الفرنسية بالبلدة. وفي بداية عام ١٩٣٠ درس علم الأحياء بجامعة مونتبيليه في فرنسا ثم انتقل إلى باريس حيث التحق بالحزب الشيوعي الفرنسي عام ١٩٣٥ وعاد بعدها بعام إلى ألبانيا ليكون معلما في مدرسة الليسيه بكورجا. وفي عام ١٩٣٧ اضطلع بتأسيس منظمة شيوعية ألبانية سرية. وأثناء الحرب العالمية الثانية قام بدور ملحوظ في تنظيم المقاومة الشعبية المسلحة ودخل تيرانا كزعيم لجبهة التحرير الوطنية خريف عام ١٩٤٤. وفي عام ١٩٤٥ تزوج صديقته و«رفيقة» نضاله «نخميجا خانجولي» وهي سليلة أسرة مسلمة من بلدة «دبيير» ورزقا بثلاثة أبناء إلير الذي ولد عام ١٩٤٨، وسوكول عام ١٩٥١، وبرانفيرا (التي صارت مهندسة معمارية صممت النصب التذكاري المشار إليه!) في عام ١٩٥٤.

لم يتسلم أنور خوجا قيادة «حزب العمل الألباني» (الاسم المعلن للحزب الشيوعي

الألباني) إلا بعد تباعد ستالين وتيتو عام ١٩٤٩، ومن بعدها لم يفقد السلطة أبدا ـ سواء كزعيم للحزب أو كقائد للدولة ـ حتى وفاته في عام ١٩٨٥، (برغم مرضه العضال في سنواته الأخيرة). ودفن في مقبرة الشهداء بتيرانا عند وفاته، لكن في عام ١٩٩٢ ـ بعد سقوط النظام الشيوعي ـ انتزع رفاته وأعيد دفنه في المقبرة العادية بالعاصمة. والناس يشيرون إليه الآن في تيرانا باسم «دوللي» وهي تعني: الشخص القبيح، بينما يسمون زوجته «سوارا» أي الغراب، وقد قُبض عليها عام ١٩٩٣ للمحاكمة بتهمة الفساد واستغلال السلطة.

أي مصير سوداوي.. وأية ذكرى ساخرة مرة؟!

إن عوام الناس عندما يجرمون قد يفلتون بجرائمهم في الدنيا ليحاسبوا عنها في الآخرة. أما قادة الشعوب عندما يجرمون ـ ولنتذكر مصائر نيرون وهتلر وموسوليني وسوموزا وغيرهم ـ فإنهم ـ وحساب الآخرة يترصدهم ـ لا يفلتون بجرائمهم في الدنيا أبدا سواء وهم أحياء أو بعد موتهم. وأقل وأمر صنوف العقاب هي اللعنة.. والمسخرة!

ولقد أجرم أنور خوجا وزمرته في حق ألبانيا. ولا أعني بإجرامه العسف أو الإرهاب فهذه توابع لا أصول، ولكنني أعني استبداده بوهم أو زعم امتلاك الحقيقة والصواب الوحيدين، وفرض نمط تفكيره على أمة بأسرها.. أي حبس هذه الأمة في قفص هواجسه وعشقه لذاته ومن ثم استئثاره بالسلطة وأقدار الناس.

العزلة

العزلة هي حصاد إجرام أنور خوجا في حق ألبانيا. وهي عزلة جاءت في لحظة حرجة لتوصد حلقات من العزلة الجغرافية والتاريخية والروحية عانتها ألبانيا بعمق القرون. فاستحكمت حلقاتها ولم تفرج إلا أخيرا.. وبصعوبة حزينة مازال يعانيها هذا البلد وأهله.

لقد ضربت سلسلة الجبال في الشرق ومياه البحر «الأدرياتيكي» في الغرب طوق عزلة ما على ألبانيا. وعمقت هذا الطوق خمسة قرون من الاستعمار الثقيل المعتم.

فألبانيا هي آخر مستعمرة أفلتت من قبضة الإمبراطورية العثمانية الآفلة (عام ١٩١٢). ولم يهنأ الألبان بهذا الاستقلال إذ راحت الجيوش المتقاتلة في الحرب العالمية الأولى تحرث الأرض الألبانية في طريق مراميها. ومن الطريف أنه منذ عام ١٩٢٠، كان هناك وزير ألباني اسمه أحمد زوغو صار رئيسا للوزراء ثم رئيسا للجمهورية، لكنه عام ١٩٢٨ أعلن نفسه ملكا وأوقع نفسه وبلده ـ سياسيا واقتصاديا ـ في شباك إيطاليا حتى غزاها موسوليني ووضعها في جراب إمبراطوريته الفاشية عام ١٩٣٩ فانتهى استقلال ألبانيا وانتهى حكم «زوغو» الملك.. نفسه! وصارت ألبانيا معسكرا للقوات الفاشية التي غزت اليونان الجارة الجنوبية عام ١٩٤٠، ومع اضطرام الحرب العالمية الثانية تكونت فرق المقاومة الوطنية الألبانية ضد قوات المحور الغازية لأرضهم ولمع اسم أنور خوجا كقائد لحرب العصابات. كان خليطا من الشيوعي الغوغائي والوطني المتعصب والسياسي الميكافيللي.

أفلت خوجا من حلم تيتو بضم ألبانيا إلى الاتحاد اليوغسلافي عن طريق دعم العلاقة بستالين (الذي ظلت تماثيله في ألبانيا هي آخر تماثيل له تسقط في أوربا كلها حتى بعد سقوط الاتحاد السوفييتي). وبعد موت ستالين عام ١٩٥٣ بدأ الشقاق مع حكام موسكو الجدد حتى صارت القطيعة عام ١٩٦٠. واتجه إلى الصين وماثل ماوتسي تونج في ثورته الثقافية بل أغرق فيها حتى أنه جرم أية ممارسة دينية إسلامية أو مسيحية أو غيرهما بقانون عقابي صارم في عام ١٩٦٧. ومع الانفتاح الصيني الضعيف على الولايات المتحدة في أوائل السبعينيات بدأ الشقاق وانتقد خوجا «الانحراف الصيني»، وانتهى الأمر بالقطيعة الألبانية الصينية عام ١٩٧٨ وأوقفت الصين مساعداتها الاقتصادية والعسكرية وسحبت خبراءها من تيرانا. وصارت ألبانيا في انقطاع عن العالم.. الشرق والغرب وما بينهما. صدئت المصانع القديمة، ولم تستكمل الجديدة، وصبت الخنادق الخرسانية وسط الحقول، واستفحل النظام المركزي البيروقراطي.. نسي العالم ألبانيا، ونسيت ألبانيا العالم، وفوق تل النسيان تربع أنور خوجا على عرشه الشيوعي يراقب (معسكرات) العمل الجماعي البائس للفلاحين في حقول الشقاء والعمال في المصانع المتهالكة. ولم يمت إلا إثر مرض عضال في أبريل ١٩٨٥ بعد أربعين سنة من الحكم المطلق، ليعقبه «رامز عاليا» خليفته وعضو المكتب السياسي لحزبه. وفي ٢٠ فبراير ١٩٩١ ـ بعد

انفراط عقد المنظومة الشيوعية الأوربية وانهيار أسوارها المتداعية أصلا ـ خرج آلاف المتظاهرين ـ لأول مرة بعد نصف قرن ـ في شوارع تيرانا وميدانها الكبير، وأسقطوا تمثال الصنم أنور خوجا، ولم تعد ممارسة الشعائر الدينية مُجرَّمة وأعيد فتح مدارس العلوم الدينية، وأجريت انتخابات شبه ديمقراطية فاز فيها «رامز عاليا» وحزب العمال الذي صار بعد الإصلاح «الحزب الاشتراكي» وبعد دفع شعبي أجريت انتخابات جديدة في مارس ١٩٩٢ فاز بها «الحزب الديمقراطي» وصار زعيمه الدكتور «صالح بريشا» رئيسا لألبانيا في أبريل ١٩٩٢ ليقود برنامجا للإصلاح الاقتصادي وصف بالجذرية والنجاح النسبي، وأعيد انتخابه قبيل ذهابنا بيومين في انتخابات شكك «الحزب الاشتراكي» في نزاهتها وأعيدت في بعض الدوائر. وبينما كانت محطات التليفزيون العالمية تذيع أخبارًا عن مظاهرات في تيرانا لم نجد غير تجمع صغير هادئ أمام مقر الحزب الديمقراطي، وقد رفض المتجمعون أن نصورهم، كما أبعدنا ـ بلطف ـ رجال الشرطة. وحدث أننا كنا أمام بيت عالي الأسوار والأشجار بقرب جامعة تيرانا، وإذ بأفراد يبدو أنهم من الشرطة السرية يطلبون منا أن نمشي على الرصيف الآخر. «لماذا»؟.. «هنا بيت رئيس الجمهورية». وكدت أصيح وجدتها. فقد كنت لمدة ثلاثة أيام أعجز عن الوصول إلى بيت آخر هو بيت «أنور خوجا» برغم تقيدي بالسير على هدي خريطة قديمة لتيرانا. ولما كنت أعرف أن بيت الرئيس الحالي الذي كان قصر الملك زوغو يمكن أن يكون نقطة انطلاق مناسبة إلى بيت «أنور خوجا» القريب فقد استهديت بشرح الرجال «السريين» الذين أمرونا أن ننتقل إلى الرصيف الآخر. ولم يبخلوا علينا بدقيقتين لوصف الطريق إلى بيت خوجا.

دخلنا المنطقة التي كانت محرمة على زمن الديكتاتور، فهي إضافة إلى بيته تضم بيوت قادة الحزب الشيوعي (الخوجي) الذي كان حاكما. ضاحية كثيفة الأشجار والحدائق، وتتناثر في رحابها الأخضر الأنيق ڤيلّات عصرية ليست أسطورية لكنها، بالنسبة لألبانيا الفقيرة، استثنائية. ووجدنا بيت الرجل المرعب، أو الذي كان مرعبا.. ڤيلّا أنيقة، بحديقة واسعة، وحمام سباحة فاخر لا ماء فيه. وثمة جندي مسلح ينظر إلينا من وراء حديد السور.

ـ «هيه.. هل هذا بيت أنور خوجا»؟

ولم يجب الحارس لكنه أومأ بابتسامة، وحاولنا أن نعرف منه إن كان هناك أحد في البيت، أو إلى من آل هذا البيت، لكن دون جدوى.. كان يبتسم صامتا. ورحنا ندور حول البيت بحثا عن المدخل، وإلى يسارنا وجدنا بيت «مهميت شيهو» أو «محمد شيخو» وهو حكاية أخرى من حكايات زمن العزلة. فقد كان رفيقا وصديقا لأنور خوجا. تولى قيادة الجيش ورئاسة الوزراء وكان عضوا دائما في المكتب السياسي للحزب. ولما اختلف «أنور خوجا» مع السوفييت حذر «محمد شيخو» المتعاطفين مع موسكو بعبارة أطلقها في اجتماع للمكتب السياسي للحزب وتم نشرها يقول فيها: «إن من يجرؤ على تشويش وحدتنا لن يكون مصيره إلا رصاصة في الرأس. والمفارقة هي أن «محمد شيخو» نفسه مات برصاصة في رأسه أطلقها عليه أنور خوجا في اجتماع للمكتب السياسي للحزب بعد خلاف بينهما، ولم يعلن عن ذلك في حينه، فدفن شيخو في مقبرة الشهداء، لكن جثمانه سرعان ما أزيل من مقبرة الشهداء واختفى أثره.

يا الله.. ما أغرب ما تدور الدوائر على الطغاة وظلال الطغاة!

لقد وصلنا إلى بوابة بيت أنور خوجا، وكانت هناك امرأتان شابتان أمام الباب الداخلي. بدتا تسقيان الزهور وتتحادثان معا عند درج المدخل. فكرت في أنهما ربما كانتا ابنتي أنور خوجا، وربما كانتا مسئولتين عن البيت بعد وضع يد الدولة عليه. ورحت أناديهما سائلا عمن بقي في البيت؟ فتضحكان. عمن تكونان؟ فتضحكان. عما يضحكهما؟ فتضحكان. وكان ضحكهما يضحكنا، فصنعنا زوبعة من الضحك، لحد التلوي، ولحد اغروراق عيوننا بالدموع من شدة الضحك، عند مدخل بيت أنور خوجا!!

«لولي.. أين لولي»؟

كانت الثامنة تماما.. موعدنا مع السائق الذي يحمل اسم «لولي» لننطلق نحو قمة جبل داجتي المطلة على تيرانا من ارتفاع ١٦١٢ مترا. ثم نهبط لنتجه نحو قمة أخرى في بلدة كروجا أو «كرويا» التي تبعد نحو ٣٥ كيلومترا عن تيرانا. إنه يوم حاشد ضمن

أيام الرحلة الضنينة. ولقد تأخر لولي خمس دقائق قلبت وألَّبت عليه خلالها كل الدنيا. لم يكن أحد من سائقي التاكسي المرابطين أمام الفندق يعرفه. والسبب عرفناه فيما بعد ونحن نصعد نحو القمة التي يتسنمها هوائي التليفزيون ووحدة عسكرية. فلولي مهندس معماري من جيش الشبان الألبان الذين لا يجدون عملا. ذهب إلى اليونان ـ التي يقدر عدد الألبان العاملين بها بقرابة ثلث مليون شاب ـ وادخر من عمله في مهن شتى وعاد بسيارة يعمل عليها سائق تاكسي. لولي هذا اختصار لاسم «لولزيم» الذي يعني «برعم ربيعي». وكان الجبل الذي قطعنا نحو قمته ٢٧ كيلومترا كيانا سامقا يتدثر بخضرة الربيع وزهو غاباته. بينما تيرانا في السفح بلدة تتناثر في حوض ربيعي الخضرة تحف به بحيرات صغيرة ساحرة. واستمر الربيع معنا في الطريق إلى قمة كرويا.. قرى تتناثر بيوتها على التلال الخضر، ودروب تصعد عبر غابات خضراء. وفي قمة كرويا ساحرة الخضرة كانت القلعة التاريخية للبطل الوطني الألباني «سكاندر بيج» أو «إسكندر بيه» وفي رحابها بناء حديث على نمط القلاع القديمة المعماري ذاته، إنه متحف وطني للبطل الألباني التاريخي. لقد كان أحد أبطال البلقان في معارك التحرير ضد الهيمنة التركية العثمانية. ولد عام ١٤٠٥ ميلادية لأحد حكام إحدى مناطق ألبانيا وفي عام ١٤٢٣ جاء العثمانيون وأخذوه مع أشقائه الثلاثة كأسرى. قتل الأتراك إخوته الثلاثة بالسم واعتنق هو الإسلام وحمل اسم «سكاندربيك». وما أن تلقى العثمانيون أولى هزائمهم على يد البلغار عام ١٤٤٣ حتى انشق على الأتراك وكون جيشا من عدة آلاف قادوا مذبحة للأتراك في كل ألبانيا التي صار «إسكندر بيه» زعيما لها باستثناء قبائل الشمال الذين لم يتبعوه. وبرغم هذا الالتباس حول شخصية إسكندر بيه فإن تقديره لدى الألبان عامة ـ مسلمين ومسيحيين ـ يعكس حقد الألبان على الاستعمار التركي العثماني الذي غل أيديهم وأطبق على أعناقهم خمسة قرون كاملة.

دخلنا القلعة تحت الأقواس الحجرية القروسطية، وكان المتحف الذي شيدته برانفيرا ابنة أنور خوجا.. أيضا يحكي بمقتنياته المتواضعة صورا من تاريخ ألبانيا، ويساوي هامة أنور خوجا بإسكندر بيه.. طبعا. ولم يكن هذا كله مما يلفت الانتباه. لقد كان يلفت انتباهي جمال الطبيعة التي أرى صورة بانورامية لها من قمة بلدة كرويا الساحرة. مدى من الجبال والوديان والسفوح الخضر. وسقوف القرميد الأحمر

لحوانيت بازار كرويا وبيوتها بين الخضرة. وتصير الجبال كلما ابتعدت أكثر شفافية وضاربة إلى البنفسجية والزرقة. وزهور الربيع وصبايا كرويا الربيعيات كالزهور يتناثرن على مدارج المكان وعبر دروبه الجبلية وفي مقاهيه النظيفة الصغيرة. جمال به خفر غريب على أوربا. إنه ربيع بكر حقا. والبلدة نفسها كرويا اسمها معناه الربيع. فلماذا وكل هذا الربيع في ألبانيا يغترب عنها أبناؤها في شتات يكاد لا يضاهيه في الدنيا شتات. موجات من الهجرة شبه الجماعية عصفت بالألبان على مر تاريخهم ففي القرنين ١٣ و١٤ خرجت موجات من المهاجرين الألبان إلى الجزر اليونانية حتى قدر عددهم عام ١٨٤٠ بنحو ربع مليون إنسان، وبين عامي ١٤٤٤ و١٤٦٨ ميلادية، وتحت ضغط القهر العثماني، خرجت جموع من الألبان في نزوح كبير نحو إيطاليا واليونان ومازالوا يكونون أقليات لم تنس طابعها الألباني. وفي عام ١٩١٠ خرجت موجات قوامها ٥٠ ألف مهاجر إلى صقلية و٩٠ ألفا إلى الجنوب الإيطالي. ومنذ انهيار الإمبراطورية العثمانية وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية بلغ عدد المهاجرين الألبان في أمريكا نحو ربع مليون إنسان، وهناك عدد أقل في كندا، ولا ننسى أن في القاهرة وحلب ودمشق كانت هناك ـ وربما لا تزال جاليات ألبانية من موجات الهجرة المختلفة. ومن ألبان كوسوفو (من جمهوريات يوغسلافيا السابقة وحاليا ضمن صربيا) خرجت إلى ألمانيا وسويسرا أعداد كبيرة من المهاجرين لا تزال في ازدياد مع تصاعد القمع الصربي للألبان هناك، والذين يقدر عددهم بنحو مليوني نسمة. أما آخر موجات الهجرة المشهورة فهي تلك التي تفجرت مع انهيار النظام الشيوعي والتي خرج فيها عشرات الآلاف على ظهور المراكب القديمة إلى السواحل الإيطالية وغيرها.

إن عدد الألبان المشتتين في كل أنحاء الدنيا يكاد يقارب عددهم داخل ألبانيا. فلماذا هذا الشتات والأرض كما رأيناها خضراء وواعدة؟ ثمة من يردد القول البلقاني الشائع: «إن الجبال تضيِّع أبناءها». كناية عن قسوة بيئة الجبال (وإن كنت لا أرى أشد من قسوة الصحراء بالطبع). لكنها ليست الجبال وحدها هي التي تضيع بنيها، إنها قرون العسف والقهر والعزلة. لكنني أظن أن الظاهرة في تراجع فالأرض الألبانية بديعة والعالم خاصة غربة يزداد كراهية للغرباء.

وجاء اليوم الأخير لنا في ألبانيا سريعا.. ولليوم الأخير، في بلد تحبه، شجن خاص. فما أن تألفه، حتى يتعين عليك الرحيل. وألبانيا بلد صغير قادر على إيقاعك في حبه. بطبيعته العذراء الجميلة، وناسه الذين لم يحاول أحد منهم خداعنا، ولو خدعة صغيرة من خدع السياحة المعتادة. ثمة براءة مدهشة برغم رقة الحال وتاريخ العناء الطويل ومكابدات العزلة وأحزان الشتات. ولم أجد لمغالبة أشجان الرحيل أفضل من التجوال الحر وتكثيف اللقاءات في ذلك اليوم.

التقيت بمجموعة صغيرة من الشبان الألبان في مسجد تيرانا العتيق، أذكر منهم «بلند شيخ» طالب الحقوق بجامعة تيرانا، وعبدالرحمن محمد كوتشي الذي يدرس بجامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية. إنهما يتعلمان اللغة العربية وعلوم القرآن ويعلمانهما لشبان آخرين. ثمة حلم لديهما بمجتمع إسلامي يمتح من الأصول، وثمة نداء يوجهانه إلى العرب والمسلمين بأن يعينوا ألبانيا دينا ودنيا.

وفي وزارة الثقافة كان لقائي مع المسئولين آديم جاكلاري، ومينوزا سوفروني، وهما مسلمان، تكلما عن خصوصية الثقافة الألبانية وعدم الشعور بالدونية تجاه ثقافة الغرب الذي تنفتح عليه ألبانيا دون أن تريد الذوبان فيه. أما في المبنى العتيق الذي تشغله وزارة السياحة فقد رحب بنا آدم يمراج مسئول الدعاية والتسويق الذي أطلعنا على بدء دوران عجلة الدعاية للسياحة الألبانية وأحلام الألبان العريضة في سياحة تمنح ألبانيا الكثير. ولم ينس أن يوجه دعوته للسياح العرب حتى يقصدوا ألبانيا.

وعلى مقربة خطوات من مبنى وزارة السياحة لفت نظرنا مبنى «البنك الإسلامي الألباني العربي» الذي دخلناه والتقينا بمديره أحمد العنتبلي لنعرف مؤشرات المستقبل الاقتصادي لهذا البلد. فليس أفضل من عين الغريب خاصة عندما تكون هذه العين بنكية الرؤية. ولقد أبدى الرجل حماسا شديدا لمستقبل هذا البلد لكننا عندما سألناه عن طبيعة النشاط الاستثماري الغالب في هذه الفترة أجاب بأنه من الطبيعي أن أصحاب رءوس الأموال في بدء نشاطهم يفضلون عدم المغامرة في المشاريع طويلة الأجل (الاستراتيجية) التي تأتي في مرحلة تالية. أما الشيخ «صبري إدريس كوتش» مفتي الديار الألبانية، فقد لخص حديثه بالقول إن ألبانيا أمانة في أعناق كل المسلمين والعرب»

لقد أنهيت اللقاءات، ورحت مع زميلي نستجم قليلا على حافة إحدى الغابات المحيطة بشاطئ بحيرة صغيرة في جنوب «تيرانا» يسمونها «البحيرة الساحرة». وهي ساحرة حقا.. مرآة كبيرة عذبة من الماء الرقراق الهادئ، تنعكس على صفحتها الغابة الخضراء، والجبال البنفسجية، والمقاهي الصغيرة المتناثرة على أطرافها.. ثمة غناء لم أستطع تحديد مصدره، يوناني النغمات، شرقي الشجى، كان يبلغ مسامعنا مع شدو طائر هنا وخفقة ماء إثر جذبة صياد عجوز لخيط (صنارته) هناك.. سكينة وصفاء بالغان تنتعش فيهما الروح.. وأفكر في ألبانيا، فأحس بها كيانا صغيرا بديعا هشا يستأهل الرهافة والرفق.. وأود لو أنادي بهذه الرهافة والرفق في التعامل مع ألبانيا.. وأهمس: «لا تنسوا أن ألبانيا في متن أوربا برغم كل شيء، فلا تتركوا حماس الهوية في غير وقته يحرقها كما أُحرقت البوسنة والهرسك». ثم أهمس: «اذهبوا واستثمروا، هذا طيب، لكن أن تأخذوا أكثر مما تعطوا، فهذا خطر.. أشد الخطورة، خاصة إذا لم يكن الاستثمار يمنح ألبانيا فرصة أخوية وإنسانية لتقليل جيش الشبان العاطلين لديها».

لم أستطع أن أغادر تيرانا دون زيارة للبيت الذي أقام فيه كاتبها العالمي العظيم «إسماعيل كادري» (إسماعيل قدري). إنه أحد أفضل الروائيين الأحياء في عالم اليوم وأحد أهم المستحقين لجائزة نوبل المراوغة.ولد عام ١٩٣٦، وله ١٣ رواية، وأربعة دواوين شعرية، وعشرة كتب دراسات أدبية وتاريخية، ويعيش الآن في باريس التي هرب إليها من قهر أيام تيرانا الذاهبة.

عبرت المدخل الكئيب للبناية ذات النسق «البروليتاري» رقم ٨٥ بشارع «رروجا اديبريس» شمال شرقي الميدان الكبير بتيرانا. صعدت في عتمة النهار إلى الطابق الثالث ولم أدق جرس الشقة التي كان يقيم فيها الكاتب العظيم وتركها لأخته. أمام الباب البني الخشن القاتم توقفت ألهث من عنت الدرج. ثم استدرت أهبط وأنا أعرف بحزن لماذا يعيش كاتب ألبانيا الكبير في الشتات. وما أن تلقفني نور الشارع والتقطت أنفاسا من الهواء المفتوح حتى سطعت في ذاكرتي مشاهد من رواية إسماعيل قدري الجميلة «من أعاد دورانتين؟».

لقد كانت «دورانتين» عروسا شابة تغربت في بلدة بعيدة عن أهلها، ولما تملكها

الحنين للدار والأهل ولم تجد من يعيدها إليهم خرجت في الظلام والتيه تمشي، وبرز لها فارس مجهول، حملها خلفه على الجواد وشق الدروب الجبلية الوعرة والخطرة. وأعادها إلى أهلها وموطنها. ثم اختفى الفارس الذي تبين بعد ذلك أنه كان ميتا منذ زمن سحيق. ويبدو أنه خرج من قبره ليعيدها إلى أهلها ثم يعود.

الرواية كتبها إسماعيل قدري عن أسطورة ألبانية شعبية، ولقد ظلت متشبثة بذاكرتي طوال الطريق إلى المطار للمغادرة حيث الجبال الخضر والقرى الصغيرة والسهول المعشبة والمزهرة والمسجد أو المسجدان الصغيران ناصعا البياض على طول كل هذا المدى الأخضر.

دورانتين في الرواية الأسطورية أعادها فارس قديم خرج من قبره ليؤدي مهمة نبيلة. أما ألبانيا، الآن، فلا أظن أن أحدا سيخرجها من آثار العزلة المريرة، ويعيدها من الشتات الكبير.. إلا فرسان أحياء يدركون أهمية وحساسية، تلك المهمة النبيلة.

ألمانيا (فرانكفورت)
أسلافنا العظام يعودون حقا!

في المنزل رقم ٣٣ ـ شارع بيتهوفن، ناصية وست إنت، بفرانكفورت، ظهروا عابرين القرون والمسافات، تجمعوا بغرفة مليئة بالكتب حول عالم مسلم ألماني الإقامة اسمه فؤاد سيزكن، ثم هبطوا مع العالم ومساعده مازن إلى قبو المنزل، انضمت إليهم مجموعة صغيرة من المهندسين والأسطوات الألمان المهرة، وهناك خلع الأسلاف العظام عمائمهم، وشمروا القفاطين عن سواعدهم، وراحوا ـ فيما كان العالم يقرأ من كتبهم القديمة بصوت مسموع ـ يقودون المهندسين والأسطوات الألمان لإنجاز معجزة، نعم معجزة.

«وست إنت» ضاحية هادئة بادية العراقة تقع في الشمال الغربي من قلب مدينة فرانكفورت معظم شوارعها (بوليفارات) تظلل مماشيها الأشجار، وغالبية بيوتها ذات طراز جرماني معتق، نوافذ وشرفات ذات أقواس، وعليات بأبراج صغيرة متعددة، وأسقف مثلثة معظاة بقرميد أو زنك رمادي، ولون الدهان الفاتح تؤطره ـ عند الزوايا والحواف والأبراج وحدود الشرفات والنوافذ ـ ألوان غامقة دافئة، وكل البيوت على اختلاف ألوانها تتناغم معا، ومع الأشجار، لتجسم لوحة من زمن جميل معتق، وسط أبراج المعدن والزجاج العصرية المتطاولة حتى السحاب، في سماء مدينة ألمانية تطغى شهرتها التجارية والصناعية على حقائق ثقافية عميقة الغور في قلبها.

وإحدى هذه الحقائق عثرنا عليها في المنزل الأبيض المكحول بلون بني دافئ والذي يحمل رقم ٣٢ ولا فتة نحاسية عليها كتابة ألمانية وعربية تقول: «معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية (في إطار جامعة فرانكفروت)».

كانت البوابة الحديدية مغلقة، والهدوء في الشارع سابغ، ولا أصوات تنبعث من الداخل، بينما الستائر البيضاء مسدلة وراء زجاج النوافذ، أين أصوات العاملين والدارسين؟ هل يعقل أن اليوم عطلة؟ لقد أخذنا موعدا من البروفيسور فؤاد سيزكن، وسيستقبلنا مساعده الأستاذ مازن العماوي. ضغطنا زرا فجاءنا عبر سماعة (الإنتركم) صوت نسائي يتحدث الألمانية، قلت بالإنجليزية: «إننا ضيوف من مجلة العربي ولدينا موعد»، وأجابت السيدة بعربية واضحة: «أهلا وسهلا، تفضلوا في الطابق الثاني».

أخذت التكنولوجيا الألمانية تشتغل: البوابة تنفتح ذاتيا وتنغلق وراءنا، وباب البيت يكرر الآلية نفسها، ورحنا نصعد ـ بعد برد نوفمبر الخفيف في الشارع ـ في دفء ناعم، وإذ بعبق الفن الإسلامي في أبهى نظافة وانضباط ألمانيين يحيط بنا من كل جانب: على الأرض بُسُط إيرانية وتركية وأفغانية، وعلى الجدران لوحات من الزليج المغربي، وفي الأركان مشغولات نحاسية من الشام، وخشبيات في صورة مراكب خليجية، ومعشقات (أرابيسك) من مصر، وحوامل للمصاحف من الصندل المحفور، لعلها من الهند أو باكستان، أما أرفف الكتب والمجلدات، فهي تطل علينا من كل القاعات التي نمر بها ونوغل، ويفاجئنا الأستاذ مازن العماوي بالقول إن البروفيسور سيستقبلنا لبضع دقائق، وقد كنت أعرف أنه نادرا ما يستقبل أهل الصحافة، وإن فعل، فلمجرد التحية، لكن دقائقنا معه امتدت إلى نحو ساعتين!

الفكرة / الحلم

قدمنا الأستاذ مازن العماوي لسيدة تبينا أنها الدكتورة أرسولا سيزكن زوجة البروفيسور فؤاد سيزكن، إنها تحمل لقبه، وقد تحملت معه عبء الحلم الذي رواده منذ ثلاثين عاما أو تزيد، تبرعا للمعهد بمكتبتهما الخاصة التي ضمت ستة عشر ألف مجلد، وعندما حصل الرجل على جائزة الملك فيصل، تبرع بها أيضًا للمعهد، أدخلتنا السيدة إلى البروفيسور، وكنت أتهيب لحظة اللقاء، لكنني ما إن رأيته حتى أدركت أنه رجل سيحبنا ونحبه، من واقع مأثرته التي لمحت أطرافها على الفور عبر الخطوات القليلة من المدخل وحتى قلب حجرته مغطاة الجدران بأرفف المجلدات والكتب، ومن واقع ما قرأت وسمعت عنه، وهو

ذاته الذي سمعته منه، بينما كان يتحدث بتؤدة، متحركا بقامته القصيرة الأميل إلى الامتلاء، ومعبرا بملامح شيخ مطمئن أدى رسالته في الحياة بأمانة فاقت كل الحدود.

في أوائل السبعينيات، تبلورت فكرة إنشاء معهد لتاريخ العلوم العربية والإسلامية في قلب أوربا لدى الدكتور فؤاد سيزكن الذي كان آنذاك أستاذا لتاريخ العلوم الطبيعية في جامعة فرانكفورت، ونبعت الفكرة من إيمان الرجل بضرورة تصحيح التصورات الخاطئة السائدة عن تطور العلوم والرغبة في تقديم نموذج ملموس عن العالِم المسلم على مستوى التقدم الحضاري في عالم اليوم.

حمل الرجل الفكرة الحلم على عاتقه وسعى يعرضها ـ بعد أن قدم هو وزوجته الإسهام الأول لتحقيقها ـ على المسئولين والمنظمات والهيئات والإفراد المهتمين من العالم العربي والإسلامي، ولاقت الفكرة تفهما طيبا ودعما من الدول العربية، ومن منظمات ومؤسسات ثقافية وأفراد من أهل الخير إلى أن تكللت الجهود في الحادي عشر من فبراير ١٩٨١ بالنجاح، حيث أقر مجلس المؤسسين الذي شارك فيه العديد من الوزراء والشخصيات المسئولة من العالم العربي الإسلامي، وكذلك رئيس جامعة فرانكفورت، النظام الأساسي لوقف ينهض بإنشاء المعهد ويصون استمراره.

إنها قصة إيمان برسالة في الحياة، ولعل حاملها هو أفضل من يعبر عنها، لهذا نترك البروفيسور فؤاد سيزكن يسترسل، بمضمون كلمته ذاتها التي ألقاها بعد أن بدأ حلمه في التحقق:

«إن معالجة تاريخ العلوم خاصة عند البيئات الثقافية غير الأوربية كفرع علمي هي أمر حديث نسبيا، إلا أن نقطة الضعف فيه لا تتمثل في كونه لم يكتمل بعد ـ فهذا أمر مفهوم بطبيعة الحال ـ وإنما في كونه لم يتشكل خاصة في بداياته نتيجة تعطش للعلم وحب للمعرفة، بل كان نابعا من «أعماق العواطف» وصادرا عن دوافع مختلفة متناقضة أحيانا، إن ما طالب به الأديب الألماني جوته أن «تاريخ العالم ينبغي أن تعاد كتابته بين الحين والحين» ليسري اليوم على تاريخ العلوم بصفة خاصة.

إن القسم المتعلق بالعلوم عند العرب والمسلمين أُهمل أكثر من أي قسم غيره،

ولم يكن البحث فيه خاليا من التحيز، كما أن الصورة غير المكتملة بعد عن إنجازاته، هذه الصورة التي كونها باحثو الدراسات الإسلامية والعربية، بداية من أواخر القرن التاسع عشر على وجه الخصوص، لم تجد طريقها بعد إلى تاريخ العلوم العام، فمن المعروف أن انتشار هذه المعارف الجديدة من خلال المنشورات والكتب المدرسية لا يتأتى إلا مع مرور الزمن.

وهكذا قد يتعجب المرء أحيانا إن قيل إن المسلمين، ومنذ القرن الأول لظهور الإسلام في التاريخ العالمي، أي في القرن السابع الميلادي، بدأوا يأخذون المعارف والعلوم من أفراد البيئات الثقافية الأخرى الذين أصبحوا يعيشون في مجال حكمهم، وبعد الاتصال الشخصي وتأثير العلماء وناقلي الثقافة، بدأت عملية ترجمة الكتب من الإغريقية والسريانية والفارسية الوسطى والسنسكريتية إلى اللغة العربية، ومن الجدير بالملاحظة أن عملية أخذ الفكر والإنجازات الأجنبية كانت تجري دون أي تحفظات دينية.

بعد ٢٠٠ سنة أن انتقلت مرحلة الأخذ والتمثل تدريجيا إلى مرحلة الإبداع، في أثناء هذه المرحلة، تفوق العلماء المسلمون مع زملائهم أبناء الديانات الأخرى ممن كانوا منخرطين في نظام الدولة نفسها، ولكن محتفظين بعقائدهم الدينية، تفوقوا على من سبقهم تفوقا كبيرا، فدون عرض أمثلة مفصلة يمكن القول إنهم وصلوا في كل مجال من المجالات العلمية الموروثة إلى درجة أعلى في العلم والمعرفة.

وعلاوة على ذلك، فقد قاموا بتعريف العلوم تعريفا جديدا، وتصنيف فروعها تصنيفا مبتكرا، كذلك هذبوا ووسعوا المصطلحات العلمية، ووضعوا حجر الأساس لفروع علمية جديدة كعلم الاجتماع وفلسفة التاريخ، وعلم المعاني. من الثابت أيضا أن الفضل يرجع إليهم وفي إدخال استخدام التجربة كوسيلة عمل في العلم استخداما منتظما، وفي إدخال مبدأ التوازن بين النظرية والعمل. لكن هذا التطور دخل مرحلة الركود منذ القرن الخامس عشر الميلادي.

مقاومة النسيان

خلافا للتصور الشائع عن «النهضة الأوربية» على أنها «بعث الحضارة الإغريقية»،

فإن الغرب واصل الاعتناء بتلك العلوم التي لم تعد ومنذ مدة طويلة مقتصرة على ما ورثته من الحضارة القديمة، إن عملية الأخذ هذه تمت بدورها كذلك عن طريق الاتصال الشخصي كما كان الحال في إسبانيا وصقلية، كما تمت بدرجة أكبر بواسطة ترجمة الكتب العربية إلى الإغريقية في القرن التاسع الميلادي في بيزنطة، وإلى اللاتينية بعد ذلك بقليل في صقلية أو في إسبانيا في القرن العاشر الميلادي. ومرحلة الأخذ والتمثل هذه التي وضعت فيها شروح وتجميعات للمؤلفات العربية، وقلدت فيها هذه المؤلفات ـ بل وسرقت ـ استمرت إلى أواخر القرن الخامس عشر، وجرت على شكل موجات عدة، فمنها ما غاص في الرمال دون ثمرة كأعمال بيزنطة، ومنها ما كانت له آثار امتدت من إسبانيا وصقلية إلى إنجلترا وحتى إلى مدينة كراكو (في بولندا اليوم)، غير أنه ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي، بدأت الحركة المعاكسة المسماة بمناهضة العربية والتي أدت أخيرا في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي إلى أن «يطوي النسيان» أسماء العلماء العرب والمسلمين.

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر نشأ علم «الاستعراب» أو الدراسات الإسلامية كفرع من الاستشراق والمقصود بهذا الفرع هو بحث ودراسة العلوم المدونة باللغة العربية، كان رائد هذا المجال ياكوب رايسكه الذي قام بالمحاولة الحميدة «لوضع العالم الإسلامي في مركز تاريخ العالم العام» بحسب تعبير أحد الزملاء، وحظيت الدراسات العربية والإسلامية في زمن الكلاسيكية ثم بشكل أكبر في زمن الرومانسية ـ حظيت بدعم من جهة أخرى: من الفلاسفة وفلاسفة الطبيعة والشعراء، هنا يرد إلى ذهني بطبيعة الحال الشاعر الألماني جوته الذي كثيرا ما تجلى استيعابه العميق للفكر في العالم الإسلامي الذي هو غريب عليه في الواقع وإدراكه للقواسم المشتركة بين المنتسبين إلى هاتين الحضارتين.

منذ عهد رايسكه، سعى العديد من المستعربين، ومن بينهم عدد كبير من العلماء الألمان إلى التعريف بإنجازات العلماء العرب والمسلمين من خلال دراسة المصادر العربية ونشرها، فمن أكبر الإنجازات التي قام بها هؤلاء المستعربون أنهم لفتوا أنظار معاصريهم من المسلمين إلى تراثهم العلمي الثري، ومهدوا لهم الطريق لمواصلة

البحث، وكان من أهم هؤلاء العلماء وأبعدهم أثرًا أستاذي هيلموت ريتر الذي اشتغل لسنوات عدة في جامعة فرانكفورت.

والآن في نفس هذه المدينة، وفي إطار جامعتها أُنشأ معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية الذي سعى ويسعى إلى تحقيق الأهداف التالية:

١ ـ بحث تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ونشر ما يبين مكانة العلماء العرب والمسلمين في تاريخ العلوم، ذلك بتحقيق النصوص وترجمتها إلى اللغات الأوربية وبإصدار مجلة متخصصة عن ذلك.

٢ ـ إعداد باحثين ومدرسين لتاريخ العلوم العربية والإسلامية، ويمكن تسهيل تحقيق هذا الهدف بإعطاء المنح للطلاب المتفوقين.

٣ ـ تكوين مكتبة متخصصة ومجموعة من أفلام المخطوطات العربية.

٤ ـ دعوة أساتذة وباحثين ومختصي مكتبات لممارسة البحث في المعهد والمشاركة في الندوات والحلقات العلمية.

٥ ـ إيصال نتائج البحث الجديدة في مجال تاريخ العلوم التي يتوصل إليها الزملاء الغربيون إلى الزملاء والطلاب في البلدان العربية والإسلامية.

وحيث إن جامعة فرانكفورت لم تكن تملك توفير الوسائل المالية لمثل هذا المشروع، كان من المقرر أن يقوم بأعباء التمويل وقف يؤسس لهذا الغرض، فبالإضافة إلى مبنى مناسب، كان لا بد من توافر مبلغ ٣٠ مليون مارك ألماني ليتمكن المعهد من الإنفاق من الريع بمعدل ٢,٥ مليون مارك في السنة.

ولتنفيذ هذا المشروع، تَبرَّعت دولة الكويت بمبلغ ٦,٥ مليون مارك لشراء هذا المقر الذي نلتقي فيه وتم تهيئته وتجهيزه وتطويره من التبرع الكويتي، كما تبرّعت ١٤ دولة عربية وعدد من المنظمات والمشجعين بثلثي رأس المال المطلوب، إضافة إلى ذلك، فإن المكتبة المتخصصة التي نملكها أنا وزوجتي والمتكونة من ١٦٠٠٠ مجلد وضعت تحت تصرف المعهد، كما دخلت مجموعة أفلامنا الخاصة لنحو ٤٠٠٠ مخطوطة عربية في مِلكية الوقف.

لقد نوقش مشروع النظام الأساسي للوقف في ١٠ / ٢ / ١٩٨١ م في مدينة كورنبيرج مع ممثلي الدول والمنظمات المتبرّعة، وبناء على هذا النظام الأساسي، قام مجلس الجامعة ولجنتها الدائمة لشؤون البحث والتنظيم بالموافقة بتاريخ ٤ / ٦ / ١٩٨١ م على تأسيس المعهد المخطط له في إطار الجامعة. وبموافقة رئيس الحكومة الإقليمية، أصبح النظام الأساسي ساري المفعول، بعد الجلسة التأسيسية لمجلس الأمناء بتاريخ ١٨ / ٥ / ١٩٨٢ م تم افتتاح المعهد، وفي الجلسة نفسها، انتُخب معالي الأستاذ عبدالعزيز حسين وزير الدولة لشؤون مجلس وزراء دولة الكويت رئيسًا للمجلس».

انتهى حديث البروفيسور سيزكن، وقفز الزمان بنا قرابة الثمانية عشر عامًا، فالآن أتم مجلس الأمناء ثمانية عشر اجتماعًا في مقر المعهد بفرانكفورت، وكان الاجتماع الأخير في ٦ / ٧ / ١٩٩٩ برئاسة الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي وزير خارجية الجزائر السابق، ورئيس مجلس أمناء المعهد حاليًا (وكان المرحوم عبدالعزيز حسين الوزير الكويتي السابق أول رئيس لمجلس أمناء المعهد لفترة أربع سنوات ممثلًا لدولة الكويت خلفه بعدها في عضوية مجلس الأمناء الدكتور سليمان العسكري لمدة عشرة أعوام متتالية). لكن اجتماعات هذا المجلس تمثل نمطًا آخر مضادًا لاجتماعات تعوّدناها لا تترك وراءها غير الكلام، فثمة حارس دءوب اسمه فؤاد سيزكن يزن الكلام بمقياس الفعل، وكان التقرير العلمي الذي قدمه لمجلس الأمناء الأخير تعبيرًا أمينًا، بل شديد التواضع وإنكار الذات، في عرض الإنجازات المتحققة، وهي كثيرة ذكرها البروفيسور في تقريره، ونعيد ذكرها، وقد رأيناها متحققة بالفعل، بل بأرقى تجليّات الفعل، وهي:

١ ـ مجلة تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ثلاثة عشر مجلدًا ضمت ما سبق تقديمه من أبحاث كان آخرها بحث الدكتور ماتياس شرام حول منهج حساب المسافات للبحارة العرب في المحيط الهندي، ودراسة حول ابن الهيثم للدكتور عبدالحميد صبرة.

٢ ـ ببلوغرافيا لكل ما كتب ونُشر عن العلوم العربية والإسلامية والمجتمع العربي الإسلامي باللغة الألمانية، وهو مشروع بدأ منذ ١٢ سنة، وتوافر في ٢١ مجلدًا حتى الآن، وهي قابلة للزيادة.

٣ ـ مشروع نشر المخطوطات العربية المهمة بالطباعة التصويرية، وهو مشروع جبّار يبتعث فرائد المخطوطات برونقها القديم ذاته، حتى ألوان الزخارف التي تزّين الهوامش والزوايا، وكان آخر الفرائد التي أعيد نشرها ضمن هذا المشروع كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، في الجغرافيا البشرية، للمقدسي، من النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وعنه يقول مكتشف المخطوط آلويس شبرنجر: «إنه ـ أي المقدسي ـ أكبر جغرافي عرفته البشرية إطلاقًا».

فهل نعرفه نحن العرب والمسلمين؟!

٤ ـ مشروع نشر وجمع دراسات المستشرقين، وقد أُنجز عبرها ٢٧٨ مجلدًا في مضمار «الجغرافية الإسلامية» الذي يشتغل عليها البروفيسور سيزكن منذ ١٥ عامًا، وألحق بها ٨٩ مجلدًا عن مؤلفات الرحّالة الأوروبين للعالم الإسلامي، وتتوالى الإنجازات: ٩٩ مجلدًا في «الطب الإسلامي»، و١٠٠ مجلد في الرياضيات والفلك الإسلاميين، و٤ مجلدات في «علم الموسيقى ـ في البلاد الإسلامية»، و٤١ مجلدًا في الفلسفة الإسلامية، ولايزال العمل مستمرًا.

٥ ـ مشروع تأسيس متحف في إطار المعهد يعيد تصنيع نماذج للآلات العربية والإسلامية التي ابتكرها واستخدمها العلماء المسلمون.

وهنا لابد من وقفة.

نحن أولاد أصل

لم أشعر بالاعتزاز بجذوري العرقية والدينية مثلما شعرت بها مرتين: أولاهما كعربي وأنا أواجه آثار الحضارة العربية الراقية والمضيئة في تدمر بسوريا، وثانيتهما كمسلم وأنا أمضي مذهولًا أمام نماذج الأدوات التي ابتكرها واستعملها العلماء المسلمون في زمنهم البعيد الزاهر، إنجاز يصعب تفسيره إلاّ بأنه معجزة قاد تحققها منشئ معهد العلوم العربية والإسلامية بفرانفكورت فؤاد سيزكن، ومن اجتمعوا حوله، كأنه استدعى

هؤلاء العلماء المسلمين عبر كتبهم التي صانها بالنشر والفهم، جعلهم يعبرون حاجز الزمان ليشرحوا للمهندسين الألمان كيف تتكون آلاتهم وكيف تعمل.

معجزات تقنية حتى بمقاييس عالم اليوم الذي يباهي بقفزاته التقنية العالية، وعلى سبيل المثال ـ مجرد المثال ـ الآلة التي اخترعها الفلكي أبو محمود الخجندي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري تحت اسم «الآلة الشاملة»، وهي شاملة حقًا إذ تجمع بين عمل الأسطرلاب والكرة السماوية، وبها أثبت قناعته التي كان أول من تنبأ بها، وهي أن ميل محور الأرض يقل باستمرار، وهذا مما توصل إليه العلم الحديث أخيرًا باستعمال تقنيات الفيزياء الفلكية، الإلكترونية، ومسابر وتلسكوبات رحلات الفضاء!

في القبو المذهل بنظافته وأناقته وديكوراته الرائعة، من ذخائر الفن الإسلامي المنتقاة بذوق رفيع، قادنا مساعد البروفيسور سيزكن، الأستاذ مازن العماوي، فرحنا نرى عجبًا: آلة للجزري ترفع الماء بالقوى الهيدروليكية حتى ٢٠ ذراعًا، وآلة ابن الهيثم لتحقيق خط الزوال، وآلة ابن سينا لرصد الأجرام السماوية، واستخراج ارتفاعاتها وأبعادها، وجهاز لقياس كمية الدم المفصود اخترعه الجزري في القرن الهجري السادس، رأينا ساعات تعمل بالماء، وأخرى تعمل بالشموع، وألعابا ميكانيكية ملهمة ومتقنة، رأينا نماذج لإبداعات المعماري البارع سنان، وأيقنا أن البيانو الغربي هو سليل آلة موسيقية استعملت في الشرق المسلم، رأينا مدرّعات بكرا، ومنجنيقات دقيقة التصويب دقة صواريخ اليوم الموجهة بالكمبيوتر وشعاع الليزر.

آلات يرجع تاريخها إلى ما وراء خمسة قرون، وما يقارب ألف سنة في بعض الأحيان، وكلها تتميز ـ كما قال مازن العماوي وهو يقودنا عبر ردهات عجائبها ـ بثلاث صفات: (١) الدقة (٢) سهولة الاستخدام (٣) الجمال.

لقد شعرت بالعزّة لانتمائي لهذه الحضارة الإسلامية، وإن أفلت، شعرت بأننا ـ المسلمين عمومًا والعرب خصوصًا ـ أبناء أصل برغم ما نحن فيه من انحدار وهوان، وهذا شعور ثمين ثمين، يعيننا إن تمثّلناه على القيام من كبوتنا، بل انكفائنا الذي طال وأثقل.

نداء أخير

قبل أن ننصرف، عدنا لنودّع البروفيسور فؤاد سيزكن، وكانت ملامحنا موسومة بعلامات الدهشة والانبهار، لكن الرجل الكبير في تواضعه، أخذ يحمّل نفسه بعض اللوم لأنه لم يتنبه للبُعد الإعلامي أو الاتصالي للتعريف بنشاط المعهد، فقد أخذه العمل الكثير الذي كان عليه أن ينجزه، ولم يترك له وقتًا ولا جهدًا للسفر والاتصال بوسائل الإعلام، وقال كلمة أظن أنني سأظل أرددها كشعار حياة فيما تبقى من عمري: «الفكرة في حاجة إلى التأمل حتى تنضج، والتأمل في حاجة للوقت، والطائرات تضيّع الوقت»!

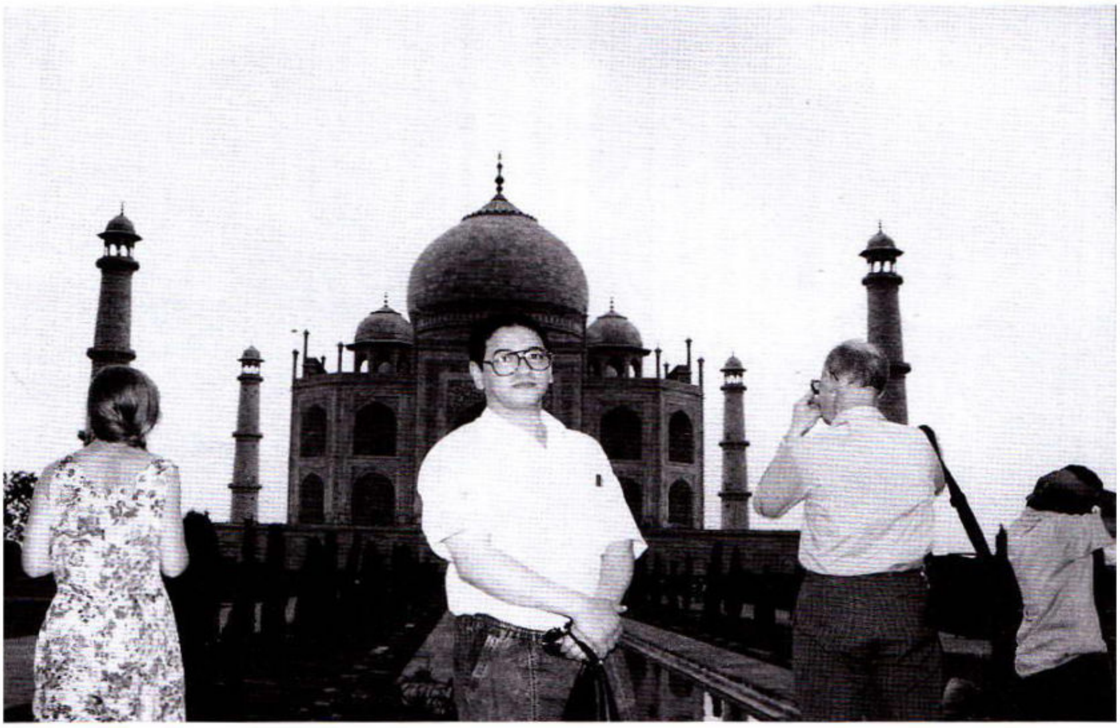
نعم أيها الرجل الكبير الأمين، فما كان لك أن تنجز كل هذا وأنت تتقافز تحت الأضواء ومن أجل الأضواء هنا وهناك، لقد اخترت الجوهر فاعتكفت وأحسنت عملك الجليل، والله يحب مَن أحسن عمله، وبقي على كل مَن يهمّه الأمر أن يحسن عمله تجاه صنيعك الجميل، وإنني أضع بين يديك ما أجيده: أن أساهم بأي جهد تحريري في إنجاز دليل هذا المتحف الزاخر، ودون مقابل، إذا طلبت.

ونداء أوجهّه لفضائياتنا العربية: كيف تهملون هذه المأثرة التي تبعث في عروقنا بكثير من الثقة وسط كل هذا الإحباط العربي والإسلامي المتشعب الغائر في أيامنا هذه.

وإلى كل المسئولين عن الجوائز الثقافية العربية التي لم ينلها هذا المعهد ومنشؤه: إنها جريمة أن تفوتكم فرصة تكريم هذا الرجل المخلص وعمله الكبير، الجميل، المتقن.

ملحق الصور

الصور الملتقطة تمت في الفترة من ١٩٩٣ : ٢٠٠١م
وهي فترة قيام الكاتب بهذه الاستطلاعات



أجرا ـ الهند ـ تاج محل



التبت ـ بودا ستوبا



الهند ـ على ظهر فيل لصعود قلعة آمر



دلهي ـ صرح بهايا



باكستان ـ كراتشي



بكين ـ فندق بكين



بولندا ـ جدانسك



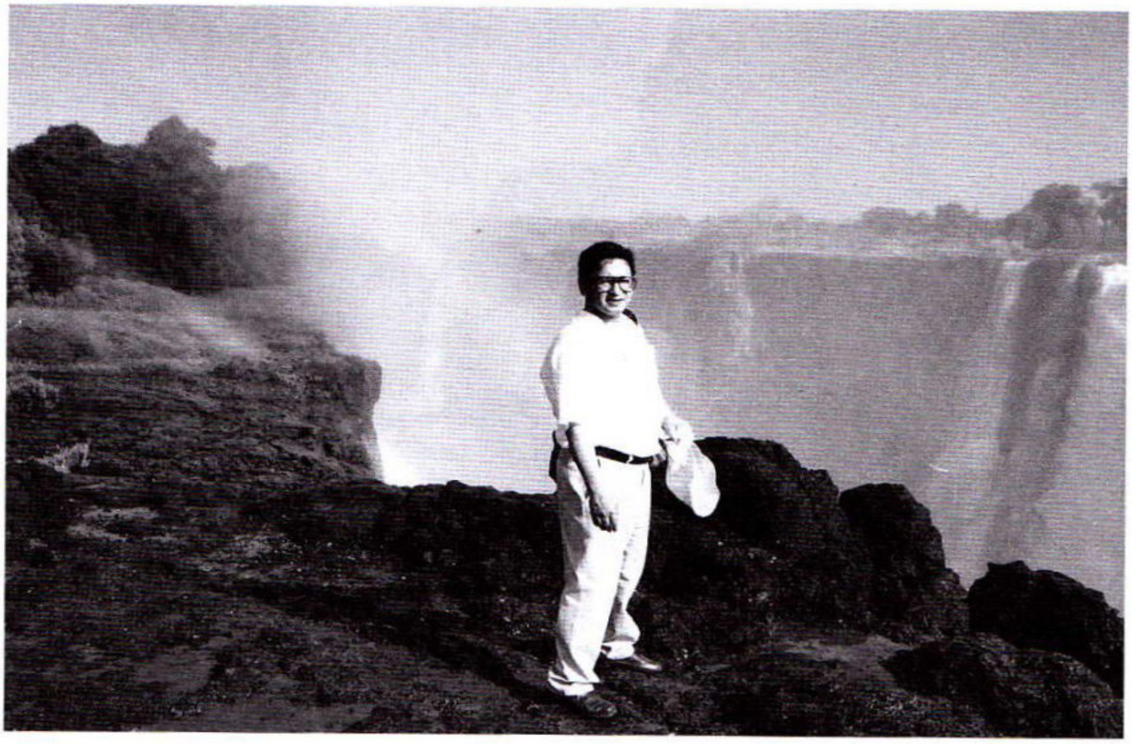
المغرب ـ مراكش



تركيا ـ بودروم



جنوب إفريقيا ـ الجسر إلى سويتو



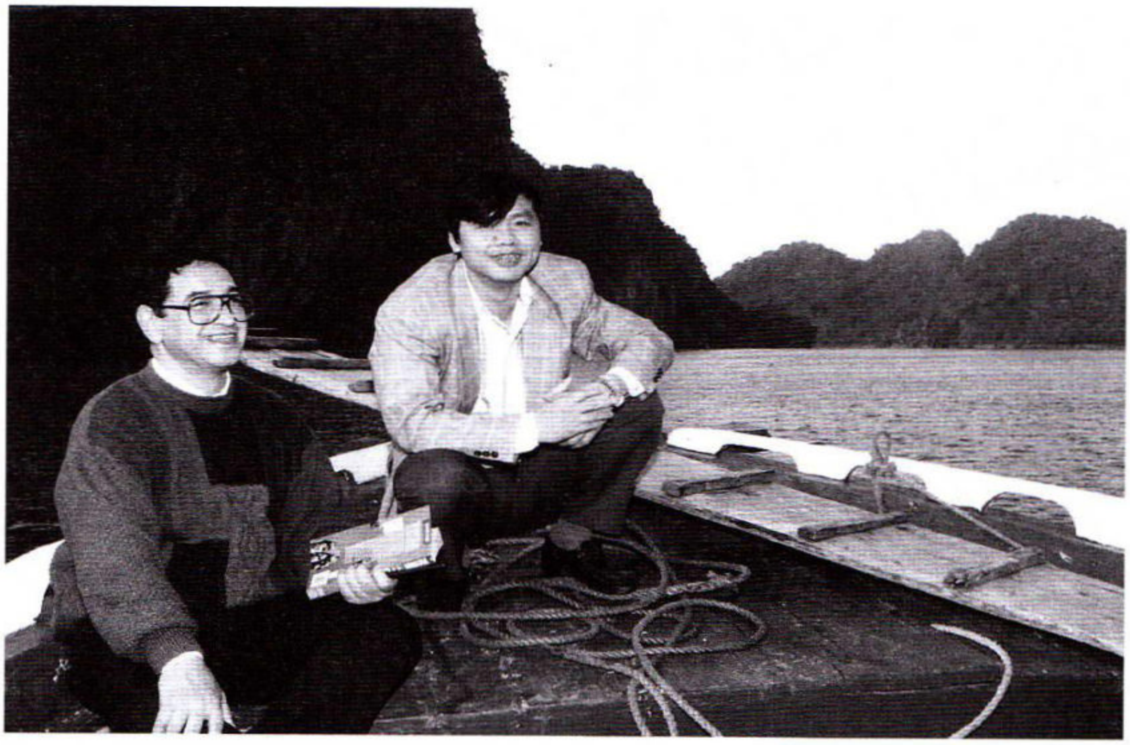
زيمبابوي ـ شلالات فيكتوريا



فيتنام ـ هانوي



على سور الصين العظيم



فيتنام ـ لوانج برابانج



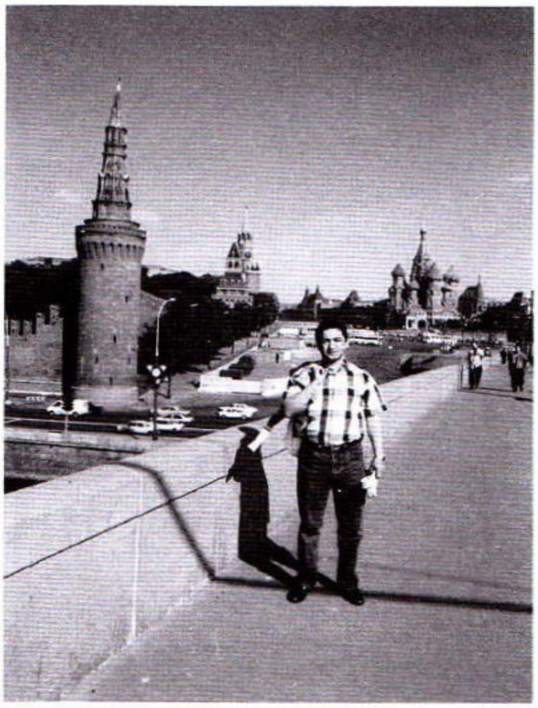
كيب تاون ـ رأس الرجاء الصالح



لاوس ـ على نهر الميكونج



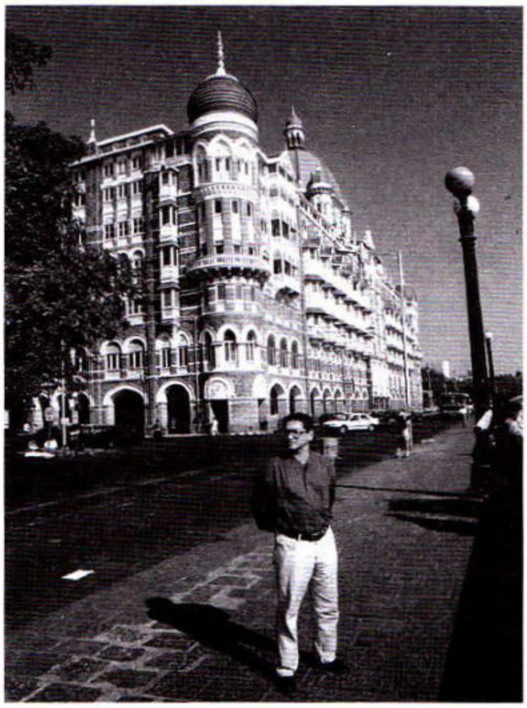
مومباي ـ بوابة الهند ـ فندق تاج محل



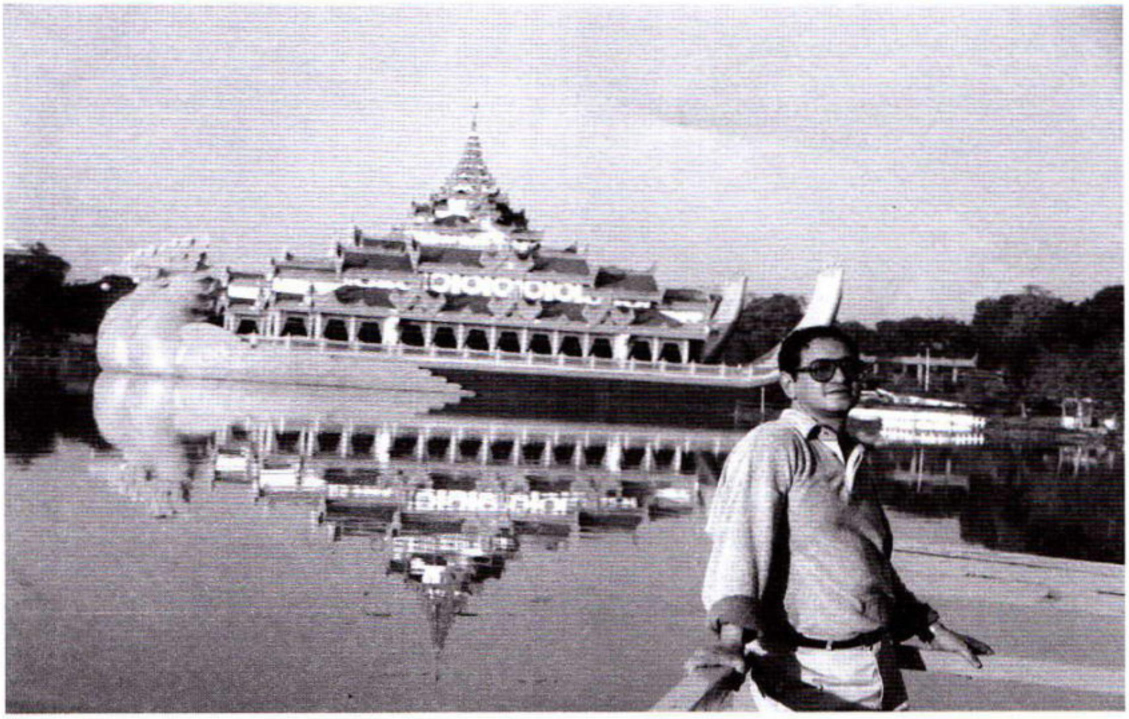
موسكو ـ الميدان الأحمر



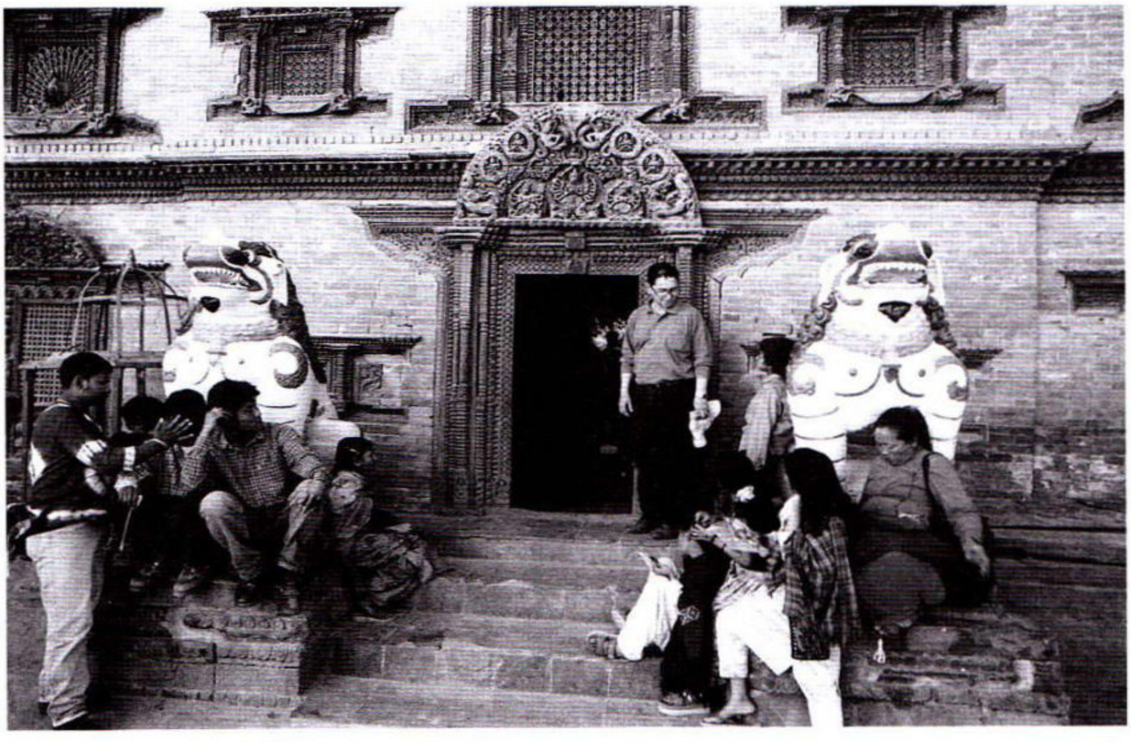
لاوس ـ لوانج برابانج



مومباي ـ الهند ـ فندق تاج محل



ميانمار (بورما) ـ يانجون



نيبال ـ كتماندو ـ بيت كومارا ديفي



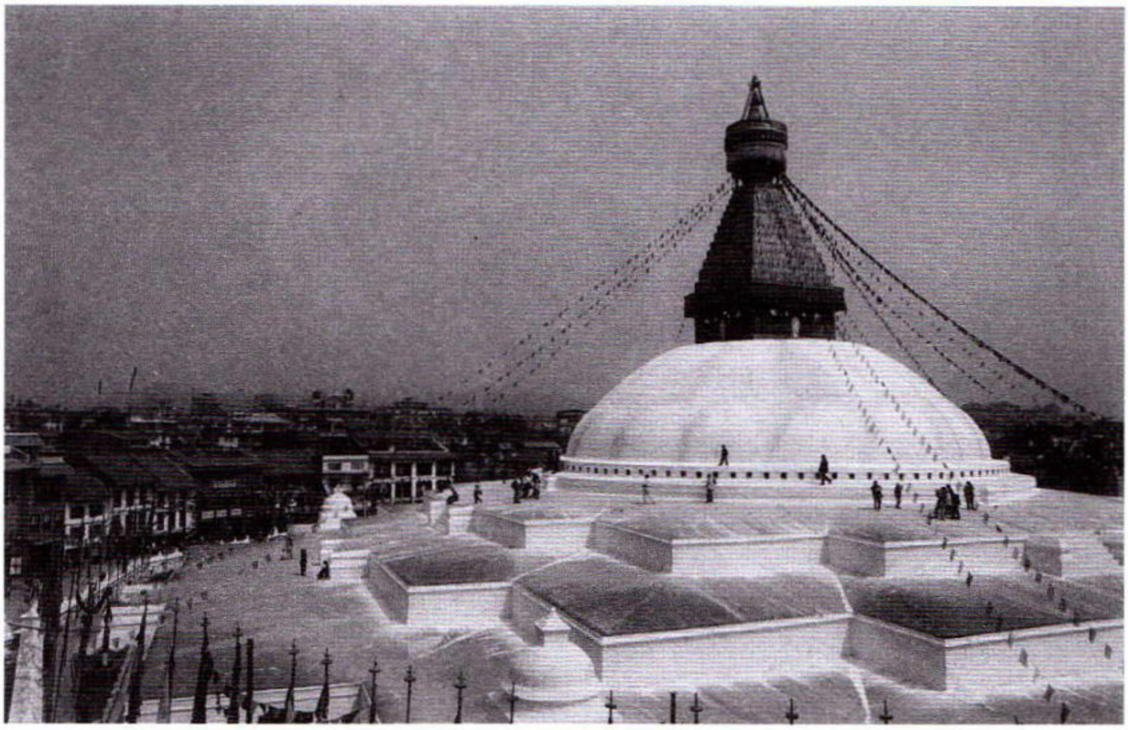
في التبت



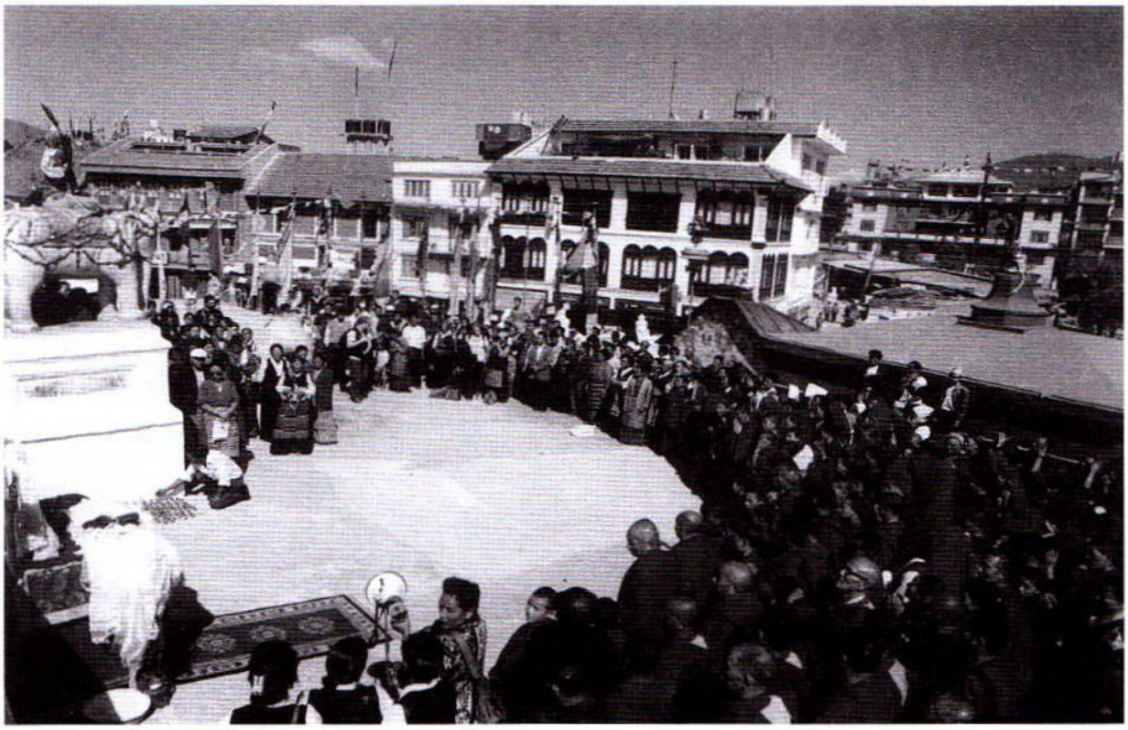
أمهات صغيرات لأشقائهن ـ لاوس



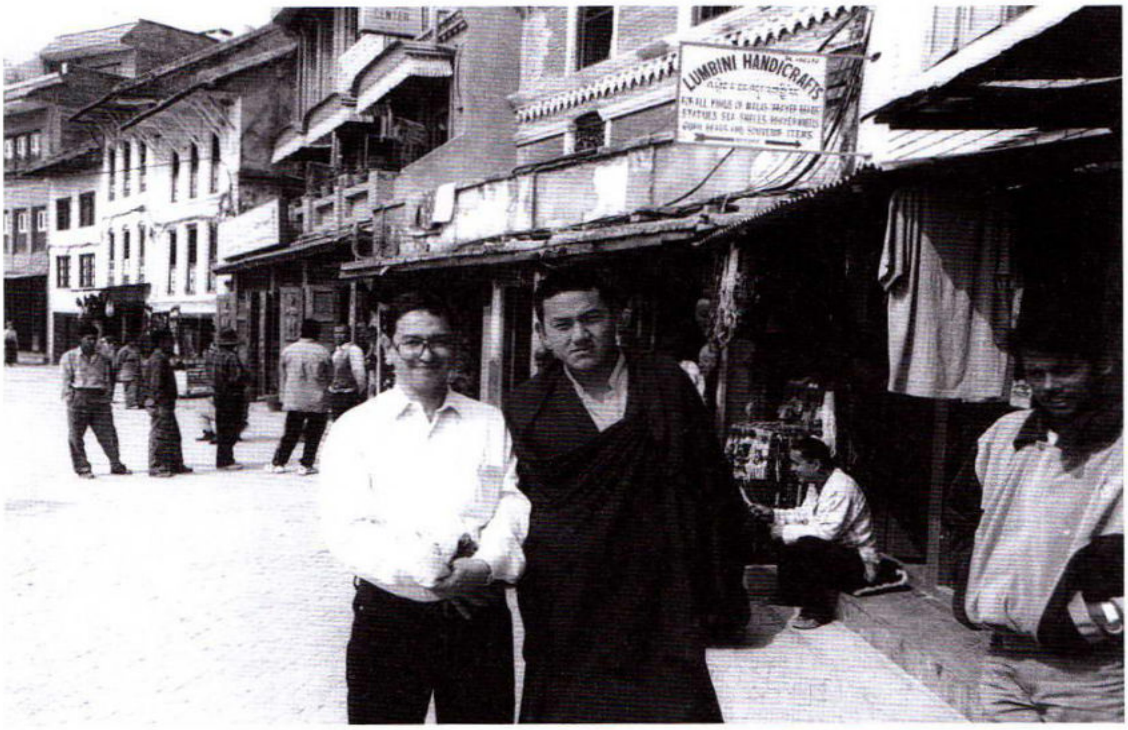
زي بورمي، وواقٍ طبيعي للبشرة ـ ميانمار



قبة أحد معابد أتباع الدلاي لاما في التبت



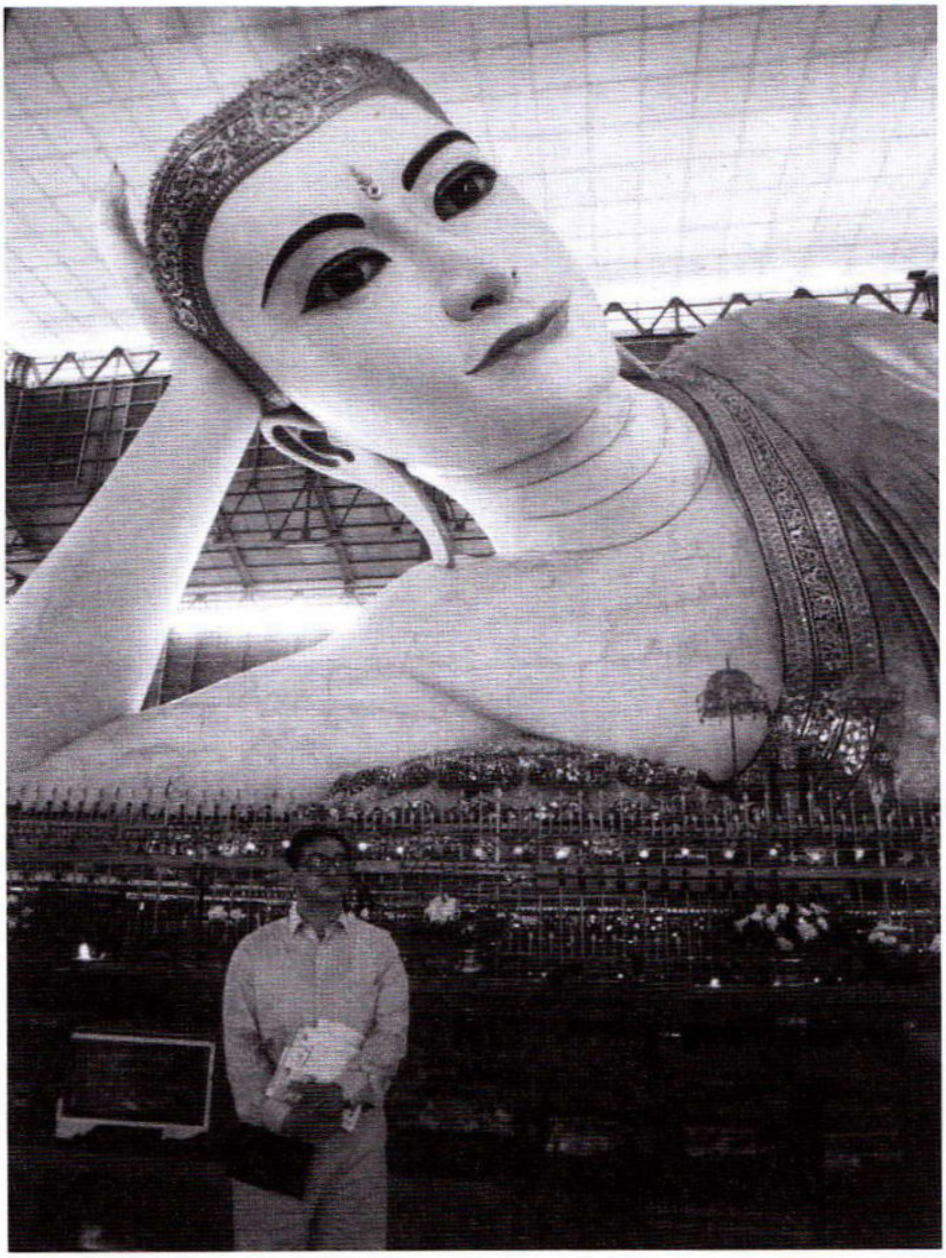
ابتهالات بوذية تيبتية سياسية من أتباع الدالاي في كتماندو



في بودا بستوبا ـ التبت



كمبوديا ـ وطن معوقي حرب الغير



ميانمار (بورما)
وأضخم تماثيل بوذا في العالم



بكين - في ميدان السلام السماوي (تيان آن مين)



جنوبًا و شرقًا

في هـذا الكتاب الفريد يحملنا محمد المخزنجي بلغة الأديب وفضول الصحفي إلى بـلاد بعيـدة تتـوزع بعـرض الخريطـة العالميـة، في مجموعـة مـن الرحلات الاستطلاعية الصحفية التي اعتبرت وقت نشرها طفرة في عالم الصحافة العربية. يستطلع المخزنجي في هذا الكتاب بلادًا صغيرة وكبيرة، يتتبع أحوال ناسها، وكيف أثـرت فيهم عوامل التاريخ والجغرافيـا، فأنجز كل منهم ثقافة مختلفة عن الآخر، وتقدم شـكلًا من أشكال تآخي بني البشر مع أقرانهم ومع الطبيعة من حولهم. وبقدر ما يبحث عن العوامل السياسـية التي تشكل تحديات أمام هذه الشعوب في اللحظة التي أقام فيها الرحلة، يكشف عن مقاومة العنصرية في جنوب إفريقيا، والدخان المتصاعد من تحت ركام البوسنة بعد الحرب. غير أن الأمر الأكثر جاذبية هو الرؤية الكبرى التي خرج بها المخزنجي من رحلاته كلها فجعلته يعطي لكتابه عنوان «جنوبًا وشرقًا» في ولع واضح بالجنوب والشرق يفسره المؤلف بقوله: «فثمة فلسـفة روحية، رؤية خلابة ورحيمة في ناس وبلدان ناس الجنوب والشرق، وقد فتحتُ عيون بصيرتي بقدر المتاح والمسـتطاع لالتقاط هذه الرؤى، وتأمُّلها في مرآة روحـي، فكانت رؤى معكوسـة لعلها أهم ما يميز هذه الاسـتطلاعات من وجهة النظر التقنية في نصوص الرحلة أو كتابة الرحلة، لهذا كانت رحلات ورؤى، آمل أن تكون ممتعة ونافعة لمن يتواصل معها».

محمـد المخزنجي تعلَّم في المنصورة ودرس الطب في جامعتها وتخصص في الطب النفسـي بأوكرانيـا، وبعد اثني عشـر عامًا هجـر العمل الطبـي وتفرغ للعمل الصحفي، وهو الآن مستشار تحرير مجلة العربي في القاهرة، وله مقالة أسبوعية في جريـدة الشـروق منذ صدورها في عـام ٢٠٠٩. صدرت للمخزنجي سـبعة كتب قصصية، ورواية، وريبورتاج قصصي عن كارثة تشيرنوبل، وكتابان في الأدب البيئي للأطفال، وكتاب إلكتروني في أدب الرحلات. حاز جائزة ساويرس لكبار الكتاب في القصة عام ٢٠٠٥.

6 221102 027816

دار الشروق
www.shorouk.com

www.ibtesama.com